القرآن الكريم

مُعجزة ومنهاج

تأليف

الشيخ محمد متولي شعراوي

1

دار الندوة الجديدة

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد كله لله رب العالمين ، على ما حبانا من نعمة الاسلام والعقل وكل الصلاة دعاء ، ورحمة ، على سيدنا الأعظم منارة الحق وقبس النور محمد ﷺ الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

أخي القارىء :

منذ بدأ عصر التنوير في أوروبة ، أخذت قوى الشر المتربصة بالمسلمين ، تبتكر بأساليبها وبحبائلها التي تدخل بها على الاسلام نفسه فبدأت الدراسات والبحوث التي تطبخ في مغاور اليهودية تظهر بين المسلمين وعن المسلمين والاسلام تحمل في ظاهر الرسم ، تتناول جميع مناحي حياة المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى الفكرية منها وبلغ التصدع أوجه في حياة المسلمين خلال مطلع هذا القرن عندما توحدت مصادر القرار السياسي في العالم مع قوى الشر اليهودية هذه والقابعة تحت الأرض منذ عام ٩٢ ميلادية

وكان السؤال دائماً يطرح : كيف يكون الخلاص ؟ وما هو السبيل السليم للرد على كل هذا ؟

وتعددت الاجابة بتعدد المصلحين في العالم الاسلامي ، في الهند وفي مصر وفي بلاد الشام والمغرب العربي ، وبرزت أسماء مصلحين عظام اجتهدوا في الجواب وعمل كل على شاكلته كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والمودودي والندوي وحسن البنا وبن باديس ومالك بن نبي ومحمد البهي وكثيرين غيرهم .

فمنهم من رأى الاصلاح عن طريق الاستفادة من الحضارة الغربية حصيلة عصر التنوير ، ومنهم من اتبع النهج التنظيمي المحدود ووصل بعضهم أحياناً الى الثورة وكان المنهج الأوضح لدى هؤلاء هو الاصلاح بالاسلام نفسه ، وبالوهج القرآني الذي أنزله الله وجعل فيه شفاء للناس .

وفضيلة الشيخ محمد متولي شعراوي ، الذي أصبح ظاهرة تطبق شهرته الافاق هو رجل ومنهج ونركز على كلمة منهج حتى لا تطغى لدينا « حدود الرجل » على « مقومات المنهج » لان المسلمين اليوم أصبحوا يميلون ـ بحكم السقوط الذي يعانون ـ للوقوف عند حدود الشكل دون التغلغل الى عمق الموقف ، وعند آلية الحركة دون الوصول الى كنه التغيير والشيخ الشعراوي بما سمعناه وقرأنا له هو داعية مخلص الى ربه ميزه الله بجاذبية منهجية علمية توائم بين الشرع والعقل ، فهو يستخدم كل موضوعات علم المنطق في إثبات حقائق الدين ، انه منهج متميز يستحق من أهل الفكر والنظر أن يرصدوه ويمعنوا فيه ليصار إلى تبويبه وتعميمه فهو أمام منهج اصلاحي اسلامي يقوم في نظرنا على دعامتين .

الدعامة الأولى : يعتمد الاسلام نفسه وسيلة الاصلاح لما لحق بالمسلمين من تردي وخاصة في مجال الاعتقاد والفكر ، ويترجم أوضح ترجمة وأكثرها تقبلاً من القلوب والعقول للشعار الذي ما فتىء المسلمون يرفعونه منذ مئات السنين وهو « العودة الى القرآن » .

الدعامة الثانية : العصرنة التي يتميز بها منهجه في تفسير كل آية بل كل كلمة بل كل حرف من القرآن الكريم وهي أسلم منهجياً من شعار الاستفادة من الحضارة الغربية أساساً كالذي رفعه محمد عبده مثلاً ، لأن العصرنة هي نتيجة علمية غير موسومة بمنهج غربي أو شرقي ، لأن النتائج العلمية اليقينية هي ملك الانسان بجوهره العاقل المفكر ، وهي نتاج تعاقب حضارات متلاحقة ومتعاونة لا يستطيع الغرب الادعاء بأنه صاحب الفضل الأوحد عليها .

ودار الندوة الجديدة في بيروت ، اذ تشرف بأن تقدم للقراء هذه المجلدات الثلاث بعنوان «القرآن الكريم معجزة ومنهج» فهي انما تنفذ عهداً قطعته على نفسها بأن ترفد القراء في العالمين العربي والاسلامي بالدراسات الرصينة والمختارات الهادفة

وإعادة احياء التراث الفكري والفقهي الذي يحمل بذوراً مختمرة وآن توليدها وانماؤ ها لتأخذ مكانها في بنية الفكر المنهجي الاسلامي الاصلاحي في الربع الأخير من القرن العشرين هذا الذي نعيش خواطره ومخاطره .

والمولى نسأل أن يأخذ بيدنا الى ما فيه خيرنا ورضاه سبحانه وأن يجعل عملنا خالصاً لعزة الاسلام ونصرة المسلمين ، وأن يهدي بنا الى سواء السبيل .

دار الندوة الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

أسرار بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا علم لأحد الا ما علمت وصلى الله على سيدنا محمد اذن الخير التي استمعت واستقبلت آخر ارسال السماء لهدى الأرض ولسان الصدق الذي بلغ عن الحق مراده من الخلق . . . وبعد .

نحن نجد أن القرآن طلب من أي مؤمن حين يقرأ الآية وقبل أن يفسرها ان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فيكون ذلك هو أول التقائه مع القرآن الكريم . .

﴿ **فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ . (النحل ٩٨)

ومن المفهوم أن الاستعاذة تكون قبل ان تقرأ القرآن ، لكن اذا قرأت القرآن فكيف تستعيذ بعد أن تقرأ ؟! .

اذن فمعنى « **اذا قرأت القرآن فاستعذ** » انك اذا أردت واتجهت نيتك الى ان تقرأ القرآن فقدم لذلك بأن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

عداوة مسبقة :

لماذا نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ؟ . .

ان معوقات المنهج عند الانسان المؤمن انما هي من عمل الشيطان ، والشيطان له عداوة مسبقة مع الانسان المتمثل في آدم . . . فابليس هو الذي استكبر وقال لربه : خلقتني من نار وخلقت آدم من طين . . أنا خير منه .

﴿ **الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾ . (الاسراء ٦١)

وكل ذلك يدل على أن العداوة مسبقة ، واذا كان الشيطان ممثلا في ابليس قد

عصى الله بهذه الصورة ، فان الحق سبحانه وتعالى اعلن طرده من رحمته وسماه رجيما مبعدا . . . لماذا !؟ . . .

لأنه لو لم يكن رجيماً ومبعدا ربما قلنا هو مكلف عاص وهو عرضة أن يقبل الله التوبة منه ويغفر له ويصبح مغفوراً له ، فاذا ما صار مغفوراً له حسن ظننا به . . . ويريد الحق أن يقطع حسن الظن بوسوسة الشيطان . . لأنه ليس عاصيا فقط وانما هو عاص حكم الله عليه بأنه مطرود من الرحمة ، وهو عاص أخذ على عاتقه « لاغوينهم اجمعين » . .

ولكن . . انظروا الى المنهج الأغوائي عند ابليس قال : « **فبعزتك لأغوينهم أجمعين** » .

انظروا كيف جلال القسم حتى من أبليس ، لم يجد ابدا منفذا الى الخلق الا بعزة خالقهم ، ولو ان الخالق ارادهم جميعا مهديين لما استطاع الشيطان أن يتقدم باتجاهه . . ولذلك استثنى وقال : « **الا عبادك منهم المخلصين** » فالذي يريده الله ويصطفيه لا يكون للشيطان سلطان عليه . . . فابليس هنا قد استدرك في شأن تعميم تأثيره . . .

قال تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين** ﴾ .
(ص ٨٢ ، ٨٣)

هنا كلمة بعزتك يعني خلقك اي لو أردتهم يا ربي مهديين ما استطعت أن أغوي ـ أنا أبليس ـ واحدا ، ولكنك تركت أمر الهداية للاختيار ، فالذي تريد أن تستخلفه لا دخل لي به . . .

هذا اول صدق من ابليس لأن « **بعزتك** » تدل على انه عرف كيف يقسم ، ثم قال ان طرق اغوائهم ستنحصر فيما يأتي :

ـ أنا لا أقعد لهم على طريق الشر لأن مسالك طريق الشر غير محتاج اليَّ فنفسه تكفيه . . . أنا لا أذهب الى الخمارة ولا الى بيت الدعارة ولا الى الأماكن المماثلة . . .

ـ أنا لا أذهب الا الى مهابط الطاعة ، فهؤلاء هم الذين أغويهم أنا فيها ، يقول تعالى :

﴿ **قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم**

ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾
(الأعراف ١٦ ، ١٧)

اذن قال ابليس : « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** » ولم يقل سأقعد على الطريق المعوج ، لأن الطريق المعوج سالكه لا يحتاج الى الشيطان لأنه شيطان . . . ثم شرح الصراط المستقيم وكيف أنه سيأتيهم من الجهات الآتية :

١ - « **ثم لآتينهم من بين أيديهم** » أي من أمامهم

٢ - « **ومن خلفهم** » وتلك هي الجهة الثانية .

٣ - « **وعن ايمانهم** » وتلك هي الجهة الثالثة .

٤ - « **وعن شمائلهم** » وتلك هي الجهة الرابعة .

ولكن الجهات كما هو معروف ست جهات . . فأين الفوق وأين التحت . . . ولماذا لم يذكرهما ؟ . .

لأنه يعلم جيدا كعهدنا بعلمه ان من تمثل الفوقية الالهية والتحتية العبودية لا يتأتى له الشيطان أبدا . . . لأنه يعيش في مستوى علو الهي فوقي وحضيص عبودي تحتي . . . اذن لا يأتي ابليس من هاتين الجهتين أبدا . . . وانما يأتي من أي من الجهات الأخرى . . من الأمام ومن الخلف ومن اليمين ومن اليسار .

أمـة فوقيـة :

والعجيب انك ان نظرت الى ما في داخل تيارات الالحاد في كل عصر تجدها من هذه الجهات . . . فيقولون هذا تقدمي وهذا رجعي وذاك يساري ، ونحن نقول لهم اننا لسنا في واحدة من هؤلاء . .

لسنا تقدميين نثب الى التحلل . .

ولسنا رجعيين نصير الى ما وجدنا عليه آباءنا . . .

ولسنا يمينيين على عرف العصر . . .

ولسنا يساريين على عرف العصر . .

وانما نحن أمة محمدية فوقية . . أي كل أمورنا تأتي من فوق ،ولذلك لكي تطمئن الى أن كل أمورك قادمة من فوق . . فانك اذا خضعت لحكم الله فهذا يعني انك غير خاضع لمساويك .

اذن لا ذلة . . طالمّا أنك خاضع لأعلى منك ، وهو خاضع للذي أنت خاضع له . . .

الأمة الأميــة لمــاذا ؟

ان حقيقة الفوقية هي التي جعلت الله يختار الأمة الأمية ليجعل فيها آخر صلة السماء بالأرض ، ويختار من الأمة الأمية ايضا رسولا أميا . . فما معنى أمي ؟ . .

أمي . . اي كما ولدته أمه ، أي لم يأخذ ثقافته من مساويه ، فلم يتلق ثقافته على الشرق ، ولا على الغرب ولا قرأ لفلان أو علان ، فحصيلته الثقافية غير منسوبة لأحد..

هو أمي فيكون كل ما يأتي به معجزا . . لأن مصدره من فوق . .

اذن فالأمية شرف فيه ، وان كانت مهانة لأمثالنا . . ولو كانت الأمة التي نزل فيها القرآن أمة متحضرة كفارس أو الروم لقيل عنه انه ارتقاءات حضارية وهبات عقلية واصلاحات قام بها الناس ليقودوا حركة الحياة .

انها أمة أمية بعيدة عن كل هذه التيارات . . اذن الأمية في هذه الأمة تؤكد أمراً . . انها تؤكد الصلة بالسماء . .

ومحمد عليه الصلاة والسلام هو الآخر أمي . . لكن . . اذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرمه بالأمية من معطيات عقول البشر فقد وصله بالعلوية التي تعلم البشر . . وهذا يطمئننا الى الهية مصدر القرآن . . لأنه اذا جاء بشر بقضية ربما يأتي غيره فيتفوق عليه بقضية أخرى . . وهكذا شأن الارتقاءات الوثنية للعقل . . هذا يخترع شيئا ثم يأتي آخر ليزيد أو يضيف شيئا جديداً . . . أما رسالة محمد فليس أصلها من بشر . . لأنه أمي . .

اذن . . اذا قيل ما سر الانتفاضة الكبيرة لهذه الأمة الأمية وكيف نثرت اصلاحاتها وجعلت العالم مقودا لها . . ؟ فالاجابة تتمثل في صلة هذه الأمة بالسماء .

اصرار الشيطان :

قال الشيطان : « **لأغوينهم أجمعين** » .

وقال ايضا : « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من** . . » .

اذن هو مصر على أن يغويهم . . فلماذا يكون هو العاصي الوحيد . . وما دام قد عصى وحدث له ما حدث فليكن الكل عاصيا مثله . . هكذا يمني الشيطان نفسه .

فرق بين معصيتين :

نحن أمام معصيتين . . معصية آدم . . ومعصية الشيطان . .

كلاهما عصى ، ولكن الفرق كبير بينهما . .

فهناك فرق بين معصية في القمة ترد الأمر على الآمر فتعارضه في أمره له بالسجود وتعترض على من يسجد له ، وبين معصية أخرى تقول ان الأمر صحيح وان التكليف حق ولكنني ضعيف النفس لم أستطع أن أحمل نفسي على المنهج . . وهذا اللون الثاني من المعصية هو معصية من دون القمة يفتح فيها باب التوبة . .

أما ابليس فقد صمم على الاغواء ، فاذا امتنع عليه خلق في معصية ينقله الى معصية أخرى ، يذهب اليه من الباب الذي يريحه ، فاذا وجد انسانا يتشدد في ناحية ما لا يطيل المناورة عند هذه الناحية لكنه يأتيه من ناحية أخرى . . وهنا نلمس الفارق بين معصية يوحي بها الشيطان ومعصية تصر عليها النفس ـ حتى لا نظلم الشيطان في كل شيء ـ فاذا حدثتك نفسك بمعصية ووقفت عند المعصية ولم تغادرها فاعلم أنها من النفس لأن النفس تريد المعصية من هذا اللون فقط . .

وقد لا تستطيع أن ترشو شخصا ما بمال الدنيا لكنه ينهزم أمام نظرة امرأة . . . نكون هنا بصدد معصية مخصوصة . . . معصية من النفس لأن النفس تريد صاحبها عاصيا على لون خاص يحقق لها شهوة . . .

لكن ابليس ليس كذلك . . ابليس يريد المؤمن عاصيا على أي شكل من أشكال المعصية فان عز عليه ذلك في باب من أبواب المعصية يطرق بابا آخر من أبوابها . . .

الشيطان يفضح نفسه :

الشيطان رجيم مبعد . . وكلمة رجيم مبعد تحذير من الله بألا نتصور امكانية قبول الله لتوبة الشيطان العاصي . . وتحذير من الله بألا ننخدع بما يزينه الشيطان لنا .

لقــد أقسم الشيطان « **لأغوينهم أجمعين** » . . وبين لنا طريقته وفضح نفسه . . ولو كنا بصدد لص جاء فأخبرنا بخطة عمله وأنه سيسرقنا عن طريق كذا وكذا . . فمن

الطبيعي في الانسان البشري أن يأخذ حذره تجاه هذا اللص طالما عرف طريقه .

لكن الحال يختلف في موضوع الشيطان . . رغم التنبيهات ورغم تبصيرنا بطرائقه . .

لكن من غفلة الشيطان أنه دلنا على طريقه الى ناحية المؤمن وذلك من رحمة الله بالمؤمن .

الفاعل والقابل :

اذا كان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فعند قراءة القرآن لا بد أن تبعد هذا العنصر عن نفسك أولا . . . لأن الشيطان مهمته أن يخلخل فيك منهج الله ، فاذا ما استمعت الى منهج الله يحاول الشيطان أن يبعدك عنه .

اذن لا بد أن أصلح القابل لكي يتمكن الفاعل من اظهار فعله . . .

فلا يكفي أن تفعل فعلاً ما فمن الضروري ان يكون الذي تفعله معه قابلا للفعل . . أي هناك شيء اسمه الفاعل وشيء اسمه القابل . . . فمثلا : القرآن هو القرآن . . كفاعل لكن يختلف أثره في المتلقين . .

يقول تعالى :

﴿ ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ . (محمد ١٦)

فالقرآن في هذه الآية فاعل لكن القابل لم يتأثر به . . .

ويقول تعالى في محكم آياته :

﴿ أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ . (فصلت ٤٤)

القرآن واحد اذن ، وهناك فرق بين الفاعل والقابل . . ولتوضيح المسألة على مستوى الأمور المادية نقول ان الفاعل يكون واحدا ولكن القابل يغير الحكم . . فأنت في الشتاء مثلاً تنفخ في يدك لأن الجو بارد فتعطي بعضاً من دفء نفسك ليدك الباردة . . وعندما نشرب الشاي ننفخ فيه أيضاً . . لكن . . لكي يبرد فالفاعل هنا في الحالتين واحد لكن القابل مختلف . فلا يكفي أن نقول هذا قرآن . . اذ لا بد من تصفية أداة

الاستقبال للقرآن ، فكيف نصفيها وكيف نمنع الشيطان ؟ وهل اذا قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أكون قد أبعدت الشيطان ؟ . . الاجابة : نعم . . لأنك تكون قد أوردت على نفسك قصته مع الله ، وقصته مع آدم فكأنك تنفي كل خاطر يبعدك عن المنهج . . وبذلك تكون قد صفيت آلة الاستقبال للقرآن ليكون فعله كما يريد الحق سبحانه وتعالى .

مبارزة القـــوى :

حين نستعيذ بالله من الشيطان . . فالمستعاذ به من الشيطان هو الله .

ولكن . . أليس الشيطان من خلق الله . . والانسان كذلك من خلق الله . . . ولهذا . . فان من الممكن لخلق الله ان ينفرد بخلق الله ، وتكون الغلبة لأكثرهما قوة ما دام الاثنان بعيدين عن خالقهما . . أما اذا التحم أي واحد منهما بخالقه فلن يقدر الآخر عليه الا اذا انفرد به دون خالقه ولله المثل الأعلى . . .

نفترض ان ولدا صغيرا شرد من أبيه فضربه الأولاد فالتجأ الى أبيه الشاب القوي ووضع يده في يده ، بالطبع سيخافه الأولاد الآخرون لأنهم كانوا في البداية في مواجهة قوة الصبي لكن في الحالة الثانية أصبحت قوة الصبي من قوة من استعان به وهو الأب . . . وهكذا يكون الحال اذا استعنت بالله الذي خلق الشيطان . .

ونفس الشيء في صراع المؤمنين والكافرين ، فان ظل المؤمنون موصولين بربهم فمن المحال أن يهزمهم الكفار . . لكن تكون الهزيمة اذا ابتعد المؤمنون عن الله فسيبقى عندئذ صراع القوة ضد القوة . .

ولهذا اذا حدث أن انهزمت طائفة من المؤمنين على يد الكافرين نتأمل حال المؤمنين .

يقول الله تعالى :

﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾

(آل عمران ١٤٦ ، ١٤٧)

اذن لما ينفرد خلق بخلق تكون النتيجة وفق قوة كل منهما ، لكن حين يذهب واحد من الخلق الى خالقه ويرتمي في جانبه وفي أحضانه يتغير ميزان القوى . . لكن ماذا يكون الحال لو أن الطرفين موصولان بالله ؟ . . عندئذ لن يحدث بينهما شجار ما داما موصولين بالله . .

وعلى هذا عندما تريد قراءة القرآن وتريد ان تصفي جهاز استقبالك لتتلقى ارسال القرآن . . فعليك أن تبعد تربص الشيطان بك وتعرف الحيثيات التي قالها الله سبحانه وتعالى فيه والكلام الذي قاله هو ، لكي تستقبل القرآن بصفاء وتأخذ منه كل عطاء وهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

سخرية الشيطان :

لأن الشيطان لا سلطان له على من يلتصق بالله تعالى . . سيسخر الشيطان منا جميعاً في الآخرة . . سيذكرنا في يوم القيامة بأنه ما كان له علينا من سلطان الا أنه دعانا فاستجبنا له .

﴿ وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ . (ابراهيم ٢٣)

اي أننا كنا على تشويه . . والمقصود بالسلطان في هذه الآية هو القهر على فعل لا يريده من يفعل . . فلو جاء السلطان وقال اسجد لي . . يسمى هذا سلطان القهر . . لأنه قهره على أن يفعل شيئا هو غير راض عنه وأما أن يقنعه ليسجد طواعية ، وهذا هو سلطان الحجة . . اذن فالسلطان نوعان . .

- قهر لمن لايريد الفعل .
- واقناع يجعلك تقبل على الفعل وأنت راض .

والفرق بين السلطانين انك في الفعل الأول مقهور كاره وفي الفعل الثاني مقتنع .

وهكذا يحدثنا الشيطان بأنه لا يستطيع ان يقهرنا على عمل لانريده وانه لا يملك حجة يقنعنا بها . . المسألة هي خيبة منا . . وهكذا شأن من اتبعوا واتبعوا .

الشيطان لماذا ؟

ان « **اعوذ بالله من الشيطان الرجيم** » تفتح لمن يريد أن يقرأ القرآن باب فيوضات القرآن وعطائه بأن تمنع عن النفس تلبسات الشيطان لكن . . لماذا الشيطان ؟ . . ولماذا

أعطى له الله قدرات تلبس ؟ . .

ـ لأنه لو أن الطاعة مسألة رتيبة بدون مقاوم يفتقد الايمان حرارته وكذلك الاقبال على التكليف ، أما اذا كان هناك شيء يغري ويلح وتحافظ على صمودك امامه . . فهذا هو الايمان . .

ولهذا فان فكرة وجود الشيطان مرتبطة بالحركة الاختيارية والحركة العبادية والحركة التكليفية .

ولنأخذ من الموظف الذي يتعرض لاغراءات الرشوة مثلا . . ان هذا الموقف يعد اختبارا له ولمدى يقينه وايمانه ونزاهته .

والله يريدنا كذلك ، لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أن من خلقه من يذهب اليه اختيارا ، وهو قادر ألا يذهب . . لأن هذا يعطي صفة المحبوبية للمعبود ، هذه الصفة التي تجعلك تطيع وانت قادر على أن لا تطيع .

ولله المثل الأعلى . . نضرب مثلا باثنين من خدمك الأول صنعت له حبلا لتشده به في حالة ندائك له عند غضبك والثاني يأتي طائعاً اثر ندائك . . فمن منهما تكون له صفة المحبوبية ؟ . . الثاني بالطبع . .

اذن ترك الله أمورا تقهرك على العبودية له وهي الأمور التي لا اختيار لك فيها . . وترك أمورا تثبت له المحبوبية التكليفية . . وهذه المحبوبية التكليفية قد ترتقي ـ عند البعض ـ الى حالة أعلى .

* * *

ألــوان المحبوبيــة :

قد تكون المحبوبية من أجل العطاء الذي يمنحه لنا الله . . ونحن جميعا نتطلع الى عطائه ونريد الجنة والنعيم . . الى آخره . .

والله في هذه الحالات يعطي للانسان على قدر ما أتى اليه من أجله . . .

ومن ناحية أخرى اذا كان هناك شيء آخر سعى به الانسان الى ربه لغاية أسمى فسيعطيه الله ما يريد أيضاً .

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .
(الكهف ١١٠)

وفي هذه الآية لم يقل الله تعالى : « ومن كان يرجو جنة ربه » . . فالأنس هنا يكون في اللقاء نفسه ، أي الأنس هنا بالذات ، لأن هذا الانسان لم يكن يعمل للعطاءات وانما كان يعمل للذات فقط .

اذن من يعمل للجنة سينالها . .

ومن يعمل لما هو فوق الجنة سيتحقق هدفه ولذلك جاء في الحديث القدسي :

« **أو لو لم أخلق جنة ونارا أما كنت أهلا لأن أعبد** » .

اي هل كان لابد من خلق الجنة . . وهكذا قالت رابعة العدوية :

- **كلهم يعبدون من خوف . . الخ . . .**

ولذلك هي قالت : « **اللهم ان كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها وان كنت تعلم أني أعبدك خوفا من نارك فأدخلني فيها . . انني أعبدك لأنك تستحق أن تعبد** » . .

فوارق بين المخلوقـات :

حين نقيس أفراد الانس بعضهم ببعض من ناحية . . ونقيس جنس الانس بجنس الجن من ناحية أخرى . . نجد أن هناك فوارق في العطاءات . .

فالبشر منا كأفراد مستوون لكن لكل واحد منا فرصا قد لا تكون عند الشخص الآخر . . ونفس الشيء بالنسبة للجن . .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الانسان من الطين وخلق الجن من النار وبالتالي تختلف خصائص العناصر التي يتألف منها كل منهما . . لكن الجن لأنه يخلق من نار . . تكون له خصائص أشف وألطف من خصائص الانسان لكن الانسان أيضاً منحه الله أشياء تجعله يسيطر على العنصر القوي . . على الجن . . فيكون الجن مسخرا للانسان ويكون الجن من خدامه .

اذن المسألة ليست بالعنصر . . فمواهبك لا تستفيد من العنصر . . وانما يجري هذا بارادة المعنصر . . بارادة الله .

الاتصال بالجن :

اذا كان الجن له خصائص أعلى فرغم ذلك يمكن الله منهم الجنس الأدنى وهو

العنصر البشري . . فثمة رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن يجيبونهم ، ويخدمونهم . .

يقول تعالى : ﴿ **وانه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** ﴾ . (الجن ٦)

فماذا كانت النتيجة بعد أن نال هؤلاء الرجال من الانس شيئا اكثر من أفراد جنسهم وأصبح لديهم من يعطيهم أشياء أو يعمل لهم أشياء . .

هل أصبحوا أحسن حالاً من بقية الناس الذين يفتقدون هذا الشيء ؟ . . لا . . انهم يعيشون متعبين طوال حياتهم ، ولم يكن هذا العنصر الزائد في تكافؤ الفرص سببا في سعادتهم بل كان سبب شقائهم في الدنيا . . .

« **فزادوهم رهقا** » . .

ويرجع ذلك الى ضرورة وجود التوازن في المجتمع ، والتوازن في المجتمع لا يصنع الا اذا تكافأت الفرص . . فتظل القرية آمنة مطمئنة كل يخاف الآخر فلا يهم أحد بالاعتداء على غيره خشية أن يعتدى عليه ، وهكذا يعيش الناس معا . . أما اذا اختل التوازن فتملك رجل في القرية ـ مثلا ـ بندقية في مواجهة عائلة أخرى لا تملك سلاحا في هذه الحالة يختل تكافؤ الفرص ويكون لأحد الناس فرصة لا تتواجد عند الآخرين . . فيبدأ الطغيان ويزداد حتى تتوفر للآخرين بندقية مماثلة . . فيعود التوازن . .

اي أن تكافؤ الفرص في الحياة هو الذي يصنع التوازن ، وحين يختل هذا التكافؤ يختل التوازن بالتالي . . فالذين يستعيذون بالجن لكي ينجز لهم أعمالا معينة . . كيف يكون حالهم ؟ آه لو يعلم البشر كيف يكون حالهم ؟ انك ان نظرت الى من يستطيع تسخير الجن لوجدته متعبا في شكله وماله وأولاده ، كما أن حياته تكون مضطربة . . رغم انه يتحايل على الناس للحصول على بعض المال . . وفي النهاية يموت وهو في أسوأ حال . .

وصدق الله العظيم اذ قال : « **فزادوهم رهقا** » . .

ونلتقي بمفارقة تدعو الى التأمل . . ان هذا الانسي الذي سلك طريق تسخير الجن ينال رزقه ممن لايقدر على تسخير الجن . . أي أن تسخير الجن لم ينفع صاحبه حتى في الرزق . . فاقرأ جيدا قول الله سبحانه وتعالى ـ لتعرف كيف يتوفر التوازن في

العالم ـ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر . . . ﴾ . (البقرة ١٠٢)

لقد كان سليمان معصوما ، هداه الله الى تسخير الجن في ناحية الخير فقط لأنه معصوم . .

«**وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت**» . . ملكان جاءا ليعلما الناس السحر . . فانظر الى الأنصاف . . انهما جاءا ليبينا لك ان الحق الأعلى قادر على أن يعطي الأدنى قوة تسخر الأعلى لكن الله سبحانه وتعالى لا يريد ذلك لأن تعلم السحر قد يفتن من يتعلمه لأنه سيحصل على فرصة ليست عند غيره . . واذا قال انه سيستعمل معرفته بالسحر في الخير فقل له : هذا هو قولك الآن . . لكنك لا تعرف متغيرات نفسك . . فقد يأتي عليك وقت تنقم فيه على شخص ما فتستعمل معرفتك ضده أي تستعملها في الشر . . .

اذن فان الله يقدر على أن يعلم الأدنى خصوصيات تسخر له الأعلى من الجن ، لكن من مصلحة الانسان ألا يتعلم هذه الخصوصيات« **انما نحن فتنة** » ، فقد ينتهز الانسان هذه الفرصة ويزداد بها شرا ويزداد بها معصية . .

« **وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر** » . . كلمة فلا تكفر تدل على أن كل من يتعلم هذه المسائل على سبيل استعمالها في الخير لا بد أن يعرف الفرق بين وقت التحمل الذي يتكلم فيه ، والوقت الآخر الذي يملك نفسه فيه وهو وقت الأداء . .

استقبال الفيوضيات :

ان الحق سبحانه وتعالى يعلم مكايد الشيطان ويعلم مداخله الى النفس البشرية ويعلم أنه سيوسوس له وسوسة تفسد كيماوية فطرته وما دامت كيماوية الفطرة فسدت ، فكيف يتم استقبال القرآن ؟ . . كيف تستقبله فطرة فاسدة ؟ بالطبع لن يحدث استقبال للفيوضات .

ولهذا يقول تعالى :

﴿ **فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ . (النحل ٩٨)

فما دمت استعذت من خلق الى خالق لا يجرؤ الخلق على مجرد سماع هذه الكلمة . . فاذا سمعها الشيطان يعرف أنك تنبهت الى من يغيثك منه ، وما دمت قد تنبهت الى من يغيثك من الشيطان ، فان الشيطان يخنس ، لأنه اذا ذكر الله خنس . . .

اذن فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تحقق للقرآن مع جهاز استقبالك صفاءات الارسال ، وبعد ذلك تكون لا سامعا بشرا يتكلم ولكنك تكون سامعا لله يتكلم .

يقول تعالى :

«**واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**» . (الأعراف ٢٠٤) .

يقول : «**أنصتوا**» لأن الله هو الذي يتكلم . . فعليك أن تعرف أنك ان كنت تشوش على قارىء للقرآن فأنت لا تشوش على القارىء ، فليس هو الذي يقرأ ـ

وفي هذا السياق تأتي كلمة لسيدي جعفر الصادق رضي الله عنه وكان من أكثر آل بيت رسول الله ادراكاً لأسرار القرآن . . فلأنه قرأ القرآن مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم ألهمه الله أسرار فيوضات كتابه . . يقول سيدنا جعفر :

«**عجبت لمن خاف ، ولم يفزع الى قول الله سبحانه : «حسبنا الله ونعم الوكيل» ، فاني سمعت الله بعقبها يقول : «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء»** .

قال جعفر رضي الله عنه : سمعت الله ولم يقل قرأتُ أو سمعتُ قارئاً ـ فعلى من يستمع إلى القرآن أن ينصت لأن الله هو الذي يتكلم . .

وقبل أن نقرأ القرآن علينا أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ليتم استقبال الفيوضات الألهية .

أســـرَار

بسم الله الرحمن الرحيم

في معية الخالق :

حين يستعيذ قارىء القرآن بالله من الشيطان . . ففي ذلك اعداد للنفس حتى تستقبل كلام الله بصفاء لا يشوبه نسج من الشيطان . .

وحين تستعيذ من الشيطان ـ وهو من خلق الله ـ بمن خلقه ، لايقوى الشيطان على أن تكون له مواجهة معك . . فهو لا يستطيع المواجهة الا اذا انفرد بك دون خالقك . . أما أن تكون في معية خالقك فلن يجرؤ الشيطان على الذهاب اليك . . فالمعية مع الحق سبحانه وتعالى يعطيها الله صورة تخلع قدرته على العاجز .

مثل من واقعة الغار :

عندما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار ثور . . في الهجرة . . قال له أبو بكر ـ مقررا واقعا ـ قال :

« **لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا** » .

وكانت فجوة الغار واضحة للعيان من أسفل . . وان كانت الواجهة تبدو مسدودة . . ولو أن أحداً من الكفار نظر من تحت قدميه باتجاه الغار لرأى رسول الله عليه الصلاة والسلام وصاحبه . .

وهذا واقع لا يمكن تكذيبه الا بشيء ايماني جديد . .

فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبه أبي بكر ؟ قال :

« **ما ظنك باثنين الله ثالثهما** » . .

والى ذلك تشير الآية الكريمة :

﴿ **لا تحزن ان الله معنا** ﴾ . (التوبة ٤٠)

لقد كان أبو بكر في معية الله . .

وكونه في معية الله . . ففي ذلك رد على قول أبي بكر :

« **لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا** » . .

فمعنى هذا الرد : إن اطمئن فانه لو نظر أحدهم تحت قدميه لا يرانا . .

وما أيسر تفسير هذا الرد . . معناه . . ما دمنا نحن في معية الله ، والله لا تدركه الأبصار . . فكيف تدركنا الأبصار . .

وهكذا نرى المعية خلعت على المصاحب لها . .

وبالقياس ، اذا استعاذ الانسان بالله من الشيطان ، كان في معية الله . .

معارك الشيطان :

ولنقرر حقيقة أخرى .

ان الشيطان لم يدخل في معركة مع الله .

وانما داخل في معركة مع خلق الله . .

فمن أراد أن ينفرد به الشيطان فلينعزل عن الله . .

ومن أراد ألا يتمكن منه الشيطان فليدم صلته بمعية الله . .

وحين تكون في معية الله . .

ولا سبيل للشيطان عليك . . وتكلم الله . .

هنا . . تأتي الصفائية . .

وهذا هو معنى : ﴿ **فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ . (النحل ٩٨)

والآن ماذا بعد أن هيأت نفسك للمدخل . . ماذا تقول ؟!! .

تقول : **بسم الله الرحمن الرحيم** .

اقرأ . . بين شخصيتين :

لأن القرآن بدأ مقروءا باسم ربه ، فكذلك يبدأ متلوا باسم الله . .

اذن المسألة واحدة . .

عندما كان رسول الله في الغار وجاء له الوحي وقال له اقرأ . . كلمة اقرأ . . تتطلب أمرا . . أن يكون حافظاً شيئاً يقرؤه . . أو يكون أمامه مكتوب يقرؤه . .

ولكنه لم يكن عنده محفوظ ولم يكن هناك مكتوب يستطيع ان يقرأه . . فقال عليه الصلاة والسلام : **ما أنا بقارىء** . .

يبدو رسول الله منطقيا مع نفسه . .

والحق منطقيا مع قدرته . .

قال له : اقرأ . . قال له : ما أنا بقارىء . .

فلماذا كان هذا الترديد . . اقرأ . . ما أنا بقارىء . .

كان ليرد على شعوذة اثارها خصوم الاسلام بعد ذلك بأربعة عشر قرنا ! .

وقول الله اقرأ وقول محمد ما أنا بقارىء يدل على شخصيتين متميزتين . .

ـ شخصية آمرة جازمة .

ـ وشخصية ممتنعة .

واذا كانت المسألة مسألة شخص واحد يتكلم في الحالتين ما انقلبت الشخصية الآمرة واتت الشخصية الثانية الممتنعة . .

ونحن هنا بصدد شخصيتين متميزتين . . وكل شخصية منسجمة مع صفاتها ، فالشخصية التي تقول اقرأ هي المقدرة على القراءة . .

والشخصية التي تقول ما أنا بقارىء ، شخصية تعرف الأسباب وقدر الأسباب وتعرف مواقعها من الأمية . . اذن هنا شخصيتان متميزتان وليس شخصية واحدة تطرأ لها الهواجس . .

والحق هنا يأمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالقراءة لا باسم الاسباب ولا لأنه يكتب . . وانما لأنه سيقرأ باسم ربه . . وليس ذلك بدعا . .

﴿ اقرأ . . باسم ربك الذي خلق . . خلق الانسان من علق ﴾ . (العلق ١ ، ٢)

فالله سبحانه وتعالى القادر على الخلق من العدم هو الذي يمكن الرسول الكريم من أن يقرأ وان لم يتعلم القراءة . . وليس ذلك بمستغرب . .

﴿ اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾ . .

فما حاجة محمد عليه السلام الى القراءة مما تعلم من البشر !! ما دام يقرأ مما يتعلمه من خالق البشر .

مرحلتان من الكرم :

لماذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم** ﴾ ؟ . .

لأن الانسان حين يتعلم القراءة والكتابة من واحد مثله يكون ذلك دليلاً على كرم الله . .

لكن . . حينما يكون مصدر التعلم من غير ذلك فهذا أكرم من الحالة الأولى . . فلدينا معنيان . . كريم وأكرم . .

والحق سبحانه وتعالى يقول لمحمد . . أنت لا تقرأ باسم أنك تعلمت أو باسم انك حافظ وانما أنت تقرأ باسم ربك . . وما دام باسم ربك ، فاذا أراد الله شيئا يقول له كن فيكون . . فلا أهمية لأن تكون تعلمت أو لم تتعلم .

باسم الله :

كما أن القرآن بدىء ﴿ **باسم ربك** ﴾ فكذلك نحن أيضاً نتلوه باسم الله . . وكلمة باسم الله ينبغي أن نتناول معناها من زاويتين :

الزاوية الأولى فيما نلحظه في لغة البشر . . فاذا كلمك انسان في أمر من الأمور وأراد اقناعك به وتنفيذك له . . ستسأله : باسم من تتكلم . . ويأتي الجواب انه يتحدث باسم مسؤول ما قد يكون وكيل النيابة أوغير ذلك . . اذن . . هنا تحددت الصفة التي تقهرك على الفعل . . وأحيانا تسمع عن أمور تقال باسم الشعب أو باسم الدستور . . هناك دائما مبرر لاقبال الشخص على أي عمل يعمله . . فاذا ذهبت لتحرث الأرض لكي تعطيك زرعا . . انت لم تخلق الأرض ولا البذرة وقد لا تكون عالما بعدد عناصرها . . وأنت لم تنزل الماء من السماء . . كل ما جرى انك حرثت الأرض فحسب . . وأعملت فكرك بالطاقة المخلوقة من الله . .

اذن . . ما الذي فعلته ؟!! . . لا شيء . . اذن . . حينما تقبل على الزراعة يجب أن تقول باسم الله . . أي أنك لا تقبل على الزراعة باسمك . . لأنك لم تعمل شيئاً . . ولا قدرة لك على ارغام الأرض على أن تنبت .

واذا أنت مثلاً ذهبت لتشعل عود ثقاب . . أنت في الحقيقة ليست لك القدرة على شيء . . والا فحدثنا عن قدرتك التي ترغم العمل على أن ينفعل . . اذن . . قل أنا أفعل هذا الشيء باسم الله الذي سخره لي وأمره الا يخرج عن طاعتي . .

اذا كان الأمر أمر القدرة الذاتية والطاقة الذاتية . . فلا دخل لها . .

هل باستطاعتنا أن نقول للشمس اطلعي . . ؟ .

هل دخل القمر في استطاعنا . .

هل يمكن أن نقول للهواء هب عندما نريد . . ؟ .

هل لنا سيطرة على الغمام . . ؟ .

لكن باسم الله تتم كل هذه الأشياء . . باسم الله الذي سخر هذه الأشياء . .

اذن . . فحين نقبل على أي عمل من الأعمال فلننظر الى المنفعل لنا في هذه الأعمال وسنجد أنه لا قدرة لنا عليها . . وما دام لاقدرة لنا عليها . . فأمامنا طريق واحد للتعامل معها . . وهو أن نتعامل معها باسم من سخرها لنا ، هذا شيء .

الشيء الآخر . . أننا قد نعمل العمل وليس في بالنا الا الأجر المادي الذي ينتج من العمل . . وهذا هو شأن الكافرين . .

ألوان من الثواب :

أما المؤمن . . فعندما يأكل أو يشرب أو يمرض أو يقوم بأي عمل يقول أنا أعمل هذا العمل لأن الله أباحه لي أو أمرني به ، وبالتالي لايقبل على العمل الا والله ملء قلبه وباله . . وتكون النتيجة أن يستفيد المؤمن من عطائه الفائدة المباشرة ويستفيد منه ثوابا آخر . . ثوابا في غير زمنه . . يأتي في زمن ثان . . ولذلك عندما يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ . (سبأ ١)

وعندما يلمس المؤمن أن عمله الذي أداه في الدنيا كان في صالح نفسه ثم منحه الله عليه جزاء آخر . . سيتوجه المؤمن الى الله بالحمد على ما منحه . . الحمد لله أولا . . والحمد لله أخيراً . .

عبرة الحيوانات المستأنسة :

ان تقول « باسم الله » في أي شيء . . معناها انك دخلت على هذا الشيء بلا حول منك وبلا قوة وانما دخلت عليه لأن الله سخره لك ، ولو لم يسخره الله لك لما استطاع ان ينفعل لك . . وانظر الى الحيوانات على سبيل المثال . . فبعض الحيوانات يمكن استئناسها والبعض الآخر لا يمكن استئناسه ، فنحن نستأنس الجمل ، والفيل كذلك . . لكن لا نستطيع استئناس الثعبان . . فلماذا ؟! المسألة اذن ليست مسألة قوة . . لقد ترك الله هذه الأشياء منطلقة حتى نعرف ان الله لو لم يذلل لنا الأولى لما استطعنا أن نذللها بدليل حالة الثعبان وما شابه ذلك . . يقول تعالى :

﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم ، فمنها ركوبهم ، ومنها يأكلون ﴾ . (يس ٧١ ، ٧٢)

اذن . . ترك الله بعض الوحوش غير مستأنسة لكي يقول لنا أننا اذا كنا قد استأنسنا بمهارتنا حيوانا كالجمل . . فهل نستطيع ذلك بالنسبة لحية صغيرة . . لكن . . كيف ذلك ما دام الله لم يذللها لنا ؟!! . .

يقول سبحانه وتعالى في الآية السابقة : ﴿ **وذللناها** ﴾ . . . أما ما لم يذلله فقد تركه سبحانه وتعالى لكي يلفتنا حتى لا نغتر . .

فاذا دخلنا على العمل وقلنا باسم الله فكأننا دخلنا على العمل باسم من سخر لنا المنفعل . .

المنفعل بين المؤمن والكافر :

والمنفعل لا يتأتى للكافر فهو منفعل له أيضاً . . اذن . . ما الفرق بين من لم يقل باسم الله وهو كافر . . ومن قال باسم الله ، ومن قال باسم الله وهو مؤمن ؟؟ فكل واحد من هؤلاء تم الانفعال له . . من قال باسم الله مثاب على عملية استحضار الله في الفعل ، وكأنه لم يفعل أي فعل الا وفي باله الله سبحانه وتعالى . . وهذا هو الفرق بين الحالتين .

خرق النواميس :

كما قلنا يطلق الحق سبحانه وتعالى أشياء في الكون لكي لا تفهم انه ذلل لك

الأشياء وهي خاضعة لك ثم انفلتت الأشياء منه . . فان الله يستطيع أن يقبض هذه الأشياء حين يشاء . . وهذا هو الفرق بين الحق سبحانه وتعالى وبين الخلق . . .

الحق يطلق قانونا ويقيده . .

وأنت تطلق قانونا ولكنك لا تستطيع أن تقيده ، ولذلك عمل الحق سبحانه وتعالى نواميس في الكون . . لكنها نواميس يرى الله خرقها في بعض الأحايين . . وربما كان خرقها يلفت اليه الناس ، لنعرف أن الله هو الذي ينزل المطر والغيم والسحاب ويحدث أحيانا أن يغزو الجفاف مكانا ممطرا دائماً فتموت الماشية . . وتكون بذلك غير خاضعة لناموس ، وانما خاضعة لارادة خالق الناموس ، فليس معنى أن تكتمل النواميس انفلات القوانين من الله . .

فالله هو خالق الناموس ، وهو الذي يعرض لنا المسائل في خرق ناموسه . . ولذلك نعرف أن كلمة « **بسم الله الرحمن الرحيم** » لها مدلول في الكون ، فمثلا صورة من صور خرق الناموس في شؤون الزواج . . فنحن نعلم أن الطريق الى اكثار الذرية هو الزواج بين رجل وامرأة . . لكن الله سبحانه وتعالى يحذرنا من الحكم على هذه المسألة . .

﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير ﴾ .

(الشورى ٤٩ ، ٥٠)

أي هناك ذكر وأنثى . . فلا يكون التصرف للناموس في هذه الحالة ، وانما التصرف لارادة خالق الناموس . .

أنى لكِ هـــذا :

يعرض لنا الحق سبحانه وتعالى أشياء يتأباها العقل . . عقل الانسان . . فعندما كفل سيدنا زكريا السيدة مريم وأصبح مسؤولا عن احضار التموين لها . . دخل عليها ذات مرة ووجد لديها شيئا لم يأت به فسألها : انى لكِ هذا ؟! . . والحقيقة أن الفساد في المجتمع ناشىء من اهمال هذا السؤال : « **أنى لكِ هذا** » ؟ . . فان فساد البيوت ناشىء من عدم رقابة الأم وتساؤلها عما يملكه ابنها أو بنتها . . انها ترى ولدها في حوزته قلم

ثمين أو أشياء مادية أخرى وترى ابنتها تملك أدوات للزينة وأشياء أخرى لم تحضرها لهما ومع ذلك لا تسأل احدا منهما : أنى لك هذا ؟ . . ولو سألت هذا السؤال لاتضحت الحقيقة . .

لو أن سؤال « أنى لكِ هذا ؟ » مطروح في البيوت . . لانضبطت هذه البيوت ، لو أن الزوجة رأت زوجها يحضر اجهزة غالية للبيت وهي تعرف أن مرتبه قاصر عن تلبية مثل هذه الحاجات ثم سألته « أنى لكَ هذا ؟ » لراجع تصرفاته وأنصلح حال المجتمع كله . .

نعود الى مريم . . ماذا قالت ردا على زكريا عليه السلام ؟ .

قالت : « **ان الله يرزق من يشاء بغير حساب** » .

اذن الناموس شيء ورزق ربنا شيء آخر . .

لكن هل اقتنع زكريا عليه السلام بالرد . . وهل سكت ؟ . . وجاء البرهان الكبير حين دعا زكريا ربه :

﴿ واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا﴾.

(مريم ٥)

اعطاه الله ولدا وسماه يحيى . . رغم ان امرأته عاقر ، وأنه بلغ من الكبر عتيا . .

لقد أراد الله أن يؤنس بشرية « مريم » حتى لا تزلزل أفكارها ، فعلمها أن تقول : « **ان الله يرزق من يشاء بغير حساب** » . . علمها ذلك لأنها ستتعرض لمحنة لم تتعرض لها امرأة في العالم . .

فالله سبحانه وتعالى ليس محكوما بنواميس . .

علمها الله ذلك حتى تردد هذا القول عندما تلد من غير ذكر . .

فالله يرزق من يشاء بغير حساب . . بدون قانون . .

قالت مريم ذلك . . وجرب كافلها زكريا صدق هذا القول . . حين طلب ولدا فأعطاه الله ولدا . .

﴿ قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ، قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئا ﴾ . (مريم ٨ ، ٩)

قول زكريا بأن امرأته عاقر وانه بلغ من الكبر عتيا كأنه غير مصدق بأن يحدث هذا . . وهذا يبين لنا قوة ايمان الناس بالنواميس . . لكن الله سبحانه وتعالى قال له :

« **هو على هين** » .

أما مريم فقد قالت ـ كما سبق : « **ان الله يرزق من يشاء بغير حساب** » .

ورأت مجيء يحيى . .

فكل ذلك ايناس لها . .

﴿ **فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا** ﴾ . (مريم ١٧)

لو لم يتمثل لها بشرا سويا وقال :

« **قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا** » .

ربما ظنت مريم ان أحدا جاء الى جوارها وهي نائمة مثلا . .

لكن الله هنا يخرق الناموس . .

ولذلك يجب أن نفطن الى أن الله سبحانه وتعالى حينما كرر الاصطفاء في مريم . . كرره لحكمة . .

﴿ **واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك** ﴾ . (آل عمران ٤٢)

لم يقل أنه لم يصطف الا هي . . انها داخلة في الاصطفاء وليس هناك ما يحول دون أن يكون غيرها مصطفى أيضاً . .

ثم قال تعالى : ﴿ **واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ . .

فنجد أن الاصطفاء الأول اصطفاء قيمي أما في الاصطفاء الثاني فهو أصطفاء على نساء العالمين . . لأنها ستلد بلاذكر . . والقانون في نساء العالمين أن يلدن برجل . . أما مريم هنا فقد أصبح لها قانون وحدها . . فظهر التشخيص في القصة . . لأنك حين تجد قصة خالية من التشخيص فهذا يعني ان الله يريد ألا تتشخص . . اي تظل بلا تشخصات حتى يكون من الممكن أن تحدث .

حول التشخص :

في سورة الكهف يقول تعالى :

﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى** ﴾ .

(الكهف ١٣)

لم يخبرنا المولى بعددهم . . ولذلك عاب على الناس الذين سيقولون عددهم

رجما بالغيب وقال للنبي بألا يستفتي فيهم منهم احدا . . لماذا ؟ . . لأن عددهم لا قيمة له في مغزى القصة . . ولأن بلدهم لاقيمة له في مغزى القصة ، وكذلك عصر القصة . .

فالتشخص في هذه الحالة لو وجد بالأسماء لقال قائل هذه خصوصية لتلك الأسماء . فلا تتكرر في الدنيا . . لكن حين تترك بلا تشخص سواء في الأسماء أو في العدد أو في المكان . . يكون معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريده لنا مثلاً شروداً في الكون ، فتأتي من أي فتية بأي أسماء في أي زمان وفي أي مكان . . ولو شخصها بواحدة لامتنعت الفائدة فالتحديد يجعل القصة صالحة للزمان الذي حدثت فيه فقط . . ولهذا فالابهام مربب (مزود) لفائدة القصة .

متى يكون التشخيص :

لكن . . حين يريد الله التشخيص يكون معناه ان هذه القصة لا تتكرر ابدا فحين ضرب الله مثلاً للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط ، لم يقل من هي هذه المرأة . . اخبرنا أنها امرأة نبي ومع ذلك استقلت في عقيدتها وما استطاع نبي أن يهديها . .

وأيضاً في امرأة فرعون . . لم يقل من هي . . قال فقط . . ان فرعون الذي أدعى الألوهية لم تؤمن به امرأته . . اذن المرأة هنا أيضاً لها عقيدة مستقلة . .

لكن لما جاء عند مريم قال « **ومريم ابنة عمران** » «التحريم ١٢» شخصها وقال اسم ابيها أيضاً . . لأن هذه القصة لا تتكرر .

وفي قصة اخرى مثل قصة ذي القرنين ليس من المفروض ان نطلب التعرف على شخصيته والا نفسد بذلك على القرآن مراده . . لأنه لو عرفنا به القرآن وافصح عن شخصيته لكان هذا التشخيص مانعا للتكرار . فالله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف عن ذي القرنين انه رجل ممكن له في الأرض آتاه الله ملكا وآتاه تمكينا . . وكيف ساس أموره وأحسن الى الفضلاء من الناس وأعان الضعفاء . .

هذا مثل شرود . . يظل مبهما طول الزمن .

باسم الله في كل حال :

عرفنا النبي عليه الصلاة والسلام أن : « **باسم الله الرحمن الرحيم** » لا تكون فقط

عند قراءة القرآن . . وانما يجب أن تسبق أي عمل نقوم به . .

لأننا حين نقول « **بسم الله** » معنى ذلك أننا نقوم بالعمل والله فقط هو الذي يشغل بالنا . . ونكون بذلك قد فزنا بالعطاء في الدنيا والآخرة، اما اذا قمنا بالعمل وليس الله في بالنا نكون قد فزنا فقط بالعطاء في الدنيا وبترمنا عطاء الآخرة . . ومن يشاء عطاء الآخرة فليقل : « **بسم الله** » . كل باسم الله ، واعمل باسم الله ، وتزوج باسم الله ، وانجح باسم الله . في كل حالة قل : باسم الله . .

فما دمت قلت بسم الله ، وأقبلت على عمل وفي بالك الله فان من المحال أن تقول باسم الله في عمل يغضب الله . .

انك حين تتعودأن تقول : « **بسم الله** » عند كل فعل فانك لن تجرؤ على ارتكاب عمل سيء . . اذا أردت أن تسرق . . هل تسرق باسم الله !! . . اذا أردت أن ترتشى هل ترتشى باسم الله . . لا يستقيم هذا أبداً . . ستستحي من فعل ما لايرضي الله . . ولن تبدأ باسم الله الا فيما أجازه الله أو أباحه . .

ولان الله رحمن رحيم . . فاياك أن تستحي ان كنت عاصيا الله ان تستفتح اعمالك باسم الله . . لأن الله ليس حقوداً ولا يتغير على خلقه . .

فحين تعصاه لن ينفض يده منك ، فأقبل عليه باسم الله وان كنت قد عصيت الله في شيء . . لانه رحمن ولانه رحيم .

الرحمن الرحيم :

اذن . . فالرحمن الرحيم حيثية اقبال العاصي على أي عمل بسم الله . . فالله لاينفعل ولايتغير على خلقه . .

وحينما شرع الله عقوبة أية معصية فمعنى ذلك أنه اذن بأن تقع . .

فاذا عصيت الله بالأمس فلا تقل هل أقول باسم الله وأنا قد عصيته ! . . وتأمل الاشتقاق في رحمن ورحيم . . اشتقاقهما من الرحمة ، والرحمة من الرحم . . والرحم مكان الجنين من بطن المرأة . . فانظر الى أي حد يكون حنو الرحم على الجنين . . ولذلك ففي الحديث القدسي قال الرحمن :

« وهذه الرحم اشتققتُ لها اسما من أسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » .

اذن فكلمة رحمن وكلمة رحيم مأخوذتان من الرحمة ، من الرحم اللين ذي الوسائد . .

اذن . . فالله عطوف علينا . . فان كنت عاصيا لا تستحي أن تهتف باسمه حين تبدأ في أي عمل لتمنع عن نفسك الغرور بأنك قدرت عليه بذاتك . . لأنك قدرت عليه بالتسخير من الله . . ولا تحرم نفسك من الثواب على عملك في الآخرة فيكون عملك ابتر . .

بين صيغ الرحمة :

عندما نقول ان فلانا عنده رحمة . . يعني راحم ، فاذا قيل رحمن تكون في صيغة مبالغة ، واذا قيل رحيم تكون أيضاً صيغة مبالغة . .

وحين يقول المؤمن « **بسم الله الرحمن الرحيم** » فاياكم أن تفهموا أن صفات الله تتأرجح بين القوة والضعف فمرة يكون راحما ، ومرة يكون رحمانا ومرة ثالثة يكون رحيما . . ذلك أن صيغ المبالغة انما تأتي في الأغيار . قالوا : فلان عالم . . وفلان علام « أي اكثر علما » وفلان علامة . . لأن الصفات في البشر تتغاير . .

لكن عند الحق سبحانه وتعالى لا تتغاير الصفات فلا تضعف او تقوى ، ولكن متعلقات الصفات هي التي تكثر أو تقل .

اذا قلت : فلان أكل . . وهذه صيغة عادية . . ثم قلت « أكول أو أكال » قد يعني ذلك أنه في الوجبة الواحدة يأكل عدداً أكثر من الأرغفة ومن ناحية أخرى قد تكون المبالغة في ثبات عدد الأرغفة في كل وجبة مع زيادة عدد الوجبات عن المألوف في اليوم الواحد أي قد تكون المبالغة في تكرير الحدث العادي وبهذا نجد أن هذه الصفات فيها تغير بينما الصفات عند الله لا تقوى ولا تضعف .

فالله رحمن . . لأنه يرحم المؤمن والكافر في الدنيا فرقعة الرحمة واسعة ، وهو رحيم في الآخرة لانه يرحم المؤمنين .

اذن المبالغة لا تكون في صاحب الحدث وانما في الذي يقع غليه الحدث . .

فالله سبحانه وتعالى لا تكون صفاته قليلة مرة وكثيرة مرة أخرى . . ان الله لايتغير من أجلنا ، ولكننا نحن يجب أن نتغير من أجل الله . . والا فلو كان الله يتغير لكان بمجرد

أن يعصاه العبد ـ رغم ما أغدق عليه من نعم ـ يخسف به الأرض . .

لكن الله ليس كذلك . . فهو حليم كما سمى نفسه .

وهو ستار يعصاه العاصي ولكنه يحب من يستر عليه . . وتلك صفات لا تتأتى من متغير يتغير على خلقه . .

وما ربك بظلام للعبيد :

تقول الآية الكريمة ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ . (فصلت ٤٦)

يقول هواة النقاش الفلسفي ومحترفوه ان « **وما ربك بظلام للعبيد** » حين تنفي صفة المبالغة عن احد فهي لا تنفى عنه الصفة الاصلية . وبالتالي فان « **وما ربك بظلام** » لا تنفي أن يكون ظالما فقط . .

وعلى سبيل المثال اذا قلت ان فلانا ليس بأكول هذا يعني انه آكل لكنك تكون قد نفيت المبالغة عنه . . ايضا . . فلان ليس بعلامة . . فليس ما يمنع أن يكون عالما . . وهكذا . .

ونعود الى « **وما ربك بظلام** » . . فان تفسيرها أن الله لايبالغ في الظلم وأن هذا لايمنع أن يكون ظالما . . هذا التفسير يعني انك تتصور خطأ ان الصفة في الله تتغير علوا وضعفا بينما الصفة في الله لا تتغير لان كماله غير متغير . . ولنضع أعيننا على النقاط التالية :

ـ ان الله تعالى قال : « **وما ربك بظلام للعبيد** » ولم يقل : « بظلام للعبد » فحينما يملك الطاقة على أن يظلم هذا وذاك ، نكون بصدد تكرار الحدث . . ومجرد التكرار يفضي الى صفة ظلام ، كما حدث في مثال زيادة عدد وجبات الأكل في اليوم مع ثبات حجم الوجبة الواحدة وقد سبق تفصيل هذا المثال .

ـ واذا كان الظلم يتناسب مع القدرة . . فان الله لو أباح لنفسه أن يكون ظالما فلن يكون ظالما فحسب لأن قدرته واسعة لا حد لها . . فلو أباح الله لنفسه هذا الأمر لصار ظلاما حيث يتناسب الظلم مع قدرة الظالم في هذه الحالة . .

ـ ان الكمال في الله واحد الا أن متعلقات هذا الكمال هي التي تختلف، قد

تختلف لأنها اذا تناسبت مع قدرته يكون ظلاما جدا . . وان تناسبت مع العدد يكون ظالما فقط . .

ـ مثال لذلك . . اذا ضرب تلميذ صغير كل تلاميذ فصله أو حتى لمسهم لمسا خفيفا بعصاه يقال هذا ولد ضريب . . نظرا للكثرة . . ونقول عنه ضريب ايضا اذا انفرد بولد واحد وضربه ضربا شديدا . . نظرا للمبالغة في هذا الحدث غير المكرر .

الله مسخر الأشياء :

في كل أعمالنا يجب أن نبدأ قائلين : « بسم الله » لأنه هو الذي سخر لنا الأشياء ، ولولا تسخيره لنا الأشياء لما استطعنا ان نسخرها لأنفسنا . . ولأن الله لا يريد أن تكون اعمالنا هدرا بين لنا الطريق . . فعلى المؤمن أن يقدم على كل عمل من أعماله والله في باله . . فان أتى المؤمن امرأته شهوة وهو ينوي الذرية الصالحة جعل الله له ثوابا . . ودهش البعض لهذا . . أن ينال المرء شهوته ومتعته ثم يتبقى له ثواب . . وساءلوا النبي عليه السلام فقارن بين حدوث هذا الأمر في الحرام وما يستتبعه من عقوبة وبين حدوثه في الحلال وهو ما يستتبع المثوبة .

الأعمال ذات البال والنسب الثلاث :

علينا اذن أن نبدأ كل عمل ذي بال « بسم الله » . .

ومعنى ذي بال : العمل الذي نقبل عليه بفكر . . لأن البال هو الفكر . . وكل عمل نقبل عليه بفكر لا بد أن يبدأ بسم الله . .

أما الأعمال التي تتم من غير فكر . . كأن تهجم علينا بعض الخواطر مثلا فان الله لا يكلفنا عنتاً بأن نقول فيها بسم الله . . فهي مغفورة لنا . . لماذا ؟ . . لأننا لم نشغل فكرنا بالعمل قط . لأن الانسان منا في كل شيء له ثلاث نسب :

النسبة الأولى نسبة ذهنية . . يعني مثلا أنا عطشت ، فالنسبة الذهنية التي جاءت عندي أنني أريد كوب ماء . . فتكون النسبة الذهنية قد وجدت . . وعندئذ أتكلم وأقول : أعطني كوب ماء . . وهذه هي النسبة الثانية أو النسبة الكلامية . . ولما يأتي لي كوب الماء يسمى ذلك نسبة خارجية . .

أي عند الانسان ثلاث نسب ، نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة خارجية . . والنسبة الخارجية كما هو واضح نشأت عن النسبتين .

فاذا قلت : زيد مجتهد . . معنى هذا أن هذه الجملة وردت في بالي قبل أن أقولها ثم قلتها . . فهل ذكري لهذه الجملة سبب في اجتهاد زيد أم أن زيدا مجتهد قلت أو لم أقل ؟ . .

من ذلك يتضح أن النسبة الذهنية والكلامية ليست سببا في النسبة الخارجية انما هي سبب في الانشاء . . فكل أمر يحدث منك بنسبة خارجية أو بنسبة كلامية ولم يخطر لنسبة ذهنية يكون أمرا غير ذي بال . . فكل أمر ذي بال لا بد أن يمر بنسبة ذهنية أولا . . ومعنى مرور أمر من الأمور بنسبة ذهنية معناها أنه أمر ذو بال . .

أجر الكافر :

اذا قال المؤمن : « **بسم الله** » عند القيام بعمل أخذ فائدته تسخيرا ثم أجرا . . أما الكافر فحين يقبل على زرع الأرض مثلا دون أن يقول « **بسم الله** » . . فسوف تعطيه الأرض ما ينتظره من حصاد . . لكنه لن ينال الأجر ، بينما المؤمن في هذه الحالة ينال الفائدة والأجر معا . .

اذن حين يقول قائل ان الكافر يقبل على الأشياء بدون « **بسم الله** » ومع ذلك تنفعل له الأشياء . . نقول له :

ان عطاء الربوبية جعل الكون يعطي المؤمن والكافر . . ورغم أن الأشياء المسخرة تنفعل لغير المؤمن فان قولك « **بسم الله** » تعتبر حركة عبودية لك تذكر بنعمة الله لك في التسخير ، وعلى هذا . . ان هي لم تزودك عن الكافر شيئا في الانفعال من الأشياء لك . . فقد ضمنت لك ثواب تذكرك لنعمة الله حتى لا ينقطع عطاؤ ها في اليوم الذي يبقى فيه العطاء . . .

من الطبيعي أذن حين تقبل على أن تتفاعل مع أي شيء في الكون أن تبدأ ذلك باسم الذي سخر لك هذا الشيء لأنك لا تدخل على الأشياء بقدرتك لأن لا قدرة لك . وبعلمك لأن لا علم لك . . وبأن كثيرا من الأشياء التي سخرت لك لا تدخل تحت طاقتك ، ولا تدخل تحت قدرتك ، ولا تخضع لأمرك ، فأنت حين تقبل عليها تتذكر هبة

الله لك . . فأنك اقبلت على هذا الفعل لا بقوتك ولا باقتدارك وانما بسم الله . . بسم الله الذي سخر لك هذه الأشياء . . وعندئذ . . حين يقبل الانسان على هذا العمل يعطيه خيره . .

اذن فالحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف ندخل على تلاوة القرآن بسم الله الرحمن الرحيم ، ويعلمنا الرسول ان ندخل على أي عمل بسم الله حتى لا يكون عملنا أبتر .

من الصفات الى الاسماء :

اذا نظرنا الى أسم الله وجدنا أنه علم على واجب الوجود ، وله صفات كثيرة وهذه الصفات أصبحت في مجال الأسماء . .

انتقلت الصفة الى مجال الاسم ليصدق قول الله تعالى :

﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ . (الأعراف ١٨٠)

فكيف تنقلب الصفة الى اسم ؟ .

قد يوجد فلان حليم وتصفه بأنه حليم ، ولكن لا بد من وجود موصوف يسبقه . وتقول فلان غني وتقول فلان حكيم . . ولكنك حين تطلق الحكمة والغنى لا ينصرف الا لله . .

فان قلت الحكيم على اطلاقه ، الرحيم على اطلاقه ، الغني على اطلاقه ، فكأن الرحمة من كل راحم في الأرض هي بعض هبات (بتشديد الباء) الرحمة الهابطة من الله الى الخلق ، وتتسامى الرحمة في الرحماء في الدنيا الى أن تلتصق بالرحيم الأعلى . .

اذن فذلك هو ينبوع الرحمة ، فاذا أطلقت كلمة الرحيم انصرفت الى الله ، وان كان يوصف بها . .

لكن اسم الله لايعطي صفة وانما يعطي ذاتا موصوفة بصفات الكمال . وما دام علم (بفتح اللام) على واجب الوجود ، فالعلم مشخص ، ومعنى مشخص اي لا يطلق على الغير .

اطلاق الأسماء على المسميات :

اذا سميت ابنك محمدا . . يكون من المفروض الا يسمي احد هذا الاسم لأن كلمة محمد أصبحت مشخصة ، ولذلك اذا حلا لبعض الأسر أن يكرروا الأسم في

الأفراد . . يقولون محمد الصغير ، ومحمد الكبير وبعد ذلك يلجأون الى الأوصاف الثابتة مثل محمد القصير أو محمد الطويل . . ما دام الاسم سيتكرر . .

لكن اسم الله علم على واجب الوجود . .

والناس يطلقون الاعلام على مسمياتهم ، كل واحد منا يطلق علما على ابنه . .

اذن . . فاطلاق الاسماء على المسميات امر شائع في دنيا الناس . . وهذا ليس بعجيب . .

لكن الله حين اختار لنفسه اسما هو العلم . . هو الله . . قال انه اختار اسما لنفسه ، وأن هذا الاسم مشخص لصفات الكمال فيه وتحدى ـ حتى الكافرين ـ أن يجترىء واحد منهم فيسمي تابعا لهم بهذا الاسم .

اسم الله له وحده :

نتساءل . . لماذا يجترىء كافر ممن يكفرون بالله . . ان يقول : ان الله سمى نفسه هذا الاسم وأنا سأطلق على هذا الشيء اسم « الله » . . لماذا لم يحدث هذا ؟ . . ورغم أن الكفار حريصون على تكذيب كلمة الدين . . لم نجد أحدا يجترىء على هذا التصرف ، ولذلك حين يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هل تعلم له سميا ﴾ . (مريم ٦٥)

يتحدى الكون كله في أن يطلق واحدا منهم هذا الاسم على أي شيء . . الكافرون كثيرون ، وقد هيج الله فيهم ـ بقوله هذا ـ غريزة التحدي حتى لا يقول كافر . . لم نهج ولم يطرأ على بالنا . .

لقد طرأها الله على بالهم قائلا : **﴿ هل تعلم له سميا ﴾** فلو كان الكافرون مؤمنين بكفرهم لجاء أحدهم قائلاً : « أنا سأسمي الله » . . لكن . . لم يحدث ، لم يدخل احد في هذه التجربة . . مما يدل على أن الكفار تعبدوا وهما لا يقينا . . ولو كانوا متعبدين يقينا غير الله لأطلقوا هذا الأسم في حماية من عبدوه . . لكنهم لم يجدوا لهم حاميا ليتحدى الله في ذلك الاسم . .

« **هل تعلم له سميا** » . . هل هناك احد على أسمه . . لا . . واذا كان لم يثبت ذلك قبل نزول القرآن لأن الناس لم تتجه او تنتبه الى هذا ، فقد نهز القرآن فيهم غريزة

التحدي . . وها نحن نجد ان هذا الاسم لم يجيء من قبل ذلك ولا من بعده . . مما يدل على أن الذين يعبدون شيئا غير الله لا يثقون في ذلك الشيء أبدا ، ولو كانوا واثقين في شيء على انه اله لقالوا : نحن نقولها في هذا ، ونحن مطمئنون الى أن هذا يحمينا مما يدل على أنهم لايعبدون شيئا .

ماذا اسم الله :

حين بدأت بسم الله . . كان المعقول حين تريد فعلا أن تبدأ باسم يعينك على فعلك . .

فان كنت تريد عملا يحتاج الى قوة تقول بسم القوى لكي يمدك بصفة القوة . . واذا أردت علما تقوم بسم العالم ، واذا طلبت حكمة تقول بسم الحكيم ، واذا أردت قهرا تقول بسم القهار . .

لكن الأفعال لا تحتاج الى صفة واحدة ، بل تحتاج الى صفات كثيرة . . وكل فعل ـ حتى التافه من الأفعال ـ يحتاج الى تكاتف صفات متعددة ، فهو يحتاج الى القدرة ، والى العلم قبل القدرة ، ويحتاج الى الحكمة والأناة والحلم . . وهي صفات كثيرة كما رأينا . .

ولهذا . . وبدلا من أن يثقل عليك الله بتكرار صفات المجالات للفعل قال لك . . قل اسم الله الذي يجمع لك كل المجالات . . فاذا قلت بسم الله . . كأنك قلت : بسم القوى ، بسم العالم ، بسم الحكيم ، بسم الرحمن ، بسم الرحيم ، بسم المهيمن ، بسم القادر ، بسم المقتدر . . الى آخره . . .

تكون كل هذه المجالات توفرت لأنك اتيت بسم الذات الموصوفة بصفات الكمال .

هل هي من آيات السورة :

« **بسم الله الرحمن الرحيم** » ؟ .

اختلف فيها العلماء . .

لكن اتفقوا على شيء . . اتفقوا على انها آيات من القرآن . . ١١٤ آية من القرآن . . فهي من القرآن قطعا . . وهي من سورة النمل في صلبها . . أي هي في

سورة النمل : آية من القرآن وآية من السورة نفسها . .

لكن « **بسم الله** » في غير سورة النمل آيات من القرآن . .

والمختلف فيه : أهي آيات من السور نفسها أو هي آيات من القرآن جاءت للابتداء في الفاتحة ، وللفصل بين السور بينما هي ليست من السور ؟ . .

بعض العلماء يرى هذا والبعض الآخر يرى الرأي الثاني . . الا ان الحديث الذي رواه العلاء عن أبي هريرة رضي الله عنه ووجد في صحيح مسلم رجح قول العلماء بأنها آيات من القرآن ولكنها ليست آيات من السور . وهذا هو السبب في انك تسمع بعض الأئمة حين ينوي للصلاة يقرأ : الحمد لله رب العالمين . . لانه يسر بالتسمية باعتبار أن كل شيء ذي بال يبدأ بسم الله .

ويستدل بهذا الحديث ـ حديث العلاء ـ أن الحق سبحانه وتعالى قال في حديثه القدسي :

« **قسمت الصلاة بيني وبين عبدي** » .

ويعني بالصلاة فاتحة الكتاب بدليل التفسير الذي جاء بعدها وكونه يقول : « **قسمت الصلاة بيني وبين عبدي** » تدل على ان فاتحة الكتاب هي جوهر الصلاة . .

يقول الحديث القدسي :

« **قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين . قال الله حمدني عبدي ، فاذا قال الرحمن الرحيم قال الله اثنى علي عبدي ، فاذا قال العبد مالك يوم الدين قال مجدني عبدي ، واذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فاذا قال اهدنا الصراط الى آخره قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل** » .

رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وابن ماجة عن أبي هريرة .

ونأتي الى قوله « **نصفين** » أي نصف له ونصف لك . . اما الذي له ـ سبحانه وتعالى ـ فثلاثة هي : **الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين** .

الرحمن الرحيم مرة أخرى :

ونقف عند كلمة « **الرحمن الرحيم** » فقد جاءت بعد بسم الله في « **بسم الله الرحمن الرحيم** » . . فالحق سبحانه وتعالى بدأ بسم الله الرحمن الرحيم ونحن عندما نعمل شيئا نبدأ « **بسم الله الرحمن الرحيم** » ، والعمل يكون للوصول الى غاية أو نتيجة ، فاذا ما أثمرت الغاية ينبغي علينا أن نستقبل ذلك بقولنا « **الحمد لله** » . . فالحمد هنا يأتي بخصوص الثمرة . . فاذا ما رأينا الثمرة نقول : « **الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين** .

وهذه اشياء ثلاثة . . ثلاث آيات . . ثم يجيء بعد ذلك :

﴿ **اياك نعبد واياك نستعين** ﴾ فهنا عابد ومعبود وهنا مستعين ومستعان ، وتلك أشياء بين الله وبين عبده .

الـــرحيــم :

لولا رحمانية الله سبحانه وتعالى لما بقيت لنا نعمة . . .

اذن نحن نعيش مع معاصينا في مجالات وجلالات الرحمن وجلالات الرحيم . . نعيش بها . . ولذلك عندما يعرض الحق سبحانه وتعالى نعمة ـ انظروا الى دقة الأداء في القرآن :

﴿ **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ . (النحل ١٨)

وهذه الآية ورد صدرها في القرآن مرتين لكن اختلف عجزها . فقال تعالى :

﴿ **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم** ﴾ .

وقال في آية أخرى :

﴿ **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار** ﴾ . (ابراهيم ٣٤)

كما هو واضح ان صدر الآيتين واحد لكن العجز يختلف فيهما حسب السياق لأن سياق الآية الأولى جاء في تجليات الرحمن ، وسياق الآية الثانية جاء في تجليات جبروت العاصي الذي يأخذ نعمة الله ويستغلها في معصيته . .

يقول تعالى :

﴿ **ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ .

(ابراهيم ٢٨)

هذا القول ـ كما نرى ـ يناسب الظلوم الكفار . .

لكن عندما يقول الله بعد ذكر النعم أنه غفور رحيم فذلك لان النعمة تقتضي ثلاثة عناصر :

ـ عنصر هو المنعم .

ـ وعنصر هو المنعم عليه .

ـ وعنصر هو النعمة .

فمن حيث النعمة التي تتم من المنعم الى المنعم عليه فهي كثيرة وفيرة . . وفي علم النحو كما نعرف نجد أن حرف « **ان** » هو حرف شرط لكنه يستخدم في المشكوك فيه . .

أما « **اذا** » فتستعمل في الشيء المحقق . .

فلماذا آثر الله سبحانه وتعالى هذا الاسلوب . . فقال « **ان تعدوا نعمة** . . » ؟ لأنه من المشكوك فيه أن يقبل أحد على عد نعم الله . .

هل حاول أحد أن يعد نعم الله ويقيم لها سجلا !؟

ان الاقبال على الاحصاء العدي غلبة ظن اما الذي لا ظن فيه فهو عدم قدرتنا على احصاء هذه النعم . . فنحن حينما نقبل على احصاء شيء يتوافر لدينا الظن بأن احصاء هذا الشيء أمر مستطاع . . لكن اذا كان هذا الشيء كثيرا جداً جداً لا نستطيع عده فلا يمكن أن نظن أننا نقدر على عده . .

ومعنى هذا أننا لا نعد هذا الشيء أصلا . .

وقول الله تعالى باستدامة النعمة من المنعم على المنعم عليه دليل على أنه غفور رحيم . . والا . . فلو أن الله ليس بغفور ولا رحيم ، وكان ينفعل على العاصمين لكان منع عنهم النعم . .

اذن فمن ناحية المنعم عليه هو ظلوم كفار ولكن من ناحية المنعم هو غفور رحيم . . وهكذا غطت غفور رحيم ظلوم كفار ومن هذا المنطلق وبهذا المنطق ينبغي تناول فاتحة الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

أسرار سورة الفاتحة

مقاصد القرآن

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين والفاتحة تقتضي خاتمة ، ما دام فيه فاتحة تقتضي خاتمة وتقتضي شيئين : الفاتحة والخاتمة تقفل الفاتحة بالخاتمة .

أما كونها سميت بأم الكتاب أو الأساس فلأن مقاصد القرآن ثلاثة : المقصد الأول العقائد ، المقصد الثاني ، الأحكام المقصد الثالث القصص .

العقائد ، هي مرحلة التربية قبل السلوك ، والاحكام هي النظام الذي يسير عليه السلوك ، ثم قصص جاء ليحكي قصة العقيدة في التاريخ ، بواسطة مواكب الرسل الذين تفاوتوا لنشر الدعوة والقصد منها تأريخ العقيدة والأحكام في الأمور اذن فالمقاصد الاصلية : العقائد والأحكام ، والقصص جاءت عوناً وتثبيتاً في هذين المعنيين ، فاذا كانت مقاصد القرآن ثلاثة : العقائد والأحكام والقصص ، وجدنا في فاتحة الكتاب جماع كل ذلك فيها العقائد وفيها الأحكام وفيها القصص . .

العقائد تتمثل أمهاتها في الايمان بالله ذاتاً وصفات ، هذه هي العقائد ، وبالتبليغ عن الله ثبوتاً ومن نهايته اليه معاداً هذه العقائد أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، اذن عنصر العقائد مستوفى .

وبعد ذلك يأتي عنصر الأحكام : اياك نعبد ، واياك نستعين ، وهذه هي الأحكام .

وبعد ذلك يأتي القصص ، هذا القصص حكى مواكب الرسل في الأمم ، صراع بين حق وباطل ، بين هدى وضلال ، وبعد ذلك انتصار الحق على الباطل ، وامتثال الناس في هذه المسألة صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

هذا هو البحث ، فكأن سورة الحمد ، أو سورة الفاتحة جمعت المقاصد الأساسية في القرآن ، وليس القرآن الا مذكرة تفسيرية وتفصيلية ـ هذا هو معناها الأساسي ، ولهذا كررت في الصلاة ، فكأن معنى الدين كله مركز في فاتحة الكتاب .

● **حول الحمد والشكر :**

استهلها الحق سبحانه وتعالى بالحمد ـ ومعنى الاستهلال بالحمد هنا أن الحمد فطري يجب أن يوجد حمد ، ولكن ليس معنى ايجاد الحمد توجيه الحمد لمن ، أما فطرية الانسان ، فطرية البشر ، فتقتضي منه أنه حين يرى نعم الله حوله وحين يرى الأشياء مطيعات ، وحين يرى الأشياء مسخرة له ، وحين يرى في نفسه مملكة واسعة ، وحين يرى ، وحين يرى هذه النعم لا بد أن يوجد حمد ، فكأن القرآن لم يشرع حمداً ، بل وجه حمداً ، والفطرة هي التي أوحت بوجود ذلك الحمد ، كما نقول هكذا : المال لفلان فكأن المال مقطوعاً بوجوب ، ولكن الخلاف لمستحق المال ، يبقى يوجه المال لمن ؟ لله ـ الحمد يستدعي عناصر ، يستدعي حامداً ، ويستدعي محموداً ، ويستدعي محموداً به ، ويستدعي محموداً عليه . .

أما الحامد ـ من الحامد ؟ الانسان لأننا مكلفون ، وان وجد في الخلق طبعاً ـ « وان من شيء الا يسبح بحمده » انما نحن نتكلم عن الحي الذي يفكر ، اذن فالحامد الانسان ـ فمن المحمود ؟ ـ المحمود دائماً يكون ملحوظاً فيه أنه جميل ، فضلاً هذا الجمال قد يكون ذاتياً فيه ، وان لم يتعد الى وقد يكون فيه ومقدماً اليه ، شيء جميل وفيه جمال ، وان لم يتعد الجمال نفع من يستحق أن يمدح ويستحق أن يثنى عليه ، وقد يكون جميلاً في ذاته ويعود على منه بشيء فمثلاً ، الانسان القوي ، قوته هذه شيء جميل فيه يستحق أن يحمد وان لم يتعد من قوته شيء اليه . .

وشيء ثان ، يوجد جميل ويتعدى اليه ، فحين نتكلم في المحمود نفرق بين حمد وبين مدح وبين حمد وبين شكر ثلاثة ألفاظ تكاد تدور في معنى واحد ـ حمداً

ومدحاً وشكراً . ما الذي يفصل الحمد عن المدح عن الشكر ؟

أما الشكر فهو على نعمة متعدية من منعم على منعم ، عليه الشكر. وأما الحمد فلوجود شيء في المحمود يبهرني اعجاباً ، وقد يتعدى الي منه شيء ، لكن الشكر لازم يتعدى ، وقد يكون الحمد لأنك أعطيتني ولكن يكون الحمد لأنك منعت عني ، فالشكر يتأتى في الايجابية يعطيك شيئاً فتشكره عليه ، لكن الحمد يأتي أن تمنع عني شيئاً ، وهذا معنى قول القائل « الذي لا يحمد على مكروه سواه » المكروه فيه سلبيات ومع ذلك أنا أحمد عليه ، لا أشكر عليه ، أنا أحمد عليه ، اذن فالمحمود يجب ان يكون ذا جميل ، هذا الجميل ، إما متعلق به فضل ، وإما متعلق به فواضل ، فضل أي في ذاته فواضل يعني تجيء اشياء متعددة ، فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **الحمد لله** ﴾ كأنه يقول لنا : الحمد الذي يجول في خاطركم وتنفعلون له من الأشياء التي تبهركم جمالاً ، والنعم التي تغمركم شمولاً ، كل هذا يجب أن يكون الحمد موجهاً فيها لمن ؟ لله ، حتى ولو كان الحمد أولاً لوسيلة ، لأن هناك شيئاً نتلقاه من الحق مباشرة ، وشيئاً نتلقاه من الحق بواسطة الأسباب والمسببات ، فعلى فرض أنك تريد أن تحمد فلاناً على أن نالك منه شيء ، فانظر مصدر نوال هذا الشيء ، فسيرد كله الى الحق سبحانه وتعالى .

كلمة الحمد هذه فيها « أل » ويقال ما فيه « أل » انما يراد به الحقيقة ، حقيقة الحمد يجب أن توجه الله وان توجهت الى الغير مجاز انما حقيقية هو صاحب الحمد ، لأنه سيؤ ول اليه ، لأنك ما حمدت أي انسان بما أعطاك بذاتيته ، وانما أعطاك بمعطياته من الحق ، فسيئول الأمر كله الى الله سبحانه وتعالى .

ويقول لك كذلك ان « أل » تأتي للاستغراق ، يعني تستغرق كل أفراد الحمد ، معنى الاستغراق أن الحمد يبقى مفرداً لكن تجيء فيه « أل » ـ أل هذه قائمة مقام « كل » فكأنك تقول : « الحمد لله » يعني أن الحقيقة حقيقة الحمد لله ، هذه واحدة ، وان كانت استغراقية بكل أنواع الحمد ، كذلك ستقول « أل » هذا كل أسباب الحمد ، وان كانت موجهة لأسباب ما موجهة لمن ؟ موجهة الى الحق سبحانه وتعالى .

هذه السورة فيها النسق العجيب يسمونه النسق المستوعب ، قال لك لأن الشيء يحمد لذاته ، لأن فيه خصالاً ذاتية في فهمك ، يعني أنت عندما ترى مثلاً لؤلؤة وتمدح

صفاءها ، هذا الصفاء ذاتي فيها ، فهي لم تهب لنفسها هذا الصفاء ، وقد يكون مما نالك منه ، فيكون شيئاً ذاتياً يستحق أن يحمد ، ويستحق أن يحمد لما نالني من فضله ـ هذه الثالثة ، ويستحق أن يحمد لما أطمع في نواله ، ويستحق أن يحمد للخوف من الوجود تحت سيطرته ، كم نوعاً من الحمد ؟ حمداً للذات ، وحمداً لما نالني سابقاً عن الحمد من هذه الذات ، وحمداً من أن آمل أن أناله من الخير ، وحمداً لأنه المرجع وله قهر عليَّ . .

● **أنواع الحمد :**

أربعة أنواع : حمد للذات ، وحمد لما نال قبل انشاء الحمد ، وحمد تأمله بعد انشاء الحمد رجاء ، وحمد لانشاء الخوف .

هذه العناصر التي يمكن ان تكون ، فاذا كان الحمد للذات ، فالله قال الحمد لله فكأنه بربوبيته يستحق أن يحمد ، هذه واحدة ، وبعد ذلك تأتي رب العالمين رب وما دام رباً يكون متولياً التربية ، والتربية ، بانعامات وامدادات ، قبل أن « أحمد أخذت » الثمن ، وبعد ذلك يقول ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ لما يرجى منه ، ﴿ **ومالك يوم الدين** ﴾ لما يخاف منه ، العناصر كلها مستوفاة : الحمد لله بذاته يستحق الحمد ، هذه واحدة ـ رب العالمين بما أعطاني يستحق الحمد بما أرجو منه من الرحمة مستقبلاً ، يستحق الحمد بما أني سأرجع اليه ، وأكون تحت قبضته فيستحق الحمد ، اذن فمن أي جهة من الجهات فهو مستحق للحمد ، اما ذاته واما ثمناً لما قدم من تربية ، واما رجاء لما يرجى منه من رحمة ، واما خوفاً لما يقع فيه من تحت سيطرته ـ ونجد أن الذات والخوف من الوقوع تحت السيطرة صنفين اثنين ، ولذلك عندما سئل الجنيد رضي الله عنه ، قيل له : ما النهاية ؟ قال : الرجوع الى البداية ـ الرجوع الى البداية ولذلك جاء الحمد لله فاتحة الكتاب ، وآخر دعواهم أن الحمد لله ، الفاتحة للكتاب فكأن الحمد لله طلباً منه ، والحمد لله واقع بعد أن ترجع الأمور كلها اليه ، فلا يوجد الا هو محموداً ، كان الأول تكريماً ـ هذا من ناحية المحمود لكن ما الذي يحمد به الله ؟ ما هو ؟ قال لك : تحمد الله عن خلقه ما يحمد به ـ لماذا ؟ قال لك : لأن الحمد يقتضي من الحامد أن يدرك

أوصاف الكمال للمحمود ، وهذا أمر ، لا أمل للبشر في أن يدركوه . . هذه واحدة ، ثانياً بعد أدراك ما يدرك على قدر طاقته يتطلب ايجاد الصيغة المناسبة لهذا ادراك اذن فتحمل الحق عن خلقه أن يعلمهم صيغة الحمد له ، أراحنا من تعب كبير والا كان الانسان سيحار بأي أسلوب يحمد الله ، كيف يحمده الحمد المناسب له ، ولذلك سبحانك : لا أحصي ثناء عليك ، فكأن الحق أعطانا العذر وأيضاً سوى بين العبيد ، لأن المطلوب من كل العبيد أن يحمدوا ، وليس كل العبيد بقادر على أن يصوغ الصيغة المناسبة لحمد الله ، فحين يعلمنا الله أن نحمده بقولنا : « الحمد لله » يبقى استوى في الموهبة واستوى الأمي ، اذن يعلم الله للحامد صيغة الحمد نعمة أخرى تستحق الحمد ، ولذلك قالوا : ان الانسان اذا ما كان يحمد للنعمة فسيحمده على نعمه ، ثم يحمده على تعلمه صيغة الحمد ، ويحمده على تعلمه صيغة الحمد بصيغة جديدة ، اذن سيتسلسل الحمد ، وبذلك يظل العبد دائماً حامداً ، والله محموداً . .

● حول كلمة رب :

هنا في الله ذكر : « بسم الله رب العالمين » أربط أول وصف هو وصف النعمة السابقة ، وقال : ان كلمة « رب » هذه فيها معنى التربية ، فيها معنى السيادة ، فيها معنى الملك ، الا أنها توفي بمطلوبات من أسماء تقتضيها ، لأنه ما دام مربياً له صفات كثيرة ـ لا بد أن يكون فاضلاً ، أن يكون حكيماً ، أن يكون مدبراً ، أن يكون عادلاً ، أن يكون قيوماً ، الذي يربي لا بد أن توجد فيه الصفات التي تؤهله للتربية ، ولذلك قالوا : ان هذا الاسم يتطلب كثيراً من الأسماء فيعتبر اسماً من الأسماء الأم ، وهذا الاسم يقتضي صفات للحق سبحانه وتعالى ، ويقتضي أشياء يوجد أثرها من الحق في الخلق .

الأول يقتضي صفات توجد في الخلق وفي الحق ، فالحق سبحانه وتعالى مثلاً يعلم ذاته ، ويعلم خلقه ، والعلم من مستلزمات الربوبية ، لكن العلم الذي هو من مستلزمات الربوبية فيه قدر يرجع الى المربي ـ سبحانه ـ وفي قدر يرجع الى المربي ـ الانسان ـ فعلمه بذاته يرجع الى المربي ، وعلمه بمن يربى راجع الي . . لكنه يحتاج الى صفة أخرى هي من الحق المربي . ولكن أثرها يكون في المخلوق ، والخالق ليس

له علاقة بها ، الا علاقة الايجاد فقط ، فمثلاً الخالق يعلم ذاته ، ويعلم غيره ، ولكن الخالق يخلق غيره ، والصفة ليس لها دعوات بذاته ، لا نقل : يخلق ذاته .

اذن الصفات التي تقتضيها أو الأسماء التي تقتضيها الربوبية نوعان : نوع متعلقها في المربي ، ونوع يتعلق بالمربى ، فمثلاً صفة العلم مستلزم لها صفة الربوبية ، تتعلق بالحق في ذاته ، وهو يعلم ذاته ، ويعلم مخلوقاته ، لكن لا نقل : يخلق ذاته ، انما نقول : يخلق غيره .

نجد أن كلمة الرب أو اسم الرب هو المطلع دائماً لكل خلقه ، كل ما للانسان أمر يقول : يا رب هكذا بلا شعور لماذا ؟ لأنك تنادي ما به تستأنس أن تخرج من كربتك ، وما دام هو الرب والمربي والمفروض فيه أن يرعى مربوبه ، فإذن أنت تطلب بالصفة التي يوجد منها الفرج لك ، بعض الناس أصحاب الفتوحات قال لك : وأيضاً كلمة الرب هو الاسم الاول ، الذي شنفت به الآذان قديماً ، فأنست النفوس والارواح به ، ألست بربكم ؟ قالوا بلى . لم يقل « الهكم » لأن اله يقتضي معبودين ، انما الربوبية محتاجة تربية ، وأنت قبل أن تكلف بهذه العبودية كنت في حاجة إلى أشياء كثيرة ، أنت لا تكلف بهذه الأشياء الى بعد سن مخصوصة انما قبل تلك السن كانت هناك أشياء متعلقات ، صفات من ؟ صفات الرب اذن فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ يدل على أن هذا هو الاسم . .

ان اول شيء قرع الآذان من صفات الحق للخلق ، هو هذا الاسم الذي عرفوه به أولاً ، فعرفوه رباً قبل أن يعرفوه الهاً ، لماذا ؟ لأن الربوبية كسب الألوهية ـ ستنقل حاجة منك ـ ألست بربكم قالوا : ماذا قالوا : بلى ـ هنا نجد أن الحمد تعلق بشيء يستحق الحمد ، وأن لم يتعد اليك ، وبشيء يستحق الحمد وقد تعلق بك ، يعني قبل أن يطلب منك أنت أن تحمده ، وشيء آخر ترجو أن يكون ، وشيء آخر تخاف أن يكون .

لو نظرنا الى ترتب هذه الأشياء وجدنا ان الذي قدم لك من النعم ما رباك به ، لا بد أن يكون قد انتظم كل عناصر تكوينه ، لأن التربية تعهد كامل ، وأنت من عنصرين : عنصر مادي وعنصر روحي .

● **المادة والروح :**

العنصر المادي قدر لك في الأرض الأقوات ، خلقك من الأرض وقدر لك أقواتك ، والعنصر الروحي الروح من أمره نفخ فيه من روحه ، فهو اذن يبقي عنصر بقائها ، وعنصر تكوينها ، كما كان من جنس ما في المادة ، من جني ما خلقت منه ، هو الطين ، فكذلك يكون العنصر الآخر من أمره يبقى اذن منهجه الذي به تربية الحياة الروحية ، وتربية الحياة المعنوية للعنصرين ، تجد في سورة الحمد أو في فاتحة الكتاب ، الربوبية بعناصرها المطلوبة ، مادية وروحية ، وتجد في سورة أخرى أيضاً استهلها بالحمد في أمر مادي : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور : سورة الانعام ، هذه في الناحية المادية الصرف ، اما في الناحية الروحية الصرف « الحمد لله الذي نزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً » فمرة يستهل الحمد للعناصر المادية ، ومرة أخرى يستهل الحمد للعناصر الروحية ، وفي فاتحة الكتاب جاء بما يجمع بها فكأن رب العالمين يتولى تربيتهم ، وما دام يتولى تربيتهم ، فيكون العنصران الاثنان : العنصر المادي والعنصر الروحي .

ونحن باستقراء القرآن وجدناها خمس سور مبتدئة بالحمد : فاتحة الكتاب في الحمد العام ، ثم في الأنعام في الحمد على النعمة المادية ثم سورة الكهف في الحمد على النعمة الروحية ، كتاب ولا تظهر سيرة المادة هنا ، وبعد ذلك جاء في سورة سبأ : الأول «الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة» وبعد ذلك يجيء في سورة فاطر : « الحمد لله جاعل الملائكة رسلاً ، أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء » ، يبقى اذن السور التي جاءت في الحمد كلها اما أن تتكلم في العنصر المادي ، واما أن تتكلم في العنصر الروحي ، واما أن تتكلم في الوسائط التي هي في الملائكة وما الى آخره ، واما أن تتكلم في المجموع ، اذن ، الحامد يحمد المحمود لذاته ، ولنعم سبقت ، ولنعم ترجى ، ولخوف . . نأتي الى المدح قال لك : المدح هذا لا يكون الا على شيء قد وجد ، وشيء قد لا يوجد بالاختيار ، الحق سبحانه وتعالى إن شاء أنعم وإن شاء لا ينعم ، لكن صفات الجمال في أي حاجة ، الموجودة في ذاتها ليس لها اختيار في أن توجد فيها أو لا توجد اذن فيوجد لها مدح ولا يوجد لها حمد ، وأيضاً فالحمد لا بد أن يتوسم فيه العلم ولكن المدح يكفي فيه .

● **النسبة بين شيئين :**

إن النسب التي توجد بين شيئين يعني : المحكوم به والمحكوم عليه المحكوم به والمحكوم عليه ليس ضرورياً أن يكون اثباتاً أو نفياً . أي حكم يعني مثلاً ، اذا قلت : محمد مجتهد فمجتهد محكوم به ، ومحمد غير مجتهد وان كان عدماً محكوم به أيضاً ، الآن فهنا وجدت نسبة بين موضوع وبين محمود ، هذه النسبة نعتبرها أحكام الحكم ، الأول أن يكون مجزوماً به بعد أن يكون مجزوماً بها ، تنتقل الى حكم آخر : أهي واقعة في المنطق وما جزمت به أهو واقع أم غير واقع ، لأن الانسان قد يجزم بقضية غير واقعية ، والا ما كان الكذب ـ الكذب أيضاً فيه نسبة ونسبة ، أنا جازم بها الا أن الفرق بينه وبين الكذب ، أن هذا واقع وذلك غير واقع ، والذي قال : الأرض على قرن ثور ، هذه نسبة عندي إنما أهي واقعة ـ أم غير واقعة ليست واقعة يبقى اذن النسبة المجزوم بها اما أن تكون واقعة أم غير واقعة ، نقول : اذن ، فان كانت واقعة ، نقول : اذن ، فان كانت واقعة فماذا تبقى ؟ يقول لك : ان كانت واقعة اما أن يكون عليها دليل أو لا دليل عليها ـ الآن يكون العلم نسبة مجزوم بها وواقعة عليها دليل وان كانت واقعة وليس عليه دليل ـ هذا هو التقليد . .

الولد عندما نلقنه : « محمد رسول الله . . الله واحد » كلام نلقنه له ويردده ينشأ قبل أن ينضج عقله ويعرف يستدل على أن هذه قضايا ، يعني واقعة ، هذا اسمه تقليد ، اذن التقليد يختلف عن العلم هو نسبة مجزوم بها وواقعة ، لكن العلم عليه دليل ، والتقليد ليس له دليل ، لا دليل عليه الا الثقة في من قال ، فأن كانت غير واقعة مجزوم بها ، وغير واقعة ، قال لك : هذا هو الجهل ، اذن الجهل ادراك نسبة الناس بتفهم أن الجهل عدم العلم ، نقول لك : لا ، الجهل ادراك نسبة غلط مجزوم بها وغير واقعة ، اذن ففيه فرق بين علم يناقض الأمي ، وعلم يقابل الجهل ، علم يقابله أمي ، يعني لا يعلم ، هذا يعلم وذلك لا يعلم ، اي ليس عنده جزم بنسبة ، لا يعلم يعني لا جزم بنسبة ، وهذا غير متعب لكن الجاهل يعلم نسبة ، يجزم بنسبة والذي أتعب الدنيا كلها من الجهل ، ولذلك فنحن نقول عن العصر الجاهلي : انه لا يعلم أو يعلم ، قضايا مخالفة للواقع ، وليته لم يكن يعلم العلم الذي يجعل الانسان يقف ويطابق ان قلبه مشغول بعقيدة فاسدة مسبقة ، فاذا جاءت العقيدة الجديدة فلا بد أن يكون من ليس لديه

علم مستعداً للدخول فيها ، اذن فالعلم قد يقابله جهل لك ، اذا نظرنا الى الجزم بالواقع وبغير الواقع ، انتهينا وقد يقابل الأمي اذا كان لا نسبة حتماً ، حين يقول الحق سبحانه وتعالى ـ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ـ لم يقل تجهلون ، انما قال : لا تعلمون شيئاً لا معلومات على الاطلاق لا تعلمون شيئاً ـ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ـ تأتي لكم بالعلم ـ لعلكم تشكرون ، اذن فالنسبة ان كان مجزوماً بها ـ ان كانت ـ عندما تأتي في التقسيمات عادة لكى يريح الانسان نفسه ، الشيء الذي لا ينقسم بعد ذلك يجيء أولا ـ النسبة ان كان مجزوماً بها ، فان كانت غير واقعة فهو الجهل ،وان كانت واقعة ؟ فإن لم يكن عليها دليل فهي التقليد،وان كان عليها دليل فهي العلم ،وان لم تكن النسبة مجزوماً بها نقول له : الايجاب والسلب عنصران متساويان ، يكون هذا الشك ، الايجاب راجح ، يكون هذا الظن مرجوحاً ، يبقى هذا الوهم يبقى اذن المدح ، يكفي وجود الظن فيه ، لكن الحمد لا يوجد الا عن علمه في القائمة ، القائمة الاولى أيضاً تكون الصفة المحمود عليها صدرت بالاختيار ، يعني ان شاء فعلها أم لم يفعلها باختيار الفاعل الذي سيحمد ، لكن في المدح ليس ضرورياً يكون باختياره ، جاءت بالصدفة ، هكذا يعني لما تمدح واحدة ، تقول : شكلها جميل لم تأت بحاجة ـ ايضاً ، فإن الحمد مطلوب من الله ، طلب شرعي ، والمدح ، الرسول نهى عنه . احثوا التراب في وجوه المداحين ، انما نقول ان الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ **من لم يحمد الناس لم يحمدني** ﴾ لأن الحمد انفعال بالنعمة والنعمة قد تكون من الحق مباشرة ، وقد تكون بوسائطه ، فان كنت لا تنفعل بالوثائق فأنت ايضاً لن تنفعل بالموثوق ، يبقى من لم يحمد الناس لا يحمدني ـ هذا هو الفرق بين الحمد والمدح .

يقولون : ان الشكر ـ الشكر هذا يأتي باللسان ، الحمد يأتي باللسان ، فيها لسانية ـ الشكر لا بد ان يكون على العطاء ـ كذلك الحمد قد يأتي على المدح .

● **رحمن ورحيم :**

يقول لك : الرحمن والرحيم . . رحمن ورحيم ـ نحن لما كنا تكلمنا في « بسم الله الرحمن الرحيم » قلنا علاقة المذكور ، قلنا الرحمن هذه مم ؟ من الرحمة ، وبعد

ذلك الوصف ، فيها راحم وأتى رحيم ، وأتى رحمن - يلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يسمي نفسه أسماء ، ويحكي عن نفسه أفعالاً ، وأحداثاً ولكن أنا لست حراً في أن آتي من فعله وصفاً أو إسماً له ، لذلك النفس ، اسم أنا آخذ منه المشتقات كلها ، لكن اذا ذكرت النفس « فعل » لا أخذ منه المشتقات وأسمية ، لماذا أكتفي بالفعل فقط ؟ يعني مثلاً : « ويمكرون ويمكر الله » ليس بمجرد أن ثبت أن الله يذكر ، أستطيع أن آتي بمشتقات - الله سبحانه وتعالى ، اسماء أو أوصاف قال الوصف عن نفسه ، فالله خالق ، وكفى ، وهو رازق ورزاق ، لأنه هو قال « خالق » لكن الله لو حكى عن نفسه فعلاً ، الذي يفعل كذا أقول : لا أخذ أنا منه الوصف ، اذا ذكر الوصف أخذ كل مشتقات الوصف منه فعلاً وصيغة وبلاغة ، واذا ذكر الفعل لا أخذ منه الوصف - لا أقول من « بمكر » وأجيب منه الوصف لماذا لأنها دائماً تقع في مقابلة « ويمكرون ويمكر الله » يخادعون الله يخادعهم ، لا أقول : « الخداع » لا أقول : « المكار » لا أقول : « الماكر » يبقى اذن أسماء الله حينما يطلقها على نفسه نأخذ منها مشتقاتها ، فعل الله حين يكون ذلك فعل لا نأخذ منه مشتقاته ، وقلنا : ان أسماء الحق سبحانه وتعالى ، اما أن تكون أسماء لذاته ، والأوصاف لذاته ، ذاتية ، واما ان تكون أسماء فعل ، قلنا : الذاتية هي أن يوجد الوصيف فيه الفعلية ، أن يوجد الوصف فيه بمتعلق موجود في غيره ، أو بوجود متعلق في غيره ، ان الفارق بين الاثنين أنك في صفات الذات لا يوجد المقابل ، وفي صفات الفعل يوجد المقابل ، ونأتي بأشياء فيها يحدث فيها انشقاق ، مثلاً « هو الحي » والحي صفة لذاته فينشأ مقابل لها ، لكن كلمة محيي فيها مقابلها مميت - العزيز صفة بذاته ليس فيها مقابلها ، انما معز تبقى مذل ، اذن فصفة الفعل ، هي ما تجد لها مقابلاً ، صفة الذات لا تجد لها مقابلاً ، الاشكال الذي وقع بين العلماء هو في وجود الصفات المبالغة في أسماء الله الرحمن ، الرحيم ، الخلاق ، الصبور ، الشكور . نقول : هل الأفعال بالنسبة للحق ضعيفة وقوية عندما نقول مثلاً : فلان صدوق ، هذا جائز : فلان صادق ، لماذا ؟ لان الفعل يقع منه على مراحل ، ولكن بالنسبة للحق - سبحانه - لا مراحل ، اكتساب صفته قوية ولا ضعيفة ، فأنت تنظر الى الوصف بغير وجود متعلق ، فاذا أثبت وصف المبالغة لا يبزم منه ثبوت ، غير وصف مبالغة نقول : « الله شكور » هذا وصف مبالغة يلزم منه أنه شاكر لأنه ما دام فيه الوصف

الاكبر يكون دليلاً على أن الاقل داخل فيها ، فلان علامة يكون داخلاً فيه انه عالم ، اذن فاذا أثبت وصف المبالغة اثباتاً وجب اثبات ما دونه من باب أولى ، لكن اذا نفيت وجه المبالغة فلا أهمية لنفي الآخر ، يعني أقول : فلان هذا ليس علامة ، انما يجوز أن يكون عالماً .

اذن ، فأوصاف المبالغة تدور بين الاثبات والنفي ، على معنيين ، فان كان في الاثبات فاثبات صيغة المبالغة تثبت ما دون المبالغة من باب أولى ، ولكن نفي صفة المبالغة لا تنفي الآخرَ ، فاذا قال « وما ربك بظلام » يكون نفي المبالغة في الظلم ، يبقى اذن الظلم شيء غير مستثنى ـ قال لك اسمع : هل الحق قال وما ربك بظلام للعبد أو للعبيد ؟ اذن هنا المبالغة للفعل تأتي : اما من ناحية تكرار الحدث ، واما من ناحية قوة الحدث ، تأتي من ناحيتين : تكرار الحدث تقول : فلان أكول بمعنى أنه كل ساعتين يأكل ، أو بمعنى اذا أكل ، أكل يعني كمية كبيرة تقول عليه أكول ، اذن فصيغة المبالغة تأتي : اما لتكرار الفعل ، واما بالكمية أو بالكيفية ، يأكل مرة واحدة في اليوم ، انما يأكل أكلاً ما شاء الله ، فهنا حينما يقول الحق : « وما ربك بظلام » لم يقل للعبد ، وانما قال للعبيد ، فالمناسب كلمة ظلام ، أو اذا كان الظلم هو قدرة على ضعيف ، فهو يتناسب مع القادر قوة وضعفاً ، اذن فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ لا يعني كذلك كل الصفات فاذا قلنا : غافر ، وغفار ، وغفور غافر جاءت على الأصل ، وغفور وغفار لان المغفرة ستتعدى الى المغفور اليه ، والمغفور لهم كثير ، اذن ما دام ستتعدى المغفرة الى الخلق سيغفر لهذا ولهذا ، يبقى تكرار الحدث ـ أو انه يغفر الذنب العظيم يبقى كماً .

وعلى ذلك فصفات الحق المبالغة فيها على قدر متعلقاتها ، وأما وهي في الحق سبحانه وتعالى ، فلا تحتمل الصفة فيه قوة ولا ضعفاً ، هنا في الرحمن وفي الرحيم ولذلك عندما يقال : رحمن الدنيا ، فلأن متعلقات الرحمة تشمل المؤمن والكافر « ورحيم الآخرة » لأن الرحمة فيه للمؤمنين ، وهناك فرق بين أن توجد الصفة في الذات ، هو رحيم ، هو في ذاته رحيم ، وبعد ذلك في انتقال الصفة الى متعلقها ، رحمن ، يبقى الرحيم مكملة فيه ، أو ان لم يوجد من يرحمه وصفاً فيه ، ورحمن لوجود من يرحمه ، أو ان الرحمن جاء بها الله سبحانه وتعالى بعد صفة التربية التي هي الحمد

لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ، قال لك : : فيه تربية تأتي بغير طريق الالم ،وفيه تربية تأتي ولكن من وسائلها ما يسيء اليك عند الصفح ،مثلاً التربية التي تجعل صحته حسنة ، لكن فيها مراً لا يناسب الطبع ، انما هوعنصر من عناصر الرحمة ، ومن الرحمة المركبة ، لماذا ؟ قال لك : لانك عندما يكون دواؤك الذي تعطيه للمريض في « شيكولاتة » فليس لديك قوة سيطرة على عواطفك ، لكن اذا كان الدواء مراً ناولته لمريضك ، فهذه رحمة لأنك تبغي شفاءه ، وكونك تجاوزت أسباب العطف منك وقبلت أن تسقيه مراً فتلك رحمة ثانية . اذا وصفت الدواء المر لاثنين : واحد يهمك والآخر لا يهمك ، فالذي أهمك امتنع عن شرب الدواء ، ماذا تصنع فيه ؟ تضغط عليه تعطيه له بالقوة ، قهرك اياه بالقوة ازدياد في رحمتك له ، ومثلاً اذا أقبلت مثلاً على البيت ووجدت الاولاد ابنك وابن جارك وابن أخيك مثلاً يلعبون الورق ، أول ما تنفعل بالقسوة تنفعل على ولدك : انها الرحمة هنا ، والثاني يمكن أن تكتفي معه بالكلام ، فكأن التربية تحتاج اما الى مناولة شيء طيب واما الى مناولة أشياء قد يكون فيها منظف ، هذا المنظف في حاجة الى طاقة من الرحمة تجعلها قوية بحيث تستطيع أن تتغلب على العاطفة السطحية اذن فكأن التربية تقتضي رحمة من المربي للمربى ، والرحمة من المربي للمربى تتفاوت هذا التفاوت ، هذا التفاوت ينشأ من مرحلتين ، ان تربيه بما يكون عند الطبع دائماً ، أو أن تربيه بما يسييء الى الطبع ، فهذا يحتاج الى طاقة أقوى من الرحمة ولذلك قال الرحمن ، وبعد ذلك قال الرحيم ، لماذا ؟ لان فرق المرتبة دائماً مقدم على حجم المنفعة .

هنا بعد أن قال الحق سبحانه وتعالى الحمد ، بعد ذلك عين متعلقها وهو « لله » فكأن الحمد هو الحمد الذي تشعر به بقدرتك ، قال كيف يشعر الفرد ؟ قال : اذا دخلت وأنت جوعان ؟ فوجئت بوجود مائدة عليها ألوان الطعام ، فقبل أن تأكل تقول : من الكريم الذي أعد لنا هذه ؟ اذن فكأن الحمد أمر مقطوع به ، ولكن الخلاف بين الناس هو في توجيه الحمد لمن ؟ فالحق سبحانه وتعالى لم ينشىء لنا الحمد ويقول : احمده ، وانما قال الحمد يجب أن يتوجه الى الله ، وهو اما أن يكون المراد به حقيقة الحمد لله ، واما أن يكون المراد أفراد الحمد لله .

اذن ، فعناصر أسباب الحمد يجب أن يتوجه الانسان بالحمد لله ، واذا كان

الانسان لا يعنيه من الحمد الا الله الحق سبحانه وتعالى :

● **العالمون والعوالم :**

قال « رب العالمين » و « العالمين » ما عدا الله جمع عالم ، وكان الأحق أن تجمع على عوالم ، لأن جمع المركب السالم لا يجمع به الا لعلم العقلاء ، ومن العوالم ما لا عقل له في نظرنا ، واذا كان معنى العقل هو توجيه الشيء النافع ، فان توجيه الشيء للاشيء اذا كان صالحاً لكي يتوجه لغير النافع ، أما الذي بطبيعته أن يتوجه الى النافع ، ولا خيار له في أن يتوجه الى الغير ، فكأنه أخذ خلاصة محض العقل ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما قال في خلق السموات والارض « قالتا أتينا طائعين » أتينا طائعين يدل على التفسير والتفسير معناه أنه لا خيار لها في أن تفعل أو لا تفعل ، فاذا كان قصارى ما يؤدي اليه العقل في أنك تختار الخير لتفعله ، فهي تفعل خيراً بطبيعتها اذن فتفسيرها تدور بتفسير غيرها ، وما دامت تدور بتفسير غيرها وهي أعلى المرتبة من العلم ، فكأنها أخذت حظاً من العقل أوفر مني ، لان عقلي ، أفعل وقد لا أفعل ، لأن العقل يفاضل بين بديلين ، ويرجح شيئاً يسمعه ، وهي لا تفاضل ولا ترجح ، فهي تصل الى الخير من أول الامر ، اذن فمتعنى ذلك أنها في حكم العاقل وأعقل العاقلين . وفي قوله : « رب العالمين » لا يعني أنه رب ايجاب فقط ، ولكنه أيضاً رب قيومية ، لان تربية الشيء أن تبلغ بالشيء نهاية كماله ، وما دام أن تبلغ بالشيء نهاية كماله ، اذن فالتربية سليمة . فليس معنى رب العالمين أنه خلقها فقط ، كما قال الفلاسفة ، لأن هؤلاء الفلاسفة قالوا : ان الله زاول سلطانه في ملكه مرة واحدة ، وهو أنه خلق النواميس وخلق القوانين ، ثم ترك النواميس وترك القوانين تعمل عملها ، نقول لهم : لو أن الامر كذلك لما اختل شيء في ناموس الكون ، لانه سيسير سيراً آلياً ، ولو أنه سار سيراً آلياً لكان لمنطقكم هذا معنى واحد يقول : انني لا أؤمن باله وراء هذا الكون ، لان العالم يسير رتيباً بنظام آلي مما يدل على أن ليس فوقه قوة توجهه ، ولو كان فيه أي توجيه لكان العالم الآلي يشذ في بعض الأشياء وتأتي المدرسة المقابلة له تقول : أنا لا أومن بهذا الاله لأن العالم فيه شذوذ وهذا الشذوذ خارج عن النظام . يا سبحان الله ! فكأن واحداً اتخذ من نظام الكون دليلاً على عدم وجود اله فوق

القوانين ، وواحداً اتخذ من الشذوذ في الكون دليلاً على عدم وجود اله ، لأنه لو كان فيه اله ما كان الشذوذ، وهذا مما يدل على افتراء المنهجين ، فهذا يريد النظام دليلاً للكون ، وهذا يريد هذا الشذوذ دليلاً على وجود الاله ، فنقول له : ان أردت النجاح الدقيق يا من تقول في العالم شذوذ ، فانظر الى النظام الكلي للكون . والنظام الكلي للكون في غاية الدقة ، وفي غاية الضبط ، ولا يشذ فيه شيء ، لأنه لو كان يشذ في النظام الكلي للكون شيء للنظام العام ، فليشذ العام ، وان أردت الشذوذ ، فدليلك على أن هناك قوة فوق القانون ، تستطيع أن تخرق القانون ، فانظر الى الشذوذ في الافراد وليس في النظام الكلي ، لأن النظام الكلي لو فسد يبقى معنى هذا أن الله يريد أن ينهي العالم ، فالنظام الكلي ثابت ، والشذوذ أيضاً موجود ، ولكنه ليس شذوذاً في الاجناس ، ولكنه في الافراد ، لان الشذوذ في فرد لا يعني انهاء القاعدة الكلية ، فاذا جاء شذوذ في فرد من الناس ، أو في فرد من الحيوان ، فقد بقي قانون الجنس في بقية الافراد سليماً . في المعجزات التي جاءت على أيدي الرسل ، لا تفيد ان النظام العام شذ في بعضهم ، فمثلاً قانون الماء شذ في مسألة موسى ، وقانون استطراقه وسيولته ، وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق ، اذن قانون الماء وسيولته ، انتهى ، وبعد ذلك أراد موسى أن يضرب ، فقال له : اترك البحر رهواً كما هو عليه ، فعاد الماء ثانياً لسيولته ، الذي يتحكم في تكوين العامل في جنسه يكون دليلاً على أنه ليس سائراً بقانون ، وانما هناك شيء فوق القانون . وقلنا : ان في مسألة سيدنا ابراهيم مع النار ، ليس المقصود انجاء ابراهيم ، والا لو كان المقصود انجاء ابراهيم من الموت ، أو من النار لكانت هناك وسائل كثيرة : ان لا يمكنهم من القبض عليه أو من القائه ، أو أنهم حينما أوقدوا النار ، كان من الممكن أن تأتي سحابة بمطر فتمطر فتطفىء النار ، ولكن الله أراد أن يجعل النار ناراً ، ويمكن من ابراهيم ، وينقل ابراهيم ويلقى في النار ، وهي نار ، ومع ذلك يتعطل قانونها ، ومع ذلك فكل المعجزات من هذا اللون ، اذن فالمعجزات تركها الحق سبحانه وتعالى في بعض النظم العامة ، ليثبت أن قدرته فوق الناموس ، وان الناموس لم يعمل عمله بانطلاقه من الخالق ، ثم سار حراً ، بل هناك قوة فوق الناموس تستطيع أن تخرق الناموس وتبطل الناموس .

والحمد لله أولاً وأخيراً

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرات في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾

صدق الله العظيم

تمهيد

قضية الايمان بالله عز وجل لم يأت بها في الاخبار انما جاء بها في المجال الايماني ، ولم يأت بها في الاخبار عن حقائق الكون أو عن معجزات الخلق .

ان الله سبحانه وتعالى قد وضع في هذا معجــزة وتشريعاً . . أما المعجزة . فهي قوله تعالى ؛ ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم** ﴾ واستخدام لفظ «السين» معناه هنا أنه وقت نزول الآية لم يقولوا وأن القبول سيتم بعد نزول الآية . والمعجزة هنا أنه وصف الكفار الذين سيسألون عن سبب تغيير القبلة بالسفهاء . . قبل أن ينطقوا بسؤالهم . .

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى تحداهم في أمر اختياري يقع منهم . . وكان من الممكن لهؤلاء الكفار ألا يسألوا عن سبب تغيير القبلة . . ويقولوا أن هذه مسألة تتعلق بالعبادة لا دخل لنا بها . . وحينئذ كانوا يكذبون القرآن . . ويقول الناس أين هم السفهاء الذين أخبر الله عنهم سبحانه وتعالى بأنهم سيسألون عن تغيير القبلة . . أن أحداً لم يسأل عن ذلك والقرآن كلام متعبد بتلاوته لا تغيير فيه ولا تبديل ، وحينئذٍ كانوا سيلقون ظلالاً من الشك على القرآن الكريم . . لأنهم لم يسألوا . . ولكن لأنه سبحانه وتعالى هو القائل . . جاء هؤلاء الناس وسألوا ، رغم أن الله سبحانه وتعالى وصفهم قبل أن يسألوا بالسفهاء . . وهكذا كان خصوم الدين هم الذين جاء على يدهم ما يثبت صحة هذا الدين وهذه هي المعجزة .

أما التشريع فيتعلق بعبادة الله جل وعلا ، وتسليم الانسان له . . ونحن اذا أردنا أن نعبد الله فيجب علينا أن نعبده كما يريد هو أن يعبد ، لأن الله أعلم بطريق عبادته .

هب أنك مرضت وذهبت الى الطبيب . . وقال لك افعل كذا وكذا لتشفى . . فأما أن تفعل واثقاً أن علم الطبيب أكبر من علمك . وأما لا تفعل ذلك مؤمناً بأن هذا الطبيب لا يعرف شيئاً ، وأما أنك تناقشه . . وفي هذه الحالة يجب أن يكون علمك مساوياً لعلم الطبيب ان لم يكن أكثر منه .

فاذا كان ذلك يتم مع البشر فكيف مع الله سبحانه وتعالى ومع تعاليم هذا الدين بأن افعل أو لا تفعل . . وكل ما أمر به وما شرعه الله سبحانه وتعالى . . أنك أحد ثلاثة . . انسان مؤمن بالله وقدراته وعلمه . . اتبع ما يقول لأنني أعرف أنه أعلم مني بما فيه شفاء النفس في الدنيا . . وحسن الجزاء لها في الآخرة . . ومن هنا اتبع تعاليم القرآن . . ولذلك يخاطب الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز المؤمنين دائماً فيقول : ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ ذلك لأن المؤمن يدرك دائماً أن علم الله أكبر وأن قدراته أعظم من قدراته . . ومن هنا فانه يتبع ما قاله الله . . كما يتبع المريض كلام أكبر أطباء العالم ليحصل على الشفاء . . وفرق كبير ولا مقارنة بين علم الله . . وعلم البشر .

وأما الثاني فانسان كافر ملحد . . وهذا يفعل ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب . تماماً كما يمزق المريض أوامر الطبيب ويتبع هواه .

نأتي بعد ذلك الى النوع الثالث وهو أن يكون هناك نقاش حول قضايا الايمان . . في أفعل ولا تفعل . . والنقاش يجب أن يدور حول علم متساو ، وعقل متساو وقدرات متساوية ومن هنا لا بد أن يكون علمه كعلم الله سبحانه وتعالى . . حتى يستطيع مجادلة الله .

* * *

قال تعالى : ﴿لله المشرق والمغرب﴾ .

قضية ايمانية كبرى . . فالله موجود في كل مكان «وأينما تولوا فثم وجه الله» . . وتغير القبلة لا يكلف المؤمن شيئاً . . أي أن اتجاهه في صلاته الى الشرق أو الغرب أو اليمين . . أو اليسار ، لا يضيف عليه تكليفاً ولا يحمله أي مشقة ولكن هنا قضية ايمانية كبرى . . الاتجاه للشرق لا مشقة فيه والاتجاه للغرب لا مشقة فيه . . اذن مستوى التوجه هنا بالنسبة للمؤمن . . فقول الله اتجه الى الشرق . . مثل قوله تعالى ، اتجه الى الغرب هذه لا تحمل مشقة وتلك لا تحمل مشقة والمسألة هنا هي أن نعرف يقيناً أننا نتبع أوامر

الله سبحانه وتعالى فيما قاله في افعل لا تفعل ، فهناك أشياء غيبية عنا أنبأنا الله بها في القرآن الكريم ، ولو لم ينبؤنا بها لما عرفناها ولا وصل اليها الانسان أبداً فهناك الجنة والنار والثواب والعقاب والحساب والآخرة وهناك ما وعدنا الله به وهناك أشياء تحدث في الدنيا ، وعقلنا قاصر على أن يعرف الحكمة منها ، وهذه الأشياء يجب أن نعرفها يقيناً لأنها أتت عن الله سبحانه وتعالى . . هناك الصلاة والزكاة ، وأحكام الدين ، والصوم ، الى آخر ما قرره وشرعه الله سبحانه وتعالى من أحكام لعبادته وطاعته وهذه لها حكمة كبرى قد لا أدركها أنا ، لأن عقلي لا يمكن أن يكون متساوياً لعقل الله سبحانه وتعالى ، ولا تستطيع قدرتي ولا عقلي أن يصلا الى قدرة الله سبحانه وتعالى ولا علمه وحكمته . . ومن هنا فلا مقارنة لأن الله (ليس كمثله شيء) والخطر كل الخطر أن يدخل الى قلب المؤمن ما يوسوس له بأنه يجب أن يناقش هذه العبادات بمنطقه هو وبعقله هو ، وقد أثبتنا من خلال الحديث السابق ، أن ما فوق قدرة العقل موجود وأن يعرف عنه شيء ، وأن الله بقدراته يكشف لكل جيل من البشر ما كان الجيل السابق له عاجزاً عن اكتشافه ليثبت أن ما فوق قدرة العقل والسمع والبصر موجود .

ولعل ما نعيش فيه اليوم من علم يثبت ذلك ، فالعلم لم يصنعه الانسان ولكنه اكتشف الطيران مثلاً ولكنه لم يصنع الغلاف الجوي الذي يمكنه من الطيران ولكن الذي صنع هذا الغلاف هو الله سبحانه وتعالى ودلنا على استخدامه لكن الغلاف الخارجي كان موجوداً ، وقدرة طيران الانسان حول الأرض كانت موجودة منذ بدأ الخليقة وكذلك الميكروبات كانت موجودة مثلاً ولكنها كانت فوق قدرة البصر الى أن تم اكتشاف الميكرسكوب وكذلك أن تسمع ما يدور في الدنيا بواسطة الأثير أو خواص طبقات الجو العليا كل ذلك كان موجوداً لم يخلقه الانسان ولكن الله سبحانه وتعالى أدخله في علم البشر حتى يثبت أن ما فوق القدرة البشرية موجود .

هنا قضية ايمانية كبرى بسطها الله وقربها الينا بما وضعه في هذه الأرض من علم أتاح للعقل البشري اكتشافه لكنه برغم ذلك كله يأتي من يوسوس للانسان ليقول له : لماذا تصوم مثلاً ؟ وماذا يفيد الله سبحانه وتعالى بامتناعك عن الطعام والشراب وهو غني عن الناس ؟ بماذا يزيد ملك الله سبحانه وتعالى إذا أنت امتنعت عن الطعام والشراب وصمت شهر رمضان ، وما الذي سينقص اذا أنت أفطرت ، أو لماذا تقوم بالصلاة خمس

مرات في اليوم ولماذا لا تصلي مرتين فقط مرة عند استيقاظك من النوم وأخرى عند ذهابك الى النوم ، الى آخر هذا الكلام الذي يدخل النفوس محاولاً أن يضعف الايمان فيها وهنا نقول أنك لا تستطيع أن تناقش هذا ولا تعرف الحكمة في التكليف به . . لماذا ؟؟ لأنك في عقلك وتفكيرك لست مساوياً لقدرات الله سبحانه وتعالى ، وما دمت قد آمنت ووثقت بأن الله هو الخالق وهو الفاعل وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون وهو القوة الكبرى الذي ليس كمثله شيء يعلم ما لا تعلم ، اذا وثقت في هذا . . ودخل الايمان الى قلبك . . وجبت عليك طاعة الله سبحانه وتعالى حينما يأمرك فيما تفعل أو لا تفعل لأن الله سبحانه وتعالى هو أعلم منك بهذا كله وهو يطلب منك الطاعة والتسليم ، وأنت لم تصل الى الايمان الا اذا استسلمت وسلمت وجهك لله .

الانسان والعلم

الاعجاز القرآني جلي في أنه يستخدم الألفاظ التي تعبر بدقة عما يريد . . ولا تصادم في مفهومها مع أي عصر . . . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿**والأرض مددناها**﴾ وذلك مطابق لما تراه العين منذ الأزل . . بأن الأرض مبسوطة . . ولكنه في نفس الوقت أكبر دليل على كروية الأرض . . ووصف الجبال أنها تمر مر السحاب . . يؤكد لنا أن الجبال لا تتحرك بذاتها . . بل تدور بحركة الأرض . . تماماً كالسحاب لا بد أن تدفعه الرياح ليتحرك . . وعندما يقول الله ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ فهو ينفي أن يسبق النهار الليل . . أو يسبق الليل النهار . . أي أنهما موجودان معاً على سطح الكرة الأرضية معاً . . لا سباق بينهما . . وعندما يتحدث القرآن عن الذرة . . فانه يذكر ما هو أصغر من الذرة قبل أن يعرفه العالم . . .

عندما نزل القرآن كان له أكثر من معجزة . . تحدى العرب في بلاغتهم . . ثم مزق حواجز الغيب الثلاثة . . مزق حجاب الزمن الماضي وروى لنا بالتفصيل تاريخ الرسل وحوادث من سبقنا من الأمم . . وتحدى فيها . . ثم مزق حجاب المكان . . وروى لنا ما يدور داخل نفوس الكفار والذين يحاربون الاسلام وما يبيتون للمسلمين . . روى لنا ما يدور داخل نفوسهم . . ولم تنطق به شفاههم . . ولم يجرؤ واحد منهم أن يكذِّب القرآن ويقول لم تهمس نفس بهذا . . ثم مزق حجاب المستقبل القريب

وتنبأ بأحداث ستقع بعد شهور . . وبأحداث ستقع بعد سنوات . . وتحدى . . . وحدث كل ما أنبأ به القرآن . . وهذا ما بينته الآيات الشريفة .

ثم مزق القرآن حجاب المستقبل البعيد ليعطي الأجيال القادمة من اعجازه ما يجعلهم يصدقون القرآن ويسجدون لله قائلين . . ولكن القرآن نزل في زمن لو أن هذه المعجزات المستقبلة جاءت تفصيلية لكفر عدد من المؤمنين . . وانصرف آخرون . . ذلك أن الكلام كان فوق طاقة العقول في ذلك الوقت . . ومن هنا وحتى لا يخرج المؤمن عن ايمانه . . ويستمر الاعجاز ، جاء القرآن بنهايات النظريات . . بقمة نواميس الكون . . اذا تليت على المؤمنين في ذلك الوقت . . مرت عليهم ، ولم ينتبهوا الى مدلولها العلمي الحقيقي . . واذا قيلت بعد ذلك على الأجيال القادمة . . عرفوا ما فيها من اعجاز وقالوا أن هذا كلام لا يمكن أن يقوله شخص عاش منذ آلاف السنين . . اذن لا بد أن هذا القرآن حق من عند الله وأن قائله هو الله الخالق .

بقيت نقطة : هل يأتي هذا في الأحكام ؟

وفي الواقع لا ؟ . . أن أحكام الدين أفعل أو لا تفعل نزلت كاملة واضحة لا لبس فيها ولا اضافة عليها ، ولا تبديل ولا غموض . . منهج الله كامل فسرته الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية ، وشرح وفسر في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تفسيراً كاملاً . . بحيث أصبح واضحاً لكل انسان يريد أن يعبد الله . . وأن يعيش في الأرض طبقاً لقوانين الله : أفعل ولا تفعل . . جاءت واضحة وكملت وفسرت في عهد الرسالة ، وأصبح الحلال بيناً والحرام بيناً كذلك . أما آيات الله في الكون فنلاحظ أنها لم تفسر تفسيراً كاملاً في عهد الرسول ﷺ حتى لا تكون ملزمة للمسلمين . . لماذا ؟؟ لأن لها عطاء يتجدد في كل الأجيال . . وهذه الآيات التي سنتحدث عن بعضها .

لقد تحدى القرآن العرب بالاعجاز في اللغة . . طلب أن يأتوا بمثل القرآن . . ثم زاد في التحدي فقال بسورة من مثله . . ولكن التحدي للعالم لا يمكن أن يكون باللغة . . فاللغات مختلفة . . اذن بماذا تحداهم ؟ بالعلم . . وكان التحدي مطلقاً . . الى يوم الدين . . قال أنتم جميعاً لن تخلقوا شيئاً حتى نهاية العالم ، ثم تحداهم بخلق ماذا ؟ بخلق كون كالذي خلقه . . لا . . بخلق مجموعة شمسية من عشرات المجموعات الشمسية الموجودة في الكون . . لا . . بخلق شمس أو قمر أو نجم . .

لا . . اذن تحداهم بخلق الكرة الأرضية مثلاً . . أبداً . . لا بد أنه تحداهم بخلق الانسان . . أبداً . . لقد تحداهم أن يخلقوا ذباباً وكأنه يقول أنني أنا الله أقول لكم سأعطيكم من العلم . . وأريكم آياتي في الآفاق . . ولكنكم لن تخلقوا ذبابة .

(**إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له**) ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿**ضعف الطالب والمطلوب**﴾ .

وأضاف ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ ومن الغريب أن الانسان قد وصل الى القمر . . والمريخ ، وقد يستكشف أبعد من ذلك . . لكنه عاجز عن أن يخلق جناح ذبابة حتى الآن . . وهو طلب ضعيف جداً بالنسبة لقدرة الله سبحانه وتعالى .

ثم أضاف سبحانه وتعالى ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ أي أن قدرة الله سبحانه وتعالى تفوق كل الحدود والتصورات التي قد ترد على خواطركم ، وأنتم لا تعرفون قدرة الله . . ثم تحدى الله في القرآن بعد ذلك باستمرار الحياة . . الماء الذي خلق منه كل شيء حي . قال تعالى : ﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون . . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ينزل الغيث** ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل اليكم الأمطار . . والماء يأتي مدراراً ليسقي الدنيا كلها . . البشر والطيور والوحوش والزرع وكل شيء حي . . هذا الماء الذي تعب منه البشرية كلها عبا . تجد الإنسان عاجزاً عن أن يصنع نهراً . . مع أن عناصر تكوين الماء موجودة في الكون . . أمام العلماء . . والمساحات الشاسعة في الصحارى من الأرض محتاجة الى قطرة ماء .

ثم تحدى الله تبارك وتعالى كل ذلك . . ثم تحدانا أن نهرب من الموت فقال : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى يتحدى مهما وصلتم من العلم فلن تستطيعوا أن تنجوا من الموت . . . !! سبحانه الله ثم تحدى القرآن الكريم العالم كله بخمس مغيبات :

«أن الله عنده علم الساعة . . وينزل الغيث . . ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت» .

تحدى الله بهذه المغيبات البشر جميعاً مثلما تحدى العرب في اللغة . . وكانت التحديات لكل البشرية في كل العصور .

كذلك فالقرآن الكريم أخبرنا بحقائق الكون بعد أن تحدى البشر أجمعين . . قال

تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ .

لم يقل سنريهم آياتنا في الأرض أو في الأفق بل قال : في الآفاق . . حتى يتبين للناس أن هذا القرآن هو الحق . ذلك أن حقائق الكون التي سيصلون اليها بعد مئات السنين أو آلاف السنين بنشاطات الذهن سيجدون القرآن قد أشار اليها . . . وهناك سيعرفون أن هذا القرآن هو الحق . واذا تحدث القرآن عن العلم فهذا حديث شامل واف مجمل أما اذا تحدثنا نحن عن القرآن والعلم فان المراد بالعلم هو علم البشر الذي يوجد في زوايا الكون المتعددة .

(يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا)

وفي قوله تعالى : ﴿ **ويعلم ما في الأرحام**﴾ وهنا سبق العلم الالهي علم البشر لأنه سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرحام بدون اجراء اختبارات أو تحاليل طبية فضلاً عن أنه يعلم ذلك قبل أن تقع النطفة في الرحم . . ولا يمكن مقارنة علم الله بعلم البشر لأن علم الله أزلي سرمدي سابق للعصر والأوان .

ملك لا يبلى

يريد الانسان أن يخلد في الحياة فلا يموت ويريد مالاً لا ينتهي ولا يذهب. . وهذا هو مدخل الشيطان للنفس ، والله قد جعل الأجل بيده والرزق بيده ليقينا من الانحراف ويبعدنا عن الاغراء الكاذب ولكننا رغم ذلك نبحث عن الخلود . . وعن المال الذي لا يزول ولا ينتهي . .

إن مدخل الشيطان للنفس البشرية حدده الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأنه (جنة الخلد وملك لا يبلى) هذا هو المدخل الذي استطاع الشيطان أن يخرج به آدم وحواء من الجنة . وأن يجعلهما يعصيان الله سبحانه وتعالى . . فالانسان يريد الخلود . . يريد الحياة مستمرة حية لا تنتهي يود أن يعمر ألف سنة ومائة ألف سنة . . والبحث عن الخلود يلازم النفس البشرية منذ أن بدأت حياتها على الأرض . . منذ أن خلقها الله حتى الآن . . يبحث عن الخلد وعما يبعد الموت عنه ورغم ذلك فقد أكد الله في كتابه العزيز على الموت فقال تعالى :

﴿ **كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ .

﴿ ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها﴾ .

﴿ حتى إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ .

﴿ كل شيء هالك الا وجهه﴾ .

والأبحاث عن اطالة الحياة . . وعن تجميد جسم الانسان حتى يعالج من أمراض تسبب موته . . قد يكتشف لها دواء في المستقبل والأبحاث عن هذا ما زالت جارية .

ولكن من الذي يكره نهاية الحياة . . أنه الانسان غير المؤمن . . لماذا ؟ لأن الموت خلق كالحياة تماماً . . فالله سبحانه وتعالى قال : **﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾** اذن فالموت خلق كالحياة تماماً ، ولكننا نحب الحياة ولا نحب الموت، والموت للانسان المؤمن انتقال من حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدراته هو الى حياة يتمتع فيها بكل النعيم المقيم .

والانسان في بحثه عن الخلود ينتقل الى الملك المستعمر المتجدد الذي لا يبلى ولا يخلق فالانسان يريد مالاً لا ينتهي وخلوداً لا يفنى ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأمرين بيده معاً ذلك ليقي الانسان من دخول الشيطان الى نفسه . . فجعل لكل أجل كتاباً ، وجعل الرزق بيده سبحانه وتعالى بغير حساب . . ومن الذي يحاسب الله جل جلاله وهو العزيز الحكيم القدير . . اذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يقي الانسان الانحراف في الحياة فرسم له الطريق واضحة المعالم ووضع له منهج الحياة التي هو خالقها . . وهو الأعلم بها . . وقال في كتابه العزيز **﴿لنحيينه حياة طيبة﴾** .

وقال عز من قائل **﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم . . ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم ﴾** .

وبعد أن رسم الله سبحانه وتعالى أسس الحياة وسبلها ووضع منهجها لها قال لنا أن الشيطان سيحاول اغراءكم بالمال بالخلود . . وأنا أقول لكم سلفاً حتى لا يكون لكم حجة . أن لكل منكم أجلاً . . فإذا جاء أجلكم لا تستقدمون ساعة ولا تستأخرون وأقول لكم أن الشيطان سيعدكم بمال لا يفنى ولا يذهب ولا ينتهي . . وأنا أقول لكم أن (رزقكم في السماء وما توعدون) . . وأنني أرزق من أشاء بغير حساب . . حتى لا تكون لكم حجة في اتباع الشيطان .

وبالرغم من هذا . . فإن الشيطان يجد المدخل بسهولة الى النفس البشرية . .

وكلما تقدم الزمن . وتقدم العلم وتقدمت الرفاهية التي يستطيع أن يضعها في حياة الانسان تفتح في النفس البشرية مدخل أوسع للشيطان . . ذلك أن المال من الممكن أن يحقق ما لم يكن من الممكن تحقيقه في الماضي ، بالرغم من هذا يبقى الطمع البشري بلا حدود . . بل ان الذي يملك مالاً لا يستطيع أن ينفقه فيما بقي من عمره ولا يكتفي . . انما يريد أكثر وأكثر . . والنفس اذا هوت المال وتعلقت به بدأت المفسدة . . فأنا أسرق لأحصل على المال وأشهد الزور لأنال بعض المال وأقول غير الحق ، وأعمل بغير الناس . . كل ذلك لأحقق لنفسي ما وعدني به الشيطان ما يرضي الله . وأخدع وأغش . . وآكل حقوق كذباً . . وهو ملك لا يبلى . . أي مال لا ينتهي ولا يفنى مهما مر من الزمن ، مع أنني لو كنت مؤمناً عن يقين لعلمت أنني لن أصل بعلمي الا الى الرزق الذي قسمه الله لي . . ولآمنت حق الايمان أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، والرزق الحرام لو صبرت عليه لأوصلني الله الى المال الحلال الذي قسمه لي .

ونفس وما سواها

النفس البشرية التي تتجمع فيها أحاسيس لا نستطيع أن نحللها بدقة . . ولا أن نصل الى داخلها لنعرف ما هي . . نحس أيضاً هذه النفس احساساً يقيناً بوجود الله سبحانه وتعالى فاسم الله مثلاً هو شيء لا تدركه الحواس الخمس لأنه أكبر من قدرتها ، ولكن تدركه حاسة داخل جسم الانسان حاسة لا مرئية . . ومن هنا فان كلمة الله التي هي فوق قدرة الحواس الخمس . . نجد الأذن تفهمها عندما تسمعها ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئاً لا يوجد أصلاً داخل النفس البشرية . . بحيث يكون التصور هنا ليس غريباً تماماً . . على هذه النفس . . بل هو معروف لها بشكل قد لا نفهمه نحن . . ولا نستطيع أن نحلله . . ولكنه معروف ـ فعندما يذكر لنا أحد اسم الله فان الذي يقفز الى عقولنا هو وجود قوة خارقة هي التي أوجدت كل هذا العالم . وأن هذه القوة خارج نطاق العقل . . بل وخارج نطاق الحواس . . اذن كيف ندرك وجود هذه القوة . . وكيف يكون اسمها مألوفاً عندنا ؟ وهي خارج نطاق الحواس الخمس المعروفة . . خارج نطاق العقل أيضاً . . هنا يأتي ما في داخل النفس . . وهو الالهام أو الشعور ليقول لنا أن هذه

القوة رغم أنها فوق مستوى العقل والحواس فانها موجودة داخل النفس . . والنفس تفهم وتحس بوجودها . . وفي العصر القديم بدأ الفلاسفة خصوصاً فلاسفة اليونان يبحثون عما وراء المادة . . عما وراء هذا العالم المادي . . عن الخلق . . وعن القوة التي أوجدت هذا العالم الى آخر فلسفة اليونان القديمة عن ما وراء المادة . . من الذي قال لهم أن هناك شيئاً وراء العالم المادي ؟ مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئاً عن المادة . . ونحن هنا لا نناقش فلسفة اليونان . . وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها . . أو فشلت . . موضوع لا يهمنا كثيراً وانما الأمر الذي يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا الى ما وراء الطبيعة وأنه كانت لديهم أشياء داخل نفوسهم . . ليست أشياء حواسية . . أي لا تخضع للحواس ليفعلوا ذلك . . بل أن الانسان منذ فجر التاريخ . . منذ بداية خلقه . . وهو يبحث عما وراء المادة . . يبحث عنه بطرقه المختلفة وهو أحياناً يتخذ سبيلاً أو آخر لاظهار خضوعه وعبوديته لهذه القوة التي هي وراء المادة لكن المهم في ذلك كله أن هناك شعوراً داخلياً في النفس البشرية . . يقول لها أن هناك شيئاً وراء الطبيعة . . أن هناك قوة ما وراء هذا العالم . وأن هذه القوة هي قوة عظيمة وخارقة هناك شعور داخلي في كل نفس بشرية لوجود الله سبحانه وتعالى . تلك هي القوة التي وراء الكون الحسي المنظور . وهناك شيء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك وتحس وتفهم أن العالم المادي الذي يرونه لا يمكن أن تكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية .

ولكن هذا العالم المادي نفسه هو الذي نعيشه اليوم وكل يوم لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور . . لا يمكن أن يقول لنا اذا استخدمنا حواسنا الخمسة فقط أن هناك قوة قادرة قاهرة خلف كل هذا . . اذن لا بد من أن هناك عالماً آخر خلاف هذا العالم وان وجب البحث عنه ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة . . ولو لم يكن هناك شعور في داخلنا واحساس قوي بوجود هذه القوة لما بحثنا . . ولما وجد كل هذا البحث عبر تاريخ البشرية . على أن هناك ملاحظة أخرى يجب تسجيلها وهي العقل بهذه المسألة . فالانسان عادة لا يبدأ في التفكير فيها والتحدث عنها بعمق الا بعد سن العشرين أو الثلاثين على الأقل ليكون لديه نضج العقل الكافي لمناقشة أمر عميق كهذا والسؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو بأي منطق عبد هؤلاء الناس الله ؟ وقبل الوصول الى هذه السن وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التي تحتاج الى عقل ناضج والى عمل

ودراسة وتأمل حتى يستطيعوا أن يصلوا الى أن هناك شيئاً وراء المادة ؟ أن هذا الشيء نفسه هو الذي يوجد داخل النفس البشرية ليؤكد أن هناك شيئاً وراء المادة وأن هناك قوة كبرى وراء هذا الكون دون أن تكون قد وصلت الى سن النضج والدراسة والفلسفة التي تؤهلها لمناقشة هذا الموضوع . . هذا في نفسه دليل على وجود الله سبحانه وتعالى فلقد عبدوه عن ايمان خلق في قلوبهم وتمكن من نفوسهم منذ اللحظة التي يولدون فيها وتلك في جملتها معناها أنهم وأننا نعرف وجود الله سبحانه وتعالى بالفطرة وأنه موجود داخل أنفسنا وهذا جدير بتأكيد وجوده في داخل النفس البشرية .

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟

لقد اكتشفنا في الغلاف الجوي خصائص مكنت الانسان من الطيران في الفضاء ومن الوصول الى القمر ولا يستطيع عقل أن يدعي أن ذلك من صنع البشر لأن الذي خلق الغلاف الجوي هو الله سبحانه وتعالى والذي خلق المادة التي تصنع منها الطائرات والصواريخ هو الله سبحانه وتعالى والذي أوجد النظرية التي يطير بها الانسان أو يخرج بها من الغلاف الجوي للأرض هو الله سبحانه وتعالى ولا يمكن للانسان أن يصنع شيئاً من ذلك بل هو اكتشفه ومعنى اكتشاف الانسان له أن هذه الخاصية كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها وقبل خلق الانسان .

الاذن تستطيع أن تسمع ما يدور في أقصى الدنيا بل ما يدور في أقصى الأقطار وما فوق القمر من حديث اذا استخدمت لها الآلات أو الوسائل التي ترفع قدرتها الى ذلك في العالم والعين تستطيع أن ترى بصراً ممدوداً الى ما لا نهاية وقد استطاعت باستخدام نظريات وقوانين الله في الكون أن ترى ما يحدث فوق سطح القمر وأنت جالس في حجرة في منزلك فاذا كانت الاذن تستطيع أن تسمع ما يدور في الدنيا كلها وقد تلاشت المسافة بالنسبة لها تماماً واذا كانت العين تستطيع أن ترى ما يحدث فوق سطح القمر وأنت جالس في منزلك أو مكان عملك . . اذا كان هذا كله ممكناً بقدرات البشر وبالعلم الذي أعطاه الله لبني آدم وكرمهم به ورفعهم على كل مخلوقاته . . اذا كان هذا العلم اليسير القليل الذي أعطاه الله لبني آدم استطاع أن يجعله يسمع ما في الدنيا كلها ويرى ما يحدث في أقصى البقاع فكيف يكون الحال في الآخرة عندما تكون القدرة كلها لله

وليست للبشر ، وعندما يكون العلم لله وليس للبشر وعندما يعطينا الله سبحانه وتعالى الذي (ليس كمثله شيء) القدرات بدلاً من أن تعطيها لنا يد بشرية محدودة القدرة والقوة ماذا سترى العين ، وماذا ستسمع الأذن . . أن هذه نقطة لا بد أن نتأمل فيها ونتدبر بها قدرات البشر . . التي أرتنا ما فوق سطح القمر ونحن جالسون في بيوتنا والذي رأى هو العين لأن كل هذه الآلات والاختراعات البشرية لا تستطيع أن تجعل رجلاً أعمى يرى فاذا رأى هو العين التي خلقها الله وليس الآلة التي اخترعها الانسان أو جهاز التليفزيون كان وسيلة فقط ولكن العين التي خلقها الله غير التي رأت وشاهدت ولو أن الله ذهب بنور هذه العين ما استطاعت أن ترى شيئاً رغم كل اضافات البشر التي منحها الله لهم بالعلم .

اذا كانت العين استطاعت أن ترى بقدرات البشر المحدودة ما يحدث على القمر وربما ترى غداً ما يحدث على كوكب الزهرة . . اذا كان ذلك قد تم في الدنيا واذا كان الفعل في الآخرة من الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثلـه شيء أفلا تستطيع أن تتصور معنا أن الجنة فيها ما لا عين رأت . . عيوننا ترى في الدنيا أشياء كثيرة واستطاعت أن ترى بقدرة البشر أشياء تحدث على بعد مئات الألوف من الأميال وربما ترى أشياء تحدث على بعد ملايين الأميال هذا بقدرة البشر فاذا جاءت الآخرة كان ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى فترى العين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والفرق بين الرؤ ية هنا والرؤ ية في الآخرة أنها في الدنيا بقدرة البشر وفي الآخرة بقدرة الله وشتان بين القدرتين ، لا مقارنة وبالتالي فلا مقارنة بين ما يراه الانسان في الدنيا وما سيراه في الآخرة الفرق رهيب هائل وهو الفرق بين قدرة الله سبحانه وتعالى وبين قدرة البشر ولا مقارنة . . وما تنطبق على العين ينطبق على الاذن حينما يأتي الحديث الشريف (أن الانسان سيسمع في الجنة ما لا أذن سمعت ولا عين رأت) قول أن ذلك صحيح مائة في المائة وأنه سيكون هناك فرق رهيب وهائل بين ما تسمعه أذن في الدنيا وما ستستطيع أن تسمعه في الآخرة . . الأذن في الدنيا بقدرة الله قد استطاعت أن تسمع انساناً يتكلم في آخر العالم بل انسان يتكلم فوق القمر باستخدام آلة صغيرة هي الراديو وباكتشاف قوانين الله في الكون وهي الأثير الذي يحمل الصوت للدنيا كلها وكما قلت عن العين أقول عن الأذن وهي أيضاً التي تسمع كل الآلات المخترعة وسيلة ولكنها وسيلة لا تسمع الصم . .

انما الذي يسمع هو الأذن التي خلقها الله سبحانه وتعالى . . فعندما يقول عن الآخرة أن فيها ما لا أذن سمعت . . تسجد لجلال هذه العبارة ذلك أن الفارق سيكون رهيباً وهائلاً وهو الفرق بين قدرة الله خالق كل شيء وبين قدرة البشر المخلوق وما دام هناك لا مقارنة بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق فلا مقارنة بين ما تسمعه الأذن في الدنيا وبين ما ستسمعه في الآخرة .

فاذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عن الغيب واذا حدثنا عن عوالم الملائكة والجن واذا رجعنا الى الحديث الشريف أنه في الجنة سيكون هناك ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تعلم أن هذا يقين لماذا ؟ لأننا حين نأخذ ما في أيدينا ثم نقارن نجد أن الفارق سيكون هائلاً واذا كان العلم قد تقدم ليكتشف قوانين الله في الأرض واستطاع أن يقدم للعين قوة الرؤ يا على بعد ملايين الأميال وأن يقدم للأذن قدرة السمع على بعد ملايين الأميال ، والعلم سيتقدم في الأجيال القادم ليقدم لنا أكثر من ذلك وبعد مائة أو مائتي عام ربما استطاعت العين أن ترى ما لا تراه الآن كما استطعنا نحن مثلاً أن نرى الميكروبات التي لم يكن يراها أجدادنا وأن نرى الانسان فوق القمر الذي لم يره الجيل الذي قبلنا وستكون الأذن قد تقدمت لتسمع ما لا تسمعه الآن . . تماماً كما تقدمنا نحن لنسمع ملايين الأصوات التي لم نكن نسمعها من قبل ولكن المهم أن الفرق سيبقى كما هو . . . وهو الفرق بين قدرة البشر وبين قدرة الله سبحانه وتعالى وهذا الفرق هائل ولا وجه فيه للمقارنة ، ومن هنا فان عظمة ما قيل من أن الانسان سيرى في الآخرة ما لا تراه عين وما لم تسمعه أذن وما لم يخطر على قلب بشر يزداد عمقاً واعجازاً كلما تقدم العلم لأن الفرق باق بين قدرة الله وقدرة البشر وذلك تصديقاً للآية الكريمة﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ولذلك فكلما تقدم العلم ازددنا خشوعاً وخضوعاً لله سبحانه وتعالى الذي يرينا آياته في الآفاق وفي أنفسنا . . حقاً وصدق قوله عز من قائل ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟**﴾وقوله أيضاً : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ صدق رب العزة جل شأنه .

الخمر والميسر

لو جادلت انساناً يشرب الخمر قال لك : ان الخمر ليست محرمة ولو كانت كذلك لقال الله : حرمت عليكم الخمر . . ولكنه قال ﴿ **انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** . . ﴾ ولكن لا يوجد في القرآن كله «حرمت عليكم الخمر»واجتنبوه في رأي بعض الناس معناه أنه مكروه . . أوغير مرغوب في تناوله ولكن التحريم هنا غير قاطع كالميتة والدم ولحم الخنزير . . وغير ذلك ثم يمضي الجدال . . والعجيب أنه لوحظ أن الخمر هي أثم بالفطرة . . ما من مجلس فيه خمر وفيه انسان لا يشرب إلا شعر جميع الحاضرين بالذنب . . وأحسوا أنهم يرتكبون أثماً . . وأثماً كبيراً . . لمجرد وجود الانسان الذي لا يتعاقر الخمر معهم حتى ولو كانوا جميعاً غير مسلمين ، وحتى لو كانوا من الملحدين الذين لا يؤمنون بالدين . . شيء داخلهم يؤرقهم . . يعذبهم . . ويبدأ كل واحد منهم يبرر تناوله للخمر . . ثم يبدأون جميعاً في محاولة اقناع ذلك الذي لا يتناول الخمر . . بتناولها بعضهم لا يفهمه ولا يعرف تأثيره . . انما المهم أن وجود شخص اقناعه بأنها ليست حراماً . . وآخرون يحاولون اهانته . . في محاولة لدفع الألم الذي يرقد في داخلهم . . وهم جميعاً في تصرفاتهم المليئة بالعصبية . . وعدم ضبط النفس انما يحاولون أن يدفعوا اثماً فطرياً يحسون به . . وان كان بعضهم لا يفهمه ولا يعرف تأثيره . . انما المهم أن وجود الشخص الذي لا يشرب وسط المدمنين يجعلهم يشعرون بالاثم والجرم ولو لم يقل كلمة واحدة استنكاراً لما يفعلون . . وأعتقد أن الاثم الفطري في الخمر أقوى منه في أي من المحرمات الأخرى . . وقوة هذا الشعور بالاثم . . تجعل الاعتقاد سائداً بأن الخمر هي من أكبر الكبائر .

ومهما كان من أمر فان هناك من لا يزال يجادل في أنها ليست محرمة . . وأنها لو كانت محرمة تحريماً قاطعاً لقال تعالى : ﴿ **حرمت عليكم الخمر** ﴾ ولكن قوله تعالى : فاجتنبوه دليل على أنها مكروهة فقط أو أنه مطلوب من الانسان أن يتجنبها .

بل أن تحريم الخمر في القرآن الكريم تحريم قاطع لا شك فيه ولا يصح الجدال حوله بل أن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **فاجتنبوه** ﴾ أبلغ وأشد وأقوى تحريماً مما لو

قال سبحانه وتعالى ﴿ **حرمت عليكم الخمر** ﴾ ولم يحرم الله الخمر شرباً فحسب ولكن حرم حملها والجلوس على مائدة يتناول فيها الناس الخمر والجلوس مع من يتناولونها . . ومنذ بدء الخليقة عندما قال الله تبارك وتعالى لآدم وحواء وهو يأمرهما بالامتناع عن الأكل من الشجرة المحرمة . . لم يقل لهما لا تأكلا من هذه الشجرة . . ما الفرق بين أن يقول الحق تبارك وتعالى لا تأكلا من هذه الشجرة وأن يقول لا تقربا هذه الشجرة .

فكأن محارم الله يجب أن تبتعد عن نطاقها ولا ترقبها أبداً . .لا تقترب منها أبداً لأن قربك منها قد يغريك بها . . قد يفتح باب الشيطان في نفسك فتقع في المعصية . . اذن لا تقربا أبلغ وأشد في الاحتياط من لا تأكلا . . لأنه اذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال : لا تأكلا لكان من الممكن أن يذهب الانسان الى الشجرة ويجلس بجوارها . . ويتغزل في محاسنها وينظر الى ثمارها بحسرة . . ولكنه لا يأكل منها . . وحينئذ لا يكون مخالفاً لأمر الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجنب البشر ذلك الذي يقربهم من المعصية ويفتح في نفوسهم باب الشيطان . من هنا حين قال لآدم وحواء لا تقربا هذه الشجرة . . كان يعني لا تقتربا منها أبداً . . لأن القرب اغراء للشيطان .

ولذلك يلاحظ في القرآن أن كل شيء محرم يقول الله سبحانه وتعالى فيه : تلك حدود الله فلا تقربوها . . لكن في المحللات يقول فلا تعتدوها .

والسؤال الآن : لماذا لم يرد في القرآن الكريم تحريم الخمر مثل تحريم الميتة والخنزير بالنص ؟؟

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى : حرمت عليكم الخمر ، وكان الى هنا ينتهي الجدل فيختفي كل انسان يريد أن يوهم الناس بأن الخمر ليست محرمة ـ يقول الصفوة . . اذا قيل لك لا تكلم فلاناً فيكفي لكي تنفذ هذا الأمر وتلتزم به ألا تتحدث مع هذا الشخص الذي طلب منك عدم الكلام معه أو حرم عليك الكلام معه ، يمكنك مثلاً أن تلقاه وأن تجلس معه في مكان واحد وأن تأكل معه وذلك كله دون أن تتحدث معه وتكون ملتزماً رغم هذا كله .

فالكفار يشهدون للقرآن

قال تعالى : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ .

ما معنى كلمة مضل ؟؟ تعطي أن هناك قضية حق وأن هناك انساناً يريد أن يضللني ويعطيني عكس القضية . أي يعطيني غير الحقيقة وهو الضلال . . هذا معنى مضل . . اذن قول الله ﴿ **وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ أي أنني في ساعة الخلق لم أطلب العون والمساعدة أو المشورة أو النصيحة من هؤلاء المضلين والا لو كان قد حدث ذلك ثم جاؤكم يخبرونكم كيف تم خلق السموات والأرض وكيف خلقتم أنتم لكان لكم العذر في تصديقهم . . ولكن ما داموا لم يشهدوا الخلق ، ولم أطلب معونتهم . . فان ما سيقولونه لكم غير واقع . . غير صحيح . . انه اضلال . . وهذه معجزة من معجزات القرآن . . فقد قال لنا الله أنه سيكون هناك مضلون وأن هؤلاء المضلين سيحاولون أن يقولوا لكم غير الحق في قضية خلق السموات والأرض وفي قضية خلق الانسان فلا تصدقوهم لأنني لم أستعن بهم ساعة الخلق ولم يكونوا موجودين اذن لو لم يحدث أن جاء أناس يضلون عن سبيل الله لقلنا أن القرآن غير صحيح لأنه أين المضلون ؟ ولو وجد المضلون وتناولوا قضية أخرى غير خلق السموات والأرض وخلق الانسان لقلنا أن القرآن الكريم غير صحيح ، لأنه يوجد من يضل عن سبيل الله ولكنه لا يتناول فيما يقوله قضية خلق السموات والأرض ولا قضية خلق الانسان ولكن كون المضلين جاءوا وكونهم تحدثوا عن قضية خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم . . وهل المادة قبل الروح أم الروح قبل المادة ؟ وقانون الصدفة ونظرية دارون الى آخر هذا الكلام . . كون هؤلاء جاءوا وكونهم تناولوا قضية خلق السموات والأرض وخلق الانسان ، فان هذا اثبات لما جاء في القرآن عنهم ، وكان هؤلاء المضلون الذين جاءوا ليصدوا عن سبيل الله . . انما قدموا خدمة كبيرة للدعوة الاسلامية وللقرآن بأنهم أثبتوا بكفرهم صحة القرآن وصحة آياته . . أترى اعجازاً أكثر من ذلك . . يستخدم الله الكفار الذين يضلون عن سبيله ويحاولون تكذيب القرآن . يستخدمهم القرآن ـ وهم لا يدرون ـ لاثبات صحة الدين الذي يحاولون أن يهدموه ، وباثبات وجود الله سبحانه وتعالى وهم يريدون أن ينكروه

فيقول في القرآن أنه نزل منذ أربعة عشر قرناً أنه سيأتي من يضل عن سبيل الله ويتخذ من قضية خلق السموات والأرض والانسان مادة لهذا الاضلال وكل ما سيقولونه غير الواقع . . وأنا أنفي من الآن ما سيقولونه بعد مئات من السنين أو ألوف أيضاً وأقول أنه غير صحيح . . اذن فكون هؤلاء المضلين جاءوا اثبات للقرآن وكون أنهم قالوا غير الحق ولم يستطيعوا أن يدللوا عليه عملياً ، وأخذوا يطلقون نظرياتهم كل نظرية تهدم الأخرى وهم يجتهدون في محاولة هدم منهج الله ونحن نقول لهم : أنكم تثبتونه لأن الله أخبرنا عنكم في القرآن منذ أربعة عشر قرناً وقال أنكم ستأتون وستفعلون كذا وكذا في محاولة لتضليل الناس وهدم القرآن ، أترى الاعجاز في استخدام القرآن الكفار لتثبيت قضية الايمان في الكون . . هل هذا يضارعه اعجاز . . سبحانه الله .

مثل هذه تماماً أبو لهب اللعين عندما نزلت فيه السورة ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب** ﴾ فلما أن نزلت الآية انجلى وعد الله الحق على أبي لهب فلو كان ذكياً نبيهاً لجاء في حشد هائل وجمع غفير من الناس وقال بأعلى صوته . . اني آمنت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً لكان هذا بمثابة تشكيك في القرآن وفي المنهج الاسلامي ولكن أبو لهب كان غبياً فدما اذ أن سكوته واصراره على العناد أكد صحة القرآن وسواء منهجه ، وكذلك كان وهو من أكبر خصوم الدين قد أصبح من أكبر شواهد الصدق القرآني في منهج الحق الاعجازي .

وسبحان الله .

تذييل وتتمة

قال تعالى : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة** ﴾ .

ومعنى هذه الآية أنه لا توجد قضية في العالم تمس حياة البشرية الا وموجودة في منهج الله ما يعالج هذه القضية . . نحن نقول يعالج ، لأن التشريعات عندما تأتي تعالج واقعاً موجوداً في المجتمع وفساداً انتشر . . ولذلك فهي تعالجه لتشفي الناس منه وبعد ذلك عندما نتبع تعاليم الله . . لا يأتي لنا الفساد ولا الآفات ، ولا من آفات المجتمع ولا انحرافاته ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة** ﴾ وشفاء معناها أنه سيعالج الانحرافات والفساد الموجود في المجتمع . . ورحمة الله يعني

أنه يمنع هذه الآفات أن تصل الى المجتمع . . ورحمة الله يعني أنه يمنع هذه الآفات أن تصل الى جسد المجتمع . . وذلك عين الرحمة .

رسول الله ﷺ جاء للعالمين عموماً . . زماناً ومكاناً . . بمبادىء . . هذه رحمة . . ومعنى الرحمة أننا لو اتبعناها . . لن يقع فساد في المجتمع . . يضطرنا أن نعالج وعندما نغفل عن هذه المبادىء . . يوجد لهذه الغفلة آثار ضارة في المجتمع . . نبدأ التفكير في العلاج . . فنكتشف أننا تركنا مبدأ كذا ومبدأ كذا مما أمر به الله . . فيبدأ العلاج بمنهج الله . اذن فقول الله ﴿ **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** ﴾ معناه أنك جئت بمنهج من عندنا لتبلغه للناس ، لو أنهم اتبعوا هذا المنهج . . لعمتهم الرحمة بحيث لا يوجد شقاء انساني في المجتمع ولا فساد .

والدين ليس موضوعه الآخرة فحسب . . بل هو ينظم حركة الانسان في الدنيا أيضاً . . أما الآخرة ففيها الجزاء . . الجزاء على اتباعك المنهج . . أو ما أمر به الله . . أو عدم اتباعك له . . تطبيق الدين . . وتعاليم الدين . . مقصود بها أولئك الموجودون في الدنيا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **لتنذر من كان حياً** ﴾ والجزاء على الشيء ليس هو عين موضوعه . لذلك فان الدين لا يقتصر على الغيبيات فقط ولكن الغيبيات لا يصدقها الا من آمن بالله لأنها جاءت عن الله أما غير المؤمن فليس له الا واقع الحياة ، ولا بد أن يبين لنا واقع الحياة أن هذا المنهج الذي جاء من عند الله . . لو أتبع كما يريده الله فسيختفي الشقاء من المجتمع ، لذلك نجد القرآن الكريم يفسر ذلك تفسيراً دقيقاً لقوله تعالى :

﴿ **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا** ﴾ هذا في الدنيا . . ثم قال تعالى : ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ قول الله معيشة ضنكا وشقاء المعيشة في الحياة الدنيا .

والشقاء البشري ليس اقتصادياً فحسب أو متعلقاً بالمال وحده انما معنى الضنك في المعيشة هو الضيق فيها وهي متعددة الأسباب مختلفة الأصول .

والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

والله نسأل أن يهدينا جميعاً الى صراطه المستقيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

عَدَالَةُ السَّمَاءِ

العدل المطلق

● **ميزان الآخرة** : أهو ميزان كموازين الدنيا ؟ أي له كفتان مثلا . .

ان جمهور العلماء يرون أنه ميزان مطابق لموازين الدنيا ، غير أن هناك سؤالا ينبغي أن يثار : هل الأعمال مادية بحيث توزن في ميزان ؟ والاجابة عن هذا السؤال : أنه لا مانع من أن يجعل الله من الأمور المعنوية شيئا له ثقل ، أي أن المعاني قد تتمثل في أشياء لها وزن . . وبعد ذلك يقتضي أن يكون للميزان كفتان . . وأن يوضع الموزون في كفة ، و . . « الصنج » أي مقادير الاوزان في كفة أخرى .

معنى ذلك : أن يكون الحساب مرتين : خير يوجد الى شيء ثابت ، وشر يوجد أيضاً الى شيء ثابت ، ثم يقارن بين الاثنين . . لكنهم قالوا : لا ، فنحن لماذا نزن الى شيء ثابت ؟ لأننا اذا أتينا بالاقة أو الكيلو مثلا وكلاهما مقوم فلكي نأخذ سلعة مقابل الأقة أو الكيلو . . لكن في الآخرة ، هناك من تزيد حسناته على سيئاته ، ومن تزيد سيئاته على حسناته ، اذن فالقياس بالنسبة للموازين هناك نسبة حسنات الى سيئات . . وما دام كذلك أرى أي النسبتين أثقل ، وأوفر على نفس الميزان الثالث . . فتكون عملية واحدة بدلا من عمليتين ، وما دامت نسبة الى نسبة ، فيكفي أن توضع الحسنات في كفة ، والسيئات في الكفة الأخرى ، ولا داعي لاجراءات الموازين . . ولا يعنيني أن أعرف تقييم وزن الحسنات في ذاته ، ولا تقييم وزن السيئات في ذاته ، وانما أن أعرف تقييم وزن الحسنات بالنسبة للسيئات مرة واحدة . .

● **عندما تتعادل الكفتان** : الحق ـ سبحانه ـ عندما تعرض لكلمة الميزان ولعملية الوزن قال : ثقلت وخفت : ﴿ **فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . . وأما من**

خفت موازينه فأمه هاوية ﴾ والعملية الميزانية عقليا لا بد لها من ثلاث مراحل : الثقل أو الخفة أو التساوي ، فقيل : ثقلت وخفت ، ولم يقل تساوتا ، اذن فماذا يكون الأمر عند التساوي ؟ والاجابة في سورة الأعراف : **﴿ وعلى الأعراف رجال . . لم يدخلوها وهم يطمعون . . ﴾** وهؤلاء الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم . . ولماذا لم يدخلوا الجنة وهم طامعون في دخولها ؟ قيل : لأن هناك قضية مؤداها أن الرحمة سبقت الغضب ، فتعود مسألة التساوي الى جانب الرجحان ، وتدخل ضمن : فأما من ثقلت موازينه . . يعني أن الشيء اذا استوجب رحمة واستوجب غضبا ، يكون المقام الأول للرحمة ، وعند التساوي ، تزيد الرحمة ، وعندما تزيد الرحمة : لم يدخلوها .

اذن فهنا : فأما من ثقلت بالواقع ، وأما من ثقلت بالالحاق ، يعني قوله تعالى : **﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾** . . تقدم لنا صورتين ، هما صورتان في الواقع ، لكن في عملية الالحاق تكون ثلاث صور : لأن تساوي الكفتين ، سيئول الى أن الرحمة تسبق الغضب ، الرحمة تأتي في الميزان المتساوي فتجعله ثقيلا ، ويكون قوله تعالى : فأما من ثقلت . . يعني واقعا وحقيقة ، أو الحاقا بواسطة الرحمة حين تتدخل في عملية التساوي . .

● **لماذا لا يكون الميزان معنويا ؟**

يقول الإمام علي :

« أي مقدار من الزمن يتسع لحساب الله لكل الناس . . قيل : ايحاسبهم مرة واحدة ؟ قال : نعم ، كما يرزقهم مرة واحدة ، لا يشغله رزق واحد عن رزق الآخر » .

لأن الطاقة تشكل اذا كانت محدودة ، ولكن الطاقات غير المحدودة ، تعمل هذه وتعمل تلك ، سبحان الذي لا يشغله شأن عن شأن .

لكن اذا كان الميزان ماديا ، فسيحدث انني أنقل الماديات الى معنويات ، فلماذا لا يكون الميزان معنويا ، ما دامت فيه عملية نقل الأعمال الى أمور معنوية ، وما دام سيحدث التحويل في شيء ، لماذا لا يكون هذا التحويل في الميزان ، لأنه سيكون أمرا معنويا ، والمراد اقامة العدل بالقسطاط . . مفهوم الاعتراض : انت تقول : ان الميزان سيكون ميزانا ماديا ، وأقول لك : اذا ستنظر الى أن تحول الأعمال من معنويات الى

ماديات ، والأعمال كثيرة . . ان الميزان أمر معنوي المراد به اقامة العدالة المطلقة ، وتنتهي في التغيير الى شيء واحد بدل أن تغير في أشياء كثيرة بحسب الناس وبحسب أعمالهم . .

أيهما أدق ؟ ان الميزان اذا كان أمرا معنويا لا يؤمن فيه الهواء ، لكن اذا كان أمرا ماديا أي وجه الميزان حديدا . . فلا يفتح . . أنما عندما يكون الحكم في المعنويات لا تستطيع أن تدقق أنت الا في معرفة العدل المطلق ، فكأن العدل المطلق هو نقل الى شيء هو الجاد الذي لا يجامل ، ولا عواطف عنده ، فكأنه يعطي الأمر بالدقة ، ولذلك فنحن في موازيننا اذا اردنا أن نزن أشياء دقيقة لها قيمة نفسية ، فانما نزنها بميزان حساس ، لماذا لأن أي اختلاف في أقل شيء له قيمة ، ولا أهتم مثلا بوزن تمر أو برتقال في ميزان حساس ، لأن فرق الجرام لا قيمة له ، بعكس الأشياء الثمينة ، فالجرام أو حتى واحد على عشرة من الجرام ، مثلا قد يكون الموزون سموما ، فأي قدر زائد يخل بتركيب الدواء ، ولذلك حتى الاحتياط في عملية الموازين لا يكفي ، كأن يكون الميزان حساسا ، اذ لا بد من وضعه داخل « دولاب » من زجاج يحول دون تأثيرات الهواء . .

اذن فالمراد الدقة التي لا هوى فيها ولا مجاملة . . وسواء أكان الميزان هو الميزان المادي أم الميزان المعنوي ، فلماذا اختير له كلمة الميزان ؟ لأنه أضبط شيء في تقرير الأمور ، ضبطا غير متهم . . ونحن مثلا نرى القاضي يجلس على منصة الحكم ، وفوق رأسه رسم لميزان . . والقاضي لا يزن أشياء لها ثقل ، انها أمور معنوية ، لكن ليتمثل هذا القاضي العدل بلا أدنى عاطفة أو هوى ، لأن الميزان لا يخضع لعاطفة أو هوى ، وهذه مسألة في غاية الدقة بالنسبة للتكوين البشري ، ليست سهلة على الانسان أن يكون كذلك ، لذا كان البعض يمتنع عن ولاية القضاء ، لا لأنه يرفض أن يقضي ، بل لأنه يخشى ألا يتمكن من الدقة في العدل ، فالعواطف لا شك في أن لها تأثيرها على البشر . .

أحد القضاة يقول للخليفة : يا أمير المؤمنين أعزلني عن القضاء ، فيقول له الخليفة : لماذا ؟ وهل نجد أعدل منك ؟ فيقول : يا أمير المؤمنين : لقد شاع عند الناس أنني أحب الرطب ، فبينما أنا في البيت ، اذ طرق بابي طارق ، فخرج خادمي ، وعاد بطبق من الرطب ، وكان في بواكيره . . سأل خادمه عن أوصاف الرجل الذي جاء

بالرطب ، ولما اتضح له ان لهذا الرجل قضية معروضة أمامه ، أمر الخادم برد الرطب اليه . . فلما أصبح الصباح وجلست على منصة القضاء ، ووقف الرجل والخصم أمامي . . فو الله يا أمير المؤمنين لم يستويا أمامي بالرغم من أنني رددت الرطب الى الرجل . . فما بالك يا أمير المؤمنين لو كنت قبلت هدية الرطب من الرجل ؟

ان المسألة دقيقة ، والعدالة مضمونة . . والانسان بشر ، يمكن أن يخضع لشيء من عواطفه دون قصد ـ ولو يتأثر بلحن حجة احدالخصمين . . فالرسول يقول : « انما أنا بشر . . وانكم تختصمون اليَّ . . ولعل احدكم ألحن بحجته من أخيه فأحكم له ، فكأنما قضيت له بقطعة من النار . . . » .

معنى « ألحن بحجته » أن لديه قدرة على الاقناع ببلاغة ومنطق بالرغم من أنه في الحقيقة ليس صاحب حق . .

● **داود عليه السلام :**

يقول الحق تبارك وتعالى :

« وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب . اذ دخلوا على داود ففزع منهم . . قالوا : لا تخف . . خصمان بغى بعضنا على بعض . . فأحكم بيننا بالحق ولا تشطط . . واهدنا الى سواء الصراط . إن هذا أخي له تسع و تسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال : أكفلنيها وعزني في الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه . . وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض . . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . وقليل ما هم . . وظن داود أنما فتناه . . فاستغفر ربه وخر راكعا واناب . . . » .

ان داود عليه السلام قد تأثر بالموقف . . هاله أن يتسلط من يملك تسعا وتسعين نعجة على من لا يملك سوى نعجة واحدة . . ذكر العدد الضخم ليس حجة ، الا يجوز من لا يملك شيئا أن يكون معتديا . . والأجدر أن لا يكون للعدد الضخم دخل في الحكم ولا في حيثية الحكم . . لكن العاطفة لدى داود اتجهت نحو الفقير الذي لا يملك سوى نعجة واحدة . . ولذا عندما جاء يحكم لم يحكم في القضية . . وانما قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه . .

وقوله تعالى : وظن داود أنما فتناه . . أي اختبرناه . . عرضنا عليه مسألة ،

وجعلنا أحد الخصمين يحسن العرض ، ويستميل داود الى جانبه . . حتى اعتبر منطقه ضمن حيثيات الحكم ، وهو خارج عنها .

ما بعـد الميــزان

قوله تعالى : ﴿ **فأما من ثقلت موازينه** ﴾ . . سواء أفهمناها : الميزان العدل والحق ، أم أنه الميزان المادي ، فالسؤال : لماذا جاء بكلمة « ميزان » ؟ قيل : لأن ذلك يذكرنا بأن الميزان حكم محكوم ، لا هوى له على الاطلاق . . فالهوى انما ينشأ من العواطف ، ومن الميول ، والحديد جماد ، والجماد لا عواطف ولا ميول له ، كأن من المؤكد أن يأخذ كل واحد حقه . .

﴿ **فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية** ﴾ .

ما هو الرضا أولا ، حتى تكون العيشة راضية ؟ العيشة هي الحال التي يعيش فيها الانسان . . من مسكن وملبس ومأكل ، ونعم يتنعم بها . . اذن فهي مجموعة الظروف التي تحيط بالانسان والتي تكون مقومات حياته . . لكن الرضا يستلزم وجود الراضي لا أقول : ان هذا الكوب راض عني ، بل أقول : أنا راض عن الكوب . . اذن ، فكلمة . . راضية . . في الآية . . نقلت من معناها ، وهي ممن يملك رضا وعواطف وعقل . . الى من لا يملك هذه القيم . . وهنا يقول العلماء لك : راضية استعملت من الفاعل لأنها اسم فاعل واقع منه الرضا ، والمفعول واقع عليه الرضا ، واذا وقع عليها الرضا تقول عيشتي مرضية . . أي أنا راض عنها . . اذن فالقياس أن نقول : عيشة مرضية . . لكن الحق سبحانه قال « عيشة راضية » وهنا قالوا : ان اسم الفاعل يقوم ويراد به اسم المفعول . .

مثال ذلك ، قوله تعالى : ﴿ **واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾ أيكون الحجاب ساترا أم مستورا ؟ العلماء جزاهم الله خيرا ـ على قدر اجتهادهم قالوا : ان كلمة « مستور » بمعنى « ساتر » لكن لماذا وضعت كلمة « مستور » مكان كلمة « ساتر » ؟ لا بد أن هناك سببا ، حين يتضح لك الأمر تدرك أن الحجاب مركب ، مستور وليس حجابا مباشرا ، لأنه حجاب مستور مغطى بطبقة اخرى كالحجاب المبطن ، أي حجاب فوقه حجاب آخر ، فيكون جعلنا بينك وبين الذين لا

يؤمنون بالآخرة حجابا . . بلغ من قوة حجبه أنه نفسه مستور ، كأنه حجاب مركب . . كذلك يقول الحق سبحانه : « ظلا ظليلا » لكن كلمة « **ظليل** » اسم فاعل أي بمعنى فاعل . . ولو كانت بمعنى مفعول يكون ظلا مظللا أو مظلولا . . اذن يكون ظلا مركبا ، لأن الظل نفسه اذا كان في ظل يكون هنا حاجزان من الشمس ، وهذا أوقع في أداء الظل . . وكذلك الخيام عادة لها سقف واحد ، ولكي أصل الى حجب تام للشمس اجعل لها سقفين . .

وهكذا تفسر كلمة « **راضية** » في الآية على أنها « **مرضية** » ويمكن أن تفسر على أن العيشة نفسها راضية . . كأنما أريد أنها مستديمة معهم ، لا تنفك عنهم ، لأنها راضية عنهم . . أو يمكن أن يقال : نحن نظن أن العيشة جماد وأنها لا تعقل ، وربما كانت في علم الله عاقلة ، كقوله ـ سبحانه ـ وان من شيء الا يسبح بحمده ـ ولكن من يستطيع أن يخاطبها ، وباللغة التي تفهمها ؟ هو الذي خلقها . .

ان السموات والارض : قالتا : أتينا طائعين . . والنملة قالت : ادخلوا مساكنكم . . والهدهد تكلم . . اذن فلها عقائد ولها أقوال . . ولها نظام . . والمهم من يفهمها . . أن الحق سبحانه هو وحده القادر على أن يثبت للجماد حياة ، وتعقلا ، ولغة ، بل واعتقادات . . ويثبت للنباتات والحيوانات ان لها أسمى ما يتميز به الانسان ، ليس العقل ـ فحسب ـ بل وجود العواطف لديها . . وأسمى ما تتميز به العواطف : الانفعالات لا تعرف أدواتها ، ماذا تحب ؟ ماذا تبغض . . ؟

ان الله ـ سبحانه ـ جعل للجماد عواطف ليس فقط مجرد تفكير ، أو فقل يفهم مهمته . . لأن التفكير سام عندي . . لماذا ؟ لأنه يؤدي بي الى رسالتي . . لكن ما دام لدى الجماد والنبات والحيوان ما يؤدي به الى مهمته ، فلا داعي لان نتساءل : ألديها عقل أم لا ، يكفي أن يكون لديها ما يؤدي بها الى مهمتها الا أنه خارج عن عقل الاختيار الى عقل التسخير . . وهذا مريح له . . وعندما يعرض القرآن لمثل هذه الحالة ، يقول : ﴿ **وان من شيء الا يسبح بحمده . . ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ يعني ليس فقه دلالة . . هذا كلام يعلمه الله منطقه فيفهم : ﴿ **وعلمناه منطق الطير** ﴾ . .

ولذلك حينما تكلم الله عن قوم فرعون قال : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون . . وزروع ومقام كريم . . ونعمة كانوا فيها فاكهين . . كذلك واورثناها قوما آخرين ؟ فما**

بكت عليهم السماء والأرض ﴾ السماء تبكي ؟ والأرض تبكي ؟ أليس البكاء مهمة العواطف . . عملية فروعية من وجود العواطف فيها ، فأنت تبكي بناء على عواطف لديك . . واذن فبكاء السماء والأرض لاثبات أن لها عواطف . . وأن الأشياء التي تتنعم بها من جماد ونبات وحيوان لها عواطف . . وأنا تكون راضية بجزاء من يجزي بها . . فقد علمت أنه لم يستحق الجزاء الا لانه طبق المنهج الالهي كما أراده الله ، اذن فله بها ود لانها طبقت المنهج الالهي كما يريده الله بلا اختيار لها ، فهو أخوها في الدين ، فحين تنعمه تشعر أنها راضية ، ولذلك تكون نسبة الرضا بالعيشة نسبة حقيقية وليست نسبة مجازية : ﴿ **فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية** ﴾ .

● **ومزيدا من الايضاح :**

ان الحق ـ سبحانه ـ وصف المعيشة بأنها « **راضية** » والمفهوم في أعراف البشر : أن الرضا انما ينسب الى ذي العقل والارادة ، وحسب منطق لغتنا أن يقال : عيشة راض عنها صاحبها ، ولكن الحق ـ سبحانه ـ حين يعدل عن أسلوب شائع على ألسنة الناس ، الى أسلوب يناسب بلاغة كلامه عن كلام البشر ، فاننا نلحظ موضحات الأسلوب القرآني الاعجازي . . على أسلوب البشر . . فالناس في الحياة الدنيا يحبون النعيم . . ولكن الذي يخفي عليهم هو ذلك الحب . . هو خوفهم أن تزول السعادة عنهم . . هذا الشعور يجعل الانسان يعيش حياة حاضرة سعيدة ، لكن قلبه قلق على مستقبل هذه الحياة السعيدة ، أتدوم له أم لا تدوم . .

فالحق ـ سبحانه ـ يريد أن يؤكد لنا : أن المعنى الذي يقلق الناس على نعمهم وسعادتهم في الدنيا ، لا يوجد في الآخرة ، لأن النعمة والسعادة في الآخرة ، انما تعلقهما بك ، ورضاهما عنك ، فهما لا يملكان أن يزولا عنك ، ولا تملكان أن تتركاك . . فهي ليست ـ فقط ـ مسخرة بحيث لا تترك هذه النعمة ، أو تتخلى عنك ، بل هي تعيش معك وتدوم لك دوام الراضي عنك ، والراضي عن الشيء يلازمه ، يحبه ولا ينشق عنه .

وذلك الوصف هو الذي يقلق الناس في الدنيا . . ويريد الحق ـ سبحانه ـ ان يطمئنهم الى أن ذلك غير موجود في الآخرة . . فلا تخف . . لأنه لا ارادة لها في أن تتخلى ، ولا أن تزول ، فقد أصبحت أنت مالكا لزمامها ، ولأن أمور النعيم في الدنيا ،

انما تكون بما تشتهيه أنت ، وعلى قدر ما أحسنت في دنياك . . أن تتبع منهج الله ، ولو قيدت حريتك في سبيل هذا ، فتصبح جديرا بأن تنال مطلق الحرية في الآخرة ، تستدعي من النعمة ما تشاء . . فاذا جاءتك ، فستكون نعمة مستقرة . . دائمة . . دوام الحب لا دوام المكره ، فهي تحبك ولذلك ترضى عنك ، فلا تنفك عنك . .

ومن علامات الرضا عن شيء أن تلازمه ، وما دامت العيشة راضية عنك ، محبة لله ، فهي ملازمة لك ، والذي يجعل النعمة تكره صاحبها في الدنيا ، هو أن تسخير الحق ـ فقط ـ هو الذي ذللها لله ، ولكنك قد تهنأ وتتنعم باللقمة الهنيئة وهي تلعنك . . تنعم بالبيت الجميل وهو يلعنك . . بالثوب الجميل وهو يلعنك . . لأن هذه الأشياء مؤدية مهمتها في الوجود ، وأنت لم تؤد مهمتك في الوجود . . فهي تتمرد عليك في دنياك . .

لذلك قلنا : ان الامام عليا ـ رضي الله عنه ـ حينما تلى قول الله تعالى : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ . . . قالوا له : أو تبكي السماء والأرض ؟ قال نعم . . تبكي وتفرح ، وتضحك . . وما دام الحق ـ سبحانه ـ نفي بكاء السماء والأرض على ذهاب آل فرعون ، فمعنى ذلك أنها تبكي على ذهاب غيرهم . . قال : اذا مات ابن آدم بكى عليه موضعان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض . . أما موضعه في السماء . فهو مقعد عمله . . مقعد العمل الطيب يبكي ، لأنه سيحرم أن يصعد اليه عمله . . أما موضع الأرض فمصلاه . . لأن المكان الذي يصلي فيه يحبه ويألفه ، فاذا مات ذلك الانسان المصلي ، فان المكان الذي كان يصلي فيه لله يبكي عليه . .

فالحق ـ سبحانه ـ حين يقول : « عيشة راضية » يمكننا من أسباب النعيم أتم تمكين ، **أما العلماء الذين يرون ان القرآن عبر بـ « راضية » ويريد « مرضية »** فرأي لم يصل الى دقيق المعاني ، ويرد دلالة كلام الله الى الكلام المألوف للبشر . .

● **وأما من خفت موازينه** :

المقابلة هنا « فأمه هاوية » هذا تعبير فيه اعجاز . . أمه هاوية . . أمه نار . . لانه فسر الهاوية فيما بعد بقوله : ﴿ **وما أدراك ماهية . . نار حامية** ﴾ والأسلوب هنا في قوله تعالى : وما أدراك ماهية ؟ انه رجوع الى استهلال السورة في قوله : ﴿ **القارعة ما القارعة . . وما أدراك ما القارعة ؟** ﴾ تسهيل وتأويل . بحيث يأتي باللفظ ، ليخرجه عن

معانيه اللغوية المعتادة . . فلا تفهم أسلوب القرآن على ما اعتدت من معان وضعية لغوية ، أنت تفهم القارعة لغويا ، وتفهم « هاوية » لغويا ، لكنك لا تقس المفهوم فهما على وصف ما تعرف في اللغة ، لأن كلتيهما تحمل معنى آخر . . لذلك قال : ما أدراك ما القـ ـعة ؟ ما أدراك ماهية أي الهاوية ؟ كان الرسول والصحابة والعالم جميعاً يدركون معنى القارعة . . لكن المعنى المراد من الله غير مدرك ذلك ما استهل به السورة . . فقال : « فأمه هاوية » وأيضاً : أفهم « فأمه هاوية » على ضوء ما فهمت في القارعة ، في أن هنا تسهيلا وتهويلا . . ولا يمكن أن تعلم حقيقة اللفظ ، الا اذا تركت المعنى اللغوي الذي تألفه في قواعد اللغة . .

وأعلم المعنى المراد للحق ، فقال : « فأمه هاوية » وما أدراك ماهية ؟ ثم يدريه : فيقول : « نار حامية » أن عظمة هذا الأسلوب تتجلى في أنه يبدأ بالتفعيل المطلق ، ثم ينهيه بالتيأيس المفجع . . وهذا النقل عملية نفسية ، ولذلك فنحن اذا قرأنا القرآن نجد مثل هذه الأساليب كثيرة ، يقول : فبشرهم . . يعني بشرهم بأن الله يغفر لهم . . من الجائز . . لان البشارة تكون بالخير . . فيقول : فبشرهم ، فتشرق نفوسهم على أن هناك منقذاً . . وأن هناك مغيثاً ، فاذا استشرقت النفس الى ذلك ، جاء الجواب مؤسفا مفزعا ، فيقول : فبشرهم بعذاب ألـيم . . ويقول في مثل هذه : « وان يستغيثوا يغاثوا . . بماء كالمهل » ابتداء الجواب ابتداء مقنعاً ، ثم أنهاه انهاء مخيفاً . . لو ترك اليأس ابتداء ولم يلبث في النفس ، تكون المسألة عادية ، ولكن ليفتح له باب الأمل واسعا ، فيخف مشيا ، ثم بعد ذلك يأتي بالعذاب ، يفتح الباب بقوله : وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل ، ماء المهل أشد مما كانوا فيه ، وذلك له نظير في أعراف البشر ، وان كان لله المثل الأعلى في أسلوبه وكلامه . .

مثلا . . يقول انسان : أنت تريد أن تعذبه بأن تحرمه الماء . . وأنت لا تصبر طويلا على حرمانك الماء . . وقال لك : أتوسل اليك أن تعطيني شربة ماء ، فتأتي الى « الثلاجة » وتأتي بكوب ، وتملأه ماء ، وتتوجه اليه ، كل هذه العمليات قد أشعرته بعطفك ، فاستشرق الى الأمل المقنع . . لكن عندما تصل اليه تسكب الماء على الأرض . . يكون هذا تعذيبا أشد من مواصلتك حرمانه من الماء ، ولذلك ، حتى الشاعر نراه يقول : كما أدركت قوما عطاشا . . غمامة القوم العطاش . . حين تبدو لهم

غمامة يستشرقون . . فلما رأوها ، انقشعت وتخلت . .

مثل هذا الأسلوب موجود في هذه الآية : فأمه . . الأم في الحياة مصدر الحنان والعطف ، فحين يقول : فأمه . . يشعر الانسان باتجاه العطف والحنان . . ثم يقول : فأمه هاوية . . بدأها ابتداء مقنعا ، ثم أنهاها انهاء مزعجا . .

وأيضاً لنقف عند هذا التصوير الدقيق للآية : ان النار تتهافت على المعذب بها ، كما تتهافت الام على وليدها ، فتحتضنه وتضمه . . وكذلك يكون شأن النار مع الانسان الذي أعرض عن نعم الله ، فيقول له : فأمه . . يذكره بالنعم . . ستحتضنك . . وتقول : هل من مزيد ؟

اذن فالتعبير القرآني تعبير تصويري دقيق ، يجول في أنحاء النفس البشرية ، وبعد ذلك يقول : ﴿ **وما أدراك ماهية ؟ نار حامية** ﴾ هنا تقابل لمن ثقلت موازينه بمن خفت موازينه ، وبين عيشة راضية ، وبين أمه هاوية . . هذا التقابل الاعلامي ، أو الاخباري بأمر الغيب ، المقصود منه أن ينعم المؤمن بنعمتين :

الأولى : أن يعرف موقعه في الآخرة من رضى ربه ، ورضى نعيم ربه . .

الثانية : حين يرى الذي كان يحاد الله ويسأله ويعانده . . أمه هاوية . .

اذن فنعيمه جاء من نوعين : نعيمه في نفسه ، ونعيمه من العذاب لخصمه وعدوه ، الذي عاداه في الدنيا . . عقائديا . .

وأيضاً ، فيه تعذيب للكافر من ناحيتين :

ـ من ناحية أنه يعطيه صورته من العذاب ـ ومن ناحية أخرى،صورة خصمه الذي كان له في الدنيا ، من النعيم . .

وهكذا ، فالاثنان موجودان ، ولهذا التقابل في القرآن مواضع كثيرة ، ليعطينا الصورة الجديدة ، يقول القرآن لك مثلا : ﴿ **ان الذين اجرموا كانوا ـ أي في الدنيا ـ من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فكهين . واذا رأوهم قالوا : ان هؤلاء لضالون** ﴾ .

هذا هو التصوير الذي يتصوره الجاهل بالنسبة للمؤمن . . ثم يجيء التقابل، فيقول القرآن : ﴿ **فاليوم** ـ نوع الجزاء ـ **الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ـ ضحكا دائما ـ **على الارائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟** ﴾ هل جوزي الكفار

بمثل فعلهم الجزاء الأدنى ؟

وفي سورة الرحمن أيضاً : امتنان فيها بالنعم الكثيرة المتوالية . . هذا الامتنان يعبر عنه الحق بعد كل نعمة من النعم فيقول : ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟** ﴾ فنقول : لا شيء ، كل هذه نعم حقيقية . . ويأتي هذا التكرار الاستفهامي : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » بعد نعم نعرف حقيقتها ، أو نعم يجهل الانسان حقيقتها ، مثلا : خلق الانسان من صلصال كالفخار . . اذن خلقنا من جماد . . ثم أعطانا حياة وفكرا . . أجل هذه نعم : خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأي آلاء ربكما تكذبان . .

ثم يقول : « رب المشرقين ورب المغربين . . » ويقول : « مرج البحرين يلتقيان . . بينهما برزخ لا يبغيان » وهذه نعم ، لكن ما النعمة في قوله تعالى : ﴿ **كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ؟ كأن « كل من عليها فان » ويبقى نعمة ؟ نقول : أجل ، هي نعمة ، لأن المؤمن الذي يطلب منه في حياته أن يثبت على منهج خاص ، تقيد فيه حريته ، وينال بعض المتاعب . . يكون الموت بالنسبة له نعمة ، وأيضاً نعمة بالنسبة لما تراه أنت في الدنيا : أن هذا النعيم سينتهي ، لانه لا يتصور الا في هذه الدنيا ، والموت سينهي هذا التصور . .

وفي قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والأنس ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا . . لا تنفذون الا بسلطان . . فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ؟ يعني : عدم خروجنا عن سلطان الله ، وعلوية الله لنا ، لاننا نكون في نعمة كريم رحيم . . ثم يقول : « يرسل عليكما شواظ من نار ـ ونحاس فلا تنتصران ـ فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟

اذن كل هذه ليؤكد لنا ـ سبحانه ـ أن مظاهر الوجود كلها نعم : أما بالنسبة للمؤمن ، وأما بالنسبة لاستشعار ما يكون من كائن في هذه الحياة . . فان هذه الكائنات تنعم أيضاً . . بالمؤمن . . فاذا كانت القارعة ستأتي بأوصافها التي أرادها الحق . . واذا كان الانسان سيعطي على أعماله من جزاء في منتهى الدقة والضبط والعدل . . يلقى كل انسان جزاءه ، المؤمن ينال العيشة الراضية ، والكافر ينال : الأم الهاوية . . ما دام

الأمر كذلك ، اذن فالعاقل هو الذي يجب أن يستقبل الأمور بما يستحقها من العناية . . فلا يشغل بما لا يفيد عما يفيد . . يجب ألا يتلهى بما هو زائل . . ولكن الانسان بطبيعته ميال الى أن يشتغل بما ضمن له ، عما فرض عليه وطلب منه .

● **الهاكم التكاثر :**

عم ألهانا ؟ عن تلك المقاييس . . عن تلك الموازين . . عن تلك النهاية . . انشغل الانسان عن الأعمال التي تجعل موازينه ثقيلة ، بالاعمال التي تجعل موازينه خفيفة . . هذه غفلة ، وذلك غباء . . والأجدر بالناس أن يفيقوا ويتنبهوا .

ان القرآن يستدل في إبراز هذا المعنى ببعض الاحداث ، فيجعلها مناسبة لالقاء هذه السورة . . كيلا يكون الكلام نظريا ، ينتظر القرآن حتى يأتي حدث من الأحداث ، يجعل لهذه السورة موقعا في مطلوب الحدث ، يحدثنا المفسرون أن الحدث فعلا قد وقع : تكاثر قوم من بني مناف مع قوم من بني سهم . . معنى الهاكم : شغلكم ، والتكاثر هو التفاعل وهناك فرق بين الفعل والتفاعل ، الفعل قد يقع من انسان على انسان آخر ، فيكون فاعلا وذاك مفعولا . . لكن التفاعل معناه : فيه فاعل وفيه مفعول ، وفي الحقيقة : أن الفاعل مع كونه فاعلا هو مفعول من ناحية أخرى ، وكذلك المفعول مع كونه مفعولا ، هو فاعل من ناحية أخرى ، كما تقول مثلا : شارك زيد عمرا ، زيد في الصورة اللفظية فاعل ، وعمرو مفعول ، لكن تحقيق الصورة : انه كما شارك زيد عمرا ، شارك عمرو زيدا ، كل منهما فاعل ومفعول من ناحيته ، اذن فالفاعلية غالبة هنا ، والمفعولية غالبة أيضاً ، ومثال ذلك : التشاجر والتخاصم ، كل من الطرفين وقع منه التشاجر والتخاصم ، ووقعا على كل منهما أيضا التشاجر والتخاصم .

كذلك التكاثر هنا ، يقال : ان فلانا تكاثر مع فلان ، فلا بد أن يكون الآخر تكاثر عليه . . أنا أكاثرك وأنت تكاثرني ، وتكاثر القوم أي كاثر بعضهم بعضا ، يعني فيهم فاعل ومفعول ، فيقول الحق ـ سبحانه وتعالى : « ألهاكم التكاثر » أي التكاثر منكم جميعا ، كل واحد يكاثر واحدا ، ومعنى « أكاثره » تأخذ معنيين : الأول ـ أن تكاثره بما وقع عندك من النعيم ، وأن يكاثرك بما وقع عنده من النعيم ؛ شيء واقع ، ويقول : أنا مالي أكثر من مالك ، وولدي أكثر من ولدك ، ونعيمي أكثر من نعيمك ، وآبائي أكثر من آبائك . . اذن فالتكاثر أن تدعي أنت أنك اكثر ، وهو يقابلك بمثل ادعائك ، أو التكاثر بمعنى :

أنكم تصرفون جهودكم لكي تكونوا اكثر من غيركم من الناس . . فتستقبلون بالفعل أعمالا تريدون بها أن تكاثروا الغير ، وهذا هو المعنى الثاني ، فالمعنى الأول : التكاثر فيه أو به يكون موجودا ، وعلى المعنى الثاني : أن يكون التكاثر مطلوبا ، الذين يتفاخرون بما عندهم هذا هو المعنى الأول ، والذين يتصرفون بكل طاقاتهم في حياتهم حتى يكونوا اكثر من غيرهم ، هذا هو المعنى الثاني .

لكن هل المراد المعنى الأول أم الثاني ؟ ما دام ألهاكم التكاثر فيما تملكون ، وألهاكم حب التكاثر فيما تطلبون ؟ الحد هنا يقتضي أن المعنى عام . .

ويلاحظ أنه قال : « ألهاكم » فما هو الالهاء ؟ الالهاء أن يوجد شيء يسيطر على فكر الانسان ، فيجعل غير المطلوب منه أهم من المطلوب منه . . هذا يقارب اللعب . . لان اللعب أن تشتغل بشيء تافه لا عناء فيه . .

● **بين اللعب واللهو :**

الحق سبحانه حينما تعرض للهو واللعب ، قدم اللهو على اللعب في كل آيات القرآن ، الا في آيتين : الأولى : انما الحياة الدنيا لعب ولهو .

لكن استقراءات الآيات نجد اللعب قبل اللهو ، لان الانسان تمر عليه فترات ، فترة قبل أن يبلغ ، وهذه فترة غير تكليفية ، فحين يلعب لايترك شيئا مطلوبا منه ، ويشتغل بشيء مطلوب منه ، وبما أن الانسان حينما يستقبل الحياة لا يكون مكلفا أول الأمر ، فيلعب ، ثم يكلف فينشأ اللهو ، ولذلك لم يقل القرآن : ألعبتم . . لا ، بل قال : ألهاكم . . لماذا ؟ لأن اللعب ـ عادة ـ خارج منطقة التكليف ، أما اللهو فيوجد في منطقة التكليف ، لانك فيه مطلوب منك .

والمكلف قد يكون له وقت يباح فيه اللعب ، انما يشترط أن لايكون لاهيا عن التكليف ، اذن فهو شيء ترفيهي للنفس ، لا حصيلة له أنه يمنح الانسان شيئا من الراحة ، مثال أن يجوز لنا اللعب في يوم العيد . . وكان ـ عليه السلام ـ ينظر الى لعب الاحباش بالمسجد ، وليست المسألة مهمة في قانون الحياة ، الا أنها تمنح النفس انطلاقها من القيود ، وهذا كان يوم عيد . . ولذا كانت السيدة عائشة تقف خلف الرسول يريها لعب الاحباش . . وعندما وجد أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ جاريتين تغنيان في بيت الرسول ، واحتج على ذلك قائلا : أمزمار الشيطان في بيت النبوة ، فيقول عليه

السلام : يا أبا بكر . . انهن في يوم عيد . .

● **صورة واقعية :**

الحق يقول : « ألهاكم التكاثر » وظللتم في هذا اللهو ، سادرين في هذه الغفلة مخدرين عما طلب منكم . « حتى زرتم المقابر » .

أكانت تلك صورة واقعية ، أي أنهم تكاثروا بالأحياء . . حتى انتهى التكاثر بالأحياء . . فذهبوا ليتكاثروا أيضاً بمن في القبور ؟ يقولون : من في هذا القبر منا ، ومن في هذا القبر منا . . أي أن تكاثرهم دفعهم الى أن يزوروا القبور ، ليضموا الى تكاثر موجود لهم في الدنيا ، تكاثرا كان لهم ثم مات ؟ أم أنهم شغلوا بالتكاثر كل الوقت حتى فوجئوا بالموت ؟

يصح المعنيان . . لأن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص الظرف : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » يستوي أن يكون المراد بالتكاثر التكاثر بالأموات في القبور ، أو أن يكون المراد بها الموت الذي يأتيكم . . ثم عندما تنتبهون تعجزون على العمل . .

ان العربي الذي تعود أن يستقبل القرآن بخلفياته المعبرة ، حين سمع هذه الآية قال : نعي الناس الى أنفسهم ـ ورب الكعبة ـ والله لقد قامت القيامة . . ما دام قال : ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر . . تكون المسألة قد انتهت . .

التعبير هنا أيضا : التكليف فيما يفهم من « زرتم المقابر » أما عن المعنى الأول : فانهم ذهبوا الى المقابر ليتكاثروا بالأموات . . فالأمر ظاهر ، لأنهم تكاثروا ورجعوا . . فالمدة التي استغرقها التكاثر عند القبور مدة يسيرة ، هي مدة الزيارة . . أما اذا كان المراد المعنى الآخر ، أن التكاثر ألهاكم حتى فوجئتم بالموت فمتم . . كأنه يغني : أن الموت ليس نهاية الأحياء . . انما هو مرحلة يأتي بعدها أمر آخر . . سوف يبعثون ثانية ويردون الى الحياة . . وتكون فترتهم في القبور هي فترة الزيارة . . لأن الزائر غير مقيم . .

اذن ، فالذي يلهي الانسان عن شيء ، هي غفلته عن مصيره في الأمرين ، لأننا قلنا : لو أن الانسان استحضر الجزاء على أعماله . . أو عجل له بعض الجزاء على أعماله . . أحضرنا له الجزاء أمامه . . ثم جاء أمتع متعة يتمتع بها ، وقلنا له : ان فعلت

هذه المتعة فسيكون مصيرك النار . . لو أننا أوقدنا له نارا ، وقلنا له : ان تمتعت بهذه المتعة تدخل هذه النار . . فلا نظن انسانا يقدم على هذه المتعة ويدخل النار . .

لكن ما الفرق بين الصورتين : أن يقول الله للانسان : ان فعلت كذا أبعث بك الى النار ، وأن يجسد الجزاء أمام الانسان ؟ في الصورة الثانية يحس الانسان بالجزاء احساسه بالمتعة ، وفي الصورة الأولى ، الجزاء غيب ، وما دام غيبا ، فلا يستحضر الانسان الجزاء أمامه . .

اذن . . فالذي يوجب اللهو عن مطلوب ، هو أن معنى الجزاء ، ومعنى موقف الجزاء ، ومعنى الموصل للجزاء . . أمر يباعد بالنفس . . ولذا لو كان أمرا واضحا بالنفس ، تحسه . . ما وجد أحد يقبل على معصية أبدا ، ما دام يستحضر الجزاء عليها ، والعذاب اذا فعلها . .

ان المسألة مسألة اليقين في الجزاء . . فاذا لم يوجد ، وجد في النفس ميل للمعصية واشتهاء لها . . لكن الجزاء حين يتمثل أمام النفس ، لاتقدم على معصية ؛ ومن أجل هذا ، حين سأل الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حارثة : كيف أصبحت ؟ فأجاب : أصبحت مؤمنا بالله . . قال له عليه السلام : « لكل حق حقيقة . . فما حقيقة ايمانك ؟ فأجاب : عزلت نفسي عن الدنيا . . فاستوى عندي ذهبها وترابها . . » .

هذا الانسان يستوي عنده الذهب والتراب . . فهو انسان متيقن يقينا تاما بالجزاء . . ولذا نراه يتابع كلامه : وكأني أنظر الى أهل الجنة في الجنة ينعمون . . وإلى أهل النار في النار يعذبون » يعني أصبح يستشعر الجزاء أمامه ويحس به ، وما دام شأنه كذلك ، أيغفل عن منهج الله ؟ لا يمكن أن يغفل عن منهج الله .

الرسول ـ عليه السلام ـ يقدم لنا هذه الصورة . . الناس جميعا مؤمنون وموقنون أنهم سيموتون . . هذه سنة الحياة لايفلت منها أحد . . وما دام الأمر كذلك ، ما الذي يجعل الناس يغفلون عما يطلبه الموت ؟ قالوا لك : لم نر يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالنار . . ولولا هذا لكان الانسان دائما ، مستحضرا هذا الموت . .

● **هذه صور ثلاث :**

ان الحق ـ سبحانه ـ أراد أن يؤكد لنا دائما على هذا المعنى ، فالمعلومات حين

يعلمنا بها معلم ، انما تأخذ دائما صورا ثلاثا :

الصورة الأولى :

أن يخبرك بها المخبر ، فتوجد عندك صورة ذهنية عن الخبر . . صورة ذهنية . . صورة علمية . . ومعنى صورة ذهنية أو علمية ، أن الشيء في حقيقته بعيد عنه ، ورحت حسب تصديقك للمخبر تأخذ صورة يقينية ، الا أنه يقين نظري . . يقين غيبي . . بعد ذلك ينتقل الى يقين عيني ، مثال :

اذا جاءك أحد من الناس من بلد من البلدان ، وقال لك : زرت البلد الفلاني ، فوجدت فاكهة في حجم البطيخ ولون البرتقال ، وفي طعم التفاح ، وفي رائحة الموز . . فاكهة غريبة . . ان كان صادقا ، أعطاك صورة ذهنية عن الشيء . بعد ذلك تتعجب انت من هذه الفاكهة . . فاذا أراك الفاكهة رأى العين . . انتقلت من الكلام النظري الى الكلام اليقيني . . . انتقل من علم اليقين الى عين اليقين . . فاذا جاء بالسكين ، وقطع حبة الفاكهة ، وأعطى كل واحد قطعة واكلها . . يكون وصل من عين اليقين الى حقيقة اليقين . . اذن لايقين بعد ذلك . كذلك الحق سبحانه ـ في الاخبار ـ عن الغيبيات ، يخبرنا ـ وهو الصادق ـ فنتلقى صورة ذهنية عن الأشياء ، هذا علم اليقين . . بعد ذلك نرى ذلك الشيء يقينا بعد أن كان ذهنيا أو نظريا ، وهذا هو عين اليقين ، ثم ندخل في حقيقة ذلك الشيء ، فيصير حق يقين . .

يخبرنا سبحانه : أن الله بيتا في مكة . . والبيت شكله كذا وكذا ، ومن يذهب اليه عليه أن يطوف به . . البعيد عن البيت يتلقى صورة ذهنية علمية ، لأن المخبر صادق ، هذا علم يقين ، فاذا سافر ورأى البيت مشاهدة عيانية ، يكون بازاء عين يقين ، فاذا طاف بالبيت وشفت روحه ، وغمرته الروحانية ، يكون قد دخل في حقيقة اليقين . .

اذن ، فالانسان ، حين يتنبه الى القيمة الجزائية للاعمال . جنة أو نار ، هو أنه في مرحلة علم اليقين ، لذلك يقول الله بعد القاء الخبر : ﴿ **الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر** ﴾ « **كلا** » كلمة ردع . . يعني هذا ليس سلوك العاقل الذي يرتب الأمور على نتائجها . . كلا . . كلمة ردع وزجر ، يعني : ذلك لا يرضي الله . . واذن مرحلة علم اليقين هذه باعثة على الشك . . فاسمعوا : ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ تعلمون مرتبة « عين اليقين » تعرض علينا الجنة ، وتعرض علينا النار ، لكنا لا ندخل كلتيهما ـ تكون

مرتبة عين اليقين . . وعندما ندخل احداهما ، نتحول الى مرتبة حق اليقين . .

« كلا سوف تعلمون » أولا . . ثم كلا سوف تعلمون ثانيا . . سوف الاستقبالية في الآية الأولى ، غير سوف الاستقبالية في الآية الثانية . . لأنها مراحل ، يقول في الأولى ، ان لم يكفكم علم اليقين ، ستعلمون عين اليقين . . بعد الموت ، وليست هذه هي النهاية ، سوف الأولى مستقبل لعلم اليقين والثانية مستقبل بالنسبة لعين اليقين . .

« كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » كلا . . ما كان الحق سبحانه ، يحب منا أن ننتظر الأشياء ـ في تواكل ـ الى أن يأتي عين اليقين ، وحقيقة اليقين ، لماذا ؟ لأن هذه الانتظارات انتظارات الشك ، فلو أنكم واثقون في أن ما قاله الحق ـ لا محالة ، ما كنتم تنتظرون ـ لاعين اليقين ولا حقيقة اليقين ، وما دام الله قال ، تكون المسألة قد انتهت ، لأن الله ليس عنده ماض وحاضر ومستقبل ، والذي هو في شك ينتظر الى عين اليقين والى حقيقة اليقين .

لذلك نجد القرآن يتعرض في المرحلة الثالثة ، وهي حق اليقين . . للكفار وليس للمؤمنين لأن المؤمن متيقن بطبيعته .

ففي سورة الواقعة :

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين . أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم اتكم تكذبون . فلولا اذا بلغت الحلقوم . وانتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فاما ان كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إنْ كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصليه جحيم . إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم﴾ .

اذن فقول الحق : « كلا سوف تعلمون » ستعلمون أياما علـم اليقين علمتموها ، ومع ذلك تشككتم . . فسوف تعلمون عين اليقين ، وبعد ذلك تأتي مرحلة تعلمون فيها حقيقة اليقين ، وما كان أغناكم عن هذا ، لو أنكم استقبلتم كلام ربكم الذي يمدكم بعلم اليقين ، بما فيه عين اليقين وحقيقة اليقين . .

أما ولما لم تفعلوا : « كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم » ان جواب

لو ، ولو يسمونها لو الامتناعية ، أي جوابها يمتنع دائما ، لذلك منع شرطها لامتناع جوابها ، تقول : لوجاء زيد ـ في الماضي ـ لجاء عمرو . . معنى هذا الكلام . . انك لو جعلت : ﴿ **لترونها علم اليقين** ﴾ جواباً لـ « لو » لكان معنى ذلك أنه لايأتي ، لأن « لو » حرف امتناع لامتناع . . اذن « لترون » ليس جوابا للو ، وانما جواب لو محذوف ، تقديره : لو تعلمون علم اليقين واكتفيتم باخبار الله لكم ، لصنعتم أشياء عظيمة ، ولزاد يقينكم ، ولم تحتاجوا الى مرحلة عين اليقين وحقيقة اليقين ، لأن الله هو الذي قال . . بل ولم تغفلوا عن شيء من التكاليف ، ولم تتلهوا بما لم يطلب منكم . .

اذن : « لو تعلمون علم اليقين » لو امتناعية ، شرطها موجود ، وجوابها مقدر ، لما احتجتم الى انتظار عين اليقين أو حقيقة اليقين ، بل أقبلتم على أوامر الله لكم ، وصدقتم أخباره عن الغيبيات تصديق من يراها عينا ، ومن دخلها حقيقة ، ويبقى : « لترون الجحيم » كلام مستأنف ، لاننا لو ألحقناه بلو ، كان ممتنعا ، وهو غير ممتنع ، رؤيتهم غير ممتنعة . . والخلاصة ، أن قوله تعالى : « لترون الجحيم » ليس جوابا للو . . اذن هذا الكلام جديد لا ارتباط له بلو . .

ثم في «لترون الجحيم» قسم مقدم ، والمقسم به هو الله . . ثم « لترونها عين اليقين » حقيقة . . ثم لتسألن يومئذ عن النعيم . .

● **السؤال عن النعيم :**

ما هو تحديد النعيم ؟ ما هي صور الأسئلة ؟

النعيم في أعراف بعض العلماء ، هو ما يضمن قوام الحياة من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ، فمن أصبح معافا في بدنه ، آمنا في بيته ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . . البعض يرى أن النعيم هو ما زاد عن ضرورات الحياة ، معنى هذا ألا سؤال في ضرورات الحياة ، لأن الله ـ سبحانه ـ جعل الضرورات حق اختصاص للانسان ، فالله ـ سبحانه ـ خلقه ، وتكفل بضرورات حياته ، أما ما زاد عن ضمان أصل الحياة ، فهو النعيم الذي يسأل الانسان عنه . .

في سورة طه ، يخاطب الحق ـ سبحانه ـ آدم :

﴿ **ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ .

أربع مطالب : لا تجوع ـ هذا هو الطعام ـ ولا تعرى ـ هذا هو اللباس ـ ولا تظمأ

هذا هو الماء ـ ولا تضحى ـ هذا هو المأوى الذي يؤ ويك من الشمس وحرها ، اذن ما زاد على ذلك ، هو النعيم الذي تسأل عنه . .

لكن كيف يسأل ؟ الجواب يشرحه حديث الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه :

« **لا تزول قدم ابن آدم حتى يسأل . . عن عمره فيما افناه ، وعن بدنه فيما ابلاه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه ، وعن علمه ، ماذا عمل به** » .

وهذا هو موضوع السؤال : عن العمر ، عن القوة والصحة البدنية ، عن المال ، ثم عن العلم . وهذه هي الأسئلة . .

* * *

● **مثل من حياة النبي واصحابه :**

والرسول ـ عليه السلام ـ يحدثنا ـ فيما أخبرنا به الرواة ـ عن ذلك النعيم ، في صورة تعطينا كيف كانت الحياة النبوية الكريمة ، وحياة أصحابه . . كيف تحملوا المشاق ، وركبوا الصعاب في دنياهم ، حتى أوصلوا لنا هذا الدين ، فاذا قارنا حالهم بأقل حال واحد منا ، اتضح لنا الفارق الكبير . .

فماذا يقول الرواة ؟

ان الرسول خرج يوما من بيته فوجد أبا بكر وعمر جالسين معا ، وجلوسهما معا له قصة ، أقبل أبو بكر على عمر فقال له : ماذا جاء بك يا عمر ؟ فقال : والله لقد أخرجني الجوع ، فقال أبو بكر ، وأنا والله : لقد أخرجني من بيتي الجوع . . وعندما أقبل عليهما رسول الله ، سألهما : ما الذي أخرجكما ؟ فقصا عليه ما حدث بينهما من حوار ، فقال عليه السلام : والله لقد أخرجني الذي أخرجكما . . انطلقا بنا . . قال بعض الرواة : الانطلاق الى بيت من بيوت الأنصار ، بيت أبي أيوب ، أو بيت أبي الهيثم . . المهم توجهوا الى البيت ، ولم يكن الرجل موجودا ، فقالت امرأته : مرحبا برسول الله وبمن جاء مع رسول الله . . ثم دخل صاحب البيت ، فحمل اليهم التمر ، ثم رآه الرسول يمسك بسكين ، فقال له : تجنب الحلوب . . فذهب ، فذبح جديا ، وطبخ نصفه وادخر النصف الآخر ، وعندما قدم الطعام الى الرسول وصاحبيه ، أمسك الرسول بقطعة لحم ووضعها في رغيف من الخبز ، وأمره بأن يذهب بهذا الى فاطمة بنت محمد ، قائلا : انها ما عرفت هذا منذ زمن طويل ، وبعد أن أكلوا قال عليه السلام :

الحمد لله : لحم وبسر ورطب وتمر . . هذا هو النعيم ، لتسألن يومئذ عن النعيم . .

الا أن الرسول استثنى من النعيم أي نعمة تقبل عليها حين تقبل باسم الله ، وحين تنتهي منها ، تنتهي بحمد الله . . واذا رأيت أثرا نافعا له ، قلت : ما شاء الله ، لاقوة الا بالله . . فكأنك استحضرت المنعم الحقيقي . . نعمة لا تسأل عنها يوم القيامة ، لأنك قد أديت حق المنعم عليك فيها ، في الدنيا ، لم تغفل عن المنعم أبدا . .

مفاوضـــة مـرفوضـــة

● **مع الكفار وجها لوجه :**

﴿ **قل : يا أيها الكافرون . لا أعبدما تعبدون** ﴾ لا حالا ولا مستقبلا ما تؤدي هذه المفاوضة ؟ يا محمد أنت تعبد آلهتنا مدة ، ونحن نعبد آلهتك مدة . . أي يقسمون الزمن على هواهم . . جزء لآلهتهم وجزء لاله محمد . .

او يا محمد : تسجد لأصنامنا وتعظمها ، ونحن نسجد لالهك ونعظمه ، أما أن يقسم الزمن على العبادة ، أو تقسم العبادة في الزمن . .

المسألة متعلقة بالعبادة ، والعبادة هي الأصل الأصيل في العقائد ، وهذه ليست من التشريعات التي يتغير فيها الزمن ، لان تشريعات العبادة لله ، ووحدانية الله ، وهذا أمر متفق عليه من لدن آدم في كل الرسل .

اذن فهذه المسألة ، ليست من مسائل التشريعات التي تجد في الأحداث ، ولا تتغير بتغير الظروف . .

لماذا هذا التفاوت ؟ نناقش المسألة .

هـل أنا عبـد الله بذاتيتي لا ولكن بمنهـج الله . . أما أنتم فتعبـدون أصنامكم من ذاتية أنفسكم ، ذاتيتي أنا لا دخل لها في الموضوع ، أما أنتم فذاتيتكم لها دخل في الموضوع .

وأيضاً : هل سبق ـ قبل أن أبعث رسولا ـ أنني عبدت آلهتكم ، حتى أنكم تطمعون بعد أن أصبحت رسولا في أن أعبد آلهتكم . . اذن فجعل المسألة موضوع تفاوض دليل على الحمق .

ثم ان الخلاف ليس بيني وبين ذواتكم . . الخلاف بينكم وبين الله ، وأنا ـ فقط ـ

مبلغ عن الله ، فالتفاوض ـ ان شئتم لا يكون معي ، وانما يكون مع من يملك الأمر . . أنا لا أملك التقنين فيها ، وأنتم تملكون التقنين ، لأن كلامكم باطل ، وفي استطاعتكم أن تغيروه . . أما أنا فالكلام ليس من عندي ، أنا مبلغ فقط ، وليس لي رأي بذاتيتي في هذه المسألة ، وأنتم لكم في ذاتيتكم ، أنتم أحرارا فيما تقولون ، ولست حرا فيما أقول .

لذلك نجد القرآن يحرص دائما على أن يجعل الأمر بـ- « قل » نصا من نصوص القرآن . . فاذا جاءت الآية : « قل يا أيها الكافرون وذهب الرسول ليبلغ الكافرين ، فلا يأتي بمقول القول ـ أي لا يقول : « يا أيها الكافرون » بل يقول : « قل يا أيها الكافرون . . » حتى يفهم السامعون أن القول ليس من ذاتية محمد ، انه مبلغ عن الله .

ولذلك في كل ما يتعلق بهذه الآيات يقول الحق سبحانه : « قل » فتصير « قل » من نفس التبليغ . . مع أنه كان يكفي في المخاطب بقل أن يقول مقول القول دون أن يقول : قل . . فتأكيد القرآن على أن « قل » من ذات النص ، دليل على أنه مبلغ فقط . . وأن الرأي ليس رأيي فلماذا تتفاوضون معي ؟

ومن جهة أخرى :

ان مسألة التفاوض منقودة من جهة ثانية ، انتم أقررتم بألوهية الهي ، وأنا لم أقر بألوهية أصنامكم . . إذا سئلتم من خلقكم ؟ تقولون : الله ، بل تقولون : الله خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر . . وأنزل من السماء ماء . . إذن فأنتم مؤمنون بوجود إله ومقرون . . وأنا لم أؤمن ولم أقر بآلهتكم . . إذن فتكافؤ الفرص ممتنع فكيف تتفاوضون إذن ؟ كيف نتفق إذن ؟

يقول الله تعالى : ﴿ **قل يا أيها الكافرون** . . ﴾ يا أيها هذه عندما تأتي ، تأتي في صورتين : للتفخيم أو للتحقير ، لأن البعد يأتي على معنين : بعد منزلة ، أو بعد مكان عن الحضرة الطاهرة . . عندما يقول الحق : يا أيها الرسول . . هذه منزلة عالية ، يخاطبه مخاطبة البعيد في علو المنزلة . . أما عندما يقول ـ سبحانه ـ يا أيها الكافرون . . هذه بعد عن الحضرة .

وأيضاً ، عندما يأتي الرسول فيقول : يا أيها الكافرون . . فالى أن يقول « يا أيها »

هذه ، يحدث تنبيه للأذهان ، حتى لا يفوت أحدا شيء . فيطول النداء ، لكي يسمع الكافرون . . بل يخاطبهم باللفظ الدال على التهكم والتحقير : « يا أيها الكافرون » لم يقل : يا أيها الذين كفروا ، لانهم لم يكونوا مؤمنين فكفروا ، وانما الكفر ملازم لهم من قديم . . وكلمة الكفر هذه توحي بفطرية الايمان ، لماذا ؟ المادة التي أخذمنهاالكفر من كفر بمعنى ستر ، فكأنه كان فيه شيء ظاهر ، فجئت أنت وسترته . . يعني : الكفر طارىء على الفكر الانساني ، أي أن الفكر الانساني بذاته وبطبيعته ، وبصفاته مؤمن ، فالذي ترى هو الكفر الدال على أن هناك شيئا كان ظاهرا فستر ، هذا الشيء الظاهر هو الايمان بالله ، فالايمان بالله فطري .

● **من لدن آدم عليه السلام :**

الايمان فطري منذ آدم عليه السلام ، لأن آدم تلقاه من ربه ، ثم بلغه ، فالأصل اذن وجود . . الايمان بالفطرة ، وبالبرهان والدليل . . الا أن الغفلة طرأت على الناس ، وطرق بعد ذلك تقليد البيئات .

يقول الحق سبحانه في سورة الأعراف :

﴿ واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم : الست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا . . ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين او تقولوا : انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ .

اذن فالمناهج الالهية التي نتلقاها من الحق ـ سبحانه ـ وهي عندما بدأ خلق الخلق ، دليل على فطرية الايمان . . ان لسان آدم ينطق به ، وعينيه بما تراه ، وأنفه بما يشمه ، وقلبه بما يعتقده ، وحياته التي تنظم حركته . . وعندما علمه الأسماء كان كل هذه ضمن تلك الأسماء .

ثم يقول : ﴿ فأما يأتينكم مني هدى ﴾ المفروض أن آدم تلقى من الله ، ثم بلغ أبناءه . . والمفروض أن أبناءه بلغوا من بعدهم ، اذن فمن أين ينطمس المنهج ؟ قال لك : من الغفلة . . انها أول مرحلة . . ولماذا تأتي هذه الغفلة ؟ قال لك : لأن مناهج الله تنظم حركة الحياة تقيد حركتهم ، تقيد حريتهم ، تقيد شهواتهم . . فالأشياء التي تقيدهم ، يغفلون عنها ، الغفلة اليوم عن جزئية ، وغدا عن جزئية . . وبعد ذلك تستمر الغفلة

● **من نتائج الغفلة :**

الغفلة هي أولى مراحل الابقاء على المنهج الالهي ، لذلك من الاجدر بنا أن الى حديث حذيفة بن اليمان عن رسول الله عليه السلام ، يقول حذيفة :

« حدثنا رسول الله ـ ﷺ ـ حديثين ، قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر . . حدثنا · أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا ما علموا من القرآن ، وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، قال : ينام الرجل النومة ـ يعني يغفل الغفلة الواحدة ، فتقبض الأمانة من قلبه . . فيظل أثرها مثل الوكت » .

أثر الوكت ، أثر جمرة النار حين تقرب من الجلد دون أن تمسه ، وهنا ملاحظتان اثنتان : الأولى : أن ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة وتنتزع من قلبه ، الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت . شيء يسير ، والثانية : ثم ينام النومة فتقبض الامان من قلبه ، فيظل أثرها مثل المجل . . كجمر دحرجته على رجلك ، فنفط فتراه منتبراً ، وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله .

قال حذيفة : فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال : ان في بني فلان رجلا أمينا » كأن الأمانة أصبحت نادرة جدا حتى يقال : ان في بني فلان رجلا أمينا ـ وحتى يقال للرجل : ما أجلده . . ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان . . يعني تتغير المقاييس .

وحديث آخر عن حذيفة رضي الله عنه قال :

« كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يذكر الفتن ـ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره ؟ قالوا أجل ، قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة . . ولكن أيكم سمع النبي ـ ﷺ ـ يذكر الفتن التي تموج موج البحر ؟ قال حذيفة ـ فأسكت القوم ـ فقلت أنا . . قال : أنت لله أبوك ؟ قال حذيفة : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا . . فأي قلب اشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين . . على أبيض من الصفا . . فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض . . والآخرة أسود مربادا ـ أي شديد البياض في

سواد ـ كالكوز مجخيا ـ أي منكوسا ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا الا ما أشرب من هواه . . قال حذيفة : وحدثته ـ أي عمر ـ أن بينك وبينها ـ أي هذه الفتن ـ بابا مغلقا يوشك أن يكسر . . قال عمر :أكسرا لا أبالك . . فلو انه فتح لعله كان يعاد . . قلت : لا ، بل يكسر . . !!

● **الأصل أن الايمان بالفطرة :**

أجل الأصل أن الايمان بالفطرة ، وبالبرهنة ، وبما بلغه آدم . . ولكن الغفلة عندما تأتي ، يتنافس الناس شيئا فشيئا . . الا أن الغفلة من فرد قد تجد آخر ينبه اليها في المجتمع . . لذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لتذكير الفاعل : « **وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين** » .

فاذا ما تم الفساد وأصبح لا مجتمع يأمر بمعروف وينهى عن منكر ، ماذا يكون الموقف ، لا بد أن تتدخل السماء من جديد ، برسول . . بمعجزة جديدة ، لأن الخلق كلهم فسدوا . . اذن فالغفلة تأتي أولا ، ثم يأتي جيل ما بعد الغافلين ، فيكون لديه مؤثران في ترك منهج الله : الغفلة ، وتقليد الآباء في الضلال .

اذن فالقرآن حين عرض للمسألة أتى بعناصر الانصراف عن منهج الله وعن الفطرة ، وعن الطبيعة في قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ . . . **ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . او تقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم** ﴾ .

اذن فالله قطع الحجة بذلك . . وقول الحق في « يا أيها الكافرون » اختار هذا الوصف المأخوذ من « كفر » بمعنى ستر ، ليدل على ان الأصل في الفطرة الايمانية ، والكفر طارىء عليها ، وما دام الكفر طارئا عليها ، فيكون هؤلاء مبدعين ومغيرين لمنهج الفطرة ، ولمنهج ما تلقى من الرسل السابقين .

اذن : « قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . . » هذه المسألة لا مجال فيها للتفاهم . . لماذا ؟ لأن منهجكم الاعتقادي والتصوري في الألوهية مختلف تماما عن منهج الله الذي أدين به . وأدعو اليه . . الهوة بيننا وبينكم لا تسمح على الاطلاق بأن نلتقي في منتصف الطريق . .

« قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون » في الحال . . ولا أنتم عابدون ما أعبد . . ثم يكرر : ولا أنا عابد ما عبدتم . . لاأمل في استئناف المفاوضات ، لان

استئنافها يعني أن الظروف تغيرت ، والظرف في مسألة العقائد لايتغير أبدا . . لماذا ؟ لأنه منهج عن الله موجود دائما ، وموقفي الآن منكم ، هو موقفي منكم دائماً وأبداً .

وما دامت المسألة انفصلت هذا الانفصال ، وافترقت هذا الافتراق ، اذن فسيكون لي مبدأي ، وأنتم لكم مبدؤكم . .

ان هذه السورة تدل على أن الذين انتدبوا انفسهم لمفاوضة رسول الله ، محكوم عليهم بأنهم غير مستعدين للانتقال من معسكر الكفر الى معسكر الايمان ، لأن القرآن قال : لا أعبد ، ولا أنتم عابدون . . انتهت المسألة . .

الا أن القرآن حين يتكلم يتكلم الكلام الذي لا تنقضه أحداث الحياة ولا واقعها ، وقد يقال : لقد ثبت بعد ذلك أنهم دخلوا في دين الله أفواجا ، اذن سورة النصر :إذا جاء نصر الله والفتح . . تدل على أن الأمر لا يظل كما جاء في : « قل يا أيها الكافرون » . . الأمر سينتهي حتما الى أن منهج الله سينتصر في النهاية . . ونقول ان حكم سورة : « قل يا أيها الكافرون » حكم على المفاوضين فقط . . ولذلك لا يؤدي المعنى الى معسكر الكفر سيظل في مواجهة معسكر الإيمان الى الابد .

اذن فالحق سبحانه قد رتب سورة « الكافرون » ترتيبا منطقيا ، بحيث تطلب هذه السورة السابقة ، السورة اللاحقة « النصر » اذا نظرنا الى قوله تعالى : « اذا جاء نصر الله والفتح » وجدنا أن ذلك شروع في اعلامات النبوة ، أي أن الحق يخبر نبيه في وقت الشدة ، وفي وقت الضيق ، وفي وقت التضييق على الدعوة ، وفي الوقت الذي لايرى المؤمنين فيه أي بارقة أمل في أن ينتصروا على هؤلاء ، فيقول لهم : اذا جاء نصر الله والفتح . . أي أن النصر آت لا محالة . . فاذا جاءك النصر فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا . . وهذه الاعلامات معروف بها أن تعطي الحكم في الزمن المستقبل ، والاعلامات الغيبية في القرآن كثيرة .

● **الأعلامات الغيبية في القرآن :**

هي في القرآن كثيرة . . ان الغيب يكون غيبا من وجوه ثلاثة :

من وجه المكان ، ومن وجه الزمن الماضي ، ثم من وجه الزمن المستقبل ، فاذا وقعت حادثة في مكان آخر بعيد عنك ، تصير غيبا بالنسبة لك ، فما الذي حجبها عنك

فصيرها غيبا ؟ انما هو عامل المكان ، اذن فبعد المكان هو الذي يتحكم في غيب الحال .

وقد يكون الشيء الذي حدث قد سبق زمانه في الماضي ، وقد يكون الشيء قد بقي زمانه ولم يأت بعد ، وذلك في المستقبل ، اذن فالعوامل التي تأتي الغيب ثلاثة : المكان وهذا يحجب الحاجة الحالية ـ أو الزمان الماضي ، وهذا يحجبه الزمان الماضي ، وأما زمن المستقبل ، وهذا يحجبه زمان المستقبل . .

هذا المكان ، والزمان بقسميه ، سواء أكان ماضيا أم مستقبلا ، هذه الحواجز الثلاثة للبشر ، ولكن الحواجز لا تكون بالنسبة لخالقها ، اذن فلا مكان يحجب الحق ، ولا زمان ، ولا مستقبل . . لذلك نجد القرآن حين تعرض للأمور الغيبية ، تعرض لها في الأمر الماضي الذي ثبت أن رسول الله (ص) لم يطلع عليه : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . . » . يعني : ما كنت قارئا لكتاب حتى تعرف منه الأخبار التي حجبها عنك الزمن الماضي ، لأنها وقعت وانتهت . .

ومثلا : عندما يقول القرآن : ﴿ **وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين** ﴾ ، كل « ما كنت » في القرآن ، يدل على أن ذلك الحدث محجوب عنك بالزمن الماضي ، ولكن الذي أعلمك به هو الله ، ولا يمكن أن يرتاب الذين تحدثهم بذلك الأمر في الماضي أنك قد علمته ، لأنهم مؤمنون جميعا ومسلمون بأنك لست قارئا ، ولا مستمعا لاحد . . اذن فلا مصدر للعلم بها الا من الحق سبحانه ، وبذلك خرق الحق ـ سبحانه ـ بالنسبة لرسول الله في اعلامات الغيب حاجز الزمن الماضي ، في قوله تعالى « وما كنت » ، ﴿ **وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ في قصة يوسف . . وذلك من أنباء الغيب نوحيها اليك . . وما كنت لديهم اذ كذا . .

وننتقل الى حاجز زمن المستقبل ، فنجد أن الحق سبحانه أيضاً خرق هذا الحاجز ، يقول سبحانه : ﴿ **ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ . ويتناجون بالأثم والعدوان ومعصية الرسول ، واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ، ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول . .

هذا حدث في الحال ، لكنه محجوز بانفصال الزمان . . والله يخبر رسوله بذلك

بنفس ما قالوه في نجواهم . اذن فهذا خرق لحاجز المكان الذي يحجب الاحداث الحالية . .

بقي النوع الثالث ، الخرق لحاجز المستقبل . . والمستقبل لايمكن لاحد أن يحكم فيه بالأحداث ، لماذا ؟ لأن الأحداث لها عالم . . الحدث يتطلب فاعلا ، وكذلك يتطلب مفعولا ، وسببا للحدث ، والطاقة لتفعل الحدث . .

اذا قلت : سأذهب غدا الى فلان لأكلمه في موضوع كذا . . أنا هذا الفاعل ، وفلان المفعول الذي سيقع عليه الفعل - لأكلم - هذا هو السبب ، واذهب - يعني توجد لدي طاقة تجعلني أذهب . . نقول له : يا أيها الانسان ماذا تملك من عناصر الحدث . . أنت لا تملك نفسك أن تعيش الى غد لتلقي فلانا ، وهب أنك عشت الى غد فمن يضمن أن يعيش فلان الى غد لتلقاه ، وهب أنكما قد تلاقيتما ، فما يدريك أن السبب الذي من أجله ستتقابلان سيظل سبباً قائما ؟ وهب أن هذه العناصر كلها وجدت ، فهل وجدت الطاقة لديك لتتمكن من الذهاب اليه ؟

اذن فالانسان يجازف بنفسه حين يقول : افعل ذلك غدا ، لانه تحكم في أشياء لها عناصر ، هو لايملك عنصرا واحدا منها ، لذلك علمنا الله الأدب مع نفوسنا حتى لا نكون كاذبين : **﴿ ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾** . وما دام « أن يشاءالله » فقد رددت الأشياء الى من يملك وجود هذه العناصر . واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى - ليس أن أفعل - بل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا . . **والحمد لله أولا وآخرا . .**

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النبأ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله بخير ما يحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقه سيدنا محمد . . وبعد :

فمرحباً بكم في هذا اللقاء في رحاب القرآن ، وأسأل الله أن يمدنا بأرزاق أسماعكم ، وأن يهبنا التوفيق في كل ما نأتي ، وفي كل ما ندع . ولقد اقترح علي إخواني أصحاب الفكرة في هذا اللقاء ، أن يكون موضوع لقائنا هو خواطرنا حول الجزء الأخير من القرآن وهو جزء (عم) . . وهي فكرة مقبولة لا بأس بها ، لأن هذا الجزء يتضمن السور القصار التي تدور على الألسنة في الصلاة ، وهي أيضاً المستهل لكثير من حفظة القرآن . . فإذا ما شرحنا خواطرنا نحو هذا الجزء فإننا بلا شك نكون قد استوعبنا كل مقاصد القرآن وكأن الحق سبحانه وتعالى ، حينما رتب كلامه ترتيباً مصحفياً ، أي ذلك الترتيب الذي نقرأ القرآن عليه قد شاء سبحانه أن يجعل آخر ما يقرع الآذان من كلامه منبهاً لكل أصول الدين ولكل قواعده ، ولكل غاياته .

فإذا ما أردنا أن نعرف موقع قول الله ﴿ **عم يتساءلون** ﴾ من السورة التي قبلها ، وجدنا الارتباط المعنوي والسياقي ، يتطلب ذلك الإلحاق . فالسورة التي قبلها هي سورة (**المرسلات**) وإذا قرأنا سورة (**المرسلات**) وجدنا قوله سبحانه ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ (**والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشراً ، فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً ، إنما توعدون لواقع**) . فكأن السورة استهلت بقسم متعدد الألوان ، والمقسم عليه هو ما كان المشركون يكذبونه ، وهو اليوم الآخر . فقال في جواب القسم ﴿ **إنما توعدون لواقع** ﴾ . وبعد ذلك ذكر علامات ذلك

الوقوع فقال : ﴿ **فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ، وإذا الرسل أقتت ، لأي يوم أجلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ فناسب أن تكون السورة التي بعد هذه السورة ، شارحة ليوم الفصل ، لأن الحق حينما يقول ﴿ **وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ يدل بذلك على أن يوم الفصل شيء عظيم ، شيء مهول ، شيء يجب أن تتنبه الأذهان إليه . شيء يجب أن يستعد له . وحين يقول ﴿ **ما أدراك** ﴾ يأتي لشيء يعطي الله رسوله فيه البيان . وما أدراك سابقاً ، أي لم تتلق أي شيء عن هذا اليوم من قبل ولكن لا مانع أن تتلقى منه بعد . ولكن حين يقول ﴿ **وما يدريك** ﴾ في المستقبل فكأنه نفيٌ للإدراك ، نفيٌ لأي إنسان يعطيه معلومات عما يقول . فإذا رأيت ﴿ **وما أدراك** ﴾ فاعلم أنه سيدريه وإذا رأيت ﴿ **وما يدريك** ﴾ فاقطع الأمل بأنه يدريه .

وأيضاً هناك مناسبة ، وهذه المناسبة هي أن سورة « **المرسلات** » تعرضت لأشياء كونية ، في الكون المحيط بالإنسان . فمثلا قال الحق فيها ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتاً** ﴾ بعد أن قال ﴿ **ألم نهلك الأولين** ﴾ . . ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾ . . ﴿ **فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ . كذلك قال في سورة (**عم يتساءلون**) . . ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً** ﴾ فالسياق إذن واحد .

وأيضاً السورتان قبل سورة (عم) : السورة المباشرة لها سورة (المرسلات) ، والسورة التي قبلها سورة (الإنسان) ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر** ﴾ . تجد في السورتين أمراً عجيباً وهو أن سورة ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر** ﴾ قد تعرضت لأحوال النعيم للمتقين ، ولم تتعرض لأحوال العذاب للكافرين إلا تعرضاً يسيراً في قوله : ﴿ **إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً** ﴾ . وبعد ذلك قال ﴿ **إن الأبرار** ﴾ وانساق في التعريف بالنعيم الذي ينتظر المؤمنين . ثم جاء في آخر السورة ﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ ثم تعرض أيضاً للكافرين في آية أخرى ، ولكن السياق كله متعرض لنعمة المؤمنين في الآخرة .

فجاءت سورة (المرسلات) على العكس . . تعرضت لألوان العذاب في الآخرة للكافرين ، ولم تتعرض لألوان النعيم إلا للون واحد وهو قوله ﴿ **إن المتقين في ظلال وعيون** ﴾ فكأن السورة ، سورة (الإنسان) تعلقت بأحوال النعيم إلا اللفتة اليسيرة فيما

يتعلق بأحوال الكافرين ، وسورة (المرسلات) تعرضت لأحوال العذاب الذي ينتظر الكافرين إلا اللفتة اليسيرة المتعلقة بالمؤمنين . فجاءت سورة (عم) لتعطي الجزاء الوفاق ، تعطي لكل واحد من القسمين حظه .

حين نقرأ قول الله ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ، عم يتساءلون** ﴾ تفخيم بالإبهام ، يعني عن أي شيء يتساءلون ؟ هذا التفخيم بالإبهام دلالة على تعظيم المسئول عنه . وحين يعظم الحق المسئول عنه ، دلالة على أن ذلك أمر عظيم حتى يقول الحق عنه أنه عظيم . لأن الإنسان منا قد يقول على الشيء عظيماً ، بمقتضى فهمه للعظمة ، ولكن الله حين يفخم شيئاً ويعظمه ، فتعظيمه على قدر علمه سبحانه وتعالى .

ومن العجيب أن هذا السؤال في قول الله ﴿ **عم يتساءلون** ﴾ يجيب الله عنه سريعاً فيقول ﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ فكأن الحق سبحانه وتعالى فخم بالإشارة النبأ حين استفهم بـ (م) ، ثم فخم بالعبارة بقوله ﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ ونحن نعلم أن النبأ ليس مطلق خبر ، وإنما هو الخبر الخطير الشأن الذي يتعلق بأمر عظيم . ولا شك أن غايات التدين كلها إنما تؤول إلى معرفة سر ذلك اليوم ، لأنه الحصيلة ، ولأنه الحصاد الذي سيأتي في نهاية الدنيا ليحاسب فيه كل إنسان عما قدم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، يبقى لا بد أن يكون أعظم حدث يتعلق بالإنسان .

الحق سبحانه وتعالى حينما يقول ﴿ **عن النبأ العظيم** ﴾ يعطينا لفتة ، هذه اللفتة أنه استنكار للسؤال عن ﴿ **عم يتساءلون** ﴾ كأنك تستنكر أن هذا أمر يستحق أن يكون مسئولا عنه . هذا أمر من الوضوح ، ومن البداهة ، بحيث يجب أن لا يكون موضع سؤال ، لأنه نبأ عظيم ، وأمر واضح جلي ، تقوم عليه الأدلة ، ولكن خطأ المنهج في الكافرين إنما جاء من ناحية أنهم أرادوا أن يناقشوا الجزئيات العقدية ، ومناقشة الجزئيات العقدية لا يصح أن تأتي أبداً من عاقل ، إلا أن يناقش القمة العقدية أولا .

فنحن لم نؤمن باليوم الآخر ، وبعد ذلك كان إيماننا به سبباً في الإيمان بالله ، وإنما آمنا بالله أولا ، وحين آمنا بالله ، وقال الله فيه يوم آخر ، صدقنا ما قال الله . إذن فالمناقشة يجب أن لا تكون في اليوم الآخر وقوفاً واستبعاداً واستغراباً وتعجباً ، كان يجب أن تكون المناقشة في القمة العقدية في الإيمان . تؤمنون بالله أولا تؤمنون ، فإن

آمنتم بالله فالتزموا . وإن لم تؤمنوا بالله فما الذي يضير إذا لم تؤمنوا بما يقوله الله ، إذن فالقمة الإيمانية أولا هي أن نؤمن بالله ، فإنا لم نؤمن بالملائكة ولا بالكتب ، ولا بالرسل ، ولا بالقضاء والقدر خيره وشره ، ولا بيوم القيامة ، إلا أن الله قال ذلك . لأنها أمور غيبية ، والأمور الغيبية التي لا تقع تحت الحس لا يمكن أن أصدقها إلا إذا قال بها من أثق بصدقه . فإذا توقف عقلي في الكيفية ، نقول : لا . معرفة الكيفية لا تعني الوقوع أو لا وقوع الحدث . وقوعه شيء ، وكيفية وقوعه شيء آخر .

وقد شرحنا الفرق بين وقوع الحدث ووقوعه على كيفية خاصة عند قول إبراهيم عليه السلام لربه « **أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** » فإبراهيم حينما قال لله « **أرني كيف تحيي الموتى** » جاء العلماء فقالوا : كيف يوجد ذلك التناقض الظاهري في القرآن ؟ ما هو هذا التناقض ؟ التناقض إن الله يقول لإبراهيم حينما قال له « **أرني كيف تحيي الموتى** » قال له « **أولم تؤمن** » فأجاب إبراهيم بـ « **بلى** » ومعنى « **بلى** » يعني آمنت ، ومعنى آمنت هو اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، بحيث لا تطفو العقيدة مرة أخرى إلى الذهن لتناقض من جديد ، فإن طفت لعقيدة للذهن لتناقض من جديد ، لا يكون ذلك إيماناً ، لا تكون عقيدة ، يبقى فكرة موضوع البحث لا تزال .

فقول الله عن لسان إبراهيم (بلى) يعني آمنت ، وإذا كان قد آمن واطمأن قلبه ، لماذا يقول ذلك ولكن ليطمئن قلبي ، كأن اطمئنان القلب عند إبراهيم كان مفقوداً ، فهو يطلبه لذلك ، وما دام اطمئنان القلب غير موجود فكيف يقول (بلى) حينما قال له آمنت ؟ ما دام اطمئنان قلبه مطلوباً له من السؤال ، فكان الاطمئنان غير موجود . وما دام الاطمئنان غير موجود ، فما كان يصح لإبراهيم أن يقول جواباً لله حين قال « **أو لم تؤمن** » أن يقول له (بلى) لأن الاطمئنان لا يزال غير موجود ؟ . نقول : لا . . هذا التناقض الظاهري جاء من إهمال لفظ في الآية ، وإهمال لفظ أو حرف يغير مجرى الفهم في الآية . إبراهيم لم يسأل ربه ليقول : أتحيي الموتى ؟ وإنما قال له « **كيف تحيي الموتى** » فكان السؤال عن الكيفية ، لا عن وقوع الحدث ، فكأنه مؤمن بأن ربه يحيي الموتى ، قضية مسلمة ، ولكن المسئول عنه أنه يريد الكيفية . فقوله (بلى) أنا آمنت بأنك تحيي الموتى وهذا هو المطلوب التكليفي من العبد المكلف ، أن يؤمن بأن

الله يحيي الموتى ، أما معرفة الكيفية فهذا أمر لا يضير في العقيدة ، عرفتها أو لم تعرفها ، لأن انتفاعك بالأشياء لا يعني ضرورة فهم كيفياتها .

فمثلا الأمي والبدوي والفلاح ينتفع بالكهرباء في بيته ، لكن أيعرف كيف تأتي الكهرباء ؟ . لا يعرف شيئاً من ذلك إذن فهو ينتفع بالحدث ، لكن معرفة كيفيته لا يغير في انتفاعه وعدم انتفاعه ، هو ينتفع به كالفاهم لكيفية توليد الكهرباء تماماً .

كذلك الله قادر على أن يحيي الموتى ، كونك تريد معرفة الكيفية ، هذا كلام إن كنت تريد أن تعمل إلهاً . ولكن الله سبحانه وتعالى يلفت إبراهيم لفتة عقدية ، هذه اللفتة العقدية ، هو أنه يقول ، ليس من عظمتي ولا من قدرتي أن أنقل إلى الغير أثر قدرتي ، ولكن العظمة أن أنقل إلى الغير بعض قدرتي ليفعل . فالقوي من البشر إذا ما وجد رجلا عاجزاً عن حمل شيء ثقيل عليه ، ماذا يصنع معه ؟ يحمله له . إذن فقد عدى إلى الغير أثر قوته ، ولكن العاجز ظل عاجزاً . ولكن الله حين يريد ينقل إلى العاجز قوة تفعل هي . أنت لا تقدر أن تحمل ، أنا لا أحمل عنك ، وإنما أجعلك أنت تقدر على أن تحمل . تلك هي عظمة الحق . في أنه ينقل قوته إلى فاقد القوة ، ولكن البشر لا ينقلون قوتهم إلى فاقد القوة ، وإنما ينقلون أثر قوتهم إلى فاقد القوة ، ويظل فاقد القوة فاقداً للقوة .

فكان جواب الحق سبحانه وتعالى في الكيفية التي يريدها إبراهيم ، كان جوابه ماذا ؟ قال له ﴿ **خذ أربعة من الطير فصرهن إليك** ﴾ (تأملهم جيداً) وبعدين قطعها ﴿ **وأجعل على كل جبل منهن جزءاً** ﴾ وبعد ذلك تتجلى القدرة العظيمة . لا يقول الله : أنا أدعو الطير فتأتيها الحياة ؟ لا . . ادعهن أنت . . تلك هي العظمة في أنه جعل من لا يقدر ، يقدر بإرادة أن يفعل ﴿ **ثم ادعهن يأتينك سعياً** ﴾ لم يقل أنا أدعوها ، لأن أنا أدعوها هذه عملية بسيطة علي ، إنما العظمة في أنني أجعلك أنت تستطيع أن تدعوها فتجيء لك سعياً .

إذن فقد أجابه الله بالكيفية على أبلغ مدى ، وعلى أوسع نطاق . في أن الحق يمتاز عن الخلق بأنه يعدي قوته إلى الغير ليفعل ، ولكن الخلق لا يستطيعون أن يعدوا إلا أثر قوتهم ليفعلوا للغير .

فإذا ما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يستنكر السؤال ﴿ **عم يتساءلون** ﴾ يعني ما

كان يجب عليهم أن يسألوا لأن ذلك أمر من الوضوح بمكان ﴿ **عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون** ﴾ نبأ عظيم هم فيه مختلفون . من الذي يتساءل أولا ؟ ما دام الحق يستنكر السؤال يبقى لا بد أن يكون التساؤل من المنكرين للبعث . متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ متى الساعة ؟ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم لمبعوثون . . أو آباؤكم الأولون . استعجاب .

فكان التساؤل وقع من المشركين ، أو من المكذبين بالبعث فيما بينهم ، أو هم كانوا يتساءلون ذلك للمؤمنين والنبي ﷺ . ومادة التساؤل غير مادة سأل . . سأل تقتضي فاعلا .

سألت فلاناً عن كذا . تقتضي فاعلا وتقتضي مفعولا يقع عليه السؤال . لكن تساءل تجمع الأمرين معاً . تساءل القوم . أي أن كل واحد منهم صار سائلا مرة ، ومسئولا مرة أخرى . فهو إذن فاعل ومفعول معاً ، تقول مثلا : قتل فلان زيداً . فالقتل واقع من فلان ، والمقتول هو زيد . . لكن تقاتل فلان وفلان . فكأن القتل متبادل . هذا فاعل للقتل مرة وهذا مفعول له . وذلك المفعول فاعل للقتل مرة وذلك مفعول له . مثل تشارك زيد وعمرو . في زيد فاعلية ومفعولية . وفي عمرو أيضاً فاعلية ومفعولية . وشارك زيد عمرا . نعرف زيداً فاعلا ، وعمرا مفعولا . . نقول : لا . . هذه هي إعراب الصنعة ، ولكن زيد الذي شارك الفاعل ، هو مفعول أيضاً . وعمرو مع كونه مفعولا في النص إنما هو فاعل أيضاً . فكأن كل واحد من الفاعل والمفعول يتواردان . . هذا يكون مفعول مرة ، وهذا فاعل مرة أخرى . ولكن الصنعة غلبت جانب الفاعل في واحد ، وغلبت جانب المفعول في واحد . ولذلك يأتي النجاة في كثير من الأشياء يقول مثلا :

قد سالم منه القدم . . الأفعوان والشجاع القشعم الحيات .

يحكى عن رجل يسير في مكان فيه أفاعي ، لا الأفاعي أهاجت الرجل فلدغته ، ولا هو أهاج الأفاعي فداس عليها أو وطئها أو عذبها . حصلت مسالمة بين القدم وبين الحيات . قد سالم الحيات منه القدم كلمة سالم فاعل مفاعلة يعني هذه فاعل وهذه مفعول فلما جاء ليأتي بالبدل من الحيات قال : الأفعوان والشجاع القشعم . القصيدة ميمية منصوبة والأفعوان هذه بدل من الحيات والقشعم وصف لها . كيف يبدل

المنصوب من المرفوع هي : قد سالم الحيات منه القدم . فلما جاء بالبدل كان المفروض أن يقول : الأفعوان والشجاع القشعم ، لكن القصيدة منصوبة . يبقى إذن لاحظ ما في الحيات مع كونها فاعل ، ما فيها من المفعولية . إذن فهي وإن كانتَ فاعلا في اللفظ إلا أنها مفعول أيضاً في المعنى . ففيها فاعل وفيها مفعول . فلما جاء بالبدل هو حر أن يأتي بالبدل من المرفوع مرفوعاً أو أن يأتي به منصوباً ، لما فيه من نية المفعولية .

إذن ﴿ **عم يتساءلون** ﴾ كأنهم يتساءلون فيما بينهم سؤ ال إنكار واستهزاء . ﴿ **عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون** ﴾ إذا كانوا يتساءلون ويعطي كل واحد منهم سؤالا على الآخر سؤال إنكار ، فكيف يكون الخلاف بينهم في السؤال ؟ كلهم منكرون . قال : لا . . لأن درجة نفي الفعل تأخذ أشياء : واحد ينكر جزماً ، وواحد يرتاب ، ﴿ **إنا لفي شك** ﴾ وما دام منكراً جزماً يبقى مخالف للشك . لأن المنكر جزماً جزم بأحد المثبتين ، والشاك متأرجح . يبقى هذا لون من الخلاف أو هم مختلفون مع النبي ومع المؤمنين ، فهذا يقول بوقوع اليوم الفصل ، وذلك يقول بعدم الوقوع يبقى يختلفون غير موضوع يتساءلون .

﴿ **عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ، كلا** ﴾ كلا هذه قلنا عنها سابقاً إنها كلمة ردع وزجر . . ومعنى الردع والزجر أن الكلام الذي قبلها يجب أن ينتهي عنه ، لصالح المنتهي أو غير المنتهي ، ليس لصالح من يقول به . لأن الله لا يفيده أن يكذب الناس بهذه المسألة . لماذا ؟ لأن الذين يكذبون بهذه المسألة فإذا قلت لهم لماذا تكذبون في هذه المسألة الفرعية ؟ هذه المسألة فرعية كان يجب أن تنقلوا ميدان النقاش إلى القمة وهو الإله ولكن موضوع النقاش وهو الإلة اضطربوا فيه . ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾ لا يقدرون إنكار ذلك ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله** ﴾ إذن مسألة الوجود الإلهي ، والخلق ، والربوبية ، لا يقدرون على إنكارها فيذهبون إلى الفرعيات .

نقول : الدين لا يبحث هكذا . الدين يبحث أولا من قمته الإيمانية وهو نقاش الإيمان بالله بمنتهى حريتك العقلية بعد ذلك إذا اقتنعت بحريتك العقلية بالإيمان بالله ، بعد ذلك وثق الخبر إلى الله . فإن وثقته إلى الله وجب أن تلتزم به ، أما أن تناقش أمراً

جزئياً وتترك القمة . لا . نريد أن ننتهي من القمة . لكن القمة أمرهم فيه متردد . أما في مسألة الله فنحن سمعنا أجوبتهم إذا أحرجوا وسئلوا . أما في مسألة الرسول وصدقه والقرآن يقول ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك** ﴾ أنت صادق عندهم ﴿ **ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ وفي القرآن قالوا أو لا سحر ، وشعر وكهانة ، كل ذلك قالوه ، وبعد ذلك تورطوا . ماذا كان مدى تورطهم ، أن قالوا ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ فكأن القرآن أصبح قرآنا عندهم لكن الذي أتعبهم أن يجيء على لسان هذا . إذن القرآن ليس فيه كلام . وأيضاً تورطوا تورطاً آخر دل على الحمق في النقاش ، والسفه في الجدل . ﴿ **وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ إذن فقد أقروا بأن ما جاء به رسول الله هو الهدى . في نهاية المطاف من الجدل والنقاش أقروا بأن رسول الله جاءهم بالهدى ، لكن خافوا إن اتبعوا الهدى أن يتخطفوا من أرضهم . فربنا يرد عليهم بأبسط رد إذا كنتم وأنتم كافرون به مكنا لكم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء . فهل إذا أمنتم به يتخلى عنكم .

إذن فكان من المنطقي أن لا يبحثوا في يوم البعث إنكاراً ، إنما كان يجب أن يبحثوا في القمة . وبعد ذلك إذا بحثوا في القمة يوثقون الخبر . أقال الله ذلك أو لم يقل ؟ . فالحق سبحانه يقول ﴿ **كلا سيعلمون** ﴾ هنا المفسرون يقولون : إذا تكررت هذه فهي للتوكيد . نقول : التوكيد عادة يأتي بغير عطف كلا سيعلمون كلا سيعلمون . أنا لا أقول زيد ونفسه . . زيد نفسه . لكن (ثم) هذه تدل على أن فيه حاجتين اثنين . نقول : نعم . لأن طريقة العلم لهم ستختلف ، كيف ؟ ﴿ **كلا سيعلمون** ﴾ يعني أنه الحق . الذين كذبوا بيوم البعث ، ويوم الدين ، سيعلمون أنه الحق ، ثم يعلمون أنه الحق .

كنا تعرضنا مرة وقلنا أن مراتب العلم ثلاثة : المرتبة الأولى أن تعلم علم يقين . المرتبة الثانية أن يبقى عين يقين ، المرتبة الثالثة أن تعلم حق يقين . يبقى فيه ثلاث مراحل : علم يقين ، عين يقين ، حق يقين . ضربنا مثلا وقلنا ـ لنذكر من نسيَ إذا جاء لك إنسان فقال لك : أنا ذهبت إلى مدينة اسمها نيويورك ووجدت فيها عمارات تنطح السحاب وأعطاك صورة ، وأنت مصدق له لأنه لا يكذب ، انتقلت المسألة عندك من ماذا ؟ علم يقيني بأن هذا صادق . فإذا جاء مثلا في رحلة من الرحلات ركب معك

الطائرة إلى مكان ، وفات على نيويورك فقال لك هذه نيويورك التي حدثتك عنها . بعد أن كانت خبراً ، أصبحت عيناً . رآها فإذا قال ننزل فيها أسبوعاً نتجول فيها ودخل في شوارعها . أصبح ذلك حق يقين .

يبقى مراحل ثلاثة : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين . كنا تعرضنا لذلك في سورة ﴿ **ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم** ﴾ يبقى لم تصدقوا بعلم اليقين ، لترون الجحيم وسترونها عين اليقين ، وبعدين حق اليقين جاءت في سورة ثانية ﴿ **فأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم** ﴾ يعني يدخلها ، فلما يدخلها هذا اسمه حق اليقين .

كذلك هنا في قوله ﴿ **كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون** ﴾ قالوا : إن الإنسان حين تأتيه سكرات الموت ، الاحتضار الأخير يقول الحق فيه ﴿ **لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ يعني الذي كنت لا تراه الأول أصبحت تراه ، ويتضح له مثال عالم الملكوت . الأشياء التي كان يكذب بها . ولذلك تجد كثيراً من المحتضرين نقول نحن عنهم أنهم يخرفون ، إنما هم يتكلمون بما يشهدون . يشهدون أشياء كانوا لا يرونها في الدنيا . فإذا جاءت لهم هذه الحالة يبقى علم أن ما حدث به من أمر الدين ، وأن فيه يوم آخر . . المسألة صح . يبقى هذا أول علم ، وبعد ذلك حين يبعثون على حقيقتهم ، يعلمون علماً آخر . يبقى ﴿ **كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون** ﴾ أو لأن المكذب يعارض مصدقاً واحداً يكذب قضية يبقى يعارض واحداً مصدقاً لها . والفريقان : هذا مؤمن مصدق ، وذلك كافر مكذب ، كلا سيعلمون موقعهم من يوم الفصل . ويعلمون موقع الفريق المقابل في يوم الفصل ، وحين توجد المقارنة بين الضدين تكون الحسرة . يعني الذي يعذب في يوم الفصل ، كان يكفيه من آلامه أن يعذب ، إما يعذب ويرى الفريق المقابل ينعم فذلك تعذيب آخر . والذي كان مصدقاً ثم يرى نفسه في نعيم ويرى المكذب في جحيم ، يكون تنعيم آخر . إذن فالتنعيم والتعذيب يأخذ لونين . اللون الأول أن يصيبه الألم ويرى الفريق المقابل له في نعيم . الثاني يرى العذاب ويرى غيره في النعيم ، يبقى كلا سيعلمون موقعهم من يوم الفصل ، وكلا سيعلمون موقع الفريق المقابل من يوم الفصل ، وحينئذ تتأكد الحسرة

بالنسبة لهم .

﴿ **كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون** ﴾ ثم ترك الحق سبحانه وتعالى الأمر المقسم عليه ، والأمر الذي جاءت له السورة ، الذي هو النبأ العظيم ، الذي هم فيه مختلفون . وبعد ذلك قال ﴿ **كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون** ﴾ ثم انتقل إلى شيء آخر . هذا الشيء الآخر في ظاهره أنه بعد عن القصد . لا . . هو لم يبعد عن القصد ، وإنما اقترب عن القصد بإيجاد دليل القصد ـ فكأن الحق يريد أن يعرض صوراً كونية يتصل الإنسان بها في حياته ليأخذ من الصور الكونية المحسة له دليلا على صدق الله فيما يخبر به . إذن فهو لم ينتقل إنما ذهب إلى الدليل ليؤكد المدلول الذي وقع التساؤل فيه .

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد عرض قضية مختلف فيها لأنها غيبية ماذا يفعل ؟ .

يأتي بقضية متفق عليها ، ليجعل المنطلق من المتفق عليه إلى المختلف فيه . هذه القضية شائعة في القرآن ولعلنا عرضنا نماذج كثيرة منها . فمثلا قضية الحياة وكيف نشأنا وكيف خلقنا ؟ هذا أمر لم نشهده . لم يشهد الإنسان كيف خلق ؟ ﴿ **ما أشهدتم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾ كيف نعرف كيف خلقنا ؟ ممن خلق . هو الذي يقول لنا كيف خلقنا . إذن هذه مسألة وضع فيها الحاجز أمام النشاط الذهني العلمي في أن يعرف كيف بدأ الخلق ؟ مسألة مفروغ منها في أنه لا يمكن أن نعرف علمياً . علم تجريبي ليس ممكناً . ما لم يكن من خبر الخالق فلا علم لك بها . لا تقدر كيف خلقت السماء والأرض ؟ ودعك من الضرب من الحدس ومن التخمين الذي يقع فيه القوم الذين يكلفون عقولهم فوق طاقاتها ، وفوق مجالها . العقل معمول لكي يبحث علماً تجريبياً في مادة أمامه . أما علم لا يجري عليه تجربة لا يمكن يجيء فيه حقيقة علمية أبداً . . فإذا أرادوا أن يعرفوا كيف خلقوا وكيف خلقت السماء والأرض يرهفون آذانهم لمن خلق ليقول لهم : كيف خلقتكم ؟ فلما ربنا جاء يتكلم عن قصة الخلق حكى لنا وقال : الإنسان الأول خلقته من سلالة من طين . وبعدين مرة قال من تراب ، ومرة من طين ، ثم وصف الطين مرة وقال أنه حمأ مسنون ، ثم قال مرة أخرى من صلصال كالفخار . فيجيء المستشرقون يتيهون عجباً ويقولون : القرآن فيه تعارض ، مرة يقول خلقت الإنسان من تراب ، ومرة يقول خلقته من طين ، ومرة يقول خلقته من

حمأ مسنون ، ومرة يقول خلقته من صلصال كالفخار . نقول : وهل التنقل بين المراحل تضارب ؟ التراب إذا جاء عليه الماء صار طيناً . والطين إذا ظل مدة حتى ينتن ويعطب يبقى حمأ مسنون متغير الرائحة ، وإذا ترك ليجمد يبقى صلصال كالفخار . فهذه مرحليات وليست تناقضاً . هذا الكلام لو كان الطين ليس من التراب . لو كان الحمأ مسنون ليس أصله الطين ، إذن هذه مرحليات في فكرة الخلق فقط .

تقول : هذا أمر غيبي عنا ربنا قص لنا ، ونحن صدقنا لأننا نوثق الله ونصدقه . إنه خلقنا من تراب ، من طين ، من حمأ مسنون ، من صلصال كالفخار .

لكن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن نعرف صدقه في هذه القضية . ماذا يفعل ؟ يأتي بأمر محس ليجعله الدليل على الأمر الغيبي . نحن لا يمكننا أن نعرف كيف جاءتنا الحياة . ولكننا بالتأكيد نعرف كيف نموت ؟ إذن فجعل الموت الذي هو ظاهرة حسية نراها وسيلة للتصديق بالظاهرة الغيبية التي لم نرها . إذا مات الإنسان ماذا يحصل ؟ إذا مات الإنسان آخر حاجة تخرج روحه . وهي آخر شيء أودع فيه . قصة الحياة . . صلصال كالفخار وبعدين نفخ فيه فصار حياً . إذن آخر شيء جاء له في إيجاد الحياة هو نفخ الروح ، يبقى أول شيء يطير منه الروح .

إذا جئت إلى طريق وسرت فيه إلى نهايته ، ثم أردت العودة في الطريق ، آخر محطة وصلت لها هي أول محطة ترجع لها . تبقى قصة الحياة هكذا وقصة الموت تجيء بالرجعة يبقى إذن آخر ما أودع في الإنسان وهو الروح ، هو أول ما يخرج منه . وبعدين يتفتت . هذا مشهد نراه ، الميت بعدما يموت ويبقى مدة يتصلب . هذه الصلصالية ، المرحلة الثالثة . وبعدما يتصلب ، فخارية ، يقوم يوم وينتن ويتحلل ، ذلك هو الحمأ المسنون . وبعد ذلك ماذا يحصل ؟ شوية المائية التي في الإنسان يتبخر ، وشوية العناصر الثانية تروح تراب هذا مشهد نراه كلنا . فإذا قال الحق : أنا خلقتك من تراب وخلقتك من حمأ مسنون ، وخلقتك من صلصال ، ونفخت فيك الروح ، لكي نصدق هذا ، نرى كيف تذهب منا الحياة . نجدها عود على بدء . يبقى نتبين بما أحسسنا في الموت صدق الله فيما أخبر به من الحياة .

ولذلك تستعجب حينما تأتي في سروة (تبارك) ويقول : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة** ﴾ كان المفروض أن يقول

خلق الحياة والموت . . لا . . هو قال خلق الموت ، لأن الموت هذا ممكن ملحظياً وتجريبياً تقدر تراه . وبعد ذلك تستدل من وقائع الموت وترتيبها إذا عكستها وقائع الحياة . يبقى لازم تجيء مسألة الموت ، لأن الموت سيبقى المنفذ والدليل الى معرفة كيف أن الله صدق حينما قال في حياتك كذا وكذا .

كذلك هنا ترك المدلول عليه وهو الكلام في يوم الفصل وبعد ذلك قال ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ أمر مشاهد محس ﴿ **والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعا شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافاً** ﴾ أخذ الأمر المحس في الكون الذي يتصل بالإنسان ، الكون الذي يتصل بالإنسان أولا الأرض التي يعيش عليها . الأرض هذه ربنا جعلها مهاداً يعني ممهدة ، مثل المهد بالنسبة للطفل المهاد هو الفراش الوطيء ، والفراش الموطأ ، الفراش المساوي ، لكي ترتاحوا عليها وبعد ذلك ينتقل من مهاد إلى جبال أوتاد فكان ارتفاع الجبال هذا متمماً للمهاد كلمة أوتاد نفسها تشعر بالتثبيت .

ولذلك العلماء عندما تكلموا عن ذلك قالوا : أن قول الله في الجبال أوتاد ﴿ **وجعل فيها رواسي** ﴾ أن معنى ذلك أن الجبال لها صلة بتثبيت الأرض . جئنا بعدين وعرفنا أن الأرض لها حركة . . إلخ النشاط الذهني العلمي . فقلنا لو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبوت والاستقرار ، كانت تميد أو تضطرب لماذا ؟ يبقى ما دام لئلا تميد كأنها عرضة للحركة . ﴿ **وجعل فيها رواسي أن تميد** ﴾ يبقى معنى هذا أنها عرضة للحركة ، وما دام عرضة للحركة يبقى تضطرب ، وما دام تضطرب عملنا الجبال الرواسي . كلمة جبال أوتاد هذه ، العلماء وقفوا عندها فقط ليقولوا أنها مثبتات . لكن التشبيه هنا لا يعطي فقط أنها مثبتات . لماذا ؟ لأن حين يأتي الحق سبحانه وتعالى بأمثلة من البيئة التي يعيش فيها الذين استقبلوا القرآن أولا ، نجد أن الوتد أمر معروف لكل إنسان ، لأن بيوتهم من الخيام الشعر يعني . والأوتاد هذه من أدوات تثبيت هذه البيوت ، فما دام الوتد يثبت البيت فربنا أعطاها مثلا من بيئتهم ، مثل يفعلونه ويصنعونه ويشاهدونه . لو لم تثبت الخيمة بهذه الأوتاد تختلف عن التي توضع في النواصي تبقى جامدة وحبال قوية ، والتي توضع في الجانب تبقى غير جامدة .

يبقى كلمة أوتاد ترى جبالا شماً عالية وجبال أقل . يبقى أذن فكل واحد وضع . لكن ربنا يقول ﴿ **والجبال أوتاداً** ﴾ لم يقل الجبال كالأوتاد حتى يكون تشبيهاً للجبال بالأوتاد إنما جاء بها على طريقة التشبية البليغ كما يقولون . التشبيه البليغ ما هو ؟ تشبيه غير بليغ إنك تجيء بشيء تلحقه بشيء ويبقى مفهوم أن هذا مشبه وهذا مشبه به . مثلما تقول مثل : هند كالقمر . يبقى هند مشبه والقمر مشبه به . والكاف حرف التشبيه . إنما لما تيجي تبالغ لا تقول كالقمر . لأن القمر هذه تفيد أن الأصل في الحسن القمر . وهي ألحقت به في الحسن . تقول : هند قمر . ليس كالقمر . هند قمر . واحد يحب يبالغ أكثر يقول : القمر كهند . انقلب التشبيه بعد ما كان هذا مشبه أصبح مشبه به . قلبه لكي يدلك على أنها هي الأصل في الحسن الذي يجب أن يلحق بها الأشياء .

فالحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ **الجبال أوتاداً** ﴾ لم يقل كالأوتاد . جاء بها على طريقة التشبيه البليغ . الجبال أوتاد . فالحق لما قال ﴿ **الجبال أوتاداً** ﴾ الجبال هذه فخامة وضخامة وعظيمة والوتد شيء هين قد يكون حقيراً في نظر الناس فكيف جاء الحق بالمشبه الضخم هذا يشبهه بالشيء التافه البسيط ، مع أن المفهوم في التشبيه أن الشيء الأقل هو الذي يشبه بالكبير ، لكن هو شبه الجبال بالأوتاد ، مشبه الشي الضخم هذا بأوتاد . في ذلك لفتة . هذه اللفتة لكي يلفت الإنسان ، يقول له تعالى يا عربي يا من تنصب الخيمة والعمد وتجيء لها بالأوتاد قل ماذا تعمل هذه الأوتاد ؟ هل الأوتاد وضعت لتثبت الأرض ؟ أم لتثبت على الأرض أوتاد الخيمة وضعت لتثبت الأرض المدقوقة فيها أم لتثبت شيئاً على أرض ؟

أول مفارقة في التشبيه . أنت تقول : الجبال جعلت في الأرض أوتاداً لكي تثبت الأرض . نقول : الأوتاد في الخيمة ليس كذلك الأوتاد وليست لتثبت الأرض أنها لكن تثبت الخيمة التي على الأرض والأوتاد لا تثبتها لوحدها لا تنفع خيمة بأوتاد دون عمد فما دام كلمة أوتاد لازم تعرف ماذا يعين الأوتاد على التثبيت . وما هو الشيء . الذي جاءت هذه الجبال لتثبيته على الأرض ؟ لكي يكون التشبيه صحيحاً . فلو قلت أن الجبال لكي تثبت الأرض فقط تقول : قد يكون من معناها أنها تثبت الأرض . وأيضاً من معانيها أنها كالأوتاد بالنسبة للخيمة وما دام كالأوتاد بالنسبة للخيمة يبقى لا تجيء بسيرة تثبت الأرض هنا . يبقى تثبت شيئاً على الأرض

فالجبال تنبت ماذا على وجه الأرض ؟ هذا هو الذي يحتاج بحث العلماء . نقول : الخيمة لا تجيء بالأوتاد وحدها . إنما الخيمية تجيء بعد العمد ، فلا بد أن تبحث في الكون عن نظير لعمد الخيمة ، وبعدين تبقى الأوتاد هذه عوامل مساعدة لتثبيت هذه الخيمة . ولكي يجيء التشبيه مضبوطاً ، والجبال أوتاد ، لا تكتفي بأنها مثبتات للأرض ، لأن الوتد لا يثبت الأرض إنه لتثبيت شيء على الأرض ، فابحث أولاً عن الشيء الذي جاءت الأوتاد التي هي الجبال لكي تثبته فوق الأرض . هذه واحدة . . ثم الأوتاد لا تثبت الخيمة لوحدها بل لا بد لها من عوامل تساعدها ، هي العمد ، ابحث أيضاً عن العمد التي جاءت الأوتاد لتساعدها في المحافظة على شيء على الأرض .

نجد العلم لما تقدم قليلاً يقربنا من هذه المعاني لما بحثنا في المسألة ، قرأنا . ما قاله الذين يبحثون في الجبال ، والذين يبحثون في كثافة الأرض ماذا قالوا ؟ فوجدنا عالماً راح لكي يرى كتلة جبل من الجبال لكي يعين به كتلة الأرض وبعدين وجدنا بحثاً أن الأرض لا تصلح للحياة إلا بوجود الهواء فيها ، لأن الهواء هو العنصر الأول في مقومات الحياة . وسبق لنا الهواء والماء والطعام والهواء هو العنصر الضروري .

وبعدين فهمنا أن فيه غلافاً هوائياً يلف الأرض ، والغلاف الهوائي هذا من ضمن الأرض ، ولذلك لما ربنا يتكلم عن السير يقول : ﴿ **قل سيروا فيها** ﴾ لم يقل سيروا على الأرض لأن من متممات الأرض القبة الهوائية التي حولها . أنا لا أسير عليها . لأن لو عليها آخذها ومستلزماتها ، القبة الهوائية هذه كلها من الأرض لأنها ضرورية « **قدر فيها أقواتها** » يعني الإنسان ويعطي له حياة .

فالقبة الهوائية التي فوقنا التي نقرأ لما قالوا في الصواريخ وبعدين تنفذ من منطقة الهواء إلى مكان ليس فيه هواء . القبة الهوائية هذه تكلموا عنها وقالوا : إنها تمنع عنا أشياء كثيرة جداً ، الأشعة البنفسجية وتعكسها علينا ، وإلا كنا نهلك . وتعطينا مثلاً مقومات النفس وو . . إلخ . هذه القبة الهوائية التي فوق الأرض وتلفها ، ماذا جعل هذه القبة لا تنفلت من الأرض وتطلع في الفضاء الكوني . لا بد أن يوجد شيء يشدها إلى تحت ، فبحثوا في الشيء فوجدوه قانوناً يسموه قانون الجاذبية كأن قانون الجاذبية يجذب هذه القبة لكي لا تنفلت جاذبيتها أكثر في الفضاء الكوني وتتركنا بلا هواء .

فجاء عالم من العلماء وقال : هل لثقل كتلة الأرض دخل في قوة جاذبيتها ؟ يعني

لما تكون الكتلة كبيرة يبقى وجود هذه الجبال لكي تكون قوة الجذب أشد . وجود الجبال على الشكل المخصوص تعمل أودية وتعمل مثل حوض يجيء الهواء من هنا ويضرب هكذا ويجيء من هنا فهذا يعين على الاحتفاظ للأرض بجوها . وكان العمد التي تساعدها أوتاد هي العمد غير المرئية التي هي قانون الجذب الموجود في الأرض ويبقى على ذلك قول الله ﴿ **وجعلنا الجبال أوتاداً** ﴾ متمشياً مع واقع الخيمة وموقع الوتد ، ومهمته في الخيمة والذي يساعده الوتد في عمليات الجذب ليحتفظ بهذا الشيء الذي فوقه .

طبعاً هذه وسائل القرآن ما كان يمسها بالتفصيل عند قوم ليس عندهم ثقافة . إنما القرآن فيه الزاد للنشاط الذهني بحيث إذا ارتقى الإنسان في بحث من البحوث لا يجد في القرآن صراحة عن نشاط الذهني ، لأن القرآن له عطاء إلى أن تقوم الساعة لكان رسول الله ﷺ فسره . وحين يفسره سيفسره بما يلائم العقول المعاصرة . وإذا فسره بما يلائم العقول المعاصرة يبقى جمده . وإذا جمده يبقى صلاحيته لكل زمان ومكان تمتنع فالرسول ﷺ يشرح الأحكام المطلوبة من المؤمن في عصره وقبل أن تقوم الساعة ، وبعد ذلك ما يتعلق بالكونيات التي تخضع لنشاط الذهن في الكون ، وفي استنباط أسراره ، يتركها ليأخذ الذهن منها على قدر ما يستطيع . ولذلك قلنا :

بين فيه كل شيء . . ومنه أخذ قدر ذهنه كل تال ، حين يقول الحق ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ يلفتنا لفتة في الاستفهام الخلاصة لما أقول لك ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ يبقى الخلاصة من هذا التعبير ماذا يعني جعلنا الأرض مهاداً . ولماذا لم يقل نحن جعلنا الأرض مهاداً ولم يدخلني في لم ، ولم يدخلني في همزة الاستفهام ؟

ويقول جعلنا الأرض مهاداً . جعلنا الأرض مهاداً يبقى خبر من الله ﴿ **وألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ كأن الله استأمننا على أن يسأل هو ذلك السؤال لنجيب نحن . يبقى لم يقل خبراً من عنده . جاء به على أسلوب الإنشاء ، لكي يقول أنا أريد أن أسألك أنا ألم أجعل الأرض مهاداً . فلماذا لا تؤمن بما أقوله ؟ هذا إعلام . لو أنا لم أجعل الأرض مهاداً ، لكنه أنا عملت الأرض مهاداً لم يقل : جعلنا الأرض . فاستفهم ، الاستفهام كان يقدر يقول أجعلنا الأرض مهاداً ؟ لكنه قال : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ لأنك أنت عندما تسأل الولد الصغير تقول له : يا ولد أنا أعطيتك كذا وكذا لعل ذلك تلقين له

بالجواب تقول له : أنا لم أعطك كذا : يقول : لا يا شيخ أعطيتني ، فيأتي الاستفهام بالنفي لكي يبقى أبعد ما يكون عن التهمة . يقول لك واحد : أنت والله لم توف لي . تقول له : صحيح أنا لم أصنع معك كذا . ولم أصنع . . ولم أصنع كذا ،وكذا .تجيء بالذي صنعته وتقرره بالنفي ، تقول له : والله لك حق أصل أنا لم أعمل معك كذا وكذا . لأنك واثق أنه حين تجيء بأسلوب النفي سيردك هو إلى أسلوب الإثبات . فالجواب كأنه أمر متيقن .

يبقى لما يقول الحق ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ يعني كان من المعقول أن تنكروا قضية البعث إذا لم نكن صنعنا لكم مقدمات في حياتكم ، مقدمات عجيبة تستلزم قدرتنا الفائقة تستلزم حكمتنا العالية ، تستلزم رحمتنا الواسعة . فإذا كان الذي يحدثكم ربٌّ قادر ، حكيم رحيم وعمل هذه الأشياء كان من الواجب أنكم تستقبلون ما يقوله بالتصديق . لكن لو لم يكن قد عمل هذا ، كان من المعقول أنكم تكذبون .

فقال ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً** ﴾ عملية أيضاً إعجازية . ولذلك كونه خلقنا أزواجاً ، لما الجماعة قالوا : إن الإنسان خلق بالصدفة جاء الفيلسوف دينيه واعتقد أنه جاء بالرد على أهل الصدفة ، الرد الذي لا ينقض ، فماذا قال دينيه الفرنسي . قال : العجيب أن الذين يقولون بالصدفة ، لم يتنبهوا إلى شيء . إن الصدفة من أعدائها الرتابة . يعني إذا كنت أنا ألقى فلاناً كل يوم عندما أمر في المكان الفلاني الساعة التاسعة . كل يوم أقابله الساعة التاسعة ، كل يوم لا تتخلف . تقول : هذه ليست صدفة إنه تحكم منك في مواعيدك ، وتحكم منه في مواعيده . إنما لو مرة لا يهم . الصدفة من أعدائها الرتابة . هذه واحدة . والصدفة يحكمها قانون الاحتمال . وقانون الاحتمال هذا نسبوه إلى واحد إلى ٢٠٠ مليون . يعني شبهوا وقالوا : إذا جئنا بحروف مطبعة ، وحروف المطبعة كل حرف في خانته . وبعد ذلك تصورنا أن حروف المطبعة هذه في أماكنها هاجت مع بعضها ثم لطمت فأخرجت لنا ديوان شكسبير . قال تطلع من كم . إنها تحتاج إلى العقل الألكتروني لكي يحسبها . لكي يقول أن حروف المطبعة في أماكنها هاجت مع بعضها ثم التفتنا فوجدناها تراصت ولما طبعناها كانت ديوان شكسبير . وقالوا هم ديوان شكسبير بالذات : قالوا كم تجيء نسبية هذه .

فلما جاء دينيه لكي يرد على قانون الصدفة ، ويرد على قانون الزوجية . قال : من المحال أن تكون الصدفة هي الموجدة . لماذا ؟ لأن إذا كانت الصدفة فقد خلقت الرجل فمعقول جداً أن الصدفة نفسها خلقت حاجة ثانية اسمها أنثى من جنسه ومختلفة معه في النوع ، بحيث إذا التقيا غريزياً خاصاً وجدت حاجة منهم مرة تبقى ذكراً ومرة تبقى أنثى . ليس من الممكن أن تكون الصدفة عملت هذه المسألة . يبقى إذن خلق أزواجاً دليلاً على أن القصد والغاية والترتيب أن يُوجد ذلك النوع .

إذن من قوله : ﴿ **خلقناكم أزواجاً** ﴾ ولذلك نقول له يا دينيه كتر خيرك أنت فقط نبهتناإلى قرآننا ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً** ﴾ يبقى هذا دليل على القصد ، والعناية ، وهذه حاجة لم تجيء صدفة . وإلا فما هي الصدفة التي خلقت رجلاً ، وبعدين خلقت له امرأة من جنسه بحيث إذا اجتمعا على شكل خاص يجيء منهما ذلك النسل ؟ ليس من الممكن أن تكون الصدفة . يبقى خلقكم أزواجاً لتتكاثروا .

هنا الخلق لا بد له من مقومات . ما هي مقومات الخلق ؟ أي ما تستبقي به حياته . قبل أن يخلق الله الخلق أزواجاً لازم يعد لهم مقدمات الخلق ، هذه تدخل في ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ يعني ممهدة للحياة ، وما دام ممهدة للحياة ، يبقى لازم فيها كل مقومات الحياة . وبعدين يشرحها شرحاً ثانياً يقول : مقومات الحياة هذه : الحياة لونان : لون يقظة ، وهذه للحركة والعمل ، ولون فيه نوم . كأن أول مقوم للحياة لا تعتقد أنه الطعام والشراب فقط . مسألة النوم هذه ، النوم الذي عجز الفلاسفة والعلماء الكيماويون في بحث ما سببه ؟ ما نظامه ؟ كيف يأتي الإنسان ؟ وعملوا تجارب متعددة لكي يروا هذه الظاهرة ولا أحد يعرف هذه الظاهرة . آخر ما انتهى إليه إن هذا ردع ذاتي في الآلة الإنسانية . ما معنى ردع ذاتي في الآلة الإنسانية إن الآلة تعمل ، قد تتعب تعباً يجعل الإنسان عقله يقول له تحمل قليلاً ، أيضاً هذه ، ويجهد نفسه . فيه وقت الآلة انتهت طاقتها في العمل ، فهي لا تنتظر منك إنك تعمل ، هي نفسها تقول لك . قف . لا عمل انتهى . لم تعد صالحاً للعمل . يبقى هذا ردع ذاتي ، وتلتفت تجدك غلبك النوم ونمت . يا لك غلبك النوم ونمت هذه ما معناها ؟ معناها إنك لم تعد تصلح لمواجهة الحياة بطاقة ، فانتظر إلى أن تعود إلى نشاطك ثانياً . ولذلك الإنسان

يبقى متعباً وو . . . إلخ والنعاس يغلبه ، فينام ساعتين أو ثلاثة ثم يقوم في منتهى النشاط ما الذي حدث ؟ ولذلك أنظر القرآن عندما يعرضها في عملية حية ويقول : ﴿ **إذ يغشيكم النعاس أمنة منه** ﴾ . . ﴿ **ثم أنزلنا عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً** ﴾ . كأن النوم هذا عملية حياتية ضرورية . ولذلك قال بعد ما خلقناكم أزواجاً قال : ﴿ **وجعلنا نومكم سباتاً** ﴾ .

إذن فمسألة النوم نعمة من نعم الله الكبرى على الإنسان . أنت قد تحمل جسمك بعقلك على أن يجهد ربنا سبحانه وتعالى لا يتركك لهذه العملية ، يقول لك : لا انتهت المقاومة . اعتزل عملية الحياة لما تعتزل عملية الحياة تقوم نشيطاً . جاء العلماء وقالوا : تفاعل كيماوي ، توارد الدم إلى الرجلين . وو . . إلخ . عملوا التجربة البندولية . واحد علق حبلاً في السقف وعمل سريراً وأنام عليه واحداً . عمل تجربة . وعمله في محور ارتكاز مساوٍ ، يعني المقاومة والقوة متساويان وعقله وتركه إلى أن نام فلما كان مستيقظاً كان متوازياً لما بدأ يجيء النوم ابتدأت ناحية رجليه تميل . معنى ناحية رجليه تميل . أن الكثافة ثقلت هنا وأصبحت أثقل قليلاً فقالوا أن الدم توارد إلى القدمين وترك المخ ، فلم يعد عند المخ طاقة . واحد آخر قال : تصاعد الأبخرة إلى أن انتهى أخيراً إلى أن قالوا أنها عملية ردع ذاتي .

معنى ردع ذاتي يعني الآلة تقول انتهينا لم نعد نعمل . وبعد ذلك يأتي النعاس .

يبقى إذن النوم من آيات الله . ولذلك كان من ضمن آيات الإمتنان من الله على خلقه ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل** ﴾ وبعدين يقول : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل** ﴾ ثم يقول : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تبصرون** ﴾ .

إذن جعلنا « **النوم سباتاً** » هذه عملية من النعم الكبيرة . وما دام النوم هذا يفقد الإنسان صلته بحركة الحياة فسماه السبات . لأن السبت هو القطع . قطعك عن حركة الحياة بالنوم ، قطعك رحمة بك وبآلتك . ولذلك سموه موتاً « **الله يتوفى الأنفس حين موتها** » لأنه قطع عن الحركة لا إلى عود . ولأنه يفقدني الحركة والوعي وو . . إلخ عدم الوعي في النوم هذا عملية أخرى من النعم الكبيرة .

الإنسان مثلاً طلع له دمل ويده يتألم منها ، بمجرد ما يجيئه النوم انتهى الألم بمجرد ما يستيقظ يتألم . حتى وعي ألم المرض ينتهي إذن الذي يتألم ليس العضو ، التي تتألم النفس ووعيها . وإلا فالعضو فيه الدمل ، كان يجب أن يتألم سواء كنت نائماً أو غير نائم ، لكن بمجرد ما أنام ينتهي الألم ، استيقظ يعود الألم . يبقى هذا دليل على أن النوم أيضاً يرحمني من آلام كثيرة جداً . وما دام يقطعني عن الحركة ويصبح ليس لي وعي ، ما دام ليس لي وعي يمكن أتحرك حركات شكلها خاص ، فيقول ﴿ **وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً** ﴾ عملت لكم النوم بالليل لكي تكونوا مستورين لأنكم فاقدين الوعي ويمكن تتحركوا حركة كده وحركة كده يبقى لباساً وجعلنا النهار معاشاً الحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه الأشياء عرضها عرضاً لا يخالف فيه ، ومعنى لا يخالف فيه ، إنه لا يأتي أحد لينقض أي قضية من هذه القضايا ، لكي يكون الدليل مسلماً ، ولم يأت أحد ليدعي إنه صاحب هذه الإمدادات وهذه النعم . وفي ذلك ما يبطل دعوى الألوهية لأي إله غير الله . لأن ما هو ذلك الإله الذي خلق ذلك الخلق وجعل الأرض مهاداً وجعل الجبال أوتاداً وجعل النوم سباتاً وجعل الليل لباساً وجعل النهار معاشاً وعمل ذلك ثم ترك الله يدعي ذلك لنفسه ، وهو أي الذي خلق الأصل ساكت لا يتكلم ، أبكم . واحد جاء أخذ منه ما خلق وقال أنا الذي خلقت ، وهو في الواقع الذي خلق . لم تقم دعوى من أحد . . ويقول ربنا لم يعمل هذا وإذا ادعيت دعوى ولم يكن لها مناقض للدعوى تسلم الدعوى لصاحبها أم لا ؟ نحن موجودون هنا ووجدنا حافظة نقود ، ولم يدعها أحد منا ثم جاء واحد كان بين الجالسين وقال لي محفظة نقود هنا ، فادعاها ، ولم يوجد له معارض ممن كانوا حاضرين ، تبقى هي لمن ؟ فربنا يقول : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً** ﴾ والله إن كان صح الكلام يبقى أهلاً وسهلاً وإله على العين والرأس . والعياذ بالله غير صح ، هذه معمولة مهاداً أو غير معمولة ، وجبال أوتاد أم لا ، وأنتم أزواج ، والقضايا مصدقة . فما دامت القضايا مصدقة ولم يدع أحد غير إنه فعلها ، أروني إلهاً يفعل ثم يترك مدعياً يدعي الخلق لنفسه وهو ساكت ، أبكم ، سرق منه كونه وهو ساكت لم يتكلم ؟ وأروني خالقاً لهذه الأشياء ثم لا يأمرني أن أتعبده بمنهج خاص .

قلنا زمان الذي يعبد الشمس ، ما هي طقوس العبادة التي تريدها الشمس ، كل إله معبود أيعبد باقتراحك أنت يا عابد أم يعبد باقتراحه هو؟ ما الذي قالته الشمس لنعبدها به ؟. لم تقل شيئاً . ما الذي قالته الشمس أن من لم يعبدني سأفعل فيه كذا ، ومن عبدني سأفعل فيه كذا ؟ يبقى إله بلا دعوى منه . وإله بغير منهج ، وإله بغير ثواب وعقاب للذي عبده والذي لم يعبده .يبقى هذه كلها باطلة أم لا ؟

فإذا كان الحق يعرض أشياء ، فإنه يعرض أشياء مسلمة إنه لم يدعها أحد ، وهو قالها فإلى أن يوجد مدعٍ جديد يقول : لا . أنا الذي خلقت ، وبدليل كذا وكذا ، ويجيء بمعجزة أقوى من المعجزات التي أيد بها الله رسله . نقول له : اختلفوا مع بعض وأفصلوا لنا في هذه المسألة لكي نرى من الذي نعبده منكما ؟ لم يجيء ذلك الإله . يبقى إذن حينما يأتي الحق بقضايا مسلمة معناها يقول : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ لو كنا لم نجعل لكم مثل هذه النعم والأشياء كان من المعقول أن لا تصدقونا . لكننا عملنا وهذا يدل على قدرتنا . وما دام بدأنا ذلك بإبداع لم يسبق له مثيل ، يبقى لما نكلمكم في البعث لماذا تكذبوا ؟ هل الإعادة أهون أم البدء ؟ الإعادة أهون ، لأن الإعادة ستكون إعادة من شيء كان موجوداً . فإذا كان الذي بدأ من لا شيء ، أتحيل عليه أن يعيد من شيء ؟ ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ . إذن فتلك المقدمات التي قدمها الله بين يدي النبأ العظيم الذي يتساءلون عنه ، ولا تجد قضية من هذه القضايا مختلفاً في وقوعها ، ولا قضية واحدة من القضايا نسبت لغير الله . فالله جاء بأشياء محسة ثابتة ولم يدعها غيره ولم يقل أحد من السامعين أنها ليست له .

إذن فكان من الواجب ، إله فعل ذلك أنه يبقى قادراً ويبقى حكيماً ، ويبقى عالماً ، وبعد ذلك نفهم أنه لم يخلق عبثاً ، يستوي طائعه وعاصيه ، يستوي ضاله ومهديه ، يستوي عادله وجائره ، إذا استوى يبقى عبث ، وكما قلنا سابقاً ، بل يكون الذي أخذ حظه من شهوات نفسه في أعراض خلق الله ، وفي أموال خلق الله ، وفي دماء خلق الله ، يبقى أحظ من غيره . لماذا ؟ لأنه أعطى لنفسه حظها الكبير والخسران من ؟ صاحب القيم الذي مشى على صراط مستقيم . صاحب القيم الذي مشى على صراط مستقيم ، وإنسان مندفع لشهواته يبقى من الأحظ ؟

يبقى هذا يناسب الحكمة ؟ كان يجب أنكم تقولون ما دام العالم هذا مخلوق بهذه القدرة ، وبهذه الحكمة ، وبهذه الرحمة ، أنكم تنتظرون ذلك اليوم ، حتى لا يسوى بين جائر وعادل ، وبين ضال ومهتدي وبين صالح وفاسد .

إذن فمنطقي بهذه المقدمات ، كان يجب أن تقولوا : يا ربّ اجعل لنا يوماً تحاسبنا فيه ، فإذا كان الله يقول أن لكم يوماً تحاسبون فيه ، يبقى قدم له المقدمات المنطقية . يبقى هو لم يترك الجواب عم يتساءلون فيه عن النبأ العظيم ، إلا ليقدم المقدمة التي تجعلك أنت تؤمن بأنه من الضروري أن يوجد ذلك النبأ العظيم .

تعجب من استفهام أو من سؤال . فقال سبحانه عم يتساءلون استعجاب كيف يسألون هذا السؤال . ثم أخبرنا فقال عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ، كلمة النبأ توحي بأنه أمر بلغ من العظمة بحيث يكون ظاهراً وواضحاً ، بحيث لا يجب أن يتساءل عنه ، لأن الله الذي أبدع الخلق بقدرته وأودع في الكون أسراره بحكمته ، لا يمكن أن يكون ذلك الأمر عبثاً يفسد المفسد فيه ، ويصلح المصلح فيه بدون رجوع إلى محاسب يجازي كل إنسان عما قدم .

وبعد ذلك أخبرنا أن الحق سبحانه وتعالى بعدما قال ذلك ، أخبرنا أنهم سيعلمون ثم يعلمون فإذا كانوا قد أنكروا أو ارتابوا في علم يقين صادر عن الله حين يفاجئهم الموت وفيه من مشاهد كان حسهم لا يراها فأصبح حسهم يراها . حينئذ يعلمون صدق الحق فيما أخبر به من قوله : « فبصرك اليوم حديد » وبعد ذلك سيعلمون حق اليقين حينما يفاجأون بالبعث وهم بين يدي ربهم يحاسبهم على ما قدموا من عمل .

وبعد ذلك قلنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية غيبية يأتي بالدليل من القضايا المحسة ، ليجعل الشاهد عين الدليل على الغائب . فقال : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ وهذا أمر لا يشك فيه ﴿ **والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً** ﴾ . كل ذلك آيات لا يشك فيها شاك . ولم يدع مدعٍ أنه أوجدها أو خلقها . . إذن فالدعوى تصير لله أن يثبت مدع آخر يقول بدليل ويبينه ، على أنه هو الذي جعل الأرض مهاداً ، وجعل الجبال أوتاداً . وحيث لم يوجد مدعٍ بهذه الدعوى ، المسألة منسوبة إلى من قال أني أنا الذي خلقت ، إلى أن يوجد

معارض آخر يقول : لا بل أنا الذي خلقت ، بدليل أقوى من الدليل الأول .

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن مظاهر قدرته وحكمته في كونه ، يبدأ بقوله : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ وكلمة مهاد توحي بأنه الفراش الوطيء المعد للطفل كالمهد .

وما دام مهداً فكأن الحق سبحانه وتعالى علم أن خلقه الأول سيستقبل الحياة التي يحياها بطفولة عقلية ، فلا علم له بشيء ، ولا يستطيع أن يفكر ليبذر ويحرث ، فلا بد من أن يعد له مقدمات الحياة إلى أن يبدأ له تفكير فيستطيع بعد ذلك أن يزرع ، وأن يحرث وأن يبذر .

وأيضاً كلمة مهادٍ تشعر بالطفولة الأولية ، والطفولة الأولية أول ما يبدأ فيـــه الإنسان من حركة الحياة هو ظاهرة التنفس . أول عمل وقبل أن يأكل وقبل أن يتحرك أي شيء فيه تتحرك رئته . ولذلك إذا كان الوليد أو الجنين منكوساً يعني رأسه إلى الداخل ولم تبرز أول ما تبرز تعرض الوليد للاختناق . لأنه بمجرد أن يأذن الله سبحانه وتعالى لحياة أمة الآن تبدأ له حياة ذاتية ، فلم يخرج وجهه وتتعرض أنفه لاستنشاق الهواء لتؤدي الرئة مهمتها في عملية التنفس فإنه يموت . أما إذا خرجت الرأس وأمكنه عملية التنفس ، يطول وجوده في بطن أمه أو لا يطول هذه عملية أخرى .

ولذلك قلنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما قال : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً** ﴾ قلنا ظاهرة الوتدية في الأرض كما أنها لترسي الأرض حتى لا تميد من الحركة ، قلنا أنها عامل مساعد للجاذبية الأرضية التي تجذب قبة الهواء الضروري للإنسان .

﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً** ﴾ وبعد ذلك يشير إلينا أن الحق قبل أن يخلق الخلق مهد لهذا الخلق الحياة وأولياتها ، ففراش كمهد الطفل ثم جبال كالأوتاد عامل مساعد على حفظ الهواء الذي هو الضرورة الأولى في الحياة . وبعد ذلك خلقنا أزواجاً . إذن فأعد لخلقه مقومات الحياة قبل أن يخلق ذلك الخلق . ﴿ **خلقناكم أزواجاً** ﴾ للسكن . وللمودة وللرحمة ، وللإنسان أيضاً .

وبعد ذلك تكلم الحق عن ظاهرة النوم ، والنوم كما قلنا آخر ما انتهى إليه أنه

ردع طبيعي في الجسم يؤذن الجسم بأنه لم يعد صالحاً لحركة الحياة ، فليعزل حركة الحياة قسراً عنه ، وينام ، فإذا ما نام وارتاح عاد تفاعله الكيماوي إلى طبيعته ، ثم قام نشيطاً فاستأنف حياته مرة أخرى . ولذلك يأتي النوم قسراً عن الإنسان ، يتحايل الإنسان عليه فلا يأتي ولكنه يفجأه فيكون نوماً لا يعرف كيف بدأ به . هذا ردع ذاتي بأن الآلة الإنسانية لم تعد صالحة لمواجهة حركة الحياة ، فلتنقطع عن الحياة . ولذلك جعل الله النوم سباتاً .

وبعد ذلك جعل ﴿ **الليل لباساً** ﴾ ستر لنا وهذا الستر له فوائده الكثيرة : أن الإنسان حينما يخلو لنفسه يحب في نومه أن لا يطلع عليه أحد ، لأنه في نومه ما دام فاقد الوعي ، قد تصدر منه أشياء لا يحب أن يراها عليه أحد . فجعل الله سبحانه وتعالى الليل لباساً . وأيضاً فهناك ضرورات حركية تقتضي وجود اللباس كأن تباغت عدواً أو أن تبيت له حتى لا يراك بما تعد له . إذن فله ضروريات في وجود الستر ، وضروريات في وجود الأعداء ، ومجابهتهم بحيث لا يرونك في فعلك . ﴿ **وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً** ﴾ وهذا أمر واضح كما قلنا فيه لحركة الحياة .

ويقول الحق بعد ذلك : ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً** ﴾ . السبع الشداد كما تدل عليه السياقات الكثيرة من القرآن مراد بها السماوات . وكون السماوات سبع متعدد النصوص وكونها طباق أيضاً متعدد النصوص ، إلا أن الناس نظراً لأن إدراكهم لم يصل إلى جرم السماء ليعرفوا حقيقة ذلك الجرم ، حاولوا جاهدين أن يعبروا عن معنى السماء بأشياء تطيقها عقول الناس ، وخاصة عندما تبرز في ميدان الفكر نظريات ، هذه النظريات تبهر الناس حين يسمعونها ، الذين يحبون إخلاصاً لدينهم أن لا يبعدوا الدين عن واقع الحياة ، يحاولون جاهدين أن يقربوا قضايا الدين ، وخاصة الغيبيات عن مشاهدهم إلى عقولهم . الغيبية ، والإيمان بها هو الواجب ، كيفية ما تؤمن الحديث ، كان على رأس هؤلاء الشيخ محمد عبده ، وهو زعيم المدرسة العقلانية التي كانت تحاول دائماً أن تقرب قضايا الدين التي تتعلق بالغيب إلى عقول الناس . وهي ظاهرة تدل على الغيرة للدين ، ولكنها تضر أكثر مما تنفع لماذا ؟ لأن قضايا الدين في الأمور الغيبية ، الإيمان بها هو الواجب ،

كيفية ما تؤمن به ليس من الضروري أن تعرفه . وقلنا أن الإيمان له قمة وهو أن تؤمن بالله . فإذا ما آمنت بالله باختيارك ، ودخلت على القمة بعقلك فتقبل عن الله كل ما يقول لك ، وسعه عقلك أم لم يسعه . وفي ماديات الحياة ما يؤكد صدق هذه القضية ، فكم من أمور لم تكن غيباً بحتاً إنما كانت غيباً فقط عن مشاهدنا ، لأن آلات إدراكنا لم تكن تستوعبها ولكنها مادية . فكثير من الماديات كان أمراً غيبياً كالميكروبات ، ولكن العلم حينما تقدمت آلاته بالمجاهر والتليسكوبات ، أمكننا أن نرى ما لم نره . إذن فكون أمر لا تدركه بحسك لا يعني أنه غير موجود . فلتتهم أنت حسك لأنه لم يصل إلى إدراك ذلك . ووجود أشياء كانت غيباً ثم صارت الآن مشهداً دليل على أن عقلك يجب أن لا يتوقف في الأمر الغيبي لأنه لم يدركه بل يقول ما دام الله قاله فهو موجود . أدركته أم لم أدركه وأما كان العلم لا يزال يكشف لنا مستوراً من مستورات الله في كونه ، وكانت غيباً عن الناس ثم تصير الآن مشهداً ، أفلا يكون ذلك دليلاً على أن الحق حين يكلمني عن غيب لا أرفض هذا الكلام بحجة أني لا أدركه ؟ لأننا نقول له في ماديات حياتك كانت أمور غيب ثم أصبحت مشهداً ، فخذ من ذلك وسيلة أيضاً إلى الإيمان بأن مغيبات كثيرة لم يكن عقلك يدركها ولكن الله أخبر بها فيجب أن تصدقها .

ولذلك قلنا أن القرآن حينما يميز المؤمنين يقول الذين يؤمنون بالغيب لأن الذي يؤمن بالمشهد أمر يشترك فيه المؤمن وغير المؤمن ، فلا مزية للمؤمن إلا أن يؤمن بأمر الغيب ، أما إذا كان أمر العقل مقتنع به والحس يؤيده ، فما داعي الإيمان ؟ لا داعي للإيمان أبداً . فلما رأوا أن السماوات لا تدخل تحت حسنا ولا تحت تجربتنا ولا نستطيع أن نعرف عنها شيئاً . ماذا قالوا ؟ قالوا : أن السماء هي كل ما علاك فأظلك ، والكواكب والشمس والقمر والنجوم التي فوقنا هي عبارة عن السماء . وزاد من انتقالهم في هذه المسألة نقلة عن الغيب إلى العالم المحس . أن الكواكب السيارة التي كانوا يعرفونها في ذلك الزمان كانت سبعة فهي مطابقة للعدد عن السماوات السبع . لكن تبين فيما بعد ذلك أن السيارات حول الشمس ليس سبعة . اكتشفت سيارات أخرى ، وهل كانت السماء ليس فيها إلا الشمس وتوابعها من السيارات ؟ فيه نجوم كثيرة ، وكواكب كثيرة أمامنا نراها . إذن أرادوا أن

يقربوا هذه المسألة من العقول المعاصرة فقالوا : إن السماء هي عبارة عن الشمس والقمر والكواكب .

الإمام محمد عبده أراد أن يفسر « **بناها** » في قوله تعالى : ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** ﴾ وتعرض ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً** ﴾ قال أن البناء معناه « إيجاد أشياء تتماسك تماسكاً قوياً بحيث لا تنفصل . هذا هو البناء . كما تأتي باللبنة فوق اللبنة ، وبعد ذلك تمسكها بما بين اللبنتين من طين مرة أو من جير أو من أسمنت . . كل ذلك عملية بناء . أما الكواكب التي تقول عليها الشمس والقمر والكواكب هذه هي السماء ، ما معنى بناها ؟ قال : جعلها ممسوكة مع بعضها بحيث لا يسقط واحد عن فلك واحد ، وتبقى مرتبطة متماسكة بقانون الجاذبية لأن في قانون الجاذبية الذي جاء به نيوتن في القرن السابع عشر كان موجوداً فأحبوا أن يستعملوا هذا القانون ويقولون أن القرآن متمشي مع القوانين العلمية .

نقول : يا إمام هذا كلام طيب ، لكن القرآن لا يتخذ آية آية . القرآن يتخذ جملة . فإذا مثلاً قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى في سورة المرسلات ﴿ **فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت** ﴾ يدل على أن السماء ليست هي النجوم ، وبعد ذلك يأتي من استهلال سورة أخرى يقول : ﴿ **إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت** ﴾ فمرة يعمل النجوم مغايرة للسماء ، ومرة يعمل الكواكب مغايرة للسماء ، السماء شيء والكواكب والنجوم شيء آخر .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً** ﴾ يبقى لازم تكون السماء طباق هذه غير الشمس والقمر . ويلاحظ أن القرآن دقيق في استيعاب هذه الأشياء : مرة يقول : ﴿ **فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت** ﴾ ومرة يقول : ﴿ **إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت** ﴾ فيأتي مرة بالنجوم مقابل للسماء ، ومرة بالكواكب مقابل للسماء .

وطبعاً عرفنا أخيراً أنهم فرقوا بين نجم وكوكب ، أن النجم مضيء بذاته ، ملتهب بذاته . لكن الكواكب ضوء من غيره . ولذلك يقول القرآن لدقة الخالق في

الأداء : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾ وفي آية أخرى ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ جاء بكواكب مرة ، وبمصابيح مرة ، وهي كلها تزين السماء ، لأن القمر والكواكب الذي يستمد ضوءه من الشمس أيضاً متلألىء وضاء ومشرق منير ، فهو أيضاً زينة إذن لا يشترط أنها تكون هي في ذاتها متوهجة ولكن يكفي بأن تكون آخذة الضوء من غيرها وتبقى زينة المصباح هو الذي ضوءه ذاتياً . ومرة يقول عليها مصابيح . لو أردنا أن نفرق نحن بين الكواكب والمصابيح ، نجد أن القرآن أيضاً هو الفيصل في هذه . كيف ؟ يدلك على أن المصباح متوقد بذاته . لكن فيه شيء يعطي الإشعاع ولكنه غير متوقد بذاته . فيقول : ﴿ **الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة** ﴾ الزجاجة ضوؤها ليس ذاتياً ، الزجاجة تعكس ضوء المصباح هو الذي ضوءه ذاتياً . إذن فلما يقول ربنا : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ ومرة يقول : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾ يبقى الحق سبحانه وتعالى جاء بالاثنين : إما أن تكون كوكباً وإما أن تكون نجماً مضيئاً بذاته .

الخلاصة من هذا أن السماء شيء ، والكواكب والشمس والقمر شيء آخر . وخصوصاً أنهم بعد أن اكتشفوا سيارات أخرى مثل : أورنيوس ونبتون وبلوتو . . . إلخ تبقى زادت السيارات عن سبعة فالمسألة ماذا ؟ وبعد ذلك لما جاء رجل الفلك وقال لنا إيش هي المجرات السبعة بتاعتكم الكواكب السيارة التي حول الشمس . أين هذه من ملك الله ؟ هذه مجموعة واحدة من مائة مليون مجموعة في مجرتكم أنتم ، وعندنا مائة مليون مجرة مثلها . وعلى كل حال لكي أقرب لكم المسألة ولا تدخلوا في متاهة حساب لكي تحسبوا هذه المسائل . اجمعوا الرمال التي على شواطىء البحار كلها وعدوها تجدوا الكواكب والنجوم مثلها تماماً . يبقى إيش يا إمام أنت والمدرسة بتاعتك عملتم لنا من الكون كله ليس فيه إلا المجموعة الشمسية ، الشمس والقمر والأرض . أين هذه من ملك الله ؟

الشعري بيننا وبينها ١٤٠ سنة ضوئية ، بينما بيننا وبين الشمس ٨ دقائق ضوئية ١٤٠ سنة ضوئية وتعطي ضوءاً وحرارة قدر الشمس ٢٦ مرة . لم تذهب إلى الكواكب الأخرى الكبيرة . فإذن الكون أنتم كنتم تفهمون كونكم الشمس والقمر

والكواكب والنجوم هذه الأرض مثل اليونانيون كانوا يقولون الأرض مركز الكون . إيش الأرض مركز الكون بالنسبة لكون الله « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون » عملية واسعة جداً .

إذن فكونهم يقولون : أن السماء هي هذه ، والجاذبية هي التي تمسكها وو . . . إلخ . نقول القرآن لما يتعرض لبناء السماء يأتي بمصدر وحيد وهو كلمة (بناء) ولما يتعرض لمباني الأرض يقول عليها (بنيان) . . جعل الأرض فراشاً والسماء بناء . . جعل الأرض مهاداً والسماء بناء . . كل ما يتعلق بالسماء يسميه بناء حين يتعرض لمباني الأرض . . ابنوا عليهم بنياناً . . ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . . ﴿ **فمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفي جرف هار فانهار به في نار جهنم** ﴾ . . . لا يزال بنيانهم الذي بنوه ريبة في قلوبهم . كل كلمة تتعلق بالبناء في الأرض يسميه بنياناً ، والأخرى يسميها بناء فقط . . هنا البناء أنت تقدر تميز لبنة عن لبنة ، وتجد بينهما وبين بعضهما لحمة . يقول : لا . . شوف السماء أنظر إليها جيداً هل ترى فيها من فطور ، شقوق لا . . يبقى معنى البناء هنا المتماسك المتلاحم تمام التماسك والتلاحم ، بحيث لا تستطيع أن تتبين فاصلاً بين شيء وشيء آخر . وبعدين تقول : ﴿ **ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾ مما يدل على أن أيضاً مرئي العين لا يستطيع . ولذلك أنت ترى السماء لما تكون صافية ، تجدها بلون واحد ، وملاسة واحدة ، وشكل واحد . أنظر إلى القمر وأمعن فيه النظر لازم تجد فيه ما يسمونه الكلف . أنظر إلى الشمس أيضاً تجد فيها بقع . إذن معنى بناء السماء أنها بناء ليس قطعة مضمومة إلى قطعة وبينهما شيء يلمهما مع بعضهما . لا . . لا توجد فطور ولا شقوق ولا أي شيء أبداً يعني حاجة ملساء .

ثم الحق سبحانه وتعالى حينما يسري برسوله ثم يأتي الرسول ويقول : طلعت للسماء واستفتح جبريل . وبعد ذلك قيل ومن معك . قال : محمد . وبعدين فتحوا له . وبعدين طلع للسماء الثانية ، أبعد ذلك يا إمام أنت ومدرستك تقولون أن السماء المراد بها ما علانا فأظلنا من شمس وقمر وكواكب ونجوم لتقربوا هذه المسألة على العقول وتقولوا : أن الدين ليس متعارض مع العلم . الدين

صحيح لا يتعارض مع العلم ، إنما العلم ما هو؟ العلم الذي يصل إلى حقيقة علم . لأن التضارب لا يمكن أن يتأتى بين كلام الله وبين كون الله . الله هو الذي خلق الكون والله هو الذي قال القرآن . يبقى إذن لا تعارض أبداً . إنما ينشأ التعارض من أي شيء ؟ أن تعتبر حقيقة في القرآن على فهمك وهي ليست حقيقة أو تعتبر حقيقة في الكون على فهمك وهي ليست حقيقة . إما إن صرت إلى حقيقة قرآنية كحقيقة قرآنية ، وإلى حقيقة كونية كحقيقة كونية ، فلا يمكن أن يوجد تضارب أبداً . ولكن الناس دائماً يتعجلون كلما رأوا بارقة من علم ، نظرية أو أي شيء يحاولون أن يفسروا بها غيب الله سبحانه وتعالى . هم صحيح مخلصون في هذه المسألة . إنما المهم أن يرفع عقول الناس إلى مستواه . وهذه مسألة إن عرفتها زي ما معرفتهاش يعني ترف عقلي وعلمي إن عرف أن السماء هي كذا أو كذا لن يترتب عليها في نفعك منها المقصود لله شيء ، بل أنت تنتفع .

بعد ذلك ماذا ترك عقل القرن العشرين لعقل القرن الثلاثين والأربعين . إذا كنا كل يوم نخطو في العلم خطوات تدلنا على حقائق ، فإذا كان العقل في القرن العشرين يريد أن يفهم الحقائق الغيبية الآن فماذا ترك لعقل القرن الثلاثين . أليس أسرار الله تجيء بقطارة ، كل يوم يعطي الله سبحانه وتعالى خلقه بعض الأسرار ؟ ولذلك قلنا في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم** ﴾ سنظل (سنريهم) وليس أريناهم . لا . سنظل نقرأها إلى يوم الساعة (سنريهم) ومعنى ذلك أن كل يوم لا بد أن يأتي بجديد فإذا كنا نريد أن نفهم السماء و . . . إلخ على هذا الفهم اليوم ونتعجل المسألة لكي نقنع العقول المعاصرة بأن القرآن يتمشى مع الحقيقة العلمية وبعدين الحقيقة النظرية العلمية أخطأت ماذا تقول فيها الآن . إذن فيجب أن نفهم السماء كما قال الله : ﴿ **سبع سماوات طباقاً** ﴾ وبعد ذلك كل الكواكب هذه في السماء الدنيا ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾ كل هذه دون السماء وليس لها علاقة بالسماء . كوننا لا نقدر نصل إلى السماء ، إننا لم نقدر نصل لما بيننا وبين السماء . فإلى أن نفرغ من قضية ما بيننا وبين السماء يبقى بعد ذلك نتطلع إلى أننا نعرف السماء .

بعد ذلك قال : ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً** ﴾ .

الحق سبحانه وتعالى في كلمة سراج وهاج هذه ، أولا الشيء الوهاج هو المتوقد . أو الشيء الوهاج هو المتلألىء ، يبقى التوهج يعطي معنيين اثنين : معنى توقد والتوقد يعطي حرارة . التلألؤ يعطي لمعاناً وبريقاً . يقال الذهب متوهج ، يعني يعطي لوناً وهجياً . والنار متوهجة . صحيح الشمس سراجاً ونحن نعلم أن السراج فيه حرارة وفيه نور . لكن القمر فيه نور فقط ﴿ **وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً**﴾ يبقى القمر نوراً ، ولذلك يسمونه النور الحليم ، يعني الذي ليس فيه حرارة . لكن الشمس نورها فيه حرارة هذا له مهمة وهذا له مهمة .

﴿ **وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماءاً ثجاجاً** ﴾ لو عرفنا المقارنة بين كلمة وهاج وهي التوقد وبين ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماءاً ثجاجاً** ﴾ نعرف أن الذي قال هذا الكلام هو الخالق الذي رتب الأمور على أسبابها ومسبباتها وعللها ومعلولاتها . لأن المطر كما نعلم ، الماء العذب الذي ينزل لنا من جهة السماء هذا ، طبعاً نتيجة ماذا ؟ مستودع المياه وهي البحار كما نعلم مالحة . فلازم من عملية تقطير كما يقولون . تقطير هذا ينشأ من عمليات : يتبخر ، ومعنى يتبخر بخار الماء يطلع ويذهب في الجو ثم يتعقد ثم بعد ذلك يصادف منطقة باردة فيتكاثف وينزل لنا مطراً فراتاً عذباً سائغاً شرابه . إذن فهناك صلة بين الشمس سراج وبين ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماءاً ثجاجاً** ﴾ جاء العلماء عند المعصرات ووقفوا فيها . أولاً لازم نبحث المعنى اللغوي . ما معنى معصر معصر من أعصر . أعصر في اللغة بمعنى حان وقت إنجاب الجارية . جارية معصر يعني حان وقت إنجابها ، يعني حاضت فهي ابتدأت تصلح لعملية الإنجاب .

وكان مجني دون من كنت أتقي . . . ثلاث شخوص كأعبان ومعصر

معصر يعني فتاة ناهد بلغت سن الأنوثة التي ممكن تصلح أن تنجب .

إذن ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماءاً ثجاجاً** ﴾ أي من ماذا ؟ بعضهم يقول : الرياح ، وبعضهم يقول : السحب وبعضهم يقول قمم الجبال . المهم أنها من شيء أعصر يعني حان وقت إنجابه . الريح تحمل السحاب إنما ليس كل ريح تحمل السحاب يمطر لازم يبلغ منطقة باردة لكي يتكاثف وينزل . كذلك الجبال ليس كل جبل له قمة ينزل عليها ماء . لازم جبل يكون على مستوى عالٍ قال :

﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ فإسقاء الماء الفرات مرتبط برواسي شامخات . لذلك لما تجيء مثلاً ، فيه واحد لا أعرف أنطق اسمه صحيحاً ، اسمه هت ، شن ، سن ، عامل دائرة معارف مصورة لخط الثلج الدائم . خط الثلج الدائم يعني الذي يدوم فيه الثلج . لاحظنا في رسم هذا الخط أنه باديء من خط الأستواء عالي وبعدين ماشي ناحية مدار السرطان ينخفض ، وبعد ذلك ينتهي إلى أن يصير إلى مستوى سطح البحر . وقد رأى أن أعلى قمة في المنطقة الاستوائية من ١٦ إلى ١٧ ألف قدم فإذا ذهب إلى مدار السرطان عند **٢٣** درجة يبقى ١٣ ألف قدم فقط . يبقى الارتفاع في خط الثلج نزل عند مدار السرطان . وبعدين مشي لحد عرض **٥٠** طلع ٦ آلاف قدم ، خط عرض ٦٠ أصبح ٤ آلاف قدم . عند خط عرض ٧٠ خط الثلج أصبح على سطح البحر . إذن خط الثلج كلما يبعد عن المنطقة الحارة ينزل خط الثلج . ونحن نعرف أن قمم الجبال كلها مغطاة بالثلوج ، والثلوج لا يمكن تجيء إلا تحت الصفر . تحت الصفر هذه يبقى على طول تحتها الصفر وبعدين فوق الصفر بربع درجة وبنصف درجة الثلج المتصل بهذه المسألة يظل يسيح لما يسيح ينزل على الجبال . ثقل الثلج من فوق يضغط وينزل وتظل المياه تنزل دائماً . لكن الرياح قالوا : إن الرياح التي تمر على منطقة خط الثلج تودع كل ما فيها من ماء على القمم وبعدين تهب على الجهات المقابلة بدون ماء هل معنى ذلك أن الجهات التي ليس لها خط ثلجي يمدها ، تظل من غير ماء . . لا . عملية الرياح . ولذلك آية النور تشرح لنا هذه العملية **﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾** كنا نفهم أن كل سحاب يجيء يمطر . لا . . لازم سحاب من ذكورة ومن أنوثة . لازم فيه كهربائية موجبة وكهربائية سالبة . ويجتمعا مع بعض وتجيء العملية . وكنا نفهم زمان لما ربنا سبحانه وتعالى يقول : **﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾** كنا نفهم أنها تلقح النباتات، وبعدذلك عرفنا كيف أنه جاء بعدها **﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾** يبقى إذن هي ليس لواقح الذي ترونه ، أيضاً تلقح الموجبة والسالبة وينزل المطر هذا كلام أعطاه لنا العلم ، جزاه الله خيراً النشاط الذهني الذي أعطانا هذه المعلومات .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً** ﴾ يعني متدفقاً ﴿ **لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً** ﴾ انظر الدقة : حب ونبات ، وجنات ، دقة في التعبير لا يمكن يقولها إلا خالق ، أولاً : النبات والجنات الألفاف لازم لها من جراثيم بذرية لكي تطلع منها ، فيبقى الحب هذا هو الأصل إن كنت أنت ترى شيئاً ليس له حب ، فهو في الأصل جاء من حب ، وإلا فمثلاً آدم لما جاء . الأول جاء له ربنا بالبذر وقال له إبذر وانتظر لما ينبت وبعدين كل منه لا بد أن يكون قد أعد له الأشياء التي يأكلها . إذن فكل شيء له بذرة . إن كنا نحن نزرع الآن بأشياء من غير بذر يعني نأخذ منها عقل ونغرسها فلازم يكون أصلها بذرة .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى لما يعرض لنا مثل هذه المسائل يقول لنا : هل تريدون أن تعرفوا آية الله في الخلق وآية الله في الإبداء : سيروا في الأرض وانظروا ، لأن الأرض المعمروة منكم قد تكون لصنعتكم فيها عمل ، إنما سيروا في الأرض واذهبوا إلى الأماكن التي لم تطأها قدم الإنسان تذهب إلى الأماكن التي لم تطأها قدم إنسان تجد فيها أنواعاً من الأشجار ، وأنواعاً من الفواكه ، كيف وجدت هذه إذن عملية الزرع ليست لك . عملية الزرع استفدت منها أولاً وبعدين على ضوء ما وجدت منها صنعت فيها . إذن لازم تكون موجودة أولاً ﴿ **حباً ونباتاً وجنات ألفافاً** ﴾ أي بلغ من شدة خصوبة الأرض أن تلتف الأغصان على بعض .

بعد أن يتكلم عن مظاهر قدرته ، وإبداعه ، ومظاهر حكمته الموعدة في هذه الأشياء ، ينتقل إلى المعنى المقصود ، لأن المسألة تكذيب بيوم الفصل ، تكذيب بيوم الدين ، فيقول أن هذا الكلام كان يصح ان تكذبوا لو أنني لم أصنع كذا ، ولم أصنع كذا ، ولم أصنع كذا . وبما أنني صنعت إذن لا تكذبوا ما أقول لكم عليه وأنه يكون فيه ﴿ **أن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ فكأن الأشياء والآيات المحسة المشاهدة التي ـ كما قلنا ـ لم يدع أحد أنه أوجدها ، ما دامت منسوبة إلى الله ، كان يجب أن الذي صنع هذه الأشياء لا تكذب أبداً أننا سنلقاه في يوم الفصل .

﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ تدل هذه الآية على أن الذين يستعجلونه يريدون أن ينفعل الله لاستعجالهم فيعجل اليوم عما وقته . متى الساعة ؟ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ الله لا ينفعل لذلك ، لأن الانفعال تغير ، والحق لا

يتغير ، فليس معنى ذلك أنكم تنكرون ، يقوم ربنا يعمل عملية ويقول : هم ينكرون ؟ سأجيء لهم بيوم الفصل . لا . . قال أنه كان ميقاتاً وبقدر وموقوت وأنا لا أنفعل لهم ، لأن هؤلاء ناس عقولهم صغيرة . وهل أنفعل أنا للخلق ؟ هذا نظام معقول ونظام مرسوم أزلاً ، ولا يمكن أن يجعلني إنسان من خلقي أخرج عما رسمته ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ ميقات يعني وقت معلوم ، وله حد ، فلا تظنون أني سأنفعل لمن يقول منكراً ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ ؟ أو متى الساعة كل هذا لا تأثير له عندي لأنني لا أنفعل لخلقي ، لأن الانفعال تغير والتغير على الحق سبحانه وتعالى ممتنع . وكلمة (الفصل) نفسها تدل على أن فيه التحام في قضية من القضايا ، هذا يقول حقاً وهذا يقول باطلاً ، فبعد ذلك حين يجيء يوم الفصل تتضح المسائل . الحق يجيء على جانب والباطل يجيء على جانب .

يوم ينفخ في الصور (هذه كأنها بداية يوم الفصل) « فتأتون أفواجاً » يعني مثلما يقول « يوم يدعو كل أُناس بإمامهم » أو أهل كل سيئة في صف لوحدهم : هؤلاء مثلاً هم الزناة هؤلاء هم آكلو الربا ، هؤلاء هم آكلو السحت هؤلاء هم الجائرون ، يعني كل جماعة وحدها .

ولذلك هناك حديث يرويه ابن مردويه عن معاذ بن جبل (أن معاذ بن جبل حينما قرأ قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً** ﴾ سأل رسول الله عن ذلك فقال له رسول الله ﷺ يا معاذ : سألت عن عظيم من الأمور . ثم أرسل بصره (يعني أرسل بصره إلى السماء) وقال : عشرة أصناف ميزهم الله عز وجل من جماعة المسلمين فبدل صورهم : فمنهم من هم على صورة القردة ومنهم من هم على صورة الخنازير ، ومنهم المنكسون ، أي رجولهم فوق رؤوسهم يسحبون منها ، ومنهم العمى يتزوون ، ومنهم الصم البكم لا يعقلون ، ومنهم من يمضغون ألسنتهم وهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً ، ومنهم قوم قطعت أيديهم وأرجلهم ، ومنهم قوم يصلبون على جذوع من نار ، ومنهم قوم أشد نتناً من الجيفة يتقذرهم الجمع ، ومنهم قوم يلبسون جلباباً من قطران لازقة بأجسادهم . أما الذين على صورة القردة ، فهم القتات من الناس (القتات يعني النمامين الذين يوقعون بالنميمة الفساد بين الناس) . وأما الذين هم على صورة

الخنازير ، فهم أهل السحت (يعني الارتزاق من الحرام) وأما المنكسون أرجلهم فوق رؤوسهم يسحبون منها فهؤلاء هم أكلة الربا ، وأما العمى فهم الذين يجورون في الحكم ، وأما الصم البكم الذين لا يعقلون فهم المعجبون بأعمالهم ، وأما الذين يمضغون ألسنتهم وهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً فهؤلاء هم علماء السوء وقصاصو الفتنة يقولون ما لا يفعلون وأما المقطعة أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم أما المصلوبون على جذوع من نار فهؤلاء هم السعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشد نتناً من الجيفة يتقذرهم الجمع فهم الذين اتبعوا ملذاتهم وشهواتهم ، وأما الذين هم يلبسون جلباباً من قطران لازقة بأجسامهم فهم أهل الكبر والخيلاء . بهذا فسر رسول الله ﷺ كلمة (أفواجاً) وإن كان المدققون في تخريج الأحاديث قالوا : إن السياق يدل على أن الكلام فيمن أنكر البعث . ومنكر البعث أو المتشكك فيه كافر وهذا الحديث إنما يتعرض لجماعة من المسلمين . لذلك ابن حجر قال : يخيل إلي أن الحديث ليس في موضوعه أو هو موضوع ، يعني استشهد به في غير موضعه أو هو موضوع .

﴿ **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ، وفتحت السماء فكانت أبواباً** ﴾ معنى ذلك أنها الآن ليس فيها فتوح بينها وبين بعضها ، وما دام ليس فيها فتح بينها وبين بعضها يبقى ماذا ؟ يبقى محبوكة ﴿ **السماء ذات الحبك** ﴾ محبوكة يعني ليس فيها فواصل .

﴿ **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً وفتحت السماء فكانت أبواباً** ﴾ لأن السماء سيعتريها من الانقلاب الهائل ما يعتري الأرض أيضاً . خلاصة ما يكون في ذلك ما يقوله الحق سبحانه وتعالى ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ لأن الأرض والسماء الموجودتين أرض وسماء معاش ، وهناك أرض وسماء معاد . والفرق بين أرض المعاش وأرض المعاد ، أن أرض المعاش فيها ادخار الأسباب وعالم العلل ، وعالم المعلولات ، ولكننا في الآخرة لا أسباب ، ولا علل ، ولا مقدمات ، إنما بمجرد أن يخطر الشيء ببالك تعيش بقدرة السبب في (كن) يبقى نحن لا نريد دنيا العناصر ولا مطراً ينزل من السماء ولا الشمس تعمل حرارة وتبخر ولا طبقة باردة . . وإلخ . ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ يبقى لازم

يحصل للسماء في ذلك اليوم انقلاب تمور مثلاً ، تنفطر ، كل ما يمكن أن يؤدي إلى زوالها ، وإلى دمارها ، لتأتي السماء الجديدة ، والأرض الجديدة .

﴿ **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ، وفتحت السماء فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ أولاً المشهد الذي يراه الإنسان في عالم الحس أن الجبال هذه أثبت شيء يراه الإنسان . يراها راسخة ، مثلما يقول : راسخ كالطود فيقول ذلك الجبل الراسخ الذي تراه هذا ﴿ **سيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ مسألة الجبال هذه آخذة حظاً واسعاً في القرآن ، لما تجد **٢٩** آية متعلقة بهذه الجبال منها **١١** آية متعلقة بأحوال الجبال في يوم القيامة ، لكن مسألة التسيير ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ ومعنى السراب الشيء يتوهمه شيئاً وليس بشيء ، يعني أصبحت هباء ، لم يعد لها وجود هنا ﴿ **سيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ لما تتبعنا كلمة (سيرت) بالنسبة للجبال وجدنا أن قول الحق سبحانه وتعالى في سورة التكوير ﴿ **إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت** ﴾ . وبعدين في سورة الكهف أيضاً تعرضت لهذه العملية ﴿ **ويوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم** ﴾ وأيضاً في سورة الطور يقول : ﴿ **يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيراً** ﴾ وكذلك في سورتنا هذه ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ كلمة تسيير الجبال وردت في أربع سور ، إلا أنه في الثلاث سور لم تتعرض إلى ماذا تصير إليه بعد التسيير ؟ لكن في سورة (عم) وسيرت الجبال فكانت سراباً ، يبقى كأن نتيجة التسيير أنها تصير سراباً ، يبقى كأن فيه عمليتين : تحرك من أماكنها بالسير ، ثم تصير سراباً .

هل التسيير هو عين النسف في بعض الآيات ؟ أيضاً الجبال تعرض لها الحق سبحانه وتعالى في بعض آيات القرآن في كلمة النسف هناك مثلاً ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً** ﴾ كثيباً يعني رمل ، مهيلاً يعني هائل بعد ما كان متماسكاً . إنما الرمل لما يتماسك يبقى باقٍ في مكانه أم لا ؟ يبقى إذن هي ليست سراباً . لأن (سراباً) تصبح كأنها غير موجودة . لكن﴿**كثيباًمهيلاً** ﴾ تدل على التفتت والتفكك فالرملية لا تعطي العملية الأخيرة . هذه في سورة « **المزمل** » . تجيء في سورة المرسلات ﴿ **وإذا الجبال نسفت** ﴾ إذن تعرضت أيضاً للنسف .

وفي سورة الواقعة ﴿ **إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً فكانت هباءً منبثاً** ﴾ فتتت يعني . إذن ففيه نسف وفيه تسيير . التسيير جاءت سورة (النبأ) فانهتنا إلى واقعة ، وهو أنها بعد التسيير ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ لكن النسف معناها أنها تتفتت . هذه عملية النسف . يبقى معنى ذلك إما أن تفسير أن النسف هو التسيير ، أو أن يكون النسف لبعض الجبال ، والتسيير لبعض الآخر ، وذلك لاختلاف طبيعة الجبال . الجبال طبائعها مختلفة ، اختلاف طبائعها يجعل أن الحالة التي تؤول إليها الجبال لتنتهي إلى عدم تأخذ صورتين اثنتين : صورة تسيير ، وهذا قال عليه فتبقى سراباً وبعد ذلك صورة نسف . النسف هذا لما نرى الآية في قوله سبحانه وتعالى ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن** ﴾ ومرة أخرى يقول : ﴿ **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ والعهن هو الصوف الملون ، المنفوش يعني المندوف . لكن هل الجبال لما تبقى كثيباً مهيلاً ، تماسك الرمل مثل تماسك الصوف ؟ يبقى إذن الجبال ستتعرض لعمليتين اثنتين : تسيير فتصير سراباً . وبعد ذلك نسف . وبعد عملية النسف التي ستجعلها « **كثيباً مهيلاً** » يبقى لازم يجيء لها عملية تزوية ثانية ، لأنها لو ظلت « كثيباً مهيلاً » . . . يبقى إذن الجبال نوعان : نوع فيه نسف ، ونوع فيه تسيير ، وكله إلى زوال ، الجبال الصامدة ، لأنه لم يعد لها مهمة مثلما قلنا نحن في الآخرة لن نعيش بالأسباب ولا بالعلل والعلولات ، ولا بالمقدمات والنتائج . ليس لنا مجهود أبداً سنعيش بآثار (كن) من الحق سبحانه وتعالى .

﴿ **وسيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ إن جهنم كانت مرصاداً ، انظر الغاية . أولاً الحق سبحانه وتعالى لمنكري البعث ، ماذا قال لهم ؟ الأول قال : سيعلمون ثم كلا سيعلمون وبعدين جاء لهم بالواقع ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ إذا أعطنا صور الانقلاب الهائل الذي سيحدث في الكون . وبعد ذلك الانقلاب الهائل هذا لازم يكون نهايته الجزاء . إن جهنم « **كانت مرصاداً** » انظر الدقة التعبيرية في القرآن في كلمة (مرصاداً) ما معنى مرصاد ؟ انظر كلمة مرصد نحن نستعملها في ماذا ؟ مرصد يعني واحد جالس بأجهزته يترقب الأحداث الكونية فكان بلغ من شدة الإعداد لهؤلاء أن جهنم جالسة لهم تتربص لهم وتنتظرهم . « كانت مرصاداً » يعني

رصد ينتظر قدومهم ، ليس غافلاً عنهم . نفس المكان الذي سيعذبون فيه ، في ترقب ، وفي انتظار ، ولهفة عليهم . ومثلما ربنا يعرض لنا ﴿ **تكاد تميز من الغيظ** ﴾ انظر الانفعال وأعطاها صورة الانفعال ، فكان المكان نفسه منفعل عليهم . ليس المكان غير داري بالعملية ﴿ **تكاد تميز من الغيظ كلما ألقيَّ فيها فوج سألهم خزنتها** ﴾ وأيضاً ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت** ﴾ انظر كونها في حالة من الحالات المغيظة من المخالفين لمنهج ربهم مثلما قلنا سابقاً ، أن الكون كله مؤد مهمته المرادة من الله ، ساعة ما يرى إنساناً طاغياً ينبوبه أو لا ينبوبه . إذن ساعة ما يرى إنساناً طاغياً ينتظر إلى أن يجيء العذاب تبقى تتميز من الغيظ ، وبعد ذلك يقول هل امتلأت وتقول هل من مزيد هاتهم هنا . إذن انفعال الكون المسخر ، الكون المسبح ، الكون العابد كان مغيظاً وكان محنقاً من جنس الإنسان الذي انقسم : منه طائع ومنه عاصٍ . وبقية الأجناس كما قلنا سابقاً بالإجماع . لما عرضنا الآية التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب** ﴾ . أليس هذا بالإجماع كلها ؟ وبعدين لما جاء عند الإنسان سيد الكون قال : ﴿ **وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾ .

إذن لم ينقسم الخلق إلا عند الإنسان . إنما كله بإجماع فجهنم معذورة في أنها تظل مترصدة لهؤلاء الذين خالفوا منهج الله .

﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً** ﴾ كلمة مآباً هذه تدل على ماذا ؟ تدل على أن الأوبة أمر مقطوع بها ، الأوبة هذه أمر مقطوع بها : كأنهم فقط في رحلة ويعودون ، ﴿ **للطاغين مآباً ، لابثين فيها أحقاباً** ﴾ هنا وقفة للعلماء ، الحقبة ما قدرها ؟ يقولون : ٨٠ سنة ، ولكن اشتقاقها من ماذا ؟ لا تقول أحقاباً إلا إذا كانت متتابعة ، لأنها من حقيبة الراكب التي يضعها خلفه فهي تابعة لرحلة . يبقى لا تقول ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ يعني عدداً محدوداً من الزمن لأن أحقاب لا تقال إلا لأزمنة متلاحقة . يعني كلما ينتهي حقب يجيء حقب آخر بعده . ولذلك يقول بعض الناس ما دام قال لابثين فيها أحقاباً عددها ، اعط للجمع أكثره وانظر الحقبة ما مدتها ، ٨٠ سنة مثلاً ، واعط للجمع أكثره أو أقله أو . . إلخ وبعد ذلك يبقى

معناها إنها . . تقوله : لا . . يا أخي ، أحقاب هذه معناها عذاب مقيم مثلما قالها خالدين فيها أبدا ، وما فائدة أنها أحقاب وقتها ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى استدامة لعذاب هؤلاء يجيء زبانية جهنم بعد كل فترة من الفترات يخرجونهم من النار ، وينقلونهم ناحية الجنة ، فيجيء عندهم أمل إنه جاءهم إفراج . بعد ذلك يعادون . يبقى هذا أشد في النكاية ، ووصل في العذاب أم لا ؟ مثلما يجيء إنسان أنت مانعه من الماء ، تظل مانعه من الماء يبقى الناس مستحكم فيه وانتهت ، إنما تؤمله وتجيء له بكوب ماء جميل وتقول له : تفضل ، فيمد له يده وتقربها من فمه ، فتضربها أنت وتسقطها على الأرض هذه استدامة للعذاب يبقى كلمة (أحقاباً) أنهم يأخذونهم فترة ، بعد ذلك يأنسون أن الله سبحانه وتعالى سيعفو عنهم ، وبعد ذلك يعيدهم لجهنم.قال الشاعر العربي :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت
فأصبحتم الليل العداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

﴿ إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . لابثين فيها أحقاباً . لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ﴾ إلا هذه عندما تجيء تعطي أيضاً لسامعها أملاً ، لأن إلا في المعروف في الاستثناء أنها للإخراج ، وما دام إخراج من عذاب تبقى أداة رحمة ، فينظر يجد الذي جاء بعدها عذاب أنكى . يبقى أيضاً كما قلنا أطمعه وبعد ذلك أعاده للعذاب .

ولذلك قالت الصحابة هذه أشق آية في القرآن **﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً ﴾** هذا يسمونه على طريقة المدح بما يشبه الذم ، أو الذم بما يشبه المدح . ساعة ما يسمع (إلا) يظن أن باب الفرج جاء ، وبعد ذلك يقول : **﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾** . . . الحميم هو الماء المتناهي في الحرارة وهل هذا يبقى برداً . والغساق هو الصديد ، صديد أهل النار وهل هذا يبقى شراباً ؟

وبعد ذلك يقول الحق لكي لا تأخذه بشاعة الجزاء « جزاء وفاقاً » عدالة . ولذلك سيجيء في المقابل ، في أهل الجنة ويقول : **﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾** لم يقل وفاقاً ، هنا السيئة على قدر السيئة ، يعني ليس بالميزان ، إنه بالإحسان ليس بالعدل ولكنه بالفضل . .

رأينا أن الله سبحانه وتعالى قد عرض في سورة (عم) بالبدء باستفهام إنكار وتعجب عما يسأل عنه أو يتساءل عنه المشركون الكافرون . ثم فخمه فابهم (م) فقال « **عم** » ثم بينه فقال ﴿ **عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون** ﴾ ثم بين الحق سبحانه وتعالى قبل أن يتكلم في ذلك النبأ الحيثيات التي توجب على من يسمعها أن يؤمن بذلك النبأ إيماناً مستدلا عليه بالمشاهد التي يراها في الكون الذي يحيط به ، لأنها مشاهد تتضمن لفاعلها قدرة ، وعلماً ، وحكمة ، وغاية . فقال : ما الذي يدعوهم إلى أن يتساءلوا تساؤل إنكار أو تساؤل ارتياب عن النبأ العظيم ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات ألفافاً** ﴾ فإذا كان الحق يقول : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً** ﴾ وما عطف عليه من النعم التي تدل على القدرة في الخلق ، وعلى الحكمة في التنسيق . معناه لو لم نفعل هذه الأفعال لكان من الممكن أن يتساءلوا ويستعجبوا عن يوم الفصل أما وأننا قد فعلناها ، ولا يوجد مدع آخر يدعي أنه فعلها ، وهي واقعة لا محالة ، فكان من الواجب على العقل الإنساني حين يستقبل هذه النعم الضخمة أن يصدق أن الذي خلق ذلك الخلق قادر على أن يجمعهم ، وأن يعيد أجسامهم ، وأن يحاسبهم عما قدموا من عمل ، وإلا كان ذلك الخلق عبثاً يستوي فيه من عمل صالحاً ، ويستوي معه من عمل سيئاً . بل قلنا أن من عمل سيئاً يكون أحظ ممن عمل صالحاً . لماذا ؟ لأنه أطلق لنفسه العنان ، فأخذ حرية نفسه في حياته . وصاحب المذهب الصالح قيد حركته ، وقيد سلوكه وأتعب نفسه . إذن فإذا تساوى هذا بهذا في أنه لا بعث ، ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب ، يكون الشرير قد أخذ حظه من الخير .

لذلك جاء بعد أن ذكر هذه الحيثيات ، وقلنا أن الحق سبحانه وتعالى في إيراد حيثية أو دليل على حكم من الأحكام ، إذا كان الحكم أمراً غيبياً لا يدخل في نطاق الحواس ، يستدل الله سبحانه وتعالى عليه بشيء محس ، الكون المحيط بنا محس ، ونعم الله لا تحصى . إذن فحين يقول : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾

يكون قد قدم الحيثيات على صدقه في هذه القضية . وقلنا أن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ ولم يقل : إن يوم الفصل كان واقعاً كما هو المطلوب لأنهم يتشككون فيه ولكنه قال : (**ميقاتاً**) حتى يبين لنا قضية يجب أن نعتقدها ، هو أن الحق لا ينفعل بمعصية المخلوقين ، ولا ينفعل بكفرهم لأن مقتضى أن يخلق ثم يكفرون به أنه يجعل لهم الحساب ، ولكن الله لا ينفعل ، بل كان أمر عنده بميقات . يعني لا يغضبه الخلق بكفرهم ولا بمعصيتهم ، غضباً يتعجل موقفهم في الحساب ، لأن ذلك الانفعال من صفات المحدثين .

﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ أي له وقت ، فلا ينفعل الله ليعجل على الكافرين بذلك يوم الحساب . لأنهم استهزءوا وقالوا : « **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** » فكان الحق يقول : أنا لا أنفعل بكم ، ولا أنفعل لتصرفكم فأعجل الوقت أو الحساب عن الموعد الذي قدرته . الموعد الذي قدرته وجعلته توقيتاً ليوم الحساب هو ، آمنتم أم كفرتم .

﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً . للطاغين مآباً** ﴾ وقلنا المآب هو المرجع . صحيح سنرجع إلى الله ، لكن كلمة مرجع ومآب تدل على أن الإنسان يعود إلى شيء كان فيه « **للطاغين مآباً** » وهل هم كانوا هنا ثم ذهبوا وعادوا ؟ لا . . هذه بداية فكيف يكون مآباً ومرجعاً . . ؟ لا . . الإنسان في وجوده الكوني يأخذ فترة فيها اختيار بين قهرين : القهر الأول أنه كان عدماً مملوكاً بالقدرة . وبعد ذلك يخلقه الله بصفة فيها اختيار ، ثم يعود إلى قهر تملكه القدرة وحدها . فكان مآباً أي مرجعاً لقهر لا رأي لهم فيه . فكما أنه لم يكن لهم رأي في زمن ميلادهم وفي تكوينهم ، وفي خلقتهم ، وفي أخلاقهم و و . . إلخ ، لأن سلطان القدرة مسيطر عليهم ، فكذلك سيصيرون إلى يوم لا قدرة لهم فيه ، ولا اختيار . فكأن الإنسان في كونه الحياتي بين قوسين من القهر : قوس أول ، وبعد ذلك تأتي فترة الاختيار المخلوقة لله فينا ، ثم بعد ذلك يأتي القوس الثاني قوس القهر ليس لنا فيه اختيار . إذن فذلك هو المآب .

﴿ **للطاغين مآباً . لابثين فيها أحقاباً** (أي خلوداً) **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً** ﴾ وقلنا إن عظمة الاستثناء هنا في (إلا) ماذا تفيد ؟ تفيد

أولا لونا من التأميل يؤمل فيه الإنسان أن يخرج من العذاب ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً** ﴾ فبعد ذلك يسمعون (إلا) فساعة يسمعونها يقولون فيه استثناء من ذلك العذاب ، ولكنهم يفاجأون بأن الاستثناءمن ذلك العذاب ، إلى عذاب أشد وقعا .

﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً** ﴾ هذا باب عند العرب يجعلون هناك شيئا اسمه الذم بما يشبه المدح ، أو المدح بما يشبه الذم . تقول فلان كريم إلا . . ساعة يسمح الإنسان (إلا) هذه يظن إنك ستأتي له بصفة مثلبة ، بصفة نقص . تقول : فلان كريم إلا أنه لأن إلا للإخراج ، وتخرج عما قبلها فساعة ما تسمع (إلا) تفهم أنه سيجيء صفة مخالفة مثال . يقول : فلان كريم إلا أنه شجاع . فكأنك بحثت لتستثني شيئا فلم تجد إلا صفة مدح أخرى تلصقها به . ولذلك يسمون هذا المدح بما يشبه الذم . لأنك ساعة ما تسمع (إلا) تظن أنه سيذم ، فإذا بك تُفاجأ أنه جاء بصفة مدح أخرى . هنا يظن في (إلا) ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً** ﴾ ساعة ما يسمعوا (إلا) يظنون أنه سيجيء هبة رحمة ، أو نسمة رضى . وبعد ذلك يقول : ﴿ **إلا حميماً وغساقاً** ﴾ والحميم هو الحار ، والغساق هو الصديد . فانظر يبقى لا ينقذون من هذا إلا إلى شيء أشد منه .

﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً . جزاء وفاقاً** ﴾ كلمة وفاقا ، لكي تمنع العاطفة الحمقاء التي تحدث لبعض الناس عندما يسمعون عذابا يصب على إنسان ، الرحمة الحمقاء تتحرك وتقول : هذا عقاب قاس . يقوم : الحق سبحانه وتعالى يعرض الأسباب الموجبة لذلك العذاب . يقول : لا تظنوا أننا أسرفنا في عذابهم ، بل ذلك الجزاء موافق لما فعلوا ، وموافق لما قدموا . ﴿ **جزاء وفاقاً** ﴾ لكن قال فيما يأتي بعد في جزاء المتقين ﴿**جزاء من ربك عطاء**﴾ إذن ففي الشر ﴿ **جزاء وفاقاً** ﴾ على قدر ذنوبهم ، لكن في إعطاء الخير قال جزاء وعطاء . والجزاء جعل على عمل ، والعطاء جعل على غير عمل . لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى ، من يعمل سيئة يعطى له سيئة مثلها لكن في باب الخير ماذا يصنع ؟ من يعمل حسنة يعطى له عشرة . فحسنة تبقى أمام حسنة تبقى جزاء ، التسعة تبقى هي العطاء هنا قال ﴿ **جزاء وفاقاً** ﴾ وهنا قال : جزاء فيه عطاء ، يعني يأخذوا الحسنة

قدر الحسنة التي صنعوها ، ثم تزيد بعد ذلك التسعة . يبقى جميع بين الجزاء وبين العطاء .

هنا ساعة ما نسمع ﴿ **للطاغين مآباً لابثين فيها أحقاباً . لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً . جزاء وفاقاً** ﴾ يأتي الحق بالحيثية التي تجعل السامع لها يؤمن تمام الإيمان أن جزاء الله لهم عدل . ما هي ؟ قال ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً** ﴾ شيئان اثنان ﴿ **كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً** ﴾ الجزاء الذي تقدم هذا استحقوه لماذا ؟ لأمرين : الأمر الأول : ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً** ﴾ كيف لا يرجون حسابا ؟ لأنهم لا يؤمنون بالمحاسب أو يؤمنون بالمحاسب ولكنهم يتعجبون كيف نعود ثانية بعد أن كنا عظاما ورفاقا ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً** ﴾ إما لأنهم لا يؤمنون بالمحاسب وهو الحق ، وإما أنهم يؤمنون به ولكنهم يستبعدون أن يعيدنا . وكلمة ﴿ **لا يرجون حساباً** ﴾ هذا المبدأ إذا استقرأت كل فساد الدنيا ، وجدته ناشئا من هذه ، متى يفسد المجتمع ؟ حين لا يرجو أعضاء المجتمع أو لا يتوقعون حسابا على تصرفاتهم . فحين يكون المجتمع فيه هذه الصفة ، وهو أنه لا يتوقع حساباً على تصرفاته ، ينطلق كل في حركة حياته كما يجب ، وكما يشتهي ، وكما يهوى . إذن فالضامن لصلاح المجتمع ، هو بعينه الضامن لصلاح الآخرة . إذا كان هؤلاء حصل لهم هذا لأنهم « **كانوا لا يرجون حساباً** » إذن عدم توقع الحساب من الإنسان يجعله ينفلت في حركة حياته ، غير متقيد لا بنظام قيمي ، ولا بنظام عقدي ، لأنه لا يتوقع حساباً .

كذلك الدنيا متى يكون الفساد فيها ؟ حين لا يتوقع المجتمع حساباً . أما إذا توقع المجتمع حساباً فحين يتذكر كل إنسان أنه سيحاسب على تصرفه ، هنا ينتظم المجتمع . ومتى لا يتوقع المجتمع حساباً ؟ أما لأنه وليه أو حاكمه غافل ، لا يأخذ باله من التصرفات ، ولا يوقع حساباً على الجرائم ، المجتمع يفسد . أو لأن المجتمع لا يحاسب صاحب الجريمة ، أو لأن نفس الإنسان لا تحاسبه على ما اقترف . يبقى المحاسب، سيكون في مجتمعنا نحن ثلاثة أشياء،إما الحاكم الذي نصبه الله ليقيم حدوده فيه ، وإما المجتمع ، وإما النفس . وهذه هي التي انتهت إليها مدارس الجزاء الحديثة كلها . إلا أن هذه تمتاز بأن فيه حساب نرجوه بعد هذه

الدنيا . المدارس الحديثة الضمير . نشأت مدرسة اسمها مدرسة المجتمع الاجتماعي الدنيا : حساب الحاكم بتقنيناته ، حساب المجتمع حساب النفس . فنشأت مدرسة اسمها مدرسة الضمير . نشأت مدرسة اسمها مدرسة المجتمع الاجتماعي يعني جاءت مدرسة اسمها مدرسة الحاكم . يبقى الرادع عن الجرائم ثلاثة أشياء في قانون هذه المدارس : الحاكم المسيطر ، ثانياً المجتمع . ثالثاً النفس .

نقول : ثلاثة الأشياء هذه أيضاً القرآن ، أو المذهب العقدي الإسلامي لم يهملها لكن ما رأيك فيمن يحتاط للجريمة بحيث لا تقع عليه عين الحاكم ، ولا عين المجتمع ، إن لم يكن فيه وازع من نفسه يقول له : لأن إن عميت على قضاء الأرض ، فلن أعمى على قضاء السماء . تبقى إذن العاصم النهائي القوي الذي يستوعب كل هذا . هو أن يعتقد الإنسان أنه محكوم أمام عين خبير لا تخفى عليه خافية ، لا أستطيع أن استتر عنه ، وإنني مردود إليه قطعاً ليجازيني ، فهبني أفلت من جزاء المجتمع ، ومن جزاء الحاكم ، وضميري تبلد ، ماذا يكون الموقف ؟ الموقف أنه لا يكون عاصم من الشر ، ولا من الفساد إلا وازع الدين ، والإيمان بالله رقيب ، وحسيب. ولا تخفى عليه خافية ، وإني لا محالة واقف أمامه . هذا يجعل الإنسان لا يفكر في الشر مجرد تفكير . لكن الحاكم أو المجتمع أو الضمير ، من الممكن أن يتفلت منها الإنسان .

إذا نظرنا إلى ﴿ **لا يرجون حساباً** ﴾ وجدناها قضية تنصرف ، الذين لا يرجون حساباً في الآخرة يفسدون الفساد الأصيل من القمة كفراً بالله إلى أصغر الصغائر . أما في الدنيا فأيضاً الفساد لا يتأتى إلا إذا كنا لا نرجو حساباً . هب أن مجتمعاً من المجتمعات وجد فيه حاكم ، إلا أن الحاكم غير عادل ، ومعنى غير عادل أنه يخص طائفة بأنه لا ينفذ عليها القوانين ، وطائفة ينفذ عليها القوانين . . بالله إذا رأت طائفة ينفذ عليها القوانين ، طائفة أخرى لا تنفذ عليها القوانين ، ماذا يكون موقف المجتمع ؟ المجتمع سيختان يختان يعني ماذا يعمل ؟ يقول : أنا أستتر بالجريمة ما أمكن . إذن لما الرسول قال : هلك من كان قبلكم بأنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد هذا هو الذي يعمل تفسخاً في

المجتمع . كذلك إذا كان الحاكم غافلا ، ليس له عين يقظة . يقول : ومن الذي سيريني للحاكم . إذن يأتي الفساد .

المدرسة الأخلاقية الاجتماعية ، الحق سبحانه وتعالى يقول فيها : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله** ﴾ أترك هذه لأنها وازع ديني والمؤمنون يعني الجو المحيط بكم . هذا الجزء يفسد يقول لك : خذ المعين الذي في نفسك . هناك يقول : ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من النادمين** ﴾ ما معنى ذلك ؟ يعني أن بعدما أرضى نفسه بعار الجريمة وقتل أخاه ، تنبه فيه شيء فندم . . يقول القرآن ثانياً : ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ . . ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ واحد يشفي نفسه بأن ينم على إنسان ، أو يشي به وشاية . هو أرضى نفسه صحيح لكراهيته لذلك الإنسان ، ولكن حين تقع العقوبة على ذلك الإنسان ، ماذا يحدث له ؟ نفسه تؤنبه ، هذه هي مدرسة الضمير . لكن الضمان الذي فوق مدرسة المجتمع ومدرسة الحاكم ومدرسة الضمير ، هو الضمان الديني ، الذي يعتقد فيه الإنسان يرجو حساباً من إله خبير يعرف كل شيء ، إذن فقول الحق : ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً** ﴾ علة لفسادهم ، علة لكفرهم ، علة لاستهزائهم ، علة لوقوفهم من محمد ﷺ موقف الصد وموقف العدوان وموقف الاضطهاد . كل هذا ناشىء من ماذا ؟ من ﴿ **كانوا لا يرجون حساباً** ﴾ .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذاباً** ﴾ هنا تلاحظ أن ﴿ **كذاباً** ﴾ هذه جاءت في موضعها تشدد الكذب لم يقل : وكذبوا بآياتنا تكذيباً ، أو وكذبوا بآياتنا كذباً . كل هذه لغات فيها . لماذا قال : ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذاباً** ﴾ هنا في هذا البحث نجد أن كلمة (كذاباً) مصدر زمان مثل التكذيب . ويقولون : أن هذه لغة أهل اليمن . الرجل اليمني سأل سؤالاً في الحج فقال : أيهما أفضل الحلق أم القصار ؟ يعني الحلق أم التقصير . إذن فالفعال جاء بمعنى المصدر الذي هو التفعيل . قراءة أخرى ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذاباً** ﴾ والمرء ينفعه كذابه . أيضاً موجودة. وجاءت قراءة ثالثة ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذاباً** ﴾ جمع كاذب مثل فساق جمع فاسق . لماذا لأنك كون تقول : كذب فلان فلاناً . تكذيب فلان لفلان لا يجعلك تلقي

اللائمة على من كذب لأن من الجائز أنه يكون صادقاً في التكذيب هذا . واحد قال خبراً أمامك ، فأنت كذبته في الخبر ، أليس من الجائز أن يكون تكذيبك هذا صح ، بقى أن تقول كذبوا بآياتنا . وهل صدقوا في ذلك أم كذبوا ؟ لا . . كذبوا ثم ترك مصدرها لنفهمها . وبعدين قال : ﴿ **وكذبوا كِذاباً** ﴾ أو ﴿ **وكذبوا كذاباً** ﴾ لأنه تكذيب شيء لشيء لا يعني أن المكذب صادق . يصح أن تكون أنت صادق في تكذيبه . فقال : لا . هم غير صادقين ، هم كذبوا . ويبقى مصدرها مكذوب تكذيباً ولم يصدقوا في ذلك بل كذبوا في ذلك التكذيب كذاباً . يبقى راجعة لفعل غير المذكور . يبقى مصدر المذكور محذوف . كأنه قال كذبوا تكذيباً . وهل هم محقون في ذلك التكذيب ؟ هب أنك كذبت من أتى بخبر كاذب هل تذم على هذا ؟ لا . . كذبوا بآياتنا وكذبوا في ذلك كذباً . وكذبوا في ذلك كذاباً . يبقى أنا أريد حاجتين : أنه أخبر أنهم كذبوا بآيات الله ، ثم حكم على تكذيبهم بأنهم كذبوا . يبقى هنا حاجة يسموها في اللغة (احتباك) . وهو أن يكون عندك جملتين اثنتين كل جملة لها ركنين . فتحذف من الجملة الأولى ركناً ، وتحذف من الجملة الثانية ركناً ، لكن الركن المحذوف في الثانية دليل له في الأولى والمحذوف في الأولى فيه دليل له في الثانية . مثلا : الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة** ﴾ كان المقابل فئة تقاتل في سبيل الشيطان . هذا هو المقابل في سبيل الله . كأن نص الآية : فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وفئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان . لكن القرآن مبني على الأسلوب العالي من البلاغة . فحذف كلمة (مؤمنة) من الأولى ، واستدل عليها بمقابلها في الثانية ، فقال : ﴿ **فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة** ﴾ تبقى كان الأولى (مؤمنة) أخذنا مؤمناً من أين ؟ من مقابل لما ذكر في الثانية ﴿**وفي سبيل الله**﴾ . ما دام بالعكس تبقى الثانية تقاتل في سبيل الشيطان تبقى في سبيل الله ذكرت في الأولى ، وحذفت كلمة مؤمنة . وجاء في الثانية فجاء بكلمة كافرة لتستدل على مؤمنة الأولى . وجاء في الأولى (**في سبيل الله**) لتستدل في الثانية على أنها في سبيل الشيطان . يبقى ﴿ **فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة** ﴾ حلها محل معنى : فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان .

فحـذف (مؤمنة) من الأولى ليستـدل بهـا بمقـابلهـا في كـافـرة . وحـذف هنـا في سبيــل الشيــطان ، ليستــدل عليهــا بمقــابلهــا فــي سبيــل الله هــذا يسـمــوه احـتبــاك . الاحـتبــاك أيـضــاً يجـيء في صــورة واضـحــة في سـؤال حـصــل من الكفــار للنبي وجـدل بينهمــا وبين بعض أم يقــولــون افتــراه (يعني افتــرى القـرآن) . . قـل ﴿ الله يلقن رسولـه الجـواب ﴾ قـل إن افتـريتـه فعلي إجــرامي (إن كـان مفتـريحـاً لا قـدر الله يبقى عليـه إجـرامـه هـذا كـلام صـح أو لا) وأنــا بريء مما تجرمون يبقى هم مجرمون لماذا ؟ هذا الكلام في أنك افتريته إن افتريته فعلي إجرامي ؟ وهم عندهم إجرام ؟ ليس عندهم إجرام ما دام هم قالوا أنت افتريته وبعدين يقول : أنا إن كنت افتريته فعلي إجرامي ، كان المفروض وأنتم برءاء . إن كنت افتريته فعلي إجرامي وأنتم برءاء . ما المقابل وإن لم أكن مفترياً له ؟ فعليكم إجرامكم وأنا بريء أليس معناها هذا ؟ لأنهم يدعون أنه افتراه . فالتشقيق : إما أن يكون قد افتراه ، وإما أن يكون لم يفتره . فإن كان قد افتراه ، يبقى عليه إجرامه ، وهم برءاء وإن لم يكن قد افتراه يبقى هو بريء وهم مجرمون . لكن الآية لم تجيء هكذا ﴿ إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون ﴾ دلت على أن المقابل محذوف فكأن الآية قالت إن افتريته فعلي إجرامي وأنتم برءاء . أنتم برءاء في الثالثة هذه من أين أخذتها ؟ من مقابلها (وأنا بريء) . وإن لم أفتره . فأنا بريء وأنتم عليكم إجرامكم . يبقى هنا اسمه احتباك . حذف من الآية الأولى نظير ما وجد في الثانية ، وحذف من الثانية نظير ما وجد في الأولى . كذلك هنا سميه احتباك نقول : وكذبوا بآياتنا تكذيبا . وكذبوا في ذلك كذباً أو كذابا . جاء بالفعل من الأول وترك المصدر . وجاء بالمصدر الثاني وترك الفعل . قال : وكذبوا هذا هو الفعل لكنه لم يأت بتكذيب . وفي الثانية أتى بالمصدر ولم يأت بالفعل ، فحذف من كل شيء ما يقابله من الآخر وهذا ما يسموه احتباك .

﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ ونحن نعلم أن الكذب عدم مطابقة الكلام للواقع . لأنه لما يتكلم الإنسان بأي نسبة من النسب لنسبة الكلامية التي لم ينطق بها إلا بعد أن دارت في ذهنه ، وكانت نسبة ذهنية ، فإن كان لها واقع قبل الكلام ، وقبل التفكير نسميها خبراً ، وإن كان واقعها يأتي بعد الكلام نسميها إنشاء . إذا قلت :

زيد مجتهد . قبل أن تنطق بهذه الكلمة وجد خارج وهو زيد وموصوف بأنه مجتهد سواء نطقت بالنسبة أو لم تنطق . لكن لما تقوله له : اجتهد يا زيد ، فالاجتهاد واقع بعد النسبة الكلامية ، لكن في الخبر الاجتهاد واقع قبل النسبة الكلامية . فإن قلت النسبة الكلامية مطابقة للواقع يبقى هذا صدق وإن كانت مخالفة للواقع يبقى هذا كذب .

إلا أن هناك استشهدوا بآية من القرآن وهو يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ ماذا قال المنافقون ؟ ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله** ﴾ لكن ربنا قال إن المنافقين كاذبون . إنهم قالوا إنك لرسول الله كيف يكونوا كاذبين ؟ هل هو ليس رسولا ؟ يبقى إذن هم قالوا جملة موافقة للواقع فكيف سماهم الله كذابين مع أنهم قالوا : ﴿ **إنك لرسول الله** ﴾ ؟ ﴿ **إنك لرسول الله** ﴾ قضية صادقة . لكن الله سماهم كاذبين . ﴿ **والله يشهد أن المنافقين لكاذبون** ﴾ مع أنهم قالوا : ﴿ **إنك لرسول الله** ﴾ .

نقول لا أنت أخذت متعلق الفعل وتركت الفعل . هم لم يقولوا . إنك لرسول الله فقط . هم قالوا ﴿ **نشهد أنك لرسول الله** ﴾ فالتكذيب في قولهم (نشهد) لأن هذه ليست شهادة ، لأنه كلام من لسانهم لم يصادف إيمانا في قلوبهم . فالتكذيب ليس لقولهم ﴿ **أنك لرسول الله** ﴾ بل لقولهم ﴿ **نشهد إنك لرسول الله** ﴾ . إذن فالتكذيب لا لقولهم ﴿ **إنك لرسول الله** ﴾ ولكن لقولهم ﴿ **نشهد إنك لرسول الله** ﴾ لأن الشهادة هي أن يقول اللسان قولا مطابقا لما في الضمير ، وهم غير مؤمنين بذلك وقالوها بألسنتهم . يبقى إذن الكذب هو مخالفة الخبر فلا يستدل بتناقض هذا في قول الله : ﴿ **والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ مع أنهم قالوا ﴿ **إنك لرسول الله** ﴾ نقول : لقد جئت بجزء مما قالوه ، لم تجيء بكل ما قالوه . هم لم يقولوا : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا إنك لرسول الله** ﴾ . لا . . هم قالوا ﴿ **نشهد إنك لرسول الله** » فالتكذيب لا على قولهم . إنك لرسول الله ولكن على قولهم ﴿ **نشهد إنك لرسول الله** ﴾ .

﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً . وكل شيء أحصيناه**

كتاباً ﴾ . الإحصاء هو معرفة الشيء وحده ، إنما هذا العد قد يكتفى به ، ذهنيا ، فيقول المسألة ليس فقط علميا . وكتبناه أيضاً . هذا هو السبب في أنه عدل عن مصدر إحصاء . لم يقل : وكل شيء أحصيناه إحصاء . لأن (أحصيناه) يعني علمناه علما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة . . لكن العلم هذا يبقى حجة عندي أنا إنما ليس حجة عليهم . أنا أريد شيئاً يبقى حجة عليهم يبقى أحصيناه إحصاء وكتبناه أيضاً كتاباً . يبقى لم نكتف بالإحصاء ، هو العلم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة . لا . . نريد مكتوباً يكون **﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾** .

﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ يلاحظ في هذا الأسلوب أن الحق يتكلم عن الكافرين ، وعن المنكرين للبعث الذين يرد عليهم بالغيب كله . **﴿ إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميما وغساقاً ، جزاء وفاقاً ﴾** كان يصح أن يقول السياق . ليذوقوا . لكن المسألة انتقلت من الغيبة إلى الخطاب . لأن فذوقوا ، خطاب من متكلم ومخاطبين يسمعون لكن الأول كان غيبة ؟ هو يريد أن يجعل الأسلوب يشف عن المعنى شفافية مطلقة . لماذا ؟ لأن الآخرة قد يكون وهي غيب الناس تكذب بها . لكن لما تبقى مشهداً . فكأنه قال : ستواجهون بي أخاطبكم هكذا . بعد ما كان أمراً أصبح مواجهة **﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾** . لم يقل : فليذوقوا فلن نزيدهم إلا عذابا . لأن هذا يبقى خطاباً عن غائب . لكن هذا خطاباً عن حاضر . لماذا ؟ لأن يوم القيامة سيبقى يوم ماذا ؟ **﴿ لمن الملك اليوم ﴾** فكأن الذي كنتم تحدثون عنه غيباً صار واقعاً ، وصار مشهوداً ، وصرت أخاطبكم فيه ، أنا متكلم وأنتم مخاطبون ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً « وكلمة » فلن نزيدكم إلا عذاباً أيضاً تأييداً إلى ماذا ؟ لن نزيدكم إلا عذاباً ، مثل إلا الأولى . ساعة ما تسمع (إلا) تقول : فيه تخفيف . فقول : إلا عذاباً . وقلنا أن التيئيس بعد الاطماع أبلغ في النكاية . وضربنا مثلا : أن الإنسان العطشان جداً ويطلب منك كوب ماء . وأنت لا ترضى تعطيه كوب الماء . وبعد ذلك التفت وجدك أحضرت كوب ماء . كل ذلك يعطي له الأمل في أنك سترق وتعطيه كوب الماء . وتعطي له الكوب ويمسكه لكي يشرب ، فتضرب يده ويقع الكوب منه على

الأرض . لو أنك من أول الأمر لم تتحرك بالنسبة للماء كان يبقى هيناً . إنما تطمعه هذا الاطماع وبعد ذلك تيئسه . هذا بلغ في النكاية .

﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً** ﴾ وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه وتعالى أيضاً لإيلامهم أكثر إلى المقابل وهو ﴿ **إن للمتقين مفازا** ﴾ المتقون لم يكونوا مكذبين وليس لهم دخل في هذا الموضوع . ولكن لكي يكون فيه تقابل ، الغيظ موجود ، لأن هذا عذابكم وبعد ذلك يقول : ﴿ **إن للمتقين مفازا** ﴾ ولذلك دائماً الحق سبحانه وتعالى يقابل بين الاثنين إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم . يبقى إذن هذه العملية فيها نكاية أخرى . لأن النكاية على السيئة تبقى عذاباً . العذاب على السيئة تبقى عذاباً . العذاب على السيئة عذاب ، ثم تنعيم المقابل يبقى لون من العذاب الآخر . فلما يقول ﴿ **إن للمتقين** ﴾ والمتقون هم الذين يقبلون على منهج الله وأمره ونواهيه بالامتثال . هذا هو معنى المتقي . ﴿ **إن للمتقين مفازا** ﴾ هذه كلمة تطلق على عدة معانٍ: قد تطلق ويراد بها الفوز إن للمتقين فوزاً . والفوز هو بلوغ الخير المؤمل للنفس . فاز يعني بلغ الخير الذي كان يؤمله . ومفازا أي منجاة من معاطب اللفظ محتمل الاثنين . وفي الآخرة سيكون هذا وذلك . ولذلك يقول ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ . ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ لأننا سنمر ونرى لهب النار ونحن سائرون على الصراط . كوني أرى النار وبعد ذلك أنجو منها هذه نعمة ، ولو كنت سأقف على الأعراف ولا أدخل لا جنة ولا نار . فما بالك إذا ذهب هذا وبعد ذلك دخل الإنسان الجنة .

يبقى إذن ﴿ **إن للمتقين مفازا** ﴾ أي نجاة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز « إذن عناصر الفوز نوعين » أن يزحزح الله الإنسان المؤمن عن النار هذه مزية ، ولو جلس بلا نار ولا جنة . فما بالك إذا زحزحه عن النار وأدخله الجنة يبقى هو الفوز الكبير ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ يسمون الصحراء ماذا ؟ مفازة . لأن الصحراء عادة مهلكة . يمشي لا يجد عين ماء يشرب . يمشي تقابله وحوش ، سباع ، وبغته . فيسموها مفازة تيمناً يبقى لكي لا يجيء له فيها معاطب . يبقى أول درجات الفوز أن لا توجد المعاطب ، المرتبة العالية أن لا

توجد المعاطب وتوجد المحاسن ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ .

﴿ **إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعنابا** ﴾ أعطانا لوناً منها وقديماً قلنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الجنة بالأسلوب الذي وجد في لغتنا . وإلا فلقد قلنا قديماً أن الجنة أمر أخبرنا الله به غيباً . لكن أخبرنا عن أصول المسائل فيه ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ والرسول يشرح ذلك : « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » كيف يوجد في لغة الناس ما يؤدي معانيها ؟ لغة الناس كيف جاءت ؟ يوجد المعنى في الذهن أولا ثم يوضع اللفظ الذي يؤدي معناه . إذن فلا لفظ في اللغة إلا وقد سبق الذهن إلى معناه ، وإذا كانت (لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) هل عندنا في لغتنا ألفاظ تؤدي مدلول هذه الأشياء ، إن الألفاظ لا توجد في لغة الناس إلا بعد أن تتشخص المعاني في الذهن . لما تتشخص المعاني في الذهن توجد لها الألفاظ ، أما معنى لا يكون في الذهن يبقى ليس له في اللغة لفظ يؤديه . فإذا كانت الجنة (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) يبقى من أين تجيء الألفاظ التي تؤدي هذا ؟ يبقى لا ألفاظ في لغتنا لتؤدي المعاني التي في الجنة ، ولكن الله فقط أعطانا أمثالا من نعيم الدنيا . ولذلك قال ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون** ﴾ لم يقل الجنة التي وعد المتقون . (مثل) والمثل معدل أيضاً ﴿ **أنهار من ماء** (معدل) **غير آسن وأنهار من ماء** (معدل) **لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى** ﴾ والخمر لا غول فيها ، حتى رغم أنه يقول إنني أعطي لكم مثلا فقط ليس حقيقة ما في الجنة : أيضا معدل في المثل .

﴿ **إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا** ﴾ أعطانا لوناً في البيئة العربية كان الذي عنده حديقة أو بستان أو حائط كان حاجة كبيرة . وكلمة (حدائق) والحديقة هي البستان المسور . تقول : أحدق به . يعني التف حوله وأحاط . يبقى حدائق يعني بستان مسور . تسويره هذا دليل على ماذا ؟ دليل على متعة الخصوصية . في لذة الجنة متعة الخصوصية . متعة الخصوصية هذه ربنا أعطانا الرمزية لها فقال « حدائق » ولذلك حتى في النعيم الآخر يقول ﴿ **حور مقصورات في الخيام** ﴾ مقصورات . وفي مكان آخر ﴿ **لم يطمسهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾ كان فضل الله يسع لأن يعطي

كل إنسان خصوصية ، هذه الخصوصية يستدل عليها بماذا ؟ بقوله « حدائق » ذات أسوار وبعدين جاء بأمتع ما في الحدائق وهو الأعناب . عندما يجيء لنا في القرآن لفظ له نظير في الدنيا ، لا نأخذه على ذلك النظير ، بل نأخذه على مقياس زمنها . يبقى عنب دنيا وعنب آخرة . خمر دنيا وخمر آخرة ولذلك يقول ﴿ **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ أيضاً يعطي لها وصفاً يخلعها من مسألة الدنيا .

إذن فإذا سمعنا أن هناك نعيما في الجنة يوجد مثله أو من نوعه نعيم في الدنيا ، فيجب أن أقيس لا بمقياس التساوي الذي أعرفه ، ولكن بمقياس الزمن الموجود فيه ، يبقى عنب جنة وعنب دنيا . ولذلك يقول ﴿ **وأتوا به متشابهاً** ﴾ وبعدين ﴿ **كلما رزقوا من ثمره رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل** ﴾ . نقول : يخيل لك أنك رزقته من قبل ، كله وانظر ستجده ليس هو .

ما الحكمة في أنه يجيء به على هيئة ما نحن فيه في الدنيا ؟ كان يجيء بأشياء ليست مثلها في الدنيا ؟ لأن ألف النفس للأشياء هو الذي يشجعها على تناولها . فأنت إذا ذهبت إلى مكان من الأماكن ثم وجدت فاكهة لم يوجد في بيتك مثلها أتقبل عليها ؟ . لا . . الأول تتهيبها. إذن فمجيئه مشابهاً لفواكه الدنيا أو لنعيم الدنيا لك على أن يتناوله بدون غضاضة وبعدين لما تتذوقه قول أنه غير الآخر تماماً . إذن فمعنى أنه يأتي من جنس ما يكون في الدنيا ، لأنه لو جاء من غير جنس الدنيا ربما زهدت النفس فيه . لأنها لا تعرف ما شكله فمجيئه على شكل طبيعة ما في الدنيا يجعلك تقبل عليه . التفاح أكلت التفاح في الدنيا وكان حسناً مثلا عنب أكل العنب في الدنيا . لكن لما تقبل على أكله تجده أطعم وأحسن . ولأنه لو لم يكن متشابهاً لما في الدنيا ربما قلت أن ذلك اللون من الفاكهة هو طبيعته هكذا جميلا حتى لو وجد في الدنيا لكان بهذا الشكل . إذن لكي يعطيك تنظر يقول لك : هذا بتاع الدنيا وأنت أكلته ، وهذا عنب أو جاء لك بشيء جديد لم يكن في الدنيا تقول هذا اللون من الفاكهة أو من النعيم هو بطبيعته هكذا لو كان وجد في الدنيا يبقى هكذا أيضاً . فإذا هذا عملته ، أن يكون من جنس ما في الدنيا أن يكون مختلفاً .

فإذا حدثت مثلا في الجنة حور عين . الناس يقولون : هل المسألة جنسية ؟

لماذا تهرب من الواقع إن هذه هي أمتع ما وجد في الحياة من متع النفس ، إنما أنت لا تتصورها بواقع العملية أو بمقدمات العملية ، أنت متصورها بنهايات العملية . قبل ما تحصل منك العملية تبقى هي ألذ حاجة ويبقى فيه جنان . وساعتها تبقى في جنان وبعدين إن استقذرت شيئاً فبعد أن تذهب فورتك . فالمستقذر هي في ساعة الفورة ، كان محبوباً . إذن الأول المقدمات محبوبة ، لا شك . واقع العملية محبوب ، فماذا يجعلها قذرة ؟ ما يأتي بعدها . هذه هي منغصات هذه اللذة في الدنيا . مثلما نزع من خمر الدنيا منغصاتها ، سينزع من هذه العملية أيضاً منغصاتها تبقى ليس فيها المنغصات التي تقرفك وتتعبك و و . . إلخ .

يبقى إذن لا تقيس المسائل دائماً على واقعها في الدنيا فإذا قال الحق سبحانه وتعالى « وكواعب أترابا » لا تقول هل الحكاية أصبحت جنسياً . ومن العجيب أن الذي يقول لك : هل الجنة يبقى فيها هذا الكلام الفاضي ؟ هم أسبق الناس على هذه المسألة في الدنيا . شيء عجيب . لماذا تنكرونها . هي متعة في مقدماتها ، وفي واقعها متعة ، إن كنت تستقذر منها شيئاً فبعد ذلك . لماذا لا تقول : إن الله سيسلب مستقذراتها كما سلب مستقذرات الخمر تجعلنا نهلوس . الخمر تصدعنا . الخمر تعمل كذا وكذا قال : لا . . خمر الآخرة ﴿ **لا فيها غول ولا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ . إذن فالشيء المقزز ، أو الشيء الذي ينفر منها مرفوع عنها ، فقل كذلك في هذه المسألة التي تتعلق بالعملية الجنسية . لا تفتكر أن العملية الجنسية ستبقى مقززة ، نقول : لا كل شيء مسلوب منه لا ينفر عنه ولا يزهد فيه .

﴿ **إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا** ﴾ طبعاً نحن نفهم كواعب يعني الكعاب من النساء هي البنت التي لا يزال ثديها يشبه الكعب يعني لم يتهلهل وعمل كالقربة التحت ، ما زال ناتئاً . هذه الكعاب . يعني نهديها لم يتمرمطا وكواعب وأتراب ومعنى أتراب ، الترب هو المساوي في السن . يعني لكي لا تزوغ هكذا ولا هكذا . المسائل كلها مثل بعضها .

﴿ **كواعب أترابا . وكأساً دهاقا** ﴾ كأس مفهوم أنه وعاء الخمر كأس دهاق ممتلئة صافية متتابعة . كأساً مزاجه كافورا . . كأس مزاجه زنجبيلا . . ألوان متعددة .

وكأساً دهاقاً لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا لماذا لا يسمعون لغواً ولا كذاباً ؟ لماذا لا يسمعون لغوا ولا كذاباً ؟ لأن أصل اللغو هذا إنما ينشأ من ذهاب العقل . وهذه لا تذهب العقل ، لن يخرف ولا يهرج قالوا : وما في ذلك من المتعة ؟ لأن المستفيق لا يفرح باللغو دائماً إلا اللاعن . إنما إنسان يسمع أناساً يلغون وهو في منتهى عقله وفي منتهى اتزانه يتأذى من اللغو أو لا يتأذى . وانظر الدقة قال: ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً** ﴾ لم يقل : لا يقولوا هم لغواً . لا يجيء لهم حتى من خارجهم لماذا ؟ لأن المجلس كله إن كان بعد الكأس تفهم أن الكأس هذه تعمل العملية إياها . يقول : ﴿ **لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً** ﴾ .

﴿ **جزاء من ربك عطاء حسابا** ﴾ عرفنا ما معنى جزاء ؟ أن الجزاء أجر على عمل، والعطاء هبة بلا عمل . كلمة حساباً هذه تقدح في العملية ، حساباً يعني بالحساب ، مع أنه سيعطي من غير حساب . . لا . . أنت تأخذ كلمة حساب على الشائع أن معناها لازم عندما تأتي لكلمة في القرآن لازم تنظر ما مدلولاتها اللغوية كلها ؟ الحساب كما يأتي للعد ، يأتي ويقصد منه المحاسبة ، يأتي ويقصد منه من أحسبه الشيء ، وأحسبه يعني الشيء والنعمة جعلك تقول حسبي . يعني بلغ الكفاية . يبقى ﴿ **جزاء من ربك عطاء حسابا** ﴾ يبقى ليس بالحسبة ، يبقى من حساب الذي هو أحسب الشيء فلاناً يعني غمره حتى قال : حسبي .

﴿ **جزاء من ربك عطاء حسابا** ﴾ وبعد ذلك انتقل إلى وصف آخر بعد أن ذكر أحوال الكفار وأحوال المتقين انتقالا من ﴿ **جزاء من ربك عطاء حساباً** ﴾ قال : ولماذا لا يكون منه ذلك وهو ﴿ **رب السموات والأرض. .** ﴾ هو المالك المتصرف . ولما يعطيك لحد ما تقول : حسبي هذا كفاية علي ، ليس هناك قوة فوقه تقول له : لماذا عملت هكذا ؟ لأنه لا يسأل عما يفعل ولأن موقف الإنسان لحساب نفسه على تصرف لماذا يحاسب نفسه على تصرف ؟ يقول لك : لماذا أعملت هذه ؟ لأن أخذه بنفس ما عنده . لكن عطاء ربنا لا ينقص ما عنده . فما دام لا ينقص ما عنده يبقى الحساب لماذا ؟ ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما** ﴾ ثم يأتي بالوصف المناسب للإنعام ودوامه فقال : الرحمن رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً . إذن فالقهر كما قلنا : القوس الأول قوس القهر في الخلق،

جاء قوس القهر أيضاً في الحساب لا يملكون منه خطاباً . لماذا لا يملكون منه خطاباً ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الدنيا جعل فيها أسباباً هو خالقها أيضاً ، ولكن الإنسان قد يغفل بالسبب عن المسبب . يبقى الأسباب هي التي أمامه دائماً . لكن في الآخرة الأسباب ممنوعة . الإنعام كله من المسبب مباشرة وما دام من المسبب مباشرة يبقى ليس مثل الكفار الآن يأخذون خير ربنا ويبذر البذرة ويحرث ويروي ويعمل كل حاجة وبأقل . نقول : لا . . المسألة ليس فيها وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبينك من أسباب . المسألة أصبحت في القدرة المباشرة ، وفي (كن) ما دامت المسألة هكذا يبقى لا أحد يملك من أحد خطاباً . ليس منكم ؟ لا . من الذين ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ وإذا كان مثل الملائكة يوم يقوم الروح (الناموس) الذي كان ينزل على الأنبياء جبريل والملائكة صفاً لا يمتلكون مع أنهم ماذا ؟ لم يعملوا معاصي ، إنما مهابة الرب إجلاله ، يجعلهم يقفون ﴿ **لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾ هم لم يقولوا في الدنيا غير الصواب ، أمن المعقول أن يقولوا في الآخرة غير صواب ؟ ما معنى الصواب أولا ؟ الصواب هو موافقة الحق والواقع أم لا ؟ هذا هو الصواب . لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأذن لأحد أن يشفع لأحد إلا لمن رضي الله أن تكون شفاعته مقبولة يبقى « وقال صواباً » يعني لأنه لا يشفع إلا بإذن الله ، ولا يأذن الله لأحد بالشفاعة لأحد إلا وقد كانت مقبولة يعني ساعة ما يقول له : إشفع لفلان ، يبقى معناها مقبولة يبقى مجرد الإذن بالشفاعة إعلام بالقبول ما فائدتها إذن ؟ ما دام مجرد الإذن بالشفاعة إعلام بالقبول فما جدوى الشفاعة ؟ ليس لها لزوم . نقول : لا . . هذا فقط لتكريم الشافع . ولذلك يقول : عنده تقع الأشياء إلا به . فيريد الله أن يكرم منزلة شافع فيأذن له بأن يشفع وما دام يأذن له أن يشفع يبقى مضمونة . يبقى وقال صوابا لماذا ؟ لأنه لا يؤذن له بالشفاعة إلا حين يريد الله أن يشفع . ويبقى ما فائدتها إيذان بأن ذلك الشفيع مكرم عند الله سبحانه وتعالى .

﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، ذلك اليوم الحق** ﴾ اليوم الواقع الذي لا شك فيه ، أو اليوم الحق وإن كنتم أيام ممكن يبقى فيه باطل وحق ، إنما هنا ؟ لماذا ؟ لأنكم أنتم في الدنيا كنا تاركين

لكم بعض الاختيار ، يصح يعمل صالحاً ، يصح يعمل باطلا . إذن فالباطل له معايشة مع الحق . لكن في يوم القيامة ؟ ذلك اليوم الحق .

بعد أن يقول الله ذلك يقول : أنا قلت عن اليوم وعن أهوال اليوم للكافرين ، وعن نعيم اليوم للمتقين ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا** ﴾ يعني يضع مسألة إيابه لربه أمام عينيه ﴿**فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا. إنا أنذرناكم عذاباً قريباً**﴾ ما هو العذاب القريب ؟ لأن كل ما هو آت قريب ، ما دام شيء يبقى مهما طال زمنه فهو قريب . بدليل أنه يقول ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾ ما دامت آت يبقى هو قريب . وإنا أنذرناكم عذاباً قريبا . العذاب فيه عذاب بعيد قليلا ، وعذاب قريب . العذاب القريب بعد ما يموتون وبعد ذلك يشاهدون مقاعدهم وتعرض عليهم أعمالهم ويروا نوع العذاب يظلوا في عذاب إلى أن تقوم الساعة ﴿ **وأن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك** ﴾ الآية القرآنية تقول فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ما هو هذا ؟ اليوم يوم القيامة . ﴿ **وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك** ﴾ يعني قبل ماذا؟ هناك ﴿ **ادخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ متى هذا ؟ هذا في يوم القيامة . لكن يقول قبلها ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ يبقى هنا يصح نقول إنا أنذرناكم عذاباً قريباً لا يكون المقصود به يوم القيامة ، بل المقصود ما يشهده الإنسان من واقع وما يعذب به ، الذي هو في القبر ، أو يكون المراد به يوم القيامة وسماه (قريب) لأن كل ما هو آت قريب .

﴿ **إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** ﴾ ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾ . . وبعد ذلك يقول الحق ﴿ **إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** ﴾ ﴿ **ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا** ﴾ . ما معنى يا ليتني كنت تراباً ؟ معنى تراب في عرفنا أننا مخلوقون من تراب . يعني يا ليتني ظللت تراباً وعدماً ، حتى لا أكون مكلفاً وممتحناً بالتكاليف أطيع أو أعصي . ليتني كنت مسخراً مثل التراب . أو أن ذلك لأن أصل الاغواء إبليس وإبليس افتخر على آدم بأن ﴿ **خلقتني**

من نار وخلقته من طين ﴾ فكان إبليس أبو الغواية للكفار في كل هذه المسائل يقول لماذا ؟ الذي أغوى به يقول : **﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾** لم أكن متعالياً بأنني من النار ومن الكذا ومن الكذا .

فإذن قول الحق سبحانه وتعالى : **﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾** حينما يشاهد أهوال الجزاء التي عوقب بها جزاء ما أسلف في دنياه ، يقول : ليتني لم أكن مكلفاً لم أكن مختارا ، لم أكن مكرماً كإنسان . بل ليتني كنت أدنى الأجناس في الأرض ، ومسخر لله ولا أتعرض لهذا اللون من العذاب .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا دائماً من المتقين وأن يجعل لنا مآبا إليه ، وان يكفينا شر نفوسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لي أمالي وأمالكم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورتي الانشقاق والهمزة

سورة الانشقاق

أحمدك ربي وأستعينك ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ، وبعد : فقد كنا انتهينا الى بعض الخواطر حول سورة « **المطففين** ». وقلنا أن الحق سبحانه وتعالى ، استهل هذه السورة بالإخبار بالويل المحقق لطائفة من الناس ، هذه الطائفة لم توازن توازناً عادلاً بين حق الاستيفاء من الغير ، وواجب الأداء نحو الغير . . وقلنا أن ذلك هو الذي يضع الميزان الأساسي لاعتدال الحياة كلها . ففساد الحياة كله انما ينشأ من حرص الانسان على أخذ حقه كاملاً ، فإذا جاء دوره في أداء الواجب أي الحق للآخرين حاول أن يبخسهم ولو أن الناس في أي وضع من اوضاعهم من قمة الحاكم إلى كانس الشارع ، أدى هذا الميزان باعتدال لما وجد في العالم فساد أبداً .

وقلنا أن الحق سبحانه وتعالى وضع هذه السورة في الترتيب المصحفي وضعاً ينسجم مع سابقتها وتنسجم معه لاحقتها . ولكن الحق سبحانه وتعالى عرض سورة التطفيف في المكيل والموزون لأن ذلك إنما يتعرض لشيء هو قوام الحياة للنوع الإنساني .

وبعد ذلك ذكر الحق سبحانه وتعالى السبب في ذلك ، أي في الذي دفعهم الى هذا الموقف الحائر غير العادل ، في أنهم لم يظنوا أنهم مقبلون على ربهم في يوم عظيم ، لأن من طبيعة العاقل أن لا يأخذ نفعاً عاجلاً يعقبه شر آجلا أطول منه أو أضخم منه . فالإنسان في موازين عالمه يقدم الشيء ليأخذ خيراً منه ، وأطول زمناً منه ، ويقول الحق في ذلك ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون** ﴾ معنى ذلك أن

الظن وحده كان كافياً في أن يتركوا هذه المظنة ، فما بالك إذا كان يقيناً ؟

وبعد ذلك شرح امتياز الموقف بقوله ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ اي الملك له وحده ، والتصرف له وحده ، لأن الحق سبحانه وتعالى في هذه الدنيا غيب وراء أسبابه الظاهرة . ولكن في الآخرة لن توجد أسباب . يبقى هو المباشر . اننا نتناول الأشياء بأسبابها ، ولكن الأسباب ستتعطل . ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ فبعد أن كان هناك مشهديات سببية مستور وراءها القيوم الغيبي أصبح لا يوجد إلا هو .

﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ هنا ينتقل الى سبب آخر هذا السبب الذي جعلهم لا يظنون اللقاء في ذلك اليوم ، والقيام أمام الرب العظيم ، نتيجة ما ران على قلوبهم من كسب البيئات . فكأن القلب بفطرته النقية الصافية السليمة ، يمكن أن يهتدي الى منهج الحق وحده . والذي يحجب القلب عن فطرته ويستره ، أثر البيئة ، وأثر الغفلة . ويأتي الإنسان أمام شهوة من الشهوات فيغفل عن بعض المنهج ، وبعد ذلك يأتي مرة أخرى ، وتكلمنا بما شرحه الحديث الشريف في قوله : **تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً** .

﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ فكأن من حجب عن قلبه ضياء الحق سبحانه وتعالى ، ونور منهجه وتشريعه ، يجازى بأن يحجب عن صدره ذلك النور . ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ وقد يكون في ذلك إيلام نفس ، لكن النفوس حين تتبعد ، لعل قائلاً يقول : ذلك لا يهمهم ، لأن نفوسهم متلبدة . هذا الحجب الذي هو فيه إيلام للنفس ، ليس ايلاماً عضوياً فيقول ﴿ **ثم إنهم لصالوا الجحيم** ﴾ يبقى يجيء لهم بالشيء الذي يخوفهم ، لأنهم ألفوه ، وألفوا التعامل معه .

ثم بعد ذلك رجع الى الإيلام النفسي مرة أخرى ﴿ **يقال لهم هذا الذي كنتم به تكذبون** ﴾ بعد ذلك يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة عما يكون لمثل هؤلاء . فبعد أن تقدم في السورة السابقة كما قلنا : الكاتبين ، ووصفهم بحفظه وكرام الى آخره ، تكلم هنا عن المكتوب نفسه . ﴿ **كلا ان كتاب الفجار لفي سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم**

الدين ، وما يكذب به الا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ بعد ذلك جاء الحق بالمقابل : كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ، قلنا شهادة المقربين لانهم يسرون بما يرون فيه من أعمال تجعل الإنسان الذي اختار في الأعمال التكليفية منسجماً مع الجنس المكلف بالجبر دون الاختيار . **﴿ إن الابرار لفي نعيم ﴾** النعيم هو ما ينعم به الإنسان **﴿ على الأرائك ينظرون ﴾** وقلنا الأرائك هي الأسرة التي لها ناموسية **﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾** يعني النعمة التي هم فيها ناضجة على بشرتهم بحيث تدرك أن هؤلاء في نعيم . **﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾** الرحيق هو الشراب المصفى الخالي من الأكدار ، ومختوم دليل على صيانته ، وعلى حفظه ، وليس بختم عادي بل قلنا **﴿ ختامه مسك ﴾** .

ما دام الامر كذلك ، يبقى عرض الصفقة الخاسرة في الفجار ، وعرض الصفقة الرابحة في الأبرار . بعد ما تتضح الصفقتين يبقى كان يجب أن يكون التنافس على ماذا ؟ وفي ذلك **﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾** المنافسة معناها هي المغالبة على الشيء النفيس .

نافست فلاناً يعني غالبته على الشيء النفيس . أنا أريد أن آخذه ،وهو يريد أن يأخذه فكل واحد منا يجد ويجتهد في أن يحصل على ذلك النفيس . او هو لون من مجاهدة النفس ، هذه المجاهدة لها غاية ، هذه الغاية بأن تلحق بالافضل في الصفات ، ان تتشبه بهم ، من غير أن تلحق الضرر بالغير . يبقى أن المنافسة التي اجتهد وأجد لأظفر بشيء ظفر به فضلاء . بدون ان الحق ضرراً بالآخرين . وبذلك تختلف المنافسة عن الحسد. ، لان مراتب التمني في الخير : اولاً واحد يرى واحد في خير فيغيظه أن يوجد ذلك في الخير ، وان كان هو في خير ، وهو في ضرر ذلك الخير يعني غني يغيظه أن واحداً آخر يغتني ، هذه هي الصورة الاولى . ففقير يرى واحداً . غنياً تنوعت الصفة . الموقف هنا يتطلب أنت تتمنى مثل ما معه ؟ أم تتمنى أن يزول ما عنده ؟ اول مرتبة أن يزول ما عنده ، ان شاء الله أفضل فقير مثله . هذه مرتبة دنيئة . أو تتمنى أن الذي عنده يزول ويجيء ذلك ، أو تتمنى أن تكون مثله . لكن كل ذلك لم يتعد التمني . التمني كما يقول الادباء: بضاعة الحمقى .

كونك تتمنى الاشياء دون أن تعمل للوصول الى الأشياء ، يبقى هذا عمل الحمقى الذين ليس عندهم همة ، ليس عندهم طموح . . المنافسة غير هذا . لماذا ؟ لان المنافسة التي جاءت في القرآن بصدد عرضها ، منافسة في شيء ، من الممكن ان يأخذ المتنافسون جميعاً حظهم منح ولا ينقص . في أمور الدينا ، فيه خير محدود ، هذا يريد أن يأخذه ، وذلك يريد أن يأخذه ، بحيث اذا أخذه هذا لم يظفر به الثاني . تقوم تتمنى أن تأخذه منه وهو لا يأخذه لكن المنافسة في الذي عند الله . ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ فليتنافس ، وأنت ستأخذ وأنا آخذ . حظك لا ينقص حظي وحظي لا ينقص حظك . اذن تلك أشرف ألوان المنافسة . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . يعني عندهم طموح للمعالي . لا يتنافسون فيما يمكن كما قلنا ان يتركك او تتركه ، لاننا قلنا ان نعيم الدنيا هذا فيه أمر ضروري للانسان أما يترك ذلك النعيم وينتهي منه ويموت ، او يتركه النعيم . انما هناك لا تفوته ولا يفوتك . يبقى هذا التنافس الذي على أصله ﴿ **وفي ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ .

ثم يعود بعد ذلك الى كلام عن الرحيق المختوم وختامه مسك فيقول ﴿ **ومزاجه من تسنيم** ﴾ المزاج هذا ايضاً القرآن يخاطب العرب على ما كانوا يألفون . الناس الذين كانوا يتعاطون الشراب ، نوعين : نوع يشرب ليغيب عن الوجود . وواحد آخر يريد أن لا يغيب يأخذ فقط ولكن لا يغيب فهذا اللون الثاني كان يشرب الشراب ليس صرفاً ، ولكن يمزجه بشيء . وقد يجيء الواحد ويطلب شراباً صرفاً مرة وممزوجاً مرة أخرى ، حسب حالة النفس ، يعني عنده هموم أو أكدار يقول : هاتها لي اليوم صرفاً . . ويوم آخر يأخذها ممزوجة بشيء من الماء يعني تخف حدتها قليلاً . الاثنان الشعراء تكلموا فيهما مثل :

ان التي ناولتني فرددتها قتلت ـ قتلت ـ فهاتها لم تقتل

يعني قتلت بالماء ، يعني ذهبت حدتها وشربتها بالماء ، أنا أريدها لم تقتل ، أريدها صرفة صاحية . كلتاهما جلب العصر . فأعطني بزجاجة ارخامها للمفصل يعني أريد حاجة تجعلني طينة خالص . اذن القرآن لما يجيء يجيء على الصورة الآتية ﴿ **ومزاجه من تسنيم** ﴾ لكي يعطي أنها من النوع الذي يمزج مع أنها ليس فيها ، تسنيم هذه عادة فيه التي اسمها العلاقة الاشتقاقية ومعناها أن الاشتقاق له أثره

تجمعها لفظ السنام مثلاً عندنا سنمت مثلاً أثرت التراب ، حتى جعلته كسنام البعير ، يعني أعلى شيء فيه فمزاجه من تسنيم ما معناها ؟ يعني من أكمل شراب في الجنة .

وبعد ذلك أراد أن يشرح التسنيم قال ﴿ **عيناً يشرب بها المقربون** ﴾ لكن كلمة تسنيم هنا تجعلنا نقول : النبع عادة والعيون تأتي من أسفل ، فكأن هذه ستختلف في شكليتها ، وستجيء من أعلى ، ونحن عادة نشرب الماء في كؤوس ، ان العين هذه نفسها لا تعرف صورتها كيف ستجيء ؟ العين لا تشرب منها ، بل تشرب بها ، فكأن الظرف هو عين المظروف صورة لا نقدر نتخيلها الآن . المهم انها صورة عجيبة لا توجد أبداً في مشاهدنا ولا في مخيلاتنا . وما دام عندنا القاعدة ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ قلما تجيء لنا صورة العقل يقف فيها ، تقول : ان وقفة العقل فيها هو دليل تميزها . وقفة العقل في كيفيتها وصورتها هو دليل التميز . أو ان الحق سبحانه وتعالى أراد بقوله يشرب بها المقربون ان المهم ليس هو الشرب . لأننا لن نشرب في الآخرة عن ظمأ ، ان المهم هو التلذذ ، كلها مسألة تلذذ انما عن حاجة ؟ لا . . لن نأكل عن حاجة ، ولا نشرب عن حاجة . ويشرب بها ، كأنه قال : تنبه ان يشرب هنا معناها يتلذذ ، فأعطانا يشرب ، وجاء بـ (بها) لكي ينقلنا الى معنى التلذذ ﴿ **عينا يشرب بها المقربون** ﴾ بعدما نقل لنا هذه الصورة والصورة المقابلة ، الى آخره واتضحت المسألة عندما أنتقل الى معنى هو في الواقع غير مادي ، لأنه ليس متعلقاً بالاقتيات .

المطففين والعملية الأخرى كانت متعلقة بالاقتيات المادي ؛بعد ذلك تعرض الحق سبحانه وتعالى الى صورة من الصور الايذائية التي كان يتعرض لها المؤمنون . انما التعرض كان نفسياً ، ليس مادياً يتحكمون في أقواتهم او يسيطرون عليهم بدليل قوله ﴿ **اذا اكتالوا على الناس** ﴾ سيطرة وجبروت واحتكار . . . الخ في أقتياتهم . . لا . . انه سيعرض صورة معنى نفسي ثان وهي معرض ماذا ؟ السخرية ، الكفار كانوا بقوتهم ، وجاههم ، وسيطرتهم ومنعتهم ، وعزتهم أمام المؤمنين في ضعفهم وفي قلتهم ، وفي فقرهم وفي رثاثة حالهم ، وعدم القدرة على الدفاع عن أنفسهم ، كان الكفار في موقف المستغل . والمستغل عادة يهزأ

ممن دونه ، فالحق يريد أن يعطينا صورة ، فيقول : حتى هذه ، حتى غمزة العين استهزاء نحن نراها ونعرفها . لما ترى واحداً معذب بسببك ، ومعذب فيك ، ومؤلم ، وبعد ذلك تقول له : أنا عارف أنهم يعملون فيك كذا ويعملون فيها كذا تعدد ما يحدث له منك دليل على انك معتبر له ، وعاد له وبصير به . فذلك لون من ادخال الطمأنينة على النفس . فساعة ما يجيء الكفار يضحكون من المؤمنين ، وبعد ذلك المؤمن يعرف ان الضحكة التي ضحكها الكافر القوي من المؤمن الضعيف هذا ، أو غمزة بعينه أو لمزة ، أو حركة من حركات الاستهزاء والسخرية والتهكم عندما يعرف المؤمن أن ربه يرى هذه وذكراها وعادها ، هذا وحده يعزيه عما يكون بصدده . لماذا ؟ لان الذي سيجازي يراها وعادها ومعتبرها . وقال لي عليها في الدنيا .

* * *

وبعد ذلك حينما قال : ﴿ **ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون** ﴾ اولاً قابل أجرموا بآمنوا لكي تعرف أن الجريمة العظمى ، أو الخيانة العظمى خيانة الكفر. ﴿ **كانوا من الذين آمنوا** ﴾ هنا الاسلوب فيه لفتتان اثنتان: اولاً كلمة كانوا هذه تدل على ان اخبار الحق بهذه الصورة اخبار عن شيء كان وانتهى زمنه . معنى ذلك ان هذا الامر الذي يقع بكم أيها المؤمنون من استهزاء هؤلاء وضحكهم سيصير مدلولاً عليه بكانوا . لما كان يقول : ان الذين أجرموا ضحكوا ، او يضحكون من الذين آمنوا . يمكن ضحكوا قبل وسيظلون يضحكون ايضاً . فيجيء بـ « كان » التي هي للزمن الماضي على أنه لفعل لن يكون باستمرار . فهذا ايذان وتبشير بأن هذه الحالة ستنتهي ، وأن الكفار سيعودون الى رشدهم الايماني ويرجعوا ويجيئوا مؤمنين وتنتهي هذه الحالة ، هذا في الدنيا ، لكن لما قال ، لم يقل ضحكوا أو لم يقل يضحكون ومن كانوا ، وانما كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، يريدون استحضار الصورة . ومعنى استحضار الصورة . ان الفعل المهيج او المقزز ، ساعة ما تحكي عنه انه مضى . صورة وقوعه الايلامية تنتهي . لكن لما تحب تبشعها تستحضرها حالة وقوعها . فلو قال : ضحكوا يمكن الصورة تبهت . انما يضحكون . فكأن الاسلوب أراد شيئين : أراد أن يدل على أن

هذه حالة لا تدوم وانها حالة أصبحت في عداد الماضي . ولكن الحق يريد أن يستحضر لنا للصورة التجددية في الفعل لأن استحضارها خير ، بل استحضرها عياناً . يضحكون .

هذه لها نظير كنا تعرضنا اليه مرة ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا أنؤمن بما أنزل إلينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله** ﴾ مع أن القوم الذين جاء القرآن لخطابهم هذا لم يباشروا قتل الأنبياء . كان يقول : فَلِمَ قتلتم ، أو قتل أباؤكم . انما قال : « فلم تقتلون » ليستحضر الصورة البشعة التي كانت أيام يلقون أنبياءهم فيقتلون . إذن فالأسلوب القرآني هنا بـ (كان) و(يضحكون) لكي يعطينا شيئين اثنين ﴿ **كانوا من الذين آمنوا يضحكون** ﴾ونحن نعرف أن الضحك انفعال من المفارقات ، هذا الانفعال لا يصنع لأنك لو سألت الناس ما ماهية الضحك لن يستطيع أحد أن يعبر عنها . ما هي الاعضاء التي تجعل الانسان يضحك ؟ لا يقدر أحد أن يعرفها . اذن نحن لا نعرف ما هو الضحك ؟ ولا ماهية تكوينه ؟ ولا ما هي الاعضاء التي تنفعل له ؟ ولا ما هي الحالة النفسية التي تجعلك تضحك ؟ .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول هذه من خصوصياتي ﴿ **وأنه هو أضحك وأبكى** ﴾ ولا يمكن أبداً علماء في وظائف الاعضاء لكي يقولوا الانسان كيف يضحك ؟ والإنسان هو الخاص بهذه الظاهرة في الضحك والبكاء ﴿ **وأنه هو أضحك وأبكى** ﴾ يجيء بها في المسائل التي مثل الموت والحياة ﴿ **وأنه هو أغنى وأقنى** ﴾ يجيء بها في الخصوصيات دليل على أن هذه المسألة لا يمكن للعقل البشري انه يتسامى ليعرف ما هو كنه الضحك ؟ ومدام لا يقدر يتسامى ويعرف كنه الضحك هو ماذا ؟ انما يعرف متى يضحك ؟ ولا يقدر يتحكم ان يضحك الآن او يبكي الآن والا يبقى معروفة ولذلك وضع له في اللغة لفظ يقول : فتضاحك ما معنى تضاحك ؟ يعني أظهر عمليات الضحك العضوية التي يقدر عليها هذه ؟ انما هو في الواقع ليس ضحكاً .

فتضاحكن وقد قلن لها ... حسن في كل عين من تود

تضاحكن يعني تكلفن الضحك ، يسمونه التهافت يعني كأنك تجيء بضحك من عندك .

يقول : انهم لا يتضاحكون ، ولكن يضحكون ، فكأن هذه العملية ليست اختيارية منهم ، انما ناتجة للانفعال النفسي الموجود عندهم، ليس انفعالاً نفسياً يضاد وأنت تتضاحك وتجيء بانفعال جديد ؟ لا . . فكأن السخرية من المؤمنين اصبحت ملكة وطبيعة وجبلة بحيث لا نقول فيها : انهم يتضاحكون ، بل هم يضحكون انظر الران ماذا عمل فيهم ، يعني المسألة انعجزت تماماً .

﴿ **ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون** ﴾ اطلق الضحك ، وجاء عند المرور وأتى بالتغامز عملية غمز العين . لماذا ؟ لتشعر من معك ومن من صنفك انك تهزأ ، ولا تحب أن يعرف ذلك من تهمزه . والا لو كانت المسألة تبقى حاجة واضحة .

اذن فكأن صورة الضحك كانوا اذا جلسوا مجالسهم الخاصة ولو لم يمر بهم المؤمنيون ، يعملون حكايتهم مادة سمر . وساعة ما يغمزوا يقولون : هؤلاء هم الذين كنا نتسامر في سيرتهم . فجاء بصورة مشهدية وصورة غيبية . الصورة الغيبية هي : كانوا منهم يضحكون في مواجهتهم أو في غير مواجهتهم كأنهم أصبحوا مادة للضحك . وبعد ذلك اذا مروا بهم يتغامزون . هنا المفسرون قالوا : ﴿ **واذا مروا بهم** ﴾ الضمير في (مروا) والضمير في «بهم» أين يعود ؟ أولاً الإسناد في الفعل الأول ﴿ **أن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون** ﴾ فقال الضاحك هم الذين أجرموا ، والمضحكون منه هم الذين آمنوا « واذا مروا » من الذي مر ؟ لسياق الأسلوب يبقى المجرمون مروا بمن ؟ ويصح أن يكون المؤمنون هم المارون . سياق الاسلوب يدل على ان الذين ضحكوا هم مروا﴿ **وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين** ﴾ أو أن يكون الاسلوب قد بدأ بالضمير أجرموا ، وبعد ذلك جاء بالضمير للمستهزىء به ثم رجع يقولون : مسألة ان الضمير يعود على شيء وبعد ذلك يعود على شيء آخر ، شيء مألوف كثيراً في القرآن . يعني مثلاً ﴿ **واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً** ﴾ طيب نفس عن نفس . عندي كم نفس الآن ؟ نفسان . لا تجزي نفس هي النفس المجازية ، عن نفس هي النفس المجزى عنها يعني لا يجزي الولد عن أبيه . يبقى اذن فيه نفسان اثنان : نفس جازية ، ونفس مجزى عنها . مرة يجيء الضمير للنفس الأولى ، ومرة يجيء الضمير للنفس الثانية

فيقول : ﴿ **ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة** ﴾ ومرة يقول لا تنفعها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ، ولذلك يجيء الاسلوب بما يناسب عودة الضمير ـ مرة يعيد الضمير على النفس الأولى ، لا تجزي نفس التي هي الفاعل ومرة يعيد عن النفس الثانية التي هي مجرورة بـ (عن) اذن سواء كان هذا او هذا ، فإن المجرمين ضاحكون مستهزئون ايضاً ذاهبون الى أهلهم فرحين . ومعنى ﴿ **واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين** ﴾ دليل كما قلنا أولاً في عملية الضحك إن هذه غريزة فيهم ، لأن الانسان مرة يريح نفسه قليلاً بأن يعمل شيئاً مخالفاً للآداب مع أي انسان وبعدما يعملها بالفعل وتذهب منه الحالة الأولى التي هي إرادة سخرية يقوم بندم يقول : يا ليتني ما عملتها ما كان يصح . حتى لوم النفس على ما فرط منها لا يوجد منهم ، بل اذا ذهبوا وانتهوا يقولون لأهلهم لقد قابلنا المؤمنين اليوم شبعنا منهم ضحكاً وسخرية ، ويستديمون منظر العملية ـ انما الذي عنده شيء من كرم النفس او بقية من كرم النفس بمجرد ما ينفس عن نفسه بالفعل ، تعود اليه بعض ما فيه من كرم النفس ، ويقول يا ليتني لم أعملها لم يكن لها لازمة ، ويندم أنه عملها لكن هؤلاء لا . . حتى اذا ذهبوا الى أهلهم يكونوا فرحين . ﴿ **واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين** ﴾ وفي قراءة «فاكهين» يعني ناعمين مبسوطين فرحين لانهم عملوا في المسلمين هذه العملية .

الحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه الصورة في الضحك بهم والغمز حين المرور ولقاء الأهل في سرور مما صنعوا بالمؤمنين ، يقول للمؤمنين تعزية لهم : ان كل هذه الأمور على مرأى ومسمع مني ، يعني معنى ذلك أنه لا تضيع حاجة . فالمؤمن لما يسمع ذلك ويعرف أن الله يرى كل شيء ويحصيه عليهم ، يقوم هو الذي يبتدي حتى في الدنيا يسخر من الذين عملوا ذلك . وبعدين يقول في الآخرة سنجازيهم مثلما عملوا . هم سخروا ، هم ضحكوا ، هم استهزأوا . . سنجيء في الآخرة ، هم استهزأوا وضحكوا ضحكاً وهزءاً لا دوام له . وسنقلب الامر . وبعدين فائدتكم أنتم أنكم لما تضحكوا أو تسخروا او تستهزئوا منهم ستبقى مسألة خالدة . يبقى من يعمل هذه العملية ، هل قدر وهل استطاع ان يثبت الكفار على ما فعلوه بكم ؟ بعدما يعرض الصورة يقول : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ هل ثوب ،

التثويب يعني المرجوع هل رجعنا اليهم فجازيناهم على افعالهم . انما كلمة ثوب هنا مثل كلمة ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ لأن الأسلوب القرآني ماذا يعمل ؟ يبدأ الأسلوب بأسلوب مطمع وبعد ذلك ينهيه الإنتهاء الميئس ، قلنا مثل : واحد عطشان لم يشرب من يومين وبعدين تلوح له بكوب ماء تأخذه له مملوء وبارد وتذهب الى عنده وتمد يدك اليه،وبعد ذلك عندما يريد أخذه تسكبه على الارض هذا الابتداء المطمع يعقبه الانتهاء الميئس يمكن لو قال لك اسقني ولم تحضر له الماء من أول الأمر أبداً ، سهلة .

كما ابرقت قوماً عطاشا غمامة فلما رأوها اقشعت وتجلت

يبقى اذن لما يقول « فبشرهم » كلمة فبشرهم هذه تعطي للنفس شيئاً من الانبساط . ومن ذلك يقول :﴿ بعذاب﴾ هذا الابتداء المطمع والانتهاء الميئس . انكى في العذاب . وأشد في الإيلام . ولذلك ﴿ وأن يستغيثوا ﴾ يقول : « يغاثوا » بماذا ؟ بماء كالمهل وهل هذه اغاثة ؟ ﴿ هل ثوّب الكفار ﴾ ثوب هذه بهذا المعنى ثوب تشعر أنها كلمة ثواب الكفار » ثوب هذه بهذا المعنى ثوب تشعر أنها كلمة ثواب بماذا ؟ لكي تشعر من يسمعها من الكفار بمقارنتين اثنتين : أنها عذاب كأن من الممكن أن يكون في مقامنا ثواب . يبقى جمعت عليه ألمين اثنين الالم الأول انك ستقل له بالعذاب ، الألم الثاني انه كان من الممكن ان يكون ثواباً له . يبقى خيبتين اثنتين ، وحسرتين اثنتين .

﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون** ﴾ هذه فتناها « وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون من هو الضال ؟ لأن فيه قاعدة ان الملاك في دولة الشياطين هو الشيطان . لأنه هو الخارج عن النظام يبقى هؤلاء ضالون أي بالنسبة لمفهوم الامر عندهم . لان مفهوم الأمر عندهم انه ليس هناك شيء الا هذه الدنيا ، فالذي ينجح فيها ويفلح هو صاحب الفلاح . وهؤلاء ما داموا اشتروا غيباً ولو يجيء يبقى هم الضالون . اذن « هؤلاء لضالون » أي بحكم مقاييسهم في الهداية وفي الضلال لا في حقيقة الهداية وفي الضلال . ﴿ **وما أرسلوا عليهم حافظين** ﴾ ﴿ **إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين** ﴾ .

أرسلوا من هم ؟ يصح ويصح . انظر ترتيب الفائدة « وما أرسلوا » يعني

كأنهم الكفار أو المجرمين يقولون ماذا ؟ أن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين . . وما أرسلوا على الذين يتكلمون حفاظاً عليهم . يعني هم لم يجيئوا يحفظونهم من عطب . انهم منكرون ان هذه دعوة رسالة . فاهمين أن هذه دعوة كذب أو افتراء . فيقولون ان هؤلاء ضالون وما أرسلوا ليحفظوا لنا قيمنا أو ليحفظوا لنا نفوسنا ، او ليحفظوا لنا منهج الحياة . او أن « وما أرسلوا عليهم حافظين » أي ان هؤلاء الذين يحكمون بضلال المؤمنين ما ارسلوا عليهم حافظين ليقوموا . ليس هم المقومون لهؤلاء . . يبقى يحتمل أن يكون المعنى هكذا وأن يكون المعنى هكذا .

« فاليوم » يعني يوم القيامة يقوم فيه الناس لرب العالمين . ويوم عظيم . . وو . . الخ ولمن الملك اليوم ؟ كل ما تؤديه كلمة اليوم ، ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ ضحك مثل الضحك ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ ماذا ينظرون ؟ لقد كان فيه مرور ذليل ، مرور مضطهد ، مرور ممقت ، فهم ينظرون الموقف ثانياً . هم الجالسون والأول في عذابهم . ولذلك قيل ان الكفار يفتح لهم يوم القيامة باب الجنة ، فيقال لهم : هلم هلم هلم . فيأتي الواحد فيغلق دونه الباب . حتى يقال للرجل منهم بعد ذلك هلم فلا يأتي لأنه عرف الحكاية ستنتهي الى ماذا ؟ هذه العملية تجعل المؤمنين يتذكرون ما كان منهم ويعقدون المقارنات .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **هل ثُوِّبَ الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ فكأن هذه أخبار يجب أن تكون مشهودة وما دام يجب أن تكون مشهودة ، لأن قائلها الحق الذي آمنتم به ، فيبقى عملية الجزاء عملية يقينية .

يلاحظ هنا في كل الذي قلناه ان الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن الكفار يتكلم بالنار وكذا وكذا ، ويتكلم عن المؤمنين بالجنة وما تكلم في السور المكية عن انه سيجيء يوم دول ينتصروا الا لماماً ، مرزيات . ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ يلاحظ أن القرآن ما كان يتكلم الا عن الآخرة ونعيم الآخرة .

هذه عملية فيها ترتيب الفائدة . كيف ؟ لأن الله لا يريد من المؤمن ان

يستقبل منهج الله على أنه سينصره في هذه الدنيا ، يزيده يطرح الدنيا هذه نهائياً من حسابه . ولذلك تجد في مبايعة رسول الله ﷺ في بيعة العقبة . ان الانصار قالوا له : فماذا لنا لو فعلنا ذلك ؟ قال هلم : لكم الجنة . لم يقل لهم أنكم ستنصرون ويكون لكم . . لأنه في وقت التربية ، تربية الجنود للمبدأ . لا يريد يدخل الدنيا هذه في حسابهم أبداً . وإن أدخلها في حسابهم بعد ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً** ﴾ صحيح لمح بهذا ولكن ليس على أن هذا هو الجزاء ، لكي لا يدخل المؤمن حكاية الدنيا هذه في منهجه ، ولا في حسابه أبداً .

لماذا جاء بعض الآيات في المدينة فيها هذا المعنى ؟ لان العقيدة تربت ودخلوا الدين على ان هذا الدين رافض الدنيا من حسابهم . ولكن لما جاء قال لهم : لا . . أريد ان انتصر عليهم ، المسألة ليست لان هذا جزاء لكم . المسألة لأن هناك منهجاً للسماء اريد ان يطبق في الارض . وأنتم مخرجون لقيادة الناس . فإن حصل نصر لا تفتكروا انني اريد ان اجازيكم على إيمانكم . فكأن ما يحدث لكم من الغلبة ومن الفتح ، ومن النصر ليس ثمناً . لماذا ؟ لأننا ربيناكم على أن هذه الدنيا مطروحة من حساب المؤمن فلماذا لما يقولها في الناحية الثانية يقولها لكي تفهموا أننا انما نصرناكم لماذا ؟ لتحملوا منهج الله الى كل الأرض ولتكونوا ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾ فحين يربى المؤمن على أن الدنيا ساقطة من حسابه يدخل المعركة الايمانية وليس في باله الا هذه الغاية وما دام ليس في باله الا هذه الغاية ، الناس تستذل بماذا ؟ استذلوا بحاجتين اثنتين : اننا نكره الموت ونحب الدنيا . فقط . . كل انواع الاستذلال أننا نكره الموت ونحب الدنيا . ولذلك قيل ما الوهن يا رسول الله ؟ قال : عندما يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الاكلة الى قصعتها قالوا : أمن قلة يا رسول الله ؟ قال أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل . وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . قالوا : ما الوهن يا رسول الله . قال حب الدنيا وكراهة الموت . ساعة تحب الدنيا وتكره الموت ، ركبك خصمك استذل الانسان .

اذن الحق سبحانه وتعالى يريد بهذا العرض أن يخفي مسألة الدنيا من حساب

المؤمن وانه أن طلب منه أن يكون قوياً فيها ، أعلى ، عزيز ، فذلك ليس لأنني اعطيك الجزاء ولكن لأن لـك دوراً في الدنيا أحب انك تؤديه . لتكون ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾ ليس لقصدك أنت .

هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون . .

وبعد ذلك .

يصل بنا السياق الى سورة الانشقاق .

﴿ **إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، واذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، واذنت لربها وحقت يا أيها الانسان أنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه فأما من أوتي كتابه بيمينه** ﴾ كلمة ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه** ﴾ أعطتنا العلاقة كما قلنا لأن الأعمال لها كتاب ، والكتاب يكتبون في كتاب . السورة الأولى تعرضت للمعنى الأول والسورة التي بعدها تعرضت للمعنى الثاني فما هي نهاية هذه الكتابة ؟ ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه** ﴾ . . ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره** ﴾ تبقى هذه هي العملية النهائية . اذن ترتيب السورة تنسيقاً ماشي .

هنا يلاحظ أننا حينما نأتي نجد أيضاً شروطاً ، ومصدرة بإذا الشرطية، **إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت. واذا الأرض مدت،وألقت ما فيها وتخلت، وأذنت لربها وحقت ، يا أيها الانسان إنك كادح** » نلاحظ هنا أنه لا يوجد جواب شرط مثل جوابات الشرط التي هناك﴿ **إذا الشمس كورت،واذا النجوم انكدرت**﴾ الى آخر اثني عشر شرطاً ﴿**علمت نفس ما أحضرت**﴾ هذا هو الجواب . وفي سورة الانفطار ﴿ **إذا السماء انفطرت ، واذا الكواكب انتثرت ، واذ البحار فجرت ، واذ القبور بعثرت**﴾ ماذا يكون ﴿ **علمت نفس ما قدمت وأخرت** ﴾ . ﴿ **اذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، واذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت ، يا أيها الإنسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ ليس فيه جواب للشرط ومعنى ذلك أنه لما تقدمت سور عرف منها جواب الشرط ، حذف هنا جواب الشرط استغناء بما ذكر في نظيره . وتلك ظاهرة في القرآن حتى يقبل الانسان على قراءة النصوص بتدبير وبتمعن . نلاحظ مثلاً ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين** ﴾ بعدين يقول : لكي يحكموا بين الناس فيما

اختلفوا فيه تقول ما دام كان أمة واحدة ليس فيه اختلاف فلماذا سيجيء الانبياء لكي يحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ؟ إنك قلت كانوا أمة واحدة اليس معناها هكذا ؟ تقول : هذا دليل على انك لم تستوعب قراءة القرآن لا تحكم على نص ابداً إلا أن تبحث على نظائره في القرآن لأن مرة بحذف من نص ما يوجد بديله في نص آخر . ألا تقرأ ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا يبقى إذن ، فبعث الله النبيين** ﴾ ليست معطوفة مثلما تعلم على الأولى ، إنها معطوفة على محذوف مقدر والمحذوف المقدر هذا له قرينة . دلت إذن ﴿ **لتحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ يبقى إذن « كان الناس أمة واحدة » وبعدين اختلفوا وبعدين بعث الله النبيين ليحكموا بينهم . اذن الحذف من اللفظ جائز . فهنا مر هذا اللون .

أو أن الحق سبحانه وتعالى لما أعطانا ألواناً متقدمة من جواب الشرط في نظير اذا ، اذا كذا واذا كذا لأن هذه كلها من ماذا ؟ من الانقلاب الذي سيحدث يوم القيامة . كل اذا هذه انقلابات ، ثورة في الكون ، تدمير ، زلزلة ربنا أعطانا نماذج من الذي سيحصل ، فلما أعطانا نماذج ووضع يدنا عليها ، الجواب يكون ماذا ؟ ترك لنفسك أن تأتي أنت بالجواب ، وبعد ذلك أبهمه لكي تذهب فيه نفسك كل مذهب ، لأن التحديد يضع الحقيقة في صورة واحدة ، والابهام يجعل كل واحد يأخذ الصورة الانفعالية التي تحلو له .

اذن معنى ﴿**إذا السماء انشقت** ﴾ الى آخره ﴿**وأذنت لربها وحقت**﴾ كان ما يهول الفكرة . أو كان ما يغير نظام العالم الذي ألفته . أو كان ما يحدث حين عرض الناس على ربهم تبقى أنت عندك عينات من جواب الشرط . وهذا ينبهك ويظل ذهنك مستعداً . . أو أن ﴿ **يا أيها الإنسان** ﴾ نفسها هي الجواب أو ﴿ **فأما من أوتي كتابه** ﴾ هي الجواب . ﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾ ماذا يحصل ؟ أخذ كل كتابه « **فأما من** أوتي كتابه بيمينه» يحصل له كيت ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره** ﴾ يحصل له كيت . فوزع الشرط في الطرفين . كأنه يقول :﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾اذا حصل هذا ، وحصل هذا ، وحصل هذا ، يأخذ المؤمنون كتبهم بايمانهم ، ويحاسبون حساباً يسيراً، ويأخذ الطرف المقابل كتابهم وراء ظهورهم ويحاسبون حساباً عسيراً فكأنه حينما شقق في الشرط وجاء منه مجموع الشرط وبعد

ذلك جاء في التمهيد هذا بـ ﴿يا أيها الإنسان﴾ مثل هناك كلمة الانسان التي جاءت ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ هي تمام الانسان ، يعني يا أيها المخلوق الذي في أسمى تكوين ، اذ أمدك الحق سبحانه وتعالى بالفكر ، أمدك بالمعاني أمدك بالروح التي لها تحليق ، أمدك بكل هذه الأشياء وما كان يجب أن تقف هذا الموقف . وأنت أيها الانسان ﴿ كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ .

اذن ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ كما سبق أن قلنا ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ﴾ ، السماء انشقت كيف تنشق ؟ بأي شكل ؟ هذه ليس مهماً نعرفها ، المهم أنها ستخرج عما الفنا ، تنتهي الى أمر لم نعهده . تخرج عن رتابتها . يخرج الكون كله عن الرتابة المعهودة فيه .

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وبعد ذلك انظر التعبير ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أذنت عملية الانشقاق الأذن أولا هي آلة الاستماع ، والاستماع نوعان : النوع الأول ، أن تستمع ، وأنت حر بعد ذلك في أن تطيع وأن تعصي . ومرة أن تستمع وليس لك خيار في أن لا تطيع ، يبقى المستمع قسمين . مستمع له خيار ، ومستمع لا خيار له . فالمستمع الذي له خيار يقدر يقول :﴿ سمعنا وعصينا﴾. أنما الذي ليس له خيار ، لا يقدر ﴿ أتينا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ الكلام عن من ؟ عن السماء ﴿ إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها ﴾ أذنت هذه معناها استمعت . اذن يعني استمع .

صم اذا سمعوا خيراً ذكرت به   وان ذكرت بشر عندهم أذنوا

يعني استمعوا . يبقى معنى اذن استمع ، لأن الأذن هي آلة الاستماع . هل السماع ممن يسمع ، وله خيار في أن لا يستجيب ؟ أن هذه هي الخاصة بالانسان . الانسان قسمين : قسم مسخر فيه ، وقسم محير . يسمع ، ويصح أن يطيع ويعصي . انما المسخرات هذه التي ليس لها خيار . في أن تخرج عما أمرت به بمجرد الاستماع يبقى انصياع يبقى ﴿ اذا السماء انشقت وأذنت ﴾ أي واستمعت . معناها انقادت . انما بمجرد ما سمعت ليس لها خيار . وحق لها ذلك . لماذا ؟ لأنها استمعت مما لا تملك معه خيار . ومن القادر على انفاذ ما يراد منها . يبقى لما يقول : «أذنت» أي انقادت يبقى تفسير بالأمر النهائي . انما اذن يعني استمع . بعد ذلك استمع فأطاع هذا موضوع آخر .

يبقى ﴿وأذنت لربها﴾ استمعت لربها ، ومدام الاستماع من السماء والسماء لا خيار لها في أي أمر ، بل هي مسخرة مجبورة «مقهورة» ، على تنفيذ ما يراد منها ، يبقى مجرد السماع كاف . أذنت بالنسبة للأرض وبالنسبة للآمر وهو الله ، يبقى معناها انقادت لمراده ، وحق لها في ذلك . يعني هي حقيقة وجديرة بذلك ، لأنها ليس لها اختيار مع خالقها . مخلوقة على هيئة الانضياع ، والامتثال انشقي ، انشقت .

﴿ إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، واذا الأرض مدت ﴾ ما معنى مدت ؟ العرب عندهم عبارة كانوا يقولونها : مددت الأديم . ساعة يكشطون الجلد عن الذبيحة ، عن الشاه أو غيرها يتركوه لكي ينتفعوا به مثلما يدبغه ليكون مصلى أو مقعدة لما كانوا يدبغوه على الطريقة البدائية يتركوه للشمس فيتقلص ، معنى تتقلص يحصل فيه ما نسميه (كرمشة) . الكرمشة هذه نتوء ، الكرمشة هذه لما تجيء بشيء مبسوط باتساع كبير ، فلما تجيء وتكرمشه تقلل حيزه فاذا فردت الكرمشة هذا يمتد ، لأن الكرمشة أخذت ارتفاع وانخفاض ، فلما تمتد ينبسط ويتسع . كان الحق سبحانه وتعالى يقول أن الجبال ستكون كالعهن المنفوش والأرض تمتد النتوءات والعلويات ستنبسط . مثلما شرحتها آية أخرى ﴿ فيذرها قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴾ وبعد ذلك تبقى مدت واتسعت لكي تسع المحشر كله لأنها ستسع الناس وقوفاً . ليس وقوفاً لضيق الملك ؟؟ لأن هذا هو المقصود أننا نكون واقفين لا نستريح أو نجلس الى أن يجيء دورنا .

﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت ﴾ يعني حق بها ذلك ، أو حق لها ذلك ، أو حق الله لها ذلك بما خلق فيها من قوة الانصياع والانقياد ﴿وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ﴾ الأرض ألقت ما فيها من القبور يعني الأموات طلعوا ، أو الكنوز أو الدفائن أو آخره . وكلمة (وتخلت) وتفيد ماذا ؟ الاحتياط في العملية جداً ، مثلما تجيء أنت وواحد يفتشك . . فتقلب له الجيب . ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ وأيضاً ﴿وأذنت لربها وحقت ﴾ مثل السماء تماماً ﴿ يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ عرفنا الانسان ومقوماته العليا ، وما ميزه الله به فيه الخلق . فماذا معنى كادح هذه ؟ الكدح هو مجاهدة النفس في أمر من الأمور

مجاهدة يظهر أثرها المادي فيها . يعني مثلاً الذي يعمل عملاً بيده ، ماسك فأساً ، أو ماسك حبل الدلو . أو يشدّ حاجة على كتفه ، فيجهد نفسه اجهاداً لدرجة انك ترى الخدوش التي تجيء نتيجة عملية الاجهاد . لأن معنى هذه أنك حملتها عملاً لا تطيقه طبيعتها حتى تخرج عن طبيعتها . أليست هكذا ؟ فهذا اسمه الكدح .

الشاعر يقول :

وما الدهر الا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

يكدح يعني يتعب في الحياة تعباً يبدو أثره على نفسه . النبي لما مسك اليد التي فيها الندوب ماذا قال ؟ . قال : (تلك يد يحبها الله ورسوله) . . لماذا ؟ لأن هذا دليل على أنه كدح في العمل كدحاً لكي يكسب لقمة بعرقه ، لقمة حلال . فقال : أنت أيها الانسان سواء كنت كافراً أو مؤمناً كادح الى ربك كدحاً . يعني غايتك الى ربك ، من أول بدايتك أي غايتك الى الله كلها كدح . لكن فرق بين من يكدح في أمر ، ومن يكدح في أمر مقابل له . ماذا تكون النتيجة ؟ الاثنان سيكدحان : هذا كادح في طلب الدنيا ، وفي الاقبال عليها . وفي اللهو وتاعب نفسه . . وهذا أيضاً كادح لكن في طلب الآخرة ، ويحمل نفسه مشقات ، ويقف أمام شهوات نفسه ، ويتعرض لكذا وكذا وكذا ، اذن فذلك كادح وذلك كادح .

﴿ **يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ أو أن الحق يريد أن يعطينا صورة من أنك عمال تكدح من أجل لقاء الله ، لا تفتكر ربنا سيجرك بالحبل وهكذا . لأنك أنت عمال تجاهد من أجل اللقاء . فكان اللقاء أمر لا مفر منه ، أمر حتم ، ومشوارك في الحياة هو جري وراء ذلك الأمر . ﴿ **انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ وما دام كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ، يبقى اذن ملاقيه هذا عندها تحدد المواقف الجزائية ان كنت على وفق ما أحب سيلقاك اللقاء الكريم ويلقاك نعيمه ، وان كان والعياذ بالله على المنهج العناد يبقى سيلقاه بعذابه .

اذن يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً يعني أنت صائر الى ربك لا محالة سواء بكدحك في حياتك الدنيا على أنها وحدة ليست لها غيرها ، أو على أنك تكدح للآخرة ، فالاثنين في كد ونصب ، وستجيء سورة ثانية يقول : ﴿ **لقد خلقنا الانسان في كبد** ﴾ لكن كبد متعلقة الدنيا وكبد متعلقة الآخرة .

﴿ **يا أيها الإنسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ معنى ذلك أن كلنا سنعرض للحساب . هذا منطق العدل منطق العدل أن كلنا سنحاسب ، لأن ليس فيه أحداً أبداً صفحته خالية لكن الحساب سيكون نوعين حساب لعرض ذلات الانسان ، يقول هذه وهذه وهذه لكن أنا غفرتها . ولذلك النبي قال للسيدة عائشة : (**ذلك العرض ، ولكن من نوقش للحساب عذب**) . . . .

يبقى الخوف ليس من الحساب ، الخوف من مناقشة الحساب . إنما أنه يعرض عليَّ علشان نعمة الامتنان بأنك أنت عملت وأنا تركت لك كذا وتركت كذا . مثل «عفا الله عنك لم أذنت لهم» يبقى هذا اسمه عرض ، هذا اسمه الحساب اليسير .

﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب الى أهله مسروراً** ﴾ هذاهو السرور ، ليس السرور الأول ﴿**وإذاانقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين**﴾ هذا هو السرور . . ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره** ﴾ توجد آية في سورة الحاقة تقول : «بشماله» انما هنا﴿**وراء ظهره**﴾ ونحن قلنا التوقيتات دائماً عند النصوص تجيء بالتوفيق الذي يكون جامعاً ، يعني بجمع الصورتين بأخذه بشماله من وراء ظهره . خجلان حتى من الذي يناوله الكتاب . شيء يكسف . أما أن يكون عدم المواجهة هذه منه خجلاً وحياء ، وأما أن يكون الذي يعطي قرفان منه . اذن فالصورتين الاثنتين تعطيان له الكتاب من وراء ظهره لا يريد أن يرى شكله ، المطلوب .

﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبوراً** ﴾ الثبور والعياذ بالله هو الهلاك ، ومعنى يدعو ثبوراً يقول له : يا هلاك تعالى لي . طبعاً الشعراء لما صوروا هذا المعنى قالوا : الذي يقول يا هلاك يا موت تعالى لي يقول :

كفى بك داء . . أن ترى الموت شافياً   وحسب المنايا . . أن يكون أمانيا

يعني لما واحد لا يرى شافياً له مما هو فيه الا الموت ، يبقى معنى أن الذي هو فيه شر من الموت «ويدعو ثبوراً» واثبوراه . . وآهلاكاه : أيعني هذا أوانك

فاحضر ﴿**ليتني كنت تراباً**﴾ كل هذا من ماذا من الهول الذي يراه : ﴿**فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً ، انه كان في أهله مسروراً ، انه ظن أن لن يحور**﴾ أيضاً رجع الى الأسباب الحقيقية لهذه المواقف ، وهو ظنهم أنهم لن يرجعوا الى الله . أو أنهم لن يرجعوا عن حالتهم التي كانوا عليها ، فأهل النعيم يظنون أنهم سيظلون في نعيم . نقول :

لا . هم ظنوا هذا والأمر على خلاف ما يظنون .

أعاذنا الله واياكم من سوء المنقلب ، انه نعم المولى ونعم النصير . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سورة الهُمَزَة

في هذه السورة ينقلنا الحق سبحانه وتعالى الى قيمة أخرى من قيم الحياة، توجد في قوله سبحانه وتعالى : **بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالاً وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة . انها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة ﴾** .

هذه السورة تعطينا القيمة التي يعتد بها في ظاهر الحياة . وهي قيمة المال . وتريد أن تعطينا صورة أن صاحب المال اذا ما جاء عنده ، اختلت موازينه في تقييم الناس ، وأصبح من لا مال عنده في النازل ، والذي له مال في الصاعد . هذه النظرة الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا اليها لفتة تقوم من رأينا فيها ، فيقول الحق سبحانه وتعالى **﴿ ويل ﴾** وكلمة الويل هذه قلنا في كل مدلول لغوي ، أن يبقى لها مدلول لغوي ، وبعد ذلك يبقى لها مدلول اصطلاحي ، والمدلول الاصطلاحي الذي يعنيه ربنا هو غير المدلول اللغوي الذي نفهمه . مثلما قلنا في **﴿ القارعة ﴾** فيه مدلول مفهوم لغة ، ومدلول آخر اصطلاحي ، ولذلك لما يجيء الحق سبحانه وتعالى لكي يأخذني من مدلول اللغة ومن متعارف اللسان ، يأخذني الى المدلول عنده فيقول **﴿ وما أدراك ﴾** لعلك تدري أن مثلاً **﴿ القارعة ﴾** أو تدري أن **﴿ الحاقة ﴾** أو تدري أن **﴿الحطمة ﴾** هي في المعنى اللغوي الذي عندك ؟ لا . . ليس هذا هو المعنى المقصود بل المقصود معنى آخر .

ولذلك قال بعضهم : الويل واد في جهنم من أقسى الوديان . وحين يتوعد

الحق ، يبقى واقع أو غير واقع ؟ حين يتوعد الحق القادر على انفاذ ما يتوعد به ، يبقى أمر واقع . فكأنك يجب أن تستحضر الصورة على أنها واقعة . لأن الذي يهدد الانسان بأمر، الذي يكون شفيعاً لنفس في أن لا تعبأ بالتهديد ماذا ؟الأمر الأول أن الذي هدد لا يضمن أنه سيظل الى أن يوقع ما هدد به . الأمر الثاني أنه لا يملك أن تظل له القوة المهدد بها . الأمر الثالث أنني يمكن الى أن يجيء التهديد يقع أكون أنا أحسن منه وأقوى ، آمال كثيرة جداً . لكن إذا كان الذي يقول ﴿ ويل ﴾ ويهدد به باق ، وقادر على انفاذ ما يقول ، ولن تفلت أنت من يده . ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن هذا وعيد من صنف آخر . وعيد ممن يقدر على انفاذ ما وعد ، وعيد ممن لا تتسرب الى نفسك آمال في أنه يمكن ينتهي ، وعيد ممن لا يمكن أن تخرج عن ملكه وسلطانه . يبقى مسألة مقفلة تماماً . يبقى ليس مطلق ﴿ ويل ﴾ ليس مطلق عذاب . انه عذاب خاص ممن ؟ من الله اذن فتهديد يجب أن يصحب بمقوماته حتى يعطي الهيبة في النفس منه .

﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ بناء فعله ، الشيء الذي على وزن فعله ، يقال مثلاً : فلان ضحكة ، فلان ضحكة مرة تجيء بفتح الوسط ومرة تجيء باسكان الوسط . فالضحكة هو الذي يصدر الضحك منه على الغير . ففلان ضحكة أي يجيء الضحك من الغير عليه . وكذلك ﴿ **همزة** ﴾ وكذلك ﴿ **لمزة** ﴾ لكن يقع الحدث منه كثيراً ؟ قال : كثيراً مبالغة ﴿ **ويل لكل همزة** ﴾ ما هو الهمزة ، هو الذي يهمز الناس ، يعني يعيبهم . أما أن يعيب خلقهم ، وأما أن يعيب وضعهم الاجتماعي ، وأما أن يعيب تصرفهم . ولمزهم ، أي يأتي بالشيء الذي فيه لمز ، مرة يكون باللسان ، ومرة يكون باشارة العين ومرة يكون بتقليد الحركة . اذن فالهمزة اللمزة هو العياب . الغماز ، الذي يسيء الى الناس إما بعينيه ، وإما بلسانه ، وإما بالتعرض بحركتهم . فلان يمشي مشية فيجيء واحد ويقلده في مشيه . فلان يطلع له لسانه ، فلان يغمز له بحاجبة . يبقى هذا اسمه ﴿ **همزة لمزة** ﴾ .

انه يريد أن يعطينا الحيثية ما الذي جعله ينزل الى هذا المستوى ويعيب الناس في مسائلهم أنه فاهم أنه صنف آخر من الناس . ما الذي جعله أنه فهم أنه

صنف آخر من الناس ؟

والمال الذي عنده «يبقى» ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ ﴿ **الذي جمع مالاً وعدده** ﴾ ما معنى وعدده ؟

يعني أحصاه ، كل ساعة يطمئن نفسه على ماله مثلما يعمل البخلاء . عنده مال ، فيغلق على نفسه الحجرة ويأخذ في عد ماله . . أو ﴿ **عدده** ﴾ يعني جعله عدة له في كل شيء . من الأعداد يعني ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ أتلك الحادثة تعرضت لواحد بخصوصه ؟ قال : وان كانت تعرضت لأخنس ابن شريق أو الثاني أو الثالث ، لا يهم أن تكون في واحد مخصوص انما المهم في انطلاق المبدأ ليستوعب ما شاء له من الاستيعاب . لأنه لو أراد أن يتكلم عن شخص مخصوص كان من الممكن أن يذكره مثلاً بوصفه المعبر أو باسمه . لما تكلم عن واحد مخصوص قال ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ . اذن فهناك أمر مناط الحكم فيه الوصف ، وأمر مناط الحكم فيه الشخص . ما الفرق بين الاثنين ؟ الذي مناط الحكم فيه الوصف ، يبقى شائع في أفراد كثيرة ، لا يقيده التشخص الوصفي . انما الذي مناط الحكم فيه الشخص ليس له الا ذلك الفرد . يبقى مناط الذم ، ومناط الوعيد ليس على المشخص وانما على الوصف الذي استحق به ذلك . اذن فذلك الوعيد انما يأتي لمن اتصف بذلك الوصف ولو كان غير ذلك الشخص .

ولذلك القرآن لما يعرض قصة أهل الكهف مثلاً ، يبحث العلماء بحثاً طويلاً يقولون : ما اسمهم ؟ الأول بحثوا في العدد . وبعدين بحثوا في الأسماء . وبعدين بحثوا الزمن الذي كانوا فيه . وبعدين بحثوا المكان الذي كانوا فيه . لدرجة أنهم جاؤ وا لكلبهم باسم يعني عرفوا اسم كلبهم . واحتالوا فخرجوا عن مطلوب النص . لماذا ؟ لأن القصة لو أنها وردت في شخصين بذواتهم فلان وفلان وفلان ، ووردت مشخصة بزمانها ، ووردت مشخصة بمكانها لقدح ذلك في سياق القصة . لماذا ؟ لأن الحق يعرض علينا قصصاً نموذجياً . ماذا يعني ؟ قصص منهج الحق ، يعني حتى لو كانوا قليلين ، لا تمنع قلتهم من أن يقوموا أمام دعوة الباطل ويظلون متمسكين بالحق . بأي اسم ، بأي عدد ، في أي زمان ، في أي مكان . اذن الذي يريد أن يحدد مفهوم القصة بأشخاص ، أو يحددها بزمان ، أو يحددها بمكان ،

يقدح في مطلوب القصة من الله ، لأن الله ينصبها مثلاً للفتوة الايمانية ، التي لا تبالي بأي أسماء في أي مكان ، فيّ أي زمان فلو أنها حددت بأشخاص لقالوا : أن هؤلاء الأشخاص كانت لهم طبيعة خاصة . يبقى غيرهم لا يستطيع أن يعمل عملهم . أن خصصها بزمن يقولون : الزمن كانت ظروفه تسمح . أن خصصها بمكان : يقولون : أن هذا المكان كان . في ذلك الوقت ، ممن يقولوا . . يبقى اذن تشخيصها في أشخاصها ، في أعدادها ، في أزمنتها ، في أمكنتها يقدح في مطلوب القصة . ولكن حينما يذكر في القصة المناط فقط ، وهو الفتوة الايمانية بأي عدد كانت بأي أسماء سميت ، في أي مكان ، وفي أي زمان ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم ، هذا هو المطلوب **﴿ اذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا اذن شططا ﴾** هذا هو الوصف .

يبقى اذا رأيت قصة لها سبب من أسباب النزول فلا تعتقد أن السبب هو المنزل . ولكن السبب هو المنهج لانطلاق المبدأ . كما تحدث حادثة فردية في شيء ، فيقنن من أجلها قانون فالقانون ليس خاصاً بالشخص ، ولكن القانون في مثل من وجد في ظروف هذه القضية .

يبقى **﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾** ان كانت جاءت لواحد فكيف يأتي الحق بالتعميم فيقول **﴿ ويل لكل همزة ﴾** اذن المسألة انتقلت من شخص هو سبب في نزول القانون ، الى عموم مشخص لوجود القصة ، وهو من توجد فيه هذه الصفة . فقال الحق **﴿ ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده ﴾** يعني يظن أن ماله يعطيه الخلد طويلاً ، وذلك فهم يبعده عن واقع الحياة ، لم يظن أحد أنه يخلد ، بل كلنا كما قلنا معتقدين بأننا سنموت ، فلعل المراد **﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾** يعني أنه بلغ من قوة التبديل في أنه يبقى لنفسه ذلك المال **﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾** يعني يستطيع أن يفعل فيه فعلاً يجعل المال لا عرضاً ، لأن المال مصيبته أنه عرض يجيء ويذهب . انه يريد أن ينقل المال والغنى لا الى عرض ، الى صفة لازمة ، وهذه غير موجودة أبداً في الوجود ، لأنه عارية دائماً ، يأتي مرة ، ويذهب مرة .

﴿ **يحسب أن ماله أخلده** ﴾ ما دام ﴿ **يحسب أن ماله أخلده** ﴾ يعني سيظل هكذا ، فتعطي له طبيعة فسادة القلب لماذا ؟ لأن الذي يجعل القلب يسخو ، ويجعل القلب يخرج من شحه ما هو؟ الانسان في الأول قد يعمل لأنها من مأمورات الله ، وقد يعملها مظنة أنه ربما يحتاج مرة فيجد من يحسن اليه . وما دام هذا ذاهب وجائل ، المال يبقى لما يكون الانسان . . لكن لما يعتقد أن ماله هذا لن يذهب منه ، تظل معه قساوته ، ويظل معه شحه .

﴿**يحسب أن ماله أخلده** ﴾ على طبيعة القرآن في علاج المسائل قال ﴿ **كلا** ﴾ يعني زجراً عما يحسبه ، وعما يظنه في أن ماله أخلده . يعني ماله ترك له أن يعيش على الرأي الأول أو أن ماله سيبقى معه على الرأي الثاني . ولذلك قيل لانسان : لقد جمع فلان مالاً كثيراً قال : أو جمع العمر الذي ينفقه فيه ؟ يبقى اذن الانسان مهدد من ناحيتين : من ناحية أن يبقى المال وهو لا يبقى ، ومن ناحية أنه يبقى والمال لا يبقى ، اذن فالجهتان الاثنتان فيهما تطبيقات واقعة لا تجعل الانسان يطمئن . فقال ﴿ **كلا** ﴾ .

وبعد ذلك عرض الحق النهاية التي تناسب البداية . لأنه قال هناك ﴿ **ويل** ﴾ وويل أخذناها بتعبير الله . وأخذناها بقدرة الله على انفاذ وعيده وان عبده لا يفلت منه . قال : ﴿ **كلا لينبذن في الحطمة** ﴾ كلمة النبذ ما معناها ؟ نبذت الشيء أول ما توحى كلمة النبذ في تعبيرها الاحتقار والمهانة . أنا نبذت الشيء الفلاني . وذلك رد طبيعي على استهلال السورة بقوله ﴿ **همزة لمزة** ﴾ لأنه كان يهمز ويلمز امتهاناً ، واحتقاراً ، واستخفافاً . فتبقى تجيء أول حكاية من جنس ما قدم . ﴿ **كلا لينبذن** ﴾ وليته ينبذ ويكون حظه فقط الطرد من الحضرة ، أو من النعيم ؟ لا . . انظر الى أين ينبذ . . يبقى نبذ وفي ﴿ **الحطمة** ﴾ الحطمة هذه أول ما توحى مثل همزة تماماً . قلنا همزة الذي يجيء منه الهمز كثيراً ، وحطمة معناها أنها تحطم ، وتحطيمها قوى . لأن هذا يناسب التجميع ﴿ **الذي جمع مالاً وعدده** ﴾ يبقى المسألة ليست تفريق مال انها ستحطمه . يبقى اذن ﴿ **لينبذن** ﴾ ناسبت ﴿ **همزة لمزة** ﴾ وبعد ذلك ﴿ **الحطمة** ﴾ ناسب الجمع .

﴿ **لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة** ﴾ اياك أن تظن الحطمة أيضاً

على المعنى في كل ما أدراك ، اياك أن تظن أن الحطمة هذه الشيء الذي يحطم الشيء؟ لا . هذا مدلولها اللغوي ، انما هذه لها مدلول آخر . ﴿ **وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة** ﴾ ليس مطلق نار . ليست نار زيد أو عبيد أو نار فلان وفلان . هل كل واحد له نار؟ نعم إذا أسندت الى ﴿**نار الله**﴾ يبقى هذا دليل على أنها تأخذ ماذا؟ تأخذ وصفاً مناسباً . لأن لما رسول الله ﷺ دعا على ابن أبي جهل وقال : (أكله كلب من كلاب الله) فأكله سبع . فقالوا : النبي ، قال : كلب من كلاب الله . قال انما هو أضيف فقال : كلاب الله .. وهذا لازم يكون سبعاً وليس كلباً .

فاذا قال : ﴿ **نار الله الموقدة** ﴾ المسألة انتهت وما دام ﴿**نار الله** ﴾ يبقى ليس لأحد من خلق الله أن يحجزها لأن نار فلان يمكن يجيء فلان أقوى منه فيطفئها . تبقى ﴿ **نار الله** ﴾ ليس في مقدور أحد أنه يطفئها . وليس في مقدور أحد أن يدفع عنها المعذب بها .

﴿ **نارِ الله الموقدة** ﴾ أن النار من طبيعتها مشتعلة؟ تأكيد لاشتعالها ، وتأكيد لتأججها ﴿ **نار الله الموقدة التي تطلّع على الأفئدة** ﴾ . أنظر التعبير في « تطلع على » ما معنى ذلك ، يعني تظلّ تعمل فيه الى أن تصل الى لبه ، الى قلبه ، لماذا لقلبه؟ فكأن النار مميزة يعني جزائية مميزة فتطلع على القلب . فما كان موجوداً في القلب تعطي له من اللذع على قدر ما فيه . ﴿ **تطلع على الأفئدة . انها عليهم مؤصدة** ﴾ يعني لا فكرة في الفرار ﴿ **في عمد ممددة** ﴾ يعني عمد طويلة مربوطة . يبقى اذن نار الله ، وموقدة وطبيعتها أنها تطلع على الأفئدة ، يعني تتغلغل ﴿**إنها عليهم مؤصدة** ﴾ «فلا منجى » ﴿ **في عمد ممددة** ﴾ لا فرار منها ، ولا انفلات أبداً . يبقى ذلك هو الجزاء الذي يناله ﴿ **الذي جمع مالاً وعدده** ﴾ والهمزة واللمزة ، وتجد أن كل وصف في العذاب يناسب وصفاً في الذنب .

والله سبحانه وتعالى يتولانا ويرعانا ، ويباعد بيننا وبين هذه الصفات ، حتى نكون أهلاً لرحمته ، وأهلاً لمحبته ، وأهلاً لرضاه ، وأهلاً لجنته ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . . .

* * *

الفهرست

المقدمة ٥

* أسرار بسم الله الرحمن الرحيم ٩

* اسرار سورة الفاتحة ٤٥

* نظرات في القرآن ٦١

* عدالة السماء ٨١

* تفسير سورة النبأ ١١١

* تفسير سورة الانشقاق ١٧١

* تفسير سورة الهمزة ١٩٠

القرآن الكريم

معجزة ومنهاج

تأليف

الشيخ محمد متولي شعراوي

٢

دار الندوة الجديدة

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة الإسلام

أسرار عالم الأسباب

خلق الله الكون وسخر كل ما فيه للانسان ، أي لمطلق انسان ، لأن الله هو الذي استدعى الانسان للوجود ، وما دام هو الذي استدعاه للوجود فلا بد أن ييسر له وسائل الاستبقاء في هذا الوجود ، وذلك كما قلنا كثيراً هو عطاء الربوبية ، لأن الرب هو المربي والسيد والمالك . . ومعنى المربي : أن يتعهد من يربيه الى أن يبلغ الكمال المرجو له ، ولذلك كان من رحمة الله تعالى أن استجابت الأرض بكل ما فيها للانسان كل الانسان . . فالذي يتفاعل مع الأسباب تعطيه الأسباب ، فان كان في باله عند تفاعله مع الأسباب خلق المسبب لهذه الأسباب أخذ خطين : خط استجابة الأسباب له في دنياه ، وخط انعام المنعم عليه في أخراه .

وأما الذي يقف عند الأسباب فقط ، وينكر أنها من خلق المسبب فالأسباب تعطيه ، ويأخذ من خير الدنيا ما يعطيه جده واجتهاده ، فاذا جاء في الآخرة صور الله له المسألة بأن قال : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم** ﴾ أي تفاعلهم مع الأسباب وتطيعهم المسببات ﴿ **كسراب بقيعة** ﴾. السراب : ما يخيل لك وأنت سائر في الصحراء أن هناك ماء ، فاذا ما ذهبت اليه لم تجد ماء ، فكذلك الذين كفروا بربهم أعمالهم مثل السراب بقيعة ﴿ **يحسبه الظمآن ماء** ﴾ . الظمآن حينما يرى السراب يذهب اليه .

انظروا الى روعة التصوير الادائي : كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ﴿ **حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً** ﴾ . . اليأس بعد الأمل . هو ظمآن ، وهو في صحراء ، ثم لا يجد ماء ، كيف يوجد الأمل في نفسه بعد ذلك ؟ ولكنه أيس أن ظمأه سوف

يشفى بري هذا الماء ، ولكنه لم يجد شيئاً ، وليت الأمر اقتصر على هذه الخيبة ، ولكنه ﴿ ووجد الله عنده ﴾ . فوجىء بوجود الله . ومعنى فوجىء بوجود الله : أنه ساعة كان يزاول الأسباب في الدنيا لم يكن على باله الله ، فوجد الله الآن . ﴿ فوفاه حسابه ﴾ لأن الله لم يكن في باله ساعة عمل العمل .

والانسان عادة يأخذ أجره ممن عمل له ، وهو لم يعمل لله ، ففوجىء بأن الموجود هو الله ، وهو لم يعمل لله ، فكيف يعطي شيئاً ؟

ولكن هل حرمه الله من أجر عمله في الدنيا فقيل له : أنت ناجح ، وأنت المبتكر ، وهذا تمثال لك ، وهذه الذكرى لك ، والعالم كله أعطاه التكريم ، لأنه عمل للعالم ولم يعمل لله ، فأعطاه العالم حين وجد العالم ، وحين وجد العالم (بكسر اللام) ولم يوجد العالم (بفتح اللام) لا يجد من يعطيه ، لأن الله لم يكن في باله .

فالذين يقولون : الكفار الذين يقدمون للانسان كذا وكذا يحرمون من الثواب ؟ نقول لهم : هم لم يحرموا من الثواب ، لقد أعطاهم العالم الذي عملوا له ، أعطاهم النياشين والشهادات ، والذكريات والأموال . عملوا للعالم فأعطاهم العالم ، ولذلك يقول الرسول ﷺ في الذي يعمل العمل فلا يجازى عليه : [فيقال له : قد عملت ليقال كذا وقد قيل] ، وانتهت المسألة .

اذن فالذي يعمل للفاني فجزاؤه في الفاني ، والذي يعمل للباقي فجزاؤه مع الباقي . فالذين تعجبون بهم وبحضارتهم نقول : أعطتهم الدنيا . لكن أيليق بالمؤمن بالله أن يترك خير الله في وجوده ليغتصبه منه الكافر بالله ؟ لا . غيرتنا على الله تقتضي أن نقول : يجب أن يكون المؤمن هو الأولى بأسرار الله يستنبطها في الأرض ، فيتفاعل ، ولا يجعل الكافر يغلبه على شيء من أسرار الحياة ، لأنه ربما غلبه ، وربما جعل الغلبة فتنة له في دينه .

اذن فالكون نوعان : نوع يفعل لك وان لم تطلب منه ، فالشمس تعطيك الحرارة والدفء والنور دون أن تطلب منها ، والهواء والماء كذلك ، كل هذا يعطيك . وقسم يعطيك ان تفاعلت معه . فالأرض تقول : ان تفاعلت معي وزرعت ورويت أعطيك . غلبة الناس في أي صنف ؟ هم شركاء فيما ينفعل لهم ، يتفاوتون

فيه ، فهذا قوي لأنه يتفاعل مع شيء لم يتفاعل معه غيره ، ومن هنا يرقى ، وهناك ارتقاء بأن تتفاعل مع ما يفعل لك وان لم تطلب ، فالشمس تعطيني الدفء والحرارة ، أما اذا ارتقيت في الحركة فانها تتفاعل معك لتعطيك شيئاً آخر كمن يأخذون منها الطاقة .

فالموجودات ثلاثة أقسام في النفعية : قسم يعطيك وان لم تطلب منه ، وقسم يعطيك ان تفاعلت معه ، وقوة الناس بالصنف الثاني ، وقسم يرتقي الناس فيه وذلك بالتفاعل مع القسم الذي يعطيك وان لم تطلب منه .

والمؤمن يجب أن يعلم أن حركته في الحياة يجب أن تتواءم مع الجدوى . . انني أخرج في أول النهار فأتحرك في الحياة ، فحصيلة الحركة نسميها الجدوى أو الغلة ، يجب أن أحسب كسبت كم ، واستهلكت كم . فان كان ما أنفقته أكثر مما انتجته فاعلم أن خراباً ينتظرني وإن كان ما كسبته قدر ما انفقته فهذا جمود . . وان كان ما كسبت أكثر مما أنفقت فاعلم أن رقيا ينتظرني . فيجب على المؤمن أن يحاسب نفسه كل يوم ، ما كسبه ؟ ما جدواه في هذا اليوم ؟ فانه حينئذ يبني حياته على بصيرة .

واعلم أن الحق سبحانه يريد من حركاتك في الوجود استطراقية النفع لك ولسواك . لا يطلب ذلك منك وحدك . . فان طلب منك أن تتقن العمل الذي تعمله للناس فثق أمام هذا أنه يطلب من غيرك أن يتقن العمل الذي يعمله لك . . وإن أنت خدعت الناس في العمل الذي تعمله للناس فسيقذف الله في قلوب الناس أن يخدعوك في العمل الذي يعملونه لك . . وتستطيع أن تعطي نفسك كشفاً في كل جزئية من جزئيات حياتك ، وتقول أنا فعلت كذا وفعلت كذا باخلاص ، بنصف اخلاص ، بربع اخلاص ، وتكتب هذا . . ثم تحسب الحصيلة التي أخذت منك : ذهبت للطبيب ، فلان ضحك عليَّ ، ثم تحسب النتيجة ، تجدها تساوي .

ستخدع واحداً ، سيخدعك عشرة . فلا تحاول أن تخدع ربك . فالمسألة من يستغفل يستغفل نفسه ، من يتعب يتعب نفسه . . وزاد عليك أنك أثمت فيما صنعت .

وكذلك يعطي الله في حركة الوجود استطراقات ليمنع الغل والحسد . . إن رأيت انساناً قد تفوق عليك في شيء فربما لا يستفيد هو بل يفيد غيره . . أما

سمعت المثل «باب النجار مخلع» ؟ والحلاق الممتاز أفاد الناس وربما لا يجد من يحلق له بامتياز . فكل صاحب موهبة ستعود موهبته عليك . . مثلاً اليد اليمنى الجيدة الحركة حينما أمسك بها المقص لأقص أظافر يدي اليسرى أقصها بمنتهى الدقة ، فاذا أمسكت المقص بالشمال لأقص أظافر اليمين فانها لا تقص باتقان . . اذن تفوق اليمين عاد على الشمال . . اذن حينما ترى خصلة خير في انسان فقل : أن هذه الخصلة ستفيدني ، وخيبتي أنا هي التي تضره .

الله يريد منا استطراق الحركة في الحياة برضا واخلاص . . فأنت اذا عملت عملاً واتقيت الله فيه نقول لك : أنت تعمل هذا العمل ، ومطلوب منك الاتقان لجهتين : الأولى صاحب العمل ، والثاني الله . صاحب العمل من الجائز ألا يدرك الخلل . أما الله فيدرك كل شيء . فكل عمل ساعة تعمله تعمله لمن ؟ لله . ان كان كذلك فان الله الذي عملت العمل لأجله ، وقدرت مراقبته لك ، سيراقب لك أعمالك في يد الآخرين . . فاذا غششت في عمل غشك الف شخص .

وانظر الى الناس حولك فستجد أن الاستقامة هي الاستدامة ، وستجد من يرعى الله دائماً مكتوب له القبول والتوفيق في أشياء لا تخطر لك على بال ، وقد تعجب ، ولكن يد الله معه ، وبركته معه ، لأنه يعمل لله . . اذن حركة المؤمن في الحياة يجب أن تكون موصولاً بالله ، وما دامت موصولة بالله فالله يقدر لك الجزاء على قدر الله ، والانسان يقدر لك الجزاء على قدر نفسه ، والخلق بالنسبة له سواء ولذلك لم يتخذ ولداً ولا صاحبة فعين رعايته لنا سواء .

النعمة والبلاء

يريد الله منا صيانة لأجهزة الانسانية ألا نأسى على ما فات فقال : ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ . أعطني انساناً لا يحزن على شيء فات ، ولا يفرح بما أعطاه الله له ، هذا انسان مستقيم التكوين ، الذي مضى لا يأخذ منه ، والخير الذي ينهال عليه لا يأخذ منه ، لأنه لا يعرف أن ما آتاه هو خير أو شر . لطلب مالاً أو غيره فيعطيه ، ولا يعرف ان كان خيراً أو شراً . فالذي فات لا يرد ، والأسى هنا أضعف طاقتك عن تحمل أعباء الحياة . هذه مصيبة أخرى ،

ولكن الله يريد أن يعلمك أن ما انتهى فقد انتهى ، فلا تفكر فيه ، لأنه يضعف طاقتك في الحياة .

بهذا المنهج يرشد الله الناس الى طريقة استقبال الحياة . . واستقبال الحياة أمر طبيعي ، لوجود الانسان في مقر يضم المستقيم على المنهج والمنحرف عن المنهج ، اذن فوجود الأحداث أمر طبيعي ، وما دام وجود الأحداث أمراً طبيعياً فلا بد من المناعة ضد الأحداث . . الأحداث التي تأتي للانسان ضرورية ، ما دام الانسان متغيراً ويتعامل مع عالم متغير أيضاً فيجب أن يوطن نفسه على وجود الأحداث .

يقول الحق : لا تعش في الحدث غير زمنه ، اذا انتهى زمنه يجب أن ينتهي شغلك به الا أن تأخذ منه العبرة فيما يأتي . أما أن يكون الحدث مثبطاً لك ومضعفاً لطاقتك فاعلم أنك الذي أردت احياء الحدث من الماضي الى المستقبل ، وليس ذلك من العقل .

ويجب أن توطن نفسك على أن الأشياء التي تأتيك وان كانت تعجبك فاستقبلها كنعمة من الله بالحمد ، واياك أن تفرح بها ، لأن النعمة في ذاتها غير مفرحة ، الا أن توفق في مصارفها ، أما النعمة في ذاتها فغير مفرحة ، لأنها قد تضرك أنت وتغريك بمعاصي ربما لو لم يكن عندك من المال ما يغريك عليها لم تعص ، اذن لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . لماذا ؟ لأنك لا تفرح بالشيء الا أن تحققت به غاية ، وغاية الشيء ليست مجرد ملكك له ، لكن غايته هو صرفه فيما يحب الله .

فلا تفرح . الفرح يجب أن يؤجل الى أن تعرف مصير النعمة التي أعطاك الله اياها ، أوفقت في أداء حقها عليك أو لم توفق . ولذلك يأتي الحق ليشرح لنا هذه القضية التي يتوقف عليها مدار حركة الكون والآمال . قال الله تعالى : ﴿ **فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن** ﴾ . هذا في ظاهر الأمر مقبول ﴿ **وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن** ﴾ . هذا ما يقوله الانسان . فهل صوب الله منطق الانسان ؟ منطق الانسان في الأولى ومنطق الانسان في الثانية أم خطأه ؟

قال الله : «**كلا**» . يعني لا منطقه في الأولى صحيح ، ولا في الثانية صحيح . كيف ؟ النعمة لا يفرح باتيائها ، انما يفرح بمصرفها . ﴿ **بل لا تكرمون اليتيم** ﴾ . وما دمت لا تكرم اليتيم يا من أعطيت النعمة فالنعمة حجة عليك . أنت دخلت في امتحان صعب وسقطت فيه . ليس الأكرام في الايتاء ، لكن في صحة الانفاق ﴿ **ولا تحاضون على طعام المسكين** ﴾ . وحتى حث الغير على طعام المسكين لا تصنعه ﴿ **وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حباً جما** ﴾ .

اذن ايتاء النعمة اكرام أو وسيلة اهانة ؟ قد يكون وسيلة اهانة ، لأنك تعرضت للايتاء دون الاعطاء .

والحق صنف الخلق أصنافاً . المبغوضون درجات ، والمحبوبون درجات فقال : «أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد : أحب الغني الكريم ، والفقير الكريم أشد ، وأحب الفقير المتواضع ، والغني المتواضع أشد (لأن عنده أسباب الكبر) وأحب الشيخ الطائع ، والشاب الطائع أشد» مقومات المعصية موجودة عنده ولا يستعملها . «وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد ، أبغض الغني المتكبر والفقير المتكبر أشد ، وأبغض الفقير البخيل ، والغني البخيل أشد ، وأبغض الشاب العاصي ، والشيخ العاصي أشد» .

فان كنت في مجتمع غنيه كريم ، وفقيره متواضع ، وشبابه طائع ، فتلك هي المدينة الفاضلة بحق . . هي النعمة . والدون والحضيض هو المقابل : فقيره متكبر وغنيه بخيل ، وشبابه عاص .

فحركة الحياة حينما يقول الله : ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ . تعني أن الاتيان قد يكون فتنة لك ، لأنك لا تؤدي حق الله ، فتكون النعمة حجة عليك . وإذا كنت تأسى على مافات ، أي تشغل نفسك بما لا يجدي . نقول : ليتك شغلت نفسك بما يجدي . ولو اشتغلت بما لا يجدي تكون ضيعت الطاقة التي تستقبل بها التعويض عن الحدث الفائت . احذر أن يتركب في نفسك أن الحدث هو الذي صنع لك كل بؤس في الحياة . . والحقيقة أن الهم يأتي من شيء مؤخر ، ولكنك لا تعرف مصدره ، فلا قوة لك على دفعه ، وهذا هو أشد ما يفتك بالنفس الانسانية : أن يستولي عليك أمر لا تعرف مصدره أو تعرفه ولا

قوة لك على لك على دفعه . هذا هو الهم المعقد .

السعادة والشقاء

حركة الخليفة انما جعلت في الأرض لرفاهته ، فاذا أراد مستوى رفيعاً من الحياة فعليه أن يعمل بكل طاقاته في كل ما لديه مما خلق الله ، فان لم يكن ناعم البال فالتقصير من الخليفة لا من المستخلف . . وحركة الحياة تتطلب توجيه طاقة مخلوقة في مادة مخلوقة بتخطيط فكر مخلوق لله ، فكل شيء مآل الفضل فيه الى الله ، ومقومات الحياة المادية شيء ، ومقومات الحياة القيمية في النفس البشرية شيء آخر . وقد يستكمل الانسان كل مقومات حياته المادية ، ومع ذلك يظل قلقاً في الحياة ، وذلك ما نشهده في ذلك العصر الذي ارتقينا فيه ارتقاء جعلنا نطأ القمر .

وكان المفروض أن يسعد الناس فيه ، ولكننا نجد أننا كلما شدونا في شيء من الأشياء نستنبط بها سراً من أسرار الله في الوجود نجد أن الشقاء يزداد بنسبة هذا الكشف . اذن فلا بد أن تبحث عن شيء مفقود . . كان المنطق أننا في ارتقائنا في الحياة لا بد أن نسعد بنسبة ما ارتقينا ، ولكننا نشقى شقاء عاماً . . بحيث لا نجد قوة في الأرض مهما كانت سلمت من الفزع . . ونجد أعصاباً متوترة لا تهدأ أبداً . . لو كان ذلك في الأمم الضعيفة المتخلفة لكان له مبرر . . فما له يوجد في الأمم القوية أيضاً ، وقد توجد قوة أدنى من هذه الأمة القوية ، ولكنها تزلزل أمنها ، وتصدم كبرياءها ، كل ذلك يدل على أن هناك عنصراً مفقوداً .

هذا العنصر يدل على أن العالم مهما اتسعت مادياته فهناك عنصر مفقود هو : عدم الأمن من الخوف . . اذن فالحق سبحانه حين يلفتنا الى قوته وقدرته ، وأن الانسان ليس متروكاً لأخيه الانسان ، وأن الناس مهما كانت لهم حرية الحركة فهم محكومون بحساب دقيق . . هذا الحساب يمثله قول الله تعالى : **﴿ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾** .

اياكم أن تفهموا أن ذلك في الآخرة فقط ، بل انه في الدنيا أيضاً . . فكل انسان له صحيفة يكتب فيها ما له وما عليه ، ولذلك قد يخدع الانسان نفسه بأن

يستغل غفلة سواه، وأن يأخذ ما ليس له وتقول له: ذلك منطق من كان موجوداً دون رقيب أعلى منك، أما أن يكون هناك رقيب أعلى يسجل أنفاسك وحركاتك وسكناتك فثق تماماً أنك لن تخدعه.. فان حاولت أن تأخذ غير حقك فاعلم أن غفلة ستصيبك في جهات كثيرة ليؤخذ منك غير الحق مقاصته..

وليعلم كل منحرف في الحياة أنه سينحرف غيره فيه كما انحرف هو في غيره.. لا يمكن أن يسلم انسان أطلق لنفسه عنان الحركة في الحياة الا وسلط الله قوماً يطلقون لأنفسهم عنان حركتهم في الحياة بالنسبة له. فاذا ما نظرنا الى من نسميهم منحرفين ومنحرفات، أو غاوين وغاويات، اذا نظرنا الى تاريخهم، وحسبنا حساباً دقيقاً مقدار ما انحرفوا فيه، نجد أن الله بعدالته لا يؤخر ذلك الى الآخرة أبداً.

فبمقدار ما أغرت المرأة من أناس يزهد فيها، وبمقدار ما استمالت من أنظار وجذبت من نفوس يذل الله آخرتها في الدنيا، بأن ينصرف عنها الناس انصرافاً مزرياً شائناً. والذي كان يريد أن يحظى منها بنظرة واحدة لو رآها في آخرتها لبصق عليها، كل ذلك مقاصة في الدنيا. والذي يحسن النظر في الحياة لا بد أنه يرى في محيطه أمثال هذه الصور كثيراً. والذي عاث في الناس فساداً لو حسب ما عبث فيه من فساد لوجد أن الأمر مقاصة.

والرسول ﷺ ينبهنا الى قضية هي أخطر قضية في حركة الحياة. الناس يحسبون الكسب، وينقسمون الى قسمين: قسم يحب الكسب بحقه، يكدح في الحياة ليكسب، وقسم يحب الكسب بلا كد، يتسلط على كدح غيره ليأخذه، وعلى عرق الناس ليشربه، هؤلاء يقول لهم الرسول ﷺ: تنبهوا جيداً الى قضية سأطلقها في الكون، وهو لا يطلق قضية ليأتي واقع الحياة ليكذبها، لأن ذلك سيكون فتنة لمن اتبعه. يقولون: قال رسول الله كذا، ثم ما رأينا أثراً في الكون لكذا هذه. فماذا قال في عمدة حركة الحياة وهو الكسب «من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله في نهابر»، يعني في أمور تأتيه فلا يخلص منها الا بانفاق هذا المال. يسلط الله عليه المرض وغيره فيصرف ما أخذه من نهاوش.

والله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم لا يمكن أن يدع مستغلاً لمجهود خلق دون

مقاصة . يقول له : أنت استغللت مجهود خلق ، وسيفتح الله عليك ما شاء من الأبواب ليأخذ منه ما أخذه من غيره ، ولذلك لا يؤخر الله هذا الأمر الى الآخرة ، لأن حركة الحياة تخمد لو تأخر الى الآخرة ولم ير الناس مصارع القوم الذين استغلوا ضعاف الناس ، وتفسد حركة الحياة .

اذن فالذي يخدع لا يخدع الا نفسه ، ولذلك يظن الناس أنهم يخدعون الله . نقول له : أنت تخادع والله يخادعك . . ولو قارنت خداعك بخداع الله ما استطعت ويفتح الله لك أبواباً تنفق فيها ما أخذت مما لا تستحق . . اذن هذا نظام الكون .

ونظام آخر يشيعه الله في الكون . وهو أن الايمان أمن ، ومعناه : أن كل شيء يصيبك من غير حركة منك لا بد أن تقدر فيه الخير ، وما دمت تقدر فيه الخير فطاقتك الفكرية لن توزع في الحزن أبداً . فالحق سبحانه جعل للمادة تكويناً طبيعياً قواماً . المادة التكوينية الطعام ﴿ **كلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ . والرسول يعطيني مذكرة تفسيرية لقوله ﴿ **ولا تسرفوا** ﴾ . فيقول : [نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، واذا أكلنا لا نشبع] .

هات انساناً لا يأكل الا اذا جاع ، واذا أكل لا يشبع ، ثم يصاب في مادته بشيء يفسد أي جهاز فيه ، أبداً . ولكننا نجد الآلام من مخالفة هذا في المسألة المادية . . وفي المسألة المعنوية كالحركة العقلية والوجدانية والنفسية يقول الحق كذلك : ﴿ **كلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ . . لو نظرنا في اقتصاديات الحياة لوجدنا أن الرسول حينما شرع [لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع] فهذا هو المستوى الرفيع في الاقتصاد ، لأن الانسان اذا جاع فأي طعام يكفيه ، أما تعقيد الأطعمة وكثرتها مع الشبع فيصيب النفس بالملل فنحمل أنفسنا على الأكل .

فيه فرق بين أن تحملك نفسك لتأكل ، وبين أن تحمل نفسك على الأكل . قوام الحياة أن تحملك نفسك لتأكل ، فاذا جعت فأي كسرة تكفيك ، والعربي فطن الى هذا فقال : «نعم الادام الجوع» . فالجوع يجعل الانسان يقبل على الطعام بنفس راضية . اذن ماذا يجعل الطعام غير مقبول أمامي ؟ هو أني أحمل نفسي على الأكل . . أريد مشهيات .

جرب وادخل بيتك وأنت جائع ، وفي البيت ديك رومي لم ينضج ، فانك سبتحث عن بقايا طعام كان منذ أمس وتأكل بشهية ولذة ، حقاً نعم الادام الجوع .

ما الذي يتعبنا اقتصادياً ؟ الذي يتعبنا هو الترف . أن أريد من نفسي أن تأكل ، لا أن نفسي هي التي تريد أن تأكل . . فالرسول ﷺ قال : [فان ولا بد آكلاً فثلث لطعامك، وثلث لشرابك، وثلث لنفسك] . . ما للنفس وللمعدة إن المعدة اذا امتلأت ضغطت على الحجاب الحاجز، والحجاب الحاجز يضغط على الرئة فيضايق التنفس . معنى الضغط على الرئة تقليل حجمها . أي أن الهواء الذي يدخلها يكون قليلاً . . اذن فالحق حين يعلم رسوله فلا يترك معنويات الحياة دون تعليم .

قمة السماحة الاسلامية

كيف عالج الاسلام قضية الالحاد ؟ جاء الاسلام والعالم معسكران : معسكر ملحد بالله ، لا يؤمن الا بالمادة ، ومعسكر يؤمن بالتقاء السماء بالأرض في منهج يحمله رسل الله الى خلق الله . فكان الاسلام منطقياً مع واقع الحياة . استقبل كل أمر بما هو أهله . . استقبل الالحاد بلا هوادة ، وعاداه عداوة سافرة ، لأن الخلاف بين الاسلام والالحاد انما هو في قمة التدين ، وهو وجود اله مدبر لهذا الكون .

وواجه الآخرين الذين يؤمنون بوجود الله وبوجود رسالة من السماء الى البشر ، وهم أهل الكتاب . . كيف واجه الاسلام أهل الكتاب من يهود ونصارى ؟ استقبلهم بسماحة وسلام وأمن . فذكر كل الخواص الكريمة التي كرم الله بها رسولي الديانتين . كرم موسى تكريماً لا حد له ، وعيسى كذلك ، ونفى عن عيسى كل ما يمكن أن تزن به أو تتهم به أمه ، كرم الرسولين تكريماً ، ليقر مبدأ التقاء السماء بالأرض .

ولذلك نجد أن الفرس الذين كانوا يمثلون المجوسية والالحاد ، والروم الذين كانوا يمثلون أهل الكتاب كان أقربهم الى قلب رسول الله ﷺ وقلوب المؤمنين بدورهم أهل الكتاب . . فلما نشأت المعركة بين الروم والفرس حزن رسول الله ﷺ وحزن المؤمنون مع رسول الله ، لأن العداء بين الملحدين والمسلمين في القمة ، ولكن الخلاف بين المسلمين وبين أهل الديانتين الآخريين حول تصور الاله . أما

التقاء السماء بالأرض ، وخضوع الأرض لمنهج السماء فأمر متفق عليه .

ولذلك كان قلب رسول الله ﷺ وقلوب المؤمنين مع أهل الكتاب ، وفي ذلك ينزل القرآن ليدل على أن الاسلام وعقل الاسلام أحب الذين كفروا بمحمد ، ولكنهم مؤمنون بالله ، وفضلهم عن الذين كفروا بالله .

اذن فعصبية محمد ﷺ لربه أقوى من عصبيته لنفسه . . الذين كفروا به أقرب الى قلبه من الذين كفروا بالله ، ولذلك حزن رسول الله ﷺ حينما غلب الفرس الروم ، ونزل بذلك القرآن : ﴿ **غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ .

اذن فنصر أهل الكتاب على المنكرين للألوهية يجب أن يفرح به المؤمنون بالله ، لأننا مؤمنون في القمة ، وإن كنا مختلفين في الرسول الذي بلغ ، وهم قد وقفوا من محمد موقف النكران ، ومع ذلك فقلوب المؤمنين معهم وبشارة الله للمؤمنين بأن الله سينصر المؤمنين بالله وان كانوا كافرين بمحمد فقال : ﴿ **ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ .

فهل رأينا سماحة في الكون أحلى من هذه السماحة ؟ أن تقول : قلوب المؤمنين بمحمد مع المؤمنين بالله وان كانوا كافرين بمحمد .

وشيء آخر ، كيف يتأتى لرسول الله وهو النبي الأمي في الآية الكريمة أن يصدر حكماً في نهاية معركة بين أكبر قوتين في الأرض : قوة فارس في الشرق ، وقوة الرومان في الغرب ؟ كيف يمكنه أن يحكم بحكم ، ويفصل في معركة ، ويحدد الحكم بنصر الروم «**في بضع سنين**» . من يستطيع أن يحدد الحكم بنهاية المعركة بين قوتين وبأنها تكون في بضع سنين ؟ لو أنه كان حكماً في الوقت لقلنا أن محمداً ﷺ كان عنده أخبار بامداد ستصل الى الروم لينتصروا على الفرس . ولكن تحديد الحكم في بضع سنين شيء رهيب . . انه شيء رهيب حقاً أن يحكم في انتصار الروم على الفرس في بضع سنين ، أي من سبع سنين الى تسع سنين .

كيف يتأتى له أن يحكم في قضية معركة ليس هو طرفاً فيها أولاً ، وثانياً هو لا يعلم ما يجد في البضع سنين من قوة هذا أو ضعف هذا ، ثم يطلقها قضية

مؤكدة : أن الله سينصر الروم في بعض سنين . ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ . . وفعلاً تم النصر في بضع سنين ، وصادف ذلك نصر المسلمين في بدر الكبرى .

هل حكم النبي ﷺ على كل اليهود بشيء يكون نقيصة فيهم ؟ هل حكم على كل النصارى بشيء يكون نقيصة فيهم ؟ لا ، بل انه ﷺاحترم الواقع . . كثير من اليهود يملكهم الحق ، ويملكهم الدليل ، ولذلك قال لنا : ﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائماً** ﴾ . فقد أنصف المؤمنين باليهودية والمؤمنين بالنصرانية لماذا ؟ لأنه لو قام على كل يهودي بالحكم ضده ، وعلى كل نصراني بالحكم ضده ، لقال الذين تراودهم نفوسهم بالايمان بمحمد ﷺ : كيف يحكم علينا هكذا ونحن نؤمن بالحق ؟ فهو لم يظلم أحداً من أهل الكتاب ، بل قال : منهم من ينفذ أحكام الله ، ومنهم من لا ينفذ أحكام الله ، كالمؤمنين بمحمد تماماً .

ولذلك يجب أن يفطن أهل الكتاب الى هذه القضية ، فلا يجعلوا العداء بينهم قوة لأهل الألحاد . ويريد الله منا أن يكون منهجه في الأرض هو السائد ، فان غلب أهل الاسلام على بقعة من الأرض فعلى الرحب والسعة يا أهل الكتاب ، فليسعهم الاسلام بسماحته ما دام منهج الله محققاً .

من خاف الله . . . خافه كل شيء

القرآن اذا عرض شيئاً ولم يكر عليه بالبطلان فهو موافق عليه . ولذلك لما قالت بلقيس : ﴿ **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة**﴾ماذا قال القرآن ؟ قال : ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ . فالقرآن يؤيد الحق وان كان على لسان امرأة ، لأنها صادفت الحق .

قالت بلقيس : أرسل الى سليمان هدية ، فان كان هو ومن معه ممن يريدون الخير والمال اقتنعوا بها . فأرسلت الهدية ، وقد كان سليمان على خلاف ما ظنت ، بل قال :﴿ **أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون**﴾ . وهنا خضعت بلقيس للايمان . . وهنا تظهر ملوكية الايمان ، واستعلاء

العقيدة . ماذا قالت ؟ أسلمت لسليمان ؟ لا ، قالت :﴿ **أسلمت مع سليمان**﴾ . . هنا عظمة الايمان مع سليمان ، لأنه مسلم هو الآخر ﴿ **لله رب العالمين** ﴾ .

فعظمة الاسلام أنك لا تسلم لمساويك ، بل تسلم لله رب العالمين . ولذلك ساعة يعرض القرآن بعض النماذج يبرز هذه المسألة . . فموسى يذهب الى فرعون ، ويجتمع السحرة ، ويأتي موسى .

كان الله قد صنع له تدريباً كما صنع لآدم تدريباً في الجنة . . لما ذهب عند الطور في أول لقاء كان معه عصا . . فقال الله له :﴿ **ما تلك بيمينك يا موسى**﴾ . فقال : ﴿ **هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى** ﴾ . وهل كان الله لا يعلم ذلك حتى يسأله ؟ لا ، بل هو سؤال للايناس وازالة الوحشة وتخفيف سلطان الهيبة ، كما تذهب الى صديقك وترى ابنه قد هابك ، وتريد أن تتألفه فتقول : ماذا في جيبك يا ولد .

كان يكفي في الايناس أن يقول : هي عصا . ولكن موسى كان يريد أن يطيل زمن الايناس ، فلما رأى أنه زاد اختصر وقال : ﴿ **ولي فيها مآرب أخرى** ﴾ . . والله سبحانه يقول : هذا هو مدى علمك بالعصا ورسالتها عندك . . أما العصا فلها رسالة ثانية عند الله ﴿ **قال ألقها يا موسى . فألقاها فاذا هي حية تسعى** ﴾ . المنطق أن يخاف موسى ، ولكن الله قال له : ﴿ **لا تخف سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾ . ولو لم يخف موسى لقلنا : أنه سحر .

تنبهوا الى أن هناك فارقاً بين السحر الذي كان عند قوم فرعون ، وبين الذي جاء به موسى﴿**فأوجس في نفسه خيفة موسى**﴾. اذن أصبحت العصا حية حقيقية . أما الساحر فلا يرى العصا حية . فقوم فرعون يسحرون أعين الناس ، أما معجزة موسى فحقيقة . . الحقيقة تغيرت في عصا موسى . أما السحرة فلم يسحروا الا عيون الناس .

ما الذي جعل السحرة يؤمنون ؟ آمنوا لأنهم رأوا العصا حية ولم يروها عصا . وعلموا أن حبالهم ما زالت حبالاً . . حينئذ قالوا : هذا ليس من موسى . هل قالوا آمنا بموسى ؟ أو آمنا برب هارون وموسى ؟ مع أنهم مهزومون أمام موسى ؟ .

هذه هي عظمة الاسلام ، في أنك لا تسلم لي زمامك ولا أسلم لك زمامي ،

انما أنا وأنت نسلم زمامنا لله رب العالمين .. لا طغياً من واحد على الآخر ، فالكلمة لله .

فالذين يفرون من أن يحكم منهج الله حركة الحياة حريصون على أن يستذلوا الناس لمناهجهم .. ولو كانوا يريدون الخير حقاً نقول لهم : نحن وأنتم نسلم وجوهنا لمن هو أعلى منا ، ما هي الغضاضة في ذلك ؟ اذن الاسلام أخذ اسماً وأخذ وصفاً ، وتلك هي ميزة أمة محمد ﷺ .

وأخذ الاسلام أيضاً وصفاً آخر ، وهو : أن كل أمة محمد امتداد لرسالة محمد ﷺ .. فما دام لم يعد هناك رسل ولا كتب فكيف تسير الرسالة ؟ لا بد أن نعلم أن المنهج محفوظ ، ولا يريد الله الا البلاغ في المنهج .. فالعلماء الحاملون للمنهج هم كأنبياء بني اسرائيل .. ولا نريد أن يعتقد الناس أن العلماء هم من لبسوا العمائم ودخلوا الأزهر أو تعاطوا صناعة الدعوة . لا ، بل ان كل من علم مسألة من الدين وبلغها فهو عالم بها . ولذلك الرسول ﷺ يقول : [نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وبلغها ، فرب مبلغ أوعى من سامع] .. فما دمت تعلم حكماً من أحكام الله فأنت به عالم .

هنا يجب أن نلتفت لفتة .. أن نحمل الاسلام كعلم ، ونحيا الاسلام كتطبيق ونريد تحقيق الاسلام علماً وتطبيقه سلوكاً ، فهب أننا منينا بقوم أبعدونا عن تطبيق الاسلام كمنهج سلوكي للبشر ، ماذا يكون موقفنا ؟ موقفنا على الأقل أن نكون أمة تحقيق الاسلام .. يعني نحمل الاسلام كعلم الى أن يأتينا الله برجل يحمل مبادرة سماوية ويقول : العلم علم ، ونريد تطبيق الاسلام . فهل اذا لم نطبق الاسلام نترك علم الاسلام ؟ لا . بل نقول : دع هذه الشمعة مضيئة واحذر أن تنطفىء ، لعل واحداً يأتي ويأخذ من الشمعة قبساً يصنع منه حريقاً .

اذن أمة مصر ان لم تكن حققت الاسلام منهجاً وسلوكاً فهي مطالبة بنعمة الله عليها بالأزهر أن تحافظ على الاسلام علماً وتحقيقاً ، حتى يأذن الله لمن شاء أن يجري الخير على يديه فيطبق الاسلام ... اياكم أن تقولوا : وما غناؤنا بعلم الاسلام ؟ نقول : لا ، دع الاسلام محققاً وان لم يكن مطبقاً ، وبعد ذلك طبق الاسلام فيما ولايتك فيه على نفسك ، وكل واحد لو طبق الاسلام فيما ولايته فيه

على نفسه لسقط الحاكمون بغير الاسلام وحدهم ولو أن الحكام يعلمون أن الناس يحبون منهج الاسلام لأنهم يطبقونه في أنفسهم لتقربوا الى الشعوب بتطبيق منهج الله .

الحكام يريدون ان يرضوا الشعوب . فلو علموا أن الشعوب عشقت الاسلام وعشقت منهج الله لتقرب الحكام الى شعوبهم بتطبيق المنهج . . مهمتنا كمصر أن نسعى ونجاهد في تطبيق الاسلام ، او نحقق الاسلام علماً يحلي عقيدة الاسلام . . ويبين حقيقة القرآن، ويبين أن الله كنزّ في القرآن كنوزاً سيغض الزمن أسرارها الى أن يأتي ميلادها ، لأنه تعرض لأشياء لم تخطر أيام نزول القرآن على قلوب البشر .

عملنا الآن هو أن نجلي الاسلام عقيدة وعبادة وتعاملاً والعقيدة كما قلنا هي : الايمان ، والايمان هو : اطمئنان القلب الى قضية ما ، بحيث لا تطفو لتناقش من جديد . . اذا طغت لتناقش من جديد لا تبقى ايماناً ، انما هي مشروع ايمان . . وفرق بين أن تؤمن بالأشياء متعقلة ، وبين أن تؤمن بها متصورة . . المطلوب منك أن تؤمن بها متعقلة ، لأن التعقل يعطي الايمان ، والايمان لا يكون بالمحسوس أبداً ، لا بد أن يكون بأمر غيبي . . وما دام الايمان يكون بأمر غيبي فهو تابع لقوة دليله . . فاذا استقر صار يقيناً .

واليقين مراحل : مرة يكون علماً اسمه : علم اليقين ، ومرة يصير عيناً اسمه : عين اليقين حين ينتقل الى شيء من الحس ، ومرة يكون حقاً اسمه : حق اليقين . . فاليقين الايمان يمر بهذه المراحل الثلاثة : علم وعين وحق . ما معنى هذا ؟

كنت ضربت مثلاً لأبنائي . كنت سافرت الى أندونيسيا فقلت لهم : هبوا أني رأيت في أندونيسيا فاكهة حجمها حجم البطيخة ، ولونها لون البرتقال ، وطعمها طعم البرتقال ، ورائحتها رائحة التفاح . . هذا علم يقين لأنهم يثقون بكلامي كأستاذ لهم . فإذا أحضرتها أمامهم تبقى عين يقين . شققتها وأعطيت كلاً منهم قطعة وذاقوها تبقى حقيقة يقين .

هذه أعلى مستويات اليقين ، ولذلك الرسول ﷺ لما سأل حارثة : [كيف

أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : ان لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ومدرها (يعني حجارتها) . وكأني أنظر الى عرش ربي بارزاً ، والى أهل الجنة يتنعمون ، والى أهل النار يعذبون . قال : عرفت فالزم] . هذه حقيقة اليقين ، كما بينها رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه لما أراد أن يبين هذه المراحل اليقينية قال : ﴿ **ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون . . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين . ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ . ستبقى الجحيم عين يقين أمامكم .

واقتصر في هذه السورة على هاتين المرحلتين : علم اليقين ، وعين اليقين .

وفي سورة الواقعة أعطانا حقيقة اليقين فقال : ﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم . ان هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ .

لماذا جاء بحق اليقين في حق الكفار ، ولم يجيء به في حق المؤمنين ؟ لأن المؤمنين مكتفون بعين اليقين ، أما الكفار فشاكون لا يؤمنون الا بحق اليقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة التشكيك في الإسلام

افتتاحيـــة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله على نعمة الايمان به وشرف الاسلام له . سبحانه ولا تقال الا له . خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وأشهد أن لا اله الا الله شهادة تطهرنا من كل الشرك في جميع صوره وألوانه ، وبذلك نعبد ونتصور ونعتقد في اطار هذا المفهوم لهذه الكلمة ، فنعتقد أنه اله واحد أحد ، فليس كلا له أجزاء ، وليس كلا له أفراد ، ويجب أيضاً أن نتصور في هذا الاطار أنه سبحانه في تصورنا له تصور فذ فريد في نوعه ، لأنه يجب أن لا نتوهم تخييلا لأنه ليس كمثله شيء ، ويجب أن لا نتورط تعطيلا لأنه كما قال عن نفسه السميع البصير . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الجامع لكل مناهج الخير لأنه الرحمة ، المانع لكل تزيد على منهجه لأنه الجامع المانع ، ولا معقب له .

مقـــدمـــة

وبعد : فقد شاء الله أن يخلق الانسان خليفة في الأرض ، فأمده سبحانه بمقومات هذه الخلافة حتى يستطيع أن يباشر حركته في الوجود مباشرة تعمره ، ولكنه سبحانه وتعالى أقدره على أشياء ، واعجزه عن أشياء ، وأعلمه أشياء ، وستر عنه أشياء ، وقهره على أشياء وجعل له الخيار في أشياء ، وذلك حتى يستكمل مقومات الخلافة ، ولا ينسى أنه غير أصيل فهو بما أعطى من أختيار وما قهر عليه من أمور يعتقد أن له مرداً آخر ، وأن قوة عليا فوقه ، وحين يعلم أشياء ويجهل أشياء أي حين يقف على سر ويقف عند سر ، يعلم أن هناك قوة أعلى هي التي تمده بما شاء من العلم الذي يغيب عنه ، وبهذا

يكون خليفة سوياً ، فلا يدعي لنفسه في وقت ما الاصالة في ذلك الكون ، ولو أنه استشعر دائما انه خليفة ، لما كان ذلك الضلال ولما كان ذلك الغي . .

منهج الله تعالى في التربية :

ولم يشأ الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بالانسان ان يرسله الى الأرض ليباشر مهمته في الوجود كما اراد الله دون تدريب على هذه المهمة ، ودون تمرين عليها ، حتى لا يستقبل منهج الله استقبالاً نظرياً بحتاً ، وحين يجيء وقت التطبيق تملكه شهواته ورعوناته ، فشاء الحق ان يجعل لآدم ابي البشر تجربة واقعية يعيش فيها التكليف بأمره ونهيه وبمعوقات التكليف من اغواء شيطان ونسيان وغفلة ، فجعل له الحق سبحانه وتعالى قبل ان يهبط الى الأرض ليباشر هذه المهمـة ، فترة تجريبية في الجنة . ونحن نعلم ان الفترات التدريبية حين يخطىء الانسان فيها فانه لا يعاقب وانما يصوب خطؤه ويرد الى منهج الصواب بلطف ، وحين يدخل المروض المرن المدرب الى الغاية من التجربة ومن التمرين يعاقب بعد ذلك فالفريق الرياضي مثلا في أي بلدٍ من البلاد ندربه فترة طويلة ، هذه الفترة لا نعرضه فيها لعقوبات ان خالف ، ولكننا نأخذ بيده الى منهج الصواب بلطف ، ونعلمه كيف يتأتى له الصواب بعد ذلك . اما اذا اشترك بعد ذلك في مباريات دولية فاننا نؤاخذه على ذلك التقصير . كذلك شاءت رحمة الله فجعل لآدم عليه السلام هو وزوجه تجربة في جنته . هذه الجنة ، ضمن الحق له فيها مقومات حياته بدون تعب وبدون نصب ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾(1) وبعد ذلك استقبل آدم من ربه منهجاً تكليفياً هو موجز بكل منهج رسالي جاء به رسول . فكل مناهج الرسل هي امر بفعل ونهي عن فعل . أمر ونهي ، ذلك هو موج المنهج ، وبعد ذلك حينما أمره ونهاه ﴿ **وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾(2) وذلك موجز للتكليف في كل صور التكليف وفي كل ألوانه . وبعد ذلك حذره من معوقات النهوض بالتكليف ، حذره الشيطان ، والشيطان عدو مسبق لآدم لأنه بشهادة الواقع امتنع أن يسجد له ، وأبدى في حيثيات امتناعه حقداً على ذلك المخلوق

---

(1) آية ١١٨ و١١٩ سورة طه .

(2) آية ٣٥ سورة البقرة .

وحسداً له ، إذن فليس عداوة إبليس لآدم خبراً ، ولكنها واقع ، وليست تاريخاً نظرياً ، ولكنها تجربة عملية ، وبعد ذلك كان ما كان ، ونسي آدم ، فلما نسي آدم في دور التدريب وفي دور التجربة كان جزاؤه فقط ان يلقنه الله كيف يرجع اليه ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه** ﴾(١) .

ويلاحظ في هذه القصة انها رمزت الى أشياء كثيرة فكما رمزت الى عنصري التكليف الأمر والنهي ، ورمزت الى الشيطان الذي هو المعوق الأول للانسان عن قيامه بمنهج ربه ، رمزت الى شيء آخر وهو أن آدم عليه السلام قدر الله ان يكون أبا البشر ، والبشر في علم الله منهم مصطفون ، يؤدون رسالات الله الى عباده ، ومنهم غير مصطفين يبلغون الرسالات عن الله ، وما دام آدم أباً للبشر بنوعية المصطفى وغير المصطفى فيجب ان يتمثل في آدم ذاته طوران ، الطوران هما أن تكون فيه فترة هو فيها بشري يمثل المبلغين ومجتبى يمثل المبلغين عن الله ، ففي الطور الأول وهو طور التجربة كان بشراً عادياً فيه طبع البشر ينسى ويغلط وقد يخالف المنهج ، ولكنه في الطور الثاني الذي يمثل المصطفين يجب ان يكون معصوماً . اذن فالمرحلة الأولى التدريبية في الجنة كان آدم فيها يمثل مرحلة البشر العادي بكل خصائصه بكل طباعه ، غفلة وسهواً وادلاء بغرور ، ولكنه حين يكون منه ذلك لا تسد عليه أبواب الرحمة ، ولكن يعلمه الله كيف يرجع اليه ويتوب ، ولذلك نلاحظ ان اجتباء الله الذي هو اصطفاؤه لبعض خلقه رتب في القرآن على المعصية بثم ، فقال الحق سبحانه وتعالى ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾(٢) وذلك هو الطور البشري العادي غير المعصوم ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾(٣) ليمثل الطور الثاني لأنه كما قلنا سيكون منه مصطفون وسيكون منه غير مصطفين .

بين عصيان وعصيان :

وأيضاً هنا ملحظ يجب أن نلحظه في القصة ، هذا الملحظ هو أن آدم عصى ،

---

(١) آية ٣٧ سورة البقرة .
(٢) آية ١٢١ سورة .
(٣) آية ١٢٢ سورة طه .

وابليس عصى ، فما الفرق بين معصيته ومعصيته ، لماذا عصى آدم فتلقى من ربه كلمات ، ولماذا حينما عصى ابليس طرد من رحمة الله واستحق اللعنة الى يوم الدين ؟ هنا رمزية تلفتنا الى قاعدة ايمانية يجب الا تغيب عن ذهن المسلم ، ما هي القاعدة ؟ القاعدة أن ابليس رد على الله أمره ، وجاء بحيثية المخطىء للأمر فكأنه واجه الله برد الأمر ﴿ **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾(١) ، ﴿ **أأسجد لمن خلقت طيناً** ﴾(٢) وذلك رد للأمر ومعنى رد الأمر على الآمر هو الخيانة العظمى في قمة الإيمان . أما آدم فلم يرد على الله أمراً ولكنه ذهب الى نفسه فاتهمها بالتقصير وبالغفلة وبالنسيان ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾(٣) أي أمرك مقبول على العين والرأس وفي القلب ولكن في لحظة ضعف دلاني الشيطان بغرور فنسيت وعصيت . اذن تلك هي المعصية التي تفتح للإنسان باب التوبة والانابة الى ربه . أما إبليس فقد خان الخيانة العظمى . وعلى ذلك يجب أن نستقبل كل أقضية الإيمان ، فالذي يرد على الله أمراً من أموره ، او ينكر تكليفاً من تكاليفه ، او يقف من شيء معلوم من الدين بالضرورة ليرده فذلك هو الكافر ، وأما الذي آمن بالأمر وسلم له وانقاد ، ثم نحى على نفسه باللائمة فذلك هو موضوع التوبة ، وذلك هو موضوع الانابة ، وذلك هو موضوع الاستغفار .

التحريم والاجتناب :

وأيضاً في الآية رمز آخر هو ان حدود الله التي تتمثل في الأوامر والنواهي يجب ان يبتعد الإنسان عن ذلك الحمى ، فلم يقل الحق لا تأكلا من الشجرة وإنما قال لا تقربا ومعنى القرب ألا يكون معها في مكان ، وذلك أبلغ من الأكل وفي مثل هذا نتذكر ان الحق مرة يقول ﴿ **تلك حدود الله فلا تعتدوها** ﴾(٤) ، ومرة يقول : ﴿ **تلك حدود الله فلا تقربوها** ﴾(٥) نجد ان تلك حدود الله فلا تعتدوها بعد أوامر ، أي لا تتعد الأمر ، ولكن

---

(١) آية ٧٦ سورة ص .
(٢) آية ٦١ سورة الأسراء .
(٣) آية ٢٣ سورة الاعراف .
(٤) آية ٢٢٩ سورة البقرة .
(٥) آية ١٨٧ سورة البقرة .

عند النواهي عن أشياء يقول لا تقربوها لأنه من حام حول الحمى يوشك ان يواقعه . وبعض الناس الذين يريدون ان يلتمسوا لضعف نفوسهم امام المنهج الرباني ، سمعته يقول ان الخمر لم ترد بالتحريم نصاً فلم يقل حرمت عليكم الخمر كما قال : **﴿ حرمت عليكم الميتة ولحم الخنزير ﴾** قلت له يا أخي إن الله لم يقل حرمت الخمر فقط وإنما جاء تحريم أكثر من هذا لأنه حين يحرم علينا شرب الخمر يكتفي فيه بألا نشربه ولا مانع ان نكون في مجلسه ، ولا مانع ان نراه ، ولا مانع ان نمر أو نجلس في الأماكن التي هي فيها ، ولكن حينما يقول : اجتنبوه ، فذلك نهي عن الشرب ، وأبعد من النهي عن الشرب ، فالحق يقول لآدم لا تقربا هذه الشجرة ، لم يقل لا تأكلا منها ليدلنا على أن مناهي الله يجب الا يقترب منها الإنسان لأنه اذا اقترب ربما خانته نفسه ، ربما ضعفت ، ربما دله الشيطان أمام عين الأشياء بغرور .

نتائج مخالفة منهج الله :

ورمزية اخرى في القصة تعطينا أنه حينما ذاق آدم وحواء الشجرة بدت لهما سوآتهما فكان ذلك رمز الى ان منهج الله حين يخالف أي مخالفة تبدو عورات الإنسانية ، وتبدو عورات المجتمع ، فلا عورة في مجتمع الا اذا كان هناك أمر من أمور الله قد خولف . تلك رمزية واقعية .

أخذ آدم التجربة بما فيها ثم اهبطه الله الى الأرض قائلاً له **﴿ اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم مني هدى ﴾**(١) ابتداء المنهج في الأرض **﴿ فأما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشه ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾**(٢) . إذاً فتلك القصة اوجزت كل مهمات الرسل ، منهج من الله فيه أمر ونهي وتحذير من إغواءات الشيطان ، وحدود المعصية ، وحدود الخيانة العظمى ، وموقف الإنسان من محارم الله .

وعلى هذا الأساس توالى الرسل اجمعون يجمعهم جميعاً قدر مشترك ، هذا القدر المشترك هو توحيد الله ، وتوحيد الله ينشأ عنه التصور عن الله الواحد ، وينشأ عنه

---

(١) آية ١٢٣ سورة طه .

(٢) آية ١٢٣ ، ١٢٤ سورة طه .

المنهج الواحد من الله وتتابع الرسل ، وكان لا بد أن يتتابعوا لأن العالم كان لا يزال في طفولته العقلية ، فكان مأخوذاً بهذا المبدأ التدريبي . ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى ان يبعث رسوله محمداً ﷺ كافة ، في كل زمان وفي كل مكان لأنه علم أزلاً ان مجيئه سيكون مع اندماج الدنيا ، واندماج الدنيا سيوحد آفاتها ويوحد عللها ، فلا بد أن يكون العلاج لكل داء واحداً في كل العالم وفي كل الدنيا . ونحن نشاهد ذلك الداء يحصل في أي بلد من البلاد ، والآفة تنزل في أي مجتمع من المجتمعات ، فلا نصبر طويلاً حتى نرى ذلك الداء فينا ، اذن فقد حصلت للعالم اندماجية هذه الإندماجية وحدت الداءات ، فيجب أن يوجد المنهج المعالج للداءات .

المعركة الأولى :

جاء رسول الله ﷺ والعالم في ركام من ضلال ومن غي ، ومن فساد في العقيدة ، وفي التصور ، وفي المناهج السلوكية في البشر ، فكان ولا بد ان يواجه ذلك الرسول كل هذه الركامات ، واجهها ﷺ بمعجزة ، وواجهها ﷺ بمنهج موجود بصورة المعجزة ، وبمنهج مبين من السنة . واجه رسول الله ﷺ أول ما واجه المشركين . والمشركون كما نعلم نحن في جزيرة العرب كانوا يعرفون شيئاً من بقايا الحنيفية الإبراهيمية والإسماعيلية ، ولكن لطول الفترة تعرضوا للغفلة وتعرضوا للنسيان ، وتعرضوا للوافدات التي جاءت على يد ابن لحيم من الأصنام وغيرها . اذن فكان لا بد أن يواجه الإسلام هذه المسألة . واجهها الاسلام بمنهج القرآن مواجهة دعت بالحكمة وبالحسنى . . وبعد ذلك ردت على كل شبهة .

فحينما ووجهت معجزته بالتكذيب مرة قالوا سحر . ولكن يرد ذلك بأنه اذا كان ذلك سحراً فهل للمسحور ارادة مع الساحر ، اذا كان سحراً وسحر به قوماً فاتبعوه لما أبيتم انتم على سحره فلم تتبعوه وبقيتم معارضين ومعاندين ؟ اذن فكلمة السحر هراء لا يصدق .

قالوا شعر . امر بسيط انتم اساتذة البيان واساتذة الكلام ، هل تخلطون بين أسلوب القرآن وبين الشعر ؟ لو قالت ذلك أمة لا صلة لها بالبيان او لا معرفة لها بالشعر ، انتم أمة تحتفلون بالأساليب وتحتفلون بالبيان وتعقدون الأسواق وتنصبون الحكام

للنقد ، فهل تجهلون ما بين أسلوب القرآن والشعر ؟ .

ولذلك حينما قالوا ذلك ، وأراد القرآن ان يرد ، رد عليهم بأنهم لا يؤمنون **﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾**(١) لأن الذي يدعوكم الى هذا اللجاج واللدد انكم لا تؤمنون .

وبعد ذلك واجهوه بأنه كاهن . والكهانة معروف اسلوبها ومعروف معانيها ، ومعروف طلاسمها ، فقالوا بين هذا وبين القرآن بشيء من التذكير ، ولذلك يعقب في الشعر بقوله قليلاً ما تؤمنون ، ويعقب على قولهم كاهن او كهانة بقوله **﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾**(٢) أي لو تذكرتم بعض التذكر لعرفتم الفارق بين هذا وهذا .

وبعد ذلك قالوا مجنون . فماذا يقول الحق سبحانه وتعالى . الجنون ينافي الخلق العظيم . الجنون يجعل الإنسان في سوي الأخلاق ، غير سوي التصرفات . وانت سوي الأخلاق سوي التصرفات . امين صادق ورع . لم تجرب عليك مسألة من المسائل **﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم ﴾**(٣).. فالخلق العظيم هذا ينافي أن تكون مجنوناً . ثم يعرض عليهم عرضاً آخر في هذا التحدي فيقول **﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾**(٤) أي دعوكم من كلام الجماهير ، أي دعوكم من غوغائيات الحكم وليجلس كل واحد الى نفسه ويستعرض محمداً ، ويستعرض تصرفاته ليرى أمجنون هو أو غير مجنون ، لأنه إذا كان وحده كان بمعزل من أن يقال انهزم في معركة ،أو اختبر واحداً وناقشه لأن الاثنين إذا اجتمعا للنقاش في أمر من الأمور فليس لواحد منهم أن يحافظ على تميزه فلا يهزم من جمهور يراه . إذن فالأخذ والرد يمكن أن ينتهي الى نتيجة **﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ﴾** وكيف يكون هذا مجنون وكباركم يضبطون بعضهم

(١) آية ٤١ سورة الحاقة .
(٢) آية ٤٢ سورة الحاقة .
(٣) آيات من ١ ـ ٤ سورة القلم .
(٤) آية ٤٦ سورة سبأ .

عند منزل رسول الله وهم يتسمعون الى القرآن ؟

الكبر والجحود :

وبعد ذلك ننتقل الى تحد آخر هو المنهج في ذاته يواجه به هذا التحدي وقبل ان يواجه المنهج التحدي يأتي الحق سبحانه وتعالى ليقول هؤلاء لا يكذبونك ، أنت عندهم أمين ، وأنت عندهم صادق ، ﴿ **ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾(١) . اذن فهو يريد ان يرفعه في منزلة نفسه حتى لا يتشكك في نفسه . من هذه التهم ﴿ **قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾(٢) . وبعد ذلك ماذا يكون ؟ يأتي الحق سبحانه وتعالى في هذه المعركة بما يثبت انهم آمنوا بالقرآن وآمنوا بأن ما جاء به محمد هو هدى ، ولكنه الاستكبار والعناد . يعرض ذلك ﴿ **واذ قالوا اللهم أن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم** ﴾(٣) أعاقل يقول ذلك ، فاذا كان هذا الحق يمطر عليهم حجارة من السماء . لو كانوا عاقلين حقاً لقالوا ان كان هذا هو الحق فحببنا فيه ، واهدنا اليه ، ولكنهم يقولون ان كان هذا هو الحق لا نصبر على نفوسنا ان نرى الحق يتحقق ، فأمطر علينا حجارة ، اجعلنا نموت ولا نرى هذا. الله أيضاً يقول سبحانه وتعالى ﴿ **وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾(٤) . اذن فهم عرفوا ان ما جاء به الهدى ، ولكنهم خشوا على سيادتهم وخشوا على جاههم ، وخشوا على سيطرتهم ، وخشوا على ان يطبقوا حدود منهج لا اله إلا الله ووحدانية الله ، لأن معنى ذلك ان يكونوا هم جميعاً سواء في العبودية ، وهذا أمر لا يتصورونه ، ولهم تلك السيادة ، ولهم ذلك الجاه ولهم ذلك النفوذ ﴿ **ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ ، فيرد الحق عليهم ﴿ **أو لم نمكن لهم حرماً آمناً** ﴾ أهذا الحرم الآمن من جاههم ، من سيادتهم ، أن جاههم وان سيادتهم وان مهابتهم في الجزيرة لم تنشأ إلا من هذا الحرم ، لأن هذا الحرم ، الذي هو الباقي من دين ابراهيم ان يحجوا اليه ، جعل جميع سكان الجزيرة

---

(١) و(٢) آية ٣٣ سورة الأنعام .

(٣) آية ٣٢ سورة الانفال .

(٤) آية ٥٧ سورة القصص .

يخافون ان يتعرضوا لهم بشيء ، لأنهم سيجيئون عندهم في يوم من الأيام . اذن فالمهابة لم تكن من جاههم . ولم تكن من سيادتهم . وانما جاءت من صنع الله لذلك البيت .

قضية الشرك بالله

١ ـ وحدانية الخالق :

وبعد ذلك واجه المنهج عقائدهم فبأي شيء ابتدأ ؟ ابتدأ بالشرك وهو أظهر السمات وأول معركة كانت هي معركة الخلق . فحين ينتهي من معركة الخلق في ذلك الوجود ، ومعرفة من الخالق لهذا المخلوق ، تكون المسألة قد اتضحت قاعدة تنطلق منها الوحدانية . فناقشهم في مسألة الخلق ، قال ﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون** ﴾(١) . ترديد يرد على كل الإجابات الناشئة من ذلك ، ﴿ **أم خلقوا من غير شيء** ﴾(٢) ؟ ذلك لا يقول بهِ عقل ، ولا تقول به بديهة ، ولا تقول به فطرة ، لأنهم يرون اتفه الأشياء عندهم كالرجل مثلاً أو السيف أو أي أداة من الأدوات التي يستعملونها لا توجد الا بصانع تخصص فيها . فعلم المادة التي يصنع منها صنعته وعلم قانون الصنعة وصنعها على نظام وتدبير . . الخ . فأي صنعة مهما كانت تافهة لم توجد بغير صانع فقال ﴿ **أم خلقوا من غير شيء** ﴾ لا يقول بذلك عاقل ، بقي ان يقول ، ما دام خلقوا من شيء ، فمن الخالق ؟ أهم الخالقون ؟ لم يقولوا بذلك ولم يدع أحد . إذن بقي من السؤال ان يكونوا مخلوقين لشيء ليس هم . ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾(٣) ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾(٤) . اذن فأنتم لا تدعون أن شيئاً يوجد من غير شيء ، وتقرون معنا أنكم لم تخلقوا ، فبقي ان يخلقكم شيء ، ما ذلك الشيء الذي خلقكم ؟ دلونا عليه . اهذه الآلهة التي تعبدونها خلقتكم ؟ خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، لم يدعوا ذلك ،

---

(١) و(٢) آية ٣٥ سورة الطور .
(٣) آية ٨٧ سورة الزخرف .
(٤) آية ٩ سورة الزخرف .

اهذه الآلهة التي تعبدونها علمتكم مناهج العبادة ؟ ما ذلك الاله الذي يعبد بغير منهج ينزل منه ، ما جزاء من يطيع ذلك المعبود ، وما جزاء من يخالفه ، اله يعبد بلا منهج للعبادة ، وبلا جزاء على المطيع او على العاصي ، ذلك لا يقوله اي إنسان ، اذن فلم يبق إلا أن نسلم الدعوى لله وأنه هو الذي خلقهم لأنه لا يوجد ند له يقول أنا خلقت ، ولو أن هذه الآلهة خلقت ، وأخذوا في الجدل اخذاً ، فلماذا سكتت هذه الآلهة الخالقة على ذلك الاله المدعي الذي قال اني خلقت وهو لم يخلق لماذا سكتت ؟ ان كانت تلك الآلهة لم تسمع فتلك مصيبة ، وان كانت سمعت وعجزت أمام التحديد فتلك مصيبة أخرى لا تناسب تلك الألوهية إذن فقد سلم المدعي بالخلق ، وإن الخلق كله لله .

٢ ـ الطبيعة :

وما دمنا بصدد هذه التحديات في فكرة الخلق فاننا لا مانع ان نتعرض لبعض النظريات التي وجدت لتتحدى الأديان في مسألة الخلق . مثلاً قانون الصدفة والطبيعة ، نقول لأصحاب الطبيعة ماذا تعنون بالطبيعة ، ما هي الطبيعة ، اشيء له كينونة . أم شيء لا كينونة له ؟ فان قالوا لا كينونة له نقول لهم كيف يخلق ما لا كينونة له شيئاً له كينونة ، وإن قالوا : له كينونة نقول : هذه الكينونة لها عقل ، لها علم ، لها حكمة ، فان قالوا لا ، قلنا هذا النظام العجيب لا يمكن ان يصدر إلا عن قوة لها عقل وحكمة ، ولها قدرة . . وإن قالوا لها عقل وحكمة ومعرفة ودراية ، قلنا التسمية منكم بالطبيعة اذن هي تسمية ضيزى . أنتم تقولون عنها الطبيعة ، ونحن نقول عليها الله .

٣ ـ الصدفة :

أما الذين يقولون بالصدفة فحسبنا انهم ردوا على أنفسهم ، ردوا تلك القضية ، وآخر من رد منهم ذلك الفيلسوف الفرنسي (مومنيه) حينما قال يا قوم إن كانت الطبيعة قد اهتدت الى خلق إنسان ذكر ، فهل يعقل أن الصدفة اهتدت الى خلق جنس من جنسه ولكن يخالفه في النوع انثى مثلاً بحيث إذا اجتمعا معاً على شكل مخصوص يوجد منهك جنس يتمثل فيه ذكورة وتتمثل فيه انوثة . ذلك قمة الرد الذي رد به . ولو أننا قرأنا القرآن بامعان لوجدنا ذلك الاستدلال الذي استدل به مومنيه في ذلك العصر . وجدنا القرآن قد تعرض له ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها**

زوجها ﴾[1] . اذن فذلك التكاثر الذي ترونه انما ينشأ من ذكورة ومن أنوثة . وليس فيكم فقط بل ذلك في الحيوان ، وذلك في النبات ، ومن يدري ربما كان أيضاً في الجماد ، ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾[2] .

٤ ـ الوحدانية والكون :

وبعد ذلك حينما سلمت مهمة الخلق جعلها القرآن الخميرة الأساسية في إثبات الوحدانية لله في الوهية الحق وحده . ولذلك نجد ان كل دليل يقول فيه أإله مع الله ، يكون مسبوقاً بقضية الخلق ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، ءآلله خير أما يشركون** ﴾[1] . ﴿ **أمن خلق السموات والأرض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون** ﴾[2] . اذن جعل مهمة الخلق ، واليقين بأنه الخالق ، هي الوسيلة للايمان بأنه يجب ان يكون الهاً واحداً وبعد ذلك يقول : ﴿ **أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾[3] . ﴿ **أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، أإله مع الله تعالى عما يشركون** ﴾[4] ﴿ **أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين** ﴾[5] .

اذن جعل منطلق الاستدلال على الوحدانية هو مسألة ايمانهم واقرارهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق . ولما لم يجدوا في المعركة مناخاً اعترفوا بكل شيء ، ولكن قالوا ما نعبد هذه الآلهة أو الأرباب إلا لتقربنا الى الله زلفى . ما نعبدهم ، اذن

---

(١) آية ١ سورة النساء .
(٢) آية ٣٦ سورة يس .
(١) آية ٥٩ سورة النمل .
(٢) آية ٦٠ سورة النمل .
(٣) آية ٦١ سورة النمل .
(٤) آية ٦٣ سورة النمل .
(٥) آية ٦٤ سورة النمل .

عبدتموهم ، والممنوع ان يعبد مخلوق . اذن فالعذر الذي تعتذرون به ورطكم في الذنب الذي نهيتم عنه . وأنكم عبدتم بالفعل . فلو قالوا ما نعظمهم الا ليقربونا الى الله زلفى أكانوا ينالون شيئاً من المعذرة ؟ لا ، فمن قال لهم ان هؤلاء شفعاء عند الله ولا يشفع عند الله إلا بإذنه ، فهل أذن لهؤلاء أن يشفعوا ؟ كلا لم يأذن لهؤلاء أن يشفعوا ، ثم كيف عظمتموهم على ان يكونوا ذوي قربى عند الله ، إنما يعظم الشيء حين يكون من امر الله سبحانه وتعالى .

اذن فقد انتهت المعركة بأن الله خالق ، والله واحد ، وكل عبادة او تعظيم شيء لم يرد به نص من الشرع فهي مردودة على صاحبها .

في مواجهة أهل الكتاب

بعد ذلك يدخل القرآن في معركة مع أهل الكتاب ، لأن القرآن حينما جاء نعلم ان الدعوة جاءت صيحتها في مكة ، أي في اذن الجاه ، وفي اذن الهيبة . ولكن يشاء الله الا يجعل انتصار الإسلام من ذلك المنطلق ، وإنما يجعل انتصاره من مكان آخر . لماذا ؟ حتى يفهم التاريخ والذين يتحدون تاريخ الإسلام . حتى يفهموا جميعاً أن الإيمان بمحمد لم تخلقه العصبية لمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصبية لمحمد ، فقد تعصب له قوم آخرون ، وجاءت نصرة الدعوة من بينهم . على حين كان أهله وعشيرته في مكة حرباً عليها حتى لايدخل في الإيمان إلا القادر على الإبتلاء ، إلا القادر على قسوة الإمتحان . وبذلك تكون الرجال الذين تكونواأولاً ، ثم ذهب إليهم . لعلهم قالواإن قريشاً والمشركين لم يكونوا أصحاب منهج ولم يكونوا أصحاب مدرسة إيمانية ولا عقائدية ، إنما أخذوا أشياء من تقاليد آبائهم ، وأخذوا أشياء من بعض ما استورد من القوم الذين ذهبوا الى الروم فليست لمذهبهم الديني عقيدة وليس لهم سلوك ، وليست لهم فلسفة ، فمحمد غش هؤلاء القوم .. فيشاء الحق سبحانه وتعالى ان يجعل الجدل أيضاً مع أهل الكتاب الذين يعلم الناس كلهم انهم أصحاب ديانة من السماء . ورسول كل ديانة القرآن يصدقه ، ويقول بالكتاب الذي انزل عليه وقد كانت لهم القيادة في العلم بسبب هذا يدخل معهم الجدل في اي شيء . في ان ما بأيديهم من الكتب لم يكن هو الكتاب الذي أنزله الله ، ولا المنهج الذي أراده الله فأثبت القرآن كثيراً من ترسبات المسخ فيه ،

فمثلا قال مرة ﴿ **ونسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾[1] والذي لم ينسوه ماذا صنعوا به ، كتموا بعضه ، والذي لم يكتموه حرفوه ، ولووا السنتهم فيه ، وليتهم اقتصروا على هذا الحد ، ولكنهم جاءوا بأشياء من عندهم وقالوا هي من عند الله ، ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله** ﴾[2] .

الاله في نظر اليهود :

وبعد ذلك دخل معهم في معركة في ذات الاله فوجد انهم كما قال المغفور له الشهيد الشيخ سيد قطب رحمة الله عليه جعلوا الههم الهاً اقليمياً قومياً يتعصب لليهود ، هذا التعصب لليهود يعطيهم حقوقاً دون بقية البشر ، لأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل . فهم مع غير اليهود على راحتهم في التعامل ، وعلى راحتهم في نقض العهد وعلى راحتهم في كل ما يمكن ان ينالوا من الغير ، ولكن مع بعضهم يحرمون الأشياء . إذن دينهم دين قومي ، والههم اله قومي ، حسبك ما صنعوا حينما أرادوا ان يصوروا الاله ، إقرأ إن شئت مثلاً في سفر التكوين أن الاله ذهب ليرتاض في الجنة ، بعد ذلك سمع صوت آدم وحواء ، قال يا آدم ، قال نعم يارب ، قال : ماذا تفعل ؟ قال يا ربي أنا مستحٍ ، قال لماذا ؟ قال من عورتي ، قال ومن أعلمك أن لك عورة ؟ أأكلت من الشجرة ؟ وأيضاً حينما يتعرضون لمسألة الخروج من مصر ، يقول الرب لهم يا بني إسرائيل علموا بيوتكم بعلامات . لأنني أريد أن أغير على المصريين وأهدم عليهم بيوتهم ، فحتى أعرف بيوتكم علموها حتى لا أهدمها . هذه مسألة ، وبعد ذلك يجلسون الرب على صخرة ، وبعد ذلك يقولون الصخرة من مرمر ، وتحت قصعة من زبرجد ، واضع فيها الرب رجليه ، وبعد ذلك جاء النقباء فاستنكف ان يمد اليهم يديه . ذلك هو الههم .

انحراف في الفهم :

بعد ذلك شرع القرآن في ذلك التحدي ، أنهم قالوا عن الله فقير ونحن أغنياء ،

---

(١) آية ١٣ سورة المائدة .

(٢) آية ٧٩ سورة البقرة .

قالوا عن الله يد الله مغلولة ، قالوا عزير بن الله . إذن كل هذه المسألة دلت على أن اليهودية التي كانت موجودة لا تمثل منهج السماء في شيء ، وليس لها إلا الأسم ، وكلها مقررات، مقررات في مؤتمرات لسلطات زمنية جعلوها من الدين فصار الدين مسخاً تقرأ التوراة فلا تجد شيئاً يتعلق فيها باليوم الآخر، إذن فكان لا بد للدين أن يدخل مع هؤلاء اليهود في هذه المعركة. ودخل تبعاً لذلك معهم في معارك حربية أيضاً.

النصرانية :

بعد ذلك نجد النصرانية ، النصرانية التي جاءت لتصوب اليهودية ، ماذا كان نصيبها ، نصيبها انها دخلت لروما لتنصرها فوثنتها روما . لما وثنتها روما قبلوا هذه الوثنية لأنهم يريدون رعوية ، يريدون شعباً كبيراً فكانوا يتساهلون في بعض الأقضية العقائدية عند الوثنيين ، ويدخلونها في النصرانية حتى يجيء هؤلاء تبعاً لعقيدتهم . ومنوا أنفسهم انهم بعد ذلك حين يستقر الأمر للمسيحية من الممكن ان تنقى المسيحية فظلت المسيحية على وثنيتها .

انحراف المسيحيين :

وجاءت المسيحية لتعدل المنهج المادي الصرف ، ولتعدل تصورهم للاله ، وكان المفروض ان تنضم المسيحية ، وان ينضم الانجيل مع التوراة الصحيحة لينشأ منهجاً ربانياً ولكن انفصل المنهجان بالعداء الموجود بين اليهودية والنصرانية ، فظلت اليهودية على ماديتها المنحرفة المتحللة ، وظلت المسيحية على رهبانيتها ، الى أن جاء من أدخل في المسيحية الوثنية . وبعد ذلك جاءت أشياء يقول الحق فيها ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾[1] قالوا عيسى ابن الله . عيسى ثالث ثلاثة . كل هذه الأشياء كان لا بد ان يجابهها الإسلام ، ويجابهها مجابهة بالعقل وبالمنطق . فحين يقولون أن عيسى اختلف عن الرسل بأنه جاء من أم ولكن عنصر الأبوة قام مقامه الروح الذي نفخ فيه من الله، يقول مؤمن فتنتم في عيسى، فيجب أن تفتنوا في آدم أولاً ، لأن آدم جاء بلا

---

(١) آية ٣٠ سورة التوبة .

شيء ، بلا رجل ولا امرأة ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[١] . الحق سبحانه وتعالى يخلق القانون ويخلق الناموس . ولكن الناموس لا يتحكم فيه . يخلق الناموس فيخلق من رجل وامرأة ، ويخلق من لا رجل ومن لا امرأة . ويخلق من رجل دون امرأة ويخلق من امرأة دون رجل فلا يتحكم فيه الناموس ابداً . فان كنتم في فتنة بسبب هذه فكان يجب ان تفتنوا قبل ذلك في آدم لأن آدم المسألة فيه أوضح ، لأنه لا أب ولا أم .

عيسى بشر :

وأيضاً يأتي القرآن فيقول اذا كان عيسى جاء ليكون أسوة ما دام رسولاً . وأسوة تطبيق ، فهذه التي جاءت أيضاً عن العرب ﴿ **وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً** ﴾[٢] فيرد القرآن عليهم الرد الطبيعي والرد المنطقي ﴿ **قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً** ﴾[٣] لأن الرسول ليس مبلغ منهج فقط ، ولكنه مبلغ منهج وأسوة تطبيق ، فاذا كان ملكاً وقال قلدوني فيما نفذت من احكام الله نقول له لا نستطيع لأنك ملك ، او لا نستطيع لأنك اله ، او لا نستطيع لأنك ابن اله ، ولك من القدرة ما ليس لنا من القدرات . اذن فكانت تنهدم كل الأسوة بذلك الرسول .

المنافقون :

ونقول بإيجاز ان الاسلام خرج من معركته مع المشركين منتصراً ، وخرج من معركته مع اليهود منتصراً ، ومع المسيحية منتصراً ، ولكن عنصراً وجد في الإسلام جاءتنا منه المتاعب وهو عنصر النفاق . لقد أمرنا شرعاً ان نأخذ بظاهر الأمر ، وبعد ذلك توكل السرائر الى الله ، ولكن من هنا أخذ الإسلام ، فقد دخل الإسلام قوم نفاقاً لتمتعوا بامتيازه ، وقلوبهم مع اديانهم ، او مع قومياتهم ، او مع عصبياتهم ، فدسوا في

---

(١) آية ٥٩ سورة آل عمران .
(٢) آية ٩٤ سورة الاسراء .
(٣) آية ٩٥ سورة الاسراء .

الإسلام كثيراً من الأشياء كانت هي خميرة المشكلات للإسلام الى الآن .

محاربة الإسلام باسم الإسلام :

أهم هذه الأشياء ما قال به ابن سبأ في أن الرسول يعود ، وبعد ذلك تنازل عن ان الرسول يعود بعد ما مات ، وقال هو علي الذي سيعود ، وبعد ذلك غث هذه الفكرة ، ووجد لها انصاراً من الباطنية ينتظرون العودة . استغلت هذه المسألة في قيام مذاهب تناوىء الإسلام . وأقرب هذه المذاهب إلينا نحن ، لا نقول مثلاً القرامطة ، لا نقول البابكية او الخرامية القديمة . ولكن ظهر أثرها عندنا ، هذه الآثار قريبة منا في القرن التاسع عشر ، هذه القاديانية ، هذه البهائية ، القاديانية اسسها الإمام الموعود وبعد ذلك يجيء الإمام الموعود وكان إنساناً وكان عالماً طيباً يرد على خصوم الإسلام في مسألة نزول عيسى مرة أخرى ، وتحمس لها وشاع ذكره ونال شيئاً من الإحترام ، ولكنه جاءه شيطان فنزع فيه قال لماذا لا تدعى أنك انت المسيح ؟ وفعلاً ادعى انه المسيح وبعد ذلك حين نبحث في تاريخه ، وعن الملابسات نجد ان الانجليز هم الذين دسوه حين قامت حركات التحرر ، بعد ان قامت شركة الهند وصنعت ما صنعت ، وبعد الثورات التي قامت في الهند ، والثورة التي قامت في السودان ، والثورة التي كانت توشك ان تقوم بقيادة جمال الدين الأفغاني . اذن فالجهاد هو الذي يؤرقهم فماذا كان ؟ نفخوا فيه وعاونوه ، وباقراره هو فيما كتب انه مخلص للانجليز ، وان أباه في حرب الانجليز مع الهنود ارسل خمسين فارساً من اتباعه ليحاربوا في صفوفهم ، وان اخاه كان يدافع عن صفوف الانجليز . وهذه كتب مشحونة بهذا كما نقل لنا المؤلفون والثقاة . وبعد ذلك الغى الجهاد ، وذلك هو الأمل الأساسي المطلوب ، لأن الجهاد هو الذي يؤرق خصوم الإسلام . فقد جرب خصوم الإسلام المواجهة العسكرية فواجهونا بتكتلهم في جيوش أوربا . وبعد ذلك كان ما كان مما تعرفونه من الحروب الصليبية . اذن المواجهة بالسلاح لا تجدي . والمواجهة بالخصوم ، جاءوا بالمبشرين ، وانتم سمعتم فيهم الكثير . المبشرون الذين تغلغلوا في البلاد بصفة الإنسانية وبصفة الرحمة ، وبصفة النبالة ، ولكن لم يصنعوا شيئاً ، وعادوا جميعاً من كل اقطار الإسلام بخفي حنين ، والنفقات التي انفقوها كانت عليهم حسرة . وبعد ذلك جاءوا بالمستشرقين ليسمموا افكار المسلمين

وهذه هي المعركة التي نشقى بها طويلاً . فماذا صنعوا ، جابهوا القرآن ، لانه حينما ثبت حتى لرجالهم ان التوراة والانجيل محرفة ، كـان عليهم ان يلتمسوا في القـرآن ثغرات ويقـولوا والقـرآن أيضاً ، حتى انهم تحكمـوا في أسلوب القرآن ، فقـالوا القـرآن أخذه المسلمون بانبهار وقداسة ، ولو اخذه اي انسان ليقرأه بدون انبهار منه ولا قـداسة لـه لأمكنه كما سمعت بأذني ان يعلم على القرآن بالقلم الأحمر اي يجد فيه خطأ . وبعد ذلك ظلوا يبحثون وينقبون فيخرجون اشياء مثل : القرآن فيه لحن ﴿ **ان هذان لساحران** ﴾ انه جاء على غير طريقة العرب . القرآن فيه حروف زيـادة ليس لها معنى ، وخصـوصاً الذي يشجعهم على هذا ان بعض المفسرين يأتي على بعض حروف القرآن ويقول مثلاً : من حرف زائد ، يقول زائد اي لا لزوم له ، فلماذا جاء اذن ؟ .

معركة التشكيك في القرآن :

وبعد ذلك شككونا في الأسـاليب وكأن هؤلاء الأعـاجم الذين تعلمـوا العربيـة أحسن في الفصاحة وفي البلاغة من العرب الذين تحدوا بهذا القـرآن فما استـطاعوا ان يقيموا له رداً ، ما استطاعوا ان يأتوا بأقصر سورة . اهؤلاء الذين هم فصحاء القوم ، وهم الذين لهم القدح المعلى في صناعة البيان وصناعة الكلام ، كانوا يتركـون خطأ في القرآن ، او لحناً فيه ،ولا يردون به على رسول الله ﷺ ؟ .

وبعد ذلك اخذوا يتصيدون اشياء كثيرة من اساليب القرآن . يـأتي مثلاً فيقـول ﴿ **ما جاءنا من بشير** ﴾ من هـذه زيادة ، والقـرآن اتى بها هكـذا بلا داع . والآفـة انما جاءت كما قلت من ان بعض كتبنا تقول من حرف زائد . ونحن نقول له : لا تـوجد زيادة ابداً في حروف القرآن ، وكـل حرف مـوضوع بتصميم ، وكـل حرف مـوضوع بهندسة ، اذ لو كان القرآن منهجاً فقط لكنا يجب ان ندافـع بهذا ، فـما بالـك والقرآن معجزة أي كلام الله ، ثـم بعد ذلك نقول فيه زائد ؟ يجب ألا نقول ذلك ، ان عز علينا شيء من الأشياء فلم نفهمه نقول الله أعلم بالمراد ، وليكن ذلك من المتشابه الذي لا نعرفه ، لأن الحق سبحانه وتعالى جعل قرآنه أمرين ، محكم نعمل به ومتشابه نؤمن به ، والأمر في المتشابه انما هو ان نؤمن بأنه من الله ، وذلك ابتلاء العقل ، وان كل تكليف من التكليفات انما جاء ليصادم قوة من قوى النفس . فمثلاً يقول للعين انظري الى كذا

ولا تنظري الى كذا ، حدد انطلاقها في الرؤ يا . وللأذن اسمعي هذه ولا تسمعي هذه وللسان تكلم بهذه ولا تتكلم بهذه ، ولليد افعلي هذا ولا تفعلي هذا . اذن والعقـل ما لون ابتلائه بالتكليف ؟ العقل مهمته ان يفهم الاشياء فيأتي بأشياء يقـول ، هذه نقف عندها ولا نفهمهـا ، والمراد منهـا ان نؤمن بها . ولـذلك حـين يعرض القـرآن لقضية المتشابه يقول: ﴿ **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الـذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله** ﴾[1] فاذا كان العلماء قالوا من وقف عند هذا يكون المعنى ، الراسخون في العلم لا يعلمونه اذن ما مدى علم « الراسخون في العلم » ؟ يقولون آمنا به ، اذن فالمطلوب من المتشابه ان تؤمن به فقط لأنه لا يترتب عليه حكم ، هذا الحكم ان عصيته او اطعتـه تثاب او تعاقب ولكن هذا هو ابتلاء العقل في أن العقل الذي الف ان يفهـم الأشياء يتعبده الله بأن يأتي له بالتشابه ليسأل ويجيب : الله قاله ، نعم قاله ، اذن تفهمه على ظاهر وضعه ونكل الكيفية فيه الى الله سبحانه وتعالى .

ولو ان المؤمنين تقبلوا منهج الله هذا التقبل ، الا ان بعضهم قال لا الوقف ليس على قوله ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾[2] وانما على قوله ﴿ **والراسخـون في العلم** ﴾[3] اذن الراسخون في العلم يعلمونه . واذن فما مدى علمهم فيه ؟ والقرآن قال ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾[4] ، اذن سواء وقفت عند الثانية او وقفت عند الثالثة فليس عند الراسخين الا ان يقولوا آمنا به ، والشيء الذي جعله الله ابتلاء لك لتقف عنده حين تقف عنده وحين تعجز عنه يقول لك لقد اديت المطلوب من الحق سبحانه وتعالى ، لأن العجز عن ادراك شيء لم يرد الله ان تدركه هذا هو عين ادراك سره . اذن والراسخون في العلم يقولون آمنا به .

ثم بعد ذلك يعرضون آيات من القرآن يقولون ان القرآن لم يحسن العد ، كيف يقولون كيف يقول في آيات خلق السموات والأرض انه خلقها في ستة أيام ، فاذا ما جاء في آية التفصيل يقـول ﴿ **أئنكم لتكفرون بـالذي خلق الأرض في يـومين وتجعلون لـه**

---

(١) آية ٧ سورة آل عمران .

(٢) و(٣) و(٤) آية ٧ آل عمران .

أنداداً ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة ايام سواء للسائلين ﴾[1] ، في أربعة أيام ، اثنان وأربعة يساوي ستة ، ﴿ ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾ فان عددت يومين واربعة واثنين اصبح الجميع ثمانية . اذن قرآنكم لا يحسن العد ، ونسوا انهم يتكلمون في آية لما تكلم الحق سبحانه وتعالى قال ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ وبعد ذلك جاء بخلق جديد ، بخلق متمم لتلك الأرض ، وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها اقواتها ، اذن المخلوق ثانيا هو تتمة المخلوق اولاً فكانت الآيتين اي الأربعة تتمة الاثنين كما تقول مثلاً سرت الى جدة في ساعتين والى مكة في ثلاث ساعات فتكون الساعتان الأوليان داخلتين في الثلاث الثانية .

وبعد ذلك يأتي فيقول متهجماً على القرآن ان القرآن يقول في معنى واحد بأسلوب وبعد ذلك في المعنى ذاته يجيب بأسلوب آخر . فان قلت ان آيات القرآن بليغة ، فأيها أبلغ ان كانت هذه هي البليغة فتكون الثانية غير بليغة ، وان كانت الثانية غير بليغة فتكون الأولى غير بليغة ويضربون لذلك مثلاً ، الحق سبحانه وتعالى يقول في قتل الأولاد بسبب الفقر مرة ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾[2] ، ومرة ثانية في آية ثانية يقول ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾[3] ، هل البليغ ان يقدم هذه او ان يقدم هذه ؟ ان كان البليغ ان يقول ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ تكون ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ غير بليغة . ونحن نقول له : انك أخذت المسألة من عجزها ، ولو انك جئت بكل آية مع صدرها لعرفت ان الموقف هنا يتطلب ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ وهناك في الموضع الآخر يتطلب ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ . انت تنظر فقط الى الأمر في الجملة على انه في قتل الأولاد ، ولكن قتل الأولاد له دوافع بعض هذه الدوافع الفقر الموجود بالفعل ، فحين يكون الانسان فقيرا بالفعل ، ثم يقتل ولده يكون قد شغل نفسه برزق نفسه وهو موجود

---

(١) آيات من ٩ ـ ١٠ سورة فصلت .

(٢) آية ١٥١ سورة الانعام .

(٣) آية ٣١ سورة الاسراء .

قبل ان يوجد له الولد . ولذلك يقول في صدر الآيـة الأولى ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من املاق** ﴾(١) يعني الفقر موجود ، ﴿ **نحن نرزقكم** ﴾(٢) ، لأن انشغال المرء برزق نفسه قبل أن يشغل برزق من يأتيه . ولكن في الآية الثانية لا يقول هذا ، بل يقول ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق** ﴾(٣) فكأن الفقر غير موجود وما دام الفقر غير موجود يكون الإنسان خائفاً من مجيء الولد حتى ولا يفتقر ، فيقول له ﴿ **نحن نرزقهم** ﴾ اي الذي تظنه هو سبب الفقر ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾(٤) . إذن ذلك أسلوب وذلك أسلوب .

ومع أننا ما كان يصح أبداً أن نجعل مثل تلك الترهات لها ردود إلا أنه مخافة ان تقع عليها عين إنسان لا توجد عنده الخميرة العقائدية التي يدفع بها هذه الأشياء ، فنحن نقول ذلك استئناساً حتى إذا ما صادف الإنسان مثل هذا النوع ، من الممكن أن يجد له الردود الكافية .

مطاعن مزيفة ضد القرآن :

حاول الاعداء ان يتحدوا الإسلام بواسطة التبشير وبمسائل التبشير ، وقد انتهينا منه على أنه لم يظفر بطائل . ثم بالاستشراق أيضاً فلم يظفر الاستشراق بطائل ، لأنه وإن ظفر أولاً بأنه دخل بخبث ودهاء على بعض العقول ، فقد قيض الله في زجال الإسلام من يرد هذه الأشياء . فقلت ثقة المسلمين في المستشرقين لأنهم كفار سينظر اليهم المؤمن على أنهم ضد دينه . فتكون عنده مناعة من كل ما يقولون . إنما الآفة الأصيلة هي أن يردد المستغربون أقوال المستشرقين ، المستغربون هؤلاء لأنهم مسلمون سنأخذ كلامهم على أنهم مسلمون . هذه الطائفة التي أخذها الأعداء وصنعوها على أيديهم ، كل واحد منها تولاه جماعة صاغوه صياغة ، وبعد ذلك بعثوا به إلى بلاده فولى المناصب الكبيرة ، وأصبحت لهم القيادة الإعلامية ، وأصبحت لهم السيطرة على مناهج التعليم . ومن هنا جاء الخطر ومن هنا جاء الفساد .

---

(١) و (٢) الآية ١٥١ سورة الأنعام .
(٣) و (٤) آية ٣١ سورة الاسراء .

عداؤهم للاسلام أكبر :

حينما نترك تحديهم للقرآن ومعركتهم معه ننتقل الى معركة ثانية أقلقتهم وأتعبتهم ، ونلاحظ أن أعداء الاسلام صليبيين أو صهيونيين أو شرقيين ، لو وجدوا أن الاسلام منهج تافه ما عادوه ، لكن كلما ترى حرارتهم في عداء الاسلام فاعلم أنهم فهموا في ذلك الاسلام القوة التي لو تنبه المسلمون الى ما فيها من كنوز فسيحيطون بهم ، وقد كان فعلاً لم يكن ذلك كلاماً نظرياً ، وانما صار واقعاً وصارت الأمة الاسلامية ، الأمة الأولى في العالم فترة طويلة من الزمن . اذن فكلما كان عندهم سغار في حرب الاسلام وفي اقامة المعارك معه فانهم يفهمون ما هو الاسلام . عداؤ هم للاسلام أكثر من عدائهم للهندوكية . وعداؤ هم للاسلام أكثر من عدائهم للبوذية . لماذا ؟ لأن هذه لم تدخل معهم في تجارب السيادة على العالم . فهم لا يريدون للاسلام أن تعود له هذه السيادة . كيف يصنعون لا بد أن يأتوا الى عناصر القوة ليحطموها ، ولذلك تجد فلاسفتهم أو مستشرقيهم تخونهم بعض عبارات ، هذه العبارات حين تخونهم تعطينا نواياهم بالنسبة الى الاسلام . مثلاً «وليم ديفور دي بلجراف» يقول متى زال القرآن ومكة من بلاد العرب حينئذ يمكننا أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها الا محمد وكتابه . صدق ، صحيح القرآن ومكة هما أبعدانا عن هذه الحضارة التي يلفون فيها أو في زخرفها السموم والانحراف . فاذا كان القرآن ومكة يحولان بيننا وبين هذه الحضارة فهم يريدونا أن نتدرج في سبيلها حتى نتحلل وإذا تحللنا أمكن للمبدأ فينا أن يبهت ، وإذا أمكن للمبدأ أن يبهت ينشأ جيل بعد جيل لا شخصية له إسلامية ، وحين لا توجد شخصية إسلامية يكون من السهل اليسير ألا تقوم لهذه الدولة قائمة أبداً .

شبهة القضاء والقدر :

ثم حين ننظر اليهم في المعركة نجد أنهم جاءوا الى نقطة أتعبتهم جداً وهي ايمان المؤمن بالقضاء والقدر ، فقالوا القضاء والقدر والايمان بهم في منهج الاسلام هو سبب التخلف في تلك الأمة . لماذا لأنهم يتركون القدر يصنع ما يشاء ، لا توجد عندهم تحفزات ، لا يوجد عندهم طموح ، يقولون ما هو كائن كائن . هذا الذي أتعبهم من

القدر ، والله لو أن ذلك القدر من هذه الزاوية لأحبوا الايمان به ، لأنهم يريدونها أمة متخلفة ، أمة متأخرة ، أمة لا قوة لها ، فاذا كان الايمان بالقضاء والقدر يوصل الى هذه الغاية أكانوا يلفتوننا الى أن ننصرف عن الايمان به ، لا ، بل كانوا يشجعوننا على أن نزداد ايماناً بالقضاء والقدر . ولكن الذي أتعبهم في الايمان بالقدر شيء آخر هذا الشي الآخر هو ما وجدوه في المسلمين الذين اصطدموا معهم في معارك من عدم مهابة للموت ، من تهافت عليه ، من رغبة في الاستشهاد ، هذه المعاني لا توجد أبداً في أي تقنين بشري . فما الذي يوجدها ؟ لأن المؤمن يعتقد أنه ان كان الله قد قضى عليه أن يموت فسيموت ، وتقدمه للمعركة لا يؤخر ولا يقدم في مسألة أجله .

تلك المسألة أتعبتهم فأخذوها من زاوية أخرى ليثبطوا المسلمين ، وليقولوا أن الايمان بالقضاء والقدر هو سر تخلفهم ، ولم يفطنوا الى أن الايمان بالقضاء والقدر هي عقيدة من العقائد ، وعقيدة غيبية ويجب أن نؤمن بسرها . ولكن الايمان بالقضاء والقدر في ماذا ؟

قلنا في أول الكلام أن الله خير الانسان في أشياء ، وأنه قهره على أشياء ، وأيضاً يجب أن نحلل الانسان الذي يؤمن بذلك القضاء والقدر . الانسان يفرق بين عمل يقع فيه ، وعمل يقع عليه ، وعمل يقع منه ، فالأعمال التي تقع عليّ ولا ارادة لي فيها يجب أن أؤمن بأن لله فيها قدراً ، وأن لله فيها قضاء ، وأن له فيها حكمة . أما الأمر الآخر الذي يقولون أنه ينافي الطموح ، فالفرق بين فعل يقع في ، وفعل يقع عليّ ، وفعل يقع منّي ، منطقة الاختيار في فعل يقع مني ومنطقة الايمان بالقضاء والقدر في كل ما يجريه علي في الفعل الذي يقع علي ، ولا ارادة لي فيه ، وفي الفعل الذي يقع في ولا اختيار لي فيه ، اذن فهناك فارق بين من يقول أن الايمان بالقضاء والقدر هو سر التأخر ، ومتى تأخر المسلمون ؟ المسلمون جربوا في الدنيا حين كانت عندهم في أوروبا العصور المظلمة ويسمونها العصور المظلمة ويدرسونها لنا ، ان القرون الوسطى والقرون المظلمة كانت مظلمة عندهم وما دامت مظلمة في أوروبا تكون مظلمة في كل الدنيا ، نعم جعلوا أوروبا هي الحكم ، وهي السيد ، فما دامت قرونهم كانت مظلمة فلا بد أن يقول التاريخ أن القرون مظلمة . ولم يعرفوا أن ذلك كان عصر النور عندنا ، كان عصر النور الذي اخفناهم بمخترعاتنا فيه ،

كان عصر النور الذي توصلنا فيه الى أشياء ، ونقلنا لهم الحضارات نقلاً مبوباً ونقلاً مهذباً ، وزدنا على ذلك وعلمناهم كيف يدخلون للعلم التجريبي ، العلم المنهجي ، هذا العلم الذي أخذوه منا ، وبعد ذلك بنوا عليه ، فصارت عندهم تلك الحضارات . في مكتبة الكونجرس الأمريكية تجد فيها ، في قاعة المكتبة هناك . صورة للعربي وأمامه الابريق رمز للعلم التجريبي ، رمز للاختبار ، اذن نحن لم نكن كما تقولون أمة دائماً متأخرة . . لو كان ذلك كلاماً نظرياً لكان معقولاً ، انما هذا حصل في الواقع وحصل تجريب لهذه الأمة . وهذه الأمة كما قلت ظلت فترة طويلة هي الأمة الأولى في العالم .

شبهة الرق :

ثم جاءوا وأدخلوا الاسلام متهماً في معركة اسمها معركة الرق . رحم الله العقاد ، قال الاسلام لم يشرع الرق ، وانما شرع العتق . وصحيح هذا لأن الرق كان موجوداً ، وكان موجوداً في الديانات . واقرأوا ان شئتم التوراةوالانجيل . الرق كان موجوداً نظاماً اقتصادياً متعاملاً به . وجاء الاسلام وهو موجود ، ولكن يجب أن ننظر الى الاسلام ماذا صنع فيه ؟ صنع الاسلام فيه أنه جاء فوجد منابع متعددة للرق ، وليس له مصرف واحد الا ارادة السيد . اذن فمنابعه متعددة ومصرفه واحد . فجاء الاسلام وعكس القضية ، كشأنه في كل ضلال ، فوحد منبع الرق وعدّد المصارف . أهذا دين جاء ليبقى على الرق ، أو لينشىء الرق ، أم جاء ليصفي الرق ؟ المنابع كانت كثيرة التي تأتي بالرق والمصرف لصرف الرق واحد وهو ارادة السيد ، فعكس الاسلام المسألة فعدد المصارف ووحد المنبع ، ولا رق الا بحرب مشروعة . وبعد ذلك ترك لارادة السيد وألزمه في بعض الذنوب ، وجعله شكراً على بعض النعم ، فتعددت المصارف وتوحد المنبع .

نظرة الاسلام الى الرق :

ثم ماذا كان في المنبع ؟ كان في المنبع ما تسير عليه النظم الحضارية الآن ، أي المعاملة بالمثل . أكان الاسلام يأخذ الرقيق ليطلقه ، ورقيق المسلمين في أيدي

الكفار ؟ كلا ، بل لا بد من المعاملة بالمثل ان أطلقوا أطلقنا ، وان فدوا نفدى . ومع ذلك فالذي يبقى معنا رقيقاً له حقوقه . فما هي حقوقه في الاسلام ؟ حقوقه ﴿ **إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فإذا كان تحت يدي أحدكم أحد فاطعموه مما تطعمون وألبسوه مما تلبسون ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإن كلفتوهم فأعينوهم** ﴾. أروني عبداً يعامله سيده هذه المعاملة ؟ وحينما عومل الرقيق هذه المعاملة ، وجاءت ظروف وأخرجوا من الرق عادوا الى أسيادهم مرة ثانية . تلك تجربة حصلت في السودان عادوا الى أسيادهم ثانية .

الرق أفضل من القتل :

ومع ذلك نأتي ونقول أن الرق الذي نتحدث عنه يأتي من المصدر الوحيد الذي أبقاه الاسلام وهو رق الحرب ـ اذا قارنا فيه بين رق وحرية تكون المقارنة خطأ ، انما نسأل لماذا جاء هذا الرق ؟ انه جاء في الحرب ، حرب بين مؤمن وكافر ، وحين يدخل المؤمن مع الكافر في سعار الحرب ، الحق سبحانه وتعالى لا يريد من المؤمن أن يسفك دماً ولو كافراً فانه ما استأسر يستأسر ولا يقتله الا اذا كان ان لم يقتله سيقتله . اذن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم دم الكافر من القتل ، ألا لو دخل المؤمن في سعار الحرب مع الكافر كان كل كافر يأتي به يقتله ، ولكن قال له استأسر ولا تقتل . فاذن يجب أن لا تكون المقارنة بين رق وحرية والا تكون مقارنة خاطئة ، انما المقارنة بين رق وبين ابقاء على الحياة .

وبعد ذلك حينما يبقى على حياته ويؤخذ أسيراً ويكون رقيقاً فما المعاملة الاسلامية التي يعامل بها ؟ انها ليست موجودة الآن في أحدث النظم الانسانية .

المرأة في الاسلام :

بعد ذلك دخلوا علينا بشيء آخر ، هذا الشيء الآخر الذي يسمونه رأس الحربة أو الفتنة اللعوب ، كما يقولون المرأة ، والاسلام ظلمها و . . . و . . . الخ الضجة الطويلة .

مغالطات :

نحن لا نرد في هذه المعركة عليهم بشيء من قبل أن نبين لكم أنهم أنفسهم وفلاسفتهم لهم آراء في هذا ، آراء طويلة عريضة تنقل المسألة نقل جدل الى موضوع آخر ، وهذا النقل ما هي العلاقة بين المرأة والتعليم ، وبين التبرج والزينة والسفور والخروج في الشارع ، أهو العلم في النهود تظهر ، أهي أداة استقبال العلم ؟ أأداة استقبال العلم في كشف الأفخاذ ؟ أأداة استقبال العلم في الملابس تكون ضيقة بحيث يبدو الجسم فصولاً متعددة ، وما هي العلاقة بين هذا وهذا .

ونحن أيضاً نقول : الاسلام لم يمنع أن تتعلم المرأة ، فقط كما انتهى فلاسفتهم اليه علموها العلم النوعي ، نعلمها العلم النوعي الذي يناسب مهمتها .

المرأة عندهم :

لقد أدخلوا في أذن المرأة أننا نذلها ، ولكن المرأة في الغرب لو رأيتم كيف تعيش المرأة العجوز أو الأم أو الجدة هناك لرثيتم لحالها ، لكن عندنا كلما كبرت المرأة كلما صارت أماً أو صارت جدة تزداد بها حفاوة أبنائها وحفاوة أحفادها . وكلما شابت فيها شعرة أو تجعد في وجهها تجعد زادت في أعينهم جمالاً ، ولكنهم هناك لا يعرفون لأمهاتهم حقوقاً ولا لأسرهم واجبات . ان المرأة الغربية العاقلة تتحسر على منزلة المرأة عندنا في الاسلام . الاسلام لا يمنع أن تتعلم المرأة العلم النوعي ، العلم المناسب لمهمتها .

تعاون وتكامل :

وأيضاً القرآن حينما يعرض هذه المسألة يعرضها عرضاً مبنياً على فلسفة ، هذه الفلسفة لماذا المرأة والرجل هذان الجنسان هما اللذان بينهما التنافس ؟ لماذا تريد المرأة حقوق الرجل أو بعض الرجال يريد أن يعمل كالمرأة ؟ لماذا لا نجد هذا في أجناس الحيوانات التي هي أدنى منا ، أرأينا مثلاً انفصاماً بأن الذكر يكون كالأنثى ولا الأنثى تكون كالذكر ، لم نر قطيعاً من الحيوانات تقوده أنثى أبداً أبداً ، الحيوانات كل قطعانها ليس فيها هذا أبداً . احتجوا علينا بالنحل في أن الملكة أنثى ، نقول : أن الملكة أنثى لأنها هي محل الحضانة ، هي التي تلد فقط ، فهذا التكريم باتباعها لأنها

حاضنة ، كذلك المرأة عندي يجب أن تكون هي الحاضنة للأولاد ، يجب أن تكون هي التي تربي الأولاد في السن الغض ، في السن الطري ، فتلك مهمتها ، مهمتها جعلها الله سكناً للرجل وجعلها لتأتي له بالبنين والحفدة . اذن مهمتها مهمة سامية ، لأنني كما قلت مرة سابقة لننظر الى مهمة الرجل والى مهمة المرأة لنقارن أي المهمتين أسمى ؟ الرجل قصارى ما يصنع في مزرعته أو قصارى ما يفعل في مصنعه أن ينتج أدوات ، ويصنع أدوات ، لكن المرأة تصنع ماذا ؟ تصنع أكرم مخلوق على الله وهو الانسان صنعتها مع الانسان ، حنانها على الانسان ، والحق سبحانه وتعالى حين يخصصها لهذه المهمة يضرب لنا المثل فيقول : لا تجعلوا بين الرجل والمرأة عداوة ﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن**﴾[1] كل انسان له مهمة ، ولذلك في مناسبة أخرى قلت أن الحق سبحانه وتعالى حين يعالج قضية مختلفاً عليها يأتي بقضية بين يديها متفق عليها ثم ينذر اذا اتفقتم في هذه فيجب أن تتفقوا في هذه ، فالحق سبحانه وتعالى ساعة يعرض هذه المسألة ، يعرض لنا شيئين متقابلين قد يظن الغبي أنهما متعاندان ، ولكن التحقيق أنهما متعاونان على مهمة ، فضرب مثل الليل والنهار ، الليل لو جعلته سرمداً الى يوم القيامة كما قال : ﴿ **قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون** ﴾[2] . الله اذن من رحمته أن جعل شيئين متقابلين ، فلماذا تأخذهما أنت ضدين ، هما ليسا ضدين ، هما متكاملان لأجل نظام الوجود ، لأن الليل سكن وهدوء وراحة ، والنهار كدح ، فلو لم يوجد الهدوء والراحة والاستقرار يأتي الكدح والانسان متعب مجهد ، اذن فذلك له مهمة ، وذلك له مهمة أتقول أنا أريد أن أسوي الليل بالنهار ، تكون قد أحلت أو أساوي النهار بالليل تكون قد أحلت ، ولذلك يأتي الحق في

---

(١) آية ٣٢ سورة النساء .
(٢) آية ٧١ ، ٧٢ سورة القصص .

هذه القضية المتفق عليها ليضع فيها الفصل ، فيقول مثلاً ﴿ **والليل اذا يغشى ، والنهار إذا تجلى** ﴾[1] هذان متقابلان اياك أن تظن أنهما ضدان . هما متعاونان على مهمة في الوجود ﴿ **والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى** ﴾ ثم جاء للقضية التي لا يمكن أن يختلف فيها قال ﴿ **وما خلق الذكر والأنثى ان سعيكم لشتى** ﴾[2] كل واحد له مهمة كل واحد له وظيفة يؤديها ، فلو أنك أخرجت هذا الى وظيفة ذاك تكون قد أحلت .

اذن فيجب أن نفهم التحديات ـ أيها الأخوة ـ وأن نرد عليها الردود المقنعة وأن نرد عليها الرد الأهم أو الرد الأساسي وهو أننا لم نستقبل ولم نؤمن بالله لأننا آمنا بالمنهج ، نحن آمنا بالمنهج لأنه من الله ، وما دمنا قد آمنا بالمنهج لأنه من الله فيجب ألا نرد على الله أمراً فهمنا علته بعقلنا أو لم نفهم ، والا فالبحث في كل علة حكم معناه أنك رجعت في القضية الأساسية وهو ايمانك بالله عادلاً وايمانك بالله حكيماً وايمانك بالله قادراً .

(١) آية ١ ، ٢ سورة الليل .
(٢) آية ٣ ، ٤ سورة الليل .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٧ قَضِيَّة

في ميزان الإسلام

الفصل الأول
قضايا عصرية

تقـــدمـــة

هـذا الفصل هـو حصيلة ما نشـر من أحاديث للشيـخ في جريـدة الجمهوريـة مضافاً اليها بعض آرائه التي خص بها الكتاب .

وبين موضوعات الفصل رابط جوهري ناشىء عن بروزها بشكل واضح في زماننا . واقتحامها علينا حياتنا . غير أن البعض منها يظهر ويخبو على مر الأزمنة . وكان حظ زماننا منها الظهور مرة أخرى .

واعتقادي ان هذه القضايا لا تتسم ـ فقط ـ بارتباطها بمشاكلنا المستحدثة ، وانما هي تضم بين جنباتها بعض ما يلزم المسلم من زاد في رحلة الحياة الشائكة سواء في السنين الخوالي أو الحواضر أو القوادم لو شاء الله قدومها .

امرأة فرعون ودرس لنساء اليوم

قصة امرأة فرعون التي عرضها القرآن الكريم عرضاً سريعاً ، تدل على اصالة المرأة في مجالها العقدي . وأنها ليست تابعة في عقيدتها لأحد ، ولو كان هذا الأحد (فرعون) الذي ادعى الألوهية . . فإنها تأبت عليه . وأعلنها الله تعالى في قوله : **﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾**[١] .

---

(١) الآية ١١ سورة التحريم .

فهنا عزفت الزوجة عن جاه الالوهية الكاذبة وجاهها ونعيمها الملفق ، بايثارها شيئاً لا يزال غيباً وهو الجنة . . فلو أنه كان شيئاً محساً لكان أمراً معقولاً ولكنه بأمر غيبي . . هذا الأمر الغيبي ضمانته في أنه اخبار من الله الذي تثق في صدقه . .

وفي هذا العرض جواباً ، عن كل التساؤلات التي تتصل بالحياة المعاصرة . فزخرف الحياة المرئي وزينتها المسيطرة وتبرجها الشائع يجب ان يقارن ـ عند المرأة العاقلة ـ بما يعد لفاعل ذلك من عذاب ، وبما يعد للصادق من ثواب . . والا كان المؤثر للماديات المشهدية عن الوعد والوعيد الغيبي ، غير مؤمن بالذي أوعد ووعد .

ان المكلف لا ينصرف عن تنفيذ أمر الله الا لعدم استحضاره للجزاء على الطاعة والجزاء على المعصية . . . فلو أن المرأة استحضرت عقوبة الله على مخالفة منهجه استحضاراً غير مشكوك فيه ـ لرفضت كل مخالفة لمنهج الله . ولكن الغفلة عن الجزاء . هي السبب الفاعل في الانصراف عن الأمر مطلوباً وعن النهي مطلوباً .

وحسب الانسان ان يعلم ان فرعون ـ بدعواه الالوهية وباستخفافه قومه ـ لم يستطع أن يتبع له امرأته !

ومن هنا ، يجب على الفتاة المقبلة على الحياة ، ان تنظر الى أحوال السيدات اللاتي ادبرت عنهن الحياة ، وتنظر في حياة هؤلاء . . أهن مرتقيات فيما كن فيه عندما كانت الحياة مقبلة عليهن أم تنازلن . . ؟ وهذا التنازل نحو ما يقرب من المثل العالية أم يبعد عنها . . ؟

والذي لا شك فيه ، انهن يصرن الى شيء آخر تماماً من محاولة احياء القيم ، والتمسك بأهداب الحشمة واتعاب المسؤولين في الاستفتاءات عن الحلال والحرام ، وما هي الوسيلة الى استبراء الذمم مما حدث في سابق العصر والأوان . . ؟ كل هذا يجب ان تستحضره الفتاة . .

وبدلاً من أن تؤجل اليقظة الايمانية الى ميعاد الشيخوخة ، يجب أن تتنبه الى أنها لا تملك أجلها الى أن يدركها عهد التوبة والاستغفار والتطهر ، وان ملكت ، فما الذي يؤخرها عن هذه الخلاوة التي تختتم بها هذه الحياة ولا تحاول ان

تتعجلها طهراً وصفاء ونقاء .

ان الشيطان يخدع كثيراً من الفتيات بأن التبرج ، والزينة ، واظهار المفاتن ، أمور تطلبتها عادات التحضر والارتقاء . ولا يعني التحلل الخلقي ، ولا التفسخ الايماني . فقد تكون ـ من حالها هذه ـ على موفور من الالتزام الديني فيجب ان نقول لها : اننا لا نتهم الفتاة في تبرجها ولا في اظهار مفاتنها ، وسنصدق أن ذلك لا يعني الا شكلية حضارية . وعلى الرغم من بطلان هذا الكلام ، لكن ، ما أثر منظرها في اهاجة غرائز سواها واستلفات انظار من يراها . . ؟ هل تضمن أن الذي يراها لا يتأثر بما يرى ، ولا يهيجه ما يشهد ؟ فإن لم يكن لاحتشام الفتاة الا سد ذريعة جلد غرائز الرائين والمشاهدين . لكفاها ذلك التزاماً .

ثم ان الرجولة الحقة في الزوج الا تحب المرأة ان تكون مقصورة على زوجها ؟ له هو وحده فقط . ان الذي لا اشك فيه ، ان من لا يحب ذلك في امرأته ، له هدف في ان يرى نساء سواه وان إباحته ذلك لامرأته ، هو جواز المرور لذلك المجتمع الموبوء .

دور أجهزة الاعلام في العالم الاسلامي

أجهزة الاعلام في العالم الاسلامي . تسير في اتجاه واحد مع أي نشاط آخر من نشاطات العالم غير الاسلامي ، لأن الفتنة بالغرب جعلت هذه الأجهزة كغيرها تحذو حذوه في كل شيء ، وتنهض بأي لون من ألوان النشاط على خطته . فكأننا ننقل كل مجالات الحياة هناك ، الى مجالات الحياة هنا .

ومن هذه المجالات مجال الاعلام . . .

والاعلام في الغرب كله مهمة شركات . . والمهمة الأساسية لأي شركة : خدمة رأس المال بتحقيق الأرباح .

وتحقيق الأرباح لا يتأتى الا بالانتاج الكثير المستميل للمستهلك .

فالغرض الذي من أجله أنشىء الاعلام في الغرب ، غرض لا يقوم الا على تحقيق الأرباح ، وتحقيق الأرباح لا يتأتي الا بتعدد المستهلك الذي يحب كل ما

يمتعه . ويحقق له غاياته التي يشتهيها ، والامتاع دائماً يكون سائراً مع تحقيق الشهوات . وبالتالي فإن وسائل الاعلام هناك ، مرغمة اقتصادياً على أن تحقق لمجتمعها أقصى ما يمكن من المتع : بالشهوات والالتذاذ بالانحراف .

وكل تقدم يقاس بقدر ما يتحقق من هذا الغرض الأصيل . .

ولكن العجيب . أن وسائل الاعلام في العالم الاسلامي ملك للدولة فهي ليست شركات استثمار . ولكنها مجال خدمات . ومع ذلك لم يفطن الاعلام الى هذه الحقيقة ، وسار ـ في مناهجه ـ على وفق مناهج الغرب ، الذي لا يهم فيه القائمون على أمر شركات الاعلام بما يهدر من قيم . بقدر ما يهمهم ما تحققه من ربح !

ان المفروض في وسائل الاعلام في البيئات المتماسكة الملتزمة : ألا تنزل الى المستوى الذي تطلبه غوغائية الجماهير . بل من واجبها : أن ترتفع بهذه الغوغائية لتأخذ بيدها الى مستوى رفيع من الفضائل والقيم . . أما أن يهبط الاعلام الى مستوى تحقيق النازل من الشهوات . فهذا لا يمكن ان يكون اعلاماً رشيداً مخلصاً . .

والاعلام لو نزل الى مستوى الناس الهابطي الفكر لأصبحوا هم الموجهين ، ويفقد الاعلام ـ بالتالي دور التوجيه . لأن مهمة الاعلى ـ دائماً ـ أن يأخذ بيد الأدنى اليه .

ولا شك ان القائمين على التوجيه . هم الطبقات التي اؤتمنت على التوجيه . . فإذا ما شد الأدنى الأعلى ، صار الجميع في المنحدر . . ولكن منطق التشريع الالهي ـ هو أن يرتفع بمستوى البشرية الى مراتب الفضائل والقيم . . يقول الله تعالى :

﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم . . ﴾(1) .

ومعنى (تعالوا) هو اقبلوا . . ولكن اللفظ يحمل معنى فوق الاقبال ، وهو « ارتفعوا » الى مستوى ما يريده الخالق . . **أي أن التشريعات البشرية التي كان**

---

(1) من الآية ١٥١ في سورة الأنعام .

يتبعها الناس قبل الوحي - تأخذ الموضع السفلي . . بينما شرع الله ، له العلو والسمو ، ومن هنا جاءت كلمة (تعالوا) . .

من الخاسر

لماذا تؤذن الحضارات دائما بزوال القيم ؟ ! ولماذا تنتهي باستمرار الى التدمير ؟ ! الاجابة على ذلك هي : أن الحضارة طالما كانت قائمة على أسس من وضع البشر ، غير محروسة بقيم الهية - فان نهايتها الطبيعية هي الفناء . ومفهوم معنى الحضارة هو : كل شيء اذا حضر ، فشهوات النفس فيها محققة وطلباتها مجابة . لكن النفس محتاجة الى من يكبح جماحها ويوقفها عند حدودها . ويمنعها من تحقيق شهواتها البهيمية .

وهذه النقطة هي أساس مهمة الدين الذي يتولى ضبط حركة النفس وتهذيب شهواتها .

ولذلك يصف ادعياء التحلل ، من يتمسك بدينه بأنه رجعي وغير تقدمي أي ليس منطلقا مع شهوات نفسه .

هذا هو السبب الأول في اسهام الحضارة في زوال القيم .

أما السبب الثاني فسأعطي له مثالا ليكون قريبا من الأذهان . قديما حينما كان الناس يذهبون الى بئر للشرب ولا يجدون ماء ، يلجأون الى الله فورا بالدعاء والرجاء ، ليستجيب لندائهم .

وهذا راجع الى أنهم لا يزالون في الفطرة والبداوة ، التي هي قريبة عهد بنظام الله وآياته في الكون .

أما اليوم فحين لا نجد الماء في المنزل لسبب من الأسباب نبحث في الصنبور لعله فاسد فنصلحه ، فان لم يكن كذلك ، نبحث في المواسير لعلها مسدودة . وهكذا . وهكذا . ونلاحظ هنا أن كثرة الأسباب الظاهرة وانشغال الناس بها ، يذهلهم ويلهيهم من الفاعل الحقيقي ، الخالق القدير ، الله .

وأنا لي تجربة شخصية ، حين كنت في بلد من البلاد احضر حفلا دينيا لافتتاح سد جديد ، فقال عظيم من العظماء لحظة الافتتاح : الآن ستروون

مزارعكم . أمطرت السماء أم لم تمطر . . فقلت له : وإذا لم تمطر السماء فأي شيء يحجز سدك ؟ ! . . انك في حاجة إلى مطر السماء حتى يكون لسدك مهمة .

فطالما بعد الانسان عن الفطرة بدأ العقل البشري في الغرور والطغيان .

والذي يقول أن الدين يخسر أنصارا خاطىء في هذه المقولة ، لأن في اللغة يقال : فلان خسر الشيء اذا كان الشيء مؤثراً في نجاحه .

والحقيقة أن الدين هو المؤثر في نجاح الانسان وليس العكس .

فالدين هو الدين لا يزال باقيا . والله سبحانه منفرد بالالوهية : شهدنا بذلك أم لم نشهد .

وانتشار القلق والاضطرابات والحروب اليوم ، انما هو نتيجة حتمية ومنطقية لما تجنيه نظم العالم وقوانينه واخلاقياته ، وبذلك يكون ما يعانيه البشر اليوم هو الجمال بعينه ، لأن الجمال ليس كل ما تستطيبه النفس ، ولكن أن تأتي النتائج وفق مقدماتها . .

فلو أن العالم استقر ، وشاعت فيه الطمأنينة ، وغشيه الأمان وانتشرت فيه الرحمة ـ مع انحرافه عن المناهج الالهية وهي التقنينات التي تحكم حركة حياته ، لكان ذلك هو القبح بعينه .

ثم ماذا تريد من عالم القوي فيه متحكم بهواه والضعيف لاه عن خالقه ؟! . . الأمر الطبيعي أن يحدث ما نراه الآن من فوضى واضطرابات وحروب ، وصدق الله اذ يقول : ﴿ **ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والأرض** ﴾(١) فهل كنا نحب بعد اتباع الناس لأهوائهم ان لا يحدث هذا الفساد ؟ معاذ الله الا يصدق قول الله .

الطلاق والتعدد

حين نرى لأي نظام عيوبا يجب أن ننظر أولا : هل نفذ النظام كما أراده المشرع وكما وضعه ؟ وهل طبق القانون وفق ما هدف اليه الشارع أم أن هناك أمورا

(١) من الآية ٧١ في سورة المؤمنون .

حسبت على القانون وهي ليست منه ، حينئذ نستطيع أن ندرك هل العيب في النظام والقانون أم في تطبيق أي منهما ، فان كان العيب في التطبيق فالتعرض للقانون ليس بذي جدوى وعلى هذا الضوء يجب ألا نحسب على الاسلام ما نراه من فشل في الزيجات ، وطلاق يهدد الأسر ، وتعدد غير سليم ، لأن الذين حدثت لهم هذه المشاكل دخلوا على الزواج بغير مقاييس الاسلام ، فمن العدل والانصاف للاسلام أن يحدث لهم ما حدث لأنه نتيجة طبيعية لما سبق . فلا يصح أن يعالج موضوعاً الأساس في وجوده خروج عن الاسلام .

ولو نظرنا بانصاف الى الأسباب الداعية للطلاق أو فشل التعدد . . لوجدنا أن ذلك راجع لمخالفة المتزوجين لمقاييس الاسلام في كلا الأمرين ، **ولو أن طالب الزواج دخل على الزواج بمطلوبات الله فيه لما حدث ما يدعو الى الطلاق .** وكذلك لو أن المعدد دخل على التعدد بمقاييس الله فيه لما وجدت آثاره الضارة . وليس ذلك خاصا بهما فقط ، لكنه يتعلق أيضا بولي أمر الزوجة ، حين يقبل زوجا للتي هو وليها ، على غير مقاييس الله ومطلوبات الدين ، فمن العدل أن يحدث له كل ذلك . ولو لم تحدث هذه المتاعب ، لكان ذلك مخالفا لمنهج الله ولشككنا في هذه التعاليم .

فالمنصف يرى أن متاعب الطلاق وتعدد الزوجات اليوم شهادة للدين لا عليه .

المعجزات النبوية

للسنة النبوية معجزات أفردت بالتأليف تحت عنوان : (أعلام النبوة) وهي تخبر بأشياء مستقبلة ، ليس للمخبر دخل في وقوعها ، حتى لا يعتبر الوقوع منه افتعالا لتصديقه فيما يقال .

والمعجزة ليست مهمة لمن نقلت اليه ، ولكن لمن شاهدها ، لأن الله أجراها على يدي رسول الله ﷺ ، ليثبت بها ايمان من عاصره ، حتى يقوى على تحمل تبعات أولية الإيمان في عالم الكفر .

فتفجر الماء من بين أصابعه ﷺ مثلا ، **واشباع العدد الكثير بالقليل من**

الطعام ، كل ذلك مقصود به من شاهد هذه الوقائع . أما من لم يشهدها ، فان اتسع ظنه لحصول ذلك على يديه ﷺ، فبها ونعمت ، ومن لم يتسع ظنه لذلك ـ بسبب ما قد يراه خللا في الأسانيد ـ فحسبه معجزة القرآن الباقية الخالدة . .

والذي يعطينا اليقين في اعجازات النبوة ، هو ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أكده مستقبل الزمن الآتي بعد القول .

فمثلا حين يخط الرسول ﷺ يوم بدر على الأرض مكان مصرع كل واحد من صناديد الكفار ، ثم تدور المعركة ، فليس لمحمد ﷺ ولا لأتباعه ـ قوة تستطيع أن توجد المقتول في المكان الذي رسمه ﷺ، لأن المعركة كر وفر بدون اعداد سابق ثم يحدث وأن تأتي مصارع القوم في أماكنها التي حددها الرسولﷺ!

ولتناول بتفصيل اكثر قصة سرية مؤتة ، حينما أخبر ﷺ بتتابع الثلاثة : زيد ابن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحه ، وقال : ان قتل زيد فالأمير جعفر فان قتل ، فعبد الله بن رواحة ، فان قتل ، فليرتض المسلمون رجلا من بينهم .

والذي يعنينا في هذه الغزوة ، ما أخبر به ﷺ ـ وهو بالمدينة ـ حين نادى في الناس : الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان ، وقال : أيها الناس ، اخبركم عن جيشكم هذا الغازي ، انهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا ، فاستغفروا له . . ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا . فاستغفروا له . . ثم اخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد . .

كل ذلك ولم يكن أحد قد عاد من الغزوة، والا لوجد المشركون ـ في رد هذه المعجزة ـ دليلا على أنه أخبر بعد أن أبلغ من بشر ، ولما قدم بعلي بن أمية رضي الله عنه على النبي ﷺ وهو أول وافد بخبر الجيش ، قال له النبي ﷺ : ان شئت فأخبرني . وان شئت اخبرتك . قال : فأخبرني يا رسول الله لأزداد يقينا . فأخبره رسول اللهﷺ الخبر كله ، ووصف له ما كان . فقال : والذي بعثك بالحق ، ما تركت من حديثهم حرفا واحدا . وان أمرهم لكما ذكرت .

من أعلامات النبوة أيضا : **قوله ﷺ لجابر بن عبد الله (جذ . . واقض)**

وذلك أن جابر قد اقترض مالا من يهودي ـ وكان ميعاده حين جنى ثمر البلح ولكن نخل جابر لم يثمر في هذا العام ـ فقال صحابة رسول الله ﷺ : يا رسول الله سل اليهودي أن ينظر جابرا لأن نخله خاس هذا العام ـ يعني لم يثمر ـ فطلب رسول الله ﷺ من اليهودي أن ينظر جابر . فقال : لا يا أبا القاسم . . سأله النبي ﷺ مرارا وكان رده لا يا أبا القاسم . .

فذهب الرسول ﷺ إلى نخل جابر وسار خلاله وذلك في قصة طويلة ـ ثم قال : يا جابر (جذ . . واقض) ـ أي أجن الثمار وسدد ما عليك .

فذهب جابر فجذ وقضى . . ورجع إلى رسول الله ﷺ فرحا مستبشرا ، وأخبره بما كان . فقال الرسول ﷺ : أشهد أني رسول الله .

فقوله جذ واقض ثقة منه في أن الله لن يخذله فيما انطقه به ، وإلا لما جازف رسول الله ﷺ بين أصحابه بكلمة قد لا يصدقها الواقع . .

ومن أعلامه ﷺ ، ما حدث في غزوة الحديبية ، حين انتهى أمر المفاوضات الى أن يتفاوض عمرو بن سهيل عن قريش مع الرسول ﷺ . . وحين كتابة العهد ، قال ﷺ لمن يكتب : اكتب هذا ما تعاهدنا عليه : محمد رسول الله قال عمرو : لو كنا نشهد انك رسول الله ما وقفنا منك هذا الموقف . فأصر عمرو الا توجد هذه الصفة وأصر علي بن أبي طالب ـ وهو الكاتب ـ أن يكتبها حينئذ . قال رسول الله ﷺ لعلي : اكتب ما يحب . اكتب عبد الله . فلم يقبل علي ـ فقال له الرسول ﷺ ستسام مثلها ـ أي ستتعرض لمثل هذا الموقف ـ فتقبل . ثم توفي الرسول ﷺ . وانتهى امر الخلافة لعلي . وكان ما كان بينه وبين معاوية بن أبي سفيان في يوم صفين . فلما أرادوا أن يكتبوا عهد . قال علي لمن يكتب : اكتب هذا ما تعاهد عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، فقيل له : لو صدقنا أنك أمير المؤمنين ، ما حدث بيننا وبينك هذا ولكن انزعها من العهد . فنزعها . .

وذلك مصداق لكلام الرسول ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى .

تلازم بين القرآن والسنة

أن استمرار السنة النبوية حتى يومنا هذا معجزة من باطن معجزة القرآن وهما

يلتقيان في كونهما اخبارا من الله ولكن القرآن اخبار بنص ملتزم ، والسنة اخبار بنص غير ملتزم . . وعلى الذين يتشككون في هذه السنة أن يفطنوا الى أن تشككهم في بقاء سنة عن الرسول ﷺ يؤدي بهم الى الشك في معجزة القرآن نفسها وذلك لأن الله يقول في كتابه :

﴿ بالبينات والزبر وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ﴾(١) .

فمهمته ﷺ بيان ما نزل اليه . ويقول الحق في آية أخرى : **﴿ ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه ﴾**(٢) فنسب البيان الذي وكل به ﷺ الى أنه على الله فلو لم يوجد بيان من السنة لما جاء في القرآن لتخلف ذلك الوعد ، فالإيمان ببقاء سنة عن الرسول ﷺ معجزة من باطن معجزة القرآن . .

وقول الله **﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله أن الله شديد العقاب ﴾**(٣) يدل على أن للرسول ﷺ عملا مع القرآن وما دام له عمل مع القرآن فلا بد أن يقوله أو يفعله أو يقره وهذا لمن عاصره ، ومن لم يعاصره مطلوب منه أيضا أن يأخذ ما أتى به الرسول ﷺ ولذلك لا بد أن يبقى قوله أو فعله أو اقراره ، واذا كان الرسول ﷺ قد بلغ عن الله ثلاثا وعشرين سنة وكلامه وفعله وفعل الغير أمامه واقراره حديث ، فبالله ليقل المتشككون في الحديث كم يجب أن يكون الرسول ﷺ قد ترك من حديث ؟! وفعله وقوله وفعل غيره وقوله أمامه حديث طويل ثلاث وعشرين سنة !! .

اذا فلو استعرضنا ما بقي لنا من صحيح الحديث بما كان يجب أن يخبره من حديث رسول الله ﷺ لوجدنا أن ما بقي دون ما كان يجب أن يكون . . فقد تركنا الكثير حتى نصحح المقاييس والمصافي التي نأخذ عنها ما قاله رسول الله ﷺ . . ولأن يترك شيء مما قاله خيرا من أن يدخل على حديثه شيء مما لم يقله والذين

---

(١) الآية ٤٤ في سورة النحل .

(٢) الآيات ١٧ : ١٩ في سورة القيامة .

(٣) من الآية ٧ في سورة الحشر .

أرادوا (بكلمة حق أريد بها باطل) أن يكون مرجعنا في كل أمر الى القرآن فقط فعليهم أن يوجدوا لنا في القرآن تفاصيل أركان الاسلام فقط . . لا أقول كل تعاليم الدين .

ان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم واجترأوا على هذه الفرية هم بأنفسهم وبقولهم هذا شهود على أن حديث رسول الله ﷺ المصطفى صادق النسبة اليه لأنه قال عن هؤلاء أيضا أحاديث فلو لم يقولوا ذلك لما وجدنا من الواقع مصداقا ذلك لما قاله رسول الله ﷺ من حديث فقد قال: يوشك رجل يتكىء على أريكته يقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه الا وأن ما حرم رسول الله كما حرم الله . . فلو لم يكن هؤلاء قد افتروا هذه الافتراءات لشككنا في حديث رسول الله ﷺ اذ فقولهم هذا دليل على صدق ما يدعون كذبه . .

قيمة الحياة والموت

دائما رأي الاسلام هو فصل الخطاب في أي أمر يتناقض فيه النقاش وتتعارض فيه الآراء . . فالحياة في نظر الاسلام كما أقول دائما أهم من أن تنسى ولكنها اتفه من أن تكون غاية وقول الله ﴿ . . **ولا تنسَ نصيبك من الدنيا** . . ﴾[1] يدل على الشق الأول وقوله ﴿ **اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة** . . ﴾[2] تدل على الشق الثاني ، واذا كنا نقصد بالحياة هذا الوجود المحس وما عليه من حركة قهرية تسخيرية أو حركة ارادية تخييرية فان الحياة دائما هي محور الحركتين الحركة التي تحدث بدون ارادة منهم أو اختيار ، والحركة التي تحدث منهم بالإرادة ومرجحات الاختيار . . واذا كانت كل الأجناس ما دون الانسان تعمل في خدمته فليس من المعقول أن تكون الأجناس الخادمة أطول عمرا من السيد المخدوم وعلى ذلك يجب في عرف العقل والمنطق والتدرج في الحلقات أن يكون الانسان اسمى موضوع في هذه الحياة وأن كل ما عداه في خدمة ذلك الانسان .

---

(١) من الآية ٧٧ في سورة القصص .

(٢) من الآية ٢٠ في سورة الحديد .

والذين يتكاسلون في الحياة الدنيا ولا يعبأون بها ويضعون كل اهتمامهم في الحياة الأخرى الموعودة نقول لهم : أن الحياة الأخرى الموعودة السعادة فيها على قدر توفيقك واخلاصك في حركة حياتك الأولى ، والآخرة ليست موضوع الدين ولكنها جزاء على موضوع الدين والجزاء على الشيء غير موضوعه فيجب أن نقول لهم أن الدنيا والحركة فيها هي موضوع ذلك الدين لذلك يجب أن تكون الدنيا مهمة بحيث لا تنسى ولا تهمل .

والذين يقولون بأن الدنيا هي الغاية ولا شيء بعدها نقول لهم : ما ذنب الذين يشقون حياتهم الدنيا ليسعدوا سواهم أين يكون جزاؤهم أن لم تكن الا هذه الحياة الدنيا ؟ . . لو نظرنا هذه النظرة لكان هؤلاء الذين يشقون لإسعاد غيرهم هم أحمق الحمقى لأنهم فوتوا على أنفسهم موضوعا واحدا هو الدنيا ولا عوض له في شيء اسمه الآخرة . .

وقضية الموت في نظر الاسلام قضية تمد الواقع بأصل عقدي ، فالموت في نظر الاسلام واقع يجب ان يكون حتى يحقق الخطوة الجزائية فيما بعد الموت . . وواقع الموت يشهد بأنه لا مقياس له ولا ارتباط به بزمان ولا بمكان ولا بحال مما يدل على أن سبب الموت هو خالق الوجود . . خلق الموت . . والموت من دون أسباب هو السبب ولذلك لا يتوقف على عمر ولا على صحة ولا على سبب مرئي أو غير مرئي فقانون الموت هو اللاقانون من حيث المكان والزمان وهذا أوقع في نفس الذين يتربص بهم الموت وان غفلوا هم عن الموت لأن عدم ارتباطه بواحد مما تقدم يحتم على الانسان الحي أن يتوقعه في أية لحظة وتوقعه في أي لحظة يتطلب حتما الاعداد له دائما بحيث يكون الانسان مستعدا لاستقباله واذا كانت الحياة أول صفاتها الغرور فيجب أن يندفع هذا الغرور بأنه استبقاء أمر غير مطمئن اليه ولا موثوق به ولهذا يجب أن يستقبل الحي الحياة باليقين فيما ينقص هذه الحياة وهو الموت ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ **الذي خلق الموت والحياة** . . ﴾[1] حتى يستقبل الانسان الحياة وقبلها ما ينقص هذه الحياة وهو

---

(١) من الآية ٢ في سورة الملك .

الموت الذي هو حصانة للانسان من الغفلة ومن الغرور .

ونظرة المؤمن للحياة والموت يجب أن تكون نظرة التساند لا نظرة التعاند ، ونظرة التعاضد لا نظرة التعارض ، لأن الحياة الدنيا في نظر الايمان حياة موقوتة وحياة هي موضوع المحاسبة وما دامت موضوع المحاسبة فيجب أن يفسح الموضوع لحال المحاسبة . . (والحساب يأتي بعد الموت الذي يأتي في نظر الاسلام استكمالاً لقضية الحياة وتعلية أيضاً لهذه الحياة ، وأعني بذلك أنها الطريق الوحيد الى الحياة الخالدة السعيدة ، فبعد أن كانت حياتنا الدنيا مبنية على حركتنا نحن في الأسباب ستكون الحياة الأخرى نتيجة لا لاستخدامنا الأسباب ولكن طواعية لأمر الله ولكل ما نشتهي دون تعب أو نصب الا أن تنعم) . .

اذا فالموت ينقلني من الحياة التي تتطلب مني نصبا وجهدا الى حياة لا تتطلب مني في تحقيق مطلوبات النفس الا أن يمر الخاطر بالنفس ، فلو لم يكن هناك موت لفاتت الحياة الأخرى بما فيها من راحة للمؤمن وظل على حياته الشاقة المتعبة الناصبة .

المساواة بين الرجل والمرأة . .
خرافة أم حقيقة ؟

لا يختلف الناس حول قضية جنس يتنوع الى نوعين لأن هذا شيء واقع في كل ما يقع عليه الحس من نبات وحيوان وانسان وأيضا في الجماد ، فكل شيئين ينشأ عنهما شيء ثالث لا بد أن يتزاوجا لينشأ عنهما التكاثر وذلك في النبات والحيوان والانسان أمر واضح ، وفي الجماد في دائرة ما عرفنا منه لا بد من موجب وسالب ففي الكهرباء مثلا موجبان لا ينتجان وسالبان لا ينتجان بل لا بد لايجاد الشرارة من موجب ومن سالب وذلك أمر سيصل البحث فيه الى كل الوان الجماد التي لا نحس فيها حركة الآن وان كان له حركة في الواقع فالجنس اذا انقسم الى نوعين لا بد أن تكون هناك أشياء مشتركة يجتمع فيها النوعان كجنس ولا بد فيها من أشياء مختلفة ينفلق منها النوعان والا لكانا نوعا واحدا فلو لم يوجد لكل نوع خصائص تميز عن النوع الآخر لما انقسم الجنس الى نوعين .

فالزمن وهو ظرف للاحداث ينقسم الى نوعين الى ليل والى نهار فلو لم يكن لكل من الليل والنهار خواص لما انقسم الجنس (الزمن) فالليل يعني الظلمة والسكون والنهار يعني النوز والحركة وهما متكاملان في نظام الكون وعملية الحياة لذلك يلفتنا الله في قضية انقسام الجنس الى نوعين والى أهمية ذلك الانقسام وضرورته بقوله سبحانه ﴿ **قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة . . من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون** ﴾[1] فمعنى ذلك أن لنوع الزمن وهو الليل مهمة ونوع الزمن وهو النهار مهمة ولو حاولنا التسوية بينهما لزالت الحكمة من وجودهما وعلى هذا الأساس فالانسان جنس ينقسم الى نوعين : ذكر وانثى لا بد أن يكون لكل نوع خواصه وخصائصه بحيث لو سوينا أحدهما بالآخر زالت الحكمة في التنوع ، فالإنسان كجنس له أمور يشترك فيها النوعان ، لذلك فان طلب المساواة بين النوعين إحالة لأن لكل منهما خواصه ومميزاته . . ومن العجيب ان نطلب المساواة بين نوعين قالبهما مختلف وتكوينهما متباين لا أقول معنوياً فحسب ولكنه تباين عضوي موضوعي حتى في تكوين ذرات جسميهما وفي الظواهر التكوينية لمرأى كل منهما . . والذين ينادون بمساواة المرأة بالرجل . . لما لا يقولون بمساواة الرجل بالمرأة ؟ يطلبون من المرأة أن تقوم بعمل الرجل فكان من الواجب أيضا ان يطلبوا للرجل القيام بعمل المرأة وإلا جاروا على مبدأ المساواة التي يطلبونها . فاذا قامت المرأة بالعمل المطلوب من الرجل وظلت هي بعملها الخاص الذي لا يؤدى الا من جهتها . . لكان معنى ذلك القاء حمل جديد على المرأة . .

وهكذا فهم لا يطلبون مساواتها ولكن يطلبون غبنها وظلمها فلو انصفت المرأة نفسها لرأت في الذين يطلبون مساواتها بالرجل فيما تجنح اليه فكرة المساواة خصوما لها ، ولو انصف الذين يطلبون مساواتها لطلبوا لها أن تزاول كل أعمال الرجل والا يقتصر طلب المساواة على الأمور الهينة اللينة غير الشاقة ولا المجهدة ولا المتعبة .

---

(١) الآية ٧١ في سورة القصص .

تسع زوجات وأربع . . لماذا ؟

لم يجيء الاسلام بمبدأ التعدد لأنه جاء والتعدد أمر قائم في الصلة بين الرجل والمرأة ، فقد كان التعدد قائما قبل الاسلام بلا حد فكأن الاسلام جاء بحد التعدد وقصره على أربع بالنسبة لغير الرسول حتى أن الرسول خاطب من كان عنده أكثر من أربعة بقوله (أمسك أربعا وفارق سائرهن) مما يدل على أن الواقع كان أكثر من أربع فالذين لا يفهمون هم الذين يرمون الاسلام بأنه جاء بالتعدد والحق أنه جاء بوضع حد للتعدد ، ولكن خصوم الاسلام ينتقلون الى شيء آخر ، وهو أن الرسول لم يلتزم بقوله (أمسك أربعا وفارق سائرهن) .

ان امساك الأربع استبقاء لحقوقهن الزوجية كلها ولكن مفارقة البقية هي التي تحرم عددا من النساء من زوجية كانت قائمة ، ولكن هذا الحرمان يقطعه الا تمنع أي أمرأة من هذا النوع من أن تجد لها زوجا آخر في حد الوحدة أو الأربع .

ولكن بالنسبة للرسول ﷺ لو أنه أمسك أربعا وفارق خمسا لأن زوجاته وقت هذا التشريع كن تسعا وزوجات الرسول امهات المؤمنين ويحرم على أي مؤمن ان يتزوجهن فمعنى ذلك أنه سيفارق خمسا لا الى عوض ، لهذا استبقى الله كل نساء الرسول ساعة التشريع له ويلاحظ أن الرسول ﷺ لم يستثنه الله عددا ولكن استثناه معدودا ، بمعنى أن الرسول ﷺ عنده تسع بخصوصهن بحيث لو ماتت واحدة أو متن جميعا لا يحل له أن يتزوج فالله يقول ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن** . . ﴾[1] .

اذا ، فللرسول ﷺ هؤلاء المعدودات بذواتهن ، وليس له عدد تسع بحيث ان طلق يستكمل ، أو أن توفيت واحدة يستكمل ، فالرسول ﷺ لم يوسع عليه في ذلك كما يظن حمقى الخصوم وانما ضيق عليه فللواحد من اتباعه أن يدير عدد الأربعة فيما يشاء من معدودات بالموت أو بالطلاق . .

ومن الدعاوي الكاذبة التي يروجها الذين يحاولون أن يدخلوا على المرأة

---

(١) من الآية ٥٢ في سورة الأحزاب .

بطريق أن الاسلام هضم حقها في الميراث وفاتهم أن يعرفوا أن ذلك خاص بالأخت مع الأخ ويجب أن يتنبهوا الى أن الاسلام كان يجب أن يسأل سؤالا عكسيا :

لماذا حابى الاسلام المرأة في الميراث؟! لأن المرأة لا تكلف في أمر معاشها شيئا والرجل هو المسئول عن التزامات هذا المعاش فحين تأخذ الأخت نصف نصيب أخيها فانها إن ظلت بدون زوج فذلك كافيها ، واخوها سيتزوج امرأة يعولها وان تزوجت هي فستذهب الى رجل يعولها ويظل ما ورثته بدون التزام مصرفي .

فلو نظرنا الى قضية الاسلام في ذلك وجدناها قضية عادلة ، فالابن ذو الحظين مطلوب له امرأة يقوم بكل التزاماتها والبنت ذات الحظ الواحد ستكون في رعاية رجل لا يكلفها من أمر الحياة أي شيء اذا فكان من الواجب ان نسأل لماذا حابى الاسلام المرأة . . لا لماذا هضم حقها . .

الفصل الثاني

المفاهيم الثلاث

تقدمة

تمتلىء كتب سلفنا الصالح ومن سار على نهجهم ـ المشرق بنور الهداية ـ بشروح وافية للمفاهيم التي شرعها الله لنا .

وحين تجد ـ اليوم ـ محاولات لتتناول هذه المفاهيم مرة أخرى ، يلزمها تناولا ذا رؤ ية جديدة وسديدة كذلك .

ولذلك يتناول الشيخ بعض هذه المفاهيم من الحق والباطل على السواء عسى أن نستمسك بالصراط المستقيم وننتهي عن موجبات العذاب الأليم . . وهي ثلاثة من متعلقات الجنة ، ومثلهن من متعلقات النار .

الاسلام

الاسلام . . يقتضي مسلماً ، ومسلما له ، ومسلما فيه . .

والمسلم : هو الذي يسلم أمره ، والتسليم لا يكون للمساوي أبدا ، ولكن لمن هو أعلى وأقوى ـ فحين أبني بيتا أسلم نفسي لمهندس ، وحين أمرض أسلم نفسي لطبيب . . وهكذا ، ولذلك يجب أن نسلم زمامنا لمن اتفقنا على أنه لا إله الا هو ، وما دمنا اسلمنا له يجب أن ننفذ كل ما يأمر به . وهذا هو الاسلام .

والمسلم اليه : هو الله القادر على كل شيء .

والمسلم فيه : هو حركة الحياة .

والاسلام لله . . انما جاء نتيجة الايمان بأنه جل شأنه له الكمال المطلق ،

ومستغني عن البشر . لأن من شروط المسلم اليه الا يعود عليه نفع من هذا الاسلام ، ولو عادت عليه منفعة ، لشك المسلم في قدرته . فالعطاء من المسلم اليه ، يجب أن يكون عطاء المستغني .

الاسلام اذن هو الانقياد السلوكي لأوامر الله .

التقوى

قد تورث بعض الآيات القرآنية الخاصة بالتقوى خلطا لدى العقل البادىء . . فكيف تجيء ـ مثلا ـ الآية قائلة ﴿ . . **واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[1] ، ويأتي في نفس السورة ﴿ . . **فاتقوا النار** . . ﴾[2] ؟! فكيف تجتمع التقوى مع الله ، ومع النار ؟! .

ان التقوى تعني اتخاذ الوقاية من شيء لا يقدر الطرف الآخر على مواجهته ، وعلى هذا النحو يمكن فهم تقوى النار ، ولكن كيف نتقي الله ؟ بمعنى أن نجعل بيننا وبين الله وقاية المفروض اننا نكون في معية الله دائما . وتوضيح ذلك . . أن **الله سبحانه له صفات جماله وصفات جلاله** . . صفات الجمال : مثل الغفار والرحيم ، والجلال : مثل القهار ، وذو البطش الشديد .

مع صفات الجلال يجعل الإنسان بينه وبينها وقاية لهوانه أمامها ، ولأن من متعلقاتها النار بأهوالها . وبذلك تتفق التقوى في الحالين . . تقوى النار : التي هي من متعلقات صفات الجلال ، وتقوى الله : اذ يجعل الانسان بينه وبين صفات جلال الله وقاية . . اذن فالمعنى واحد .

وحين يلتزم الانسان بالتقوى لا بد أن يمتثل للأوامر ، ويمتنع عن النواهي ، لأنها ـ أي التقوى ـ تدفع الانسان الى مخافة الله ـ القهار .

---

(١) من الآية ١٩٤ في سورة البقرة .
(٢) من الآية ٢٤ في سورة البقرة .

الاحسان

الاحسان : يقال أحسن (فلان) . . هذا من الناحية اللغوية ، أما شرعاً فلا يقال في الزكاة (أحسن) ، لأن (أحسن) تقال حين يعمل الانسان عملاً فاضلاً ليس مأموراً به ، ويقول الله تعالى : **﴿ ان المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون ﴾** . حين يهجعون ويستغفرون انما يفعلون ذلك تطوعاً منهم وليس كفرض مفروض عليهم . ثم يستطرد القرآن **﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾**[1] ولم يذكر هنا كلمة (معلوم) بعد (حق) لأنه ليس بفرض .

مقام الاحسان ـ هذا هو مجاله ـ أن تفعل أموراً ليست فرضاً عليك ، والاتقان في ذاته احسان أيضاً . ومثالاً على ذلك ، الموظف الذي يلتزم بمواعيد العمل ، ولكنه قد يفتقد روح الاتقان ، وعندما يتقن الموظف عمله يعد ذلك امتيازاً ثانياً فوق امتياز الالتزام بالمواعيد .

فمرة الاحسان يعطي الشكل ، ومرة أخرى يعطي الموضوع .

وبذلك يكون للاحسان مرتبتين : الأولى : أن يقوم الفرد بفوق ما افترض عليه ، والثانية : مراقبة المكلف بالعمل مراقبة دقيقة ، بحيث يتقن العمل كأنه يرى المكلف ، فإن لم يكن يراه فهو مرئي منه .

العلاقة بين المفاهيم الثلاث

من غير المفهوم . وضع خطوط فاصلة تعزل بين كل من المفاهيم الثلاث : الاسلام والتقوى والاحسان . لأن التداخل بينهم لا يمكن التغاضي عنه . فمثلاً ـ لسان حال المحسن يقول : يا من آمنت بك وكلفتني . . أنت رحيم بي ، كلفتني دون ما تستحق ، ولذلك سأفعل فوق ما أمرتني به ، ولعل الترابط هنا واضح بين الايمان والاحسان .

---

(١) الآيات ١٥ : ١٩ في سورة الذاريات .

والارتباط وثيق بين الثلاث مراتب ـ على هذا النحو : يوجد اسلام لمن أسلمت له قيادك ، فتنقاد لأوامره ، وتمتنع عن نواهيه ، لتؤدي ما افترض عليه خشية منه ، ثم تزيد في ذلك مرحلة . . أن تتطوع بشيء لا تعاقب على تركه .

الشرك

الشرك يعني وجود الله مع اثبات الشركاء معه وهو على نوعين . . أولهما : افتراض اتفاق الالهين ، والثاني : اختلافهما .

الأول : هو اشتراك الاثنين في شيء واحد ، أو اجتماع المؤثرين على أثر واحد فمثلاً : توجد قطعة حديد والاثنان كل منهما يستطيع حملها بمفرده إن اجتمعا على الحمل في حدث واحد ، صار ذلك تحصيل حاصل من كليهما تجاه الآخر وان اتفقا على أن يساعد كل منهما الآخر في حمل قطعة واحدة . . بحيث يحدثان حدثين منفصلين تصبح النتيجة عجز الأول فيما يحدث الثاني ، وكذلك عجز الثاني فيما يحدث الأول .

الثاني : ان كانا مختلفين تتحول المشكلة الى افتراض هل ينفذ الحدث أم لا ينفذ ، والحدث ذلك أما موجود أو غير موجود يريد أحدهما وجوده ، والثاني لا يريد . وان وجد صار ذلك هزيمة لمن لا يريد وجوده وان لم يوجد صار ذلك هزيمة لمن يريد .

وبذلك يمتنع الشرك بكل صوره ﴿ . . **وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** ﴾[1] لأنه لو حدث ذلك الاصطراع ، لأصبح هناك إله عال ومعلو عليه . ثم قد يتبادل الاثنان الموقعين في اصطراع آخر مما ينتفي مع الكمال المطلق الذي يتصف به الخالق . فهؤلاء المشركون المساكين حين يرون شيئاً له فاعلية في الكون مثل الشمس عليهم أن يدركوا أنها مسخرة لله . لأن العبادة معناها ائتمار العابد بأمر المعبود . ومحورها هو اتباع منهج المعبود . . فالذي يعبد الشمس نسأله : ماذا قالت لك الشمس لتفعله ؟ ستأتي الاجابة بالنفي قطعاً . فمن

---

(١) من الآية ٩١ في سورة المؤمنون .

أين للشمس بمنهج يسير عليه عابدها ؟ ! لقد عبدها المشرك كمظهر القوة . وفي ذات الوقت . هي عابدة لله لأنها تسير وفق منهجه الذي ارتضاه سبحانه لها والمتمثل في النواميس الكونية التي تخضع لها .

الفسق

الفسق معناه في الأصل خروج الرطبة عن قشرتها . . أي أن البلحة حينما تنضج ، تسمح لأشعة الشمس بتبخير السوائل بداخلها فتقل حجم الرطبة عن القشرة ، ثم تخترقها بعد ذلك . فسمى الخارج عن المنهج الذي أرسله الله . . فاسق . أي خارج عن السياج المضروب له ، وركيزته : افعل ولا تفعل . والذي يضاد ذلك فيفعل حيث ينهى عن الفعل ، ولا يفعل حيث يؤمر بالفعل . . يعد فاسقاً خارجاً عن أمر الله .

وهنا تحفظ يجب مراعاته أن الفسق ينقسم بقسمين أولهما : فسق في الأصول وثانيهما في الفروع . . فيكفر الأول ، ولا يكفر الثاني .

الرياء

الرياء : فساد الرياء أنه توجيه العمل لغير مجز عليه فالمرائي يبحث عن جزاء أدنى من الأصل ، ويمكن أن تشبعه مجرد كلمة من انسان آخر . . تأثيرها وقتي محدود . وذلك نتيجة عدم استصحابه ضخامة الجزاء الذي وعده به الله ، فيبحث عن دفع شر عاجل أو جزاء عاجل : مثل ابعاد نفسه عن شبهة عدم التدين ، أو لجلب الاحترام والوضع المميز بين الناس .

وهذا جزاء واه ضعيف أمام الجزاء الأبقى الذي أعده الله لعباده المخلصين ، فالرياء جوهره : الحمق في تقدير الجزاء . والمرائي في نظر الشرع ـ بالرغم من ذلك ـ مسلم ، اذ يقول الله : ﴿ . . **يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلاً** ﴾(١) وبذلك لم يجردهم الله ـ سبحانه ـ من ذكره .

---

(١) من الآية ١٤٢ في سورة النساء .

العلاقة بين المفاهيم الثلاث

مدلول الثلاث مفاهيم يدور حول كلمة الإله ، فمن يؤمن بالله مع غيره . . مشرك ، ومن يخرج عن حدود المنهج . . فاسق ومن يعمل لمن لا يجزي . . مرائي .

بمعنى آخر . . الشرك : إله مع غيره ، والفسق : تعد لحدود الله ، والرياء : العمل لغيرالله .

هي اذن مفاهيم ثلاث علاقتها بلفظ الإله علاقة متنافرة .

الفصل الثالث
نمط الحياة اليومي

تقدمة

تلازم واضح نلحظه بين شريعة الاسلام والحياة العملية . . فمن ذا الذي يقول أن يوماً يبدأ مع آذان الفجر وينتهي بآذان العشاء . . يمكن أن يبدأ أيضاً في السابعة صباحاً وينتهي بعد الثانية عشر مساءاً ؟ !

ان هذا لشيء عجاب . . لا يستطيع الانسان تطبيقه الا اذا ملك روحين وجسدين . . وأنى له ذلك ؟

لماذا اذن يجب بدء اليوم مع آذان الفجر وختمه مع آذان العشاء ؟

هل هذا من قبيل الترف الاعتقادي أم أنه من التزامات المسلم نحو ربه ؟

تلك هي قضية هذا الفصل . وهذا هو عرض الشيخ لها . .

ليل ونهار

القرآن كله حينما يتكلم عن الليل والنهار . . يتكلم على أن الليل والنهار خلفة ، **وأنهما آيتان من آيات الله** ، **ولكل واحد منهما مهمة** ، فالليل لتسكنوا فيه ، والنهار لتبتغوا من فضله ، وحيث يوجد نهار تنبعث الحركة ، وحيث يوجد ليل ينتشر السكون .

ماذا يحدث الآن في هذا الصدد ؟ ! **ما يحدث هو أن الناس قلبت المعايير** . فحينما تدخل الكهرباء قرية من قرى مصر ـ مثلاً ـ وما يصحبها من مظاهر . . يقولون : أن الحضارة دخلت هذه القرية ، وخاصة حينما توغل القرية في السهر ،

وفي الاعتداء على فترة السكون . كيف يسمون هذه حضارة ؟ ! أن مثل هذا الاعتداء يضر بكل ألوان النشاط في القرية . . لماذا ؟ لأن كل ما يعمل لا بد له من فترة راحة .

بالنسبة للانسان هذا أمر واضح . فالراحة ليست للقضاء على الحركة وانما لتصعيدها وتنميتها واستبقائها . كل ما يخالف ذلك يعني مخالفة النظام الذي وضع للمخلوقات .

لنا اذن أن نقرر أن ابتغاء الفضل يكون في فترة الحركة : وهي النهار ، والراحة في فترة السكون : وهي الليل ، وهي فترة ضرورية لأن الانسان ـ على سبيل المثال ـ له ادراكات كالأنف للمشمومات ، والأذن للمسموعات . فكل حاسة لا بد لها من فترة راحة . فالأنف ان ظلت تشم عطراً على الدوام ، ستفقد القدرة على الشم عند مرحلة تتعطل فيها آلاتها ، فلا بد لها من فترة راحة لتأخذ هواء نقياً .

والآن ماذا يخيف علماء العالم . . ؟ ما يخيفهم هو أن العالم مهدد بالصمم . . لماذا ؟ لأن الأذن في حالة استقبال مستمر .

فكل الذي يعمل لا بد له من استجمام . . أي طلب الراحة للعمل ، والخالق ارتضى لنا الليل للسكون والخلود للراحة ، والنهار لنضرب في الأرض .

يوم أن تضطرني الظروف الى عكس هذه القضية ، لا بد أن يكون هذا ظرفاً استثنائياً وليس قاعدة ، وقد يتعرض الفرد لذلك بحيث يستيقظ في الليل لمداواة مريض ، فيضطر الى النوم نهاراً . وقد يتعرض النوع لذلك : أي أناس مهمتهم تقتضي الاستيقاظ ليلاً كالحراسة الليلية . هاتان الحالتان ليستا بقاعدة ، ويجب أن يعلم أننا ننكس الحياة لهؤلاء . . فلا بد من تعويضهم حتى لا يستمروا هكذا على الدوام ، لأننا بذلك نعكس لهم قضية وجودهم وانسجامهم مع الكون ، ولذلك نلحظ وجود نظام (التناوب) في القيام بهذه المهام الاستثنائية ـ ليتمكن أهلها من العيش بين الحين والآخر متحركين في نهارهم ، وساكنين في ليلهم . . متسقين بذلك مع نظام الكون من حولهم . .

ومن الأخطاء التي ترتكب اليوم خروجاً على طبيعة كل من الليل والنهار

ووظيفتهما . . الأسلوب المتبع في العمارة القائم على حجب ضوء النهار الطبيعي ، والاستعاضة عنه بالضوء الصناعي . . بصرف النظر عن الأضرار التي يمكن أن تحدث فيما بعد . وفي هذا تشابهت الحضارة الحديثة بـ (المنبت) : الذي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، فيجهد دابته جهداً مميتاً للوصول الى غايته . . بغض النظر عن استخدامها في أغراض أخرى . لذلك لا بد للدابة من فترات راحة تتخل هذا الجهد لتكملة المسير ، ثم لقضاء سائر حاجات صاحبها . هكذا الحضارة الحديثة ـ في كثير من جوانبها ـ لا تكترث للعديد من الأخطاء والأضرار التي تنجم عن المكتشفات والمخترعات المستخدمة .

الانسان والمخلوقات

أن الانسان وسط الوجود المحيط به بمثابة (السيد) فالكل في خدمته ، وهو لا يخدم أحداً . الكل مسخر له ، وهو غير مسخر لأحد . . وان كان ـ في ظاهر الأمر ـ يخدم بعض المخلوقات ، فهي خدمة ظاهرة تعود له في النهاية . . مثل رعايته للأرض والحيوان . وكل شيء يصب في خدمته أما بالمباشرة وأما بالواسطة . . الجماد يعطي للنبات والحيوان والانسان ، والنبات لا يعطي للجماد ويعطي فقط للحيوان والانسان ، والحيوان يعطي للانسان . .

الانسان يأخذ من الجماد والنبات والحيوان مباشرة ، ويأخذ أيضاً من كل هذه بالواسطة . . فان أخذ النبات من الجماد شيئاً يعود النتاج في النهاية للانسان وهكذا الحال مع الحيوان حين يأخذ من النبات .

الوجود ـ على هذه الصورة ـ يمكن تقسيمه الى سيد ومسود . . خادم ومخدوم ، والانسان لا يستطيع الادعاء أنه صنع هذه الأشياء المسودة لتخدمه ، لأن فيها أمور كثيرة لا تدخل تحت طاقته ولا قبل له بها ، وهي تؤدي له خدمات قبل أن يوجد له عقل يفكر ، وطاقة تفعل . .

لا بد اذن أن يبحث الانسان عن قوة أكبر منه ومن المسودات جعلتها جميعاً مسخرة له . . فيبحث عن سيد له هو الآخر . ان لم يفعل ذلك ، أصبح تافهاً ، لأن المخلوقات جميعاً لها مهمة فيما عداه . . لا مهمة له . كل هذا التسخير . . يجب

أن يدفع الانسان للبحث بعقله عن المهيمن على الكون،وهذا البحث هو بداية الاستدلال . واذا ما جاء للانسان خلال رحلة البحث . . رجل شق عليه صمته ليخبره عما يبحث عنه . يجب عليه أن يرهف له السمع . وأقل قواعد الذوق أن الانسان ـ ذلك الصنعة ـ لا يحدد مهمة نفسه ، لأن الصنعة لا تحدد مهمة نفسها ، ولا يحدد أحد مهمتها الا صانعها ، هنا يقع أول غلط للانسان بأن حدد مهمة نفسه ، واذا فسدت الصنعة لا يصح القول : أن يا صنعة أصلح نفسك ذاتياً ، بل تعطيها لصانعها لكي يصلحها . فساد الكون اذن جاء من تحديد الانسان لمهمته . وقيامه باصلاح نفسه حين تعطب ، بينما الصواب أن يقوم صانعه بهاتين المهمتين .

وبالاستقراء . . نجد أن الكون كله كما سبق ـ مسخر لخدمة الانسان فهو الغاية ، وأيضاً الوسيلة : لأنه يتفاعل مع الموجودات لتعطيه نتاجها في النهاية ، وهل هناك رحمة أكبر من ذلك ؟ ! **أن يكون الانسان هو الغاية والوسيلة معاً** . ويبرز هنا خطأ ثالث ارتكبه الانسان بمحاولته التفاعل مع هذه الموجودات ، والتعامل معها من خلف أوامر منشىء الوجود وبعيداً عن الهدى النبوي . . في حين أنه سخر للانسان الوجود من حوله .

الانسان اذن من خلق الله سواء آمن به أم لم يؤمن . والدنيا تعطي أكثر لمن يحسن التفاعل والتعامل معها ـ وفق قوانين الطبيعة . فلا نتعجب حين يأخذ الكافر زهرة الحياة ومتعتها المادية . لأنه اتبع القوانين المادية المحددة لاستغلال الكون من حوله ، ولكنه خاسر في الآخرة وحابط عمله .

مجال التزود من الدنيا مفتوح ـ على هذا النحو ـ لكل من يريد . . بشرط أعمال الفكر في اطار قوانين الطبيعة ، وسعي الانسان في هذا المجال يستلزم طاقة حركة نشطة ، وهو ما يتطلب فترات راحة .

العمل والراحة

ومن الحقائق المسلم بها . أن كل ساعة عمل يقابلها ساعة راحة ، وقد اقتضت الحكمة الالهية تقسيم الزمن الى قسمين : الليل والنهار . . الأول للسكن ، والثاني للعمل ، ولكننا لا نحسن وضع الحركة في ظرفها الطبيعي ، ونعتقد بنقلنا

مهمة النهار الى الليل . . أننا نحطم حواجز التخلف ، في حين يعد ذلك انتكاساً وارتداداً . ويظهر هذا في النظم المعمارية الحديثة التي تعمد الى حجب نور الشمس نهاراً ، والاستعانة بالنور الصناعي بينما الضوء الصحي : هو الذي ينبعث مع عدم تعرض البصر لمصدره . . مما يتحقق في الشمس دون أي تدخل من الانسان . .

وفي المدن . . نلحظ أن الليل يزدحم بالحركة مع توفير الضوء الصناعي كمناخ ملائم لها ، وذلك عناداً لسنة الله في خلقه .

إن محاولات البشر اصطناع وسائل حديثة لنقل مهمة الليل الى النهار وبالعكس . . تؤدي الى القضاء على الانسجام القائم بين الانسان والكون .

وباستعراضنا لما سبق في اطاره الانساني العام ـ يتأكد لدينا أن استيقاظ الانسان مع قدوم النهار ، ونومه مع قدوم الليل . . قانون ينطبق على جميع البشر : مسلمين وكافرين . .

وحين يصدع الداعي بآذان الفجر ـ آخذاً المسلم من نهاية وقت سكونه ، وبداية حركته ـ يكون ذلك بمثابة منبه للانسان : أن استقبل يومك بحركة مبرورة مبروكة . . بالاستجابة لنداء من خلقك . فالاسلام يتسق مع طبيعة الانسان وامكانياته ، التي تدفعه الى الخلود للراحة ليلاً ، والسعي والحركة نهاراً . والمسلم . . أن رأى لديه بعض الوقت في فترة نومه وراحته . له أن يتهجد ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾[1] .

وما يجب أن يلتفت اليه العقلاء . . أن الفترة الواقعة بين آذاني العشاء والفجر . . كافية لتوفير الراحة والحيوية لمن بلغ سن الرشد ـ أي التكليف ـ فها هنا ارتباط وثيق بين الانسان . . ككائن قادر على الكسب والحركة ، وكمكلف فرضت عليه الصلوات الخمس . . ابتداء بالفجر وانتهاء بالعشاء .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ حين شرع نظام اليوم . . على هذا النحو ، قدر أن يكون ذلك الزمن كاف لراحة الانسان . . المتميز بسعيه للكسب ، وهو ذات

---

(١) الآيتان ١٧ : ١٨ في سورة الذاريات .

الانسان المكلف بالصلاة . فكان النظام الزمني متسقاً مع عنصري الحركة والعبادة .

يستتبع ما سبق ذكره . ضرورة ابتداء اليوم ـ للانسان عامة والمسلم خاصة ـ مع آذان الفجر ، وانتهائه مع آذان العشاء ، وبذلك نصحح نمط الحياة اليومي تمشياً مع الفطرة ، تلك التي جاء الاسلام ليقرها .

الفصل الرابع
التوحيد وسورة الاخلاص

تقدمة

التوحيد . الحقيقة الكامنة في نفس الانسان ـ أي انسان ـ والتي تعرضت لكثير من المغالطات والمعاندات ، ومن ثم بعث الله الرسل . . مبشرين ومنذرين بين يدي عذاب اليم .

ولما كان الاسلام يطلق النفس البشرية من ضيق الشرك الى رحابة التوحيد . فقد جاءت أغلب الآلام التي عاشها الرسول ﷺ وأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ بسبب استمساكهم بالتوحيد في مواجهة الشرك ولذلك جاء القرآن . . مؤكداً عليه وداعياً اليه .

ويتجسد ذلك ـ على نحو واضح ـ في سورة الاخلاص ، حيث تتجلى بهجة التوحيد وسط عبوس الشرك .

مقدمة لسورة الاخلاص

مقاصد القرآن ثلاثة : عقائد ، وأحكام ، وقصص .

وسورة الاخلاص أخذت الثلث الأول كله وهو العقائد التي ترتكز في الاسلام على التوحيد . . .

ولتوضيح أمر التوحيد نقول : أن المناهج الموجودة على ظهر الأرض ، هدفها جميعاً من وجهة نظر أصحابها ، تصحيح حركة الانسان بحيث لا يشذ عن الصواب ولا يخطىء في حركته .

وما دام الانسان ليس وحيداً في الكون ، **فان أهم ما يصوب تحركه هو ألا تتعارض حركات البشر المختلفة مع بعضها** ، لأن هذا التعارض يجعلها حركات متعارضة متعاندة لا متساندة .

وهذا التعاند هو سبب فساد الحياة . فلا يمكن بالتالي أن تتفق الحركات الا اذا كان الآمر بالحركات . واحداً . .

فالوحدانية ـ بالضرورة ـ أساس استقامة حركة الحياة . . وفي الآية الكريمة : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ نجد مدلولاً عميقاً لكلمة «**أحد**» ونستوعب هذا الفرق أكثر ، بالتفرقة بين كلمتي واحد ، وأحد .

فالواحد : فرد لا يوجد له نظير ، ولكنه قابل للتركيب من عدة أجزاء . وبذلك لا يكون «أحد» لأن الأحد غير مركب .

فالتركيب يعني أن الكل في حاجة الى الجزء الذي هو وحدته الأساسية .

وترتيب سورة الاخلاص بعد سور ﴿الكافرون﴾ و﴿النصر﴾ و﴿المسد﴾ ترتيب ضروري . . لماذا ؟ . . لأن الأولى تقطع العلاقات تماماً مع الكافرين . . كأن المنهج الذي نزل من عند الله على رسوله ﷺ ، عورض من الكافرين ؛ فكانوا يصرون على النقيض الذي هو الكفر والشرك . واذن ، فلا تفاهم . .

ويلاحظ أن القطع ، جاء من قبل الرسول ﷺ ، مرتين بشكلين مختلفين : أولهما ﴿ **لا أعبد ما تعبدون** ﴾ والثاني : ﴿ **ولا أنا عابد ما عبدتم** ﴾ وفي ذلك ترسيخ لمعنى التوحيد في الأذهان ، لأن الظروف قد تضطر الانسان الى قطع العلاقات في الوقت الحاضر ، ثم يعود مستقبلاً تحت ضغط ظروف مغايرة ـ الى اعادة العلاقات مرة أخرى . .

فأكدت السورة على قطع العلاقات مع الكافرين تحت أي ظروف . .

ويستفاد من معنى قطع العلاقات ، الاعتراف بوجود خصم ، وبدين هو عليه يعيش . . لكن أيظل الوضع هكذا ؟ فجاءت سورة النصر ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ مشيرة الى القضاء على الكفر ، وقد يعني ذلك أن كل الكافرين سيؤمنون بدين الله ، لذا جاء الاستثناء القرآني مؤكداً وجود كفار معاندين مثل أبي لهب يحاربون الدعوة . ولذلك كانت سورة﴿ **المسد**﴾﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** . . ﴾

الثالثة بعد السورتين السابقتين ، لتستثني صنديداً من صناديد الكفر من الايمان . . بعد ذلك تأتي سورة الاخلاص لتقرر حقيقة أن مصدر كل ما سبق من الآيات ، هو إلٰه أحد ، فكل ما قيل هو كلام ثابت لا معقب عليه ، ولا تغيير فيه .

وبذلك ، انسجمت كل السور مع بعضها .

ونشير هنا ، الى تلك الدعوى الخاطئة التي تطالب بتغيير القرآن وجعله حسب نزوله لا حسب الترتيب الإلهي الذي نزل به جبريل وبلغه لرسولنا الكريم ﷺ . .

فالسور نزلت بترتيب تاريخي تبعاً للحوادث . ولكن ترتيبها في القرآن جاء على نحو آخر وفقاً لنهج معين لمخاطبة الانسان . .

ومثالاً على ذلك ، أنني قد أذهب الى السوق لشراء أثاث المنزل فتقع عيني أول ما تقع علىٰ المطبخ فأشتريه ثم غرفة النوم فأشتريها ثم غرفة المعيشة فأشتريها . . وذلك لا يعني مثلاً أن المطبخ أهم في الترتيب من غرفة المعيشة أو النوم ولكن الظروف الجأتني الى الشراء بهذه الصورة عكس الترتيب الذي اتبعه عند ترتيب وضع الأثاث في الحجرات . . اذن هناك فرق بين ظروف تحتم الحدث قبل ظروف النزول تاريخياً ، وبين هيكل عام يتجمع فيه الحدث بقصد معين . .

تفسير السورة

ان الله سبحانه وتعالى ، ليس كلياً له أفراد ، لأنه واحد . وليس كلا له أجزاء لأنه أحد . !

فمعنى الكل : أنه مركب من أجزاء تعطي كلاً واحداً ، وكل جزء لا يقال له واحد ، وانما الأجزاء في مجموعها واحد مثل الشجرة مكونة من جذور وساق وأوراق . . الخ . . فلا يسمى الساق ـ مثلاً شجرة وانما مجموع هذه الأجزاء تشكل الشجرة في النهاية . .

أما الكلي فيطلق على كثيرين متفقين في الحقيقة مثل : انسان وانسان وانسان . . فالكلي لا بد له من أفراد مستقلين أو وحدات مستقلة بذواتها كل منها يحقق معنى النوع مثل الانسان .

فالله جل شأنه ليس كلا لأنه أحد لا أجزاء له . . وليس كلياً لأنه ليس هناك آلهة مثله . .

و﴿ قل هو الله أحد ﴾ تنفي الأجزاء في ذات الله . لذلك أن قيل أن الأب والابن ممكن أن يكونا الهاً ؛ فانهما لن يكونا الهاً أحداً لأن صفة الأحد تمنع تعدد الأجزاء .

و«**الصمد**» : أي المقصود ، وأصلها (المصمت) ـ لغة ـ أي الذي يتحمل الأعباء ، والصمد يقصد في تحقيق الأشياء .

ووحدة المقصود أو احدية المقصود ـ مع تعدد القاصدين ـ تدل على أن للواحد كمالاً مطلقاً لا ينتهي . .

والله سبحانه وتعالى مقصود حتى ممن لم يطعه وهذا يدل على ذاتية الكمال . . بدليل أن الانسان يخضع لناموس في ذات خلقه ، فتحمل به أمه ، ثم يخضع صاغراً للدورة التنفسية، وتعمل الأعضاء بداخل جسمه بدون ارادة منه ، ويسري عليه قانون الحياة والموت . . كل هذا يعني الطاعة الاجبارية من العباد لله سبحانه وتعالى حتى الكفار منهم . .

وهذا انما يدل على جوهرية الخير في الحق جل شأنه ولذلك السبب فالله غير قابل للأغيار ولا ينفعل .

الحديث يجرنا هنا الى تناول﴿ **الحمد لله**﴾من سورة الفاتحة ، لنستجلي الأمور حول النية والقصد . . فحين أقول : أن الكوب لفلان مثلاً . . فابتداء أنا حكمت بوجود كوب ، فصار بذلك بديهية فوق مستوى المناقشة . وتبقى المشكلة فيمن يستحق الكوب . . كذلك حين نقول ﴿**الحمد لله**﴾ نعني أن الحمد قضية مسلمة معترف بها ؛ ولكن المشكلة هي لمن يكون الحمد ؟ فهناك نعم كثيرة تستوجب الحمد ، والانسان ـ مثلاً ـ يتمتع بنعم لم يخلقها ولم يوجدها بنفسه ، وخلقت بلا تدخل منه . ـ فالحمد في منطق العقلاء يجب أن يكون موجوداً كمحاولة للتعبير عن الشكر والامتنان مثلاً . .

والحمد لله . . تدل أيضاً على الحصر بأن تقدمت كلمة (الحمد) على (لله)

فدلت بذلك على حصر (الحمد) (لله) .

وحتى لو لم نحصر الحمد لله وجعلناه للبشر ، اذا تتبعنا الأمر سنجده محصوراً في الله أيضاً لأن خالق البشر ـ المحمود ـ هو الله . ومن فضل الله أنه خلق لنا ما يعيننا على شكره . فهب أنه لم يوجد لنا صيغة مشتركة نحمده بها ، فقد يعطي ذلك الفرصة للبليغ لكي يتفوق على الجاهل مثلاً . .

وهل هناك حمد يتوجه للفضائل وحمد للفواضل . . ؟

أنك قد تعجب بعمل بارع على الرغم من انعدام الفائدة بالنسبة لك ، مثل بناء هندسي محكم ؛ فهذا هو تقدير الفضل في ذاته . . وأما الفواضل فهو ما ينعم به عليك وتلمس فائدته مثل تذوق طعام جيد . وهؤلاء الذين سلبوا بعض النعم مثل البصر ، وهم متعلقون بالله في ذات الوقت . متعلقون بفضائل الذات وليس بفواضل النعم !

حين نتناول الآية الكريمة ﴿ **لم يلد ولم يولد** ﴾ فيهمنا ، ما يتعلق بمقام مولد الإله كما يزعم البعض . . وفي ذلك نزل القرآن لمعالجة مشكلة قائمة بالفعل مثل القول بأن المسيح مولود .

وحين تأتي طبيعة الإله مركبة من أكثر من جزء ، تتهدم دعوى الالوهية لأن الأحد لا يتكون من اجزاء كما سبق القول . كما أن هذه الدعوى الباطلة كانت ستجد لها بعض الحجج لو وضعت نظريتها في آدم وهو من جاء بدون أب ولا أم فكان أليق الصاق هذه الصفة به . . وحيث لم تطلق عليه فكان ذلك أولى بألا تطلق أيضاً على عيسى !

أما ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ : فمن الجائز أن يسير الكون بعالم الأسباب ، وقد يفتن بعض الناس بالأسباب فتغنيه عن الله . . أتكون هذه الأسباب المخلوقة لها الكفاءة لمساواة خالقها . . ؟ !

وإذا كان الله قد أعطى بعض خلقه قوة السببية في اتيان الأشياء ، فيجب ألا يخدع الناس بهذه الأسباب لأنها هي ـ في ذاتها ـ تنكر ذلك ، لأن عطاءه عطاء ذات

وعطاء المخلوقين عطاء سببية ، وهو عطاء ممكن أن يسلب منهم . والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . . ؟** ﴾[1] . .

والانسان يجب ألا يأخذ الأسباب ويدعيها لقوته ، ويستأثر بها لأنه هو ذاته مردود لله . . ألم يكن شاباً وصار كهلاً . . ؟ ! . . فهو ذاته يخضع لهذه النهاية وهو في النهاية عائد الى الله خالق كل الأسباب .

(١) الآيتان ٦٣ : ٦٤ في سورة الواقعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسول بين مكة والمدينة

الهجرة والتاريخ

خطأ في استقبال المناسبات :

ما أحسن أن نحيي مناسبات الإسلام الضخمة . ولكن الأحسن من هذا ألا نحيي المناسبة فقط في فترة من ليل أو فترة من نهار ، الأحسن أن نحيا نحن هذه المناسبة ، نحياها في كل ما آتت من ثمار . . نحياها أسوة . . ونحياها قدوة . . ونحياها عبرة لا تغيب .

ولكن المسلمين اكتفوا من إسلامهم بأن يحيوا مناسباته وكأن الإسلام في حاجة إلى أن يعيش بهم ، والناس ليسوا في حاجة إلى أن يعيشوا بالإسلام . . ما أجمل الإسلام أن يحيا بنا ، ولكن ما أحوجنا إلى أن نحيا نحن بالإسلام .

نحن في العالم الإسلامي نحسن استقبال المناسبة ، ولكنا لا نحسن معالجة المناسبة . ومع ذلك نقول : حسبنا الآن أن نعيش الإسلام تحقيقاً إلى أن ييسر الله لنا أن نعيشه تطبيقاً .

مدلول التاريخ الهجري :

وإذا كانت الهجرة حدثاً ضخماً من أحداث الإسلام ، فيجب أن نلحظ أن تاريخها لم يبدأ حيث بدأت حدثاً ، ولكنها نشأت مع البعثة نفسها ، لأن رسول الله ﷺ حين ذهبت به زوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل ، فقص عليه ما رآه من خبر الوحي قال له : لتقاتلن ولتخرجن . قال : « أو مخرجي

هم » ؟ قال : نعم ، ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مظفراً .

فكان رسول الله ﷺ استقبل خبر الهجرة في الوقت الذي استقبل فيه خبر تصديق أنه مبعوث . . إذن فالهجرة نشأت مع البعثة . . فكأن الله تعالى أراد أن يعلمنا : أن البعثة بدأت بإطلاق دعوة في مكة في آذان سادة الجزيرة ، ولكنها انطلقت من المدينة . . فكان لا بد أن يلتقي الإطلاق والانطلاق .

فإذا ما نظرنا إلى الحدث في ذاته يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، ولذلك نقول : كل حدث له ظرف ، والظرف إما مكاني وإما زماني ، والظرف المكاني ظرف قار وثابت لا يتغير ، ولكن الظرف الزماني متغير ، فيكون مستقبلاً ، ثم يكون حالاً ، ثم يكون ماضياً .

حين يراد التاريخ فإنما يراد بالتاريخ ربط الأحداث بالأزمنة . ثم يأتي بعد ذلك المكان ظرفاً تابعاً للزمان . ولذلك فالتاريخ دائماً يكون بالأحداث التي تنشأ في الزمن ، لا بالمكان الذي ينشأ فيه الحديث . . وقديماً عرف التاريخ بالأحداث والمناسبات ، فكانوا يؤرخون بسيل العرم ، ويؤرخون بعام الفيل ، ولكن حدث الهجرة ذلك الحدث الضخم قد أرخ به ، ولم يؤرخ بعام البعثة ، لأن الهجرة كما قلنا : كانت انطلاقاً للدعوة ، لأنها أصبحت من دار إيمان ، لا من دار أمن فقط ، والتاريخ لا بد أن يرتبط بفلك ثابت ومستقر .

فيجب أن نعلم أننا حين نستقبل المحرم لا نستقبل الزمن الذي حدثت فيه الهجرة ، لأن الهجرة حدثت في أواخر صفر ، وأوائل ربيع الأول ، فإذا كان لا بد أن نؤرخ للحدث فكان يجب أن نؤخر الاحتفاء بالهجرة إلى أواخر صفر وأوائل ربيع . . ولكن هذا الزمن لا يناسب أن يكونب بداية تاريخ ، لأنه غير مرتبط بأمر فلكي ثابت .

إن كان لا بد أن يربط التاريخ بأمر فلكي ثابت ومستقر فالأمر الفلكي الثابت المستقر في عرف الإسلام إنما هو التاريخ للشيء الذي له علامة تميزه فلكياً ، وهو ظهور الهلال ، لأنك لا تستطيع أن تعرف الشهر بالشمس ، ولكن الشمس هي التي تؤرخ لك الليل والنهار . والهلال جاء ليؤرخ لك الشهر من الشهر . . ولذلك فأنت

لا تستطيع أن تحكم على الشهر بالشمس أبداً ، وإنما أنت تحكم بها على اليوم فقط .

فحين تريد تأريخاً شهرياً لا تجد أمراً فلكياً له علامة ثابتة إلا الهلال . . إذن فربط التاريخ بالهجرة والهجرة بالتاريخ القرآني في قوله تعالى : ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر** ﴾ وأولها المحرم قصد به الهلال في أول المحرم ، فيعلم بذلك أن هذه بداية الشهر .

فحين أرادوا أن يؤرخوا للهجرة كحدث ضخم من أحداث الإسلام لم يؤرخوا للحظة التي حدثت فيها الحدث ، وإنما أرخوا للعام الذي حدث فيه الحدث . ليظل العام عاماً يبدأ من المحرم ، وينتهي في ذي الحجة ، وتظل العلامة المميزة للشهر هي الهلال ، فيكون للعام الذي حدثت فيه الهجرة .

فنحن حين نحتفي بعام هجري حدثت فيه حادثة الهجرة ، وإنما نؤرخ بالعام الذي حدثت فيه الهجرة ليظل أمر التاريخ مرتبطاً بأمر فلكي مميز ، لا يمكن أن يشاركه فيه غيره .

والكفر كذلك . . مهاجر

معنى المهاجرة :

إذا نظرنا إلى حدث الهجرة نجد أن الاسم له « الهجرة » ولكن كل فعل تعرض لهذا الحدث لم يقل « هجر » بل قال : « هاجر » . لأن هاجر غير هجر ، مع أن المادة واحدة . ولكن اختير الاسم من الثلاثي ، ثم جيء بالفعل من المفاعلة الذي هو رباعي ، . فالذين هاجروا لم يسموا « هاجرين » وإنما سموا « مهاجرين » . من « هاجر » .

واستعمال اللغة في هاجر يعني أنه يأتي من طرفين . كما تقول في قاتل زيد عمراً ، فمادة المفاعلة لا بد فيها من طرفين ، مثل شارك . فقاتل زيد عمراً تعني : وقاتل عمرو زيداً . فهي مفاعلة من الطرفين . . لا بد أن تكون المفاعلة من طرفين كل منهما فاعل ومفعول في نفس الوقت .

و« هاجر رسول الله ﷺ » حدث في ذاته ، وكان فيه مفاعلة ، ممن ؟ من كفار مكة . لأن رسول الله ﷺ لم يتجن على مكة فيهجرها ، لأن « هجر » يستدعي سبباً من جهته هو ، يقال : هجرت كذا . ولكن حين يقال : هاجر فإن من في المكان كان لهم دخل في المهاجرة ، لأنهم لو لم يؤذوه ، ويؤذوا أصحابه ، ويضطهدوا المؤمنين الضعفاء ، ويضطروهم الى أن يذهبوا إلى أماكن شتى ليقوا أنفسهم من بطشهم لم يهجروا مكة إلى المدينة .

إذن فالذي ألجأهم إلى أن يهجروا مكة إلى المدينة لا مجرد بغض لمكة ، وإنما من في المكان وهو مكة اضطرهم أن يهاجروا ، إذن فالمسألة مفاعلة ممن هاجر وممن اضطرهم إلى أن يهاجروا . . إذن فالهجرة كحدث : مشاركة ضخمة ، والشعراء قد انتبهوا إلى هذا المعنى فقال المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

إذا ألجأك قوم إلى أن ترحل ، وكانوا يقدرون ألا يجعلوك تفارقهم فلا تكون أنت الراحل ، بل هم الراحلون .

فالرسول ﷺ لم يهجر مكة ، لأنها أحب البلاد إليه ، ولكنه هاجر ، ومعنى هاجر : أن من فيها ممن لم يفهموا دعوته اضطروه بالإيذاء إلى أن يهاجر ، إذن فالمفاعلة قائمة من الطرفين ، والذين فعلوا معه هذا هم الذين هاجروا ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إلي . فأدخلني أحب البلاد إليك » .

دلالة المتاعب ونتائجها :

والرسول ﷺ يعطينا بالهجرة درساً يجب أن نتأسى به في كل أحداثنا الضخمة التي نحاول بها أن نؤثر في مجرى حركة الحياة . . لأن الذي يريد أن يغير مجرى حياته وحياة من حوله لا بد أن يتعرض لكثير من المتاعب . لأنه سيخرج الناس عما ألفوا ، وذلك أمر شاق على النفوس ، وخاصة إذا كان النقل إلى أمر غير مساو ، بل النقل من أمر تنطلق فيه حرية الحركة للناس ، بحيث يفعلون ما يشاءون إلى دائرة تتحكم فيهم فتقول لهم : افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا .

إذن فالذي يغير مجرى حياته إلى مخالف لها لا بد أن يتعب ، ولكن التعب لا يمنعه من أن يأخذ الأسباب في مظانها وفي أماكنها ، ورسول الله ﷺ آمن بأنه رسول الله ، لأنه يشهد كما نشهد له نحن فيقول : أشهد أن محمداً رسول الله . فلا بد كما شهد الله لنفسه أن لا إله إلا الله فكذلك محمد ﷺ يشهد أنه رسول الله ، وإلا فإن لم يقتنع تماماً ، ويشهد أنه رسول الله ، لاهتز من أول حدث . ولكن الذي يجعله يقف أمام الأحداث : علمه بأنه يستند إلى ركن شديد رشيد قوي هو « الله » ، وأن كل ما يحدث له إنما هو أمر ابتلاء حتى يتحمل الدعوة الجديدة قوم لهم جلد ولهم صبر ، ولهم إلف على تلقي المصاعب ، وعلى تحدي كل العقبات .

كان يمكن أن ينتصر الله لرسوله في مكة . ولكن أراد أن يربيهم على العمل الدائم في سبيل الله ، فرأوا في الإسلام عوضاً عن أهلهم ، وعوضاً عن أولادهم ، وعن أموالهم . وما داموا وجدوا هذا فهم الذين يحملون الدعوة، والله تعالى قد أعد الجزيرة لاستقبال الإسلام .

دروس من الاضطهاد

كان من إعداد الله للجزيرة لتستقبل الإسلام أنها جزيرة أمية . لو قال قائل : كيف تعد أمة أمية لهذه الرسالة ؟ نقول : نعم ، لأن الله لا يريد انطلاقة تنشأ من أمة متحضرة ، فربما قيل : إن الدعوة نتيجة لحضارة وكان لا بد أن توجد ، فلم يشأ الله أن يكون الإسلام هكذا . فربما قال قائل : قفزة حضارية ، لكن أراد أن يجيء الإسلام من نبي أمي في أمة أمية ، ليعلم الناس جميعاً أن كل ما عندهم لا يد لهم فيه ، وإنما هو من عند الله وحده .

لذلك يجب أن نعلم أن الذين يتكلمون في أُمية محمد ﷺ ويقولون : يجب أن تمحى هذه الكلمة ، فلا يقال : نبي أمي في أمة أمية ، نقول لهم : افطنوا يا قوم ، لأن الله يريد أن يقول للعالم : إن محمداً وأمة محمد لم يأخذوا من حضارة الدنيا شيئاً ، وإنما جاء كل منهجهم من السماء ، فلا دخل لأحد فيه ، لا بالنسبة للرسول الذي أنزل عليه ، ولا بالنسبة للقوم الذين أنزل إليهم .

الرسول والأسباب :

سار الرسول ﷺ في الأسباب ، وعرض نفسه على القبائل . . والرسول ﷺ قبل الهجرة كان محمياً في الخارج بعمه أبي طالب ، وكان الكفار المعارضون للدعوة يحترمون بقاء أبي طالب معهم على ديانتهم ،ولا يحتدون في إيذائه ﷺ ، وكان عدم إيمان أبي طالب أو عدم استعلان إيمان أبي طالب دفعاً لهؤلاء إلى ألا يؤذوه كثيراً ، وإلى أن يحترموا بقاء عمه في حضانة دينهم .

ربما كان ذلك ، وربما كان رأي العلماء الذي قالوا بإيمانه في كتاب « أسنى المطالب في إيمان أبي طالب » صحيحاً ، ربما . . ولكنها على أي حال كانت عملية إلهية ، حتى تظل المهابة لأبي طالب ، ولو أعلن أبو طالب إيمانه لأصبحت المجاهرة أمراً عادياً ، وربما كان لهم شأن آخر مع الرسول ﷺ .

يجب أن نذكر أن الله سبحانه نصر الإيمان بالكفر، نصر إيمان محمد بكفر أبي طالب ، يجب أن نفهم أن الحق سبحانه حينما يريد أن يثبت أمراً يأتي بالنصير من أمر مخالف لهذا الأمر ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ . .

أبو طالب إن كان مساوياً للرسول ﷺ على طريقة الحماية السببية ، فإن محمداً ﷺ يعلم ان الذي أرسله لن يخذله ، ولكن الحق سبحانه لا بد أن يجعله يجد شيئاً مادياً هو عمه ، وله مكانته ، وله مهابته في القبائل ، فهو محمي به .

والمتاعب لصاحب الدعوة لا يجوز أن تكون في خارج أمره فقط ،ولكنها قد تكون في داخل أمره . . فقد حدثنا التاريخ أن أمرأة نبي وامرأة رسول كانتا تخونهما . . ولكن خديجة رضي الله عنها كانت لرسول الله ﷺ سكناً بمعنى الكلمة ، فإن أهيج في الخارج سكنته في الداخل ، وإن حصلت له مشقات في الخارج قابلته بحنانها ، كل ذلك دليل على أن رسول الله ﷺ كان مطمئناً في الخارج بأبي طالب ، وفي الداخل بخديجة .

وبعد ذلك تعرض رسول الله ﷺ إلى أن أبا طالب يموت ، وخديجة تموت في عام واحد . إذن فقد السكن ، ولم يجد رسول الله ﷺ بداً من أن يعرض نفسه على القبائل لعلها تحميه ، فذهب إلى الطائف إلى قبيلة ثقيف ، لعلها تحميه ،

ولكنه استقبل استقبالاً سيئاً ، حتى أصبح ذلك من بديهيات تاريخ الإسلام ، وعز عليه النصر في الطائف .

ويعلمنا الله من خلال ذلك : أن أخذك بالأسباب لا بد أن يكون سابقاً على اتكالك على المسبب . . فالأسباب مخلوقة لله ، ويد الله ممدودة بالأسباب ، فلا يجوز أن تردّ يد الله بأسبابه ، ثم تقول : يا رب افعل لي . لأنه يقول لك : أنا أعطيتك يدي بالأسباب ، فلماذا لم تتناول هذه الأسباب ؟ أنا لا أجيب إلا المضطر . ومعنى المضطر : الذي استنفد الأسباب . . ورسول الله استنفد الأسباب للاستنصار لدينه ، فشاء الحق أن يقول له : إنك قد ذهبت إلى النصير . وتعبت في سبيله فلم تجده ، فأخذت الأسباب ، فليكن النصر من المسبب ، ليأتيك النصر وأنت في مكانك .

وفعلاً جاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ في العقبة وبايعوه ، كانوا قلة ، ثم أكثر من القلة ، ثم كثيراً ، فكانوا الطليعة الإيمانية في المدينة التي تبشر بمحمد ﷺ .

إذن فرسول الله استنفد الأسباب كي تواتيه الأشياء حتى جاءته الأسباب في مكانه ، ومعنى ذلك أن في ذلك درساً يجب أن نتعلمه ، هو : أن نتتبع الأسباب ، ولكن لا نعتقد أن هذه الأسباب غاية ، لأن وراء الأسباب مسبباً ، يجب أن نلحظ أن الله سبحانه يعطينا في الهجرة لفتات ، هذه اللفتات هي سببية الحدث .

وسببية الحدث ليس معناها : أن يقبل الإنسان على السبب بدون إدراك ، بدون تقدير ، فرسول الله ﷺ حينما أوذي أتباعه ولم يجد لهم نصيراً ، وخاف عليهم ، بسط أمامه ملوك العالم ، ونظر إلى خريطة الدنيا ، . رأى أنهم إن ذهبوا إلى أي بقعة من الجزيرة فالجزيرة خاضعة لسادة قريش ، لأن قريشاً هي سادة العرب ، والعرب تحترم تجارتهم لمكانهم من البيت ، إذن فأي مكان من الجزيرة لا يصلح أمناً للمضطهدين ، لأنهم سيجدون من يتقدم مجاملاً ليمكن قريشاً من هؤلاء المهاجرين .

ثم نظر خارج الجزيرة . . لا يكفي أن يكون البلد الذي يختاره خاضعاً لكتاب سماوي ، ولا أن يكون أهله مؤمنين برسول ، ولكنه ﷺ نظر إلى السلطة

الزمنية ، قد يكون الملك تابعاً لرسول ولكنه ظالم لا ينفذ تعاليم كتابه . كالروم والفرس ، فرأى أعدل الحكام في الحبشة ، بدليل أنه قال لأصحابه : اذهبوا إلى الحبشة ، فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد .

كان ذلك إيذاناً من رسول الله ﷺ بأن قريشاً لن تترك أصحابه في الحبشة ، وبأنهم سيذهبون إلى ملكها بالهدايا ليسلم إليهم هؤلاء المهاجرين ، لكن رسول الله ﷺ قال : « إن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد » هو ليس مجرد فرار ، ولكنه ذهاب إلى أمن ، ولذلك سميت الهجرة إلى الحبشة : هجرة إلى دار أمن ، أما هجرة الرسول ﷺ فهي هجرة إلى دار إيمان .

هذا هو الفرق بين الهجرتين ، تلك هجرة إلى دار أمن ، وهذه هجرة إلى دار إيمان .

على طريق النصر

غرائب الأسباب :

ننظر نظرة أخرى . نجد أن رسول الله ﷺ يعلمنا أننا حين نخطط للأسباب يجب أن نخطط لكل احتمالاتها ولكل مجالاتها ، فقد خطط للرواحل ، وخطط للزاد وخطط لدليل الطريق ولكل شيء .

لعل قائلاً يقول : بأي سبب كان سينتصر رسول الله ﷺ ؟ ولكنه يعلمنا أننا لن ينزل علينا وحي ، فحين نخطط لأمر من الأمور يجب أن نخطط له بشمول وبجد ، ولذلك انظروا إلى مكر الله بالكافرين .

استعرضوا الأمر وقولوا لي : بأي عقلية وبأي عقيدة جاء الرسول ﷺ برجل كافر على دين قومه ليهديه إلى الطريق في هجرته . . أما أغراه الجعل الذي جعلته قريش على أن يدلهم على محمد مع أن الجعل كان سخياً ؟ ولكن حرارته لحفظ نبي الدعوة جعلته لا يفعل . ومع ذلك استخدمه رسول الله ﷺ .

ورسول الله ﷺ بإشراقات النبوة لا بد أنه قرأ شيئاً في مواجيد هذا الرجل ، فوجد أنه لا يمكن أن يدل عليه قريشاً . . إن الذي يعرف محمداً بالطريق كافر ، إذن فيجب أن يفهم جيداً أن هذا الرجل لن يسلمه إلى قريش . . وهو ما حدث .

لماذا هاجر الرسول خفية :

هاجر رسول الله ﷺ خفية ، ولكنها خفية أشق على نفوس الكافرين من العجز . هاجر خفية وهم مترقبون ، وهم محيطون به ، فكيف يخرج من بينهم ، تلك نهاية العجز ، لو لم يكونوا محيطين به لقالوا : لو أحطنا به لما فر . يقول الله لهم : أحيطوا به وسيسلم منكم .

وبعد ذلك انظروا إلى أن رسول الله ﷺ ليس أقل شجاعة من عمر ، وعمر هاجر علانية متحدياً ، وقال : من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده فليتبعني . أكان محمد أقل شجاعة من عمر ؟ لا ، إن محمداً ﷺ كان دائماً أسوة للضعاف ، لأن القوي لا يحتاج . . هاجر خفية أسوة للضعيف . . كان يتخذ الأسباب ويجوع ، ويربط الحجر على بطنه ، كل هذا أسوة للضعيف . . فكل من يقبل على دين الله يقبل على قدر قدرته .

وقاية الله :

ودرس آخر . هو أن يختفي محمد في الغار . ثم يتبعه قومه . وليتهم لم يهتدوا إلى الغار ، لكنهم يهتدون إلى الغار ، وينقطع الأثر . . كان لا بد أن يعلموا جيداً أنه هنا ، ولكن الحق سبحانه أراد أن يرد أقوى أعدائه بأوهى البيوت وهو بيت العنكبوت .

يأتي عنكبوت ، ويعشش ويعتقد القوم أنه لو كان في الغار لانهدم بيت العنكبوت ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ .

معية الله :

وحينما قال لأبي بكر ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ . فكأن المؤمن مهما بلغت به الشدة يجب أن يتمثل أن الله معه ، والذي يجعل الإنسان يخور أمام الأحداث أن الحدث أضخم منه ، فلو أن الإنسان واجه الأحداث بذاتية البشرية الضعيفة المتغيرة كان من الممكن أن يخور ، ولكن الإيمان بالله فوق الأحداث يجعل الإنسان يواجه الأحداث بقوة وعزم .

كان أبو بكر يضحي بذاتيته حين سار مع رسول الله ﷺ ، يسير مرة عن يمينه ، ومرة عن شماله ، ومرة أمامه ، ومرة خلفه ، فيسأله رسول الله ﷺ فيقول : يا رسول الله ، أنا أذكر الرصد فأمشي أمامك ، ومعنى الرصد : القوم الذين تفد أنت عليهم يجلسون متربصين لك . يخشى أبو بكر أن يكون أمامه رصد يتربصون به فيمشي أمامه ليتأكد ، وهو لا يمشي إلا في المنحنيات غير المتبعة ، ثم يذكر الطلب . يخاف أبو بكر على رسول الله ممن يطلبه من ورائه فيمشي خلفه ، وإذا وجد منعطفاً عن يمين أو شمال صار حيث توجد مظنة الخوف . إذن فأبو بكر ضحى بذاتيته في سبيل المحافظة على رسول الله .

احفظوا علماءكم :

هب أن هناك رصداً فمن الذي يأخذ أول إصابة ؟ هو أبو بكر ، الطلب كذلك ، واليمن والشمال كذلك ، إذن فقول أبي بكر : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا . ليس خوفاً على نفسه ، لأنه ضحى بها في المواقف كلها ، فالخوف على رسول الله ﷺ .

هذا درس معناه : إذا كان في الناس رائد فكر أو رائد إصلاح أو رائد جهاد ، فوجب على الناس أن يحافظوا على هذا الرائد ، لأنه ليس كل الناس يصلح رائداً ، هناك أناس يعوضون ، وأناس لا يعوضون ، يجب أن يكون من يعوض فداء لمن لا يعوض .

حين يكون من يعوض فداء لمن لا يعوض يكون هناك إيمان بالدعوة من جميع جهاتها ، من مركزها نبعاً ، ومن محيطها وأطرافها ، ومن كل شيء فيها ، فالكل يضحي من أجلها .

لكن هذا الرائد يجب أن نفهم من كل أعماله ومن كل تصرفاته أنه يعيش للأمر ، ويعيش للدعوة ، ولا يعيش لنفسه ، حين يعيش من أجل الدعوة فإنه يستحق من جميع المحيطين به أن يضحوا ليبقى عنواناً للدعوة ، وعنواناً للرأي ، وعنواناً للفكرة . وكذلك كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ .

واجهوا الأحداث بالله :

والرسول خاطب أبا بكر من ناحية يقين المعاينة قائلاً : « ما ظنك باثنين الله

ثالثهما » ؟ فكأنه عاين الله ثالثهما . . وما دام يتكلم من ناحية يقين المعاينة وقد عاين الله ، والمعية للضعيف مع القوي تضفي على الضعيف قوة من القوي . . هب أن رجلاً ضعيفاً يمشي مع فارس ، وبعد ذلك ، الضعيف هاجمته قوة ، فالضعيف لا يواجه القوة إلا بالفارس ، فإذا كان الإنسان في معية الله فإنه يواجه كل الأحداث بالله . لكن حين ينفصل عن الله يواجه كل الأحداث بنفسه .

ما ظنك باثنين الله ثالثهما . فكأن الرسول ﷺ يقول لأبي بكر : لو نظر أحدهم تحت قدمه فلن يرانا ، لأن عين الله تحرسنا . إذن هما في معية من لا تدركه الأبصار. إذن قانون القوي هو الذي سيحكمهم .

معجزات على طريق الهجرة :

أيضاً ننظر إلى الحدث في الهجرة . . ننظر إلى أم معبد . تستقبل ركب الهجرة ، وليس عندها شيء ، والكريم إذا أصيب بصدمة الإعسار فإنها صدمة شديدة . . حينئذ يجود بما عنده .

لم يكن عندها سوى شاة عجفاء لا لبن فيها ، فرسول الله ﷺ مسح على ضرعها فدر لبناً ، هذا هو الوجود . . لا الطارق عنده ، ولا المطروق عنده . . إذن الأسباب منقطعة . فالحق يجري خرق النواميس فيها لتشرب هي ويشربون .

استقبال الأنصار للرسول

انظروا إلى الجزاء :

بعد ذلك تأتي ملحظية الاستقبال ، ويجب أن نفهم أنها احتشاد بمكلف ، واحتفال بمن يقيد حركة . . لو كنا نحتفل بمن يطلق حركتنا كانت المهمة سهلة ، لكن الرسول آت لتشريع ، يقول : افعل كذا ، ولا تفعل كذا . آت ليقيد حركتهم بعد أن كانوا أحراراً فيما يأتون وفيما يدعون . . جاء يحكمهم التزاماً بمنهج ، وبأمر من مشرع . أنتم ستصبحون مقيدين وملتزمين ، فكيف يفرح الانسان بمقيد وملزم . . هذا شيء عجيب .

أنا أفهم أنا نفرح بواحد يأتي ليريحنا ويعطينا . لكن هذا آت مع إخوانه

المهاجرين وليس معهم شيء ، وكان من الواجب أن يستقبلهم الأنصار بأرزاق وأماكن وبأعمال ، لأنهم تركوا أماكنهم . . فلا بد أن يكونوا أهلاً لهم بدل أهليهم ، وسكناً لهم بدل سكنهم ، مع تقيدهم بمنهج جديد . . فكيف يفرح الإنسان بهذا ؟ كيف يفرح بمقيد وملزم .

وهذا يدل على أن صفقة الإيمان حين تعقد يجب ألا يلحظ فيها التقيد في الحركة ، ولكن الجزاء على تقييد هذه الحركة . . ولا شك أن الجزاء على تقييد الحركة ، والجزاء على التضحيات التي تنتظر الأنصار أن يقدموها للمهاجرين عاينوها وأيقنوا بها وبما أعد لهم ، فقارنوها بما بذلوه فرأوا أن ما بذلوه ضعيف بالنسبة لما يأخذونه ، كما تهب أنت الثمن للبائع طمعاً في أن السلعة ستعطيك أكثر من الثمن .

ولذلك نجد لوناً من التآخي يحدثه رسول الله ﷺ ليكون ألفة تسير في دنيا الإيمان كلها .

إخاء الإيمان :

لقد انتظم جماعات المؤمنين إيثار من نوع جديد نتيجة للتآخي الذي أحدثه رسول الله ﷺ . فالنعم التي ينعم الله بها على عباده ممكن أن تتعدى إلى الآخرين ، مالاً كانت أو مركباً أو ثمراً أو داراً إلا نعمة الله بالمرأة على الرجل ، فتلك نعمة لا يحب أحد أن يشارك فيها . . هذه قمة النعم التي يحتفظ بها الإنسان لنفسه ، ولا يسمح فيها بالشركة .

تأتي للأنصار . المهاجرون خرجوا من ديارهم ومن أموالهم ومن أزواجهم فيأتي الرجل من الأنصار متزوجاً بامرأتين فيقول للمهاجر : انظرهما ، فمن أعجبتك طلقتها وتزوجتها . . أي سماحة هذه ؟ قمة الغيرة في الإنسان هي المرأة . كل نعمة تحب أن تتعدى منك إلى غيرك إلا نعمة المرأة فلا تحب أن يتمتع بها أحد . لكن هذه أيضاً دعتهم حميتهم لإيمانهم الجديد إلى التضحية بها ، فيضحي الواحد منهم بامرأة من امرأتين ليتزوجها أخوه . هذا شيء عجيب .

المسجد والولاء لله :

ويستقر رسول الله ﷺ في المدينة فنجد أن الله تعالى قد هيأ الزمان ، وهيأ

المكان المناسب لانتشار الدعوة . . فيبدأ أولاً بمهبط الإشعاع وهو المسجد . لأن هذا المكان فيه دوام إعلان الولاء لله الذي آمنا به . إنه يتكرر فيتكرر الولاء لله . فمنه نسمع (الله أكبر) خمس مرات في اليوم . وأنت في زحمة الحياة ، فيتجدد ولاؤك . .

ولذلك حين نلاحظ قوله تعالى : ﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء** ﴾ . قال بعدها : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ . ما متعلق الجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿ **في بيوت** ﴾ ؟ كأن تجليات الحق سبحانه هي اللحظة التي يناجون فيها ربهم ، فالرسول ﷺ هيأ المكان الذي يكون فيه دوام إعلاء الولاء لله رباً للجميع .

وما دام إعلان الولاء لله الذي آمن به الجميع فقد ارتبط الجميع على اختلاف نزعاتهم واختلاف ميولهم بشيء واحد . والمربوط به ليس مماثلاً .

والذي يتعب الناس بعضهم مع بعض خوف الواحد أن يتبع آخر في رأيه ، أو أن واحداً يستذل واحداً بمنهجه . ولكن حين تكون أنت وهو خاضعين لمنهج واحد لإله واحد فالذلة منك ومنه لغير مماثل . . وما دامت الذلة لغير مماثل بل أقوى فكلنا يصدر عن حركة واحدة .

وإذا ما نظرنا إلى اختلال الأمم التي نعايشها الآن . حدنا أن أصل البلاء في الأمم الإسلامية والأمة العربية : أن كل واحد له هوى ، وكل واحد له رأي ، إذن الويل للضعيف الذي ليس له نصير . . ولكننا لو كانت أهواؤ نا جميعاً صادرة عن هوى واحد كما قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . حين يكون هوى الجميع تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ فلا تضارب في الحركة ، ولا تضارب في الهوى ، ولا تنازع ولا استذلال من أحد لأحد .

وسيظل العالم في هذا الانهيار والشقاء والتمزق الخلقي ما دام كل واحد له فكر من دماغه . . يقول الله : ارجعوا إلى صيحة السماء في كل الأرض ، فستجدون عزكم جميعاً ، لأنكم ستحكمون عن الله ، وحين تحكمون عن الله فلن تجدوا أحداً

يظلم أحداً ، يستنكف الواحد منا أن يذل أحداً . يستنكف الواحد منا أن يدل بقوته على أحد ، ولكن ما دمتم هكذا كما أنتم عليه الآن .

الاستطراق الذي صنعه رسول الله ﷺ قد يقال فيه : مؤاخاة ، نقول : لا ، أول استطراق هو الاستطراق العقيدي في وحدة التلقي عن إله واحد ، والاجتماع لله في مكان واحد ، ونسمع كلنا مبدأ واحداً لا نختلف عليه أبداً وهو (الله أكبر) . ونشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم يأتي بعد ذلك كل استطراق اقتصادي أو اجتماعي أو عهدي حر ، كما صنع مع اليهود حين عاهدهم أولاً لأنهم كانوا يستفتحون به على الذين كفروا .

فكان المفروض أن يكونوا أول من آمن به ، ولكنهم عاونوا الكافرين على رسول الله ﷺ .

الإسلام ينتصر بالكفر :

وما علموا من غبائهم أنهم هم الذين حموا الإسلام في المدينة . انظروا كيف ؟ كانوا قبل أن ينزل الإسلام يستفتحون على الذين كفروا ، ويقولون : سيأتي نبي منكم نتبعه نحن ، لأننا أتباع نبي هو أخوه في النبوة ، وحين نتبعه نقتلكم قتل عاد وإرَمَ ، فكانوا يهددون الأوس والخزرج بالنبي المنتظر الذي جاء في كتبهم ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

فالأوس والخزرج سمعوا ذلك ، فحين علموا أن نبياً ظهر في مكة قالوا هذا هو النبي الذي توعدتنا به يهود ، هيا بنا لنسبق إليه قبل أن يسبقونا إليه .

فكأن الله كما جعل الكافر في مبدأ الانطلاق بالهجرة هو الهادي لمحمد ﷺ في الصحراء ، الهادي لركب الإيمان كافر ، والذي جاء بأنصار الإيمان إلى مكة اليهود . . إذن فالكفر واليهودية تعاونا على نصرة الإسلام ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ .

الهجرة هددت مهابة قريش

حين استقر رسول الله ﷺ في المدينة ، ووجد الأنصار يؤثرون على أنفسهم ولو

كان بهم خصاصة ، ويقول الله تعالى : ﴿ **والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم** ﴾ كل هؤلاء أظهر حفيظة قريش ، ولكن قريشاً رأت أنها بصدد قوة ، هذه القوة أصبحت تهددهم ، وتهدد مركز المهابة لهم ، وهو أن تجارتهم لا تتعرض لها في الجنوب ولا في الشمال ، لماذا ؟ لأن الحج إلى بيت الله كان موجوداً ، وكل قبيلة مهما نأت كان منها من يحج إلى بيت الله كل عام ، إذن فأي قبيلة من هذه القبائل ستكون بين يدي قريش في مكة ، ويخافون أن يتعرضوا لتجارتهم بسوء ، لأن الانتقام منهم مؤكد حين يذهبون للحج ، فكانت المهابة لقريش من هذه الناحية ، أي قبيلة تخاف أن تجير عليهم ، ومعنى تجير عليهم أن تقول : أنا أجير فلاناً من قريش ، لا يستطيع أحد أن يقولها أبداً .

فإذا كانت قريش بهذه المنزلة فقد وجد في الطريق إلى الشام قوة إسلامية تستطيع أن تهددها ، وحين تهددها فقد فقدت قريش مهابتها . . إذن فقريش أصبحت تخاف على نفسها اقتصادياً كما تخاف على مهابتها . . إذن كان لا بد أن تعقد معاهدة بين قريش الكافرة وبين رسول الله ﷺ ، وهي التي تعرف بمعاهدة الحديبية .

أصبح محمد قوة ، وما دام قوة تعاهد وتعاهد أي تعطى وتعطي ، إذن فقد أصبح قوة معترفاً بها . . وإذا كان قوة معترفاً بها لمكان موقع المدينة بالأنصار وبالإسلام فقد استطاع أن يعاهد ، وحين يعاهد فقد أمن الشر من جانب ، فتفرغ للجوانب الأخرى .

الإسلام بين العلم والتطبيق :

إذن فالهجرة إلى المدينة كانت انطلاقاً بالدعوة ، ولذلك نجد الأحداث الضخمة كانت بعد الهجرة ، والهجرة في ذاتها حين تكون حدثاً إسلامياً يجب أن نعلم أن رسول الله ﷺ وعمره الإيماني الإسلامي ساعة عهد إليه إلى أن لقي الرفيق الأعلى أن كل جزئية من جزئيات حياته حركة أو فعلاً تكون مطابقة لدستور الإسلام . لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أقضيات الإسلام إلى أن تقوم الساعة .

فحين نأخذ العبر من حياة رسول الله ﷺ لا يصح أن نأخذ العبرة على أنها قصة تاريخية نقتل بها الوقت ، ولا على أنها ترف عقلي ، ولكن نأخذها على أنها تشكل نمطاً

سلوكياً . . أي إن كل من يعي جزئية من جزئيات الإسلام مسئول أمام الله عن بلاغها نظرياً وعن توضيحها تطبيقياً ، وعن إمكان حدوثها سلوكياً لأن الذي يتعب الإسلام في كل أموره الآن أن مبادىء الإسلام شيء ما أجمله ، ولكن تطبيق المسلمين لما يعلمون من مبادىء الإسلام شيء يزهدون فيه .

فهم بتصرفاتهم يصرفون الناس عن أن ينظروا إلى الإسلام . . ولا أزال أذكر كلمة المستشرق الذي أسلم فقال : الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين . لأنه لو كان عرف المسلمين بسلوكهم فربما كان قد انصرف عن الإسلام لأنهم يرون أن السوك هو الذي يوصَل للإسلام ، لا . تلك الفرية يجب ان تبتعد في مجال المقارنات المبدئية ، لأن الإسلام حين يشرع شيئاً ليس معناه أن كل مؤمن بالإسلام سينفذه . بل ربما يخالف ، وما دام خالف ، فالمخالفة جريمة لها عقوبة .

فالآفة : ألا تجد في مجتمع المسلمين عقوبة على شيء أنت تراه جريمة ، أما أن توجد جريمة ولا يجرم فاعلها ولا يعاقب فذلك لأن الإسلام عاطل الآن . . هو في المتحف . . في رؤوس البعض ، والله يريد الإسلام مبدأ ينقل ويحقق ، ومبدأ ينقل ويطبق .

فإذا ما قصرنا في الأول فقد قصرنا في حمل العلم الذي قال فيه الرسول ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » . وإذا قصرنا في التطبيق ابتدأ غير المسلمين لا ينظرون إلى إيماننا ، ولكن ينظرون إلى سلوكنا ، وحين يكون سلوكنا غير إيماني يزهدون في الإيمان .

إذن فنحن المزهدون في الإسلام ، وكان الأولى أن نكون دعاة للإسلام . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الكعبة في حماية الله

معنى أحداث مكة

ان الذي حدث في المسجد الحرام هو حادث خطير جدا . . يرينا كيف يهدم الدين باسم الدين . . وكيف يساء استخدام الاسلام ومقدساته في أغراض دنيوية أو عن سوء فهم لهذا الدين ومقدساته وحرماته . .

ولقد تلقيت العديد من الأسئلة حول هذا الموضوع الذي أحدث دويا هائلا . . بعض الناس قال . . ان ما حدث يتنافى مع نص القرآن الكريم فقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ .

وقال تعالى ﴿ **واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا** ﴾ . . واذا كان الأمن قد رفع من بيت الله فان هذا نذير بأنه لا أمان ولا أمن في الأرض بعد الآن . . وتساءل بعض الناس هل من الاسلام الصحيح أن يلجأ أناس أيا كانت دعواهم ولو كانت دينية الى بيت الله الحرام ليقاتلوا فيه . . وكيف يستخدمون ما حرمه الله فيما يدعونه من أنهم يريدون التقرب الى الله وتطبيق شريعة الله . . وسأل أناس آخرون هل يمكن أن يعود الأمان الى الكعبة بعد الآن ذلك أنه حتى ولو لم يحدث شيء فان الذاهبين الى هناك سيكونون خائفين من أن تتكرر مثل هذه المأساة ومن أن يحدث هذا الموت من جديد ومن هنا فقد اهتز الأمن والأمان في مكان قال الله تعالى عنه: ﴿ **من دخله فهو آمن** ﴾ . . الى آخر دوامة الأسئلة التي عشت فيها طوال الأحداث والتي تنم عن ألم شديد في نفوس كل المسلمين لما حدث . . واستنكار بالغ من كل مسلم لتلك الفئة الباغية التي اعتدت على البيت الحرام . . وقتلت المصلين الآمنين الذين جاءوا

يطلبون رحمة الله ومغفرته ورضوانه .

ولكن ما هو معنى كل ما حدث ؟

كان هذا هو موضوع حديثي مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . .

قال فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي انك قد أثرت أكثر من نقطة هامة . . وسأجيب على ما أثرته نقطة نقطة ذلك أن كل واحدة من هذه النقاط محتاجة الى شرح واف لكي يفهمها الناس الذين تتعلق قلوبهم ببيت الله الحرام . . ويعصرها الألم مما حدث هناك من اعتداء على حرمة البيت وترويع الآمنين فيه . . ومنع الصلاة والآذان والطواف خلافا لما شرعه الله وأمر به . .

وأهم نقطة سأبدأ بها هي ما يقوله بعض الناس من أن هذا الحادث يتعارض مع نص في القرآن الكريم وهو الأمن في البيت الحرام .

يقول الله سبحانه وتعالى عن بيته الحرام ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ ، ويقول الله تعالى ﴿ **واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى** ﴾ . . والواضح هنا أن الله قد استخدم لفظ الأمن والأمان لمن يدخل بيته . . فكيف يأت أناس ويعتدون على البيت الحرام ويحولونه الى ساحة قتال ويروعون الآمنين من المصلين ومن العابدين لله . . ويقتلونهم بغير ذنب جنوه . .

ان ظاهر الأمر يفيد أن هناك تناقضا بين ما حدث وبين ما قاله الله . فالبيت وصف بالأمن وقد دخله أناس وأثاروا فيه الرعب والفزع والقتل والتقتيل وقد يدخل أناس بعد ذلك وهم خائفون من أن يتكرر ما حدث . .

اذن الأمن لم يعد مصحوبا بالبيت مع أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ . .

ونحن نقول لكل من يردد هذا الكلام أنك لا تفرق بين خبر يراد به التاريخ . . وخبر يراد به التشريع . . الخبر الذي يراد به التاريخ هو حديث الله عن ظاهرة لا تتغير ولا تتبدل . . فقوله تعالى ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ . . أي أن حركة الشمس دائبة في الكون منذ بدء الخليقة حتى يوم

القيامة . . وأنا أقول لكم هذا لتشهدوه . . هذا ما يراد به التاريخ . . أما ما يراد به التشريع فهو ما أحله الله وحرمه ـ فالله سبحانه وتعالى قال لنا أفعل ولا تفعل . . ثم ترك لنا حرية الاختيار أخبرنا بالحساب . . ومن هنا فأن الله سبحانه وتعالى حين قال افعل جعلني قادرا على ألا أفعل . . والا لما قال لي افعل . . وسبحانه وتعالى حين قال لا تفعل جعلني قادرا على أن أفعل بدليل أنه قال لا تفعل . . ولو كنت غير قادر على أن أفعل لما قال الله لي لا تفعل كذا ونهاني عن فعله .

اذن أساس التشريع هو أن الله سبحانه وتعالى أعطى الانسان القدرة على أن يفعل أو لا يفعل أشياء معينة ثم وضع منهجا وتشريعا وقال افعل هذا ولا تفعل هذا . . وهذه الآية تدخل ضمن التشريع أي أن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ أي من دخل بيت ربه فأمنوه . . ذلك أنه دخل بيت الله واستجار به . . ومن دخل بيتي فأمنوه ولا تؤذوه . . ذلك أنه لن يصح ان يهاجم أي انسان وقد دخل بيت ربه . . اذن فهو أمر تكليف من دخل فهو آمن . . لأنه دخل بيت ربه . . فمن لم يؤمنه استهان ببيت ربه . . ونزع الأمن والأمان منه فانه قد خالف أمرا من أوامر الله وارتكب اثما عظيما . . ذلك أن أي انسان يؤذي أحدا من عباد الله في بيت الله الحرام فانه لا يحترم جوار الله لمن لاذ به . .

اذن فالله يأمرنا بأن نؤمن من دخل بيته فمن شاء ان يعصى ربه ويرتكب اثما عظيما . . فعليه ألا يؤمن من دخل بيت الله الحرام وأن يعتدي عليه . . وأن يفزعه ويعتدي عليه . .

وهنا تحضرني أية اذ يأتيني بعض الناس ويقولون كيف يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **الخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات** ﴾ . . ونحن نلاحظ أن كثيرا من الطيبين يقعون في الخبيثات ، وأن كثيرا من الطيبات يقعن في الخبيثين . . فكيف يقول الله ذلك . . نقول لهم أن الله حين قال ذلك تشريعا ولم يكن تاريخا بمعنى أنه قال اعطوا الخبيثات للخبيثين واعطوا الطيبات للطيبين لأن الخبيث اذا تزوج من خبيثة فانه يفعل حينئذ ما تفعله معه . . والطيب اذا تزوج من طيبة عاش حياة هنيئة . فان لم تفعلوا وزوجتم الخبيثين للطيبات والطيبات للخبيثين فقد خالفتم وحصلتم على الشقاء في الحياة .

اذن هنا أمر تشريعي من اطاعه حصل على الحياة الطيبة . . ومن خالفه حصل على الحياة التعيسة .

اذن المخالفة هنا للبيت الحرام هي مخالفة من البشر . . وعصيان من البشر . . ولا يمس كلام الله في شيء . . ذلك أن الله قد قال لنا . . من دخل بيتي فاجعلوه آمنا فاذا خالفنا نحن هذا فالمخالفة من البشر أنفسهم . .

وقد علم الله سبحانه وتعالى أننا سنخالف وأن النفس البشرية أمارة بالسوء . . فشرع لذلك ليخبرنا مقدما أنه يعلم أننا سنخالف أمره وتشريعه بالنسبة للمسجد الحرام . . فقال سبحانه وتعالى ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين** ﴾ ومن هنا فان الله سبحانه وتعالى في علمه أنه سيأتي أناس ويدخلون المسجد الحرام ويصرون على معصية أوامر الله . . وعلى القتال فيه . . ويحاول المؤمنون ابعادهم بالحسنى عن المسجد فيرفضون ويصرون على القتال . . ومن هنا فقد أصدر التشريع فقال تعالى ﴿ **فان قاتلوكم فاقتلوهم** ﴾ . . ولو كانت الآية أو قوله سبحانه وتعالى ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ ، معناها أن الله سبحانه وتعالى سيحمي بقوته وسلطانه من دخل هذا البيت ويجعله آمنا ولا يجعل فيه قتالا . . فما قال سبحانه وتعالى ﴿ **فان قاتلوكم فاقتلوهم** ﴾ فالذي حدث أن أناسا خالفوا أوامر الله ، ودخلوا المسجد الحرام يحملون سلاحا . . وروعوا الآمنين فيه . . وقتلوهم . . ولذلك وجب قتالهم تنفيذا لأوامر الله سبحانه وتعالى . . على أن هؤلاء الصائلين ونحن نسميهم كذلك قد ارتكبوا إثما كبيرا بترويع الآمنين في بيت الله الحرام . . فدخولهم البيت الحرام وهم يحملون سلاحا إثم . . ونيتهم في اثارة الذعر والفزع ومخالفة أوامر الله بالأمن والأمان في البيت إثم عظيم . . ولماذا ؟ يلتجئون الى بيت الله الحرام ليفعلوا فعلتهم هذه . . ؟ وينتهكون قدسية وأمان أقدس بقعة في الأرض . . أنهم يذكرونني بعبدة الأصنام الذين جاءوا بأصنامهم ووضعوها في الكعبة المشرفة . . ولماذا الكعبة ؟ تضعون فيها أصنامكم . . وهناك أكثر من مكان يمكن أن تضعوا فيه هذه الأصنام . . ولكن هؤلاء الكفار في الجاهلية يعرفون قداسة الكعبة وقداسة بيت الله الحرام . . ولذلك اختاروا أقدس بقعة ليضعوا فيها أصنامهم وآلهتهم حتى تلتفت اليها أنظار الناس .

وهذا اختيار منهم ليجذبوا الأنظار الى هذه الآلهة . . كذلك هؤلاء المسلحون الذين دخلوا المسجد الحرام وانتهكوا قدسيته . . اختاروا أن يعصوا الله في أقدس الأماكن واقربها الى الله ليلفتوا الأنظار اليهم . . ولكن كما أن المكان مقدس وطاهر . . فالأثم عظيم وكبير . .

* * *

الأحداث . . والايمان

الأحداث لا يمكن أن تحدد الايمان . . ولا تجعله يعلو ويهبط في قلوبنا . وذلك أننا نعرف الظاهر فقط . . والله وحده يعرف الحقيقة . . والايمان ليس مشاهدة بالعين . . ولكنه خشوع بالقلب . . وفرق كبير بين ما تراه العين . . وما يعرفه الله سبحانه وتعالى . .

ويقول الله تعالى ﴿ **واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا** ﴾ . . والآية هنا معناها التشريع وليس معناها التاريخ . . أي ان الله سبحانه وتعالى لم يقل « **ومن دخله كان آمنا** » هذه ارادتي ومشيئتي الى يوم القيامة . . ولكنه قال :

﴿ **من دخل البيت فاجعلوه آمنا** ﴾ . . لأنه قد استجار بربه . . ودخل الى بيته . . وهذا امتحان للايمان في قلب البشر . . فمن اردت أن تؤذيه واحتمى ببيت ملك أو حاكم أو انسان ذي نفوذ . . فخرج لك هذا الملك أو الحاكم وقال : لقد دخل هذا الانسان بيتي . . واستجار بي . . وقد أمنته فهو آمن . . حينئذ تمتنع عن ايذاء هذا الرجل خوفا من غضب الملك أو الحاكم فيبطش بك . . هذا هو الحال بالنسبة للدنيا . .

أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فقد قال : ومن دخل بيتي . . فاعطوه الأمان . . فمن لم يخش الله وانتهك حرمة البيت الحرام ودخل اليه يحمل سلاحا وبطش بالمصلين الآمنين به . . يكون قد استهان بأمر من أمور الله . . وحينئذ يصيبه عذاب أليم . . والعذاب هنا بنفس القدر . . بنفس الفرق . . بين قدرة ملك أو حاكم . . وبين قدرة الله سبحانه وتعالى . . ولنا اذا تصورنا ذلك أن نعرف مدى العذاب الذي سيصيب من يدخل بيت الله يحمل سلاحا ويعتدي على المصلين . . بل أن الله

سبحانه وتعالى قال : ﴿ **فان قاتلوكم فاقتلوهم** ﴾ . . أي ان كل من جمل سلاحا ودخل المسجد الحرام ليقاتل فيه فجزاؤه أن يقتل . .

على أن الدليل بأن هذه الآية هي تشريع قوله تعالى : ﴿ **واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا . . واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى** ﴾ . . وكثير من الناس لا يتخذ من مقام ابراهيم مصلى . . بل منهم من لا يصلي . . فلقد كان الأمر المقصود به هنا التأريخ . . واتخاذ الناس من مقام ابراهيم مصلى بدون أرادتهم . . تماما كما ينبض القلب بدون أرادة . . ويتنفس الانسان بدون ارادة . . وتسير الدورة الدموية في الجسم بدون ارادة . . وتماما كما تشرق الشمس بدون ارادة منها . . وتدور الأرض بدون ارادة منها . . أي أن هذه الأشياء كلها لا تملك ان تفعل أو لا تفعل ما تقوم به . . فالانسان لا يملك ان يقول لقلبه توقف لمدة ساعة ثم عد الى النبض . . واذا توقف القلب لا يستطيع أن يعيده بارادته الى النبض . . وكذلك الشمس لا تملك أن تقول انني سأشرق اليوم ولن اشرق غدا . . والأرض لا تستطيع أن تتوقف ـ اذا أرادت ـ عن الدوران . .

اذن الأشياء التي سلبها الله سبحانه وتعالى الاختيار أو الارادة مسخرة لما خلقها الله من أجله لا تملك أن تفعله أو لا تفعله . . تلك آيات الله سبحانه وتعالى تخضع لارادته وحده . . اما التشريع فالله ترك لنا الخيار فيه . . قال أفعل . . وما دام قد قال أفعل فانني قادر على ألا أفعل . . وقال أيضا في أشياء لا تفعل . . وما دام قد قال ذلك فانني قادر أن أفعل . . قال من دخل بيتي فاعطوه الأمان . . أي اجعلوه آمنا . . واعطاني القدرة على الا أفعل . . فان فعلت جزائي خيرا . . فان لم افعل كان هناك العذاب الأليم . . وقال اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى . . فان فعلت كان الثواب . . وان لم أفعل . . فاتحمل وزري . . ولكنه في كلتا الحالتين أعطاني القدرة على أن أفعل ولا أفعل . . وهذه القدرة هي مقياس متين لخشية الله في القلب . . وخشية الله هي مقياس الايمان . . اذن فالذين دخلوا الكعبة بالسلاح وروعوا الآمنين وقتلوهم ارتكبوا إثما كبيرا في حق الله . .

والذين قاتلوهم ليعيدوا الأمن والأمان الى بيت الله الحرام . . انما طبقوا تعاليم

الله . . خصوصا انهم اعطوهم اكثر من فرصة ليسلموا . . ويخرجوا من المسجد الحرام . .

***

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي مكملا حديثه . . ان الذين انتهكوا حرمة المسجد الحرام انما يذكرونني بعبدة الأصنام . . الذين جاءوا بأصنامهم ووضعوها في الكعبة المشرفة . . واذا كان لكم آلهة غير الله . . فلماذا تأتون بها لتضعوها في بيت الله الحرام . . لقد اختاروا المكان لأنه أقدس مكان في الأرض . . وهذا اختيار منهم ليجذبوا الأنظار اليهم .

ولكن . . هل لكي الفت الأنظار الى انتهاك حرمة الله . . واعصى الله في بيته . . واقتل الآمنين فيه . . هل لكي ألفت الأنظار . . أقوم بقتال في المكان الوحيد الذي حرم الله فيه القتال . . ان الذين امتنعوا عن قتال هؤلاء المسلحين من أول لحظة مقدرون للبيت حرمته ومهابته وقدسيته . . وقد قال الذين احتلوا البيت الحرام . . أن زعيمهم هو المهدي المنتظر . . فاذا كانت دعواه انه المهدي المنتظر . . فنحن نسأل لماذا هذا المكان ؟ . . لماذا اختار أن يدخل بيت الله الحرام . . بالسلاح ليعلن دعواه ؟ . . الا أن يعتقد أن قدسية هذا المكان ومنزلته في قلوب جميع المسلمين . . تفيده في دعوته . . وتساعده على انتشار هذه الدعوة واقتناع الناس بها . . لأنها بدأت من بيت الله الحرام . .

اذن ما دمت تعترف أن لهذا المكان قدسيته . . فأول ما أنت مطالب به . . الا تنتهك هذه القدسية وان تحترمها . وأن كنت تريد اقناع الناس بشيء . . فلا تدس على أقدس مقدسات الاسلام . . باسم الاسلام . . ولا تعص الله في بيته . . ثم تقول انك تدعو لدين الله . . فلا يمكن التقرب الى الله بمعصية . . ولا انتشار دعوة تحت أي اسم من أسماء الاسلام تدوس على أقدس مقدسات الاسلام . . وتمضي في معصية الله . . نكون بذلك قد وصلنا الى حقيقة هامة . . هي أن الله سبحانه وتعالى قد وضع تشريعا بأن من دخل بيته يجب أن يؤمنه الناس . . وان بعض المسلمين قد جاءوا وعصوا هذا التشريع . . وان الذين تصدوا لهم . . لم يتصدوا لهم من أول لحظة حفاظا على قدسية البيت . . ثم بعد ذلك تصدوا لهم . . ليعود

للبيت أمنه وأمانه . .

ولكن . . هب أن اناسا تطاولوا على الكعبة وهدموها . . كما حدث في الماضي . . وكما قد تحمله احداث في مستقبل بعيد . . فهل هذا قدح في البيت . . ونيل منه . . أبدا . . هذا ابتلاء للمؤمنين . . امتحان للايمان . . امتحان للمؤمنين بقداسة هذا البيت . . هب أن انسانا جاء واخذ نسخة من القرآن وأحرقها . . هل نقول كيف يحدث هذا مع أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ . ان هذا ابتلاء لمن يؤمن به . . ابتلاء له بأن يقوم ليدافع عن هذا الدين الذي يـؤمن به . . والا يكون ايمانه مهتزا مع كل حدث يقع . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . وأنا هنا أحب أن أوضح حقيقة هامة . . ما هو الايمان أولا . . هل الايمان مشاهدة . . اذا كنت جالسا أنا وأنت وعدد من الناس في حجرة أستطيع أن أقول اني مؤمن بانني جالس معك . . طبعا لا . . اذا رأيت انساناً وهو ينزل على القمر . . أأستطيع أن أقول لقد آمنت أن انسانا ينزل على القمر . . طبعا لا . . لماذا . . لأن هذه مشاهدة . . اما الايمان فهو إيمان بالغيب . . ايمان بالارادة . . اناقش القضية أولاً بعقلي وفكري ووجداني . . وكل شيء . . ثم بعد ذلك أصل الى الايمان يقينا . .

هذا اليقين لا يهتز ابدا بالاحداث المشاهدة . . لأنني في كثير من الأحيان لا أدرك الحكمة منها ولا أعرف لماذا حدثت . . قد يمنعني الله من شيء اليوم . . فأشعر بالضيق . . ثم تمر فترة فأرى ان ما منعني الله منه كان شرا خطيرا . . قد يحجب الله عني وظيفة اتمناها مثلا . . وتمر شهور وتفلس الشركة التي كنت سألتحق بها . . بينما أكون انا قد التحقت بشركة اخرى اكثر أمنا وأمانا . . ولكني حين وقع الحدث . . حين منعني الله من الوظيفة الأولى اعتقدت أنه شر . . وحزنت فقد كنت محتاجا اليها . . واعتقدت ان الله قد منعني من الخير . . وربما شكوت اليه . . لماذا . . لأنني لم أكن أعلم ما هو قادم . . فلو علمت الغيب لحظة طلبي هذه الوظيفة لانصرفت عنها من نفسي . . ولكن الغيب محجوب عني لا أعرفه . . ومن هنا فانا لا أملك الحكم الصحيح السليم على الأحداث . . وما دمت الا أملك الحكم الصحيح والسليم على الأحداث . . فلا يحق لي أن اتخذها مقياسا لإيماني . . يذهب الايمان

بحادث ويعود بحادث . . هذا لا يكون ايمانا . .

ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى لنا الأمثلة في القرآن الكريم على ذلك في سورة الكهف . . التي سأتناولها بالتفصيل . . أخبرنا الله كيف أن العبد الصالح خرق السفينة . . وهو عمل في ظاهره شر . . خصوصا ان السفينة مملوكة لمساكين . . غرقها . . ظاهر العمل أنه ليغرقها . . وحقيقته . . انه لينجيها من ملك ظالم يأخذ كل سفينة غصبا . . وقام بعمل بلا أجر لقوم لئام رفضوا أن يطعموه . . ظاهره أنه عمل لقوم لا يستحقون . . نعمة لاناس رفضوا أطعام الضيف الجائع . . ولكن حقيقته هي حجب كنز ضخم عن هؤلاء الناس . . لإبنين أبوهما كان صالحا . . اذن ما قاما به في ظاهره عمل لا يجب أن يتم لاناس لئام . . وحقيقته . . عمل لذرية رجل صالح . . لانقاذه من هؤلاء اللئام . .

اذن الأحداث لا تصلح أبدا ولا يصح أن تكون مؤشرا للايمان . . بحيث اذا اعتدى مسلمون على الكعبة ودار قتال للقضاء عليهم . . اهتز ايمان عدد من الناس . . وتساءلوا عن آمن البيت . . وقالوا لماذا لم يحدث مثل عام الفيل الى آخر هذا الكلام . . لماذا . . لأن الحدث لا يمكن أن تعرف معناه الحقيقي ولا نتيجته . . حتى موسى عليه السلام . . وهو نبي الله وكليمه . . لم يطق الصبر على أحداث عدت أمامه شرا مستطيرا . . وعندما عرف الحقيقة . . ادرك الحكمة . .

فاذا اعتدى اناس على بيت الله الحرام . . لا يهتز ايماني . . ولا أقول لماذا لم يفعل الله كذا . . وكذا . . لأنه ليس لي علم الله حتى اعرف . . ولا أنا بمستطيع أن أسأل الله . . لماذا فعلت كذا . . ولماذا لم تفعل كذا . . ولكن الواجب علي أن افعل ما أمر به الله . . وأقضي على هذه الفتنة . . واعيد للبيت أمنه وأمانه . . أما من يقول لماذا فعل الله كذا . . ولماذا لم يفعل كذا . . فقد خرج عن دائرة الايمان وأراد أن يضع نفسه في منزلة مساوية علما وعقلا وقدرة لله سبحانه وتعالى . . وحينئذ يكون قد خرج تماما عن الدين . . ان هذا الباب يفتح أمامنا الطريق لماذا أعطى الله هذا الانسان رزقا وهو عاص . . ولم يعط هذا الانسان رزقا في الدنيا وهو مؤمن ومصل . . نقول له أن الله أعطى هذا رزقا وابتلاه بأشياء لا تعرفها . . وانه أعطى المؤمن من الرزق ما يكفيه واعطاه معه الحياة الطيبة ولكن سؤالك يفتح الباب على

مصراعيه أما الشيطان ليأخذك الى متاهات لن تستطيع أن تصل الى حل ما بعقلك أبدا . . وما دام الله سبحانه وتعالى قد بين لنا في القرآن أن ظاهر الأشياء لا يكون كباطنها أو كحقيقتها . . فيجب ان نعرف أننا بالحكم على الظاهر . . قد نخطيء الحقيقة . . وكثيرا ما نخطئها . .

اذن الايمان الحقيقي هو ايمان بالغيب . . لا تهزه الأحداث . . بل عليه أن يقدر أن أحداث الدنيا كلها ابتلاء من الله سبحانه وتعالى . . الشر ابتلاء . . والخير ابتلاء والقصد منها هل نشكر أم نكفر . . ومن يشكر فانما يشكر لنفسه . . ومن يكفر فان الله غني عن العالمين . . اذن كل أحداث الدنيا هي ابتلاء واختبار للايمان . . ولكن الذي أريد أن أقوله أن الايمان ليس هوسا . وانه يجب على الآباء وجوباً شرعياً أن يعلموا أبناءهم تعاليم هذا الدين السليمة . . حتى لا يأخذها أي انسان بهوس أو بجنون . . وأيضا يجب أن يكون المجتمع الاسلامي مجتمعا نظيفا حتى لا يجرؤ أحد أن يدعي الغيرة على الدين . . ثم يقوم بأشياء لا تتمشى مع الدين وفيها أعتداء على مقدسات الاسلام .

ننتهي من هذا الى أن القتال في بيت الله الحرام معصية كبرى ارتكبها عدد من الناس باسم الدين . . أو الهوس الديني . . وان هذه المعصية أوجبت على المسلمين أن يعملوا ليعود البيت آمنا كما أمر الله . . فان لم يمكن بالحسنى . . فبالقتال كما أمر الله . . وان كل من يدعي ان هذا الحادث ينال من الاسلام بعيد عن الفهم . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد نهانا ان نأخذ الأحداث مقياسا للايمان والدين . . ذلك لأننا نعرف الظاهر ونجهل الحقيقة . . ومن هنا فان حكمنا يكون خاطئا . . فالايمان لا يهتز بحدث . . كما أن الهوس في الدين غير مطلوب . .

على أن الله سبحانه وتعالى قد جعل البيت حراما . . وجعل الأشهر الحرم . . لأرضاء الغرور البشري . . وذلك أن الله سبحانه وتعالى قد علم أن للنفس غرورا . . وان هذا الغرور يغذيه الشيطان باستمرار لأنه هو المنفذ للمعصية . . وان هذا الغرور بالنسبة للنفس البشرية يهلكها . . فكم من انسان قاده الغرور الى القتل والى المعصية . . والى كل ما لا يرضي الله . . ومن هنا فتح الله سبحانه وتعالى للانسان بابا من أبواب رحمته ليرجع الى الحق . . وفي نفس الوقت يرضي غروره . . فجعل

البيت حراما . . واحد اسباب ذلك أن يلجأ اليه الانسان من بطش انسان آخر . . فيفيق هذا الانسان ويتراجع . . أو أن يكون اثنان يتربصان ببعضهما البعض فيدخل احدهما البيت الحرام ليحتمي بحمى الله . . وهنا أما أن يفيق الثاني الى أمر الله ويعفو . . وأما أنه لكي يرضي غروره يقول لقد التجأ الى بيت الله فتركته . . وفي كلا الأمرين رحمة ومراجعة للنفس البشرية من غرور الشيطان الذي يملأها . . وكذلك الأشهر الحرم . . قد تأتي فيتوقف القتال ... ويحس الطرفان المتحاربان اللذان كانا قد تعبا من الحرب ويمنعهما غرورهما من وقف القتال . . يحس كل منهما عندما تأتي الأشهر الحرم أنه يستطيع أن يحتمي لها ليوقف القتال دون أن يقال أنه هزم أو غلب . . وربما حينما ينعم بالسلم ويعرف طعمه . . يلجأ الى السلام وينتهي القتال وما يسببه من بؤس وشقاء للنفس الانسانية . . على أن هناك حديثا آخر عن بيت الله الحرام . . ومعنى البيت الذي هو موجود بمكة هو مكان البيت وهذا المكان حدده الله سبحانه وتعالى منذ خلق آدم . . شأنه شأن عرفات . .

رحمة من السماء

وكانت الأشهر الحرم . . ليتوقف القتال . . وليذوق الناس حلاوة السلام . . بل كان ذلك ليبعدهم عن الحرب دون ان يكون هناك منتصر ومهزوم . . وكان البيت الحرام . . ليضع العفـو في قلوب البشر . . فيأمن كل من يلتجيء اليه . . وليعفوا وليصفحوا . . عسى ان يغفر الله لهم . .

ولقد توقفنا حول معنيين هامين . . المعنى الأول . . أن الله أمر عباده بأن يعطوا الأمن والأمان لمن يدخل بيت الله الحرام . . ومن هنا فان من يخالف ذلك ولا يؤمن من دخل بيت الله . . يعتبر عاصيا لتعاليم الله سبحانه وتعالى ويستحق العقاب . . والعقاب هنا بقدر المعصية . .

والمعنى الثاني . . ان الايمان ليس مشاهدة . . فانا اذا كنت جالسا معك ومع عدد من الناس فلا استطيع ان أقول أنني مؤمن بأنني جالس معك . واذا قلت بأنني رأيت انسانا ينزل على القمر . . فهذا ليس ايمانا ولا أستطيع أن أقول انني مؤمن أن هناك انسانا قد نزل على القمر ... ولكن الايمان . . هو ايمان بالغيب والايمان

بالغيب يعلمنا . . اننا لا نعرف حقيقة الأحداث بالمشاهدة . . ذلك ان ما يحدث . . وقد نحسبه شرا . . ربما بعد ذلك تتغير الأمور وتحس أنه خير . . وخير عميم . . وما نحسبه خيرا بمنطق الأحداث والحاضر . . قد يأتي الغيب فتعرف أنه كان شرا كبيرا . والانسان بطبعه لا يستطيع ان يصبر . . حتى موسى عليه السلام نبي الله وكليمه . . لم يطق الصبر على أحداث بدت أمامه شرا مستطيرا . . وعندما عرف الحقيقة وادرك الحكمة عرف أنها خير . . وخير عميم . . والذي يريد أن يعرف ذلك عليه أن يقرأ سورة الكهف . .

واذا اعتدى الناس على بيت الله الحرام لا يهتز ايمان ابدا . . ذلك ان هذه احداث الله تجري بقدره . . ولا يحدث في كون الله الا ما يريد . . ومن هنا فاننا اذا لم نكن قد أعطينا علم الغيب . . فقد اعطينا الدليل على أن الغيب عنا يحمل الحكمة فيما هو حادث . . ولو أخذنا الكون على الظاهر وقلنا لماذا يرزق الله فلانا وهو عاص . . ولماذا يمنع الرزق عن مؤمن . . ولماذا يعطي من يفسد في الأرض جاها وسلطانا . . الى آخر ما يبدو أمامنا على السطح . . فاننا بهذه الطريقة نضل ونشقى . . ذلك أن الفهم الصحيح للأشياء لا يكون الا بعلم متساوٍ . . وشتان بين عقولنا المحدودة . . وبين قدرة الله سبحانه وتعالى وعلمه الذي بلا حدود .

ومن هنا فان الغيب دائما يحمل الخير . . والقضاء دائما مهما بدا ظاهره فهو خير من عند الله . . والايمان الحقيقي هو ايمان بالغيب لا تهزه أحداث الدنيا كلها . . فالشر ابتلاء . . والخير ابتلاء . . والقصد منهما هل نشكر أم نكفر لنكون شهداء على أنفسنا في الآخرة . . فالله سبحانه وتعالى نهانا عن الانفعال . . فقال ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم . . ولا تفرحوا بما أتاكم** ﴾ ونهانا أن نقيس ايماننا بالأحداث . . ذلك لأننا نعرف الظاهر ونجهل الحقيقة . . ومن هنا فان حكمنا قد لا يكون صوابا . . والخير قد يجعله الله في طريق ملأه بالأخطار . . كما جعل نجاة موسى عليه السلام بالقائه وهو طفل رضيع في البحر حيث يمكن أن تقذفه الأمواج . . أو تقلبه الرياح . . او يتعرض لطير جارح وهو طفل لا يملك الدفاع عن نفسه ضد أي شيء . . ومن هنا فان الله سبحانه وتعالى قد أمر بالقائه في الماء . . لا نعرف أننا في كثير من الأحيان نحس أن طريق النجاة . . هو الطريق الآمن . . ونجزع من الطريق المحفوف

بالأخطار . . بينما الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا لا تحكموا بهذه الوسيلة وحدها . . فهناك قدري ومشيئتي دائما . . قادر على أن يجعل طريق الأمن مهلكا . . وطريق الخطر فيه النجاة . .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه . . فيقول ان الله سبحانه وتعالى جعل البيت حراما . . وجعل الأشهر الحرم لأرضاء الغرور البشري ، فللنفس البشرية غرور يغذيه الشيطان دائما . . فيجعلها تأبى الرجوع الى الحق . ويجعلها تريد أن تستبيح حرمات وحقوق غيرها . . ومن هنا كان البيت الحرام أمنا للناس عسى النفس ان ترتدع عندما يلجأ الانسان الى بيت الله . . وجعل الأشهر الحرام لا قتال فيها عسى الانسان أن يبتعد عن شرور الحرب وينعم بالسلام اذا أحس بنعمة السلام . . وكان الله سبحانه وتعالى برحمته حريصا على ان يتم ذلك دون أهدار للغرور البشري .

وبذلك يستطيع الانسان الذي يريد أن يوقف القتال أو يوقف خصومه ان يقول انه فعل ذلك اجلالا لله سبحانه وتعالى . . وهكذا شاءت رحمة الله عندما يفتح باب التوبة ان يحفظ للانسان ماء وجهه وغروره . . وان يجعلها عملية سهلة على النفس وليست عملية صعبة .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه فيقول :

ان الله عندما شاءت رحمته الا يهدر غرور الانسان وكبرياءه في أي موقف . . وفي نفس الوقت برغبته في السلام والانصراف عن الحرب . . كانت هذه المشيئة تسهيلا للتوبة . . وترغيبا فيها . . ومن هنا كانت الأشهر الحرم هي راحة وتوقفا عن القتال يثبت خلالها الرغبة في السلام . . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعلها خضوعا لعدو يقاتلك . . فهو لم يأمر مثلا خلال الأشهر الحرم بأن نلقي سلاحنا . . ويأتي أعداؤ نا ليذبحونا ويقتلونا . . فنقول لهم اذبحوا كما شئتم واقتلوا كما شئتم لأننا لن نقاتل لأننا في الشهر الحرام . . والدليل على ذلك ان الله سبحانه وتعالى قد قال ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم** ﴾ . . وقال تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . قل قتال فيه كبير وصد عن**

سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾ . .

ومن هنا فانه اذا حدث قتال في الشهر الحرام فلا تقل انك اعتديت علي في الشهر الحرام لأنك بدأت بالعدوان علي .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلا :

ان الشهر الحرام هو سائر زمني ليفيق أولئك الذين يتخذون الحرب وسيلة لحل مشاكلهم ويمتنع عن القتال خلال هذه الفترة التي تعطيهم الفرصة أولا أن يعرفوا قيمة السلام . . وثانيا ليرجعوا عن القتال خضوعا لأمر الله . . ومن هنا يحفظ لهم الغرور الذي طالما أهلك النفس البشرية قادها الى أشياء فيها أذى كبير . . وبعد عن الله ذلك أن الغرور يهز الايمان بالنفس البشرية ويزعزعه . .

على ان الذي بمكة هو مكان البيت الحرام . . حدده الله سبحانه وتعالى منذ خلق آدم . . كما حدد جبل عرفات . . فقبل أن يتم بناء الكعبة المشرفة ويرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . . كان هناك تل صغير في هذا المكان . . وكان هناك حج وكان الناس يأتون الى هذا المكان ويطوفون بمكان البيت ويقفون بعرفات . فالحج موجود منذ وجد آدم عليه السلام . . ومنذ نزل البشر الى الأرض . .

ومن هنا فان مكان البيت . . حدده الله سبحانه وتعالى منذ بدء الخليقة . . وكان هناك حج قبل ابراهيم عليه السلام . . وكان مكان الكعبة المشرفة تل صغير . . وابراهيم رفع القواعد من البيت عندما طلب الله منه ذلك . . والله سبحانه وتعالى حين طلب من ابراهيم ان يرفع القواعد من البيت . كان المفروض ان يرفعها على قدر طاقته . . أي أنه يقف على الأرض ويرفع القواعد بقدر ما تستطيع أن تصل اليه يداه هو وابنه اسماعيل . . ولكن هناك حجرا في الكعبة عليه أثار أقدام ابراهيم عليه السلام وهو يرفع القواعد من البيت .

ما معنى هذا الحجر . . ولماذا هو موجود وعليه آثار هذه الأقدام . . هل هو مجرد آثار أقدام ابراهيم على الحجر . . ؟ وما قيمة حجر عليه آثار أقدام ؟ . . ان المعنى الذي أراده الله سبحانه وتعالى بابقاء هذا الحجر في مكان مقدس هو معنى ايماني كبير . فالله قد أمر ابراهيم بأن يضع القواعد من البيت . وكلف ابراهيم بأن

يضع القواعد قدر طاقته . . ولكن ماذا حدث . . أتى ابراهيم عليه السلام بحجر ووقف عليه . . لماذا ليرفع بناء البيت أكثر قليلا مما كلف به . . وكان ينقل هذا الحجر من مكان الى آخر ويقف عليه ليكمل البناء . . وهنا يأتي المعنى الايماني . . وهو ان الانسان المؤمن لا يكتفي بالتكاليف . بل يزيد عليها . . ومن هنا حاول ابراهيم أن يزيد من هذه التكاليف . . ولذلك نجد ان الركن الوحيد في الاسلام الذي لا يكتفي كثير من المؤمنين بالفريضة فيه . . هو الحج . . فالمفروض ان الحج مرة واحدة في العمر لمن استطاع اليه سبيلا . . ولكننا نجد ان كل من يحج مرة يريد ان يحج مرة أخرى . . وثانية . . وثالثة . . ذلك أن الأساس الذي وضعه ابراهيم في البيت يزيد عن التكليف الذي كلف به . . وهذه الزيادة انعكست على كثير من المؤمنين الذين يحجون الى بيت الله الحرام . . فترى انهم يريدون ان يعودوا الى الحج مرة أخرى وثانية وثالثة ورابعة .

وبعض الناس يظنون ان بيت الله هو المبنى الموجود أو الكعبة الشريفة . . ولكني أحب أن أقول ان هناك شيئا اسمه مكان . . وشيئا اسمه مكين . المكان هو الظرف . . ذلك أن كل حدث من الأحداث يخضع لظرفين . . وقت يقع فيه . . ومكان يوجد فيه فأنت اذا أردت ان تحدد أي حدث من الأحداث أو تؤرخ له . . أو تفهمه للناس فانك في هذه الحالة يجب أن تحدد شيئين : الزمن الذي وقع فيه هذا الحدث . . والمكان الذي وقع فيه . . أو الظرف المكاني الذي أحاط به . . وبيت الله هو المكان الذي فيه الكعبة . . ولكن ليس هو الأحجار التي بنيت منها الكعبة . . ومن هنا يسمي ما يشغل هذا المكان . . مكين . . اذن الحجر والمبنى هو مكين . . بمعنى انه يشغل المكان الذي حدده الله ببيته الحرام ويدل عليه . . والبيت فوق هذا المكان بدليل أن المصلي يصلي في اتجاه الكعبة ولو ارتفع الى السماء . . فلو كان هناك مسلم يقطن في منطقة جبلية عالية جدا . . وبيته في قمة الجبل . . فانه لا ينزل الى السفح ليؤدي صلاته . . بل يتجه وهو واقف مكانه الى اتجاه الكعبة . . ويبدأ في الصلاة . . وتكون صلاته صحيحة . . واتجاهه الى بيت الله صحيحا رغم أن المكان الذي يقف فيه قد يرتفع فوق البناء الموجود في بيت الله عدة الأف من الأمتار . . كما أن الذي يسافر في طائرة ويأتي وقت الصلاة يستطيع أن يتجه الى القبلة ويصلي . .

ومن هنا فنحن لسنا مقيدين بالارتفاع . . أي أننا لسنا مقيدين بالبناء الذي يدل على مكان بيت الله الحرام من ناحية طوله أو عرضه أو ارتفاعه . . ولكننا مقيدون ببيت الله الحرام . . وبيت الله الحرام قد تم تحديد مكانه بالقواعد التي وضعها ابراهيم عليه السلام لتدلنا على المكان .

فالذي يصلي في جبل عال يرتفع ألوفا من الأمتار . . والذي يصلي في منجم تحت الأرض بمئات الأمتار . . كلاهما صلاته صحيحة وكلاهما يتجه الى بيت الله العتيق الذي في مكانه الكعبة المشرفة كعلامة ولكن بيت الله ممتد الى عنان السماء . . والى باطن الأرض . . والى كل مكان في هذه البقعة المقدسة التي حددها الله سبحانه وتعالى . . واختارها بيتا له في الأرض . . يتجه له عباده خمس مرات كل يوم .

اذن فالذي يصلي في أي مكان في العالم سواء كان يعلو عن سطح الأرض . . أو في باطن الأرض يصلي متجها الى المكان الذي حدده الله لبيته . . ولذلك فان هناك فرقا بين المكان والمكين . . فمكان بيت الله هو المكان الذي توجد فيه الكعبة . . والمكين أي الذي يدلنا على المكان هو الكعبة المشرفة . . وأنا حين أطوف حول الكعبة المشرفة . أطوف حول بيت الله الحرام . . وحين أسجد في اتجاه الكعبة المشرفة . . اسجد اجلالا لله . . متجها الى بيته . . سواء كنت قريبا من هذا البيت أو بعيدا عنه . . والبقعة الوحيدة التي لا تنفع فيها الصلاة المفروضة ولا تجوز هي داخل الكعبة المشرفة . . حيث انني في هذه الحالة لا أكون متجها الى بيت الله الحرام . . ولكن أكون داخل البقعة التي حددها الله لبيته . . ولما كانت القبلة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لعباده المسلمين هي بيته الحرام بمكة . . فأنني في هذه الحالة لا أكون متجها للقبلة . . وداخل الكعبة هي البقعة الوحيدة في العالم كله التي لا تجوز فيها الصلاة المفروضة . . ولذلك فأنا حينما أذهب الى الحج . . أطوف بالبيت الذي سمته الكعبة المشرفة . . ولذلك حين يتكلم القرآن يقول : ﴿ **وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت** ﴾ . .

اذن الذي حدده الله سبحانه وتعالى لابراهيم عليه السلام هو المكان . . مع أن ابراهيم قبل أن يأتي لبناء الكعبة المشرفة ويرفع القواعد من البيت . . كان الله قد أنبأه

بمكان هذا البيت . . والدليل على ذلك ما جاء في القرآن الكريم من قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ **واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل** ﴾ . . ومن هنا فأننا نعرف ان اسماعيل اشترك في رفع القواعد من البيت . . ومعنى اشتراك اسماعيل في رفع القواعد من البيت انه قد بلغ مرحلة الرجولة أو الشباب على الأقل . . لأنه لو كان رضيعاً أو طفلا صغيراً . . ما استطاع أن يشترك في البناء مع أبيه .

ولكننا نجد في دعاء ابراهيم عليه السلام قوله : « **ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم** » .

وعندما أخذ ابراهيم أبنه اسماعيل الى هذا المكان كان اسماعيل رضيعا . . وتركه وهو رضيع هو وأمه في هذه البقعة المباركة غند بيت الله كما يقول ابراهيم في دعائه في القرآن الكريم « **عند بيتك المحرم** » . . اذن مكان البيت كان محددا قبل أن يقيم ابراهيم القواعد من البيت . . أي أن المكان كان محددا ساعة اسكان ابراهيم لزوجته هاجر وابنه .

اذن فساعة أن أسكن ابراهيم الرضيع اسماعيل في هذه البقعة كان البيت محددا في هذا المكان . . وله قدسيته . . وعندما أراد الله أن يحدد بيته للناس كافة . . أي أن يضع المكين لمكان البيت قال :

﴿ **واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت** ﴾ . . وهنا أمر الله تعالى ابراهيم برفع القواعد من البيت . .

بيت الله . . والكعبة

قال المستشرقون ان محمدا قد نهى الناس عن عبادة الأصنام وجعلهم يسجدون للكعبة . . وهي من الصخور والأحجار . . نقول ان أشد الناس مجادلة في شرائع الله . . هم الذين لا يؤمنون بها . . ذلك ان هناك في داخلهم شيئا ما يؤرقهم . . ويعذبهم . . والله قال في قرآنه الكريم . . في كل التكاليف ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . . ولكن أشد الناس جدلا . . هم الذين يفعلون كل ما حرم الله . .

كان مكان الكعبة الشريفة تلاً صغيرا يحدد مكان بيت الله الحرام . . الا أن

البيت كان موجودا منذ ان خلق الله الأرض ومن عليها . . والله سبحانه وتعالى قال : ﴿ **واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت** ﴾ أيّ ان الله عز وجل أخبر ابراهيم ودله على مكان البيت . . وما دام قد دله على المكان . . فهو موجود ومحدد قبل تكليف ابراهيم بالرسالة والحج موجود قبل أن يقوم بناء يحدد مكان البيت . .

والكعبة المشرفة هي العلامة أو الرمز الذي يبين لنا مكان البيت الحرام . . بيت الله . . وبيت الله هو المكان التي توجد فيه الكعبة . . ولكن ليس هو الاحجار التي بنيت منها الكعبة . . ومن هنا فأننا لا نسجد لحجر . . ولكننا نسجد لله . . متجهين الى بيته . . هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعرفها جميع المسلمين . .

هناك شيء اسمه المكان . . وشيء اسمه المكين . . المكان هو الموقع نفسه . . والمكين هو العلامة التي تدل على الموقع . . والكعبة هنا مكين . . بمعنى أنها تدلنا على المكان الذي حدده الله لبيته الحرام . . ولكن بيت الله يشغل كل منطقة تمتد الى أعلى عليين . . وتصل الى أقصى نقطة في باطن الأرض في هذا المكان . أي أنه يمتد في كل اتجاه من هذا المكان . . الى ما لا نهاية . . والدليل على ذلك أنك لو كنت تسكن منطقة عالية ترتفع ألوف الأمتار عن سطح البحر . . فأنك اذا وقفت فيها لتصلي أصبحت في مستوى أعلى من أرتفاع بناء الكعبة بألوف الأمتار . . وليس مطلوباً منك في هذه الحالة أن تنزل الى سطح الأرض لتصلي . . بل كل ما هو مطلوب منك ان تتجه الى بيت الله . . الى الكعبة المشرفة . . فتصلي . .

ولكن بناء الكعبة لا يرتفع الا عدة أمتار . . أما أنت فأنك على ارتفاع ألوف الأمتار . . ومع ذلك فصلاتك صحيحة . . لماذا . . لأنك لا تسجد للحجر الذي بنيت منه الكعبة المشرفة ويرتفع بضعة أمتار . . هذا الحجر هو العلامة التي تدلك على المكان . . ولكنك تسجد لله سبحانه وتعالى متجها الى بيته . . وما دمت قد أخذت الاتجاه الصحيح وهو الذي تم تحديده بالكعبة المشرفة . . فصلاتك صحيحة . . لأنك تتجه الى بيت الله الذي اختاره قبلة للناس . .

وانت اذا كنت تعمل في منجم تحت الأرض . . في باطن الأرض . . وجاء وقت الصلاة . . ماذا تفعل لتكون صلاتك صحيحة . . هل تخرج من المنجم الى سطح الأرض . . أبدا . . تقف في مكانك وتتجه الى القبلة وتصلي لله . . وصلاتك

صحيحة . . لماذا . . لأنك تسجد لله . . متجها الى المكان الذي حدده كبيت له . . ولا تسجد للحجر الذي بني منه هذا البيت . . وكذلك وانت في طائرة على ارتفاع ٣٠ الف قدم أو يزيد . . صلاتك صحيحة . . بينما الأحجار التي بنيت منها الكعبة المشرفة لا تزيد في الارتفاع عن أمتار معدودة . . ولكن الذي يصلي في أي مكان في العالم . سواء كان يعلو عن سطح الأرض أو في باطن الأرض . . يصلي متجها الى القبلة . . الى المكان الذي حدده الله لبيته . . ليتجه اليه كل من يصلي لله . . وأنا حين أطوف حول الكعبة المشرفة . . أطوف حول بيت الله الحرام . . وحين أسجد في اتجاه الكعبة المشرفة . . أسجد اجلالا لله متجها الى بيته . . سواء كنت قريبا من هذا البيت أو بعيدا عنه . . والبقعة الوحيدة التي لا تجوز فيها الصلاة المفروضة هي داخل الكعبة . . ذلك انني في هذه الحالة لا أكون متجها الى بيت الله الحرام . .

اذن لا يأتي انسان من مدعي العلم . . ويقول لي أنت تسجد لحجر . . أو لأحجار بنيت منها الكعبة . . لأنني أسجد لله متجها الى بيته الذي اختاره قبلة للمسلمين . . ولو أنني كنت أسجد للأحجار التي بنيت منها الكعبة . . لكانت صلاتي باطلة اذا تمت فوق جبل أو في باطن الأرض . . بل لوجب علي في هذه الحالة ان انزل من فوق الجبل . . وأن أقيس ارتفاعي بالنسبة لارتفاع بناء الكعبة حتى لا أتجاوزه . . ولكان علي ان أصعد من باطن الأرض الى سطحها . . بل لكانت الصلاة تصلح فقط في البقعة التي فيها البناء . . اذ كيف أسجد في بلاد بعيدة بيني وبين بناء الكعبة نفسه جبال وعمارات وأشياء كثيرة عالية تحجبه عني تماما وتقف حائلا بيني وبينه . . وكيف تجوز صلاتي وأمامي عمارة ترتفع ثلاثين أو أربعين دورا وأنا على الأرض . . وهي تفصل بيني وبين الكعبة وتعلو عن الكعبة عشرات ومئات المرات . . ما دمنا نتكلم عن الماديات والأحجار فأمام المسلمين عشرات من الجبال الشاهقة . . ومئات الألوف من العمارات الضخمة . . كيف تكون صلاتهم صحيحة . . وأين هو الحجر الذي يصلون له ؟! . . أو يسجدون له . . ؟!

الصلاة هنا لله . . والسجود هنا لله . . والله حدد لنا القبلة وهي بيت الله الحرام في مكة . . ووضع لنا علامة لنعرف مكان هذه القبلة . . ونتجه اليها . . أما الصلاة فهي لله . . الذي هو معك سواء كنت فوق جبل أو باطن الأرض أو مختبأ في مكان لا

يعرفه أحد . . والذي تقف بين يديه لتصلي متجها الى المكان الذي اختاره لك كفيلة للصلاة . . وحينئذ تكون صلاتك صحيحة مائة في المائة في أي مكان في العالم كنت فيه . . لأنك أينما كنت ووقفت للصلاة . . فأنت تقف بين يدي الله . . الذي لا تحده حدود ولا قيود . . حينما تكون في النصف الجنوبي من الأرض . . أو النصف الشمالي . . أو في أي مكان في الدنيا . . وجهتك هي البيت . . وصلاتك بين يدي الله . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . ان الله سبحانه وتعالى يعطينا الدليل على ذلك في القرآن الكريم . . فيقول تعالى : ﴿ **واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل** ﴾ ومن هنا فاننا نعرف أن اسماعيل قد اشترك مع ابيه ابراهيم عليه السلام . . في وضع القواعد من البيت . ومعنى ذلك أنه كان في هذا الوقت قد بلغ مرحلة الشباب على الأقل . . ثم تأتي الى دعاء ابراهيم « **ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم** » والمعروف ان ابراهيم عليه السلام أخذ هاجر وابنها اسماعيل الى هذا المكان . . واسماعيل طفل رضيع . . اذ لم تكن القواعد من البيت قد وضعت ولم تكن الكعبة قد بنيت . . فقول ابراهيم في دعائه في القرآن الكريم « **عند بيتك المحرم** » . . معناها أن مكان البيت كان قد حدد لابراهيم . . ولم تكن قواعده قد رفعت . . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يحدد مكان البيت للناس كافة . . فأمر ابراهيم برفع القواعد من البيت . . ليدل على المكان . .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فيقول : يأتي بعد ذلك السؤال التقليدي . . اذا كان الله سبحانه وتعالى موجودا في كل مكان . . واذا كان سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ . . فلماذا نتوجه الى مكان معين في الصلاة ؟ . . ولماذا لا يتوجه كل منا الى الوجهة التي يريدها ؟ . .

والجواب على ذلك أولا انها وحدة الهدف . . فليس من المعقول ولا من المقبول . . ولا من المنطق . . ان ندخل الى المسجد لنصلي معا . . فيصلي الامام في أتجاه ويصلي أحد المصلين في اتجاه مضاد . . وثالث في جهة أخرى ورابع في جهة ثالثة . . هذه لا يمكن أن تكون عبادة لها وحدة الهدف . . بل هي عبادة لا يتوحد من يقومون بها ولا توجد بينهم أية وحدة . . اذن وحدة الهدف وهي عبادة

الله . . وطاعة الله . . وحدة الهدف وهي الايمان تقتضي الاتجاه الى مكان واحد . .

ولكن هل هو مكان واحد بالنسبة لنا جميعا . . بمعنى أننا جميعاً نتجه الى اليمين أو اليسار أو الشرق أو الغرب . . ان كلا منا يتجه الى مكان البيت . . ولكن البيت بالنسبة لبعض الناس الى اليمين . . وبعضهم الى الشمال . . وبعضهم ناحية الشرق وبعضهم ناحية الغرب . . كل واحد منا حسب موقعه . . بل حسب موقع الحجرة التي يصلي فيها . . اذن فهذا لكي يتجه الى القبلة يتجه الى الشمال الشرقي والثاني الى الجنوب والثالث الى الغرب . . والشمال الغربي . والجنوب الغربي . . واذا اخترنا كل بقعة في الكرة الأرضية وحددنا فيها القبلة نجد ان الاتجاه الى القبلة يشمل كل اتجاه يعرفه الانسان على وجه الأرض شمالا وجنوبا وشرقا وغربا . . ومن هنا فأنه لا يوجد اتجاه واحد من اتجاهات الأرض لا يؤدي الى القبلة . . بل كل الاتجاهات الأصلية والفرعية وغيرها مما يعرفه الانسان وما قد يكتشفه في المستقبل . . كل اتجاه من هذه الاتجاهات يؤدي في بقعة معينة منَ بقاع الأرض الى القبلة . . اذن فحينما تولوا وجوهكم ﴿ **وأينما تولوا وجوهكم . . فثم وجه الله** ﴾ . . اذا أردت أن تأخذها بهذا المعنى . . ستجد أنه في وقت الصلاة يتجه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها . . اتجاهات مختلفة تماما تغطي كل اتجاه يعرفه البشر . . وهم جميعا . . رغم اختلاف الاتجاه الذي يأخذونه بالنسبة لشرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها . . هم جميعا رغم اختلاف اتجاههم بحيث يغطي كل اتجاه في الأرض . . يتجهون الى القبلة . . اذن فلا تعارض بين التوجه الى بيت الله الحرام وبين اختلاف الاتجاهات . . ولا تعارض بين الاتجاه الى القبلة وبين الآية الكريمة ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ . . ذلك أن الله موجود في كل مكان وأنت تصلي بين يدي الله أينما صليت . . سواء في مكة المكرمة . . أو في أبعد بقاع الدنيا عن البيت الحرام . . أينما كنت على ارتفاع ألوف الأقدام فبيت الله يرتفع الى ما لا نهاية . . وحينما كنت . . فبيت الله يخترق الأرض بلا نهاية . . ولو كنت في النصف الثاني من الكرة الأرضية . . وبينك وبين بيت الله الكرة الأرضية كلها بما عليها وما في جوفها . فصلاتك صحيحة ما دمت تتجه الى بيت الله . . وأنت تصلي بين يدي الله سبحانه وتعالى . . ولكنني أنا أولي وجهي الى الشرق وأنت الى الغرب وغيرك الى

الشمال . . وغيرك يتجه جنوبا . . ولكننا جميعا نتجه الى القبلة . . وأينما ولينا وجوهنا على اختلاف الزوايا والاتجاهات التي نتخذها على الأرض حسب موقعنا . . فثم وجه الله . . علما بأن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان حتى داخل النفس البشرية . . وهو موجود يعلم ما تخفي الصدور . . ويعلم ما تسرون وما تعلنون . . وأنت اذا حصلت على جهاز يحدد لك مكان القبلة في جميع دول العالم . . تجد أن سطح الكرة الأرضية المرسوم على قاعدة الجهاز . . عليه أرقام . . لكل دولة . . وتجد أن الاتجاه الى القبلة . . يشمل محيط الكرة الأرضية كلها . . كل مكان فيها . . كل نقطة عليها . .

علما أننا اذا استطردنا في هذا الموضوع نصل الى نقطة هامة كما يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . وهي أشياء في العبادات وضعها الله سبحانه وتعالى . . وشرعها لمن يريدون عبادته . . وهذه الفروض لا جدال فيها . . لماذا . . أولا : لأن الجدل كما قلنا مرارا لا يمكن أن يتم الا بين عقلين متساويين في القدرة . . وأنت لا تستطيع أن تأتي برجل من الغابة لم ير سيارة في حياته وتقيم مناظرة بينه وبين عالم ذرة . . العقل لا يقر هذا . . لأن الفارق الهائل بين النضج العقلي للانسان الذرة والنضج العقلي للانسان الذي لم ير سيارة في حياته يجعل النقاش بينهما مستحيلا . . اذا سلمنا بذلك فكيف اذا بالفارق بين قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة العقل البشري . . وبين علم الله سبحانه وتعالى وعلم البشر . . الفارق هنا رهيب . . اذن انت لست أهلا بقدراتك العقلية البشرية لتقول : لماذا فرضت الصلاة خمس مرات في اليوم . . سأصلي أربعا فقط . .

وعدل الله هنا يتجلى . . فهو يترك لك أن تختار الايمان أو عدم الايمان . . وهو يترك لك ان تختار الطاعة أو المعصية . . والايمان كما هو واضح ليس مشاهدة . . فأنا لا أومن انك جالس معي . . لأنني أشاهدك أمامي . . هذا ليس ايمانا . . ولكن الايمان . . هو ايمان بالغيب . . بما لا تراه ولكن وصلت اليه عن عقيدة ويقين وبعد فكر عميق واع وناضج . . وصلت الى الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق والباريء والمحيي والمميت . . وانه لا اله الا هو المعبود الحق . . وان رسالته الى الناس التي أرسلها على رسوله محمد عليه السلام تحمل الحياة

السعيدة للبشر . . آمنت بأن الله هو الذي يعبد وحده . . ويطاع وحده . . وهو الله لا شريك له . .

اذا وصلت الى هذا الايمان فأنك تتقبل كل شيء يصدر عن الله سبحانه وتعالى لا على أساس أنه يصدر عن انسان مثلك بل على أساس أنه يصدر عن الله . . الذي ليس كمثله شيء . . وتؤمن أن أسس الحياة التي وضعها ما تعرف حكمته وما تجعل هذه الحكمة هو خير لك . . لأن الله وعد الذين آمنوا بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة . . وقال سبحانه وتعالى ﴿ **نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . . ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم . . ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم** ﴾ ، وقال سبحانه وتعالى ﴿ **ان الله يدافع عن الذين آمنوا** . . ﴾ فاذا آمنت فأنت تقبل على كل ما فرضه الله من أحكام وشرائع ومناسك للعبادة بقلب راض ونفس مطمئنة . . وتعلم أن الله يدافع عنك أينما كنت ويصد عنك الاذى مهما كانت قدرة ذلك الذي يحاول ايذاءك .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يفرض كل هذا الا على المؤمن . . أما اذا لم تؤمن . . فليس بعد الكفر ذنب . . افعل ما شئت . . كما تدين تدان . .

ولذلك تجد الله سبحانه وتعالى دائما يوجه كلامه في القرآن الكريم عن الطاعات مسبوقا بجملة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ . . ويكررها في كل الأحكام . . ولا يقول يا أيها الناس . . في تكليف من تكليفاته عن الصلاة أو الزكاة أو الحج . . أو النهي عن المنكر أو الأمر بالمعروف . . فتجد في سورة البقرة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ ثم يمضي الله سبحانه وتعالى ﴿ **انما حرم عليكم الميتة والدم** ﴾ الى آخر الآية الكريمة حرم على من . . على الذين آمنوا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام** ﴾ ثم يقول سبحانه وتعالى بعد ذكر أحكام شريعته في الزواج والطلاق ﴿ **ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا انفقوا ما رزقناكم سرا وعلانية** ﴾ . .

اذن الخطاب هنا لمن . للمؤمن . . والالتزام هنا على المؤمن . . ومن هو المؤمن . . الذي آمن بالله سبحانه وتعالى إلهاً واحداً لا شريك له . . وآمن أنه قدرة

فوق كل العقول . . وقدرة فوق كل القوى . . وانه فعال لما يريد . . وانه هو الله . .

هذا الانسان الذي آمن بالله . . لا يمكن أن يأتي ليجادل أبدا في التشريعات التي شرعها الله . . بل هو يأخذها كقضية ايمانية كبرى . . لماذا ؟ . .

لأنه آمن ان ربه هو الله سبحانه وتعالى . . وما دام قد آمن بذلك فقد أقبل يريد أن يعبد الله الذي خلقه . . اذا كنت تريد أن تعبد الله . . هل تعبده بالطريقة التي يحددها الله لعبادته . . أم تقول يا رب أنت الهي . . ولكنني لن اتبع النهج الذي وضعته لعبادتك . . بل سأعبدك على طريقتي الخاصة . . لا كما تريد أنت المعبود الحق . . ولكن كما أريد أنا . . العابد المحدود . . هل هذا هو منطق العقل . .

أن الله قد وضع لعبادته شرعاً ومنهاجاً . . وضعهما بقدراته هو وبعلمه هو . . الذي يفوق كل قدرة وكل علم . . والذي ليس كمثله شيء . . وخلق الانسان . . وقال له : ﴿ **من شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر** ﴾ . . ولكن متى آمنت بي أردت الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة . . فهذا هو طريقي . . فاذا لم تؤمن . . فليس بعد الكفر ذنب . . أفعل ما شئت . . ولكن أعلم أنك عائد الي لأحاسبك عن كل هذا الذي فعلته . .

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع في طريقه حكما ظاهرة وحكما خفية . . ونعما ظاهرة . . ونعما خفية . . وعلما ظاهرا وعلما خفيا . . ليكون هناك اختبار للأيمان . . وكان الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل كل نعمة خفية . . وكل علمه خافيا . . وكل حكمه خفية . . اختبارا للايمان ولكنه عرف أن النفس البشرية ضعيفة . . تغلبها الدنيا . . ويسيطر عليها الشيطان فجعل النعم ظاهرة وباطنة . . الظاهر منها مثبت للايمان والباطن منها زيادة في الايمان . . ولكنه في هذا كله لم يخاطب في طاعته واحكامه الا الذين آمنوا فقط . . وذلك ظاهر في كل آية من القرآن الكريم .

اذن الله سبحانه وتعالى جعل الايمان عهداً بينه وبين عبده . . هذا العهد أساسه اتباع منهج الله . . والعمل لوجه الله وحده . . أما ما يشرك به فان الله أغنى الشركاء عن الشرك وجعل أجر العمل الخفي أكثر من العمل الظاهر . . لأن العمل الظاهر قد يقصد به الناس في بعضه . . ولكن العمل الخفي الذي لا يعرفه أحد هو لله وحده . .

ولكنك لا تجد من يجادلك في احكام الله . . أما الذين لم يؤمنوا . يأتي

الانسان ويقول لك . . لماذا هذه الصلاة . . أنني أصلي بقلبي . . ثم بدأ يجادلك في الصلاة . . ولكنك يا أخي لا تصلي ولا تركع لله ركعة واحدة طوال اليوم . . ومع ذلك أنت أشد الناس حماسا لأن تجادلني عن الصلاة . . وكذلك في كل احكام الدين . . وذلك الذي يجادلك ويشتد الجدل ويأتي بحجج واهية ويقلب الحقائق . . هو غير المؤمن . . وهنا نتعجب . . ان الله قال في كل تكليفاته . . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ . . وانت غير مؤمن . وتفعل كل ما نهى عنه الله . . ولكنك في منتهى الحماس لتجادل فيما فرضه الله . . أن لذلك حكمة . . شيء داخل النفس البشرية . . تحس به . . ويجعلها في ضيق شديد . . وصاحبها في حالة عصبية مستمرة . .

كلانا . . لا يلتقي

ان الذين يعبدون أشياء مادية تجدهم يضعون تمثالا لهذه الأشياء في معابدهم . . فمثلا في معابد البوذيين تجد تماثيل بوذا موجودة . . وذلك لأن الشيء المادي محدود بمكانه . . أما بالنسبة للكعبة فهي أمر يختلف تماما . . ذلك أنها تمثل اتجاه القبلة للمسلمين . . ولكن الصلاة في أي مكان صحيحة لأن الصلاة لله . .

ان الانسان المسلم يسجد لله . . ولا يسجد للصخور ولا للاحجار . . فنحن نجد في عبادات مادية . . أو عبادات لأوثان أن الانسان يجب أن يسجد أمام الحجر . . بمعنى أنه اذا ابتعد عنه قليلا لا تصلح صلاته . . ولذلك كان الكفار يقيمون في كل بيت من بيوتهم . رمزا من الحجر على صورة الاله الذي يعبدونه .

بل أن عددا من عباد الأوثان لا بد أن يكون الحجر موجودا أمامهم وقت الصلاة أو في أماكن العبادة . . فالذين يصلون لتمثال بوذا مثلا يجب أن يكون أمامهم هذا التمثال عند الصلاة . . فاذا صلوا في بيوتهم كان هناك تمثال صغير لبوذا أمامهم . . واذا صلوا في معبدهم كان لا بد أن يكون في المعبد تمثال لبوذا ليركعوا له . . ويصلوا له . . اذن عبادة الماديات ليس فيها انتقال ولا غيب . . بل يجب أن يكون فيها حضور . وأساس الحضور فيها هو أن يكون الحجر أو التمثال الذي يصلي له موجودا في مكان الصلاة . . والا بطلت الصلاة . . فاذا كانت هذه هي حال من

يسجدون للأشجار ويعبدونها . . وكان قول المستشرقين صدقا في أننا نسجد لاحجار الكعبة . . لما كانت صلاتنا صحيحة . . الا اذا كان في كل مسجد . . وفي كل بيت حجر من أحجار الكعبة نسجد له . . فهذا هو منطق عبادة الأحجار . . ولكن هذا منهي عنه . . لماذا ؟ لأننا لا نسجد لاحجار الكعبة . . ولكننا نسجد لله سبحانه وتعالى في بيته الذي علامته هي الكعبة . . بمعنى أننا نسجد لله متخذين قبلة سجودنا بيته الحرام . والكعبة هنا لتدلنا على مكان البيت أو مكان القبلة . . ولكننا لا نعبدها . . وبيت الله الذي تدلنا على مكانه الكعبة يمتد الى أعلى عليين . . والى ما لا نهاية في كل اتجاه . . ومن هنا فانك لو كنت تسكن في منطقة ترتفع ألوف الامتار عن سطح البحر اتجهت الى القبلة . . الى بيت الله الحرام . . وصليت . . وكانت صلاتك صحيحة . . مع أنك ترتفع فوق بناء الكعبة بألوف الأمتار . . ذلك ان بناء الكعبة لا يرتفع الا عدة أمتار . . بينما أنت فوق اعلى جبال الدنيا ترتفع عن البناء ألوف الأمتار . . ومع ذلك فصلاتك صحيحة . . لأنك تتجه الى المكان الصحيح . . وهو القبلة التي حددها الله سبحانه وتعالى ليتجه اليها المصلون لها . . واذا كنت في باطن الأرض في منجم مثلا . . فكل ما هو مطلوب منك أن تقف مكانك وتتجه الى القبلة وتصلي . . وصلاتك صحيحة لأنك متجه الى القبلة . . ولو أن بينك وبين أحجار الكعبة مئات الأمتار . . من حيث أنك في باطن الأرض . . واذا كنت في الناحية الأخرى من الكرة الأرضية وبينك وبين بناء الكعبة الكرة الأرضية كلها بما عليها وما فيها . . وما فوقها وما تحت الثرى . . واتجهت الى القبلة . . الى بيت الله الحرام . . فصلاتك صحيحة . . في كل هذه الحالات لا تكون الصلاة صحيحة واذا كان ما يدعيه المشركون من اننا نسجد لاحجار الكعبة . . بل ان هذه الصلاة التي تتم بعيدا مئات الألوف من الأميال أحيانا عن بناء الكعبة تؤكد لنا ان الكعبة المشرفة تحدد لنا اتجاه القبلة وهي بيت الله الحرام . . أما بيت الله الحرام فيمتد الى أعلى عليين . . والى ما لا نهاية . . ونحن اينما كنا ما دمنا قد اتخذنا اتجاه الكعبة . . فقد اتخذنا اتجاه القبلة الذي حدده الله سبحانه وتعالى وهو بيته الحرام . . وتكون صلاتنا صحيحة . . لأننا نصلي لله . . ونسجد لله . . ونعبد الله سبحانه وتعالى .

على انني كما قلت اننا حين نريد ان نعبد الله سبحانه وتعالى . . فاننا نعبده

بالطريقة التي حددها لنا الله . . فلا تأتي لتقول يا ربي انا مؤمن بك ايمانا حقا . . يا ربي انا مؤمن بأنك الخالق والباريء والمصور . . وأريد أن أعبدك حق عبادتك . . ولكنني لا أوافق على الطريقة التي حددتها لي لكي أعبدك . ولذلك فانني سأعبدك بطريقتي الخاصة . . وهناك كثير من الناس يردد هذا الهراء في أنه يصلي بقلبه . . وانه ماذا يستفيد الله من أن يجوع الانسان ويعطش بالصيام . . الى آخر هذا الكلام الذي تسمعه من أناس قد اضلهم الشيطان ولعب بعقولهم . . فأخرجهم عن الايمان . .

ولكي نناقش هذا الموضوع . . أقول ان الايمان معناه انك وصلت الى اليقين بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق والباريء . . وآمنت بالغيب وبالحساب . . وبالجنة . . وبالنار . . وبالشرائع التي وضعها الله لخلقه . . ومن هنا فان الايمان ليس قضية مشاهدة . . بمعنى انني لا أقول انني مؤمن . . انك تجلس معي . . فتلك ليست قضية ايمانية . . لأنها قضية مشاهدة ليست محتاجة الى ايمان . . ولكنني أقول انني آمنت بيوم الحساب . . أو بيوم القيامة . . أي انني آمنت بما هو غيب عني . . هذا هو الايمان . . الايمان بالله يشمل الايمان بالغيب . . والايمان بالغيب لا تستطيع أن تجادل فيه وليس فيه حل وسط . . أما أن تؤمن . . أو لا تؤمن . . ذلك أنه هنا لا توجد قضية مشاهدة . . بحيث أستطيع ان أجادل . . ولكنه شيء غيب عني . . أي أنه أخفي عني . . فكيف أستطيع أن اجادل في شيء قد أخفي عني . . أما أن اؤمن به . . أو لا اؤمن به . . فان آمنت فقد التزمت بتصديق كل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى . . فلا جدال هنا . . لأنه لا أنا كمؤمن . . ولا أي انسان لا يؤمن نستطيع ان ندخل في نقاش يقيني دنيوي عن الغيب . . ذلك أنه هو لم ير . . وأنا لم أر . . أنا آمنت بما جاء . . لأنني آمنت بالله سبحانه وتعالى . . وأنت لم تؤمن لأنك لم تؤمن بالله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فكلانا لا يلتقي .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلا أن الله سبحانه وتعالى قد وضع لعبادته شرعا ومنهاجا ووضع بقدرته هو . . بعلمه هو الذي يفوق كل قدرة . . ويفوق كل علم . . والله ليس كمثله شيء . . والله سبحانه وتعالى وضع منهجه وهو القرآن . . وضع فيه أساس الحياة الطيبة السليمة . . ووضع فيه التشريع الذي يريده

لعباده المؤمنين . . وقال سبحانه وتعالى . . ﴿ . . **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ . . ثم بعد ذلك نادى المؤمنين آمرا لهم ان افعلوا كذا وكذا وكذا . .

بمعنى انه لم يلزم بشريعته الا من آمن به . . فليس بعد الكفر ذنب . . أي ان الله سبحانه وتعالى جعل الايمان عهده بينه وبين عبده . . هذا العهد أساسه اتباع منهج الله . . والعمل لوجه الله . . وابتغاء مرضاة الله وحده . . أما من يشرك بالله سبحانه وتعالى . . فالله أغنى الشركاء عن الشرك . . وأما من يعصى فالله غني عن العالمين .

ولكنك لا تجد الذي يجادلك في أحكام الله . . وفي منهج الله الا الذين لا يؤمنون . . غير المؤمن هو الذي يثير الجدل دائما عن الايمان وعن الطاعة وعن الحكم في هذا وفي ذاك . . ويحاول أن يشكك ويقول ما هو الهدف . . ولماذا . . ويحاول أن يخرجك من ايمانك . . مع أنه هو شخصيا غير مؤمن . . والله سبحانه وتعالى لم يكلف غير المؤمن بأي شيء لأنه ليس بعد الكفر ذنب . . ولم يقل له الا أنه قد وعده بالخزي في الدنيا وفي الآخرة . .

اذن لماذا يأتي غير المؤمن ويجادل في الله . . ويحاول أن يشكك . . ما دام هو قد خرج عن منطقة التكليف بعدم الايمان . . وباعلان الكفر . . ذلك أن هناك شيئا في داخله يؤرقه . . يعذبه . . روحه تحس بما ينتظر . من عذاب الآخرة . . وهو يخشى يوم لقاء الله . . ولذلك فهو يحاول دائما أن يجادل . . ويحاول دائما أن ينفي أن هناك عذابا . . وأن هناك حسابا . . لماذا ؟ . . لأن هذا هو أقصى ما فيه أن يكون الكلام عن العذاب والآخرة . . والبعث غير صحيح . . ومن هنا فانه يحاول أن يثبت لنفسه كذبا أن هذا كله غير صحيح . . لكن روحه التي تعرف أن الله سبحانه وتعالى موجود . . فالله موجود فينا بالفطرة . . تحس بما ينتظرها . . وفي وقت من الأوقات تجد أكثر الناس كفرا يأتي عليه قضاء فيتجه الى السماء ويصيح يا رب . . وتجد ذلك الذي نسى الله في كل حياته ويتصرف بما لا يرضي الله . . يأتيه قضاء الله فيذله . . وتجد ذلك الجبار الذي يعتقد أن الدنيا كلها قد دانت له . . تأتي عليه لحظات . . فاذا هو أضعف الضعفاء . . وقد انفض كل من حوله يبحث عن مصير فلا يجد . . ويصيح يا رب . .

ومن هنا فاننا لا يجب ان نأخذ حديث هؤلاء المتشككين الا أنه محاولة لأسكات ضمائرهم والهرب من الفزع الذي يحسون به في داخلهم . . ذلك أنهم رغم عدم ايمانهم يتصدون أعضاء الايمان بلا منطق . . وبلا داع . . ولقد قال الله سبحانه وتعالى عنهم في القرآن الكريم .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ . .

ومن هنا فقد انبأنا الله بأنهم سيأتون ويجادلون فيما ليس لهم به علم . . ويجادلون في خلق السماوات والأرض ويتدخلون في الغيب . .

على ان الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا في هذه الحالة مقاييس ظاهرة . . ومقاييس باطنة . . وطلب منا أن نأخذ بالأسباب . . وفي نفس الوقت انبأنا بأنه قائم على كونه . . وأنه اذا عجزت الأسباب فان الله سبحانه وتعالى قادر على أن يتم ما يريده دون الالتجاء الى الأسباب . . ولقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن بيته الحرام **﴿ فيه آيات بينات ﴾** . . ومعنى ان فيه آيات بينات . . أننا عندما نذهب لنحج لا بد أن نتذكر اشياء هامة موجودة في هذا المكان لها معان كبيرة . . ومن هذه الأشياء مثلا بئر زمزم ، ومن هذه الأشياء مثلا الحجر الموجود عليه آثار أقدام ابراهيم عليه السلام . . ومن هذه الأشياء مثلا وحدة الهدف بالنسبة للمسلمين جميعا . . ومن هذه الأشياء مثلا أن الله سبحانه وتعالى يختبر طاعة عباده له . . في قوله افعل ولا تفعل . . ومن هذه الأشياء مثلا ان الله سبحانه وتعالى يختبر محبة عباده له . . كل هذه آيات انت عليها شهيد حينما تذهب الى هناك تجدها أمامك . . فيها حكم ظاهرة . . وحكم خفية . . وتتحدث عن هذه الأشياء واحدا واحدا . .

أولا : بئر زمزم التي يشرب منها الملايين منذ الف واربعمائة سنة . . نضبت آبار كثيرة في السعودية ، وفي العالم أجمع . . وما زال الماء يتدفق من بئر زمزم . . وسيظل يتدفق الى يوم القيامة . . أو كمن يقولون شيئان تجد الملايين كلها منهما حاجتها . . على مدار ألف وثلثمائة سنة . . بئر زمزم . . وتمر المدينة .

بئر زمزم نعرف قصتها : لقد ترك ابراهيم هاجر وابنها اسماعيل وهو رضيع في هذا المكان الذي لا يوجد فيه زرع ولا ماء . . ومضت هاجر تبحث لأبنها الرضيع عن الماء فلم تجده . . سارت سبعة أشواط بين الصفا والمروة، وهي بقدر جهدها وبقدر

استطاعتها تبحث عن الماء فلم تجد لا طيرا ولا وحشا ولا مكانا للماء . . اذن هي أخذت بالأسباب . . ولكن الأسباب لم تحقق لها شيئا وفجأة يضرب أبنها الرضيع الأرض بقدميه فيتفجر الماء . . لماذا لم يجعل الله سبحانه وتعالى هاجر تعثر على الماء وهي تهرول بين الصفا والمروة . . لماذا لا يجعلها ترى بئرا بعيدة أو مكانا به ماء ، وانما جعل الماء يتفجر بين قدمي الرضيع . . لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه لا يضيع المؤمن أبدا . . فاذا انعدمت الأسباب . . أوجد له من الأسباب ما يفرج كربة . . ويزيل عنه الهم . . وحل له مشكلاته مهما تكن مستعصية . . ومن هنا فاننا لا يجوز ان نيأس حينما نرى أن الأسباب قد تخلت عنا ، وأن الدنيا قد ضاقت بنا ، وانه لا مخرج امامنا ، وان نحس ان الله سبحانه وتعالى لن يضيعنا ما دمنا مؤمنين به . . ولن يتخلى عنا ما دمنا نخلص له الطاعة . . وأنه سيخلق لنا بعد الضيق فرجا ما دمنا قد أخذنا بالأسباب أولا . . وحاولنا أن نتغلب على ما نحن فيه بقدراتنا المحدودة . . ومن هنا فحينما نسعى بين الصفا والمروة نتذكر قدرة عظيمة من قدرات الله سبحانه تعالى وهو انه لا يضيع المؤمن ابدا . . وانه قائم على كونه الى يوم القيامة . .

الإِسْرَاءُ وَالمِعْرَاجُ

أحداث في تاريخ الإسلام

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله كما علمنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء سيدنا محمد » . . وبعد :

فإن حدث الإسراء والمعراج يعتبر حدثاً ضخماً من أحداث الدعوة الإسلامية ، سبقته البعثة ، وجاءت بعده الهجرة . الأحداث الثلاثة التي تعرضت لها الدعوة الإسلامية . حدث بعثة النبي ﷺ ، ثم حادث الإسراء ثم حادث الهجرة ، ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ بعث على فترة من الرسل ، وبعث بدين خاتم ، وبدين جامع يشمل الزمان كله والمكان كله ، لأن الرسالات التي سبقته كانت محدودة الزمان ، ومحدودة المكان ، ولكن الرسالة الإسلامية جاءت عالمية للناس كافة في كل زمان وفي كل مكان ، واختار الله سبحانه وتعالى لانطلاق هذا الدين أول بيت وضع للناس ليكون هو المكان الذي تنبعث منه الدعوة الجديدة ، كما نعرف أن مكة قد أخذت على كل القرى في الجزيرة العربية مكان الصدارة ، ومكان السيادة ، وبالتالي أخذ سكانها من قريش مكان السيادة والعزة والجاه ، هي التي تجعل لقريش المهابة في الجزيرة كلها ، لذلك أمنت رحلاتهم في الشتاء وفي الصيف أن تتعرض لأي غارة من أي قبيلة من القبائل ، لأن أي قبيلة من القبائل كانت عرضة أن تفد على مكة المكرمة في موسم الحج ، فهي إذن لا بد أن تسالم القبيلة التي تسكن هذا البلد ، وأن ترعى تجارتها ، وألا تتعرض لها بسوء .

السيادة التي أخذتها قريش جعلت كلمتها نافذة ، وسلطانها قاهراً على الجزيرة كلها ، وشاء الله أن تكون الدعوة الإسلامية بداية منطلقها في مكة المكرمة حتى تكون

الدعوة في إذن هؤلاء السادة الذين لهم الجاه ولهم العظمة ولهم السيطرة ، ولا يستطيع أحد أن يقف أمام جاههم ونفوذهم وسيطرتهم ، فحين تجيء الدعوة في هذه الآذان ، وحين تواجه الدعوة بهؤلاء القوم الذين لهم هذه المهابة المطلقة ، يكون الإسلام قد اختار قمة الميادين لهذه الدعوة .

والرسول ﷺ حينما بعث مر بمراحل : المرحلة الأولى : أن يقتنع هو بأنه رسول ، المرحلة الثانية : أن يقنع من حوله من عشيرته الأقربين ، المرحلة الثالثة : أن ينذر المحيط كله ، وقد هيأ الله له النجاح في هذه المراحل ، إلا أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الأسباب ، وخالق المسببات ، فهو يجعل للأشياء أسباباً في عرف البشر تكون مقدمات لما يريدون من النتائج . وهذه الأسباب كان الله في غنى عنها ، وكان من الممكن أن ينصر دينه بدون أن يجعل من أسباب البشر ولا من ماديات الحياة مقدمات ، ولكن الرسول ﷺ جاء أسوة لأمة مؤمنة ، والأمة المؤمنة كلها مطالبة بامتداد رسالته ﷺ فحتى يكون لكل مؤمن انقطع عنه وحي السماء ـ بصر «واجتهاد» في أن يعد أسباب الأرض وأسباب المادة ليصل إلى منطلقه فيما يريده الله من تبليغ الدعوة والثبات عليها .

فالحق سبحانه وتعالى حينما أمر محمداً أن يجهر بدعوته ، عاداه القوم ، عداء بلا هوادة ، ولكن هذا العداء لم يمنع أن يتسرب هدى الإيمان إلى نفوس كثير من الناس من عشيرته ﷺ الأقربين : ومن قومه الذين يعلمون صدقه فيما سبق ، فأخذوا صدقه فيما سبق ، دليلاً على صدقه فيما جاء به : وأنه لم يكذب عليهم حتى في أمور بينهم ، فكيف يكذب على الله .

وكان ﷺ في حاجة مادية إلى أن يحمي حمايتين ، حماية من الكفار في الخارج ، وحماية له في ساعة راحته وسكونه وهدوئه في البيت ، فكانت السيدة خديجة رضوان الله عليها في البيت ، هي السكن الذي يلجأ إليه رسول الله في البيت ، فتمسح بيدي الحنان ، وبيدي العطف ، وبيدي الرعاية ، وبيدي العناية على متاعبه من حركة الحياة التي يحياها ، وكان أبو طالب عمه يحميه في الخارج من أذى الكفار ، وأذى المشركين ، وكان كفر أبي طالب سبباً من الأسباب التي جعلت الكفار يجاملونه بعض المجاملة ، وقرابته من رسول الله ﷺ جعلته يحميه ، فكأن الحق

سبحانه وتعالى هيأ لحمايته ﷺ ولنصرته ولمؤازرته مصدراً إيمانياً : في البيت كان من خديجة ، ومصدراً كفرياً في الخارج كان من أبي طالب ، فحين يكون هذان المصدران بجوار رسول الله ﷺ تكون حياته في الخارج مكفولة الحماية بسبب عمه ، وفي الداخل مكفولة الأمن والاطمئنان والاستقرار والهدوء بواسطة زوجته .

ولكن قدر الله شاء أن تموت زوجه خديجة في العام الذي يموت فيه عمه أبو طالب ، وهنا يفقد رسول الله ﷺ السكن الذي كان يأوى إلى حنانه وعطفه كما فقد الحماية الخارجية ، ومع أن رسول الله ﷺ كان يعلم تماماً أن الله لا يسلمه إلا أنه مع ذلك أخذ يعمل فكره ويعمل بصيرته ، ويخطط لينطلق بالدعوة بالأسباب البشرية التي يقدر عليها ، فما كان منه في هذا الجو الخانق في مكة إلا أن يلتمس منطلقاً للدعوة لعله يجد نصيراً خارجياً ، فقام برحلته إلى الطائف ، ومعتقداً أنه سيجد النصير ، ولكنه وجد خلاف ما اعتقد ، وحدث أنهم آذوه بالقول ، وآذوه بالفعل واضطهدوه . وسلطوا عليه سفهاءهم حتى أدموا عقبيه ، فوقف موقفه الضارع إلى الله سبحانه وتعالى ، بعد أن فقد أسباب البشر .

الأسباب والتوكل

هنا نقف وقفة ، فإن الإنسان الذي يمده الله بالأسباب عليه أن يستعمل هذه الأسباب ، وأن يجتهد وسعه في أن يستخدمها في الوصول إلى أغراضه ، وحين يلجأ إلى الله ومعه الأسباب ، يرد الله رجاءه لأنه لا تزال معه الأسباب ولكن إذا ما أصبح مضطراً ، وقد أعيته الأسباب ، فله أن يلجأ الى الله لينصره ، لأن السبب قد امتنع ، والمقدمات لم تعد في استطاعة البشر ، فوقف موقفه الضارع من الله ، وقال دعاءه الذي قال فيه : « . . اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العقبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . . » .

دعاء فيه كل مقومات الإيمان واليقين ، لأن الله الذي أرسله لن يخذله ، ودعاء أيضاً يشمل أن رسول الله قد استنفد الأسباب ، وأنه لم يجد إلا عدواً ، وإلا بعيداً ، فلا بد إذن أن تتدخل السماء . سمع الله ضراعة رسوله . وأراد أن يبين له جفاء الأرض لا يعني أن السماء تخلت عنك ،ولكني سأعوضك عن جفاء الأرض بحفاوة والسماء، وعن جفاء عالم الناس بعالم الملأ الأعلى، وأريك من آياتي ، ومن قدرتي ، ومن أسراري في كوني ما يعطيك طاقة وشحنة ، أن الله الذي أراك هذه الآيات قادر على أن ينصرك ، ولن يتخلى عنك ،ولكن الله تركك للأسباب أولاً لتجتهد فيها حتى تكون أسوة لأمتك في ألا تدع الأسباب وترفع أيديها إلى السماء .

إذن فقد كان حدث الإسراء وحدث المعراج بعده نتيجة لجفوة الأرض لرسول الله ، ونتيجة لفقد النصير ، ونتيجة لفقد الحامي ، فالله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل لرسول الله هذه الرحلة العلوية حتى يثبت له تكريمه ، وحتى يثبت له أن في الله عوضاً عن كل فاقد ، وأن الملكوت سيحتفي به حفاوة يمسح عنه كل عناء هذه المتاعب . وسيعطيه شحنة قوية لتكون أداته في منطلقه الجديد بإذن الله .

حديث القرآن عن الإسراء

حدث الإسراء يتكلم عنه القرآن في استهلال السورة ، فيقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، أنه هو السميع البصير** ﴾ . هذا النص القرآني هو عمدتنا في توثيق هذا الحدث ، وحين يجيء النص القرآني بحدث ، فليس لنا إلا أن نؤمن به لأنه ورد من الله ، وليس لعقولنا أن تبحث البحث الجاري في قوانين الأرض ، وقوانين البشر ، لنحاول أن نفهم قوانين الله ، ولكن ما دام الله هو الذي قال ، فالأمر الذي يجب على المؤمن هو أن يسلم به ، وبعد ذلك على عقله أن يبحث في قياسات هذا التسليم أو في مبررات هذا التسليم ، فيجد المبرر الأول للتسليم أنه آمن أولاً بالله ، فالإنسان أول ما يدخل

على الدين يؤمن إيمان القمة بربه . . بالله ، وبعد ذلك يتلقى عن الله .

إذن فتلقيه عن الله مشروط بأنه آمن بالله الذي يتلقى عنه ، فما عليه بعد ذلك إلا أن يوثق الكلام : أصدر من الله أم لم يصدر ؟ وإذن فعلة إيمان المؤمن بأي حكم أو بأي حدث صادر من الله هو توثيق صدوره من الله ، بعد أن يوثق صدوره من الله ما عليه إلا أن يؤمن به وبأنه حدث ، وبعد ذلك لعقله أن يجول بطاقاته حتى يمكن أن يؤنس عقله بأن ذلك الحدث يكون .

الحدث استهله الله سبحانه وتعالى بكلمة . . « **سبحان** » . . ومعنى سبحان أول ما تقع على الذهن ، تعطي الإنسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبه المقارنة ، التي تأتي بين قانون المادة الأرضي الإنساني البشري ، وبين قانون الله ، فمعنى « **سبحان الله** » أن الله منزه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، فإذا صدر فعل قال الله أنه صدر مني ، فيجب أن أنزهه أنا عن قوانين البشرية ، وألا أخضع فعل الله إلى قانون فعلي ، ولذلك استهل السورة بقوله « سبحان » حتى يكون أول ما يقرع الإنسان لذلك الحدث العجيب الغريب الذي قد تقف فيه العقول ، « سبحان » . . أي تنزيه ، فإذا قال الله . . « سبحان » . . أي تنزيه لفعلي عن أفعالكم ، معنى ذلك أن قانون الله في الفعل ليس كقانوننا في الفعل . ثم بعد ذلك « **الذي أسرى** » به ، فالله هو الذي أسرى ، ومحمد ﷺ هو الذي أسري به ، واختار الله لفظاً يعطي حيثية تلك التجربة ، وهو « بعبده » ، وبعد ذلك بداية الإسراء « **من المسجد الحرام** » ونهايته « **إلى المسجد الأقصى** » ثم قال العلة ، ﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾ ، ثم بعد ذلك قال العلة الدافعة لكل هذا ، لماذا نريه من آياتنا ؟ ﴿ **أنه هو السميع البصير** ﴾ سميع لماذا ؟ وبصير بماذا ؟ كان من الممكن أن يقول ـ على نسق أساليب البشر . بعد أن يريه الآيات ، و . . . و . . . ، أن الله على كل شيء قدير ، أن الله وهاب ، أن الله كذا ، أما أن يأتي بأنه ﴿ **هو السميع البصير** ﴾ ، فهذا ليدلك على العلة الحقيقية التي آستوجبت أن يسري الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ ، فقد سمع الله الإيذاء الذي أوذى به رسوله ﷺ وقد رأى الله ما تعرض له من الجفاء والاستهزاء ومن السخرية ومن الإهانة ، كل ذلك بمرآى ومسمع من الله ، فحين رأى الله ذلك وسمع ، أراد أن يريه الآيات ، فأسرى به .

قانون الفاعل

فإذا جئنا لنأخذ عنصر الفعل في أي فاعل . . أن عنصر الفعل في أي فاعل ملحوظ في ذات الفعل . فإذا قيل مثلاً : خطب فلان فسيأخذ الخطبة بمعيار فاعلية الخطيب الذي نعرفه ، وخطب فلان نأخذ الخطبة بمعيار هذا الخطيب ، وإذا قيل : « حمل فلان أثقالاً » ، نأخذ العملية الفعلية من حمل أثقال بقوة الذي حمل ، فإذا حمل إنسان عادي فيكون له قوة وإذا حمل إنسان بطل وله رقم قياسي فيكون له قوة وإذن فكل من الأفعال يجب أن يقارن بفاعله هو ، فلا تأخذ الفعل من فاعل ، وتعطي قانون غير الفاعل ، كيف ؟ الله يقول ﴿ . . سبحان الذي أسرى ﴾ أي الذي أسرى هو الله . إذن فالفعل واقع من الله ، فلا يصح أن نؤاخذ محمداً بفعل فعله الله به ، ما دام الله قد فعل ، فلماذا نستعجب على محمد أن يقول ؟. محمد لم يقل . . « أنا سريت » . . حتى نرد محمداً إلى قانون ونقول له كما قال الكفار « . . نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وتدعي أنك أتيتها في ليلة . ؟ » من الذي قال : أنه أتاها في ليلة ؟ لم يأتها هو ، وإنما أُتي به ، وأنتم تقولون . . « نضرب إليها أكباد الإبل » . . أنتم تضربون أكباد الإبل ، فإذا كنتم صادقين في المقارنة ، والمفاضلة العقلية ، والتناقض العقلي عندكم ، وتريدون أن تستشكلوا عليه ، كان يجب أن تقارنوا فعلاً منكم بفعل منه ، أما أن تقارنوا فعلاً منكم بشيء لم يفعله هو ولم يدعه ، فهذه استحالة في المناقشة .

إذن كان من الممكن أن يصعدوا المسألة في القياس يصعدوها إلى الله ، ولا يقولوا له : « كيف تدعي أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل في خلال شهر ؟ هذه لا تصح في المقارنة ، لأن محمداً قال « أنا لم أسر ، وإنما أسري بي » . . إذن محمد محمول على نطاق قوة أخرى ، قوته لا حساب لها ، أنا سأقول . . « لقد صعدت بابني الرضيع قمة جبل هيمالايا » . . أيقول مجنون لي كيف يصعد ابنك الرضيع قمة جبل هيمالايا ؟ لا يقول لي أحد هذا ، والذي يقول هذا يكون عقله مختلاً ، إنما يقول لي . . « كيف صعدت أنت » . . والمسألة لم يردوها إلى الله ، وإنما ردوها إلى محمد ، إذن فالفعل من الله ، وحين يوجد الفعل

من الله يجب أن يلغى قانون البشر، قانون البشر غير موجود، لماذا؟ . لأن كل فعل أيضاً كما يختلف باختلاف فاعله ، يختلف بقوة ذلك الفاعل ، فمثلاً الذي يسري من مكان إلى مكان في سيارة عادية غير الذي يسري في طائرة أو في صاروخ ـ ومن يدري قد يكون هناك آلة أسرع من الصاروخ ـ إذن فلا بد أن تنسب الزمن إلى قوة العمل ، ما دامت المسألة من الله ، وهو الذي أسرى ومحمد مصاحب ، ومحمول قانون ضعفه البشري على قانون قوة ربه القائد ، إذا قيست المسافة وزمانها بنسبة القوة التي فعلت ـ وكما يقولون : « . . المسافة تتناسب مع القوة تناسباً عكسياً ، فكلما زادت القوة ، قلت المسافة » . والقوة التي فعلت هي قوة الله تعالى : نجد النتيجة . . لا زمن .

يأتي شخص ويقول لك : ما دام ليس هناك زمن . فلماذا أخذ ليلة ؟ نقول له « . . لأن هناك فرقاً بين حدث الإسراء في ذاته كنقله ، وبين مرائي تعرض لها الرسول ﷺ» فالرسول عليه الصلاة والسلام حينما تعرض لمرائي ، رآها هو ببشريته وبقانونه ، فالمرائي التي تعرض لها هي التي احتاجت للزمن ، أما النقلة في ذاتها فلم تحتج إلى زمن ، لأنها محملة على قانون من لا يتحكم فيه الزمن إذن فالجماعة الذين ناقشوا رسول الله ﷺ ، جماعة أعطوا صورة من عقلهم في أنهم قارنوه مقارنة غير موضوعية . .

سؤال :

ـ لازالت تطرح المقارنة بعد بشكل حديث ومعاصر ، وبعض الناس يقولون نفس هذا الكلام في عصرنا هذا . . كيف يذهب ، وكيف يرجع ، وربما كان الإسراء بالروح ، وربما بالجسد وربما بالجسد والروح معاً ؟ .

ـ هنا نناقشهم ، نأتي فنقول : المسألة ليس حدثاً من محمد ، إذن فاستبعدوا قوانين بشريتكم ، بالنسبة لله ، يقدر أو لا يقدر ؟ قوته تحتاج إلى زمن ، أو لا تحتاج إلى زمن لهذه المسألة ، ولكي تعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى هيأ لدين الإسلام جنوداً حتى من الكافرين ليعاونوه على دعوته . . . كيف ؟ لو لم يقف كفار قريش من رسول الله ﷺ موقفهم هذا ليقولوا له « أتدعي أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً » . . ربما قال قائل بعد ذلك « . . لقد ظنوه مناماً . . » والمنام لا

يمارى فيه ، الحلم لا يمارى فيه ، فإذا رأيت أنني قد ذهبت إلى لندن هذه الليلة ، فلا يناقشني أحد لأن المسألة رؤ يا ، فإذن موقفهم هذا الذي وقفوه قديماً أمام رسول الله ليقولوا له : « أتدعي أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً . . » ليؤكد أنهم فهموا أنها لم تكن لا مناماً ولا روحاً ، وإنما كانت يقظة بروحه وبجسمه ، وإلا لما صدر هذا الاعتراض .

فالكافرون بتعنتهم أمام رسول الله ﷺ خدمونا خدمة كبيرة الآن ، لأننا نقول لو كانت رؤ يا منامية لما ناقش فيها أحد ، لأن أي واحد يقص عليك رؤ يا ، فقانون المرائي فوق قانون المادة اليقظة ، فما دام قد ناقشوا فيها ووقفوا هذه الوقفة ، فهم قد فهموا أنها يقظة وبالجسم وبالروح .

والذي يقول هذا الكلام يحاول أن يسنده بشيء فيبحث حتى يجد نصاً قرآنياً في قوله سبحانه وتعالى : . . ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ . . وعندهم أن كلمة الرؤ يا لا تأتي مصدراً إلا لرأى الحلمية ، رأى المنام ، لأن رأى البصرية يقول فيها « رأيت رؤ ية » . . إنما إذا رأيت مناماً تقول . . « رأيت رؤ يا » . . فنص القرآن . . « وما جعلنا الرؤ يا التي أريناك » . . أنها منامية . ونحن نقول له : إذا كانت رؤ يا منامية فكيف تكون فتنة للناس ؟ ومعنى فتنة الناس أن بعضهم يصدق ، وبعضهم يكذب ، ولو كانت رؤ يا منامية فلا يناقشها أحد « لا تصديقاً ولا تكذيباً » .

ثم تعالى في اللغة ، قبل أن ترجع إلى الكلام ، لا تأخذ بالشائع على ألسنة الناس ، وإنما خذ بالتحقيق اللغوي الموجود في القوانين ، إرجع إلى اللسان الجاهلي قبل أن ينزل القرآن تجد أن كلمة الرؤ يا وردت أيضاً للبصرية ، الراعي النميري إعرابي ساحر ، قال في قصيدته .

فكبر للرؤ يا ، وهش فؤ اده ـ وبشر نفساً كان قبل يلومها

والمتنبي نفسه وإن كان ممن لا يستشهد بشعره ، إلا أنه استئناس فقط ، يقول :

« ورؤ ياك في العينين أحلى من الغمض » .

إذن فقد استعملت « الرؤ يا » بمعنى البصرية ، وبمعنى المنامية ، ولكن عادة يستعملون « الرؤ يا » في البصرية في الأشياء الغريبة العجيبة كأنها من الأشياء التي لا

تحصل إلا مناماً ، كما تقول أنت : أنا رأيت ذلك في الحلم . . فإذا رأيت رؤ ية فهذه من العادات إنما رأيت « رؤ يا » وأنت تريدها بصرية ، فمعنى ذلك أنها أمر « عجيب » مما لا يمكن أن يدرك إلا في الأحلام فهي كأنها رؤ ية ، وإلا لو كانت منامية ، ما كانت فتنة للناس وما اختلف الناس فيها ، وإلا فهل وجدتم قوماً اختلفوا مع واحد من الناس رأى رؤ يا في أنه رأى الرؤ يا وبأي شكل رآها ، وبأي صورة ، وبأي سرعة ، وفي أي منظر ؟ أبداً ، لم يوجد شخص ناقش في هذه المسألة ، إذن ما دام جعلت فتنة فهذا دليل على أنها لم تكن رؤ يا منامية .

ثم نحن نريد أن نناقش الناس الذين يقولون هذا الكلام مناقشة لغوية ، كما يناقشونها لغوياً ، فنقول لهم ، كيف تستعمل كلمة « جعل » في اللغة ؟ أنا أرى في اللغة أن « جعل » هذه لو استعملت في شيء كان معدوماً فوجد ، فتكون بمعنى خلق ، قال تعالى : ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ أي وخلق منها زوجها ، كان معدوماً فوجد ، لكن إذا استعملت « جعل » في شيء موجود تحول إلى شيء ، فيكون عندي أمران إثنان ، مجعول : ومجعول منه ، جعلت الطين إبريقاً ، جعلت الخشب مكتباً : إذن : كان هناك خشب قبل أن يكون هناك مكتب ، ثم حولته وجعلته مكتباً ، إذن : فهناك فرق بين « جعل » التي تتعدى إلى مفعول واحد ، وهذه إيجاد من عدم ، وجعل التي تتعدى إلى مفعولين ، المجعول منه كان موجوداً ، ثم صار إلى شيء آخر ، فمثلاً ربنا يقول لإبراهيم . . ﴿ **إني جاعلك للناس إماماً** ﴾ . . فأنت موجود أما الإمامية فهي شيء آخر . . ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك** ﴾ . . ماذا جعلناها ؟ فتنة وكيف تصير الرؤ ية فتنة ؟ لا بد أن تنقلب هذه الرؤ يا حقيقة ، إذن لا مانع أن يكون رسول الله ﷺ قد رأى الإسراء رؤ يا ، ثم رأه يقظة ، كما حدّث الله في بعض سور القرآن : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام** ﴾ . . رآه في الرؤ يا ، ثم صار حقيقة وواقعاً ، فما الذي يمنع أن يكون رسول الله أنس الله روحه ، فرأى مناماً هذه المشاهد ، وبعد ذلك رآها حقيقة ، كما رأى أنه دخل المسجد الحرام رؤ يا وأصحابه محلقين ومقصرين ، وبعد ذلك رآها حقيقة ، وتكون « وما جعلنا الرؤ يا التي رأيتها أنت في المنام إلا فتنة » . . أي واقعاً يفتن فيه الناس ، بعد أن كانت كذا ، صارت كذا ، إذاً فلا مانع أن يكون الرسول تعرض لحدث الإسراء

مناماً ، وتعرض له روحاً ، وتعرض له يقظة ، والسيدة عائشة تأتينا في ذلك لتقول . . « إنه ما رأى رؤ يا إلا جاءت كفلق الصبح » . . فإذا كان قد رأى رؤ يا ، فهي إذن حقيقة .

بعد ذلك ننتقل إلى نقطة أخرى ، بعد أن تكلمنا عن أن الإمكان العقلي موجود بإسناد الفعل إلى الحق سبحانه وتعالى ، وإبعاد محمد عن مدار النقاش . فيكون محمد « مصاحباً » لا علاقة له بالفعل . بعد ذلك نأتي بالحيثية . . ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده** ﴾ لله ، التي هي باب العطاء من الله ، لأن كل الديانات جاءت لكي تصحح عبوديتنا لله ، وكل رسول من الرسل يريد أن يكون قدوة لنا ، لا بد أن يكون قدوة في العبودية ، العبودية لمن ؟ العبودية كلمة مرة . . كلمة صعبة ، كلمة يمقتها الناس حقاً ، ولكن لماذا نمقت العبودية ؟ العبودية تمقت حينما تكون من خلق لخلق ، أن يكون الخلق عبداً لخلق ، لماذا ؟ لأن عبودية الخلق . . تعطي خير العبد لسيده ، يمتص خيره . ولكن عبودية الخلق للحق ، تعطي خير السيد له . إذن فالعبودية هنا شرف ، فكلما زادات العبودية ، كلما ازدادت من العطاء من الله سبحانه وتعالى . . تخلص في العبودية ، يفاض عليك أكثر ، إذن : فالحق سبحانه وتعالى ، حين قال . . « سبحان الذي أسرى بعبده » . . أعطانا شبه الحيثية ، وكلمة بعبده أيضاً ، حتى يمكن الرد على الذين قالوا : أنه أسرى به بالروح ، لأن كلمة العبد لا تطلق إلا على الروح والجسد ، فلا يقال على الروح عبد ، ولا على الجسد وحده عبد ، وإنما يطلق على النفس حينما يوجد فيها المادة والروح ، ﴿ **من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾ . . ابتدائية هنا . . « في المسجد الحرام » . . وطبعاً المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس ، ونحن نعرف قصته ، وقصة سيدنا إبراهيم ، وسيكون قبلتنا ، وما دام هو أول بيت وضع للناس ، وهو منطلق الدعوة ، ومحل الإقامة لرسول الله ﷺ فإذن : الإسراء منه إلى أين ؟ إلى المسجد الأقصى أيضاً . . مشهد « مقدس » من مشاهد الله في الأرض لأن عيسى وموسى وكل هؤلاء . . حلوا فيه . .

سؤال :

ـ هل كان المسجد الأقصى ـ بالمناسبة ـ مسجداً مع أنه لم يكن قد صلى فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن مسجداً بالمعنى المفهوم ؟

ـ ما معنى كلمة مسجد ، كلمة مسجد اسم مكان . . لمكان السجود ، والسجود جاء في كل الرسالات ، وهناك فرق بين الشيء حينما يستعمل وصفاً اشتقاقيـاً ، وبين أن يستعمل علماً ، هي بقيت علماً عندنا على المكان الخاص به ، إنما المسجد هو كل مكان يسجد فيه لله ، وهم اتخذوه أيضاً مسجداً لله ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال لمريم : ﴿ **يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي ، وأركعي مع الراكعين** ﴾ . . فكأن السجود موجود في الرسالات كلها ، وأيضاً يقص سبحانه وتعالى علينا قصة أهل الكهف فيقول : ﴿ **لنتخذن عليهم مسجداً** . . ﴾ فكأن كلمة المسجد لم تأت ابتداء مع الإسلام ، وإنما شاع استعمالها في هذه الأماكن مع الإسلام ، وإلا فكل مكان يسجد لله فيه يكون مسجداً .

نأتي لآية : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام** ﴾ . . قلنا أن المسجد الحرام هذا هو أول بيت وضع للناس ويجب أن نفهم، فإن بعض الناس قالوا هل الذي بناه هو سيدنا إبراهيم؟ ونقول لهم . . لا . . هو موضوع للناس، إذن ما دام هو موضوعاً للناس ، فيكون واضعه غير الناس ، وما دام وجد ناس ، وآدم من الناس ، فلا بد أن يكون هناك بيت لله ، ولا بد أن يكون هذا موضوعاً قبل سيدنا آدم كما قالوا لنا : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس** ﴾ . . وآدم من الناس ، وبنوه من الناس ، فيكون البيت قد وضع لهم ، وإنما إبراهيم فقط رفع القواعد منه . . رفع القواعد من البيت .

وأولاً يجب أن نعلم أن إسماعيل عليه السلام عاون أباه إبراهيم في رفع قواعد البيـت . . . ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا** . . ﴾ فإسماعيل كان في حال يعين أباه على البناء ، لكن الحق سبحانه وتعالى يحكي لنا فـي سورة أخرى . . ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة** ﴾ . . فساعة الإسكان كانت هاجر وابنها الرضيع ، ولم يكن عنده هو ، إذن ، فالعنديات عند بيتك المحرم معلومة ، قبل أن يرفع إبراهيم القواعد من البيت فيكون البيت ليس من وضع إبراهيم ، ولا من تأسيس إبراهيم ، البيت من قبل إبراهيم وإبراهيم فقط هو الذي رفع القواعد ، لأن الله قد قال

له إذهب عند البيت المحرم ، ومعنى البيت المحرم أنه سيبنيه عندما يكبر إسماعيل ، فإذن كانت العندايات في المسجد الحرام معلومة قبل هذا . ﴿ **من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾ .

يأتي شخص ويقول « .. لماذا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؟» . . نقول : لأن الكعبة كانت انطمرت كبيت من بيوت الله ، لم يعد لها هذا المظهر ، وسميت بيت العرب ، وشحنت بالأصنام هذا شيء ، وبيت المقدس ، له قدسية مع موسى وعيسى ، وأنبياء بني إسرائيل ، ورسول الله ﷺ لم يبعث لقومه فقط أي لم يخص العرب فقط كما يريدون هم أن يقولوا . . لا . . إنما جاء عالمياً ، فاسراؤه من مكة إلى بيت المقدس كأنه أدخل بيت المقدس في مقدسات دينه الجديد ، وهذه العملية توضح بأن دينه مهيمن على كل البقع ، وكل مقدسات البقع ، وكذلك أيضاً اتجهنا إليه أولاً ، فلا يأتي واحد ويقول أنتم لكم دينكم ، ونحن لنا ديننا . . لا ، صحيح ديننا جاء في مكة ، لكنه مهيمن على سائر الكتب ، ورسولنا مهيمن على مقدساتنا ، وهذه المقدسات داخلة أيضاً في مقدساتنا ، أصبح بيت المقدس في مقدساتنا لأنه صار منتهى مسرى النبي ، وبداية معراجه ﷺ .

نأتي هنا ونقول : إن حادثة الإسراء . . حادثة « أرضية » المقدس ، وأناس ذهبوا إلى بيت المقدس ، وأناس رأوا بيت المقدس ، وأناس يعرفون الطريق إلى بيت المقدس ، ظلت المسألة هي الإعجاز في اختصار الزمن ، ولكن من الممكن أن يقام الدليل المادي للناس على صدقه في هذا ، حين قالوا له « . . صف المسجد . . » فوصف المسجد ، طلبهم وصف المسجد من رسول الله شهادة منهم بأنهم يعلمون جيداً أنه لم يذهب إلى هناك في رحلاته ، ولو كانت عندهم شبهة في أنه قد ذهب ، لما سألوه أي سؤال ، فمعنى طلبهم وصف المسجد أنهم متأكدون من عدم ذهابه إليه قبل ذلك . فوصف المسجد ، والذين يسمعونه قوم رأوا المسجد ، فوجدوا الوصف مطابقاً لما قال ، وبعد ذلك لم يتكلم .

ربما كان هناك إنسان « حاذق » وصفه لرسول الله ، ورسول الله نقل وصف المسجد عنه ، ولكني أقول لا . . وذلك لأن الأمر المادي ارتبط بتوقيت زمني يستحيل فيه أن يكون ذلك ، كيف ؟ أن الطريق الذي يعود منه رسول الله إلى مكة ، حدثت فيه

أحداث ، والأحداث يراها رسول الله ﷺ ، ويحدثها للقوم ، رأى جماعة ومعهم جمل وصفه كذا ، ويحدث لهم كذا وكذا وكذا ، وحين يقبلون عليكم اليوم أسألوهم عما حدث ، فهو قد وصف أشياء رآها في طريق العودة ، وبعد ذلك يتربص القوم القوافل التي ستجيء ، فيجدون كما قال رسول الله في الطريق .

إذن من الممكن أن يقام الدليل المادي الذي يقنع العقل على أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بيت المقدس ، فإذن ما دام قد أقام الدليل في المكان فوصفه ، وفي الطريق فتكلم عن أمارات فيه لم توجد إلا في الوقت الذي مر فيه ، فهذا دليل على أنه صادق فيما قال ، وما دام صادقاً فيما قال ، فما هي مسألة الزمن هذه ؟ إذن فالله قد خرق له قانون الزمن ، فإذا اقتنعنا بأن الله خرق له القانون بالاستدلال عليه بالأدلة المادية التي نعرفها ، ثم حدث بعد ذلك قائلاً : أنه خرق لي القانون ، فصعدت إلى السماء فيكون إيماننا بما كان تحت أيدينا من الحجج التي نعرفها ، يجعلها وسيلة إلى أن نصدق ونقول :

« . . الذي خرق له قانون المسافة فيما نعلم قادر على أن يخرق له قانون العلو فيما لا نعلم » . . وحينئذ يكون الإسراء كمقدمة إيناسية للعقل البشري يصدق الرسول في أخباره عن المعراج ، لأن المسألة سننتهي منها . . فالله خرق له قانون الزمن ، وقانون المسافة فيما نعلم ، ما دام الله خرق قانون الزمن ، وقانون المسافة وهو الفاعل وهو الحامية بقوته . فيكون الذي فعل له ذلك فيما نعلم بالاستدلال من الوصف ومن الطريق ، قادر على أن يخرق له قانون السماء وقانون الجو ، وقانون كذا ، وقانون كذا ، فكأن حدث الإسراء كان مقدمة لتؤنس العقل بقبول حديث المعراج .

هنا نقف وقفة ، فالقرآن حينما تعرض لحديث الإسراء تعرض له صراحة وحينما جاء لحدث المعراج ، تعرض له كما يقولون إلتزاماً ، لأنه لم يقل : سبحان الذي عرج به من بيت المقدس إلى مثلاً سدرة المنتهى . لم يقل هذا ، إنما قال لنا أشياء تستلزم أنه صعد ، فمثلاً في سورة النجم : ﴿ **والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . افتمارونه على ما يرى .**

ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

إذن : سدرة المنتهى والوقوف عندها ، يجب أن نعلم أن رسول الله ﷺ صعد ، لكن لماذا لم يأت بها نصاً ؟

قالوا : إن هذا من رحمة الله بخلقه ، الأمر الذي أمكن رسول الله أن يقيم الدليل المادي لسكان الأرض ، أتى به صراحة . . حتى لا نعذر في تبليغه ، أما الأمر الذي قد تقف فيه العقول بعض الشي . فقد تركه لمدى يقينك الإيماني ، أو مدى تسليمك بالمقدمة التي تلي النتيجة الأخرى ، لأنك أنت ما دمت مؤمناً ، فستقول . . « ما دام صنع به كذا فيما أعلم ، فإذن يصنع به كذا فيما لا أعلم » . . لأنه حين يكون قد طرق لي القانون ، يكون قد خرق لي القانون . فما المانع ما دامت صيغة القانون هي . هي ، أيكون قانون السماء صعب على الله ، وقوانين الأرض ليست صعبة على الله ؟ ما دام غير القوانين ، وغير النواميس ؟ وهل المعجزات التي أمد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام إلا خرق لنواميس الكون ، وخرق لقوانينه ، وخرق لحقائقه الثابتة ، وما دامت هي خرقاً ، إذن فلا استبعدها أن تحدث لرسول الله ﷺ .

وإلا . . فمثلاً الفلاسفة حينما قالوا : « . . صحيح أنا أومن بأن هناك رباً خلق هذا الكون ، ولكني أقول : أن الله خلق الكون ، وخلق حقائقه ، وترك الحقائق تعمل عملها ، فالنواميس هي التي تعمل . هذا معناه أن الله باشر سلطانه في ملكه مرة واحدة ، خلق القوانين ، ثم ترك القوانين تتحكم ، وشاء الله أن يخرق القوانين في كثير من الأشياء . وأن يشذ الناموس في كثير من الأشياء ، لنعلم أن فوق القانون . . خالق القانون الذي يستطيع أن يجعل القانون لا يعطي ، فجاءت المعجزات ، كل المعجزات التي حدثت للرسل خرق للنواميس ، وإلا فالناموس في المياه السيولة والاستطراق .

ليست هناك مياه تقف هكذا ، ومياه تقف هكذا . لا يضرب موسى البحر فتغرق هذا وذاك كالطود العظيم ، فهذا خرق للناموس .

النار من طبيعتها أنها تحرق . . يلقى إبراهيم في النار ، وإلقاء إبراهيم في النار ليس المقصود منه نجاة إبراهيم منها ، وإلا لو كان المقصود نجاة إبراهيم ، لما مكن

الله الكفار من القبض عليه ، أو كان أرسل سحابة مثلاً تغيم وتطفىء النار ، ولكن المراد أن إبراهيم يطرح في النار ، وتظل ناراً ، ولكن ناموس الإحراق يتعطل فيها ، وإلا فلو انطفأت بالمطر لقالوا : إن لم يكن هذا المطر قد جاء ، لكنا قد حرقناه . . لا . . امسكوه ، وخذوه وكتفوه ، وأرموه في النار . . والنار تظل ناراً ، ومع ذلك لا تحرق ، هذا هو خرق الناموس ، ما دام الحق هو خارق الناموس فيكون الذي آمن بأن رسول الله ﷺ أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، واستطاع أن يقيم الدليل المادي الأرضي على صدقه واجب عليه الإيمان بالمعراج دون دليل مادي . وإلا ففي المعراج ، من الذي صعد إلى السماء ليعطي أماراتها ؟ هل سيقولون له : « . . صف لنا سدرة المنتهى . . » ؟ فهم لا يعرفون شيئاً عن سدرة المنتهى ، هل سيقولون صف لنا الطريق إليها ؟ إنهم لا يعرفون وصف الطريق إليها ؟ إنهم لا يعرفون وصف الطريق إليها . فالحق سبحانه وتعالى رحمة بنا ، جعل النص على الإسراء الذي يقام عليه الدليل المادي ـ لأنه أرضي ـ بالنص الصريح ، وجعل المعراج ـ لأنه سماوي ـ بالالتزام ، ولذلك قال العلماء : الذي يكذب الإسراء يكون كافراً ، لأنه صادم النص ، والذي يكذب المعراج لا يكون كافراً ، ولكن يكون فاسقاً ، لأن الإسراء بالنص الصريح ، والمعراج بدلالة الإلتزام .

سؤال :

من هذه الموضوعات أن الآيات التي تتناول الإسراء والمعراج في القرآن ، بعضها يتحدث عن ﴿ . . **لنريه من آياتنا** ﴾ . . مثلاً ، ثم في موضع آخر وهو في الحديث عن المعراج ، يقول القرآن : ﴿ **لقد رأى** . . ﴾ فمرة فيه أراءة من الله ، ومرة هو رأى بنفسه ، فهذه مسألة تحتاج منا إلى وقفة ، كذلك المرائي نفسها ، نحن نعرف مثلاً الموقف الذي خير فيه الرسول عليه الصلاة والسلام بين اللبن والخمر ، والمشهد الذي يبين ثواب المجاهدين ، والمشهد الذي يبرز نتيجة أكل أموال اليتامى ، والمشهد الذي يبين عاقبة الربا ، والمرائي التي عبرت عن هذه الأوضاع والأمراض الاجتماعية والخلقية في المجتمع . كل هذه مسائل نحتاج إلى الحديث عنها ، فضلاً عن صلاة الرسول عليه الصلاة والسلام مثلاً إماماً بالأنبياء والمرسلين ، ما معناها ؟ وما دلالتها ؟ ثم موضوع آخر خطير ، وهو مسألة : أن أكثر الأنبياء الذين مر عليهم الرسول

في المعراج هم من أنبياء بني إسرائيل ، ومسألة تردد الرسول عليه الصلاة والسلام بين ربه ، وبين موسى عليه السلام ، وما تصوره البعض (برغم صحة الحديث) من أن هذا قد يوحي بنوع من وصاية سيدنا موسى على أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا خاطر ربما مر ولو سراً في أذهان بعض الناس ، ولم يرددوه بصوت عالٍ .

الإسراء دليل على وقوع المعراج

إن آية الإسراء كانت إيناساً لعملية الإيمان بالمعراج ، فالله الذي خرق القانون لمحمد في المسافة والزمن ، خرق له القانون في المعراج للسموات السبع .

ولما لم يكن أحد صعد إلى سدرة المنتهى أو كان في الطريق إليها قافلة فلا يمكن أبداً أن يقام الدليل من المخلوقين الذين لا يسمعون ذلك إلا بصفة أمر حسي له وهو الإسراء ولذلك كانت آية الإسراء إيناساً للعقول بامكانية الإيمان بما يحدّث به الرسول ﷺ ، لأنه انتقل إلى السماء بقانونه ، لا بالقانون الذي نقله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ذلك الزمن الوجيز باقراركم ، وقد وصف المسجد ووصف ما في الطريق من بيت المقدس إلى مكة ، كل هذا يؤنسنا بأن الرسول عليه الصلاة والسلام حين يحدثنا عن المعراج ، وعن مرائيه في المعراج ، يكون صادقاً فيما حدث به ، ونلاحظ أن القرآن ـ حينما تعرض لآية أرضية وهي الإسراء ، قال : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه** ﴾ . . فكأن الفعل هنا إراءة وما هي الإراءة ؟ . الأراءة هي أن تجعل من لا يرى . . يرى ، وذلك أما بتحويل المرئي إلى قانون الرائي أو بنقل الرائي لأن ينفذ إلى قانون المرئي .

ولنأخذ مثلاً توضيحاً لذلك : هناك الميكروب الذي يكتشف ، الميكروب كان موجوداً قبل أن يكتشف . وليس معنى اكتشافه أنهم أوجدوه ، ولكنه كان موجوداً دون أن يكون للحس طريق إليه ، فلما اخترعت المجاهر أمكن للذي لا يرى وهو الميكروب أن يرى ، فحصلت اراءة للميكروب الذي لم يكن يرى . . يرى بماذا ؟ بعملية تحويل ، وهي اننا أتينا بعدسة تكبر لنا الاشياء ، فما لم يكن يرى أولاً أصبح

يرى الآن ، ومثلاً المريض ببصره يذهب إلى الطبيب ، فالطبيب يعطي له نظارة ، والنظارة تكبر له الأشياء ، فما لم يكن يراه أولاً ، رآه ثانياً ، وقد يجري له عملية جراحية في عينه بحيث لا يحتاج الى هذه النظارة ، فإذا لم يحتاج إلى هذه النظارة ليرى ، يقال رأى هو .

إذن : فالإراءة أما أن تكون بتغير ما فيه إلى قانون الرائي فيرى ، وأما باعطاء شيء في المرئي ليرى بذاته ، فلما جاء في حادث الإسراء ، قال . . « لنريه » لأن محمداً عليه الصلاة والسلام على الأرض. وبشرى بقانون البشرية، وقانون الأبصار فيه خاضع لقانون الضوء ، وقانون الضوء لا يختلف فيه أحد ، فإذا كانت هناك آيات من غيب الله في الأرض ، فلا بد أن يحدث له إراءة ، لأنه بطبيعته لا يرى هذه الأشياء ، فالإراءة إذا كانت هناك في الأرض ، لكن حينما ينتقل الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى ، ويلتقي بالأنبياء الذين ماتوا قبله ، ويلتقي بالملائكة ، فقد تغير شيء في ذاتيته ﷺ ، وكأنه طرح البشرية وأخذ شيئاً من الملائكية التي ترى بنفسها ، فلما صعد إلى السماء قال ماذا ؟ قال : « لقد رأى » . . ولم يقل : أريناه . . ﴿ **لقد رأى من آيات ربه . ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾ . . ولم يقل أريناه . . ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ . . ففي الإسراء قال . . « أرينا » . . وفي آيات السماء . . في المعراج قال . . « رأى » . . ويرى ، فكأن الرسول في بشريته في الأرض كان محتاجاً إلى أن يعدل القانون في ذاته بالنسبة للرائي والمرئي ، وأما في السماء فقد أخذ وضعاً آخر ، هذا الوضع الآخر أصبح بذاته يرى ، لأنه أصبحت هناك ملكية ، فالبشرية طرحت في الأرض ، والملائكية أصبحت هي المسيطرة على رسول الله ، فأصبح يرى . لكن في الأرض كانت إراءة .

ورسول الله ﷺ في هذه المسألة تعرض لثلاث مراحل : **المرحلة الأولى** : كان بشراً ، وجبريل يرى محمداً ﷺ الأشياء ، ثم يقول ما هذا يا جبريل ؟، يسمع صوتاً فيقول ما هذا جبريل ؟ فيقول له هذا كذا وكذا . **المرحلة الثانية** : لكنه لما صعد إلى السماء كان يرى المرائي ، فلا يستفهم من جبريل عنها ، ويسمع فيفهم ، إذن فقد تحول شيء في ذاتية محمد ، وأصبحت له ذاتية فاهمة بلا واسطة جبريل ورائية بلا

واسطة أحد ، ففي الأرض إراءة ، وأما في السماء فقد رأى بالرؤية . ثم بعد ذلك تجد أنه بعد أن انتقل إلى مرحلة يكون فيها ملائكياً كالملائكة يراهم ويتكلم معهم ويخاطبهم ويفهم . **المرحلة الثالثة** : يأتي بعد ذلك في منطقة أخرى بعد سدرة المنتهى ، فينتهي حد جبريل ، ثم بعد ذلك يزج برسول الله في سبحات النور ، ولم يكن جبريل معه . وهذا دليل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد ارتقى إرتقاء آخر ، ونقل من ملائكية لا قدرة لها على ما وراء سدرة المنتهى ، إلى شيء من الممكن أن يتحمل إلى ما وراء سدرة المنتهى ، دون مصاحبة جبريل عليه السلام ، إذن فمحمد كان بشراً في الأرض مع جبريل ، وبعد ذلك كانت له ملائكية مع الرسل ومع جبريل في السماء ، وبعد ذلك كان له وضع آخر ارتقى به عن الملائكية حتى أن جبريل نفسه يقول له . . أنا لو تقدمت لاحترقت . . وأنت لو تقدمت لاخترقت . . فذاتية محمد حصل فيها شيء من التغير ، التغير الذي يناسب ذلك الملأ الأعلى ، فجبريل بملائكتيه لا يستطيع أن يخترق وإلا احترق ، أما هو فيستطيع أن يخترق ، وعلى هذا فثلاثة أشياء حدثت لمحمد ، بشرية في الأرض معهودة بالمدد ، وبعد ذلك ملائكية في السماء قبل سدرة المنتهي ، ثم بعد ذلك ملائكية فوق الملائكية ، وهي التي كانت بعد سدرة المنتهي يصير فيها «قاب قوسين أو أدنى» ، ويتعرض فيها الى خطاب الله والى رؤية الله على خلاف بين العلماء في هذا .

موسى يطلب الرؤيا

سؤال :

عل هناك وجه شبه بين الكلام الذي سبق وبين الآيات التي تتكلم عن سيدنا موسى عليه السلام ، حين قال لربه : « أرني أنظر إليك ، قال لن تراني » .

نعم ، هنا نلاحظ أن السؤال من موسى عليه السلام كان من عين البشرية التي لمحمد ، لأن موسى لم يسأل الرؤيا ، وإنما سأل الإراءة ، لأنه في الأرض . . « ربي أرني أنظر إليك » . . وأرني المطلوب فيها الإراءة بمعنى ، أن ترني أنظر . وأن لم ترني لا أنظر ، فكأنني بطبيعة تكويني لا أقدر أن أنظر إليك ، ولكن إن عدلت فيّ ، وأريتني . . أرى ، أرني . . أنظر . . فكان الذي طلبه موسى

الإراءة وليست الرؤية ، لأنه يعلم بطبيعة تكوينه أنه لا يرى ، ولكن الذي خلقه يستطيع أن يريه ، فطلب موسى كان الإراءة كالذي حدث لمحمد في آية الإسراء الأرضية « ليريه » . . أيضاً هي إراءة . وبعد ذلك نبحث بحثاً آخر في الجـواب . . « ربي أرني أنظر إليك » . . كان موسى يقول . . أنا بطبيعة تكويني لا أقدر على أن أراك ، لكن أنت خالقي ، وخالق القوانين ، فتستطيع إن أمددتني بقوانين من عندك أن أرى ، فإن أريتني أنظر ، وإن لم ترني لا أستطيع . فماذا كان جواب الحق له ؟ كان جواب الحق له : « لن تراني » إذن فالمانع ليس من جهة الحق ، ولكن من جهة موسى . لم يقل : لن أُرى . . بل قال . . لن تراني . . أي أن طبيعتك التكوينية لا تقوى على رؤيتي ، ولو أن الحق لا يُرى لقال له . . « لن تُراني » ، وبعد ذلك قال له ولكن . . « انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني » . . علقه على شيء مادي موجود وهو الجبل ، والجبل لا شك أنه موجود أمام موسى ، الجبل عندنا وعند موسى أقوى بنية من موسى وأشد صلابة . . » فلما تجلى ربه للجبل « . . إذن لا مانع أن يتجلى الحق على بعض الخلق ، وقد تجلى الحق على الجبل ، ولكن الجبل الصلب القوي لم يتحمل هذا التجلي فتفتت مع صلابته ومع قوته ، حينئذ نفهم أن السر في قوله « لن تراني » إن طبيعتك . . تكوينك لا يتحمل رؤيتي ، بدليل أنك لو نظرت إلى الجبل ، وأنا سأتجلى على الجبل فإن استقر مكانه فإنك تراني . . ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ، وخر موسى صعقاً** ﴾ . . فموسى صعق لرؤية المتجلى عليه ـ وهو الجبل ـ ، فكيف لو رأى المتجلي ؟ !. إذن : فقول الحق : « لن تراني » دليل على أن طبيعة تكوين البشر ليست معدة إعداداً بحيث تستطيع أن ترى ربها ، أما الله سبحانه وتعالى فمن الممكن أن يرى ، ولكن بعد تعديل طبيعتنا بحيث تقوى على رؤيته ، والدليل على ذلك أن الله تجلى على الجبل ، وما دام تجلى على الجبل ، والجبل خلق ، إذن فمن الممكن أن يتجلى على بعض خلقه ، ولكن بعض خلقه يتحملون التجلي أو . . لا يتحملون ، فمن رحمته أنه لا يتجلى لنا ، لأن طبيعة تكويننا لا تتحمل ذلك التجلي ، الجبل مع ضخامته ماذا صار ؟ ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ، وخر موسى صعقاً** ﴾ . .

فسؤال موسى لله : « أرني » دليل على أن ذلك ليس محالاً أو ليس ممكناً ، لأن كثيراً من الرسل تصرفوا تصرفات ، ولم يقف الله منهم موقف موسى ، بل قال : ﴿ **لا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ . . فإذا سأل نبي سؤالاً يكون لا جواب له ، فيقول ﴿ **لا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ . . ولم يقل لموسى لا تسألن ما ليس لك به علم ، وإنما قال له بالدليل المنطقي . . لن تراني أنت ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر ، فعدم تجلي الله على موسى ـ رحمة به . حتى لا يتفتت تفتت الجبل . الجبل الذي هو أقوى من موسى ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ، وخر موسى صعقاً** ﴾ .

سؤال :

أعتقد أنه بعد هذه الصورة يمكننا أن نعود إلى الآية مرة أخرى . . ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ . هل تفهم فهماً آخر غير وصف آيات الله بالكبرى ؟ .

نعم ، نحن قد قلنا : ان الذي كان في الأرض إراءة ، لأن فيه بشرية ، فلما نقل إلى السماء انحلت البشرية بعض الشيء عن رسول الله ﷺ ، وأصبحت الملائكية هي الطاغية ، فأصبح يخاطب الملائكة ، ويكلم الرسل الذين ماتوا . ويلتقي بهم ، وجاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة التي تكلمنا عنها وقلنا أن جبريل نفسه وهو ملك من الملائكة العظام ، ولم يقدر عليها حيث قال له : إلى هنا مكاني . . وذلك يدل على أن محمداً نقل نقلة أخرى فوق الملائكية ، ليهيأ . . لماذا ؟ لكلام الرب المباشر وإلى الرؤية على الخلاف فيها . إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما تكلم ماذا قال ؟ ﴿ **والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى** ﴾ ـ تجادلونه على ما يرى ـ ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة وما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ .

وهنا وقفة ، لأن نصوص القرآن من الله ، فكل لفظ له إيحاؤه ، فإذا قال الله . . « أفتمارونه على ما يرى » . . أي أفتجادلونه إن قال لكم رأيت كذا وكذا

وكذا . « **لقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى**» .

وبعد ذلك لما جاء في المرحلة الأخيرة . قال « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . . هذا أخبار من الله ، ولم يكن من محمد . . كأن محمداً قال ما تطيقه عقول البشر ، فقال . . « أفتمارونه على ما يرى » . . ولقد رآه نزلة أخرى .

الله سبحانه وتعالى ـ رحمة بالعقول ـ لم يمتحنا بما يعييها ، جاء في شيء من الأشياء ، وقال لماذا تجادلونه في هذا ؟ . . ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ . فكان ذلك أخباراً من الله ، وليس أخباراً من محمد . حيث لم يقل محمد لهم « لقد رأى من آيات ربه الكبرى . . والكبرى هنا ـ المفسرون حين يتكلمون يجعلونها وصفاً للآيات ، فهو قد رأى آيات ربه . . الآيات الكبرى العظيمة ، لكن التحقيق الذي يقبله الذوق السياقي أن قوله : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » أي أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه ، فكأن آيات الله التي حدث عنها هي آيات من آيات الله وحسبها عظمة وعجباً أن تنسب إلى الله ، لكن فيه آية كبرى ، وهي التي تقف العقول فيها وقفة ، لأنها إذا كانت في الآيات العادية وقفت هذه الوقفة ، فما بالكم بها مع الآية الموصوفة من الله بأنها الآية الكبرى ؟ . . أي لقد رأى الكبرى من آيات ربه . فإن الكبرى هي المفعول ، وليست وصف الآيات .

ولكن : « لقد رأى من آيات ربه » ماذا رأى ؟ رأى الآية الكبرى التي هي أعلى من هذه الآيات ؟ . . لا شك أن جبريل كان معه في الأرض ، كان يشاركه في هذه المرائي ، وفي السماء أيضاً كان معه جبريل ، لكن في الآية الكبرى كانت المرحلة الأخيرة ، التي لم يقدر عليها جبريل . . ولا أحد من الملائكة ، وانفرد رسول الله ﷺ بها ، وإذا نظرنا إلى قول الحق أيضاً ﴿ **ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ .

أنا شخصياً لست مع المفسرين حين يفسرون دنا ، المدنون والداني جبريل ، لأن جبريل معه ، وما دام جبريل معه ، فماذا دنا ؟ فكان قاب قوسين أو أدنى ، ذلك ملحظ آخر يعطينا أن الدنو . . « ثم دنا فتدلى » . . بشيء آخر ، من ربه ، أو ربه منه ، إيناس بما يكون من رؤ يته للحق أو من كلام الحق له ، هنا .

ليس كمثله شيء

سؤال :

هل إذا ذهبنا إلى القول بدنو الرسول عليه الصلاة والسلام من الله ، أو دنو الله منه ، ألا يوجد معنى التجسد أو التحيز ، والله سبحانه منزه عن ذلك ؟ .

نحن قد قلنا : أن الله سبحانه وتعالى موجود ، وأنا موجود ، فهل وجود الله كوجودي ، أنا أعلم أنني أسجل الآن حلقة في التليفزيون والجمهور معي ، والله يعلم ذلك ، فهل علمي كعلم الله ؟ وأنا مثلاً أوصف بأني حي ، والله يوصف بأنه حي ، فهل حياة الله كحياتي ؟ إذن لماذا نفسر أن دنو الله وتدليه ، أو دنو الرسول وتدليه ، كدنوي أنا وتدليتي ؟ وما دمنا قلنا : سبحان . . فإذا أوجد شيء لله مثله للبشر ، فلا بد أن تنسبه إلى سبحانه إلى الأصل في سبحان ، فإذا كان الله قد وصف بأشياء مثل . . « استوى على العرش » . . ونحن لنا استواء أيضاً على الكرسي ، فلا نقول : إن استواء الله سبحانه وتعالى كاستوائي ، لأنني لم أقل : إن وجوده كوجودي . ولا علمه كعلمي ، ولا غناه كغناي ، ولا حياته كحياتي ، لماذا ؟ قالوا : لأن الدنو والتدلي من صفة الاجرام ، والله منزه عن الجرامية ، فيجب أن نأخذ الفعل بالنسبة أيضاً لفاعله .

وعلى فرض أن الله هو الذي دنا وتدلى ، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة ، كما في الحديث : « فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » . . فلا أتصور التنزل بأنه تنزل كتنزلي ، لماذا ؟ لأنني عندي إطار عام وهو أنه سبحانه ليس كمثله شيء ، فإذا أوجد وصف لله ، ووجد وصف مثله للبشر ، فيجب أن أقرن الوصف بالله ، لأنه ليس كوصفي ، والله منزه عن أن تكون ذاته كذاتي ، وفعله كفعلي ، وصفاته كصفاتي .

أمثلة وصور

سؤال :

كان هذا النوع بالذات من المرائي في حدث الإسراء ؟ .

نلاحظ كما ذكرنا في صدر كلامنا تخيير النبي ﷺ بين اللبن والخمر ، حيث

اختار اللبن . وأنه مر على ناس يزرعون ، ويحصدون في نفس اليوم ، أو في نفس الساعة ، وهؤلاء هم المجاهدون ، وأنه وجد أناساً لهم مشافر كمشافر الإبل ، وآخرين يأكلون كرات من النار . ثم يخبر بأنهم الذين يأكلون أموال اليتامى ، ما هي هذه الصور وغيرها ، وما دلالتها ، وما معناها ؟ ومن هم خطباء الفتنة ؟ نريد أن نعرف شيئاً عن ذلك ـ على سبيل المثال .

منهاج الرسل دائماً أنهم يجيئون من الله خالق الإنسان بقانون صيانة ذلك الإنسان ، لأننا جميعاً مقتنعون بأن صانع الصنعة هو الذي يقرر قانون صيانتها ، وصانع التليفزيون هو الذي يقرر قانون صيانته ، وكيفية استعماله وتشغيله ، فكل صانع صنعته من البشر هو الذي يضع قانون صيانتها ، وحيث أنه لم يوجد أحد يدعي أنه خلق الإنسان ، إذن فالإنسان صنعة الله ولا خوف في ذلك ، وما دام الإنسان صنعة الله ، فالله هو الذي يحدد قانون صيانة ذلك الإنسان ، لا يخلق الله خلقه ، وبعد ذلك يتدخل الخلق ليضعوا قانون الصيانة له ، هذه كحالة أن أذهب أنا بالتليفزيون إلى الجزار كي يصلحه لي ، لا ، فالذي يضع قانون صيانة الشيء هو الذي خلقه : « ألا يعلم من خلق ؟ » . . والذي يدلك على ذلك . . أن كل تشريع من تشريعات البشر ـ إن أحسنا الظن برغبتهم في الخير ، ورغبتهم في الاصلاح ـ عرضة لأن يتغير ويتبدل ، وأن يذهب ويجيء غيره ، ولا يبقى قانون من قوانين الوضع البشري إلا ببقاء السوط الذي يحميه ، فإذا ذهب السوط الذي يحميه انحل القانون بطبيعته ، فكأن وراء كل قانون بشري قوة تحميه ، وحين تذهب هذه القوة ، يضمحل .

وأحب أن أقول للذين يقننون : أن القوانين البشرية تقنن للنفس الإنسانية . فماذا عرفتم من النفس الإنسانية ؟ أنتم تعرفون زاوية ، وتجهلون زوايا ، ما هي النفس الإنسانية ؟ ليست بطناً ومعدة فقط ، ليست عقلاً يعي ويفهم فقط ، ليست وجداناً فقط ، أنها ملكات متعددة ، أنتم إلى الآن لا تعرفون عدد هذه الملكات ، فكيف تقننون لشيء لا تعرفونه ، إذن فالمقننون يعرفون شيئاً فيقننون له ، ويتركون الملكات الأخرى النفسية جائعة ، وهنا ماذا يحدث للإنسان المشتمل على كل هذه الملكات ؟ وفيه ملكة شبعة ، وملكات جائعة ، لا بد أن يحصل التمزق والقلق

النفسي له ، والدليل على ذلك مثلاً ، الجماعة الذين يعتبرون النظام الاقتصادي هو كل شيء في الدنيا ، كالسويد ، التي هي بالاحصائيات أرقى دولة في مستوى المعيشة ، فالفرد فيها مرفه رفاهية عالية جداً ، ومع ذلك فيها أعلى نسبة انتحار بين شبابها ، علاوة على أمراضهم العصبية والجنونية إلى آخره ، وهذا دليل على أنه ليست المعدة هي كل شيء أولاً الماديات هي كل شيء ، فهناك ملكات جائعة في هذه النفوس ، وإلا فما الذي يدعو الإنسان إلى الانتحار وترك الحياة ؟ السبب أن لديه قلقاً ، وهو لا يعرف مصدره ، ولا يعرف طريقاً لعلاجه ، لأن فيه ملكات نفسية جهلها البشر ، فلم يقننوا لها ، وإن قننوا بها فتقنين جاهل بها لأنهم لم يخلقوها ، إذن فالذي يخلق الشيء هو الذي يقنن له ، وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق النفس البشرية ، وهو الذي يقنن لها .

وقد جاء الرسل لتنظيم حركة الحياة في ذلك الإنسان . . بقانون صيانته ، وما دامت هذه هي مهمة الرسل ، وسيتعرضون لقوانين اقتصادية وسياسية وعملية واجتماعية وخلقية ، سيتعرضون لأشياء كثيرة منها القوانين التعبدية . في القانون التعبدي الذي يقول فيه الله تقرب إلي بكذا ، وليس للعقل مجال فيه ، لأن الله يقول لك . . تقرب إلي بأن تصلي لي خمس صلوات بشكل مخصوص ، لكن في القوانين الأخرى التي تتعلق بنظام المجتمع . سياسة أو اجتماع أو . . . أو . . . إلى آخره ، فناقشها ما شئت بعقلك ، وقارنها بأي قانون اقتصادي في العالم ، وستجد أن القوانين التي وضعها الإسلام لزوايا الحياة الاجتماعية هي المتفوقة وهي ذات السبق ، ففي التعبديات ، لا مجال للعقل ويجب التقرب لله بما يريد ، أما ما عدا التعبديات فناقشها بعقلك ، وقارنها بأرقى المستويات ، وستجد السبق والتميز لها ، مع الشمول والاستيعاب ، والدليل على ذلك أن الأشياء التي كان أعداء الإسلام يأخذونها على الإسلام حينما كانوا يعدلون قوانينهم ، كان القانون بعد تعديله يلتقي مع وجهة نظر الإسلام ، إذا كان القانون سليماً ، فمثلاً كانوا ثائرين على الإسلام في مسألة الطلاق ، وبعد ذلك انتهوا في إيطاليا إلى أن الحل الوحيد لمشكلات أسرية مستعصية هو إباحة الطلاق . وذلك لأنهم وجدوا شرور عدم الطلاق أكثر ، ولذلك فهم كلما يرتقون . . أو يستنيرون ، أو تعذبهم الحياة

بواقعها ـ يرجعون إلى نظرية الإسلام .

ومثلاً أمريكا نعرف أنها صرفت ولا زالت من أجل محاولة تحريم الخمر ملايين الدولارات ، ولكن الإسلام جاء من أول خطوة وحرمها . . وتعدد الزوجات الذي جعلوه عيباً من عيوب الإسلام ، الآن يبحثون في ارجاعه لأنه أفضل من النظام الموجود لديهم ، والقوانين الاقتصادية إذا نظرت إليها ، ووجدتها تترقى ، فستجدها في رقيها تلتقي مع نظرية الإسلام ، فالإسلام جاء من أقصر طريق . لماذا ؟ لأنه تقنين من يعلم من خلق ، وتقنين خالق الإنسان ، الذي أرسل بذلك التنظيم .

حين يأتي بالتنظيم ، نجد فيه أشياء نسميها نحن في الوسائل التربوية الآن وسائل إيضاح ، وسائل الايضاح هذه : تنقل الكلام النظري إلى كلام عملي ، ومعنى وسائل الايضاح : أنها أمر مادي . . معملي يرينا صدق القضية النظرية ، فإذا قلت الحرارة تمدد الأجسام ، فلكي نثبت ذلك لا بد أن نوضحه عملياً ، بأن نأتي بحلقة معدنية ونمرر بها الكرة ، وسنجد أن الكرة تمر من الحلقة ، لكن لو سخنت الكرة ، وأدخلناها في الحلقة المعدنية ، فلن تدخل لماذا ؟ لأن حجم الكرة تمدد بالحرارة. هذه وسيلة ايضاح بينت لي هذه المسألة النظرية ، والدين يأتي بتشريعات .

فالرسول ﷺ رأى في هذه المرائي أشياء ، تعطي له واقع الأوامر المنهجية التي أتى بها التكليف ، فأول شيء يعرضه لنا ، مسألة الفطرة ، وتغير الفطرة . عرض عليه كأس من اللبن ، وكأس من الخمر ، فاختار رسول الله ﷺ كأس اللبن ، وهنا قال له جبريل . . « هديت إلى الفطرة » . . وما معنى هديت إلى الفطرة ؟ كأن الفطرة بطبيعتها نقية ، لأن اللبن الذي نشربه من أمهاتنا أو اللبن الذي نشربه مثلاً من البهائم لا صنعة للإنسان فيه أبداً ، إذ أننا نشربه كما ينزل ، فهذه هي الفطرة ، لكن في الخمر ، نحن نأخذ رزقاً من الرزق الحسن ـ بعنب مثلاً ـ وبعد ذلك نأتي فنتلفه حين نخمره ونجعله ينتن ويتحلل ، فإذن نحن قد أخرجناه عن فطرته ، ولذلك حينما يعرض القرآن ذلك ـ وكان العرب يشربون الخمر ويقولون : سكر ـ يقول : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً** ﴾ . .

صحيح هم يأخذون منه سكراً . . « ورزقاً » . . انظر إلى الدقة في . . « ورزقاً حسناً » . . فحينما جاء بالرزق وصفه بالحسن ، وفي السكر سكت عنه لأنه غير حسن ، ولو قال : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً أحسن لكان السكر أصبح فيه شيء من الحسن ، لكنه أتى بـ « حسناً » حتى تكون مقابلة للقبح ، كأننا نأخذ نعم الله ونتلفها ونخرجها عن الفطرة ، فقول جبريل عليه السلام لسيدنا رسول الله ﷺ : . . هديت الفطرة . . أي أنك لم تأخذ حاجة من حاجات الله وأدخلت عليها عملية إفساد ، خذ الحاجة وادخل عليها عملية اصلاح ، كاللحم النيء مثلاً نضجه ، والخضار أطهه ، لكن أن تأخذ عنباً وتضعه في برميل يتعفن ويتخمر ، فكأنك أخرجته عن طبيعته وعن فطرته ، ذلك معنى . . « هديت الفطرة » .

ولماذا هذا المرئي ؟

قالوا . . لأن العقل هو منفذ التكليف من الله . والخمر جاءت لتستر العقل ، لأن مدخلي إلى الله هو العقل التكليفي ، فالمجنون لا يكلفه الله ، لأن آلة الاختيار بين البديلات معطلة ، ومعنى عقل . . أن يختار بين بديلات ، فإذا كان أمراً لا بديل له فلا عمل للعقل فيه ، وما دام وجد الاختيار بين البديلات فلا بد أن يكون العقل موجوداً سليماً ، ومقاييسه صادقة ، وذلك حتى تختار البديل الخير ، ولا تختار البديل الشر ، يأتي الإنسان إلى مناط التكليف له من الله وبعد ذلك يشرب الخمر ليستر عقله ، فكأنه عمد إلى النعمة الكبرى . . منفذة إلى الإيمان بالله ، ومنفذة للتكليف عن الله يعطلها ، وكل المرائي التي بعدها . . التي تستلزم وجود العقل التكليفي فيها ، فالجهاد والزكاة والصلاة كل هذه فرائض شرطها وجود العقل التكليفي ، فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد بالمنظر الأول أن يقول : أن الفطرة طبيعتها سليمة . . لا تفسدوها أنتم بتصرفاتكم ، هذا اللبن تبع الفطرة ، والخمرة أنتم أفسدتموها بصنعتكم فيها ، فقد تدخلتم فيها ببشريتكم فأفسدتموها ، فبعد أن كانت نعمة سليمة جعلتموها مفسدة ، وإلى ماذا وجهتموها ؟ . . إلى منفذ التكليف من الله وهو العقل ونأتي إلى الحق سبحانه وتعالى الذي يقول لنا : أنا قد خلقت لك هذا العقل حتى تختار به بين البديلات فإذا جئت أنت وسترته بالخمر ، فتكون

رددت على الله نعمته الكبرى عليك ، والتي أمتزت بها عن الحيوان قد نجد الإنسان الذي يفعل ذلك يقول : إنني أستر همومي وحزني ، ولكن ردنا عليه بأن نقول له : إن المشاكل لا يحلها أن تهرب منها ، إنما يحلها أن تواجهها ، فالحق لا يريد منك أن تنسى مشاكلك وتهرب منها وتسترها بالخمر، ولكن واجهها بفكرك، وما دمت تواجهها بفكرك ، فلا بد أن تحافظ على هذا الفكر لكي يكون سليماً ، قادراً على حلها ، وذلك بأن تمنع عنه أي شيء يطمس قانون اختيار البديلات فيه ، فهذا هو السبب في أن ذلك هو أول منظر من المناظر التي رآها سيدنا رسول الله ﷺ .

وبعد ذلك مثلاً نجد منظراً آخر ، هذا المنظر الآخر : أنه وجد قوماً يزرعون ويحصدون في وقتها وتتكرر هذه العملية عدة مرات ، فسأل جبريل من هؤلاء ؟ قال المجاهدون في سبيل الله ، لأن الجهاد في سبيل الله هو الوسيلة الناقلة لهدى الله إلى خلق الله فالجهاد في سبيل الله هو الانسياح بالدعوة المنهجية التي جاءت من الله إلى القوم ، كي يهتدوا إليها فلا بد لهؤلاء المجاهدين أن يكون لهم ثمرات متعددة ، ولماذا الثمرات المتعددة ؟ لأنهم يجودون بأموالهم ، ويجودون بأرواحهم ، فالذي يجود بماله وبروحه عند الله ، نجد الله سبحانه وتعالى يخلف عليه خلفاً يناسب قدرته في العطاء ، وما دام يناسب قدرته في العطاء فلا بد من تجدد ثوابه ، فكلما جاهدت في سبيل الله ، وبعد ذلك تنشر الدعوة بجهادك في سبيل الله ـ فلك ثواب من هدي بها باستمرار .

إذن : فالرسول عليه الصلاة والسلام حينما أراه الله هذه المسألة فقد أراه إياها ليوضح هذه الحقيقة للذين يجاهدون في سبيل الله . . ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ . . ولا شك أن الناس يجودون بالأشياء طمعاً فيما تأتي من الخير ، فالفلاح منا مثلاً يكون عنده أردبان من القمح وعندما تأتي أيام الزرع يأخذ أردباً مما عنده فينقص ما عنده أردباً ـ وبعد ذلك يطرحه في الأرض ، لكن الأردب الذي طرحه في الأرض وأنقص ما عنده الآن ، سيزيد له عشرة أرادب بعد ذلك ، وأن الحبة ستأتي له بـ ٧٠٠ حبة ، فإذا كان ذلك عطاء الأرض الصماء التي هي خلق من خلق الله فكيف يكون عطاء الله ؟ فإذن هو يؤنسني بالأمر المادي ، ولذلك فإذا جُدت أيها المجاهد بمالك وبدمك ، فذلك كله عند الله يجود ، وإذا كانت الأعمال بنتائجها،

فنتيجة هذا هو النفع العام لك .

وبعد ذلك يعرض الله سبحانه وتعالى منظراً آخر ، الدنيا نعرف أنها زينة وزخارف ولهو ولعب . . « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة**» . . فالله سبحانه وتعالى عرض هذا المنظر ، منظر الدنيا . . بأنها امرأة عجوز وعليها من كل زينة ، فقال له ما هذه يا جبريل ، قال . . « لم يبق من عمر الدنيا إلا ما بقي من عمر هذه » . . فكأن الرسول يقول . . أنا بعثت والساعة كهذه ، ولم يبق من عمر الدنيا إلا كما بقي من عمر هذه المرأة ، فإذا كان عمرها هذا ، فلماذا تشغلون أنفسكم بها هذا الشغل الكبير ؟ أعطوها على قدر عمرها ، وإذا فرضنا أنه بقي من عمر الدنيا الكثير ، فهذا الكثير لغيرك ما حظك أنت فيه ، وإذا قست الدنيا بعمرك أيضاً ، وجدت أنها بقيت دنيا لكن لخلق غيرك ، فمهما طال أمدها ، ستمكث مليون سنة ، لكنها لا تمكث المليون سنة لي .

إذن : فيجب أن تقيس الدنيا بعمرك أنت فيها ، فعمرك هو عمرك ، فإذا كان متوسط عمر الإنسان ٦٠ سنة أو ٧٠ سنة ، فإذا ضحى الإنسان بهذه السنين ماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة أنني سأضحي بشيء محدود ، لكن في غاية غير محدودة وهي الآخرة ، هذه هي أول مقارنة ، ثانياً أن السبعين سنة ليست متيقنة ، فقد يموت الإنسان وهو صغير ، فوجود الحياة الدنيا غير متيقن لكن الآخرة متيقن وجودها ، هذه هي المقارنة الثانية ، ونعيمي في دنياي على قدر من ؟ على قدر امكانياتي ، وعلى قدر تصوراتي في النعيم ، أما نعيمي في الآخرة فعلى قدر امكانيات الحق سبحانه وتعالى ، وتصوراته في النعيم ، إذن فحينما نأتي ونقارن عمر الدنيا بعمري ، سأجد أن المقارنة ليست في صف الدنيا .

محدود هنا ، وغير محدود في الآخرة .

غير متيقن هنا ، ومتيقن في الآخرة .

النعيم على قدر امكانياتي ، ونعيم الآخرة على قدر امكانيات الله .

فإذا كانت الدنيا عجوزاً ، ولم يبق منها إلا هذا ولو بالنسبة لكل إنسان ، فما الذي يجعلني أجعل الدنيا هي كل همي ؟ هذا هو المنظر الذي رآه رسول الله .

هناك منظر آخر ، إن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى أن هناك أناساً

والمقص يقص شفاههم وألسنتهم ، لماذا ؟ قالوا لأن الشفاة واللسان هما الأداتان اللتان يتعاونان في إخراج الكلام ، فقال له من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هم .. « خطباء الفتنة » .. ومن هم خطباء الفتنة ؟ قال الذين يقولون ما لا يفعلون ، فألسنتهم أحلى من العسل ، وفعلهم كالأسى ، ويحدثون الفتنة : لأن آفة كل دعوة .. هم خطباء الفتنة فيها ، يقولون كلاماً يسمعه الناس ، ولهم فعل يخالف ما يقولون ، فيقارن الناس فعلهم بقولهم ، فيعلمون أن هناك كلاماً يقال ، وفعلاً يفعل ، وإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ، انقلبت المناهج كلها .

فإذا جلست أشرح لابني مضار الكذب وأحدثه عن الصدق يومياً ، فإذا جئت في يوم وطلبني شخص وأنا بالبيت وكان ردي عليه بأنني غير موجود ، هذا الفعل مني يهدم كل شيء من قولي ، وبعد ذلك يستقر في وجدان الابن .. أن هناك كلاماً يقال ، وفعلاً يفعل ، فانفصلت الكلمة عن السلوك . وأيضاً خطباء الفتنة .. هم الذين يبررون للناس تصرفاتهم ، فيجعلون الدين مبرراً لتصرفاتهم ، بمعنى أن التصرف يكون ، ثم يطلبون له مبرراً من الدين ، والدين ليس دين تبرير ، ولكنه دين تدبير للمسائل ، هو الذي يدبر الأمر أولاً ، فلا تقل أن المجتمع حلت به البلوى ، وبعد ذلك تحاول من الدين أن يجد لك حلاً لبلاء المجتمع ، ستهبط بمنهج السماء إلى الأرض ، والمفروض أن منهج السماء جاء ليرفع الناس إلى مستواه ، ولذلك تجد في كل كلام الله الدعوة إلى السمو .

ماذا يقول ؟ ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا** ﴾ .. تعالوا معناها أقبلوا ، نعم هي تحمل هذا المعنى ، لكن تعالوا هنا معناها ارتفعوا إلى المستوى الأعلى لتأخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى ، لا تتركوا أنفسكم في حضيض بشريتكم ولا في حضيض مدنيتكم ـ إذن فخطباء الفتنة هم الذين يقولون ما لا يفعلون ، أو هم الذين يبررون لكل منحرف انحرافه ، فيأتي مثلاً في الربا ، ويبرره ، لكن نحن نقول له : إن منهج الله لا يهبط إلى مستوى فعل البشر ، وإلا فسيكون المجتمع البشري هو الذي يقنن ، وبعد ذلك نهبط بمنهج السماء إلى مستوى تقنين الأرض .

موضوع المرائي أو الصور التي شاهدها رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء ، وقد عرضنا لبعض هذه الصور من تخير الرسول عليه الصلاة والسلام بين الخمر

واللبن ، واختياره الفطرة حيث اختار اللبن ، ثم المجاهدون ، والصور التي تبين ثواب المجاهدين في سبيل الله وكذلك . . خطباء الفتنة ، وبقيت صور ، وبقيت أيضاً بعض الموضوعات التي تتعلق بالصلاة ، وفرضها في المعراج ، والأنبياء الذين قابلهم سيدنا رسول الله ﷺ .

إن هذا الموضوع مهم جداً ويمكن أن يكون خطيراً ، والبعض يحب أن يناقشه ، كيف أن أغلبهم من أنبياء بني إسرائيل ، ما زعمه البعض من أن تردد الرسول عليه الصلاة والسلام بين موسى وبين ربه عز وجل ، ونصيحة موسى عليه السلام لمحمد عليه الصلاة والسلام ، أن يطلب من الله تخفيف الصلوات الخمسين التي فرضت حتى صارت خمساً ، وكيف ـ في تصور هذا البعض ـ أن هذا يعني نوعاً من الوصاية من سيدنا موسى على أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، هذه بعض الموضوعات التي نرجو أن نناقشها وأن نبدأ بموضوعنا الأول عن بقية المرائي ، سواء ما يتعلق منها بالمال أو العرض أو التكليف بالصلاة وغير ذلك .

قلنا : إن هذه المرائي جعلها الله سبحانه وتعالى كوسيلة الايضاح بالنسبة لبعض الأمور العظيمة التي تتعلق بالدعوة ، وبدأناها بمرأى الفطرة ، لأن التدين أو الإسلام أو معيشة الحق هو دين الفطرة ، وكل ما يطرأ من دين أو غفلة مما يكون من صناعة البشر وإفسادهم كما يفسدون العنب فيجعلونه خمراً ، وبعد ذلك تأتي المرائي الأخرى ، وهي مركزة حول معاني تتعالق بالمال ، وتتعلق بالأعراض ، وتتعلق بالكلمة ، أما الذي يتعلق بالمال ، فإن الحق سبحانه وتعالى عرض على رسول الله ﷺ آية ، هذه الآية : أنه رأى قوماً يسبحون في بحر من دم ، ثم مع ذلك يلقمون الحجارة ، فسأل عنهم أخاه جبريل ، فقال هؤلاء أكلة الربا ، الصورة الرمزية . . في أنهم يسبحون في بركة من الدم ، الدم يفيد وينفع حين يكون سارياً في شراينك وأوردتك ، ولكنه حين يخرج ويصير شيئاً ثقيلاً يثبط من يسبح فيه ، فلم يعد له فائدة ، فالذي يسبح في بركة من الدم ، ومع ذلك يلقم الحجارة ، فإنه نقل الأوضاع ، المفروض أن الدم ينفع في جوفه ، لا أن يسبح فيه ، ومع ذلك يلقم الحجارة ، إذن : فلم يغنه الدم الذي يسبح فيه عن غذائه الأساسي ، بل هو قد استعاض عن الغذاء الأساسي وهو الدم بأن يلقم الحجارة ، وذلك أمر طبيعي ،

لأن ما معنى المراباة ، المراباة أن تستغل فرصة عدم معدوم ، وفقر فقير لتزيد أنت من مالك ، معنى ذلك أنك قد جعلت نفسك كل شيء ، وجعلت أنانيتك في الانتفاع هي كل شيء ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حينما جعل الأرض مباحاً لجميع الناس يعملون فيها طاقاتهم المخلوقة لله ، بعقولهم المخلوقة لله ، أي أنك تكدح في المادة المخلوقة لله بالفكر الذي خلقه الله ، وبالقوة والطاقة التي خلقها الله ، فلا أقل من أن تجعل الله مضارباً معك ، بمعنى أن لله رأس المال ، ولك العمل ، وأنت ليس لك العمل ، أنت فكر تخطط به من فعل الله ، وأرض تحصد فيها من خلق الله ، وطاقة وقوة تعمل بها من خلق الله ، وبعد ذلك تكتسب شيئاً ، لا أقل من أن تتصدق على المعدم الذي لا يجد القوة التي يعمل بها أو الذي لا يجد المجال ليعمل به ، أو الذي لا يجد الفكر ليخطط ، لا أقل من أن تعطيه شيئاً من مال الله الذي آتاك ، فكونك تستغل ضعف المعدم وفقره لتزداد أنت شيئاً من الغنى ، هذا هو الظلم الفاحش ، إذن فالله ضرب ذلك المثل حتى يبين للناس أنهم بعملهم هذا لن يستفيدوا منه شيئاً ، وأنهم سيكدسون دماء لا لتجري في عروقهم ، ولكن ليسبحوا فيها ، فانظروا من يسبح في دم ، ما فائدته منه ، ومع ذلك في غذائه الحقيقي يلقم الحجارة ، هذه صورة من صور الربا التي عرضها الله سبحانه وتعالى .

وبعد ذلك تكلم عن الأعراض ، والأعراض هي المادة الشهية الحلوة لكثير من خلق الله ، الناس مشغولون باثنين ، بالأموال يحبون أن يجمعوها ، وبأعراض الناس ليأكلوها ، إذن فالمال والعرض هما موضوع الفساد في الأرض . الله عرض مسألة الأعراض ، ومن العجيب أن الغيبة التي تعرض لها الحق سبحانه وتعالى في إراءته لرسوله ﷺ ، رآها في ثلاث صور ، رأى مرة قوماً لهم أظفار من نحاس يخدشون بها وجوههم ، فسأل عنهم . . « فقيل الذين يغتابون الناس » . . ورآهم مرة أخرى يأخذون قطعاً من لحومهم فيأكلونها ، ورآهم مرة ثالثة يأخذون لحماً منتناً من الناس فيأكلونه ، فعرضها في ثلاثة مرائي ، هذه المرائي لتضخم فظاعة هذا الجرم ، وهو أن يغتاب الإنسان أخاه الإنسان في عرضه ، وبعد ذلك كونه ميتة بمعنى أنه لو كان حياً ، كان يمكنه أن يدافع عن نفسه ، ولكن لجبنه وضعفه جعله

كالميت الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه .

وبعد ذلك عرض الحق لنا ، صورة أخرى ، وهي صورة الزنا ، الصورة البشعة . عرض الله عليه شيئاً ، قوم أمامهم لحم طيب ، يتركون هذا اللحم الطيب ، ويذهبون إلى لحم خبيث منتن غير نضيج ، فسأل عن ذلك ، فقال . الرجل تكون عنده المرأة من الحلال ، فيتركها ويذهب إلى المرأة الحرام ، أو المرأة يكون عندها الرجل من الحلال ، فتزهد عنه ، وتذهب إلى الرجل من الحرام .

أيضاً صورة أخرى ، وهي صورة الكلمة يقولها الإنسان ، ونحن نسمع في الأدب . . « أنا إن لم أتكلم بالكلمة ملكتها ، وإن تكلمت بها ملكتني » ، فحين أتكلم بها لا أقدر على ردها ثانية ، كذلك عرض الله هذه الصورة فوجد ثوراً عظيماً قد خرج من جحر ، ويريد ذلك الثور أن يدخل ذلك الجحر مرة ثانية فلا يستطيع ، فسأل رسول الله جبريل ، فقال هذا . . « مثل الرجل يقول الكلمة ، ثم يحاول أن يرجع فيها ، فلا يستطيع » .

وبعد ذلك عرض على رسول الله ﷺ شيء آخر ، رجل يحمل حملاً لا يقدر عليه ، ومع ذلك يمد يده إلى شيء آخر ليضعه حملاً على نفسه ، فسأله عن ذلك ، فقال هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ، يعجزون عن أدائها ، ومع ذلك يحبون أن يزيدوا على ظهورهم حملاً ، وهم لا يقدرون على أن يحملوا ما معهم .

كل تلك المرائي التي رآها رسول الله ﷺ مثل توضيحية لتبين للمؤمن كيف يكون جزاء مثل هؤلاء ، وكيف تكون آخرتهم حتى يبشع لهم بهذه المناظر هذه الأشياء ، فيتخلوا عنها ولا يرتكبوها .

ومن المناظر التي رآها ، رأى قوماً يرضخون رؤوسهم بالحجارة ، كلما رضخت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم ، تضرب رؤوسهم بالحجارة فتتحطم ، ثم ترد مرة أخرى ثم ترضخ ، فقال من هؤلاء يا جبريل ، فقال هؤلاء هم الذين يتكاسلون عن الصلاة ، والظاهرة أنهم يضربون الرؤوس ، لأن التثاقل عن الصلاة ليس إلا عملية فكرية ، ومعنى عملية فكرية . . أن الإنسان إذا ركز كل طاقاته وكل إمكانياته بحيث يؤديها . يؤديها مهما كانت ظروفه ، ومهما كانت شواغله ، ومهما

كانت الموانع التي تمنعه ، ولكن الإنسان يبرر لنفسه ترك الصلاة بأسلوب يختاره ، ضيق الوقت . . الحرص على المصلحة ، عدم القدرة ، كل شيء من هذا القبيل ، فكأن الفكرة التي توحي للإنسان بأن يتكاسل عن الصلاة ، إنما هي فكرة تنبت في رأسه ، فالرأس الذي سول للإنسان أن يكسل عن أداء الصلاة هو الذي يستحق هذا الجزاء ، ويجب أن يرضخ بالحجارة ، وليته يرضخ مرة وينتهي ويموت ، ولكن لا يفتر عنه ، ومعنى لا يفتر عنه أنه يعود ثانية ليضرب مرة أخرى وهكذا فيظل كذلك في عذاب إلى يوم القيامة .

تساؤل :

ربما يتبادر إلى أذهاننا جميعاً ، وهو أن الصلاة فرضت في المعراج وهذه الصورة يراها رسول الله ﷺ قبل أن تفرض الصلاة على أمته ، طبعاً نفس التساؤل يمكن أن يكون مطروحاً بالنسبة لآكل الربا ، وآكل مال اليتامى ، والصورة الأخرى التي تدل على تشريعات اجتماعية في المجتمع الإسلامي ، لم تكن قد فرضت بعد ، لأنها ستفرض بعد ذلك في المدينة المنورة بعد الهجرة ، لكن سنجتزىء بالمثال الخاص بالصلاة ، ونذكر أن كل العبادات ، وكل الفروض والأوامر التي نزلت في الإسلام ، إنما كانت بوحي من الله تبارك وتعالى إلى رسوله ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام ، لكن الصلاة بالذات لم تكن عن طريق جبريل فهي العبادة الوحيدة التي يلفتنا ويلفت انتباهنا أنها تفرض من الله عز وجل مباشرة إلى محمد ﷺ ، فهل لهذا دلالة معينة ؟

أما مسألة المرائي التي أريها رسول الله ﷺ لأمور لم تكن شرعت في الإسلام لأن تشريعاً سيتأخر ، فالعلم عند الله في المسائل ليس مترتباً ، بأن يعلم شيئاً يقع وإلا ، وبعد ذلك شيئاً يقع ثانية ، وإنما كل الكون بما كان ويكون معلوم لله دفعة واحدة ، وكأن الحق سبحانه وتعالى أمده بنهايات هذه الأشياء حتى إذا ما استقبلت تكليفاً ، أقبل الناس عليها بشغف وبلهفة وبشوق . . لماذا ؟ لأنهم علموا مسبقاً ماذا يكون جزاء من يخالف منهج الله في هذه الأشياء . فالأشياء عند الله ثابتة ، ولكن العلم ، علمنا نحن الذي فيه الترتيب ، فنعلم تكليفاً ، ونعلم جزاء بعد ذلك ، ولكن علم الله في التكليف وعلم الله في الجزاء لا ترتيب فيه أبداً بل كل شيء عند

الله هو . . هو ، فإذا كان الله قد عرض لنا صورة لشيء سيكلفنا به فيما بعد ، فلأن الواقع في الجزاء عنده هو هذا ولم يتغير ولم يتجدد فيه شيء آخر أبداً .

ولذلك يجب أن نفطن إلى أن الله حينما يتكلم عن مرأى مستقبل يتكلم عنه لا بصفة الاستقبالية ، فصفة الاستقبالية يأخذها البشر بزمانهم فقط ، أما بالنسبة للحق فلا استقبال ، ولا حال ولا ماضي ، ولذلك تجد هذا واضحاً في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ . . **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾ .

لو أن هذا الكلام من عند غير الله لقلنا . . كيف يقول أتى ، وبعد ذلك يقول لا تستعجل ، وهل تستعجل إلا ما لم يأت ؟ لا حين يقول له أتى . . في أمر ما يأتي أو سيأتي ، فكأنه آت لا محالة ، فلا زمن عند الله ، فكذلك هذه الأشياء وإن كانت ستأتي بعد ذلك . المخالفون سيأتون بعد ذلك ، إلا أن الله أعد لهم ذلك الجزاء ، وإن كان قبل أن يوجد التكليف .

أما مسألة الصلاة ، أولاً ـ هنا بحث يجب أن نبحثه وهو أنهم حدثونا أن رسول الله صلّى إماماً بالأنبياء في بيت المقدس قبل أن يعرج ، والصلاة فرضت بعد العروج ، فنقول لهم . . نعم ، الصلاة بشكلها الإسلامي النهائي ، لأن الصلاة موجودة مع كل رسول ، وعند إتباع كل رسول ، ولذلك الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لإبراهيم ﴿ . . **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ . . ماذا يقول قبل ذلك ؟ يقول . . ﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود** ﴾ إذن فهناك ركع ، وهناك سجود من يوم أن خلق الله الرسالة ومن يوم أن خلق الله التكليف ، وأيضاً في سورة مريم ﴿ . . **يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين** ﴾ . . وفي آية أخرى ﴿ . . **ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة** ﴾ . . فكأن فيه صلاة ، لكن لا كالصلاة الإسلامية ، فالصلاة الإسلامية خاصيتها أنها جمعت ميزات كل صلوات الرسل ، فصلوات الرسل كانت في بعض الأزمنة غدوة . . عشية . . ركعتين في أول النهار . . ركعتين في آخر النهار ، شكل خاص في القيام ، شكل خاص في الركوع ، شكل خاص في السجود ، فلما جاءت صلاة الإسلام ، أخذت كل

ميزات الصلاة ، ولم يأخذ رسول من الرسل العدد الذي فرض على أمة محمد ﷺ بذلك التوزيع الزمني ، خمسة أوقات في اليوم والليلة ، ولذلك نجد أن سيدنا موسى استكثر هذا ، وسنتكلم عنه فيما بعد .

إذن كانت هناك صلاة ، ولكن الصلاة التي فرضت . . هي الصلاة الجامعة لكل مزايا الصلوات المتقدمة عند الرسل السابقين ، وبخاصة أنه لم توجد صلاة عندهم اسمها صلاة العشاء التي جاءت فقط لرسول الله ﷺ ، بعد ذلك نقول ، إن التكليفات التي يكلف الله بها عباده بواسطة الرسل تكليفات تنظم حركة حياتهم من ناحية مجتمعهم ومن ناحية سياستهم واقتصادهم وأخلاقهم ، الإقبال على هذا المنهج لا بد أن يكون بدافع أن الله هو الذي أمر به ، لماذا ؟ لأن البشر لهم في مثل هذه الأمور تشريعات اجتماعية وخلقية فما الذي يجعلني أرغب عن تشريعات البشر إلى تشريعات الحق ؟ لأنني آمنت بأن الحق هو الإله الذي يعبد وحده ، ويجب أن أتلقى تكاليفي منه ، إذن فالرب الذي إيماني به هكذا يطلب مني أن استحضره كل يوم لأظل دائماً في ربانية العزة ، وأظل في عبودية لهذه الربانية . فالصلاة هي الشحنة التي تشحن المؤمن ليقبل على أوامر ربه بجد وباجتهاد ، ولأن هذه الشحنة هي الأساس الذي سيحرك هذا الموتور الإنساني ، كانت الصلاة بالنسبة للفرضية تختلف عن كل الأحكام بأن فرضت من الله مباشرة .

إن الرئيس حينما يكتب إلى مرؤسيه كتاباً فيكون أمراً عادياً ، فإذا كان الأمر أهم استدعاه عنده ، وقال له إفعل كذا وكذا وكذا ، فهو لم يستدعه إلا لأن هذا أمر بالغ الأهمية ، وأيضاً ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام جعل المعراج له تكريماً لقربه من حضرة ربه ، وما دام تكريماً لقربه من حضرة ربه ، ومحمد ﷺ مبعوث رحمة للعالمين جميعاً ، وحرصه على أمته حرص شديد ، لم يشأ الله في مقام قربه منه إلا أن يرده بما يقرب المؤمنين برسول الله من الله ، فكانت الصلاة هدية القرب للقرب .

المعراج كان تكريماً لرسول الله لأنه كان قرباً من الله سبحانه وتعالى . لم يستأثر رسول الله ﷺ وحده بالتكريم مع أنه يحب أمته . . لا ، لا بد أن يرجعه الله بتحفة وهدية إلى من يؤمن به لتكون وسيلة إلى القربى أيضاً ، ولذلك يقول الحق :

﴿ .. واسجد واقترب ﴾ .. فكأن السجود الذي هو أظهر مظاهر الخضوع في الصلاة هو الذي يقرب الإنسان إلى الله .. القرب الذي اقتربه رسول الله من ربه فكأن الله سبحانه وتعالى حيا محمداً ﷺ حين قربه منه في الملأ الأعلى بأن حمله هدية ، وحمله تحفة يحملها إلى المؤمنين برسول الله ، لتكون لهم حظاً في القرب من الله ، كما كان لرسوله حظه في القرب منه .

كذلك ، لأن الصلاة المفروضة من الحق سبحانه وتعالى ليس لها عمل إلا أن تقربك من الحضرة ، ولتوضيح معنى أن تقربك من الحضرة .. قلنا : إن الإنسان صناعة الله ، فالله هو صانعه ، وصنعة تقف أمام مهندسها الذي صنعها ، كل يوم خمس مرات ، فلا بد أن تكون على أوفى شيء من الضبط ، وقد قلنا أن المهندس من البشر يصلح الآلة بشيء مادي يصنعه فيها ، ولكن الحق لأنه غيب يصلح عبده الذي يقف بين يديه في لحظة القرب هذه بأمر غيبي أيضاً ، وليس بعملية مادية ، فتخرج من مقام ربك وأنت ترى كيف ارتحت .. كيف تبددت همومك .. كيف قويت طاقة إيمانك . إذن فالصلاة هي التي تعلم الإنسان كي يقبل على التكاليف .

وإذا كان الإسلام قد بني على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ـ وإقام الصلاة ـ وإيتاء الزكاة ـ وصوم رمضان ـ وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، نأتي ونرى هذه الأركان .. قد لا توجد هذه الأركان إلا في بعض الناس ، صحيح هي أركان الإسلام ، ولكن ليست أركان المسلم ، لأن المسلم قد يكون فقيراً لا يزكي ، فيسقط عنه فرض الزكاة ، والمسلم قد يكون مريضاً أو مسافراً فلا يصوم ، فيسقط عنه فرض الصوم ، وقد لا يستطيع الحج ، فيسقط عنه فرض الحج ، إذن فهي أركان الإسلام ، وليست أركان المسلم ، لأن المسلم تيسر له أن يشهد بألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن يقيم الصلاة ، وعلى هذا فالركن الأساسي الذي لا ينفك عن الإنسان أبداً هو الصلاة ، حيث لا تنفك عن المسلم أبداً ، حتى وهو في الحرب أو هو مريض لا يستطيع أن يجلس .

إذ قيل إنه يجب عليه أن يؤدي الصلاة حتى ولو بقلبه .

إذن فلا عذر لها في السقوط أبداً .

أنت مطلوب منك أن تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة في

حياتك ، وبعد ذلك قد لا تصوم . . غير مستطيع للحج فلا تحج ، فما الذي بقي لك من أركان الإسلام ، بقي لك الصلاة وهي الركن المكرر ، وهذا هو معنى الحديث الشريف : « الصلاة عماد الدين » .

وإذا نظرت إلى الصلاة وجدتها مع كونها لا تسقط فيها كل أركان الإسلام ، لأنك لا بد في الصلاة أن تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . فالركن الأول مكرر فيها .

وأيضاً إتيان الزكاة ، ما هي الزكاة ؟ الزكاة هي شيء من مالي أخرجه للمحتاج . أي أن تضحي بشيء من مالك ، والمال في عرف الإسلام فرع الوقت ، لأن العمل يحتاج إلى وقت ، فكأنك ضحيت ببعض مالك الناتج من عملك الناتج من استغلال وقتك ، والصلاة لا تأخذ من المال ولكن تأخذ من الوقت الذي يعمل فيه العمل الذي يأتي بالمال ، فكأن الزكاة أخذت شيئاً من المال الناتج عن العمل . . والعمل الناتج عن الوقت ، فالصلاة أخذت من الوقت نفسه . . من الأساس الأصيل .

إذن : حينما يأخذ من الأربعة والعشرين ساعة . . ساعة للصلاة ، يكون قد اقتطع جزءاً من الوقت وجعله للصلاة ، كما يقتطع جزءاً من المال ، إذن فالزكاة اقتطاع جزء من المال ، والمال ناشىء عن العمل والعمل يحتاج إلى وقت ، فالصلاة تقتطع من الوقت الأساسي ، ففيها زكاة أهم من المال ، والذي يمنع الناس عن كثير من الصلاة هو أن يقولوا : أنها تحتاج إلى وقت وهذا يعطلنا عن مصالحنا ، فيكون ردنا عليهم بأن نقول لهم كما سمى الله نقصان المال من الزكاة . . زكاة ، فهو لم يسمه نقصاناً ولكن سماه زكاة ونماء ، فيجب أن تستقبل أيضاً الوقت الضائع عندك في الصلاة الذي تقول عليك ضائعاً ، استقبالك الناقص يخرج من مالك ، فهو ينميه ويزيده ولا ينقصه . فكذلك الوقت إذا ضحيت منه ببعضه ، وجعلته لله ، وشحنت الشخصية ، فإن البركة في بقية الوقت ستعوضك كل ما فات ، كما أن الزكاة نماء ، والربا محق .

وأيضاً فيها صوم ، لأن ما هو الصوم ؟ الصوم هو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج نهار رمضان لكن أنا في الصلاة أمسك عن شهوتي البطن والفرج وعن

الحركة وعن الكلام وعن كل شيء ، إذن ففيها لون من الصيام متعلقاته في المنع أوسع من متعلقات الصيام .

وفيها أيضاً حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، لأنك تستحضر وأنت تصلي بيت الله ، فتتجه إليه وتتحرى إليه ، ولما كانت الصلاة هي الركن الوحيد الذي لا يسقط عن المسلم ، جاءت فيها كل الأركان من شهادة ألا إله إلا الله ، ومن الزكاة بشيء أفيد من المال بل بالوقت الذي يأتي بالمال ، ومن صوم صمته فوق ما تصوم في رمضان ، واستحضار لبيت ربك في كل وقت من الأوقات ، فكأنك حججت بقلبك ، وإن عجزت عن أن تحج بنفسك .

سؤال :

ولكن ، ماذا عن دور سيدنا موسى في النصح بمراجعة الله للتخفيف عن المسلمين وانقاص الصلاة ؟

هنا نريد أن ندخل في موضوع ، هذا الموضوع هو فرضية الصلاة . . فرضية الصلاة كانت بالمباشرة كما قلنا لأهميتها ، الرواية التي قالت لنا أن الله قد فرض خمسين صلاة وبعد ذلك ذهب رسول الله ﷺ الى موسى ، فقال له : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف ، وتكرر ذلك حتى صارت خمساً ، هناك كلام أحب أن يلتفت المسلمون اليه جيداً ، وهو أن كراهيتنا لليهود يجب ألا تنسب الى موسى ، يجب أن يفهم هذا الكلام جيداً ، فلا يدخل في نفوسنا شيء على موسى ، لأن موسى رسول الله ، وموسى من أولى العزم ، وكونه يطلب من رسول الله أن يرجع الى ربه فيسأله التخفيف هل في ذلك وصاية ؟ . . وما نوع الوصاية ؟ الوصاية تكون من الانسان الذي يأتي ليفرض علي أمراً أكثر ، أما الوصاية التي تأتي للتخفيف هل توصف بأنها وصاية ؟ . . أنه يريد أن يخفف عني أموراً يعلم هو أنني لا أطيقها .

أن الرواية التي ذكرت . . «فان أمتك لا تطيق» . . فكأنه يريد أن يقلل من شأن الأمة الاسلامية واحتمالها ، نحن نناقش ذلك خاصة وهناك رواية أخرى تقول فان أمتك ضعاف لا يطيقون أو شيء بهذا المعنى ؟

هذا ما يقال ، لكن حينما يقول له موسى ، أنا جربت الأمم قبلك ، لم يكن

الله قد فرض على قوم موسى الا صلاتين ، صلاة بالعشى وصلاة بالغداة ، ومع ذلك ما قاموا بها ، فموسى حينما يرى أمة كان معها ، ومع ذلك لم يقوموا بوقتين من الأوقات ، ويقول لرسول الله ما قاله ، فهذا دليل على أنه يحب رسول الله ، ويحب أمة رسول الله ، ولذلك يريد ألا يعرضها لما تعرضت له أمته من أنها لم تستطع ، فهذه ليست شهادة بأننا ضعفاء ، وانما هو يفترض أننا قد لا نقوى على هذا ، لماذا ؟ لأنه جرب الأمم فلم تقو . . ومعنى جرب الأمم أي جرب في قومه ، فهذه شهادة ضد أمته ، وليست ضدنا نحن لأن معنى ذلك أنه عرف أن أمته لم تستطع ولم تقدر ، فسحب الحكم علينا ، ما الذي جعله يسحبه علينا ؟ يقينه . بما فعلته أمته ، اذن : فهذا أمر ضدهم ، وليس ضدنا نحن .

ثم نأتي الى السؤال عن كثرة أنبياء بني اسرائيل الذين قابلهم سيدنا رسول الله ﷺ ، نقول : أن الأنبياء كما سبق أن قلنا انما جاءوا لحمل منهج الله الى خلق الله ، وليعالجوا أمراض البشر ، فهم الأطباء الالهيون الذين أرسلهم الله ليعالجوا البشرية من علاتها ، فاذا ما كثر على أمة أطباء ، فاعلم أن أدواءها كثيرة ، فما دام أنبياء بني اسرائيل كانوا كثيرين فمعناه أن بلاءهم كان كثيراً ، وأن نبياً واحداً لم يكفهم ، فكان كل وقت يأتيهم نبي ، وهذا دليل على استفحال الداءات فيهم وان نبياً واحداً لم يكن ليكفيهم ، ولذلك لا يؤخذ كون اليهود أكثر أنبياء على أنهم أحسن الأمم وأعظمها ، ونكرر قولنا لهم : ان الأنبياء أطباء ، وكثرتهم عندكم تدل على أن أمراضكم أمراض كثيرة معضلة ، وأن طبيباً واحداً لا يكفي ، فتعدد الأنبياء ، ومع ذلك كان ما كان منكم .

يأتي هنا سؤال وهو : إذا كان الله قد أرادها خمساً ، فلماذا فرض خمسين أولاً ؟ وأقول : أن التكليفات من الله ليست لحاجة الله الى فعلنا ، وانما هي لصالحنا نحن ، فالأساس الأصيل أن التكليفات لا ينتفع الله بها ، وانما هو لصالحنا نحن ، فحين يكلفنا الله تكليفاً فانه يكون لصالحنا ، ويعطينا جزاء نظير هذا التكليف . حين فرض الله خمسين وصيرها الى خمس ، أنقص ما يريد اعطاءه من الثواب ، أم ظل الثواب خمسين ؟ لقد ظل الوثاب خمسين اذن : فالعطاء غير متناسب مع العمل فتقرير العطاء من الله الخمسين . . ظل العطاء هو العطاء ، وبعد

ذلك خففت الوسيلة لا العطاء ، فبعد أن كانت خمسين صارت خمساً ، ولكن الثواب ظل كما هو .

وكثير من الناس يقولون : كيف ينسخ الله الحكم قبل أن نمكن من الفعل ؟ فيكون ردنا عليهم . . أن الناس يفهمون أن مراد التكليف من الله انما هو فعل الشيء المكلف به ، بمعنى أن المراد من كل تكليف من الله لخلقه أمران ، الأمر الأول الايمان بالتكليف وعدم رده ، والأمر الثاني فعله ، فاذا قبلت الأول فقد أخذت شقاً من الأمر بالتكليف ، وبعد ذلك الشق الآخر وهو الفعل ، وأنا أريد أن أوضح هذه النقطة ، فأقول مثلاً . . ابليس عصى ربه ، وآدم عصى ربه ، لماذا طرد ابليس من رحمة الله ؟ ولماذا تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ؟ نأتي وننظر الى معصية كل منهما ، فابليس عصى الله في أنه رد الأمر التكليفي على الله ، فقال له : «**أأسجد لمن خلقت طيناً**» . . فأنا لا يعجبني هذا التكليف ، أنا خير منه ، إذن فرد التكليف على من ؟ على الله ، لكن آدم لم يرد التكليف على الله ، فهو اتهم نفسه وقال . . «**رَبنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**» . . فحين كلف الله رسوله الصلاة خمسين قبلها رسول الله ، وانصاع لأمر التكليف ولم يعارض فيه ، وبعد ذلك رجع ، فيكون قبوله ﷺ كأنه أعطى شيئاً من المطلوب من التكليف ، وهو قبوله الأمر المكلف به ، وبعد ذلك فعله شيء آخر ، فالذي نسخ لا قبول التكليف ، ولكن الذي نسخ فعل الخمسين ، صارت الى خمس ، فيكون الله قد كلف بشيء وقبل أن يمكن منه نسخه ، فنقول أنه مكن من واحدة ، ولم يمكن من الثانية ، مكن من ماذا ؟ من أنه قبل أمر التكليف .

ومثل آخر . . الله سبحانه وتعالى أراد من ابراهيم عليه السلام أن يذبح ولده وبرؤ يا منامية ، ماذا كان من ابراهيم ؟ قال . . «**يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت أفعل ما تؤمر ، ستجدني ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا**» . . تقبلت الأمر بايمان ويقين وأقبلت أنت وولدك لتفعله ، فتكون قد انتهت المسألة ، فهذا هو المراد من ابراهيم .

فكأن الأمر التكليفي يطلب منه شيئان : الشيء الأول أن نؤمن به ، وأن يتلقى بالقبول وعدم الرفض والرد ، وبعد ذلك فعله ، ولذلك اذا جاء واحد لم

يصل ، ونقول له أنت لم تصل فهل أنت منكر للصلاة أم كسلان ؟ فان كان منكراً نقول له كفرت . . لماذا ؟ لأنه رد في الأول ، وان كان متكاسلاً ، فنقول له يجب أن تصلي فأنت عاص فقط ، والذي يريد أن يحلل الربا ـ وهذا خطأ ـ فان قال أن الربا حرام ولكنني مضطر اليه فانه قد قبل الحكم من الله ، ولكن نفسه ضعفت فلم ينفذه ، فهذا مؤمن عاص .

لكن الذي يحلل الربا ويحلل بعض صوره ، يكون قد دخل في منطقة الكفر ، لماذا ؟ لأنه لم يقبل الحكم من الله ورده .

سؤال :

هناك سؤال يمكن أن يرد الى الذهن ، وهو كيف التقى رسول الله ﷺ بالأنبياء وهو حي وهم موتى ؟

أريد أن أقول شيئاً ، أن القرآن فيه آيات ، هذه الآيات لو وقف الانسان عندها بامعان ، تعطي له الأصل الذي يعتمد عليه في ايمانه بالرحلة ، وما حدث فيها ، مثلاً كونه يلتقي بالأنبياء ويصلي بهم مع أنه حي بقانون الأحياء ، وهم موتى بقانون الأموات فكيف التقى الحي بقانون الأحياء ، مع الموتى بقانون الأموات وعملوا عملاً واحداً ؟ .

نقول له : أن الانسان منا بروحه حين تتصل به ، تتصل اتصالات مختلفة ، تتصل به وهو حي ، لكن تنقسم قسمين ، تتصل به حال اليقظة ولها قانون ، وتتصل به حال النوم ولها قانون ، واليقظة والنوم هذان آيتان يتعرض لهما الأحياء ، دعنا من الأمر الغيبي الذي في البرزخ أو ما بعد البعث ، فنحن نتكلم على المسألة الداخلة في نطاقنا نحن ، فأنا لي حالتان وأنا حي ، حالة اليقظة ، وحالة النوم ، فللروح اتصال بالجسم في حالة اليقظة ولها قانونها المعروف ، وللروح اتصال بالجسم في حالة المنام ، ولها قانونها المعروف ، فاذا ما جئت لقانون الروح مع الجسم في حالة المنام ، هل هو قانون الروح مع الجسم في حالة اليقظة ؟ . لا . . ليس هو . . لماذا ؟ قيل لأنني أرى في المنام أن فلاناً يرتدي ملابس حمراء وآخر يرتدي ملابس خضراء ، فأنا أرى الألوان وعيني مغلقة فما الذي جعلني أرى الألوان بغير آلة مع أن عيني مغمضة وأنا نائم ؟ اذن فهناك وسيلة من وسائل الادراك غير التي عندي ، ووسائل من وسائل الاحساس بالأشياء غير الحواس الخاصة بي ، فبمجرد

خلود مادتي للنوم ، ابتدأت للروح اشراقاتها وتجلياتها مع الجسم ، تعطى له معاني جميلة ، وبعد ذلك الزمن ليس له سيطرة ، المرائي ليست لها سيطرة ولكن لها قانون خاص . . ترى مثلاً أنك نائم ، ومعك أخوتك تمرحون وتضحكون وتأكلون الطعام ، ويرى واحد آخر نائم معك على السرير أنه مع قوم بضربونه وأنت لا تشعر به ، وهو لا يشعر بك ، فأنت في عالمك وهو في عالمه ، لو جئت وطبقت هذا القانون في ماديات اليقظة ، فلا يتحقق أبداً ، اذن فاليقظة لها قانون ، وللنوم قانون ، وقانون الروح في النوم أخف وأشف وأقوى من قانون الروح في اليقظة ، فاذا كان ذلك مع بقاء الحياة ، فما بالك لو أن هذه المادة كلها فنيت وانتهت ؟ ماذا يكون القانون الذي يأتي بعد ذلك ؟ أيكون أكثف من قانون النوم أم أشف من قانون النوم ؟ لا بد أن يكون أشف من قانون النوم ، وتكون فيه المرائي ، وفيه الصور ، وفيه الالتقاءات ، لكن من الذي يستطيع أن يجرد نفسه من ماديته لتغرق فيه روحانيته حتى يلتقي بمثل هؤلاء ، هذا ما فعله الله سبحانه وتعالى مع رسوله ﷺ ، العملية التي أكثر من النوم هذه . . أنه جرده من بشريته ، فجعل الأشياء التي لم يرها وهو يقظ . . يراها وهو موجود ، ولذلك أخذ رسول الله ﷺ المرحلتين ، كان لا يرى رؤ ية الا وجاءت كفلق الصبح ، اذن مجرد خروج المادة في رسول الله أنه يرى الرؤ ية ناصعة ، فما بالك اذا كان الله قد أحدث في محمد تغييراً كما قلنا ؟ فهل يرى أم لا يرى ؟ . . وبقانون أشف من قانون النوم ، أم غير أشف من قانون النوم ؟ أشف من قانون النوم واذا كان ذلك هو القانون البرزخي ، فما بالك بقانون اتصال الروح بالجسم في الآخرة . . سيكون لها نظام آخر .

اذن يجب أن نلاحظ . . أن للروح اتصالاً بالجسم في حيز اليقظة ، وبعد ذلك للروح اتصال بالجسم في حالة النوم ، وقانونها أشف وأقوى من قانون اليقظة وللروح اتصال بالجسم في حالة البرزخ ، وللروح اتصال بالجسم بعد البعث ، وأرقاها كلها اتصال الروح بالجسم بعد البعث . . ذلك هو الاتصال العلوي . الاتصال النهائي ، ولذلك سنكون شيئاً آخراً نهائياً ، نأكل ، ولا تخرج منا فضلات ، ولا نشيب ، حياة أخرى اذن فيجب أن تلاحظ أن كل حالة في اتصال الروح بالجسم لها قانونها . . قانونها مع اليقظة شيء ، ومع النوم شيء ، ومع الموت شيء ، وبعد البعث شيء آخر . .

سؤال :

هل فيه صلة بين هذا ، وبين قول الله . . «فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد» ؟ .

نعم ، حينما تخرج بشرية الانسان في ساعة الغرغرة ، حتى اذا بلغت - الروح - الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، يقول الله . . «لقد كنت في غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» . مجرد خروج بشريته ساعة الغرغرة فيرى الأشياء التي لم يكن يراها أبداً مع أنه لا يزال حياً ولا زالت الروح فيه .

سؤال :

بقي سؤال أخير ، وهو امتداد لحدث الاسراء والمعراج على الأرض متمثلاً في موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وما كان من أمر المجتمع من دهشته التي أشرنا اليها ، وتكذيب الناس للرسول ﷺ ، بل ربما ارتداد بعض ضعاف الايمان ، بينما كانت الصورة في موقف أبي بكر كما نعرف . . التصديق بالشكل الرائع الذي نعرفه كلنا : «لئن كان قال ، لقد صدق ، فوالله أني لأصدقه في أبعد من ذلك ، أصدقه في خبر السماء» . . هذا يعطينا صورة عن نوع من الايمان الصديقي .

هذا موضوع يجب على كل مؤمن أن يجعله قمة اعتقاده ، أولا العقل حر في أن يقبل على الايمان بالله أو لا يقبل ، «لا اكراه في الدين» ، لماذا ، لأن المسألة أن الله لا يريد أن يكره انساناً على دينه ، لأنه لو أراد الله الاكراه على الدين ، لما قال : «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين» . . وكما قلنا : الله لا يريد أعناقاً وقوالب ، الله يريد أرواحاً ، ويريد قلوباً ، اذن : فلا اكراه في الدين ، بمعنى أن تدخل على الايمان بالله بحريتك فقد تدخل ، وقد لا تدخل لكن اذا دخلت بعقلك على الايمان بالله فالتزم . ومعنى الالتزام أن كل أمر يصدر لك من الله لا تناقشه بعقلك بعد ذلك .

لماذا ؟ قيل لأن القمة وهي الايمان بالله نوقشت بالعقل وأن هناك الهاً وصفاته كذا وكذا ، فأنت حر في أن تدخل على هذه القمة كما تحب أو لا تدخل . لكن اذا ما دخلت واقتنعت عقلياً بأن هناك الهاً وله صفات كذا وكذا وكذا ، فالتزم .

ولذلك حينما يكلف الله عباده يقول . . ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم ﴾ . . بمعنى يا من آمنتم بي أنا أطلب منكم كذا وكذا وكذا . . لا يطلب بتكليف من لا يؤمن به ، لأن هذا الأخير لن يسمع كلامه ، اذن فحيثية كل حكم تكليفي هو الايمان بالمكلف ، فما دام عقلي اقتنع بأن هناك الهاً ، فأقول له يا عقل . . كل عملك في التكليف أن توثق التكليف إلى الله ، هل قال الله هذا أم لم يقله ؟ وبعد ما يثبت أن الله قاله . لا تطرح الموضوع على عقلك مرة ثانية ، وإلا ستكون راجعت إيمان القمة ، فأنت آمنت بأن هناك إلهاً ، ثم قال لك تكليفاً ، فتقول هل قال الله ذلك أو لم يقله ؟ نقول له إن الله قال ، وكيف نوثق له أن الله قاله ، فما دام الله قاله فلا بد أن تأخذه ، اذن ، فهناك فرق بين أن تؤمن بالأمر ، وبين أن تؤمن بالآمر ، فالايمان بالأمر يختلف فيه كل الناس ، المجوسي والوثني واليهودي والمسيحي ، وأضرب مثلاً : حينما يأتي اليَّ شخص ويقول لي أذهب الآن الى الاسكندرية لتقابل فلاناً ، فيكون ردي عليه : أن صحتي مريضة ولا أستطيع ، فيقول لي أن لم تذهب اليه اليوم فسيسافر غداً على الباخرة ، وتفوت المصلحة التي كلمتني فيها ، فأقرر أن أذهب الى الاسكندرية ، فهل ذهابي الى الاسكندرية كان اقتناعاً بأمر الآمر أم بالأمر في ذاته ؟ بالأمر في ذاته ، لأن أمر الآمر لا مكان له ، لكن لو أمرت شخصاً آخر بالسفر وقال لك على العين والرأس ، وسافر وقضى الطلب بدون أن يناقشك في الأمر ، فالأول آمن بالأمر واقتنع به عقلياً ، والثاني آمن بالآمر وان لم يقتنع بالأمر العقلي .

وهنا في مسألة سيدنا أبي بكر لما حدثوه بأن صاحبه يقول كذا وكذا وكذا ، قال أول الأمر . «أنتم تكذبون عليه» . . فكأن أبا بكر رضي الله عنه قبل الموضوع في ذاته ، وبعد ذلك قال هذا كذب ، فهم أخذوها فرصة وقالوا له . . «وإذا كان يحدث بذلك ؟ » فعلم أنه قال ، فقال . . «إن كان قال فقد صدق» . . اذن فمناقشة أبي بكر الصديق ليست للأمر في ذاته ، وانما هل قاله رسول الله ﷺ أو لم يقله ، فما دام قاله فلا بد أن يكون صدقاً ، وقف فيه عقلي أو لم يقف ، تفتح ذهني له أو لم يتفتح ، اهتديت الى حكمته أم لم أهتد ، ذلك هو مطلوب المؤمن في أن يوثق الأمر في الصدور عن الله أو عن الرسول ﷺ .

والحمد لله أولاً وآخراً .

بسم الله الرحمن الرحيم

قضايا معاصرة

أحمدك ربي على نعمة الايمان بك . . وشرف الاسلام لك . . وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين .

قضية الايمان :

قضية الايمان قضية أصبحت ضرورية لهذا العصر . . فالوجود بكل أزمنته وأمكنته قلق حيران مضطرب ، لا استقرار فيه ولا أمن ولا سلام ولا حياة راقية ، رغم ما أصاب الناس من خير النشاطات الذهنية في اكتشاف أسرار هذه الحياة والانتفاع بالرفاهية فيها ، وهذا القلق في الوجود كله ينتظم الدول المتقدمة وينتظم الدول المتخلفة وينتظم الدول النامية ، فلو أن القلق قصر على لون واحد وارتاح اللونان الآخران ، لأمكن أن نحمل اللون القلق على فهم اللون المستقر ، ولكن ما دامت قضية القلق شائعة فيها استطراق وجودي ، فلا بد أن نبحث عن حل جذري لهذا القلق . . هذا القلق الذي نعيشه وتعيشه الدنيا يتمثل في ماذا ؟

لا بد أن نحدد مهمة الحياة التي لا قلق فيها ، حتى نستطيع بعد ذلك أن نحكم أن العالم قلق ، لأنه لم يصادف هدف الوجود . . فمن الذي يحدد هدف الوجود ؟ هدف هذا الوجود لا يمكن أن يحدد أبداً الا من خالق هذا الوجود . . لماذا ؟ لأن الناس هكذا يتعاملون مع صناعاتهم . . فالذي يصنع الصنعة قبل أن يصنعها هو الذي يحدد مهمتها في الحياة ، ولم نجد صانعاً صنع صنعة ثم ترك جمهور المستهلك ليحدد هدف هذه الصنعة ، وصانع الصنعة أيضاً بعد أن يحدد الهدف منها هو الذي

يحدد الحركة التي تؤتى ثمرها في الصنعة . . اذن فقلق الوجود هو أنه استقبل حياة له لنفسه ، ولم يدع أنه خلقها ، ولكنه حاول بعد ذلك أن يحدد هدف هذه الحياة . . فنقول له في مذهب المنهج العلمي قد أخطأت . . لماذا ؟ لأنك لم تخلق هذه الصنعة ، فكان من الواجب أن نلتمس هدف هذه الصنعة عند من خلق هذه الصنعة ، وستظل في متاهة دائمة الى أن ترضى بحكم من خلق الصنعة في مهمة هذه الصنعة . . والقضية . . قضية مشروحة بواقع الوجود .

حركة الانسان :

واقع الوجود فيه انسان هو أعلى أجناس الوجود . . والانسان الذي هو أعلى أجناس الوجود له حركة . . هذه الحركة تصدر عنه سواء كان مؤمناً بشيء ، أو غير مؤمن . وهذه الحركة التي تصدر عنه لا بد لها من زمن تحدث فيه . . اذن فالانسان القمة في الوجود متفاعل مع عنصرين آخرين . . متفاعل بحركته مع الزمان ومع المكان . . اذن فالحياة كلها تفاعل انسان مع الزمان ومع المكان . . اذن فالحياة كلها تفاعل انسان مع الزمان ومع المكان . . وعناصر التكوين الكيميائي لا تؤدي مهمتها المزاجية ، الا اذا أحكم خلط هذا المزاج احكاماً مبنياً على قدر وعلى تقدير ، فلو زاد عنصر فيه من عناصر التفاعل ، فلم تنتج العملية الكيماوية مطلوبها . .

اذن فالانسان عنصر . . والزمان عنصر . . والمكان عنصر . . والفعل هو الذي يربط بين الانسان بذلك الزمان وبذلك المكان . . والزمان كما يقولون ظرف تحدث فيه الأحداث ، وهو ظرف غير قار . . أي غير ثابت ، فأنت تكون صبحاً ، ثم يجيء ظهراً ، ثم عصراً ، ثم مساء ، ثم أمس ، ثم اليوم ، ثم ، غدا . . ولكن المكان ظرف قار أي مكان ثابت . . اذن فالانسان متفاعل مع ظرفين : ظرف قار ، وظرف غير قار ، وتفاعله لا بد أن ينشأ عن حركة . . اذن فالانسان حين يتحرك نقول له : إن أطلقت حركتك ، وجعلت نفسك متحركاً فقط بلا هدف في الوجود ، فستتضارب حركتك مع حركة مثلك . . اذن فلا بد حتى لا تتعاند الحركات ، ولا تتعارض التفاعلات من أن نحدد جميعاً الهدف الذي نتحرك من أجله ، ونتحرك في اطاره ، فحين لا نتحد في هدف ستصبح قوانا جميعاً متعاندة لا قوى متعاضدة ،

وحين يوجد التعاند بين القوى فسينشأ الفساد حتماً .

تحديد مراد الله :

كان من الواجب على ذلك الانسان ، الذي يريد أن يتفاعل بحركته مع الزمان ومع المكان ، أن يستقبل القضية الأصلية من الوجود ، ممن خلق الوجود ، فلا مندوحة له أن يرهف سمعه ليسمع قضية الوجود الأساسية ممن خلقها . ولكن ممن يسمعها . . ؟ ايسمعها بشر من بشر ؟ أهناك بشر أولى من بشر ؟ ليحدد عن الله مراد الله . . ؟ لا ، لا بد أن يحدد ذلك انسان من البشر صحيح ، ولكنه مبلغ عن القوة ، ولكن من يضمن لي صدق هذا المبلغ ؟ قال : سيمده الله بآية يعجز بها من يعارضه ، وتخرق ناموس الكون له ، وما دام الكون لنا جميعاً ، وتنبع فيه أشياء كثيرة منه ، وبعد ذلك يأتي انسان متميز بشيء معجز للمتحدي ، فحينئذ يثبت صدق ذلك المبلغ عن الله . اذن فوجب على الوجود أن يرهف سمعه للبلاغ عن الله . . يرهف سمعه ليعرف أن قضيته في الوجود أساسية . .

الالتزام :

حين يأخذ الانسان القضية يلزم نفسه بمبدأ ايماني عقائدي ، لأن الفارق بين الحيوان الذي تأتي حركاته كما نتحرك نحن ، أنه غير مضبوط بفكر يحدد البديل عن الحركة ، فالحيوان مثلا حين تؤذيه ، لا يوجد له الا انفعال واحد يرد به ذلك الايذاء أي لا بديل له في أن ينفعل انفعالاً آخر ، ولكن الانسان يؤذيه انسان ، فينفعل بذلك الايذاء ، فعنده بديلات متعددة : ماذا يصنع من الذي آذاه ؟ أيتصرف تصرف الحيوان ، بأنه ليس له الا حركة واحدة ، يرد بها ذلك الايذاء . . لا . . . هنا يوجد الفارق بين الانسان وبين الحيوان في الحركة . . حركة يحددها منهج فكري . . ماذا أصنع بمن آذاني ؟ . .

أؤذيه كما آذاني ؟ . . هذا شيء . .
أؤذيه فوق الذي آذاني . . ؟ . . هذا شيء . .
أؤذيه دونما آذاني ؟ . . هذا شيء . .
أأكظم غيظي ولا أؤذيه ، ولكن يظل قلبي منفعلاً بالبغض عليه هذا شيء . .

أأعفو وأخرج الذنب من نفسي ، فلا أكظم غيظاً لأنه لا غيظ حينئذ ؟ هذا شيء . .

أأحسن اليه ؟ هذا شيء . .

بديلات متعددة في انفعال واحد . .

فما الذي يحدد هذا البديل عن ذاك البديل ؟

الحيوان لا فكر له ليقارن بين بديلات ، ولكن الانسان وحده هو الذي ينفعل انفعالاً يستطيع أن يوجد فيه بدائل متعددة .

اذن فما الذي يحدد الطريق القويم في هذا البديل ؟ . .

انه يحدده منهج ايماني يعلى بديلاً على بديل . . فالذي يؤذي مثلما أؤذي يقول : ان المنهج الذي أؤمن به من الله يقول : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾(١) . . اذن فأنا في ذلك سلوكي سلوك ايمان ، ولكن يأتي فيبحث بفكره ، هل أستطيع بدقة أن أعتدي عليه بمثل ما اعتدى علي ؟ المثلية تقتضي دقة في التقييم . . فهل أستطيع أن أنفعل بنفسي انفعالاً بحيث اذا ضربته قلما يستطيع أن يكون القلم مثل ايذائه لي ؟ أنا لا أستطيع أن أقيم ذلك . . اذن من الممكن أن أزيد فأكون قد أخذت فوق حقي . . وما الذي يدخلني في هذه المتاهة ؟ لماذا لا أكظم غيظي أتركه ؟ ثم بعد ذلك يكظم غيظه ولكن يظل الغيظ في قلبه ، ولكنه لا يصنع عملاً نزوعياً ، وبعد ذلك يقول : ولماذا لا أعفو عنه ، وأقدر ظرفه ، لعل ظرفاً نفسياً خالطه فجعله يتصرف ذلك التصرف ، وأنا أيضاً عرضة أن يتصرف معي هذا التصرف . . فلماذا لا أحتمل طيشه هذه المرة ، فيرزقني الله بمن يتحمل طيشي ان حصل لنفسي تغيير مزاجي ، يوجب علي أن أنتقم من الغير . .

وشيء آخر أنا وهو عبد الله . . وأنا وهو صنعة الله ، فاذا كنا جميعاً صنعة الله . . والله المثل الأعلى . . هب أنك دخلت بيتك ، فوجدت ولداً لك يعتدي على ولد لك ، هما أخوان . . وهما منك بمنزلة واحدة . . فمع أيهما يكون قلبك وعطفك ، وبرك وحنانك ؟ أمع المعتدي أم المعتدى عليه ، انه مع المعتدى عليه

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٤ .

يحاول أن يهدئه . . يحاول أن يرضيه . . يحاول أن يقول لأمه : افعلي معه ما يطيب خاطره . . اذن فايذاء أخ لأخيه جعل قلب الوالد وعطفه ورحمته في جانب المعتدي عليه ، فلماذا لا أعامل زميلي هذا أو أخي هذا تلك المعاملة ، فأكون قد ضمنت أن خالقه وخالقي يكون في صفي . . يكون في اتجاهي . . يكون معي . . . وواحد آخر يقول : أنا أريد أعلى من ذلك . . ما الذي تريده اذن . . ؟ . . الذي جعل الله في صفي ، وجعلني موضع الرحمة والعطف من الله ، الذي صنع معي ذلك وجعل ربي في جانبي الا أحسن اليه بشي . . قدم الى احساناً . . اذن فأنا أحسن اليه . . فمن الذي حدد هذه البدائل، حددها تقييم دقيق، يعطي كل انسان من القيم على قدر همته الايمانية، فاذا ما أخذ كل انسان من القيم على قدر همته أو قيمته الايمانية، فعل الانفعال وهو راض عنه ، ولم يفعله وهو مكره عليه . . وحين يوجد الرضا في النفس يكون قد تحقق قول الله : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾[1] قد يقول قائل : كم دفعته بالتي هي أحسن ، ولم يصبح العدو لي ولياً حميماً ! . نقول له : كذب واقع حياتك ، وصدق ربك . . كيف ؟ نقول له أنك تظن أنك دفعت بالتي هي أحسن . . ولو كنت دفعت بالتي هي أحسن كما يريدها بقيمها الايمانية ، بدون نفاق ، وبدون استغلال لها لكانت النتيجة كما قال ربك . . لأن ربك قال : ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ فحين لا يصبح من بينك وبينه عداوة ولياً حميماً فلا تتهم مقدمة الله ، وانما اتهم نفسك بأنك تدخل نفسك في شرط الله . . فتوهمت أنك دفعت بالتي هي أحسن ، وفي الحق أنك لم تدفع بالتي هي أحسن .

المقارنات بين القضايا :

حين ينتقل الانسان في مقارناته بين القضايا ، وبين الشيء المتفق عليه ، يمكن أن ينتهي الى الأمر المختلف فيه . . أما أن نقف عند الأمر المختلف فيه فلن ننتهي . . ضربت مثلاً مرة . . قلت مثلاً . . نحن اشتركنا في معركة دخلناها مع

---

(١) سورة فصلت : الآية ٣٤ .

عدونا . . وبعد ذلك نالنا ما نالنا أولاً ، وبعد ذلك نأتي فنقول : كيف يحصل ذلك ونحن مؤمنون ، وخصومنا يهود ؟ كيف يمكن الله منا عدونا ؟ ! نقول له : لماذا حسبت نفسك الآن على الله . . ؟ أحسبت نفسك على الله في مقدمة الأمر ؟ أم لم تحسب نفسك على الله في مقدمة الأمر ؟ ثم جئت في نهاية الأمر لتحسب نفسك على الله ؟ ربك يقول : ﴿ **وان جندنا لهم الغالبون** ﴾[1] وما دام ربي يقول ذلك ، اذن فكوني أدعي أني جندي من جنود الله ، لا تقبل مني هذه الدعوى . . لأنها من الممكن أن تدعي ، وأن تقام عليها البراهين المتعددة ، وأن يثار حولها الجدل . .

أقول له : انظر الى الغاية المتفق عليها . . فكونك تنتصر أو تغلب أمر معلوم مسلم لا نقاش فيه ، فانتقل من المسلم به الى المختلف فيه . . وما دمت لم تغلب ، وما دمت قد هزمت ، فثق تمام الثقة أن ربك صادق ، وأنك دخلت ولم تكن جندياً من جنود الله ، ولو دخلت وفي بالك أنك جندي من جنود الله ، وحسبت عليه في المقدمة ، لكانت النتيجة كما تحب . . ﴿ **وان جندنا لهم الغالبون** ﴾ . . فاذا لم نكن غالبين ، فلنتهم أنفسنا بأننا لم ندخل على أننا جنود الله نكون جنود من جنودأنفسنا . . جنود من جنود مطامعنا . . جنود من جنود قوميتنا . . والله سبحانه وتعالى لا ينصر أبداً الا من ينصره ، والا لو نصر من لا ينصره لاستشرى الشر . .

اذن فالقضية اليقينية أن ربك دائماً صادق في كل شرطه وفي كل جوابه ، وفي كل مقدمته ، وفي كل نتائجه . . وضربت مثلاً برسول الله وهو بين صحابته في موقعة أُحدْ ، ولم يمض على انتصار المسلمين في بدر الا عام ، ومع ذلك هزم المسلمون . . هل هزم المسلمون وهم مسلمون حقيقة ؟ . . أم انحرفوا عن منهج القائد الذي قال لهم : «**لا تخرجوا عن أماكنكم أبداً ولو انتصرنا**» ولكنهم خرجوا . . أكان ينصرهم الله مع مخالفتهم أمر رسول الله ؟ انهم خالفوا الشرط الأساسي لجنود الله . . جنود الله مؤتمرون بأمر الله . . ان كان ولا بد أن ينال المسلمون ما نالهم في أُحدْ . . اذن فالمسلمون المتخلفون عن الجندية الحقيقية لله هم الذين هزموا ، ولكن الاسلام بمبادئه وبأوامر قائده الأعلى ﷺ انتصر . . ولو أنهم انتصروا مع المخالفة

(١) سورة الصافات : الآية ١٧٣ .

لهان كل أمر لرسول الله عندهم . .

استنباط قضية الوجود :

لننظر الى ذلك الوجود ، لنأخذ منه القضية الأساسية في حركة الانسان في هذه الحياة ، لنعلم منها الهدف من الحياة ومنهج الحركة في هذه الحياة لا يمكن أن يحددها مخلوق مثلي ، ولكن يحددها خالقها ، اذن فالبلاغ عن الله أمر ضروري ، والا وجدت صنعة بدون كتالوج ، لم يحدث ذلك أبداً في عالم الصناعة . . صنعة لا بد لها هدف من صانعها . . فاذا لم نتلق عن القوة العليا التي خلقتنا ، ونحن لم ندع أننا خلقنا أنفسنا . . اذن فالبلاغ عن الله أمر ضروري . . أمر ضروري مؤيد بالمعجزة . . والمعجزة هي أمر يعجز المتحدى ، وما دام يعجز المتحدى ، لا بد أن يكون في أمر نبغ فيه . . والا لا تأتي لانسان لتتحداه في أمر لا يحسنه ، ولا يعرف عنه شيئاً لأن رده عليه سيكون بسيطاً . . لو أنني احسنت هذا الأمر ، أو تدربت عليه ، لما أمكنك أن تهزمني أو تغلبني فيه . . ستأتي في أمر أنت نبغت فيه بشهادتك ، بعد ذلك يوجد التحدي في منطقة النبوغ ، دل ذلك على أن من اجرى المعجزة هو القوى الأعلى وليس من البشر في شيء . .

حينئذ فاستقبالنا عن الله أمر طبيعي وضروري . . يجب أن ننقب نحن عنه ، وأن نرهف آذاننا للسماع ، فما الذي أراده الله من ذلك الوجود ؟ .

الحق سبحانه وتعالى الذي خلق ذلك الكون على ذلك النظام البديع الدقيق ، المهندس المحكم ، الذي يدل على قوة قاهرة ، يدلنا على أنه بصفات الكمال فيه خلق هذا الكون ، ولنستدل على هذه المسألة انظروا الى ذلك الوجود . . ستجدونه نواميس اصلية ، وقوانين كلية ، ثم انظروا حال الصلاح فيها . . وبعد ذلك انظروا حال الصلاح في أمور للانسان دخل فيها ، فستجدون الفساد دائماً ينشأ من الأمور التي للانسان دخل فيها . . أما أمر ليس للانسان دخل فيه ، فلا فساد فيه أصلاً . .

لماذا شكونا نحن الجوع والتفجر السكاني ؟ والقلق الذي يصيب الباحثين في هذه المسألة ، لأن للانسان دخلاً في الحركة ، للحياة ، للقوت ، ولكن لماذا لم نشتك أزمة هواء ؟ . . لأنه لا دخل للانسان فيه . . ولماذا لم نشتك أزمة ماء ؟ . .

وان كنا نشكوها فقط للترفيه في شرب ماء لا يأتي في الأنابيب بانتظام . . يأتي عكراً . . متى حصل هذا ، حصل هذا يوم ان تدخل الانسان في حركة من حركات الحياة . . أما أيام كان يذهب الانسان الى العين ليملأ لنفسه ، أو من الينبوع ، أو من النهر ، كان . . كل شيء مستقراً . . ولكن دخلت حركة انسان في حركة انسان . . كان كل واحد يتحرك حركة لذاته . . انما الآن وجد أناس يتحركون حركة لنفع الآخرين . . فحين كانت كل حاجة للانسان في يد نفسه ، هو لا يغش نفسه ، وانما الفساد جاء حينما وجدت مصلحة في يد غيري وحين توجد مصلحة لي في يد غيري ، لا يستقيم الاصلاح الا أن يتقن كل واحد عمله . . لماذا ؟ . . لأن أي انسان لا يحسن من زوايا حياته الا زاوية واحدة ، وليس من المفروض أن يكون كل انسان منا مهندساً . . يخطط بيته ، ومقاولاً يبني ، وسباكاً ، ونجاراً ، وحداداً ، وخياطاً . . غير ممكن .

اذن لا بد أن أتقن زاوية واحدة من زوايا الحياة ، أصنعها للغير والغير يتقنون بقية الزوايا ويصنعونها لي . . فهل كل انسان منا يعمل العمل للغير يتقنه كما يتقنه لنفسه ؟ . . لو أن الناس جميعاً أخذوا أعمالهم ، فأتقنوها للناس كما يتقنونها لأنفسهم ، لما وجد فساد في الحياة ولا عطب ، ولكن الأمر الذي يتعلق به يتقنه ، والأمر الذي في يد الآخرين يهمل فيه .

نقول له : أنت غبي . . الذي يقف هذا الموقف من قضية الحركة في الوجود ، غبي غباء يعود عليه بالضرر . . كيف ؟ أنت ليس في يدك الا حالة واحدة من حالات الحياة ، وكثير من الناس زوايا حياتك ، في أيديهم ، فان أنت أتقنت وراعيت ربك فيما فيه حركة حياتك للناس ، رقق الله قلب كل من يعمل لك كل زوايا الحياة ليتقن لك . . وحينئذ نقول فلان حياته في بركة . . فلان مستقر . . فلان كيف يعيش ؟ لا بد أنه يتقن ما في يده للناس ، فيأتي الحق سبحانه وتعالى ، وهو قاذف الخواطر في القلوب ، حين يجد له عملاً في يد الغير ، ولو كان ذلك الغير غاشاً ، يعطي له من الظرف ما يتقن لذلك وحده عمله : حتى إذا اراد أن يغشه بسلعة رخيصة ربما يبحث عن السلعة الرخيصة فلا يجدها ، ولا يجد الا السلعة الغالية فيعطيها له ، حتى ولو قهر قهراً عنه . . اذن ما دام الانسان أتقن ما في يده للناس ، فالحق سبحانه وتعالى ، يقذف في

خواطر الناس أن يتقنوا له ما في أيديهم من عمل له. . وبركة الحياة كلها من هذا اللون .

منهج الوجود :

الحق سبحانه وتعالى حينما طلب منا منهجاً لذلك الوجود قال لنا : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾[1] ذلك هو منهج الدين كله . . منهج الدين هو : عبادة الله الذي أنشأنا من الأرض ، واستعمرنا فيها ، فاذا أردنا أن نعرف كيف نعبد الله . . تعبده بماذا ؟ . . نعرفه المعرفة اليقينية ، التي تؤكد لي أن ذلك رب يجب أن نؤمن به . . بل لا بد أن تعرفه معرفة من يسلم له قياده . . بعد ذلك يكون الاسلام اسلاماً . . اذن الأول ايمان بالقوى ويأتي بعد ذلك اسلام الحركة . اسلام الحركة قد يأخذ شكلية بحيث اذا رأيته . . يقول لك اعمل هكذا . لكن يريد الله أن يأخذها موضوعية فيأتي مقام الاحسان .

اذن فحركة الحياة كلها لتؤدي الحياة مهمتها . . ايمان بالله يوجه حركتك . . اسلام لهذه الحركة . . محاولة الاتقان والاحسان في كل عمل تؤديه . . تلك هي مناهج الهداية .

هل العبادة أن تعرف فقط ؟ . . لا . . أن تعرف وتسمع عنه ، وتنقاد له حين يوجد ذلك ، تكون حصيلة الايمان موجودة . . وبعد ذلك نتصور الكون على هذه الطريقة . . فاننا نتصور كوناً فاضلاً . . كوناً سعيداً . . قال ﷺ : ﴿ **إن الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه** ﴾ عمل لمن ؟ عمل لنفسه لا يحتاج في ذلك الى وصية . الوصية انما تأتي حين يكون العمل للغير . . نقول له ، وبذلك تضمن أن يتقن لك العمل في جميع زوايا حياتك . . فاذا ما أتقن لك العمل في جميع زوايا حياتك ، فمن أين يأتي الفساد في الكون ؟ . . اذن ففساد الكون ، لا يأتي الا حين يخالف منهجاً من مناهج الله في حركة الحياة ، وحين يوجد الأثر للمخالفة ، يكون ذلك دليلاً على صدق التشريع فيها . . لو أن العالم استقام مع مخالفته لمنهج الله ، واستقامت له الحياة كان الذين يسمعون منهج الله يقولون : نحن لا نسير على منهج الله ، والحياة

---

(١) سورة هود : الآية ٦١ .

حسنة وسائرة معنا جيداً . . اذن فعدم استجابة الصلاح في الحياة ، للقوم الذين لا يبنون حركة حياتهم على منهج الله ، دليل على صدق المنهج من الله . . ولذلك نجد القرآن جاء في سورة قصيرة ، ليحدد منهج الحياة في الأرض بشهادة من الواقع ، لأن الواقع ليس مع العين أبداً ، فيأتي الحق سبحانه وتعالى ليقول : «**والعصر ان الانسان لفي خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**»[1] .

أولاً : والعصر . . قسم من الله . . قسم بالدليل على صدق القضية ، وبعد ذلك يقول : الانسان على اطلاقه ، أي غير مرتبط بمنهج الله ، لا بد أن يكون في خسر . . الانسان اذا كان قد أخذ الحياة والفكر والحركة من الله ، ثم لم يأخذ المنهج من الله لا بد أن تكون نهايته الى خسارة .

ولذلك اذا استقرأت القرآن ، تجد أن كل كلمة انسان خبرها شرط : ﴿ **كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾[2] هذه واحدة . . ﴿ **ان الانسان خلق هلوعاً . . اذا مسه الشر جزوعاً . . واذا مسه الخير منوعاً إلا . .** ﴾[3] اذن ما الذي ينجيه من ذلك لا بد وأن يكون ؟ . . الايمان . .

فيأتي الحق فيقول : ﴿ **والعصر أن الانسان لفي خسر** ﴾ أي على اطلاقه ، بدون أن تحدد حركة حياته بمنهج ربه ، لا بد أن يكون في خسر ، وان ظهر له في أول الأمر أنه لم يكن في خسر . . ومن العجب أن الحق سبحانه وتعالى يبين للناس جميعاً تلك القضية . . كل ظالم في الأرض ، لا بد لمن رآه ظالماً أن يراه مقتصاً منه بحق ، وتتعجب من أن هذا القصاص بحق لمن رأيته ظالماً لا بد أن تراه في هذا الوضع ، قد لا يكون من عملك . . قد يكون من الله . . ليس لك دخل فيه وترى نهاية كل ظالم الى هذا المصير . . لماذا ؟ لأن هذه قضية اجتماعية ، لأنه لو كان ظالم يظل يؤخره الله للآخرة ، لاستهان الناس بقضية الحياة وواقعها ، وهناك أناس لا يقودهم الايمان ، وانما يقودهم الواقع ، فحينما يرون ظالماً يقولون له : لا تظلم ،

---

(١) سورة العصر كلها .

(٢) سورة القلم : الآية ٦ ، ٧ .

(٣) سورة المعارج : الآية ١٩ ـ ٢٢ .

لأننا رأينا من ظلم قبلك ، وما حدث له . لا تعتدي . . لا تأكل الربا . . نماذج واقعية . . لأن الناس جميعاً هم الذين ينقادون بموقع الحقائق ،وبمـوقع اليقين . . وهناك أناس يستبطئون الآخرة ، هذا اذا كانوا مؤمنين بها ، واذا ما استبطئوا الآخرة فالجزاء في نظرهم أصبح بعيداً . . وما دام الجزاء أصبح بعيداً فيقول لك : تبقى تفرج ، تفرج ممن ؟ . . الذي تطلب منه الفرج ، هو الذي ستقف أمامه موقف المسؤ ول . . اذن فلا بد أن تنظر في قضية حركة الحياة ، لتعرف أن تحديد حركتها لا بد أن يكون من الله . .

وتحديد هدفها لا بد أن يكون من الله . .

وأن نفهم أن العبادة هي توجيه حركة الحياة على حساب معمول لها .

ولا تفهم أن العبادة هي مجرد الصلاة . . الصلاة فقط هي الشحنة التي تعينك على حركة الحياة . .

وأقول : أنك اذا أخذت بطارية لتملأها أنت تعطلها عن عملها في الاضاءة ، هكذا الصلاة تأخذني قليلاً عن حركة الحياة ، لكنها تعطيني الشحنة التي تجعلني أبذل الطاقة في الحياة . . اذن فالفرصة التي تقف فيها بين يدي ربك تزداد شحنة ايمان . . شحنة اخلاص . . وعندما تزداد من تلك الشحنة ، تأخذ حركة الحياة وفي بالك ربك ، وليس في بالك الأسباب فقط . . وكذلك الصيام . .

فالشعائر العبادية نحن نفهمها على أنها : فاعبدون . . فقط . . نقول لا . . اعبدوني معناها : أئتمروا بأمري في كل حركة من حياتكم . . وشعائري لا تتطلب منكم من الزمن الا وقتاً يسيراً . . معنى ذلك أني أريدكم أن تصلوا خمس أوقات ، يأخذوا ساعة ، وتصوموا شهر رمضان ، وبعد ذلك الغني يزكى في يومين أو ثلاثة . . واذا طال عمره يذهب ليحج مرة . . وبقية الزمن ماذا ستعمل فيه . . اذن فمعنى العبادة . هو : أن تأتمر في حركة حياتك بأمر الله . . يعطيك شعائر لتأخذ منها الطاقة والمعونة على حركة الحياة .

وحين يوجد ذلك المنهج ، يكون قد أخرج الانسان عن دائرة الخسران : ﴿ **والعصر أن الانسان لفي خسر . الا الذين آمنوا** ﴾ هذا أول عنصر «آمنوا» من عنصر النجاح ، ولا يكفي الايمان لأنه عمل عقائدي في القلب ، ولا بد من عمل . . عمل

صالح . . وما معنى العمل الصالح ؟ الناس يعتقدون أن العمل الصالح هو : أن تصلي وتصوم . . ولكن الله قال في المنهج الأساسي : ﴿ **هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ ما معنى استعمركم فيها ؟ . . طلب منكم أن تعمروها . .

وما دام طلب ان تعمروها ، فيكون قد نفى قضية .

هذه القضية هي من باب أولى : ألا تفسدوا الصالح بنفسه ، لا تعمد الى الصالح في ذاته فتفسده ، لأن الله طلب منك أن تعمر ، وتوجه طاقة الايمان للترقي في الصلاح ، فمثلا وجدت نبعا يشرب منه الناس . . لا تفسد النبع أو تردمه ، هذا ان لم تفكر بعقلك تفكيرا يريح الناس من أن يذهبوا جميعا الى ذلك النبع ، كأن تعمل خزانا عاليا ، وتجمع فيه المياه ، وبعد ذلك تأتي عملية الاستطراق ، وتذهب المياه الى الناس في بيوتهم تكون أنت قد عمرت الارض ، وأصلحت بحق ، إذن فمعنى : ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ تظهر قضيتين :

الأولى : أن تسلب الشر منك على الشيء الصالح بذاته .

الثانية : ايجاب الخير في ان ترقى الامر الصالح .

وحين يطلب منك عمارتها بأي شيء ، تكون قد تحددت لك حركة الحياة .

حركة الحياة :

بعد تحديد حركة الحياة لا بد لك من الطاقة ، هذه هي الايمان ونحن نقول : ان هذا هو الفرق بين القانون الوضعي وقانون الحق : لماذا ؟ لأن الذي يعمل العمل الصالح ، وأمامه وجهة واحدة . . وهي الله ، ليأخذ منه ثوابه ، فسيعمل الخير في خلوته . . بعيدا عن صاحب الصنعة ، وقريبا منه سواء . . أما الذي يعمل للقوانين الوضعية ، فغاية أمره انه يستر مخالفته عن القانون . . اذن الفائدة للايمان عممت شيوع نفع الطاقة في جميع جهات الحياة .

قوام الكون :

ما هو قوام الكون ؟ هو استبقاء الحياة فالناس الآن من عناصر التفريع في الكون والخلق ، الذين يريدون أن يخيفونا من سنة ألفين وسنة ثلاثة آلاف من باب أولى ، أن

الكون سيضن بالرزق، وسيموت العالم، نقول لهم : ان هذا منطق يجافي الايمان ، وحسب الايمان ان يريحك من البحث في أمر مستقبلي . . لماذا ؟ . . لأنك ما دمت ستأخذ المسألة بالايمان ، فأعلم أن الذي خلق الخلق لا بد أن يعطيهم الرزق الذي بـه قـوام حيـاتهم . . لكن هنـاك فـرق بين رزق ضـروري ، ورزق تـرفي تـريـد أن تترقى فيه ، فالله أعطاك ضروريات الحياة ، فاذا أردت ان ترقيها فشغل ذهنك ، انا أعطيتك ذهنا وفكرا ومادة في الوجود ، فشغل ذهنك وحاول أن تترقى بحياتك ، بعد أن وهبتك أصول الحياة .

الله سبحانه وتعالى عندما حدد هذه القضية ، قال لآدم لكي يحييه في الجنة خلال فترة التدريب على التكييف : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾ يبقى عايز تأكل وتنكسى : ﴿ **وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾[1] تعيش ويكون لك سكن . . تشرب ويكون لك سكن . . اذن فمقومات الحياة الاساسية :

لا تجوع . . . . هذا هو الطعام .

ولا تعرى . . . . هذا هو الكساء .

لا تظمأ . . . . هذا هو الماء .

ولا تضحى . . . . هذا هو المأوى .

فاذا أردت أن تترقى في ألوان طعامك ، أو شرابك ، أو مسكنك ، أو كسائك ، فشغل ذهنك في كون الله ، فالمادة موجودة ، والطاقة موجودة ، والعقل موجود . اذن فأي خلل يوجد في الوجود ، لا بد ان يصادف تعطيل حركة الطاقة في ميدان الحياة ، وتعطيل الحركة ينشأ عن نوعين :

النوع الاول :

ان يكسل الناس عن استنباط اسرار الوجود ؟ ألا يستمعوا الى الرسول حين يقول : « **التمسوا الرزق في خبايا الأرض** » وأن يهملوا قول الله : ﴿ **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾[2]. وحين تصاب الأمم بقوم يكسلون عن هذه المهمة ، فلا بد أن يأتي

---

(١) سورة طه : الآية ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) سورة الملك : الآية ١٥

جيل من بعدهم يجوع ، لأنهم لم يؤدوا مهمتهم في حركة الحياة ، ولو أنهم أدوا مهمتهم في حركة الحياة ، لكان التقدم موصولا .. انك لو نظرت الى التفجر السكاني ، او للتطور الى أعلى كما يقولون ، لوجدت ان السبب هو : تقصير الجيل السابق عن أداء مهمته في حركة الحياة ، فالذي اخترع الكهرباء مثلا ، بدأ بعملية المحراث في الارض ، فاذا جئت بعديد من الناس ما أستطاعوا ان يعملوها . اذن فعملية الفكر في الكون ، وعملية استنباط أسرار الوجود ، ضاعفت الحركة ، فبعد أن كانت الحركة مطلوبة من الانسان ، اصبح الانسان يحرك آلة صماء ، لا تتعب ولا تكل ، وتصنع ما يصنع آلاف المتحركين ، فكان من المفروض عندما يزداد العالم ، ان تزداد طاقة الحركة ، نتيجة لازدياد عدد الآلات التي تعمل للناس .

فاذا حصل قلق من ناحية الجوع ، أو من ناحية الأشياء التي تتعلق بمرافق الحياة ، فاعلم أن هناك شيئا في النفس البشرية أصابها ، وهي أنها تغتر بما يهيأ لها الآن من رزق وتغفل عن أن تهيىء للغير ما يضمن لهم ذلك الرزق .

فمثلا : الذي يزرع النخلة ، لو نظرت اليه وهو مسن وكهل ، في باله أنه قد لا يأكل منها ، ولكنه استغل طاقته لقوم أو لجيل آخر ، يأتي من بعده ليأكل منها . فلو ظل الناس يزرعون فقط ما يأكلون ، ما وجدت الاشياء التي تبطيء في اثمارها من يزرعها ، وبالتالي سنحرم من ثمارها .

اذن حركة الحياة لا بد أن تكون حركة موصولة ، فحين يأتي الحق سبحانه وتعالى ، ليعالج القضية التي تريح الكون كله يقول : ﴿ **أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها** ﴾[1] اذن فالاقوات في كون الله موجودة . ولكنها موجودة بشيء اسمه : موجود بالقوة ، وليس موجودا بالفعل ، معنى موجود بالقوة : أنه موجود بالعناصر الصالحة لايجاده ، فان أردت ان توجده فأعمل ذهنك وطاقتك وفكرك ، وضربت مثلا مرة .. السيدة في البيت حين يحضر لها زوجها تموين الشهر كله ، من سمن وزبدة ، وسكر ، وأرز .. الخ . أيكفي ذلك في أن يهيىء للرجل

---

(١) سورة فصلت : الآية ٩ ، ١٠ .

وجبة ، ام لا بد لها من عمل كل يوم في المطبخ ؟ هكذا مادة الكون ، مثلا التموين الموجود في البيت ، وبعد ذلك يطلب منا أن نعمل عملا ، ولكن في المرحلة النهائية . . الكون فيه عناصره ، فيه وسائل الخير بدليل : اننا نفكر الآن في استصلاح الارض ، لماذا لم نفكر في ذلك في الماضي ؟ وحينما نريد أن نزيد مساحة الرقعة الزراعية ، سواء في الصحراء ، أو تجفيف البحيرات ، أو استغلال المخروط الخصيب ، الذي يبتديء من الاسكندرية ، وينتهي عند حيفا ، فأين كان التفكير في ذلك في الماضي ؟ ! فاذا ما وجدت ضيقا في زرق الله ، وجدت كسلا ، واذا لم تجد كسلا ، وجدت قوما نشيطين ، يأخذون خيرالله بأعمالهم ، ثم يضنون على الغير . . اذن فخراب الكون جاء من ناحيتين :

الاولى : أما كسل عن استنباط نعمة الله في الوجود .

الثانية : ستر للنعمة عند صاحبها الذي كدح فيها واستنبطها .

نعمة الله :

قال الله تعالى : ﴿ **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ .

الملاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى بدأ الآية بـ « **ان** » التي هي للشك والدليل على صدق هذه القضية في أن : « **ان** » الشكية جاءت هنا هي :

ان أجهزة الاحصاء في العالم ، وعلماء الاحصاء ، ومراكز الاحصاء ، لم تفكر في يوم من الايام ان تعد نعم الله في الكون . . لم يحدث ذلك اللون من احصاء ابدا ، عدم الاقبال على ذلك اللون من الاحصاء ، دليل على أن الله صادق في حكمه بعجز البشر عن احصاء نعمه ، ولقد رأينا احصائيات في كل شيء ، ولكننا لم نر احصائيات للنعم التي في الكون .

والمعروف انك لا تقبل على احصاء شيء ، الا اذا كان في تقدير ذهنك أن له حدود . . وعدم اقبالك على احصاء النعم في الوجود ، يدل على أن فطرتك وذهنك مقتنعان بعدم امكانية حدوثه . . فحين يقول : ﴿ **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ . . وبعد ذلك يقول : ﴿ **أن الانسان لظلوم كفار** ﴾[1]

---

(١) سورة ابراهيم : الآية ٣٤ .

أولا : كلمة : **ظلوم** معناها أنه ينقل الحق لغير صاحبه أو يحجب الحق عن صاحبه . . ينقل الحق لغير صاحبه اذا كان في موقف الحق . . ويأخذ الحق من صاحبه اذا كان في موقف الظالم نفسه ، لأن الظلم ينشأ من شيئين :

١ ـ اخذ حق الغير .

٢ ـ الحكم للغير بحق ليس له .

ثانيا : كلمة : **كفار** . . هذه الكلمة حين تسمعها ، لا تنصرف الا على الكفر بالله . . لكن لو استقصينا آيات القرآن ، لوجدت ان كلمة كفار هنا تشرحها آية اخرى ، وهي : ﴿ **ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾[1] . اذن الذين يحلون قومهم دار البوار ، هم الذين يبدلون نعمة الله كفرا . . وما معنى يبدل نعمة الله كفرا . . الكفر : هو الستر . . وبدل نعمة الله كفر : أي سترها . . يعني : أما أن يبحث عنها في خبايا الأرض ، فذلك هو الكسل ، وأما أنه استنبطها وحجزها عن الغير ، فذلك هو الظلم ، اذن ففساد الكون ناشىء من أمرين :

١ ـ اما كسل عن استنباط خير الله في الوجود .

٢ ـ اما استنبـاط بعض الموهوبين أو القادرين على العمل للشيء ، ثم يحجز اصحاب الحقوق عن حقوقهم .

اذن حينما نقول : « **ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله** »[2] كفر : يعني ستر . . فما معنى كفرت بأنعم الله . . ايضا . . يعني سترتها . . اي لم تستنبطها ، فظلت مطمورة في الوجود واما استنبطتها واحتجزتها لنفسها .

يبقى المسألة الخاصة بالكسل . . الخ ، كان للمعسكر الغربي . . ومسألة سوء التوزيع كانت للمعسكر الشرقي . . هذا يقول : ان الفساد جاء من ناحية امكانيات الحياة وقصور المواد فيها ، فلا بد أن نأخذ الاهم فالمهم . . ونعمل مقارنات ولازم

---

(١) سورة ابراهيم : الآية ٢٨ .

(٢) سورة النحل : الآية ١١٢ .

النسل يحدد . . نقول له : لا . . اما انكم كسلانين عن استنباط الاشياء في الوجود واما انكم ظالمين في توزيع الخير الذي وصل اليه قوم من الوجود .

اذن ظلوم كفار فيها كل العلاج . . ولو أن الناس على ذلك استراحوا كان من الممكن ان نتهم منهج الله . . لكن ما دام الناس لم يستريحوا ، واصبح القلق يملأ الدنيا ، فلا بد أن يكون هناك انحراف عن منهج الحياة ، كما رسمه الله سبحانه وتعالى . .

اذن ليعود العالم . . لا بد ان يحدد مهمته من الايمان . . وبعد ذلك يأخذ منهجه بعد الايمان بالعمل الصالح . . والعمل الصالح سيعرض المصلحين أو العاملين للاصلاح الى متاعب . . هذه المتاعب قد تنال من خور نفوسهم . . النفس الخائرة : هي التي تعمل عملا صالحا ، ولا يذكره الكون ، فتزهق وتتعب . . وهذه مهمة المؤمن . . بالنسبة للمؤمن . . فلا بد من أن يتواصوا بالحق . . من الذي يوصي الآخر بالحق . . ؟ . . تواصوا . . فلتكن الوصاية بالحق منهم لبعضهم ، لانه ليس ضروريا ان يكون وقت خوري عن عمل الخير يصادف وقت خورك . . اذا كان هناك خائر ، فيجب على غير الخائر ان يوصي من بعده بالخير والحق . . ويوصي بالحق ، لان عدم التواصي بالحق سيشيع الاسوة في الظلم . . لكن اذا ظل التواصي بالحق ، فستجد الذي يصيبه شيء من ضنك الحق ، يأتي اليه إنسان آخر ويقول له : اصبر . . لا بد ان نتمسك بالحق . . فالظلم لن يدوم . . سحابة صيف وتنقشع . . يشجع فيه . . وكذلك أنا ايضا . . بعد ان أهدأ اشجعه هو الآخر . . اذن فالتواصي تكون عملية منقولة مني والي ، وبذلك يظل عنصر الحق .

وبعد ذلك نقول لله لما نتواصى بالحق سنتعب في الحياة . . وستنالنا مآسي من الظالمين . والناس الذين لا يعجبهم الحق ، ولا يعيشون الا في الباطل وسيتعبوننا . . لذلك عايز كمان نتواصى بالصبر . . أن نصبر ما دام نتواصى بالحق فلا بد أن نصبر . . انك أن لم تصبر على الحق ، فلن توجد الأسوة للثبات على الحق عند أي أحد . . واذا كانت كل ريح ظلم تيجي تصرفك عن الحق ، ولا تصبر على الايذاء فستنطفيء معالم الحق . . ولا بد أن تظل معالم الحق ، ولا بد للخير ان يوجد في هذه الدنيا .

ان الذي جعل الحقيقة علقما　　لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً
ولربما قتل الغرام رجالها　　قتل الغرام كم استباح قتيلاً

اذن فلا بد للوجود من منهج .. ايمان .. عمل صالح .. تواصي بحق .. تواصي بصبر .

فإذا اختل عنصر واحد من هذه العناصر ، فالانسان سيصير حتماً الى الخسر ..

وبعد ذلك نجد البراعة في الاستهلال بالقسم .. والعصر .. العصر يمكن أخذه على أنه وقت العصر .. يصح هذا .. لماذا ؟ .. لان وقت العصر : هو وقت الحصيلة الزمنية لمجهودك اليومي .. فحينما يأتي وقت العصر ، وتنفرد بنفسك لتحاسبها ، وتتذكر ما عملته في يومك ، فاذا لم تكن قد عملت عملاً يقدمك الى الخير ، تصبح نادماً على الاقل ، واذا لم تندم وقتها ستندم وقت حصيلة الحصاد .. اذن فالعصر من الممكن أن تأخذه على الطائفة الزمنية ، كأن الحق يقول : استقرئوا الوجود كله ، وابحثوا في العصور الزمنية كلها ، فستجدون أنه لا ينجح الانسان ولا يسلم من الخسر ، الا اذا آمن وعمل صالحاً ، وتواصى بالحق وتواصى بالصبر .. والزمن واقع وشاهد ..

وحين نستقرىء الزمن في هذه نجد أن الذين لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بقضية الحق ، ولا بقضية الصبر ، قد تزهو لهم الحياة فترة من الزمن ، ولكنها لا تطول : « **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض** »[1] .

اذن والعصر معناها : الدليل على صدق الله في قوله : ﴿ **ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[2] .. نقول استقرىء الزمن ، فسيجد كل عصر شاهد على صدق هذه القضية .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١٧ .
(٢) سورة العصر : الآية ٢ ، ٣ .

أسباب اندثار الحضارات :

أنت تجد حضارات ملأت الدنيا من قديم الازل .. حضارة الصين .. والفرس واليونان .. والحضارات التى حدثنا عنها القرآن .. حضارة عاد .. وثمود .. وفرعون .. هل كان من المفروض ألا يبقى من تلك الحضارات بعض الآثار .. ؟ .. أبداً دي بمجرد ما طغوا اندكت كلها .. ولم يبق لنا آثار أسرار حضارتهم .. طيب .. ما هي أسرار جضارة قدماء المصريين .. ؟ تلك الحضارة التي عمرت الدنيا وبقيت آثارها كذا ألف سنة قبل الميلاد ، ويأتي العالم الغربي بتقدمه لكي ينبهر بها .. ألا يبقى لنا أي دليل يقول : كيف قامت تلك الحضارة ؟ .

الله سبحانه قال لنا ذلك ﴿ **والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر** ﴾ .. يعني : هل عرفت أني أقسم لكل من له عقل ؟ . ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ . اذن حضارة عاد كانت أعتى من حضارة قدماء المصريين ، لأن الله اعطاها وصفاً لم يصف به حضارة قدماء المصريين .. ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد ؟ ارم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد** ﴾[1] ومعنى :﴿ **ان ربك لبالمرصاد** ﴾ : يعني ان الله لم يزاول تجربته في ملكه في العصور القديمة فقط ، بل لا تزال يده في كونه .. وهو بالمرصاد لكل من ينحرف عن منهج الحق القويم .. يتركه يعلو ؟ .. لماذا .. ؟ لكي حينما يهبط من علو ، يكون علواً لم يعطه تماسكاً وما دام علواً لم يعطه تماسكاً ، يكون علواً بدون جذور ولا أسس تسنده .. فبمجرد ما جاء الانهيار ، جاء الانهيار دفعة واحدة فلم يبق أثراً أبداً ..

وبعد ذلك يعرض الله لنا قضية اخرى . .يقول: ﴿ **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية** ﴾ سبأ : هي تلك الجنة السعيدة في اليمن في العصور القديمة : ﴿ **كان لسبأ في مسكنهم آية** .

---

(١) سورة الفجر : الآيات ١ ـ ١٤ .

جنتان عن يمين وشمال. كلوا من رزق ربكم واشكروا له.. بلدة طيبة ورب غفور﴾[1]

اذن كانت أوامر الله لسبأ: ﴿ **كلوا من رزق ربكم** ﴾.. هذه هي القضية الاساسية.. يعني ألا تعتقدوا يا أهل سبأ أنكم بمهارتكم العقلية بنيتم سد مأرب، وحجزتم الماء، واصبحتم تتحكمون في قنواته، وتسقون كما تشاءون، ولا تأخذوا الأسباب من الله فكراً بخطط، وحجر يبني به.. وماء من المطر ينزل لكي يحجزه.. اذن كلها عناصر من عند الله.. ما الذي لك في هذا..؟ لك توجيه طاقتك الحركية في مواد مخلوقة لك في هذا..؟ لك توجيه طاقتك الحركية في مواد مخلوقة لله.. وطاقة مخلوقة من الله.. وحجارة خلقها الله.. وماء نازل من عند الله ثم بعد ذلك تأتي وتقول: أنا عملت؟.. طيب ما دمت أنت الذي عملت، سأتركك لعملك اذن.. ثم يأتي لهم الخراب، من جنس ناحية الاعمار.. الخراب والتبديد يأتي لهم من ناحية السد نفسه: ﴿ **فأرسلنا عليهم سيل العرم** ﴾ لماذا..؟ لأنه طلب منهم طلبين اثنين أولهما: ﴿ **كلوا من رزق ربكم** ﴾ ولكنهم لم يعترفوا برزق ربهم، وقالوا انه من مهارتنا.. وما دامت من مهارتكم، سأوكلكم لانفسكم.. وثانيهما: ﴿ **واشكروا له** ﴾ ولكنهم لم يشكروا الله.. لم يعطوا حق نعمة الله في الوجود.. « **فأعرضوا** ».. اعرضوا عن الأمرين، وهما: كلوا من رزق ربكم واشكروا له: ﴿ **فأرسلنا عليهم سيل العرم** ﴾ حتى لم نعاقبهم بجفاف فتكون من ناحية الضد.. لا.. الغيظة انها تأتي من ناحية الماء. نفس الماء: ﴿ **فأرسلنا عليهم سيل العرم** ﴾ لكي يدلنا الله سبحانه وتعالى، على ان الذي يجعله سبباً للحياة، لا تعتقد انك تأخذه سبباً للحياة وتفلت من الله، بل هو تجعله سبباً للموت والدمار أيضاً.. اذن فكل أمر مقدور في الكون بارادة الله.. لا تعتقد ان الماء هو كل خير.. لا.. ان الله يفعل ما يشاء، مثلما نجى موسى باليابس، اغرق فرعون باليابس.. الشيء وضده.. لكي لا تعتقد ان الاشياء فاعلة بذاتها، وان الله خلق النواميس وتركها في الكون ﴿ **فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدأناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل**

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٥.

خمط واثل وشيء من سدر قليل . . ذلك جزيناهم بما كفروا . . وهل نجازي الا كفر ﴾[1] .

اذن . . لكي يظل الكون كوناً ، يصح أن ينسب الانسان فيه على انه عبد الله لا بد أن آخذ منهج حياتي . . وبعد ذلك آخذ حركة حياتي وتنظيمها ممن خلقني .

حين أخذ هدف حياتي ممن خلقني ، ومنهج حياتي ممن خلقني أكون دخلت في دائرة انني خليفة الله بحق .

الانسان خليفة الله في الأرض :

خليفة يعني ايه . . ؟ أنا بازرع الارض والفلاح يزرعها فتستجيب له . . والنبت ينبت . . هل انا جذبت النبت بقوتي ؟ ابداً . . أنا حرثت ووضعت البذرة ،ورويتها بماء الله ، اذن أنا حرثت في أرض الله بقوة الله التي وهبها لي ، وبعد ذلك رويتها بماء الله ، ثم تركتها بعد ذلك لاعرف كيف تتفاعل مع التربة ، أنا لا أعرف كيف تتم العملية التي يعملها لكي يأخذ النبات الغذاء من الأرض ، كي ينبت ؟ . . لا أعرف ولذلك حينما يأتي الله لينصف الانسان ، يقول : يا انسان أنا أنصفك . . أنت لا تزرع انما تحرث فقط : **﴿ أفرأيتم ما تحرثون . . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾**[1] خذ حقك ، وأعطيني حقي . أنت تحرث فقط . . واذا كنت تعتقد أنك تزرع ارني : كيف تأتي ببذرة غير بذرتي . . وتضعها في تربة غير تربتي . . وتسقيها بماء غير مائي ؟ ان استطعت ان تعمل هذه العملية تكون حقاً تزرع . . لكني أنصفتك . . حين أنصفتك قلت : انك يا انسان تحرث . . لكن انا الذي أزرع . . وبعد ذلك قال لك : انظر الى قضايا الوجود كله . . لا توجد قضايا فيه ثابتة ابداً ، لكي لا تخدع بأسباب الوجود ونواميسه الثابتة . . الحياة . . انا خلقت لك الموت ، وأتيت بقضية القمة التى نستقبلها وأنفنا راغم . . فأهم حاجة في الانسان وهي الموت . . ويقول . . والله اذا كانت لك شطارة فاجعل الموت يفوتك . . **﴿ أفرأيتم**

---

(١) سورة سبأ : الآية ١٦ ، ١٧ .

(١) سورة الواقعة : الآية ٦٣ ، ٦٤ .

ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت ﴾[1] يعني لا تأخذ الحياة الا ونتقبل قبلها نقيضها . . وبعد ذلك تأتي قضية القوت . . يقول الله : انا أيضاً أعطيك القوت بنظام ، ولكن لا تعتقد أنك اذا زرعت وقلعت ، وعملت تلك العملية ، أنك بهذا نجحت . . لا . . ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾[2] . . وذلك يحدث . . الزرع يظل ينمو . . ويزدهر . . ثم يأتي له طوفان ويقلعه ولا يقلعه فقط ، بل يطوي الارض التي فيها الزرع ايضاً . . نحن في السعودية كنا نذهب ونتنزه في مروج وبساتين حنين ، وكانت مزدهرة بالخير ، وفي عشية ذهبنا ، فلم نجد الزروع ، بل لم نجد الأرض التي عليها الزرع ، اذن ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ﴾ ينبهك الى أن قضية الوجود لا تحكم الحق . . ولكن لا تزال يد الله في كونه ، واياك أن تغتر بباطل يزهره للمبطلين ، وبفترة زمنية تغري الظالمين ، بأنني لن أميت أحداً رأى ظلمهم حتى أريه مصارعهم ، وأمامنا الشاهد والواقع الحق . .

تدخل رحمة الله :

تتجلى رحمة الله في أنه لا يديم عليك فترة الظلم . . فيقول بعض الناس للناس : « ان الله لا يترك الحق ، ولكن يسلمه فترة ليرى غيرة الناس عليه ، فاذا لم يغاروا عليه غار هو عليه » . . هذه هي رحمة الله . . يتركنا فترة لكي تأكلنا أنوفنا للظلم . . فاذا لم تأكلنا أنوفنا . . تتدخل رحمة الحق . . فمثلاً المسائل التي مررنا بها بمصر . . أرفعها احد عن أحد انها رفعت بيد الله . . ومن العجيب أن الذين رفع الله عنهم برحمته ولطفه ظلم الظالمين ، واضطهاد المضطهدين لا يزالون سادرين في العداوة لله . . وكأنهم خلصوا انفسهم مما كانوا فيه بمجهوداتهم . . مجرد رحمة هابطة من السماء . . مجرد رحمة نحن لم نثر على الظلم أبداً . . اذن هي هبطت علينا ، فكان من الواجب لهؤلاء الذين رفع الله عنهم أيدي الظالمين ، ان يعرفوا ان ذلك لم يكن بمجهودهم ، ولا بمجهود المتعصبين لهم من الرعية ، أو من

---

(١) سورة الواقعة : الآية ٥٨ ـ ٦٠ .
(٢) سورة الواقعة : الآية ٦٥ .

المعجبين ، أو من المؤيدين وانما هبطت عليهم رحمة الله فقط . . كان من الواجب ان نتنبه الى هذه المسألة ونترك غلواءنا . . ونقولها كلمة حق . . ردوها الى الله وان لم تردوها الى الله سأقولها بالفلاحي : (خذوا على دماغكم) ﴿ **وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] .

زمام المؤمن :

ان مجرد ايمانك بربك يكون زمام الحركة في يدك . . انظر الى الربوبية العادلة . . حين تؤمن بالله يصبح الزمام في يدك . . والله يقول :

﴿ **من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه** ﴾ .

اذن عندما أريد أت يذكرني الله في ملأ أعلى ، اذكره أنا أولاً . . اذن الموقف بيدي ﴿ **ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن تقدم اليَّ شبرا تقدمت اليه ذراعاً** ﴾ .

اذن عندما أريد ان يتقدم الله مني ذراعاً اتقدم أنا منه شبراً . . اذن الموقف في يد مَن . . ؟ في يد عبد الله المؤمن به : ﴿ **ومن جاءني يمشي أتيته هرولة** ﴾ . . تمعن في كلمة هرولة من الله . . رآك فقط متوجهاً اليه فيقول لك : ارتاح أنت وسآتي اليك أنا لأن الحركة قد تكلفك ، والحركة لا تتعبني ولا تكلفني . اذن فالمؤمن زمامه بيده . . زمامه . . منطقه في الحياة اصبح بيده . . فمن أراد أن يكون الله معه فليكن مع الله . . منهج الحياة منهج سهل . . ولكنه صعب على من . . ؟ يكون صعباً على المستفيدين من الظلم ، ولكننا نقول لهم : بس لو ضمنتم أن يدوم لكم نعيم الظلم . . واذا ضمنتم ذلك تكونون أشطر من الله . . انما نعيم الظلم لا يدوم والذي يراكم ظالمين ، يرى فيكم المصارع . . ومن العجيب اننا لا نرى مصارعهم على ايدي قوم اختارهم الله اخياراً طيبين ، ولكن الله يقول :﴿ **نولي بعض الظالمين بعضاً** ﴾[1] أي الله يولي بعض الظالمين بعضاً لكي يفنوا بعضهم بعضاً ويصبحوا عبرة

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٩ .

للناس أجميعن . .

وحينما يخدع الانسان ببريق فترة من فترات الحياة لعظيم من عظماء الدنيا ، نقول له : لا . . سلسل حياته وتمعن فيها . . ولا تعتقد ان الحق ابداً يستطيع احد أن يطمسه . . نحن الآن نسمع حقائق نشيب لها . . حقائق حصلت . . في فترات زمنية لا نزال نعيشها ولم يمض عليها ربع قرن . . وقد آن الأوان ان يظهرها الله ، لكي تكون عبرة لكل جبار في الأرض . . ونحن بدورنا نقول : اذا امكنك ان تكمم الأفواه حتى لا تقول كلمة الحق ، فسيأتي الظرف الذي تقال فيه كلمة الحق ، ونسمع فيه كلمة الحق ، وبدون عمل منا . . ولا يستطيع أحد أن يدعي أنها بعمل منه . . أبداً . . هي هابطة من الله . . اذن فالرب الذي يعاملنا هذه المعاملة ، يجب أن نتوجه اليه لأنه رب رؤ وف رحيم .

ابتلاء المؤمن :

وما دام الرب رؤ وف رحيم فإنه لا يقسو القسوة التي تؤذي . . فإذا ما رأيت المؤمنين في ابتلاءات من الله ، فلا تظن ان الله تخلى عنهم . . لا فالحق سبحانه وتعالى ، لا يمكن ان يدخل في حساب الحياة ، الا الناس المحسوبين عليه . . وضربت مثلاً مرة . . أنت دخلت بيتك ، فوجدت بعض الأولاد يلعبون بالورق . . (كوتشينة) ومنهم ابنك ، وابن اخيك ، وابن جارك ، وابن رجل ليست لك به صلة . . بالله . . على ايهم تنفعل . . أول ما تنفعل على ابنك ، لأنه هو من يهمك أن يكون صالحاً مستقيماً . . وربما شتمت ابن اخيك . . وربما لا تلتفت الى الثالث ، اذن فابتلاء الله للمؤمنين غيرة عليهم . . لكي يلتفتوا الى الله . . لكي يقولوا : يا رب . . فإذا قالوا يا رب . . فيكون الله حريصاً على أن يعودوا اليه لانه يفرح بتوبة عبده ، مثل فرح العربي حينما تعود اليه إبله بعد أن ضلت منه . .

الخلاص :

لا خلاص لنا أبداً الا ان نعود الى الله . . ومن يعود الى الله لا يذل ابداً . . انها عبودية تعطي العزة . . لانك عبد لإله واحد . . هذه العبودية تمنعني من أن اذل لكل

قوي في الارض . . اذن انت اعطيت ثمناً بسيطاً جداً . . ذلة لإله واحد ، اعطتك عزة على كل الخلق أجمعين . . عبودية لله . . حينما تأتمر بأمره ، لا تأتمر بأمر أحد مثلك ، تكون رفعاً لقيمتك ، ولم تترك زمامك في يد بشر مثلك يقنن لك ويأمرك بما يريد ، بل أنا وهو مردودون الى حكم ربنا . . وبالتالي فلا ذلة لأحد على أحد . . كلنا سواء بالنسبة لربنا . .

اذن يجب الا نطيل على انفسنا امد التجربة في البعد عن الله . . ومن أراد أن يقصر المسافة ، فليعد من اقرب طريق الى ربه . . واذا كانت الظروف تحتم علينا ان نعيش فترة من الزمن منفلتين عن منهج الله ، فأنا اطلب من كل مؤمن ، ان يأخذ منهج الله ليؤديه فيما ولايته فيه على نفسه ويترك ما ولايته للحاكم ليتحمله . . وهو الذي يقدر ذلك الظرف فإن كان مقدره ظرف ضروري ، فليدافع عن نفسه عند الله . . اما نحن فمسئولون عما ولايتنا فيه على نفوسنا . . كل واحد يستعرض منهج الله ، ولينظر الى الأمر الذي ولايته فيه على نفسه ، فينفذه . . والامر الذي ولايته فيه على أهله فينفذه . . وما بقي من ولاية للحاكم ، بعد أن ينبهه : ايها الحاكم انا اشتقت لمنهج ربي . . اعدني لمنهج ربي . . فإن استمع فيها ونعمت ، وان لم يستمع فعليه وزره .

* * *

الأسئلة التي وُجِّهَتْ
لفضيلة الشيخ
مُحَمَّد متولي الشعراوي

السؤال الأول :

قال أبو هريرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب : لَقد استودعني رسول الله وعاءين . . أما الوعاء الأول : فقد بثثته فيكم ـ ويقصد به الأحاديث النبوية الشريفة الوعاء الثاني : لو نطقت به لقطع الخليفة رقبتي . .

يقول بعض المجتهدين : إن أبا هريرة يقصد بالوعاء الثاني : كشفاً بالغيب

استأمنه عليه رسول الله ، كمقتل عمر بن الخطاب ، والفتنة الكبرى إلخ . .

ويقول فريق آخر : إن أبا هريرة يقصد نوعاً من العفو بالنسبة لأمة محمد يوم القيامة .

فما رأي سيادتكم ؟ . .

الإجابة :

يجب أن نعلم أن رسول الله ﷺ ، حينما تكلم عن آثار معراجه إلى ربه قال عند قوله : ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾[1] . . إن الله سبحانه وتعالى أعطى رسوله ثلاثة أوعية . .

الأول : أمره أن يبينه للناس جميعاً .

الثاني : خيره الله فيه . .

الثالث : نهاه الله عنه . . .

وإذا أردنا أن نفسر ذلك نقول إن الرسول مبلغ عن الله منهجه لخلقه . . أي إفعل ولا تفعل . . فهذا وعاء الناس جميعاً فيه بالنسبة للرسول سواء . . فلم يكتم رسول الله أمراً مأموراً به المكلف ، لأنه إن فعل أثيب وإن لم يفعل يعاقب . . فلا بد أن يبلغ المسلمين جميعاً الدعوة المطلوبة . . إفعل ولا تفعل . .

وأما الوعاء الذي خيره الله فيه : فهو وعاء يتصل بكونيات ، وبعض الأسرار التي يجد الرسول في الأذن المستقبلة له استعداداً صفائياً خاصاً ، بحيث إذا ألقى إليه حقيقة من حقائق الوجود ، لا يستهون هذه الحقيقة ، لأن صفاءه وصفاء نفسه ، يعده إلى تقبلها ، وذلك أمر أن جهله من جهله فلن يضره ، ولكن ، الذي يعلمه من رسول الله يكون الصفاء ، فأحب أن يطلعه على شيء من الأسرار . . هذه الأسرار ليست مطلوبة تكليفياً ولكنها مطلوبة ارتقائياً لصاحبها فقط . . ولئلا يفتن الناس . . فإذا حدّث الناس بسر من أسرار الله في كونه ، وليس لديهم استعداد صفائي أو رياضة روحية تؤهلهم . . ربما شكوا من كلام رسول الله ، ربما كذبوا رسول الله . . فيقول

---

(١) سورة النجم : الآية١٠ .

في المسألة موقفاً ينقض عليهم أصول إيمانهم ، ويترك رسول الله ذلك ، فيحدث بعض صحابته على قدر طاقتهم الصفائية ، في أمر لا يضر من جهله أن يجهله . . لماذا ؟ . . لأن أسرار فيوضات الله على خلقه أسرار تتعلق بتصحيح جهاز الاستقبال تصحيحاً حقيقياً . أسرار الله في كونه كثيرة . . والإنسان المؤمن جهاز استقبال . . ومن قوي إيمانه ويقينه ، وقويت صلته بربه ، استطاع أن يستقبل عن الله بعض الفيوضات . . فلو أنه حدّث واحداً ليست له هذه الصلة وليس له ذلك الصفاء الارتقائي ، ربما كذب في المسألة وفتن في دينه . . إذن فرسول الله كان مخيراً في مثل هذه الأشياء . . وهناك أسرار كمالية عليا ، لم توجد نفس بشرية لتتحمل طاقة الكمال فيها بالنسبة إلى ربها . . فالله قال : أنا قلت ذلك إجلالاً لك ولمكانك ، فلا يحدث فيها أحداً لأنه لا يوجد أحد يتحمل مثل هذه الحقائق الإشراقية العليا .

إذن فأبو هريرة حينما يقول : إن رسول الله حدّثني وعاءين ، أحدهما بثثته ، أي ما يتعلق بالأحكام المطلوبة من جميع المكلفين ، وأما الشيء الذي خير فيه رسول الله فقد اختار أبا هريرة ، لأنه كان ملازماً لرسول الله ، ولم يذهب لأي عمل من أعمال الحياة ، فكان رسول الله يخصه ببعض البشارات . . مثلاً . . منها ما قاله لبعضهم : « **من قال (لا إله إلا الله) دخل الجنة ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر** » . لو شاعت مثل هذه المسألة ، فإن الناس تتكل عليها ، وتقول : « لا إله إلا الله » وتنتهي المسألة عند هذا الحد فلم يقلها أبو هريرة خوفاً من عمر ، لأنكم تعرفون عمر وشدته في تنفيذ أحكام الله . . فإذا قال حديث مثل هذا ويعتقده الناس . . نقول له : لا ، الذي يقول : « لا إله إلا الله » ، لا بد حين يقولها ، يكون جازماً ومؤمناً على أنه سيجند حركته في خدمة هذه الكلمة ، فإذا ما غلبته نفسه في معصية بشرط تكون معصية مسبقة . . يعني لا يصح أن أقول : « لا إله إلا الله » وأعصي وإلا أفسدت قولي : « لا إله إلا الله » إذن لا بد أن يقولها بحق . .

والمسألة في المعصية . . المعصية التي تقع على الإنسان وقوعاً ، ومعنى وقوع بغير أن يرتب لها ، ولا يعمل لها تكتيكاً ، أي يعمل السوء بجهالة : ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة** ﴾ ﴿ **وليست التوبة على الله للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم**

كفار ﴾[1] . . معنى بجهالة يعني بدون سبق أصرار ، أن يعمل عملية سوء ثم وقع عليه السوء . . كلنا ضعيف تطرأ عليه المعصية من غير أن يسبق لها ويرتب لها ، أنا أعصي ثم أقول وما دام من غير ترتيب ، فتكون محل المغفرة . . فإذا حدّثنا أحد وقال : لا إله إلا الله ، ولو كانت ذنوبي مثل زبد البحر ، نقول له : لا بد أن تفهم الكلمة أولاً : « دخل الجنة ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر » . صحيح . . إنما دخل الجنة ابتداء ، ولا بعد ما يتلظى في النار بعض الوقت . . كان يجب أن نفهم هذا . .

وإذا كان أبو هريرة قد كتم شيئاً ، فإنه لم يكتم شيئاً من أصول التشريع المطلوبة عملها من المكلفين ، وإنما ترك بعض الخصوصيات التبشيرية ، أو بعض الأشياء التي تتعلق ببعض أسرار الله في كون الله . . ولقد كان سيدنا عمر المعياً . . عبقرياً . . كان يسأل السؤال وهو يعرف إجابته ، إلا أنه كان يريد أن يسمع الجواب . . قال عمر لأبي هريرة أحاديثك عن رسول الله كثرت . . رويت كثيراً عن النبي . . وربما تحدث نفس أحد المؤمنين بذلك . . أبو هريرة لم يكن له عمل سوى الحديث . . وحينما سأله عمر ذلك السؤال ، كان يريد أن يسمع المسلمين حجة أبو هريرة . . فلماذا كثرت رواياته عن رسول الله . . رد أبو هريرة : إنكم كنتم تخرجون في الأسواق ، وتشتغلون في حياتكم ، وأنا لازمت رسول الله على شبع بطني . أي لازم رسول الله دائماً . . إذن لديه من حصيلة الحديث أكثر من غيره . . واكتفى عمر بتلك الإجابة لأنه كان يقصد أن يسمع تلك الإجابة للمسلمين جميعاً ، حتى لا يتشككوا فيما رواه أبو هريرة .

لكن هل تشكك عمر في أبي هريرة ؟ . . لا . . إنما أراد أن يسمع الناس منطق أبي هريرة في علة كثره رواياته عن رسول الله . . فقال أبو هريرة : إنني لازمت رسول الله على شبع بطني ، وما دمت هكذا فأنا أعلم الكثير . . فكلام رسول الله حديث . . وفعله حديث . . وفعل غيره وسكوته عليه واقراره له حديث ، وقول غيره وسماعه له وإقراره له حديث . . إذن يكون للرسول أحاديث كثيرة لا تحصر . لو نظرنا إلى زعيم مكث خمس سنوات زعيماً ، وأحصينا كلامه لملأ مجلدات ضخمة . . إذن فنحن

---

(١) سورة النساء : الآية ١٧ ، ١٨ .

فاتنا من حديث رسول الله الكثير . . إذن لا يصح أن نتشكك في الموجود منه ، وإلا فإن أبا هريرة رضي الله عنه ، لم يكتم منه شيئاً يتعلق في أمر التكليف ، في افعل ولا تفعل ، وإنما كتم شيئاً عدم علمنا به لا يضرنا . . يعني علم لا ينفع ، لأنه ربما يشككنا إن قال لي شيئاً من أسرار الكون ، وأنا لم أصادفه في نفسي ، فيحدث تشكيك وبلبلة في النفوس والدين .

والأسرار الصفائية هذه مذاقية ، وصاحبها حجة على نفسه . . إذا رأى اشراقيات تبقى حجة له هو . . لكن إذا قالها لي لا تكون حجة عليَّ . . لا . . إذا لم أرها وكذبتها فلا ضير من ذلك . . ولذلك من الخير لأصحاب الصفاء والإشراق ، ألا يحدثوا قوماً ليس عندهم استعداد صفائي أن يستمعوا لمثل هذه الأشياء ، وإلا فأسرار الله في كونه كثيرة . .

السؤال الثاني :

هل نص في شريعة الإسلام على تنظيم لعمل المرأة في المجتمع العام ؟ وما هي الوظائف التي سمح الإسلام لها بالعمل فيها ؟ . .

الإجابة :

سبق أن غطينا هذا السؤال في حلقتين في التليفزيون وصدر أخيراً في كتاب مكانة المرأة في الإسلام . . وينبغي أن نعلم أنه لو اتحدت مهمة الجنسين ، ما كان هناك ضرورة في أن ينقسم الجنسان إلى نوعين : ذكر ، وأنثى . وضربت مثلاً بذلك بآيات كونية موجودة في الوجود ، هي : قضية الزمن . . الزمن هو وعاء الأحداث . . تحدث فيه الأحداث . . وهو قسمين : ليل ونهار . الزمن كجنس : وعاء للأحداث . . وكنوع : فالنهار له مهمة والليل له مهمة . . إن حاولت أن أقول : أسوي مهمة الليل بمهمة النهار . . أو العكس . . أكون قد أفسدت نظام الكون . . لأن الليل خلق لمهمة ، والنهار لمهمة . .

حينما نرى جنساً انقسم إلى نوعين ، خذ خصائص مشتركة في الجنس ، ثم خذ خصائص مختصة بكل نوع ، وحينما أراد الله أن يبرز تلك القضية . . قال :

انظروا إلى قضية في الكون غير مختلف فيها ، وهي حينما مثلاً نسأل علماء النبات ، يقولون : ضوء الشمس له عمله بالنسبة للنبات . . والليل له مهمة بالنسبة للنبات . . النبات بيطلع ثاني أكسيد الكربون المطلوب في الوجود . . إذن الليل له مهمة وجودية حياتية ، والنهار له مهمة وجودية حياتية ، لو أنك حاولت أن تقول : إنما يتعاندان . أقول لك : لا . . هما يتكاملان ، ولا يتعاندان . . وضرب الله المثل حين قال : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة** ﴾ أي حياتنا كلها ليل . . ﴿ **من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون** ﴾ ثم قال في آية أخرى : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون** ﴾[1] إذن لكل منهما مهمة ، ولا يصح أن أكلف نوعاً بمهمة الآخر ، وإلا أخلت قضية الوجود . . فالله بين أن المقدمة المقطوع بها في كونية حياتنا هي وجود الناس ، ثم أتى عليها بقضية الرجل والمرأة . . كيف ؟ قال إنهما مثل الليل والنهار ، هما جنس واحد ، وهو الإنسان ، ولكنهما نوعان : ذكر وأنثى . . إذن لهما كإنسان خصائص مشتركة لا يختلفان فيها . . ولكنهما كنوعين لكل نوع منهما مهمة . . اقرأ قول الله : ﴿ **والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى . . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى** ﴾[2] أي كل واحد له مهمة في الوجود . . إذا حاولت أن تأخذ مهمة الرجل للمرأة أو العكس ، تكون قد أخللت في قضية الوجود ، وإلا ما كان هناك ضرورة لأن يكونا ، نوعين . .

والخصائص المشتركة للجنس . . ربنا قال : الرجل والمرأة من جنس واحد . . من مادة واحدة : ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾[3] وليس كما قالت المذاهب أو الأديان الأخرى : أن الشيطان خلق المرأة أو إله الشر . . والرجل خلقه إله الخير . . لا . . الإسلام قال : إنهما من جنس واحد . . هذا هو التكوين في الأصل . . ثم قال الإسلام بعد ذلك إنهما واحد في المسؤولية . . كإنسان . . المرأة مسؤولة عن

(١) سورة القصص : الآية ٧١ ، ٧٢ .

(٢) سورة الليل : الآية ١ ، ٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ١ .

عملها . . والرجل مسؤول عن عمله ، ثم يوضحها رسول الله فيقول: ﴿ **الرجل راعٍ في رعيته ومسؤول عن رعيته . . والمرأة راعية ومسؤولة عن رعيتها** ﴾ومسؤولين أمام الله . . ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن . .** ﴾[1] وقلنا أيضاً : إن المرأة لها حرية في العقيدة . . تعتقد ما تشاء . . لكن إذا اعتقدت لا بد أن تلتزم . . لها حرية في الدخول في الإيمان أو لا تدخل . . لا تدخل الإيمان تبعاً لزوجها ، أو لأبويها ، والله ضرب مثلاً بامرأة نوح وامرأة لوط . . فنوح ولوط كانا رسولين ، وبالرغم من ذلك لم يستطيعا ادخال زوجتيهما في دينهما: ﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً . . وقيل أدخلا النار مع الداخلين . .** ﴾ ثم جاء في الناحية المقابلة : الإيمان . . ﴿ **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون** ﴾ الذي إدعى الألوهية ما استطاع أن يرغم امرأته أبداً أن تعتقد فيه أنه إله : ﴿ **إذ قالت ربِّ إبني لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** ﴾[2] . . إذن للمرأة حرية في العقيدة .

ولقد أعطى الإسلام للمرأة حقوقاً مدنية كاملة . . ليست في أي دين آخر . . المرأة اليهودية كانت قبل الزواج تابعة الولاية لأبيها ، لا تتصرف في أي شيء . . وبعد الزواج تتبع زوجها ، وجاءت القوانين الوضعية حتى القانون الفرنسي في المادة ٢٠٧ في القرن الثامن عشر ، تنص على أن المرأة وإن اشترطت على الرجل أن تكون لها ذمة مالية مستقلة عنه ، يلغى هذا الشرط .

ولو نظرنا لوجدنا أن الحضارة الغربية تفقد المرأة خواصها . . ما هي الخواص الأولى للإنسان ؟ . . شكله وسمته ، ثم اسمه . . فحينما تتزوج المرأة في أوروبا تنسب الى زوجها ، مدام « فلان » ، ليس من حقها أن تحتفظ حتى باسمها واسم والدها أو أمها . . وعندما جاء المقلدون في مصر في أوائل النهضة الحديثة ووجدوا هذا . . عز عليهن أن ينسى اسمهن ، وقبلوا أن ينسوا اسم أبوها وعائلتها ، ولكن

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٧ .

(١) سورة التحريم : الآية ١٠ ، ١١ .

استمرت تحتفظ باسمها . . هدى شعراوي . . أخذت اسمها هدى ونسبته إلى اسم عائلة زوجها علي باشا شعراوي . . لم يهن عليها أن تترك اسمها . . ولكن في أوروبا وأمريكا تترك اسمها واسم أسرتها ، تتسمى باسم زوجها . . فأي حق وأي مساواة للمرأة بعد أن تسلب اسمها ، ولكن في الإسلام زوجات الرسول وهو أشرف الخلق ، وتتشرف به كل واحدة منهن ، لم يقولوا : مدام محمد بن عبد الله . . لم يقولوا : زوجة محمد . . ولكنهم قالوا عائشة بنت أبي بكر . . حفصة بنت عمر ، زينب بنت جحش . . احتفظن باسمهن واسم آبائهن وأسراتهن . . وبعد ذلك يأتي المفتونون يقولون : نريد أن نكون مثل الغرب . . والغرب لم يعطِ حرية للمرأة في اسمها ولا في مالها . . ولكن الحرية التي أخذتها المرأة كانت بسبب الحرب ، عندما جندوا الذكور للحرب ، فاحتاجوا للمرأة لتحل محلهم في العمل المدني ، فأعطوها بعض الحقوق ، ليحصلوا على إنتاج في عملها . . سقراط مثلاً يقول : إن المرأة ليست معدة إعداداً طبيعياً لكي تفهم شيئاً في العلم . . ولكنها معدة للمطبخ وتربية الأولاد . . أفلاطون . . جاء ليعطيها قسطاً من التعليم فقامت عليه الدنيا ، وقام الفيلسوف الساخر أريستوفان بتأليف رواية اسمها : النساء المتحذلقات . . وتندر فيها على المرأة التي نالت قسطاً من التعليم . . جاء بعده موليير الفرنسي وألف رواية اسمها : برلمان النساء أيضاً . .

ولكن الإسلام لم يقف منها ذلك الموقف ، بل قال الرسول : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » إذن نحن فرضنا التعليم للمرأة . . حينما تزوج الرسول من حفصة بنت عمر رضي الله عنه ، وكان عمر قد جاء لها بامرأة من بني عدي ، تعلمها القراءة والكتابة ، وبعد ما تعلمت وتزوجها رسول الله ، طلب الرسول من عمر أن يستمر مجيء العدوية إلى بيته ، لتعلم حفصة بقية العلم ، قال عمر : لقد تعلمت . . فقال رسول الله : « **لتجوده ولتحسنه . . ولتحسنه** » فلتتعلم المرأة . . ولكن تتعلم التعليم النوعي . . إذا كنا نحن نقسم الرجال منذ بدء التعليم الإعدادي الى تعليم نوعي مثل : صناعة . زراعة . تجارة فني . الخ . . إذن وجب تعليم المرأة تعليماً نوعياً يناسب المهمة التي ستؤهل لها .

إن المرأة يجب أن تشكر نعمة الله عليها ، لأن الرجل يتعامل مع الأجناس الدنيا

من الوجود . فإنه إما زارعاً يتعامل مع التربة والمواشي والحيوانات . . وإما صانعا يتعامل مع المادة الصماء . . ولكنَ المرأة تتعامل مع أشرف شيء في الوجود وهو الإنسان . . المرأة التي لا تريد الاقتناع بهذه المهمة تكون امرأة فاشلة . . فالمرأة التي تريد أن تؤدي مهمتها كربة بيت وزوجة . . وأم . . ومربية . . إلخ . لا تجد من الوقت ما يسمح لها أن تعمل . . فلتتعلم وتغنينا عن مدرس خصوصي ، أو تتعلم حياكة الملابس لأولادها وتطريزها . . فلو نظرت إليها في نشاطاتها في الحياة ، لوفرت على البيت أضعاف ما تأخذ من راتب ، وتوفر علينا تكاليف زينتها ومتطلباتها في الحياة . . ثم ننظر بعد ذلك إلى الواقع . . هل المرأة في سلم العمل كلما ارتقت تمنت مزيداً من عمل ، أو كلما ارتقت وتقدم بها السن تمنت لو أنها ربة بيت . . حتى النساء الغربيات . . مارلين مونرو . . قالت : إياكن أن تخدعن بالأضواء التي تسلط عليكن ، وأنا لو استأنفت حياتي كنت أفضل أن أكون ربة بيت فقط . .

وعندما عملوا الاحصائية بين السيدات والبنات . . ما هي نسبة السيدات اللاتي طلبن أن يعدن الى بيوتهن كربات بيوت . . ؟ إذن المسألة أن هناك في الغرب شيء غير عندنا . . لا نحكم بشيء من هناك لنسيره على حياتنا . . لأن الرجل في الغرب بمجرد أن يكبر ابنه يتركه يضرب في الحياة . . بمجرد البنت ما تكبر يقول لها شوفي لك شغلة بقى . . لكن ليس عندنا مثل ذلك . . إذن فنحن ليس لدينا من الضرورات التي تجعل المرأة تتشابك في حياتها مع المجتمع لكي تعيش . . وعندما اخترع الغرب عيد الأم . . فقلدناهم في ذلك تقليداً أعمى . . ولم نفكر في الأسباب التي جعلت الغرب يبتكر عيداً للأم . . فالمفكرون الأوروبيون وجدوا أن الأبناء ينسون أمهاتهم لا يؤدون الرعاية الكاملة لهن . . فأرادوا أن يجعلوا يوماً في السنة ليذكروا الأبناء بأمهاتهم . . ولكن عندنا عيداً للأم في كل لحظة من لحظاتها في بيتها . . فالإنسان منا ساعة خروجه من البيت يقبل يد أمه ، ويطلب دعواتها ، يزورها بالهدايا دائماً . . إذن ليس هناك ضرورة لهذا العيد عندنا . . ولكننا أخذنا ذلك على أنه منقبة من مناقب الغرب في حين أنه مثلبة . . في أوروبا يترك الولد أمه تعيش في ملجأ ، وأبوه يعيش في مكان لا يدري عنه شيئاً ، وليس في حياتنا مثل ذلك . . فالإسلام أعطانا تكاتفاً ، وعلى قدر حاجة الأبوين رتب الإسلام الحقوق : « . . أمك . . ثم

أمك . . أمك . . ثم أبوك . . » لأن أباك رجل ، حتى لو تعرض للسؤال فلا حرج . . إنما الأم لا . .

وعندما نستعرض القضية القرآنية في هذا الخصوص ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً** ﴾ . طيب هو بيوصي بالوالدين . . ولكن إذا نظرت للآية القرآنية ، تجد أن الحيثيات في الآية للأم كلها . . وفي البداية أتى بحيثية مشتركة بين الأم والأب ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً** . . ﴾ ثم قال : ﴿ **حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً . . وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾[1] يعني لم يذكر سيرة الأب . . ما السبب . . ؟ لأن عملية الأم مع الإنسان قبل أن يعقل . . وهذه نقطة يجب أن نتنبه إليها ، الإنسان لم يرَ أمه وهي تحمله في بطنها . . لم ير أمه وهي تتعب في تربيته وهو صغير . . ولكنه عندما رأى أن أباه هو الذي يرعى الأسرة إذا طلب بدلة أمه تقول له : أبوك . . أبوك . . إذا طلب أكلة حلوة . . أمه تقول له : أبوك . . إذن فالأمور منسوبة للأب كلها . . فأراد الله أن يؤكد على الأم في الحيثيات . . إذن الأم أخذت حقها في الإسلام . .

والإسلام واقع فإذا ما حدث ظروف أدت إلى أن تعمل المرأة ، فالكلام في عملها يختلف . . عمل المرأة في مهمة زوجها وفي بيته ، وفي حقله ، ورعاية أولادها ، وزوجها ، مثل أسماء بنت أبي بكر كانت تقول : أنا كنت أحمل لابن الزبير الطعام على مسافة كذا فرسخ ، وكنت أسقي له الحصان ، وأعلفه ، وأملأ له الماء بالقربة . . تعمل في بيتها . . إذن هناك فرق أن تعمل في مجتمع ليست به صلة . . وعمل في مجتمع آخر . . اعملي في المجتمع مثلما تريدين . . نحن نرى المرأة الريفية تمتزج مع زوجها في حقله . . وهناك نساء مكلفات بعمل خاص . . لكن المشكلة العمل الذي يجعلها تخرج إلى أن تزدحم بالرجال . . أن تعمل مع زوجها أو ابنها أو أخوها أو أحد محارمها . . فلا مانع . . أما بالنسبة للعمل الذي يخرجها تلتحم بالرجال ، فالإسلام في ذلك واقعي . . فيقول : قد تجد المرأة ضرورة الى أن

---

(١) سورة الاحقاف : الآية ١٥ .

تعمل . . هذه الضرورة هي أمر طارىء على طبيعة المرأة . . فنحن في ذلك نوافق . . ولكن الضرورة تقدر بقدرها ، وتفهم أنها ضرورة ولا تنسى أنها أنثى . . وتمشي في المجتمع بحساب وتزاول عملها بقدر ما استطاع ، ألا تحتك بالغير . . وهناك قصة في القرآن لكي لا يجادلنا أحد قصة بنات شعيب . . خرج سيدنا موسى من مصر خائفاً يترقب ، وورد ماء مدين ، يعني ذهب عند العين التي يشربون منها : ﴿ **وجد عليه أمة من الناس يسقون** ﴾ يعني حشد طالعين لكي يسقوا من العين . . كلام معقول . . ﴿ **ووجد من دونهم** ﴾ أي بعيداً عنهم ﴿ **امرأتين تذودان** ﴾ يعني تمنع الماشية من أن تشرب من العين . . إذن لماذا خرجتا . . ؟ ﴿ **قال ما خطبكما** ﴾ يعني ما هي حكايتكم ؟ ﴿ **قالتا له : لا نسقي حتى يصدر الرعاء** ﴾ يعني بعد الرعاء الذكور ما ينتهوا من مهمتهم نبدأ نحن بالسقاية لماشيتنا . . إذن هنا الضرورة . . وأخذتا الضرورة بقدرها ولم تلتحما بالرجال . . بل قالتا : ﴿ **لا نسقي حتى يصدر الرعاء** ﴾ ثم ذكرتا السبب قالتا : ﴿ **وأبونا شيخ كبير** ﴾[(1)] . . ضرورة وإيجاب للضرورة . . إذن أبونا شيخ كبير هي السبب في خروجهما . . ﴿ **لا نسقي حتى يصدر الرعاء** ﴾ . . الضرورة على قدرها ولم نخرج لنلبس زيهم ونمشي مثلهم . . ثم تمثلت مهمة المجتمع في موسى المعد لأن يكون نبياً ورسولاً . . مثل عنصر الشهامة في المجتمع كله : ﴿ **فسقى لهما** ﴾ إذن مهمة المجتمع القريب ، أو البعيد حينما يرى المرأة تعرضت لظروف لأن تخرج لغير ميدانها ، أن يعرف مهمتها وينهي لها مهمتها لكي ترجع . . هذه هي مهمة المجتمع . . وعلى المرأة أن تبادر بخلع هذا الظرف الضروري إذن وجدت فرصة بدليل أنها قالت لأبيها : ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين** ﴾[(1)] فلو انبسطت من حكاية خروجها كانت لا تطلب من أبيها أن يستأجره لكي يتولى عنها مهمة خروجها . . كرهت أن تخرج لغير الضرورة . . فبمجرد أن وجدت فرصة لإزالة تلك الضرورة : ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين** ﴾ وعندما ذهبت لتحادث موسى : ﴿ **فجاءته إحداهما تمشي**

---

(1) سورة القصص : الآية ٢٤ .

(1) سورة القصص : الآية ٢٦ .

على استحياء ﴾[1] مش ماشية على أنها رجل . . لا . . ماشية على أنها أنثى . . إذن فالإسلام قدر ضرورة العمل وقال : إن هناك ضرورة . . وقدر ضرورة ، وهناك واجب المجتمع ، وهناك واجب المرأة نفسها ، وإنها إذا وجدت فرصة ، سانحة لأن تنعكف في بيتها ، وعملها قاصراً على ميدان زوجها ، وميدان أولادها يكون هذا هو الحق . . فإذا كانت ضرورة فهذه شروطها :

أ ـ ضرورة .

ب ـ أخذ الضرورة على قدرها .

جـ ـ مهمة المجتمع القريب أو البعيد أن يتولى عنها عملها .

د ـ أن تزيح هذه الضرورة عند أول فرصة تسنح لها .

هـ ـ ألا تنسى أنها أنثى وهي تعمل ، وهي تمشي .

فإذا خرجت المرأة للعمل لضرورة . . فالناس يختلفون في تقدير هذه الضرورة . . فهناك فرق بين ضرورة الحياة ، وبين ترف الحياة . . ضرورة الحياة : هي القوت الضروري ولكن ترف الحياة هي أن يقول الإنسان . . أنا مش قادر أتزوج . . مش قادر يسكن في شقة ٤ غرف . . مش قادر يؤثث البيت ويحضر البوتاجاز ولا الثلاجة ، يريدون أن يبدأوا حياتهم بما لم تنته به حياة آبائهم . . لا . . الذي يريد أن يرفه مستوى حياته ، فعليه أن يرفه مستوى حركته في الحياة . . قبل أن تحدد مستوى حياتك ، لا بد أن تحدد مستوى عملك . . إذا لم يكفيك دخلك ، حاول جاهداً أن تنمي حركتك في الحياة ليزداد دخلك . . فلا يصح أن تخطب أو ترتبط بإنسانة . وأنت لست مستعداً لذلك ، بحجة أن الحياة مشاركة ، أو الحياة كفاح . . وربما يحدث خلاف في أول الشهر بسبب راتب الرجل ، وراتب المرأة . . وبعد ذلك يشرب دخان بنصف مرتبه ، ويقعد على المقهى بالنصف الآخر ما هذه الحكاية ؟ يريدون أن يعيشوا في مستويات نهائية للحياة . . لا يريدون أن يعيشوا في المستويات الطبيعية . . ولقد فقد المجتمع توازنه حينما لم يعرف الإنسان قدر نفسه . . ولقد ضربت مثلاً ذات مرة . . أنا موظف بخمسين جنيه . . وزميلي موظف

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٥ .

بنفس المرتب . . ولكن ظروفي أن أهلي فقراء وأعطيهم خمسة عشر جنيهاً شهرياً ، إذن فمرتبي انخفض خمسة عشر جنيهاً ، وزميلي والده غني يعطيه كل شهر ، السمن والسكر ، وأشياء تساوي خمسة عشر جنيهاً ، فيكون مرتبه زاد إلى خمسة وستين جنيهاً ، فإذا جعلت مستوى حياتي مثل مستوى حياة زميلي ، فلا بد أن أسرق أو أرتشي . . ولكن يجب حينما يشتري هو بدلة بثلاثة جنيهات ، أن أشتريها أنا بجنيه ونصف ، وإلا فسأضطر لأن أسرق ، أو أرتشي ، أو أغش . .

إذن عدم معرفة الناس لأقدارهم هو الذي أتعب المجتمع . . فلو احترم كل إنسان قدر الله فيه ، فسيرضيه الله فيما يعطيه . . ولو نظرتم في الحياة لوجدتم أن الذين قد سلكوا في الحياة بدون كبرياء على عمل ، هم الذين نجحوا . . ولكن الناس تريد عملاً خاصاً . . تريد العمل على مكتب لكي يظل في خروجه ودخوله نظيفاً . . هل ضنت الحياة على من يريد أن يعيش فيها بأي عمل ؟ لا . . ولكن الحياة ضنت على من يريد أن يعيش من عمل خاص . . وفي الحياة متسع . . ولو قارنا بين الطبقة التي ألفت أن تعيش في مستوى النعمة ومستوى الراحة ، وبين الطبقة التي عاشت في المستويات الأخرى ، نجد أن الطبقة الثانية هي التي أخذت الثروة ويعيشون في بحبوحة ، لأنهم يعملون في ميادين حرة ، ويقيمون حركة حياتهم كما يحبون . . ولكن الموظف لا يستطيع أن يقيم حركة حياته . . إذا احضرت سباكاً ليصنع لك جلدة حنفية أيام كانت رخيصة كان يأخذ منك قرش صاغ . . وحينما زاد مستوى الحياة أخذ قرشين . . ولما زاد مستوى الحياة مرة أخرى أخذ أربعة قروش . . إذن فهو يقيم حياته ولا يتعب ، ولكن الذي يتعب في الحياة هو الذي تقيم حياته بيد غيره . . الموظفين . . مربوطين بكادر وميزانية . . ولكنك تجدها عدالة من الله لماذا لأنه ليس هناك موظف . . اللهم إلا من عصم الله . . يعطي للدولة في حقها العام ما كان يعطيه لنفسه إذا عمل عملاً حراً . . ولكن الرجل الذي يقيم حياته ، فيكافح ولا يهمه أن يعمل أي عمل شريف ، لأن الإسلام لا ينوع الأعمال ، ولا يفرق بين عمل وعمل . . وكل حركة في الحياة سواء كانت فكرية أو غير فكرية عمل شريف ، في الإسلام . . الخلافة نفسها اعتبرها أبو بكر رضي الله عنه حرفة . . كلمة حرفة عندنا يعني جزماتي أو سمكري . . خليفة المسلمين قال : « **وأنا أحترف في ذلك الأمر**

للمسلمين واخذ ما يكفيني » رسول الله يسمي كل والٍ يوليه : (عامل من العمال) . . كل إنسان يتولى حركة في الحياة يسميه الرسول عاملاً . . إذن فالإسلام ليس عنده عمل شريف ، وعمل وضيع . . هذه نظرية بشرية . إن هذا يمسح أحذية . . وذاك يسلك مجاري . . يا أخي بتاع المجاري لو المجاري تعطلت تفسد الحياة ، ولكنك لو تعطلت عدة شهور فلن تفسد الحياة ولن تعطل . . إذن فليس هناك فرق بين عمل وعمل . . إنما قيمة كل امرىء بما يحسنه . . ذلك هو العمل في الحياة .

وإذا نظرت إلى أي رقعة سكانية ترى أن الذي لم يستنكف الأعمال ، وبدأ حياته يكافح بجلباب ممزق ، تجده بعد بضع سنوات تشير الناس إلى عمارته . . دي بتاعة فلان اللي ما يستهلش ، ولكونه لا يستاهلها أخذها . . هل أنت عايز تستاهل ، ويبقى عندك عمارة أيضاً ؟ ! وما دمت أنت تقيم نفسك وبقيت تستاهل ، خليك تستاهل على طول كده ، إذن لا بد للإنسان أن يرفع مستوى حياته ، أن يرفع مستوى حركته في الحياة .

والمرأة لا تنخدع بهذه المسألة لأن المجتمع الغشاش ، أو النسائيين الذين ينفخون في المرأة لكي يطلعوها ، يقصدون طعن الإسلام . . الحرية الوحيدة التي يخزون بها المسلمين الآن هي أن تخرج المرأة .

ولنفرض أن المرأة خرجت للعمل أو للتعلم . . ما علاقة الخروج للعمل أو للتعليم بكشف صدورهن وسيقانهن ؟ ما الذي يدعو أن تداري سيقانها وهي جالسة في الأوتوبيس أو الترام ؟ . . الغشاشين يريدون غش المرأة ويريدون أن يمهدوا لها الوسائل للانحراف ، لأن تلك هي الحرية التي وجهها خصوم الإسلام للمسلمين . . لأن الشباب الذي نراه اليوم في الشارع لا ينقصه التهاب غرائز . . يكفيه ما في ذاته من سعار الغريزة . . فهل ترين ذلك المراهق الذي بطبيعته ممتلئاً بالسعار الغريزي الطبيعي وتزيديه التهاباً لغرائزه ؟ يا ناس حرام عليكم . . كان المفروض أن أحجب عنه كل ما يهيج غرائزه ، لأن ما لديه يكفيه . .

فيجب أن ننتبه ، أن هذه مسألة تشغل المرأة عن مهمتها وواجباتها لتفسد في المجتمع ، وعندما تريد المرأة أن تفسد بإغرائها وفتنتها وزينتها وبهرجتها ستفسد

من ؟ إما إنسان متزوج غلبان ، أو زوج مضى على زواجه ثلاثين سنة . . والحمل والولادة جعد وجه زوجته . . فإذا رأى فتاة في الأربعة عشر من عمرها . . تتمخطر في طريقه . . ثم يذهب لبيته فيرى زوجته بتجاعيد السنين على وجهها فستحدث مقارنة عاطفية . . مقارنة نفسية . . فتضطرب أعصابه ويختلق الأسباب للعراك في البيت . . الطبيخ النهاردة حادق . . لا البيت قذر . . الخ . هو يريد أن يغضبها أو يبحث لها عن أي مثوى . .

وبعد ذلك الشباب الذي لا يزال يتعلم ، أو ليكون حياته وهو غير قادر على الزواج ، أو آباؤه يشقون لتعليمه يجد السياط تلهبه في الشوارع فماذا يصنع ؟ إذن المرأة ستغري بالفساد : إما متزوجاً ، أو إنساناً في بدء حياته يكون نفسه ليتزوج .

ولقد قلت مرة إن المرأة حينما حجبها الله فإنه يؤمن حياتها . . لأن المرأة عمر نضارتها : من عشر سنوات إلى خمسة عشر سنة ، وبعد ذلك ستقل حفاوة المجتمع بها ، فإذا ما دخلت لشراء أي شيء ، فإن البائع الذي كان يطيل معها الحديث أيام نضارتها ، فإنه سيهملها بعد ما ذهبت النضارة . . وبذلك لم يعد المجتمع يكرمها . . لماذا ؟ لأن أنوثتها ذهبت . . هنا يقول الله لها أنا أريد أن أربطك ، وأنت في نضارتك بحياة شريفة طاهرة . . وكلما كبرت في السن تزداد قيمتك في وسط هذه الحياة . . ابنك ساعة ما يشوفك وأنت تمشين شايبة ومجعدة ، يا سلام يقعد ويقبلك ويتغزل في بياض شعرك . . المجتمع بعد أن زهد فيك كلما كبرت كلما ازددت إعزازاً . . نحن نريدك أن تجلسي لا تفعلي شيئاً إلا الصلاة وتدعي لنا . . إذن الله سبحانه وتعالى أراد أن تستغل فترة نضارتها ، وتجعلها تتعلق برجل في تلك الفترة لتتولد علاقات سامية وشريفة تربطها بالأسرة لم يعد لمقاييس الجمال اعتباراً . . ولكن ظلت مقاييس الأمانة والوفاء والذوق باقية . .

اذن حينما يريد الله أن يمنع المرأة من خروجها في الشوارع لاثارة الغرائز في الناس ، فلكي يؤمن شيخوختها وحتى لا يرزقها الله ببنت في سن النضوج لتفسد عليها زوجها وابنها وهي في سن الشيخوخة .

ولقد قلنا أن النمو مثل النقص . . وهما ظاهرتان متقابلتان . . وهما لا يأتيان بشكل يحسه البشر . . مثلاً لو لديك ولد مولود ، ومكثت تنظر اليه عشر سنوات فلن

تحس بكبره في عينيك أبداً لأن نموه موزع على الزمن . . ليس لديك المقياس الذي يجعلك ترى نموه دقيقة بعد دقيقة . . ولكن حينما تغيب عنه فترة طويلة من الزمن ، فستحس بفارق نموه ، لأن نموه في تلك الفترة تجمع يوماً بعد يوم . . وحينما تأخذ المرأة بتلك المقاييس يوم الصباحية لم تتغير عن ليلة الدخلة . . ثم يوم بعد يوم يظل الزوج يتدحرج في شكل زوجته . . الذي يتعبه أن تغيب عنه فترة طويلة ، فحينما يراها يحس بالفارق ، وتحدث له المفاجأة . . ولكن لو استمرت الحياة يوماً بعد يوم ، فستنمو مع الأيام شيئاً من القيم ولا يجد فارقاً في نضارتها وجمالها .

ولنقرب ذلك الى الذهن . . أنت تدهن الشقة فتصبح جديدة . . وتدخل شقتك كل يوم مرتاحاً الى طلائها . . ولكن لو جاء شخص بعد عشر سنوات ودخل شقتك فسيلاحظ أن طلاءها أصبح قديماً ، ويحتاج لتجديده . . أنت تعيش فيها لم تحس باندثار الطلاء ، ولكن اذا بعدت عنها ستحس بذلك .

اذن فالمسائل لا بد لها أن تنمو في جو شريف وطاهر وموثوق به . . فالمشردون وغير المشردين ثقوا تمام الثقة أن ذلك ناشىء كله من شك كثير من الآباء في نسب أبنائهم اليهم . . لو تأكد كل أب من نسب ابنه اليه ، ما استهان به لأن عاطفة الأبوة صادقة وأكيدة .

وحينما نرى أن بالمجتمع عورة من هذه الناحية ، فسنجد أن هناك منهجاً من مناهج الله في الحياة معطلاً .

قد يكون في هذا الكلام قسوة على المرأة ، ولكنها قسوة من أجلها ، الذي يريدها أن تخرج لتكدح مثل الرجل فلنسأله هل سويت نفسك أنت بها . . ؟ لماذا تريد أن تجعلها تعمل عملك ، بالرغم من وجود أعمال كثيرة لا تقدر هي على القيام بها . . وما دمت تريدها أن تعمل عملك ، فأنا أريدك أن تعمل عملها . . أريدك أن تحمل عنها هذه المرة . . أريدك أن ترضع بدلاً عنها . . اذن لماذا تريدها في مهمتك ؟ . .

اذن فلنترك المرأة في نوعها ، ولندع أمر عملها للضرورة ، وهذه الضرورة تحكمها بقدرها . . ويجب عليكم أن ترفعوا مستوى حياتكم اذا أردتم أن تعيشوا حياة رغدة . . فالذي يريد حياة هانئة عليه أن يدفع ثمنها . . وثمنها هو الحركة في

الحياة ، فاذا أردت أن تأخذ ثمرة بدون حركة في الحياة فهذا هو الفساد بعينه .

السؤال الثالث :

ما حكم السرحان بدون قصد أثناء الصلاة ؟

الإجابة :

هذا السؤال تعرضنا له كثيراً وخصوصاً من الشادين وبداية المرتاضين في العبادة :

مسألة السرحان ظاهرة . . الا أن هذه الظاهرة لا تقف عند حدها كظاهرة ، بل يأتي عمل اختياري فيها للانسان . . ما هو السرحان ؟ . . انك أثناء الصلاة يأتي الشيطان ليأخذك لخاطر من الخواطر . . عيبك حينئذ أنك لا تنته الى أنك أخذت الى خاطر غير ما أنت فيه . . الشيطان يعطيك الخيط ثم تبدأ أنت تجر بفكرك وتعيش فيه . . اذن فالذي ستآخذ عليه ليس الخاطر الذي يمر بك ، ولكن استطراد ذلك الخاطر ، وحينما حدث الجدل بين الله وابليس ، وامتنع ابليس عن السجود لآدم ، هل قال ابليس لله : أنه سيقعد لعباده على الطريق المعوج ؟ . . لا . . قال : سأقعد لعبادك على الطريق المستقيم ، لأن الذي في الطريق المعوج لا يحتاج الى الشيطان . . الشيطان لا يقعد عند الخمارة . . انما يقعد عند باب المسجد ، الشيطان لا يقعد ناصحاً عندما قال :﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم**﴾(١) لكي أفسده . . لأن الذي عمله فاسد بطبيعته كافي الشيطان ذلك . .

ولحظة الصلاة هي أقرب ما يكون العبد لله . . والشيطان يريد أن يفسد هذه الخلوة بين العبد وربه . . فيأتي لك بخاطر . . والعقدة التي لم تكن تعرف حلها قبل الصلاة وينبش لك فيها . . خيبة الانسان في تلك اللحظة أن يظل ينقاد للشيطان ويبحث في تلك العقدة ، ويظل يرتب فيها . . فلو أن المؤمن حين مسه الطائف ـ كلمة طائف تعني أن الشيطان لا يسكن معك دائماً ﴿ **أن الذين اتقوا اذا مسهم طائف**

(١) سورة الأعراف : الآية ١٦ .

من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾[1] ـ قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . وما دام قال الله لي : ﴿ **وأما ينزعك من الشيطان نزع فاستعذ بالله** ﴾[2] فقطعاً استعاذتك بالله ستمنعه عنك . . لأنه لا يقدر على الشيطان الا خالقه . . لكن لنفرض أنني لا أقاومه هكذا فما هي النتيجة . . ؟ سيأتي ابليس يوم القيامة على من اتبعه بالحجة . . ويقول: والله أنتم خائبين يا عصاة . . لماذا . . ؟ هل كان لي عليكم سلطان . . ؟ ﴿ **الا أن دعوتكم فاستجبتم لي**﴾ لقد كنتم على اشارة مني . . فلم يكن لي سلطان حجة اقنعكم . . ولو جئت لتجادلني على المعصية لا أجد حجة أقولها لك . . هذا هو سلطان الحجة . . ولم تكن لدي قوة ارغمك بها على فعل شيء لكي أكون سلطان اكراه . . اذن فلا عندك سلطان اكراه .. ولا عندي سلطان حجة . . اذن : ﴿ **وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي . . فلا تلوموني ولوموا أنفسكم**﴾[3] .

وتحضرني قصة لأبي حنيفة رضوان الله عليه ، وكان مشهوراً بأنه فتّاء . . ويقصده كل صاحب مشكلة . .

ذهب اليه شخص وقال له : يا امام . . لقد كان لدي مال وخبأته في باطن الأرض ثم نسيت مكانه . . فأين أجده ؟ قال أبو حنيفة له : ليس لي في ذلك علم . . ولكني أحتال لك . . اذا جئت بالليل بعد صلاة العشاء قم فتهجد لله طول الليل وفي صلاة الفجر جاء الرجل لأبي حنيفة ، وقال له : يا امام لقد وجدت المال ، قال أبو حنيفة له : كيف ؟ قال الرجل : لقد نفذت نصيحتك ، وأثناء صلاتي في الليل تذكرت مكان المال . . فقال أبو حنيفة . . والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تتم ليلتك مع ربك ، وسيأتي بخاطر يحدثك بموضع المال وستنقاد طوعاً للشيطان ، لتصل لمكان المال . . فهلا اتممتها شكراً ؟ . . يعني افتكرت بالصلاة موضع المال ، طيب خليك برضه في الصلاة التي كانت سبباً في تذكرك مكان المال ، انما

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٠١ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٠٠ .
(٣) سورة ابراهيم : الآية ٢٢ .

الرجل راح قاطع الصلاة بمجرد ما تذكر مكان المال . .

اذن فمسألة السرحان ليس فيها ما يفسد الصلاة . . ولكن استمرار التفكير في الخاطر بعقلك ، وترتيب الاشياء عليه ، هذا هو ما يفسد الصلاة .

السؤال الرابع :

هل القيود التي توضع في الحج كالقرعة مثلاً تعفي من حج الفريضة اذ لم يصيبها الانسان ؟ .

الاجابة :

لقد قلنا : ان هذا هو الفرض المشروع بالاستطاعة . . يسقط عنك الحج . . بشرط ان تأتي لولي الامر كل سنة وتقول له : « انك لن تؤدي الفريضة وتريد تأديتها » فمجرد تقديمك الطلب ان وافقك عليه أو لم يوافقك ، تكون قد حجيت هذه السنة . . واذا كان ولي الأمر صاد عن سبيل الله بدون حجة فليحاجج ربنا فيها . . فاذا وضع ولي الأمر قيوداً على الحج مثل عدم استطاعة تدبير نقود للحجاج كلهم أو مواصلات ، فعليه أن يدافع عن نفسه امام الله . فاذا وافقك اهلاً وسهلاً . . وان لم يوافقك تكون ما دخلتش في استطاعتك . . أي خرجت مما ولايتك فيه على نفسك الى ما للولاية فيه للحاكم . . فعليه أن يحملها على قرنه .

السؤال الخامس :

ما معنى جرائم التعازير في الشريعة الاسلامية . . هل كلمة تعازير هنا تفي بمعناها ؟ .

الاجابة :

حين يشرع الله عقوبة نقول : ان غير المؤمنين بالله شرعوا عقوبة أيضاً . . أصحاب الديانات الوضعية شرعوا عقوبات . . لأنهم عرفوا ان هناك جرائم لا بد من الضرب على يد من يكسر قانونها . . ونحن لدينا نص في القانون يقول : لا عقوبة الا

بتجريم . . ولا تجريم الا بنص . . لا يستطيع أحد أن يجرم عملاً ، الا اذا قال أولاً : ان ذلك العمل جريمة . . اذن لا يمكن أن تجرم أحداً الا بنص ، ولا يعاقب بارتكاب جريمة .

تشريع الله للعقوبات لا بد ان ينشأ عن تجريم يحدد انواع الجرائم ، فالذي يثبت فيه حكم الله اما ان يكون حداً ، واما ان يكون قصاصاً . . الحدود مملوكة لله ، لا يستطيع أحد أن يعفي عنه . . القصاص الذي جعلناه للنفس البشرية التي اعتدى عليها بالقتل : ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطاناً** ﴾[1] اذا عفا (كتر خيره) .

اذن العقوبات اما جرائم واما قصاص . . القصاص . . ولي الامر صاحب القصاص ممكن ان يبتّ فيه : ﴿**فمن عفى له من أخيه شيء**﴾[2] العقوبة لله لا يستطيع أحد أن يتنازل عنها . . فإذا وصلت الى جريمة ولم تستكف الحد ، يعني أنا عندي السرقة بنصاب . . ونصاب محدد . . ولا تكون لي فيه شبهة . . اذا سرق ولم يستوف الشروط ، أقول لك : هناك فرق بين ان يقطع في حد السرقة ، وبين ان يعاقب عقوبة يراها الوالي رادعة لمثله . . والا فهناك من يسرق من الناس ما دون حد السرقة ما دون النصاب . . ما يسرقش الا اقل من خمسة وعشرون قرشاً ، اذن التعزير حق للوالي حينما يجد حالات هذا الشكل ، فيفرض عقوبة لا تصل الى الحد المقرر في هذه المسألة . .

اذن التعزير عقوبة يقدرها ولي الأمر لمن لم يستوف شروط الحد في الجريمة ، والعقوبة في الجريمة . . يصح ان هناك من أخطأ ، ويكفي توبيخه . . أو قطيعته . . أو تنهره . . أو تضربه بسوط . . وهذا يختلف باختلاف المعزر . . واختلاف المعزر لأن قيمة تأديته يختلف باختلاف الناس . . فهناك من تؤدبه بسوط . . وهناك من تؤدبه بقلم . . وهناك من تؤدبه بسباب .

اذن التعزير معناه : عقوبة يقدرها ولي الأمر في أمر لم يبلغ فيه حق حدود الحد .

---

(١) سورة الاسراء : الآية ٣٣ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٧٨ .

السؤال السادس :

اذا كانت العصمة قد وهبت للرسل فكيف عصى آدم ربه ؟

الاجابة :

لقد تكلمنا في هذه المسألة طويلاً . . لقد أردنا ان نخرج العلماء من خلاف لجوا فيه كثيراً واختلفت فيه الآراء . . ودعونا الله ان يوضح منهج الحق في هذه المسألة . . صحيح أن النبي معصوم . . ولكن الله قال ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ . . الذين اختلفوا في تفسيرها لم ينظروا الى عطاءات النص القرآني ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى . . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾[1] . . اجتباه معناه اصطفاه للتوبة بعد المعصية فكأن آدم لأنه أبو البشر تمثل فيه طوران : الطور الاول . . ما دام أبو البشر . . والبشر ينقسمون قسمين رسل وغير رسل . . الرسل معصومون وغير الرسل ليسوا معصومين ، وما دام آدم اب للاثنين ، فلا بد ان يتمثل فيه طورين . . طور للمعصوم ، وطور لغير المعصوم .

جاءت الفترة الاولى . . فترة التدريب في الجنة . . فحينما اريد تكوين فريق الاعب به فريقاً في الخارج ، هل يكفي ان اعطي لفريقي علم الكرة نظرياً ؟ . . وأقول لهم لاعبوا انجلترا . . أم آخذهم وأدربهم التدريب على العملية دي اللي بيخطىء أعاقبه أم أوجهه ؟ . . هكذا آدم . . أعطى الله له منهجاً لكي يكون خليفة له ، وقال له : لن أدعك تنزل الارض بمنهج نظري لتباشر مهمتك في الكون ، ولكني سأعمل لك فترة تدريب . . اقعد هنا . . الذي تعمل له فترة تدريب تتكفل بأكله ، وشربه ، ونفقاته ، وتقول له : تدرب . . وحينما يخطىء توجهه . . حتى يستقيم له الأمر . . ثم تخرجه ليزاول المهمة الملقاة عليه في الحياة على ضوء التجربة . . الجنة التي تسمعونها ليست جنة الجزاء . . هذه الجنة مكان فيه اسباب الحياة . . يا آدم انا جاعلك خليفة ، ومعطيك كذا وكذا . . هذا هو التوجيه . . عصيت اذن خذ مني هذه الكلمات وارجع الي وأنا أغفر لك . . اخذت المنهج . .

---

(١) سورة طه : الآية ١٢١ ، ١٢٢ .

قم باشر مهمتك في الحياة على هذا النمط . . ثم أعطاه الله العصمة بعد ذلك ، لأنه سيكون قدوة لابنائه لأن الله يعطي العصمة للرسول ، لكي يكون قدوة صالحة واسوة مثالية لمن يتبعه . . لكن آدم لم يكن له ذرية وقت التجربة . . يبقى . . **﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾** . . هي اصطفاءات العصمة ، ولكن قبلها كان يمثل البشر العادي . . والبشر العادي غير المعصوم عرضة لأن يطيع وان يعصي . . فإذا عصى . . أعطى الله له آيات ومناهج . . يقول استغفر الله ، وتب اليه وارجع . . وبعد أن أعطى الله لآدم تلك التجربة ، قال له : انت مثلت فترة البشر العادي ، وبعد ذلك ستكون لك ذرية وتبلغهم ، فلا يصح منك ان تقع في معصية لكي لا تكون اسوة سيئة . . اذن الاجتباء جاء أخيراً . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

* * *

الإنسان مسيَّر أو مخيَّر

الجبر والاختيار

منشأ المشكلة :

نسمع من الشباب أسئلة كثيرة : هل الانسان مسير أو مخير ؟ مختار أو مجبور ؟

نسمعها من شباب الاسلام ومن غيرهم ، ومن شتى الأديان . . ومن الانصاف أن نقرر أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع بوضوح أن يضع . النقط فوق الحروف في هذه المسألة ليقنع القلب والعقل والوجدان . . وليس ذلك نقصاً في الديانات السابقة، ولكن النقص نشأ من أن الديانات السابقة لم تصلنا كما أنزلها الله على رسله ، بل جاءتنا منقوصة أو محرفة ، فالعيب ليس في الدين ، وانما العيب فيمن نقلوا ذلك الدين .

فموضوع أن الانسان مسير أو مخير ؟ مجبور أو مختار يثير في الذهن ابتداء سؤالاً هو : كيف تنشأ المشكلة ؟ فإذا قلت مثلاً : أنا والله لا أستطيع أن أحكم على فلان بأنه كريم أو بخيل ، فإن المشكلة لا تنشأ في الحكم الا اذا رأيت له بعض التصرفات كان فيها كريماً ، وبعض التصرفات الأخرى كان فيها بخيلاً ، فترددت في الحكم عليه في هذه المسألة : أهو كريم أو بخيل . فلو أن كل التصرفات التي عرفتها عنه كانت تدل على كرمه لما نشأ الشق الثاني للسؤال : أم هو بخيل ؟ ولو كانت كل التصرفات التي عرفتها عنه كانت تدل على بخله لما نشأ الشق الأول للسؤال : أهو كريم ؟

وعلى هذا النمط يكون سؤال: الانسان مسير أم مخير؟ فلو كان الانسان يرى

نفسه في ظاهر الحياة مجبراً على كل أعماله لما نشأت فكرة : أهو مخير ؟ ولو أنه كان يرى نفسه مخيراً في كل أعماله لما نشأت فكرة أهو مسير ؟ اذن فالانسان يرى أفعالاً كثيرة تحدث منه بدون اختيار ، فيرى أنه ما دام لم يوجد له اختيار فهو مسير فيها . ويرى أفعالاً أخرى تقع على حسب ما قدر واختار فيرى أنه مختار . . يريد أن يلبس بدلة لونها كذا ، يريد أن يأكل طعاماً شكله كذا ، يريد أن يتعلم في مدرسة كذا ، يريد أن يعمل كذا ، فتقع الأمور كما يقرر أو قريباً مما يقرر . اذن فهناك أمور للاختيار دخل فيها ، وأمور ليس للاختيار دخل فيها ، ومن هنا نشأت المشكلة .

حقيقة الانسان :

واذا كنا نريد أن نعرف أن الانسان مسير أو مخير فلا بد أن نعرف حقيقة الانسان المحكوم عليه بهذا الحكم . ما هو الانسان أولاً ؟ الانسان كائن من الكائنات الموجودة في الأرض ، وليس هو الجنس الوحيد الموجود فيها . بل هناك أجناس أخرى كثيرة تشاركه الحياة والوجود . . ولكن بالاستقراء وجدنا أن الانسان هو أرقى هذه الأجناس ، وأن كل الأجناس في خدمته . . وأقرب الأجناس مما هو أدنى منه هو الحيوان ، وتحت الحيوان النبات ، وتحت النبات الجماد . . اذن فالأجناس الموجودة هي على الترتيب الصعودي : جمادات . ونباتات ، وحيوانات ، وانسان .

اذن بماذا امتاز النبات عن الجماد ؟ اننا نجد النبات له جرم وحجم وحيز مثل الجماد تماماً . ولكنه امتاز عنه بالنمو ، ولهذا صار جنساً مستقلاً برأسه . والحيوان امتاز عن النبات بشيء من الحس والحركة ، أما الانسان فقد امتاز عن الحيوان بالفكر . . ما معنى الفكر ؟ الفكر معناه : المقياس الذي يميز به بين البدائل . والأمر الذي لا بديل له لا عمل لعقلك وفكرك فيه .

الانسان مسير في بعض الحالات :

وهنا يمكن أن نطرح قضية عمل العقل . . أي اذا رأيت بعقلك رأياً أو عملاً تستطيع أن تعمله أو تتركه ، فما هو عمل عقلك ؟ اذا طرحنا القضية بهذه الصيغة

فقد طرحنا معها في ذات الوقت قضية البديل : تفعل أو لا تفعل ؟ ما دام هناك بديل فعمل عقلك هو أن يرجح ويختار . والأمور التي لا بديل لها لا عمل للعقل فيها أبداً . اذ أن الانسان رغم كونه أعلى الأجناس ففيه من صفات الحيوان ، وفيه من صفات الجماد ، وفيه من صفات النبات . أي فيه نباتية وحيوانية وجمادية .

فالقدر الذي في الانسان من الجمادية والقدر الذي فيه من النباتية والقدر الذي فيه من الحيوانية فهو مسير فيه كالجماد وكالنبات وكالحيوان .

واذا تصورنا أن انساناً يستطيع أن يرفع نفسه عن الأرض الى أعلا فإنه سوف يسقط على الأرض بعد ذلك كقطعة الحجر ، لأن قانون الجماد يتحكم فيه ، وقانون الجاذبية يحكمه ويشده الى أسفل . وأيضاً فهو ينمو ، ولا دخل له في ذلك النمو ، وليس له عمل فيه . كذلك فهو يحس ويتحرك ، وليس له عمل لا في الاحساس ولا في الحركة . وكذلك ادارة دواليب جسمه وأجهزته لا دخل له فيها أبداً ، ولا يتحكم في كيفية دوران الدورة الدموية ، ولا في صنعة الرئة ولا في عمل الجهاز البولي ولا الجهاز التناسلي ولا الجهاز الهضمي ولا أي جهاز . لا يستطيع الانسان التحكم في شيء من هذا . أو بمعنى آخر : هو لا ارادة له فيها ولا يصنعها . اذن فما فيه من الحيوانية أيضاً هو مسخر فيه كالحيوان تماماً ، ولا اختيار له في شيء منه .

وأرجو ان أدعو كل فرد أن يرى نفسه في هذه القضية ، وسوف أحاول أن أرى نفسي معه فيها . . ان من رحمة الله تعالى أنه جعلني مسيراً في ذلك كله، لأني لو كنت مخيراً فيها فإن ادارة أجهزة جسمي كانت ستؤجل الى أن يصير لي عقل فأعرف كيف أشغل أجهزة جسمي . ولكن من رحمة الله بي أن جعلني مسيراً لا عمل لي في هذه المسألة ألبتة ، لأنها تؤدي عملها وأنا نائم ، فإذا كان لي فيها اختيار فمن يديرها لي وأنا نائم ؟ اذن فما في الانسان من الجمادية ونباتية وحيوانية مسير كهذه الأجناس تماماً ولا اختيار له في شيء منها .

متى يكون الانسان مختاراً :

والسؤال الذي يرد هنا : متى ينفصل الانسان عن النباتية والجمادية

والحيوانية ؟ والجواب : ينفصل في الخاصية التي تجعله انساناً وهي العقل والفكر والتمييز . . اذن ففي المنطقة التي يعرض فيها الفعل على العقل ليفعل أو لا يفعل فتلك هي المنطقة التي يوجد فيها الاختيار ، وهي منطقة التكليف من الله عز وجل . ولذلك فإن فاقد العقل لا يكلف من الله . لماذا لا يكلف المجنون ؟ لأنه فقد أداة الاختيار بين البدائل . والذي لم ينضج عقله بعد لم يكلف أيضاً ، لأنه لم يصبح أهلاً لأن يحكم على الأشياء . اذن فربط التكليف بالعقل وجوداً ونضوجاً يدل على أن مهمة التكليف هي في الأمر الاختياري الذي يجد له الانسان بديلاً : يفعل أو لا يفعل . . ولو أن الانسان لم يكن مخيراً لاستوى أن يكلف المجنون والعاقل ، وناضج العقل وغير ناضج العقل . . اذن ما دام التكليف قد وقع على العاقل والعاقل الذي نضج عقله ، أي الذي بلغ سن الرشد ، فيكون التكليف اذن هو في منطقة الاختيار ، ومنطقة الاختيار هي : التمييز .

اذن فالذي يقول : ان الانسان على اطلاقه مسير يكون مخطئاً ، والذي يقول : ان الانسان على اطلاقه مخير يكون مخطئاً . ونقول له : حلل الانسان الى عناصره وستجد أن فيه جمادية وفيه نباتية وفيه حيوانية . فما فيه من هذه الأشياء فهو مسير فيها ، ولا اختيار له فيها ، وما فيه من منطقة الاختيار بين البدائل بواسطة العقل ففيها يكون الاختيار . تفعل هذا أو لا تفعل هذا .

منهج الدين :

وهنا نجد أن الدين حينما أراد أن يتعرض لهذه المسألة فقد تناولها فيما أفهم على أساس أن جعل لله وصفين : **الوصف الأول** : أنه هو الخالق وهو الفعال لكل شيء ، هذا واحد . **والثاني** : أنه عدل . . . ولا ينبغي لأحد أن يأخذ صفة على حساب أخرى . . فالذي يقول : ان الله هو الذي يفعل للانسان كل شيء فهو يريد أن يحقق لله صفة الخلق لكل شيء ، وبعد ذلك يحله عن صفة العدل . فما دام هو الذي فعل كل شيء فلماذا يعذبني حينما أعصاه ؟ فنجد أن مسألة العدل هذه ستنتهي . . وآخر يريد أن يحقق صفة العدل لله فنجده يجعل للانسان فعل كل شيء .

ونحن نقول للاثنين : لا . فأنتما على خطأ ، فلا بد أن تأخذ كل صفة سبيلها . فهو خالق كل شيء ، نعم . ولكنه عدل أيضاً . وكلمة عدل تتطلب منا أن نفهم أن الله لم يكلفنا الا بما خلقنا صالحين لفعله أو صالحين لعدم فعله ، فيحدد لنا الوجهة والأدلة ، ويجعلها صالحة أن تفعل أو لا تفعل . . فأنا حينما أرجح طريقاً على طريق لا يقال لي : خلقت الفعل ، وانما يقال : انك وجهت الطاقة التي خلقها الله بالعقل المخلوق لله للمادة المخلوقة لله . فأنا ليس لي فعل ، وانما أنا وجهت الأدوات الفاعلة فقط . وما دمت أنا الذي وجهت فالفعل ليس مني ، وانما الذي مني أنا هو التوجه للفعل . . فإذن الانسان المؤمن يقول : الله يفعل كل شيء . نعم هو يفعل كل شيء ، ولكنه عدل مع ذلك .

عمل الرسل في الهداية :

نأتي هنا ونقول : ما مهمة الرسل اذن ؟ ان مهمة الرسل هي أن ترسم منهج الله ، لتقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا . الله يقول لك : افعل كذا ولا تفعل كذا . ولا يكون ذلك من الحكمة في شيء الا إذا كان الله سبحانه خلقك صالحاً لأن تفعل أو لا تفعل ، أي خلقك صالحاً للتمييز . فعندما يقول لي : افعل هذا فلا بد أن يكون قد خلقني صالحاً لأن أفعله أو لا أفعله . . ولو كان قد خلقني صالحاً لأن أفعل فقط لما قال لي : لا تفعل . ولو كان قد خلقني صالحاً لئلا أفعل لما قال لي : افعل . فاذن لا بد أن يكون قد خلقني في هذا الأمر ناضج الاختيار بين البدائل ، صالحاً لأن أفعل ولئلا أفعل .

وهنا نجد هدايات الرسل تأتي بمعنى الدلالة . فهي هداية بمعنى الدلالة . وما معنى الدلالة ؟ أنت تهدي انساناً الى شيء ، أي تدله على طريق الخير . . وهناك فرق بين هداية تدل ، وهداية تحمل وتعين . هداية تدل ، هذا قدر مشترك حتى مع الكفار . فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾ . (فصلت : ١٧) . فلو أننا أخذنا « فهديناهم » على المعنى العام نجد أن الله تعالى يقول بعدها مباشرة : ﴿ **فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ . فكلمة « هديناهم » هنا

ليست بمعنى حملناهم على أن يكونوا مهتدين . ولكن « هديناهم » هنا أي : دللناهم على الطريق الموصل الى الخير، فهل استمعوا أو لم يستمعوا ؟ لم يستمعوا . اذن فوردت الهداية في القرآن بمعنى الدلالة على الطريق الموصل للخير . ووردت أيضاً بمعنى آخر ، وهو التمكين من فعل الخير ، والمعونة على فعل الخير . كيف هذا ؟ نقول مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ أنا أمضي في الطريق وأريد أن أذهب الى رأس البر مثلاً ، وأنا لا أعرف الطريق الموصل اليها . فجاء جندي المرور وقال لي : هذا هو الطريق المؤدي الى رأس البر . فدلني على الطريق بكلامه . اذن أنا انصعت له وشكرته . وبعد ذلك ذهبت لأسير في الطريق . فقال لي : اسمع ، هذا الطريق فيه عقبة في مكان كذا ، ويصح أن تعمل كذا حتى تتخلص منها . أي انه يرشدني الى شيء في الطريق . وقد يطلب مني أن يذهب معي حتى يخلصني من هذه العقبة .

اذن فهناك هدايتان : هداية دلت على الطريق فقط ، وهداية أعانت على أن تسلك الطريق . أعان جندي المرور من ؟ أعان الذي انصاع له ، وآمن بمشورته في أن الطريق هو ههنا . . أما الذي لا يأتمر بأمره ، ويقول له : لا ، أنت لا تعرف الطريق ، وماذا عرفت أنت عن الطريق ، فالطريق ليس هناك . . أيمكن لجندي المرور أن يعينه اعانة عملية بأن يسير معه الى أن يدله ويخلصه من العقبات ؟ لا بالطبع . . كذلك ـ ولله المثل الأعلى . الهداية بالنسبة لله . الله يهدي الجميع مؤمنهم وكافرهم يهديهم بمعنى يدلهم على طريق الخير . وبعد ذلك فالذي يؤمن به الهاً ، ويستمع اليه بعد ذلك فانه سبحانه يعينه ويسهل عليه المهمة . . والمعونة لا تأتي الا من مقبل على عمل ، فبعد أن يقبل على العمل تعينه . أما غير المقبل على العمل فكيف تكون المعونة له ؟ المعونة لا تأتي لشخص لا يعمل ثم تجعله يعمل . لا . ولكن المعونة أن تجد واحداً مقبلاً على عمل ، ثم بعد ذلك تعينه أنت على العمل .

راحة العباد في منهج الله :

وما هدى الله اليه هو الحق والخير والعدل . . وهذه الاضطرابات التي تحدث

في المجتمعات تحدث لأنكم تقننون تقنينات من عند أنفسكم ، وعلى قدر معــرفتكم ، ومــا دمـتم تـقـنـنــون على قــدر مـعــرفتـكم فــالـنفس الانـســانيــة معقـدة وفيهـا ملكـات لا يمكن أن نعـرف مــطلوبهـا ، ولكن خــالقهـا هــو الـذي يعرفها ، وما دام خالقها هو الذي يعرفها فيكون هو الأحق والأعرف بتقنين الاشياء التي تريحها .

لماذا ينتحر الشباب في البلاد الراقية ؟ ولماذا يصاب بالجنون والأمراض العصبية الأخرى وعنده وسائل الحياة ورفاهيتها ؟ لأن عنده ملكة جائعة في نفسه ولا يدري ما هي هذه الملكة وما علاجها . . ولذلك نرى الأشياء التي تكون فيها حركة الانسان اختيارية هي المضطربة ، والأشياء التي ليس له فيها اختيار تجدها مستقيمة ، وتسير في منتهى النظام . . وعلى سبيل المثال نجد معظم الشكاوى من القوت والمال والملبس ، في حين لا تجد شخصاً يشكو من قلة الهواء والتنفس به ، لأن الهواء لم يضعه الله في يد أحد ، ولم يجعل لأحد فيه عملية اختيارية ، وأقل منه الماء ، لأن الانسان له فيه بعض العمل .

فإذا نظرنا نجد أن الأشياء التي تأتي من الناس للناس هي التي فيها التعب ، انما الذي يأتي من الله مباشرة فليست فيه متاعب أبداً . . مثلاً بالليل واحد ينير الكهرباء ، وواحد يحضر « كلوب » وواحد أوقد (نمرة ١٥) وواحد (نمرة ١٠) ورابع لمبة صاروخ يعني من غير زجاجة . فاذا أصبح الصباح وطلعت الشمس نقول : أطفئوا مصابيحكم فقد طلعت شمس الله وتساوينا جميعاً في شمس الله . فالشيء الموصول بالله مريح ، والشيء الذي من عندنا هو المتعب .

وعندما ننظر الى مشكلة الحياة الآن في ضوء المذهبين المعاصرين اللذين صنعهما الانسان بعيداً عن هدى الله نجدها مشكلة تتعلق بالأمن والكفاية . ماذا قال ربنا لآدم ؟ قال عندما أسكنه الجنة : ﴿ **ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ (طه) . ضرورات الحياة ما هي ؟ ألا تجوع هذا هو الطعام . ولا تعرى . وهذا هو الملبس . ولا تظمأ . هذا هو الشراب . ولا تضحى . هذا هو السكن . . هل ضنن الله علينا بضرورات الحياة ؟ لم يضن علينا سبحانه ، ولكني أنا الذي فرضت مستوى معيناً لحياتي ، وبعد ذلك أريد أن أرغم

دخلي على أن يقوم بهذا المستوى من الحياة ، فيعجز . وليتني حين حددت مستوى حياتي حددته على قدر طاقتي وحركتي في الكسب الحلال ؟ لا ، لكني حددته حسب هواي ، وحسب عرف الناس ، وبعد ذلك أحاول أن أصل إليه ، وإذا عجزت أرتشي وأختلس ، أو أعيش نكداً متبرماً . . ومن هنا جاءت المتاعب .

عندما انعزل الناس عن الله لم يعجبهم قدر الله وقضاؤه : أروني موظفاً احترم قدر الله وتعب في الحياة . هب أني موظف بخمسين جنيهاً ، ولي زميل موظف بخمسين جنيهاً . لكن أبي فقير وأنا أساعده بخمسة عشر جنيهاً ، يبقى لي خمسة وثلاثون جنيهاً ، وزميلي أبوه غني يعطيه عشرين جنيهاً ، يبقى دخله سبعون جنيهاً . فأنا لو حاولت أن أسايره وأقلده في كل شيء فسوف أتعب . اذا لبس حلة جديدة وأردت أن أشتري مثله كل جديد سوف أتعب . اذن أنا لم أحترم قدر الله ، وسأضطر الى أن أرتشي أو أختلس . ومعظم الفساد في المجتمع نشأ من هذه المسألة .

اذا وجدنا القناعة في جميع قطاعات الحياة فسوف نجد الراحة والاطمئنان ، ولن يمد أحد عينيه الى ما عند غيره، لأنه اقتنع أن هذا هو قدر الله . . لكننا الآن نعيش في مجتمع جاهلية . وليس معنى الجاهلية ألا نعرف ، وانما معناها أن نعرف قضايا باطلة وخاطئة في مواجهة الحق الذي هدانا به الله ، ثم نؤمن بهذا الباطل الخاطىء . . وعدم معرفتك للحق ليست مشكلة ، انما المشكلة أن تعرف الباطل وتظنه حقاً ، وتؤمن به وتدافع عنه .

يهدي من يشاء ويضل من يشاء :

وهنا يثور سؤال: ما الذي أعان هذا ولم يعن هذا؟ ثم أليس الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ؟ وحينما نطالع آيات في القرآن لا بد أن نستحضر كل المادة . بمعنى أني سأطالع آيات فيها اثبات وآيات فيها نفي ، مثلاً . . الله يقول لرسوله ﷺ : ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء وانك لتهدي الى صراط مستقيم** ﴾(الشورى : ٥٢) . انك لتهدي . ماذا أثبت له ؟ أثبت له الهداية . ثم يقول في آية أخرى : ﴿ **انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو**

أعلم بالمهتدين ﴾ . (القصص : ٥٦) . فأثبت الهداية له مرة ، ونفاها عنه مرة أخرى . ولا يمكن أن يكون النفي والاثبات متعلقين بمعنى واحد في الهداية ، بل الهداية هنا لها معنيان : هداية بمعنى الدلالة ، وهداية بمعنى المعونة . أما التي للرسول ﷺ فهي الهداية بمعنى الدلالة . ﴿ **وانك لتهدي الى صراط مستقيم** ﴾ . أي تدل الناس وترشدهم الى طريق الخير . أما أن يسلكوه أو لا يسلكوه فهذا موضوع آخر . أن يؤمنوا به أو لا يؤمنوا به هذا موضوع آخر .

فالذي يؤمن به ويقبل على منهج الله فيه ويصدق الله فيه تكون هداية الله في أن ييسر عليه الأمر ، وأن يعينه عليه . . ويأتي في آية أخرى فيقول : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم وآتاهم تقواهم** ﴾ . (محمد : ١٧) . . اذن فالهداية تأتي بمعنيين : بمعنى الدلالة ، وبمعنى الحمل على عمل الخير . أما التي بمعنى الدلالة فالكل مشترك فيها . وأما التي بمعنى الحمل على الخير فإن الذي يقبل على الله مؤمناً به ومصدقاً لهداه ، فإنه تعالى يقول له : ما دمت آمنت بي وصدقتني ، وأقبلت بنفسك على منهجي ، فإني أعينك على ذلك المنهج ، وأمكنك منه ، وأذيقك حلاوته .

اذن فالحق حينما يقول : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ . أي دللناهم فاستحبوا العمى على الهدى . أي انهم قالوا : لا ، نحن غير مؤمنين بأن هناك رباً ، وليس هناك من توجيه، فإن كانوا غير مؤمنين بأن هناك رباً ، وبأنه منه التوجيه والارشاد ، فكيف يمكنهم من الهداية ؟ لا يمكن أن يمكنهم ، وانما يمكن من أقبل عليه مؤمناً به ومن سمع له . فكأنه يقول له : آمنت بي ، وصدقت منهجي ، وأقبلت بنفسك علي ، اذن فإني أعينك على ذلك الأمر .

فإذا رأيت آية مطلقة مثل قوله تعالى : ﴿ **يهدي من يشاء ويضل من يشاء** ﴾ فلا بد أن تحمل هذا المطلق في القرآن على مقيده . نقول له : هات آيات القرآن في الهداية كلها ، تجد هنا : ﴿ **يضل من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ (النحل : ٩٣) مطلقة على الكل عامة . وفي آية أخرى يقول : ﴿ **والله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ . (البقرة : ٢٦٤) . أي الكافرين به ، فكيف يعينهم على التقوى ؟ لا يمكن . وتجد ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ . (المائدة : ١٠٨) . ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ . (البقرة : ٢٥٨) . ﴿ **ان الله لا يهدي من هو كاذب**

كفار ﴾ . (الزمر : ٣) .

اذن فهداية الله بمعنى تذليل العقبات والحمل على طريق الخير لمن ؟ لمن استمع له وآمن به وأقبل عليه وعلى منهجه ، فالمعرفة تأتي من الله لهذا . وأما الذي لا يؤمن ولا يستمع منه ولا يقبل على منهجه فكيف يعينه الله ؟ لا يمكن أن يعينه الله . فإذا رأيت آيات في القرآن مطلقة ، وآيات أخرى مقيدة فاحمل المطلق دائماً على المقيد . وقل : يهدي من يشاء . نعم صحيح ، لكن من هم الذين يشاؤهم ؟ هم المؤمنون المقبلون عليه المصدقون بمنهجه . فأما الذي كفر به فلا يعينه على الهداية . فهو قد هدى الجميع بمعنى دلهم . لكن المعونة منه لا تكون الا لمن آمن به ، واقتنع بالمنهج عنه ، فإذا آمن به واقتنع بالمنهج عنه تكون معونة الله سبحانه وتعالى .

حرية الاختيار مكفولة للجميع :

والدليل على توافر حرية الاختيار : أن المكره على شيء لا يعاقب عليه . والمسألة ليس فيها تناقض عقلي ، هم يقولون : اذا كان الله كتب على الانسان المعصية فلماذا سيعذبه ؟ ولنا أن نقول : انه يأتي الشق الثاني وهو : واذا كان قد كتب له الطاعة فلما يثيبه ؟ لم نسمع السؤال الثاني أبداً . كل سؤال يرد يقال فيه : اذا كان الله قد كتب علي المعصية فلماذا يعذبني ؟ ولم نسأل أبداً : واذا كان كتب لي الطاعة فلماذا يثيبني ؟ لماذا ؟ لأن المسألة الأولى جاءت له بظلم كما يرى ، والثانية جاءت له بيسر ، فهو يريد أن يوجد لنفسه منفذاً ليخلص منه من ذلك المغرم . ولذلك نأتي ونقول : ان الحق سبحانه وتعالى ما دام قد خلق له عقلاً ، وجعل العقل مطية التكليف بحيث أنه اذا لم يكن عاقلاً فانه لا يكلف ، واذا أكره سقط عنه التكليف ، واذا لم يكن عقله ناضجاً لا يكون مكلفاً أيضاً . فمعنى هذا : أن الاختيار الموجود فيه شروط في اقباله على العمل . أي : أن يقبل على العمل مختاراً . والاختيار لا يكون الا مع قدرته على هذا العمل وقدرته على العمل الآخر .

التلفزيون مثلاً صالح لأن تجعل مؤشره على القناة الخامسة التي فيها حديث

ديني ، وصالح لأن تجعل مؤشره على القناة التاسعة التي فيها حفلة رقص ، والقناتان يمكن رؤيتهما بمنتهى السهولة ، وبدون عقبات ، ومع ذلك فأنت تفرض على أولادك ألا يجعلوا مؤشر التليفزيون الا على قناة واحدة ، مع أنه صالح للقناتين . فأنت حين تعاقب أولادك اذا خالفوك فعلى ماذا تعاقبهم ؟ لا تعاقبهم على خلق الطاقة ، وانما تعاقبهم على توجيه الطاقة . فهذه الموجة موجودة وتلك الموجة موجودة ، لكن أنتم توجهتم بارادتكم الى فتح موجة معينة . فالعقوبة ليست على الفعل ، لكن العقوبة على توجيه الفعل الى شيء أنت لا تريد أن تفعله .

وهنا يأتي سؤال وهو أن كل واحد يقول : « **ما دام الله قد كتب علي في علمه القديم الفعل ، فماذا يكون عملي أنا؟**» ويكون ردنا عليه : وما الذي أدراك ؟ هل اطلعت على اللوح المحفوظ فعرفت نفسك أنك مكتوب من أهل الشقاء ؟ من الذي قال لك ذلك ؟ لم يقلها لك أحد . وقد يقول : حينما أقبل على العمل السيء أفهم أنني من أهل الشقاء . فنقول له : وهل أنت تقبل على كل أعمال الشر ؟ لا يوجد ناس مطبوعين على الخير المحض. وناس مطبوعين على الشر المحض ولكن الله سجل عليك أزلاً فلماذا؟ لأن لله الخلق والقدرة والعلم. وصفة العلم عند الله هي التي جعلت الله سبحانه وتعالى وكأنه يقول: أنا سأخلق عبدي فلاناً، وسأخلقه مختاراً في بعض الأعمال، وغير مختار في بعضها الآخر، وغير المختار فيه لا دخل فيه للحساب، وسأدخل الحساب فيما له فيه اختيار. . لكن عبدي هذا أنا أعلم أنه سيختار كذا ويختار كذا. . فالله تعالى قد كتب أزلاً لأنه علم وأنت لا تعلم .

علم الله ليس جبراً :

وهنـــا يـأتي سؤال : هـــل علم الله صفـة جبـــر ؟ العلم ليس صفـة جبـــر ، العلم صفة انكشاف . . تكشف الأشياء على ما هي عليه .وأنا سأضرب مثلاً بسيطاً كثيراً ما أضربه للطلاب : مثلاً أنت جئت لتزورني في البيت وعندي خادم أرسلته ليحضر لك زجاجة من الكازوزة من البقال ، فلما خرج أبطأ فقلت لك : والله هناك ولد آخر على ناصية الشارع مستولٍ على هذا الولد ، وحينما يراه خارجاً لشراء حاجة يأخذه ويلعب معه ويأخذ منه النقود ، والنقود ضاعت من الولد وهو خائف أن يعود .

هذا الكلام قد قلته وأنا معك في البيت ، وبعد ذلك جاء الولد فسألناه : ما الحكاية ؟ فقال كما قلت أنا . هل يا ترى عندما تكلمت أنا عن الولد وما يصنعه وقلت انه سيحصل منه كذا وكذا ، أكنت قد أرسلت معه قوة لترغمه على فعل ما قلته لــك ؟ أم هـو على حريتــه ؟ طيب . فكيف قلت أنا هذا الكلام ؟ لكن ليس عندي قدرة ترغمه على تنفيذ ما أقول . كذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ علم الله سبحانه وتعالى أزلاً ما يكون من عبده المختار فقال : سيكون من عبدي كذا وكذا . فهو كتب وسجل لا ليلزم ، ولكن كتب لأنه عالم بما يكون من العبد . والفرق بين الصورتين : أن العلم في البشر قد يختلف فيه شيء ، من الجائز أني أن هذا الولد صفته صحيحة ، وسأحكم عليه هذه الأحكام ، لكن يمكن أن يخرج مرة بالصدفة فتصدمه سيارة فينقل الى المستشفى ولا يحدث شيء مما قلته .

هذا خطأ في علمي أنا ، لكن الحق سبحانه لا خطأ عنده في علمه أبداً . . اذن فالحق كتب قديماً لأنه علم ما يكون من عبده باختياره ، فهو لا يكتب ليلزم ، لأن العلم صفة انكشاف وليست صفة تأثير كالقدرة .

لماذا يعان الكافر على أمور الدنيا :

وما دام الله لا يعين الكافرين فلماذا يعينهم في شئون الدنيا ؟ ان مسائل الدنيا عادة تقبل النفس عليها، بطبعها، لكن هناك المناهج التي تحدد حركة المؤمن في حياته.

لا يوجد أحد يحتاج الى حث على أمر دنياه أبداً. كل الناس مقبلون على شئون دنياهم بالأسباب والوسائل. فالذي يتقن الأسباب مؤمناً كان أو كافراً يأخذها. يقول الله تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب** ﴾ (الشورى : ٢٠) . ويقول : ﴿ **كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾ . **(الاسراء : ٢٠)** .

وعالم الأسباب في مسائل الدنيا مطروح أمام الخلق ، فالذي يأخذ للشيء أسبابه ويتقن عمله يأخذ خيره مؤمناً كان أو كافراً . . لكن لا يأخذ منهج الله الا من آمن بالله ، فمنهج الله هذا مخصوص بمن ؟ مخصوص بالمؤمنين . المؤمن الذي

آمن بوجود الله ، فساعة أن يأمره الله بأمر فثقته في الأمر وثقته في التكليف تجعله يقبل على الأمر ، لأنه مكلف به من الله . فاذا أقبل تأتي له المعونة من الله .

والدنيا كما قال سيدنا رسول الله ﷺ من هوانها عند الله أنه أعطاها للمؤمن وأعطاها للكافر . . اذن فلا تقاس مسائل الدنيا بمسائل التكليفات . وحتى توضح هذه المسألة نأتي ونقول : حين يطرح الانسان قضية من قضايا دنياه بعيدة عن تكليف السماء، كأن نجد على سبيل المثال طالباً يريد أن يتعلم في كلية الهندسة وهو الآن طالب في المرحلة الاعدادية فلا بد أن يرتب نفسه على أن يكون متقدماً في الثانوية ومجموعه كذا . فإن لم يقع على كلية الهندسة فقريب منها . واذا أراد طالب أن يكون من العشرة الأوائل في التوجيهية فانه يرتب حياته واختباراته على أن يكون كذلك . فان لم يستطع فعلى الأقل يكون من العشرين الأوائل . أي يقع قريباً من الأوائل ، لماذا ؟ لأنه أخطأ في بعض التقديرات .

انا هديناه السبيل :

وفي مسائل التكاليف يقول الحق سبحانه : ﴿ **إنا هديناه السبيل** ﴾ وفسر السبيل بقوله : ﴿ **إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ (الانسان : ٣) . والسبيل هو الطريق الذي يسلكه ، اما شاكراً لأنعم الله ، واما كافراً بأنعم الله . فهو صالح للعمليتين . وكما يقول : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ (البلد : ١٠) . أي جعلناه صالحاً لهذه وصالحاً لهذه . فما الذي يرجح ؟ ما دام فيه صلاحية لهذه وصلاحية لهذه فما الذي يرجح منهج الله ويلزم النفس به ؟ لو كنت مخلوقاً صالحاً لطريق واحد كنت أقول : لا . . أنا لا أستطيع أن أذهب الى الطريق الآخر . . لكنه قد هدى السبيل . . والمنتظر منه أمران : اما أن يكون شاكراً واما أن يكون كفوراً . اذن فهو مخلوق صالحاً لأن يكون شاكراً ومخلوق صالحاً لأن يكون كفوراً . وليس مخلوقاً على حالة تناقض الأخرى . . لا ، بل على الأثنين . فما الذي يرجح اختياره بين البديلات ؟ لا شك أنه العقل . إذن هذه هي مهمته ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ . ثم يقول :﴿ **والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها . والنهار اذا جلاها . والليل اذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها فألهمها**

فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ .

اذن النفس صالحة لأن تكون فاجرة وصالحة ، لأن تكون تقية ، هذه مخلوقيتها لله . وبعد ذلك : **﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾** . اذن فما دام الأمر للاثنين وأنت صالح أن تتجه منهما فكونك تميل إلى هذه الجهة أو لا تميل الى هذه الجهة فهذا هو محل الحساب والمؤاخذة .

لا ظلم في العقوبة :

وقد يقال : هل يتناسب عقاب العاصي مع عمره كله في المعصية مع هذه المعصية ونحن نعلم من القرآن أنها قد تكون خلوداً في النار في بعض الكبائر ؟ ونقول : بالنسبة لتناسب العقوبة هل أنت مؤمن بالمعاقب أو غير مؤمن به ؟ هناك أولاً الإيمان بالمعاقب والإيمان بعدالته . فإن كنت مؤمناً بهذا فلا يصح أبداً أن ترد الأعمال الى تشكيك في أصل القضية ، لأنك تسأل : هل تتناسب العقوبة مع الذنب ؟ فهو الذي خلقك وقال : هذه جريمة ، وهو الذي قنن لها العقوبة ، فلا أستطيع أن أقول : هل تتناسب أو لا تتناسب .

نعم تتناسب ، لأن الانسان لو نظر نظرة عامة بدون ما يدري أن هناك دنيا فإنه بفطرته يهتدي الى أن وراء هذا الكون قوة ، فيكون انكار هذه القوة خيانة عظمى . والخيانة العظمى لا تستكثر عليها عقوبة ، لأن الخيانة العظمى في ذات الايمان بوجود الحق . . وفيما عدا ذلك هل هو داخل في نطاق المغفرة أم لا ؟ الاجابة عن هذا في قول الله تعالى : **﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾** . (النساء : ١١٦) فما دام الذنب داخلاً في قمة الكفر وهي الخيانة العظمى وفي الايمانية فلا يجوز أن يقال : إن هذه عقوبة أكبر من الذنب لأنه تعالى يقول : **﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾** (لقمان : ١٣) .

ونحن نقول : لا عقوبة الا بتجريم ، ولا تجريم الا بنص ، فما دام الحق سبحانه وتعالى نص على الجريمة ونص على العقوبة فليس لي أن أقول : ان هذه عقوبة أكبر من الجريمة أو أقل . لماذا ؟ لأنه هو الذي يحدد ذلك ، وليس أنا الذي أحدده . فاذا ذهبنا بعقولنا هذه لنقيس الجريمة نقول لك : هناك فرق بين جريمة

في القمة وبين جريمة في غير القمة . . فالجريمة التي تكون في ذات الله تعالى سبحانه ليس أكبر منها جريمة . . إنها الخيانة عقوبتها كبيرة . . أما فيما عدا ذلك فالحق يتجلى بالمغفرة حتى لا ييأس عباده .

* * *

لا تقنطوا من رحمة الله :

يقول الله تعالى : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ (الزمر : **٥٣**) . هل يغفر الله تعالى الكبائر أو الصغائر وحدها ؟

ولكي نفهم هذا لا بد أن نرى الآيات الأخرى لعلنا نجد ما يهدينا الى فهمها دون أن يقع في أذهاننا وهم وجود الاختلال والتناقض . أو نجد ما يهدينا الى ما يجعلنا نقيد هذه أو نطلق هذه . . آية : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم** ﴾ . كلمة «**يغفر الذنوب جميعاً**» هذه لا يدخل فيها الشرك ، لأن الشرك ليس ذنباً ، لأن الذنب أن تفعل شيئاً منصوصاً في ايمانك على عقوبته ، أما الشرك هذا فخيانة عظمى كما قلنا . بدليل أن الآيات الأخرى تقول : ﴿ **ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ . فيكون قوله : ﴿ **يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ يعني ما يسمي ذنباً . والشرك لا يسمى ذنباً فهو أكبر من الذنب ، لأن الذنب أن تؤمن بمنهج ثم بعد ذلك تخالف صاحب المنهج . . حين قال لك : اعمل كذا واعمل كذا فلا تعمل ، يكون هناك ذنب . لكن كونك لا تؤمن بصاحب المنهج نفسه يكون ذلك غير داخل في الذنب . . ولذلك كل المفسرين يقولون لك : ان الله يغفر الذنوب جميعاً غير الشرك . على مفهوم أن الشرك داخل في الذنوب . . فنقول لهم : لا ، هو غير داخل في الذنوب : ﴿ **ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ .

بقي هذا الغفران . هل رتبه الحق على مجرد المشيئة فقط ، أم ما هو سياق الآية ؟ ماذا قال الحق : ﴿**وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له** » . أي : لا تتكل على أنه

سيغفر الذنوب جميعاً فهو قال : **وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين**﴾ (الزمر : ٤٥ - ٥٦) . فاذا قال الله : ﴿ **أن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ وبعدها يقول : ﴿ **وأنيبوا الى ربكم** ﴾ . ان كانت الأنابة هي التوبة فتكون التوبة تجب ما قبلها . واذا لم تتب فالآية فيها كلام في أن الحق سبحانه لا يغفرها . . لأنه قال : ﴿ **وأنيبوا الى ربكم** ﴾ .

فالانسان اذن لا يأخذ بظاهر الآيات الا اذا أخذها لنهايتها . فآية ﴿ **يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ لا تقل فيها : ان أذنبت ذنباً فان الذنب سيلازمك ، لكن التوبة تمحوه عنك . . الحسنات تبدل السيئة حسنة . . ولا يتبعها بحسنات تمحوها وبعد ذلك يتكل على الله بالأماني فهذا ممنوع في الاسلام .

كلمة التوحيد قضية الحياة :

هل تعتبر «لا اله الا الله» قضية كلامية ، أو هي محيطة بالحياة كلها ؟ والاجابة على هذا السؤال نجدها في أول سورة «المنافقون» : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون** ﴾ (المنافقون : ١) . كاذبون فيماذا ؟ فالأصل ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون**﴾ .
فما دام الله شهد بذلك ، فكيف يصفهم الله بأنهم كاذبون ؟ هم كذابون ، ليس في قولهم : « **أنك لرسول الله** » . لأننا لا بد أن نعرف معنى الشهادة . هي قول باللسان يواطىء عقيدة القلب . فالتكذيب ليس في قولهم : « **أنك لرسول الله** » لأنه رسول الله حقاً ، ولكن في قولهم : « **نشهد أنك لرسول الله** » .

فاذا قال الانسان بلسانه : «أشهد ألا اله الا الله» ولم تواطىء قلبه فهل يكون ذلك كذباً أو غير كذب ؟ يكون كذباً . فهم لا يقولون : أنك لرسول الله ، وانما قالوا : «**نشهد أنك لرسول الله**» . فربنا قال لهم : انكم لكاذبون . فيماذا ؟ في المشهود به أم في الشهادة ؟ أما المشهود به فهو رسول الله ، وهو رسول الله حقاً .

والله قال : ﴿ والله يعلم أنك لرسوله ﴾ لكن هو كذبهم فيماذا ؟ في قولهم : «نشهد» لأنهم قالوا ذلك بأفواههم ولم يقولوها بقلوبهم .

والشهادة المفروض فيها أن يواطىء القلب اللسان . هذا من ناحية عقيدتها ، ويتقنها من ناحية مدلولها . . كلمات تقال . وما دمت تشهد أن لا اله الا الله فسير كل حياتك على نظام هذه الشهادة . . لا اله الا الله : لا معبود الا الله . لا خضوع الا لله . . لا تصرف الا لله . . الأسباب وان أعطت نتائجها فهي من فعل الله . وان أجدت فهي من فعل الله . . اذن لا بد أن تشيع هذه العقيدة في كل تصرفاتك .

فمعناها : أن يكون اللسان فيها موافقاً للقلب . وهذا من ناحية الاعتقاد واليقين . . وبعد ذلك انسحابها من ناحية السلوك العام . . أي أن تخوض معركة الحياة على أنه لا اله الا الله في كل مظهر من مظاهرها . . فلا غني ولا قوي ولا حاكم ولا أي شيء له شيء غير الله . . ولذلك فقد تسأل : ما الذي أتعب كفار قريش في أن يقولوها ؟ والجواب هو علمهم بمطلوبها . فلو كانوا يعرفون أنها مجرد كلمة تقال لقالوها .

نعم لم يقولوها لأنهم يعلمون مدى التزاماتها . ما معنى لا اله الا الله ؟ ما هي مطلوباتها ؟ ولذلك لم يقولوها . والا فلو كانت المسألة سهلة لقالوها . . اذن فشهادة ألا اله الا الله لا تكون شهادة الا اذا وافق القلب اللسان . هذا من ناحية اعتقادها . . وبعد ذلك يجب أن تنسحب على كل حركة الحياة عند الانسان . فلا يشهد ألا أن الله هو الفاعل ، وهو القادر ، وهو المعطى ، وهو النافع ، وهو الضار ، وكل أسباب الله تحت يدي الله ، ان شاء جعلها تعطي وان شاء لم يفعل .

طريق الخلاص

أولاً ـ لا تبحث عن حكمة الأمر والنهي :

الايمان بالله ضرورة عقلية . وحين نؤمن نقول : من خلق الحياة ؟ فنقول : الله . والذي خلق الحياة هو الذي ينظم حركة الحياة . يقول : افعل كذا ولا تفعل كذا . وحين ذلك يوجد الاسلام . . فلا يوجد أي انقياد لأمر ونهى الا بوجود عقيدة

تسبقه في أن الآمر والناهي أهل لأن يؤتمن على صدور الأمر والنهي منه . لأنه صانع ولأنه حكيم ولأنه قادر . ولذلك فالمسلم حينما يسلم زمامه لتوجيهات ربه يكون مسلماً عن عقيدة . . أما ألا يكون اسلام عن عقيدة فهذا نفاق . ومعنى عقيدة : قضية اختمرت في القلب اختماراً بحيث لا تطفو الى الذهن لتناقش من جديد . . أما اذا نوقشت من جديد فهذا ليس ايماناً .

والايمان لا يأتي في الأمور المحسوسة . . لا يقال : اني أؤمن بأني بينكم الآن ، وأتكلم بين أيديكم . لا يقال : أني أؤمن بأن هناك كأس ماء مملوء أمامي . ليست تلك منطقة ايمان ، بل منطقة حس ومشاهدة . . اذن فمنطقة الايمان تكون في الأمور الغيبية . ولذلك عندما سئل الرسول ﷺ : ما الايمان ؟ قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره» .

وتلك كلها غيوب . وهنا يأتي أحد السطحيين في العلم فيقول : لا . أما الايمان بالكتب والرسأل فأمر حسي ، لأننا نرى الكتب ونرى الرسل . ولكنا نقول : لا . لأنك لم تر جبريل وهو ينزل بذلك الكتاب على رسوله ، اذن فايمانك بالكتاب والرسول لا زال أمراً غيبياً .

فمتعلقات الايمان العقدي أن يكون في أمر غيبي . فحين تسلم زمامك لعقيدة يقال : انك آمنت ، ولذلك اذا فعل الفعل بدون عقيدة . حين تسلم زمامك لعقيدة يقال : انك آمنت، ولذلك اذا فعل الفعل بدون عقيدة ماذا يقال ؟ انك منافق . . اذن فالاسلام لا بد أن توجد له ركيزة عقدية أولاً حتى يطمئن الانسان الى أن هذا الأمر وهذا النهي هو أحكم ما يوجه من أمر وأحكم ما يوجه من نهي ، سواء فطنت الى حكمة فعل الأمر أو الى حكمة ما نهاني عنه أو لم ينه . لماذا ؟ لأن العبودية هي التي أسلمتني لذلك الأمر ، ولذلك نجد القرآن عندما يتكلم عن هذه القضية المرحلية يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام** ﴾ . ولم يقل : يا أيها الناس . يعني : يا من وجدت عندكم خميرة الايمان بي ، واعتقدتم بوجودي وبقدرتي أنا أشرع لكم . فبغير رصيد الايمان لا يشرع . ولم يقل : كتبت أو كتب الله . ولكن قال : «كتب» وبناه للمجهول مع أنه من المعروف أن الذي كتب هو

الله . ما السبب في أنه بناه للمجهول ولم يسم فاعله ؟ هذه العلة يجب أن يلتفت اليها الذهن ، لأن قضية الايمان عقد ، عقد بين المؤمن وربه ، والله لم يكلف من لم يؤمن به ، وانما كلف من آمن به ، فحين دخلت في عقد الايمان بالله دخلت طواعية وآمنت به ، اذن فأنت شريك في كل التزام تقنيني يصدر عن ذلك الاله ، كان من الممكن ألا تخضع أبداً ، اذن فأنت شريك في هذه العملية . ومن اللحظة التي يقول فيها : «كتب» فأنت شريك في هذه العملية . لو لم تؤمن به لما كتب . يعني : أنك عندما دخلت كنت معي في هذه الكتابة . أي في اجراء صيغة العقد . وما دمت قد تعاقدت معي فاسمع مني . ذلك لأن علة فعل المؤمن انما هو صدور الأمر من الله . أما علة لماذا أصدر الأمر ؟ قد تطيقها العقول وقد لا تطيقها . قد نعرفها وقد نجهلها . فان كان الله قد حرم الخنزير أو الزنى ، أكنا نؤجل هذا الحكم ؟ حكم ايماني مع ايقاف التنفيذ ؟ حتى تأتي المعامل والآلات لتبين أنه ضار ؟ لا . بل نستقبله ونحرمه اختياراً منا للثقة بالله والايمان به ولا نسأل : لماذا ولماذا .

ثانياً ـ لا تكن سطياً :

كل تكليف من التكليفات ان كان طاعة أمر الله بها، أو كان معصية نهى عنها فان النفس البشرية لا تجترىء على اهدار الأمر وارتكاب النهى الا اذا غفلت عن الجزاء عليها . . أما اذا وضعت أمام الطاعة الجزاء عليها ، وأمام المعصية الجزاء عليها ، فاني أتحدى اذا وضعت الاثنين وضعاً ايمانياً أمام بعضهما .

وليس الوضع الايماني أن تؤمن فقط ، لا ، بل تشهده كأنه محسوس ، كأنه واقع أمامك . ولذلك حين سأل الرسول ﷺ حارثة: «كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقا . قال : لكل حق حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها ، وكأني أنظر الى أهل الجنة ينعمون ، والى أهل النار يعذبون» . يعني : لم يعد ايمانه خبراً ، بل صار مشهداً .

أنا قلت لبعض الشبان : نأتي بشاب عنده شذوذ جنسي ، ونأتي له ببنت جميلة ، ونقول له : هذه هي البنت وهذا هو المفتاح وهذه هي الحجرة ، لكن انظر

الى هذه الحجرة الأخرى أولا ، ففيها حديد مصهور على درجة حرارة كذا . اقض الليلة هنا ، ثم نأخذك صباحاً على هذه الحجرة المستعرة . ماذا يكون موقفه ؟ لن يرضى . لماذا ؟لأنه استحضر العقوبة أمام المعصية . اذن الذي يجرىء الناس على المعاصي ماذا ؟ انهم يستحضرون المعاصي فقط بشهوتها ، ويغفلون عن عقابها . . حينما تستحضر شيئاً ويغيب عنك الجزاء تقع الواقعة .

اذا قيل لك : ان هناك جبلاً عالياً وفي آخره شجرة تفاح ، والجبل مصعده وعر جداً ، لا بد أن تأتي وتلاقي أناساً صرعى حول الجبل ، ومع ذلك يعاودون الصعود مرة أخرى . . اذن رؤية الجزاء على الشيء واستحضاره يهون مشقة التكليف ، ويهون من شهوة المعصية . . الذي يريد أن يعرف أن الطاعة لذيذة لا بد أن يستحضر الجزاء عليها . والذي يريد أن يعرف أن الشهوة دانية نازلة يستحضر الجزاء عليها . . ولذلك حينما يقول رسول الله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» . فلأنه حين يشرب الخمر أو يزني عنده لحظة غفلة .

ثالثاً ـ كن في قمة العبودية لله :

على كل مسلم أن يستقبل قضية الأحكام وقضية اسلامه لمنهج ربه بتوثيق ما صدر عن الله ، ويكون عمله أن يقول : أقال الله ذلك ؟ أقال رسول الله ﷺ ذلك أو لم يقله ؟ وبعد ذلك يقبل على الأمر . فاذا كان أمراً عبادياً فلا يحاول أن يفهم علته أولاً كما قلنا ، لأن فهم العلة أولاً يفسد عبوديته . . فلو أن كل أمر يتطلب منا أن نقتنع بحكمته أو لا فذلك يفسد معنى عبوديته . . انما العبودية أن تأخذ الأمر من الله بعد أن وثقته ، وأن تثق تمام الثقة في أن ذلك أحكم ما يوجه في هذا الموضوع .

وبعد ذلك اذا أقبلت على الأمر بهذه النية تكون قد أقمت في قمة العبودية لله . . وبعد ذلك قد يطلعك الله في ذات نفسك على أسرار أحكامه ، ويفيض عليك اشراقات . . فالذين قالوا : حكمة الصلاة كذا ، وحكمة الزكاة كذا ، وحكمة الحج كذا ، وحكمة الصوم كذا ، هم قوم نفذوا الأمر أولاً ثم أدركوا في نفوسهم ما يعطيه هذا الأمر من عطاءات في نفس الانسان .

والناس ـ بكل أسف ـ لا يعاملون ربهم معاملتهم لأنفسهم . لماذا ؟ حين يذهب أحد إلى الطبيب توجد أولاً عملية عقلية وهي أن يقول أولاً : إن معدتي متعبة ، لأني عندما آكل أتعب ، فقد حددت موضع العلة ، وعلى ذلك هل يذهب إلى طبيب جراح أو لطبيب باطني ؟ طبعاً يذهب لطبيب باطني . ومن هو الطبيب ؟ أقول : والله فلان متخرج من كذا وله سوابقه في كذا . . وهذه عمليتي العقلية ، وانتهيت منها . فأسلم زمامي للطبيب . . جلس الطبيب فشخص المرض وجلس يصف الدواء . أنا لا أمسك قلمه عند كتابة أي عقار لأقول له : لن أشربه حتى تقنعني بحكمته وإلا وجب على أن أدرس تسع سنوات في الطب لكي يقنعني . وهكذا يحول عيادته إلى كلية طب مع كل مريض .

فاذا جاء انسان يعودني ويقول لي : لماذا تشرب هذا الدواء ؟ فأنا لا أدخل معه في متاهة لأقول : عندي المعدة تعبانة ، والقناة أصابها ضيق وأن هذا الدواء يؤدي الى تمدد وانتفاخ . . الخ . لا أدخل معه في ذلك ، ولكن أقول : انما أشربه لأن الطبيب وصفه .

اذن فاذا كنا نتعامل مع بعضنا البعض هذا التعامل . ولا أتناقش مع الطبيب لأن مناقشتي معه تعني أنه لا بد أن أكون طبيباً مثله . . اذن فمن الذي يناقش في الحكمة ؟ الذي يناقش في الحكمة دائماً هو المساوي لمن قنن الحكمة : والى أن يوجد مساو لله يناقشه في الحكمة ، تعالى الله علواً كبيراً .

اذن فالاسلام من المؤمنين لله هو مدلول الاسلام . فاذا أسلمنا زمامنا لله وأطعنا ليصرف حركة حياتنا كنا مسلمين حقاً .

رابعاً ـ اعرف صنعة العقل :

ما هي مهمة الفكر ؟ وما الفكر أولاً ؟ الفكر هو الخاصية التي امتاز بها الانسان ، ونسأل : هل للفكر عمل فيما لا بديل له ؟ نقول : لا ، لا عمل للفكر في أمر لا بديل له . اذن للفكر عمله في اختيار البديل . . تكون هناك حاجات متعددة ثم يأتي العقل ليقول : هذا نفعله لأنه أنفع من هذا بدليل كذا وبدليل كذا . .

اذا كان هناك مكان أنا أريد أن أذهب اليه وليس هناك الا طريق واحد فلا عمل للفكر فيه . . أما اذا كان له طريقان أو ثلاثة فيمكن للفكر أن يتدخل فيه . اذ فمهمة الفكر هي الاختيار بين البدائل ، وبهذا تمتاز أنت عن الحيوان . من الذي يوازن بين البدائل ؟ هو الفكر . بدليل أن الفكر حينما يتعطل بجنون فانه لا يصبح موضعاً للتكليف ، لأن آلة الاختيار بين البدائل لا وجود لها .

اذا لم يكن قد نضج بعد وبلغ الرشد فلا تكليف . . اذا كان هناك اكراه من قوى أعلى يسقط التكليف والمسؤولية . . فعدم تكليف المجنون والمكره ومن لم يبلغ الرشد يدل على أنه لا يمكن أن نحاسب انساناً على تصرف اختار بديلاً فيه اذاً اذ كان عاقلاً ناضج العقل «بالغاً» وألا توجد سلطة تكرهه على العمل .

والايمان ينظم الغرائز ، والانسان محتاج الى اعلاء غرائزه . . ليس الحيوان ، انما هو الانسان . اذن فأمر ضروري وجود الايمان نفسياً ، وارتضائياً . . ووجود الايمان هو الذي ينظم الغرائز ويعليها ولا يقتلعها . . فالغرائز لها مهام ، والله لا يريد اقتلاعها لذلك ، والاسلام لا يصنع من المؤمن شيئاً جامداً بحيث ينطبع على شيء واحد . ولكن الشيء الواحد الذي يطبعه عليه هو أن يسلم قيادة لمنهج خالقه ، وبعد ذلك لا يجمده ، لأنه يريده ذا غرائز ، ولكنه يعلى من هذه الغرائز حتى لا تضر الغير .

يعلى غرائز حب الامتلاك حتى لا تصل الى السطوة والسيطرة ، ويعلى الغرائز الجنسية بالزواج حتى يكون المجتمع نظيفاً شريفاً ، يعلى غريزة طلب القوة حتى لا تكون نهماً وشرهة ، يعلى غريزة حب الاستطلاع حتى لا تكون تجسساً وتتبعاً لعورات الناس . . اذن فكل غريزة من غرائز الانسان جاء الاسلام ليعدلها لا ليجمدها .

والانسان حينما ينظر الى هذه المسألة يعتقد أن قوة أعلا منه هي التي نظمت له هذه الأشياء ، والقوة التي هي أعلا منه لا يستنكف الانسان أن يخضع لها . لماذا ؟ لأنها قوة مطلقة أعلا منه ، وهي التي خلقتني وأمدتني بقوة منها .

خامسا ـ احذر خداع النفس :

القيم العليا هي هي حتى عند المنحرف ، فالصادق محترم حتى عند الكاذب ، والمستقيم محترم حتى عند المعوج ، وقد ضربت مثلاً لأبنائي . . أنتم ثلاثة ، اثنان اتفقا على الانحراف ، والثالث اعتزلهما وظل في قيمه وفي مبادئه وفي أخلاقه .

فاذا صح أن واحداً من الاثنين المنحرفين له أخت وأراد صديقه المنحرف أن يخطبها لنفسه ، وأراد صديقه الجاد الذي اعتزلهما أن يخطبها لنفسه . فأسألكم بالله لمن يقبل خطبتها ؟ أللصديق المنحرف ، أم للصديق المستقيم الذي جانبهما وظل في خيره وجماله ؟ لا شك في أنه سيؤثر الثاني ؟ لماذا ؟ لأن المسألة مسألة قيم تمسه ، فحينما مسته لجأ للقيم ، فهو لا يأمن المنحرف على أخته ، لماذا ؟ لأنه يعرف نظرته للقيم وللخير .

والقيم هي القيم كما عرضها القرآن ممثلة في لقطة بسيطة من سورة يوسف . . هذه اللقطة تبين لنا أن القيم هي القيم حتى عند المنحرف .

يوسف عليه السلام دخل السجن ، ودخل معه السجن فتيان فقال أحدهما : اني أراني أعصر خمراً . وقال الآخر : اني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه . **«نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين»** .

إذن كان هذان الفتيان يريان يوسف من المحسنين ، فبأي ميزان من موازين الاحسان قيما يوسف وهما سجينان على مخالفة . . وهما اقتنعا بأن طلبهما عند يوسف . ولماذا ؟ لأنهما رأياه من المحسنين . اذن فهما قد نظرا الى سلوكه والى سمته والى كل تصرفاته فراقتهما هذه التصرفات وأعجبهما ذلك السلوك ، ولو لم يكن عندهما مقياس الاحسان لما استطاعا أن يقيما فعل يوسف حتى يقولا فيه : انه من المحسنين .

إذن فهما رغم انحرافهما يعلمان الإحسان ، ويعلمان القيم التي تقيم الإحسان ، وحينما اضطرتهما ظروفهما الخاصة إلى أن يلجآ إلى الإحسان لجآ إليه ، لأنهما لا يغشان أنفسهما في أمور تتعلق بهما . فذهبا صاغرين إلى يوسف وقالا : **« نبئنا بتأويله أنا نراك من المحسنين »** .

اذن فالقيم هي القيم حتى عند المنحرف . . ولكن الذي يسهل للمنحرف الخروج عن القيم هو : حب المعالجة والنفعيات الطارئة دون نظر الى خير يراه صاحب الشهوة دون النظر الى أنه نفع يراه صاحب الشهوة يعقبه شر . وقديماً قيل : لا خير في خير بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة .

سادساً ـ لا تدخل في الايمان ما ليس منه :

الذي يفسد على الناس ايمانهم أنهم يدخلون في الايمان ما ليس منه . يدخلون في الايمان الكيفية مثلاً : كيف يصنع الله كذا . كيف يفعل كذا ولا يفعل كذا . من يفعل ذلك نقول له : لا . أنت زدت عن حدك . الايمان هو الوجود فقط . أما الكيفيات والصور فلا ضرورة لها . يكفيك من الايمان أن تعلم أن وراء الكون قوة عليا قادرة حكيمة مدبرة خلقت هذا الكون . هذا هو الإيمان . كيفية هذه القوة ماذا ؟ ما شكلها ؟ كيف تفعل ؟ هذا ليس عمل العقل .

اذن الذي يفسد على الناس ايمانهم أنهم يدخلون في الايمان ما ليس منه . . ولذلك حينما عرض الحق هذه القضية عرضها في أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام حين قال : «**رب أرني كيف تحيي الموتى**» انظر كلمة «كيف» أدخلت في الايمان ما ليس منه . فقال الله له ولنا : «**أو لم تؤمن قال**» له «**بلى**» . يعني آمنت . بم آمنت ما دمت تسأل ؟ آمن بأنه يحيي ، وهذا هو المطلوب ، والأمر الزائد عن المطلوب أنه سأل : كيف ؟ وهذه لا علاقة لها بالإيمان . ولذلك فالسطحيون الذين يريدون أن ينفذو الى نقد القرآن يقولون : يا أخي القرآن يقول : أو لم تؤمن قال بلى . ودلالة بلى يعني آمنت . والايمان : اطمئنان القلب الى قضية ما . فكيف يقول : ليطمئن قلبي ؟ ومعنى هذا أن الاطمئنان غير موجود ، يريد أن يوجد الاطمئنان ، فيكون هنا تناقض . يعني سيدنا ابراهيم لم يؤمن . لأن الايمان هو الاطمئنان . وهو قال : ليطمئن قلبي . يكون هناك تناقض . ونقول : أقال : أيحيي الموتى أو لا تحيي ؟ لا . بل قال : كيف ؟ فالسؤال عن الكيفية لا عن أصل القضية وجوداً من المولى وأنه يحيي الموتى ، فلا تناقض ، لأن معنى آمنت : آمنت بأنك تحيي الموتى لكن أريد أن أرى الكيفية .

فالايمان اذن لا بد أن تأخذه على قدر الوجود ، أما الكيفيات فليست مطلوبة في الايمان . وما دمت تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فهذه محصلة الايمان ، فأدخل هذه الأشياء بالجزم الى مرتبة التصديق ، حتى يأتي التصرف السلوكي وله رصيد من يقين ينبوعي في القلب وفي الوجدان .

سابعاً ـ الأمانة التي حملها الانسان هي الأختيار :

الأنس والجن هما الثقلان ، وهما مناط التكليف في منطقة الاختيار بين الأجناس . بقية الأجناس لا اختيار لها ، ولذلك لا تكليف لها . حينما عرض الحق هذه القضية عرضها في آية الأمانة ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً** ﴾ .

ما هي الأمانة ؟ هي كما نعرفها : أن يوجد حق لك عند أو لا . فان كان موثقاً بكتابة معناها : لا حرية لك في أن تقر بأنها عندك أو لا . اذن فالأمانة وليدة الاختيار بالاقرار .

فلما عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال أبين أن يحملنها . فكلمة «أبين» لا تدل على المعصية ، لأن المسألة ليست تكليفاً يعرض ، والعرض المعروض علي لي حرية أن أقبله أو لا أقبله . فليس معنى الاباء عصيان أمر الله بعدم القبول .

وهنا مشكلة تتمثل فيها مشاكل الحياة فيما يتعلق بالأمانات . يأتي انسان فيقول : عندي مائة جنيه وأخاف عليها ، خذها أمانة عندك . فأنت حين تأخذها تقدر ساعة الأخذ أنك ستؤديها لأنك قدرت أمر نفسك ساعة التحمل لكن الكلام في وقت الأداء هل ستظل ذمتك ساعة الأداء مثلها في ساعة التحمل أم تتغير ؟

السماء والأرض لم تأمن نفسها ساعة الأداء ، خافت من المخالفة ، فمن أول الأمر لم ترد الاختيار ، وأرادت أن تكون مسيرة . والانسان قدر أمره ساعة التحمل ، ولم يقدر أمره ساعة الأداء وأنه سيتعرض للمغريات في الحياة . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **انه كان ظلوماً جهولا** ﴾ جهول ساعة الأداء هل سيؤدي أو لا يؤدي . ظلوم لأنه حمل نفسه مسألة أكبر منه .

اذن الذي قبل أن يكون مسخراً غير مختار كان أسلم له . والسماء والأرض والجبال اختارت طريق السلامة . لكن الانسان بعقله قبل . وقال الله : **﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾** .

فساعة الأداء هي التي تـديـر الاختيـار . والحق يعلمنا ويقول : لا تغتر بنفسك ساعة التحمل ، ولكن أعرف نفسك ساعة الأداء .

ثامناً ـ المختار الطائع أفضل من الملائكة :

الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم لأنهم ليس لهم اختيار في شيء . والثقلان هما مناط الاختيار ، فالله خلق لهما قوة اختيار يطيعان بها وقد يعصيان . والذي له عنصر الاختيار أن يطيع وأن يعصي اذا حمل نفسه على منهج الله فأطاع ولم يخالف أمر ربه ، فأين تكون منزلته بالنسبة لمن لا اختيار له في أن يطيع أو يعصي ؟ لا شك أن المقهور على الطاعة أقل منزلة من الجن والأنس الذي يحمل نفسه على الطاعة ولا يعصي ربه مع تكوينه الذي يمكنه من أن يعصي . فالذي يختار الطاعة وهو قادر على أن يعصي خير من الطائع الذي لا يستطيع أن يعصي .

وقد كان ابليس بهذه المنزلة ، ولذلك كان مقدماً في حضرة الملائكة لأنه أطاع ربه بالاختيار ، وما دام كذلك فقد تساوى مع الملائكة في الطاعة ، فهو طاووس الملائكة . وكان يدل عليهم بأنه لم يعص مع أن له اختياراً في أن يطيع أو يعصي .

تاسعاً ـ لا اكراه :

ما معنى الاكراه ؟ الاكراه : أن يحملك على ما لا تختار . فما دام يكرهك بمعنى يحملك على ما لا تختار فلا يكون عقاب . اذن الذي يفسد عليك الاختيار يرفع عنك العقوبة . فمعنى ذلك : أن مكلف العباد سبحانه ضامن لك الاختيار ، بدليل أنه حينما يأتي واحد ويكرهك على العمل فلا يكون عليك عقوبة . . فمعنى هذا أن الذي خلقك خلقك مختاراً ، فلا بد أن تكون مؤمناً بكل ما يكون منه ، فاذا تدخلت قوة لتكرهك على شيء أنت تختار غيره يكون الحساب في هذه الحالة قد ارتفع عنك .

وهنا نسأل سؤالاً : لماذا لا يتدخل القدر مع الناس في بعض المسائل ؟ مثلاً في أنه يأتي أول الشهر فلا يمتنع أحد عن صرف راتبه . من الذي امتنع في أول الشهر عن أن يذهب ليصرف راتبه ؟ لا يوجد أحد الا أن يأتي للشخص ظـرف قاهر . . لماذا لم يتدخل القدر هنا ؟ هذا طيــب . لنتصور أن رئيس الجمهورية يقول: أنا مسافر الساعة الرابعة صباحاً ، وأريد الوزراء وكذا وكذا يكون في توديعي . من الذي يتأخر ؟ لا أحد . . لماذا لـم يتأخروا ؟ لكن اذا قيل : أن الفجر يؤذن . . الله أكبر . . وقيل لك : تعال الى الصلاة فلا تذهب . لماذا تدخل القدر هنا ولم يتدخل هناك ؟ أروني واحداً من الذين امتحنوا في الثانوية تأخر عن موعد الحصة الأولى من الامتحان مهما كانت المسافة في المواصلات بعيدة ؟ لماذا رتب أموره هكذا بحيث وقع على ما يختار ؟

لكن اذا قيل له : صل ، أو اعمل خيراً ما ، يقول لك : القدر تدخل . لماذا لم يتدخل القدر الا في الأمور المطلوبة تكليفاً . وفي أمور دنياه ترتب تلك الأمور ولا يتدخل القدر ؟

والمسرفون على أنفسهم هم الذين يثيرون هذا السؤال دائماً : مسير أو مخير .

بسم الله الرحمن الرحيم

تسخير الجن وكرامات الأولياء

تسخير الجن

لكل جنس قانون يحكمه

كل جنس في الوجود له قانون . والغلط ينشأ من أن آخذ جنسا وأحاكمه أمام قانون الجنس الآخر . . ولو أنني أخذت قانون الجنس نفسه وحاكمته به لما نشأ الغلط . . لا يجوز أن أحاكم الجن بقانون الإنس ، ولا الإنس بقانون الجن ، ولا الإنسان بقانون الجماد ، ولا الجماد بقانون الإنسان .

والأمور التي تغيب عنا فالحجة فيها لمن يشاهدها حين تنتقل إلى الشهادة . . حين ينتقل الغيب إلى المشهود تصبح الحجة عند من يشاهدها .

وحين ننظر إلى الوجود نرى أن الحق سبحانه وتعالى ترك لنا الأمور المشاهدة وعرضها علينا عرضا يبين قدرته ، وذلك يجعلنا نستقبل الغيب عنا بثقتنا في الله الذي قال . . وعقلنا ليس حجة في أن كل ما لم يدركه حسه لا نؤمن به ، لأن العقل غابت عنه أشياء كثيرة من مادته ، ثم اكتشفها ، فصارت من الأمور المحسة . . إذن العقل في الأمور المادية قد اكتشف شيئا كان غيبا عنه ، ولم يكن يدركه بإحساس ، وبعد ذلك صار الآن يدركه بإحساسه ، إذن كان هذا الأمر في رتبة برزخية بين المشهد والغيب إذن حين يكون هناك غيب ثم صار مشهداً فهذا لا يعطي العقل منطق الإنكار ، لأننا علمناه مشهداً بعد أن كان غيبا .

ومعظم الماديات الموجودة الآن كانت غيبا عنا ، فإذا حدثنا بها أحد قديما ما كان أحد يصدقها ، ثم صارت مشهداً . . فإذا كلمنا الحق عن الأمور الغيبية نأخذ الأمور التي كانت غيبا ثم صارت مشهداً بعد ذلك عمدة على أنه ما دام هذا قد دل

على غيب فمن الممكن أن يقول لي الله : إن هناك غيوبا لا تعلمها .

التجارب العلمية تصدق الغيب :

والحق سبحانه وتعالى لما خلق الإنس خلقهم من الشكل الخاص المادي من الطين ، وأعطاهم حقيقة الحياة ، وحقيقة الحركة . وقال لنا الحق : إننا قضية مادية يستدل بها على قضايا غيبية . . كيف ذلك ؟

قال الحق : إني خلقتك أيها الإنسان من الطين ، والطين مادي ، وأنت أيها الانسان بشكلك هذا مادي ، ففي المادي المخلوق وهو الإنسان ، وفي المادي الذي خلق منه الانسان وهو الطين ، يجب أن تجري تجربة علمية . . تجربة تطبيق بين الانسان المخلوق وبين الطين الذي هو أصله .

الله يقول : إن الانسان مخلوق من الطين . والطين بعد تحليله علميا فيه ستة عشر عنصرا ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهي بآثار من المنجنيز : الأكسوجين ، والكربون ، والأيدروجين ، والمغنسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والكبريت ، والحديد ، واليود ، إلى آخره .

هذه هي العناصر الموجودة في الطين . والعلم الحديث أثبت أن هذه العناصر الستة عشر هي المكونة لمادة الإنسان . . طبعا الذي حلل هذا وحلل هذا لم يكن يقصد إثبات صدق الله تعالى ، ولا أن يستخدم هذه المقارنة في إثبات وجود الله . بل العملية نشاط ذهني . ونشاط الذهن دفعه إلى تحليل الطين وتحليل جسد الانسان بدون أن يقصد إلى إثبات صدق الله . .

لكننا نحن كمؤمنين نلتقط هذه الاشارات لنستخدمها في قضية الايمان ، لأن الله تعالى يقول :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

وهذه القضية الإجمالية معناها : أن الحق يقول : إن العبد إذا استخدم نشاطه الذهني فسيكتشف أشياء مطابقة لقضية الدين وسيضطر إلى ردها إليها .

وفي قضية المقارنة بين الطين والإنسان نجد هذا الكلام صادقاً ، نجد العناصر الستة عشر الموجودة في الطين موجودة في جسد الإنسان بالتمام

والكمال . . هذا هو الواقع . وهكذا استدللنا بالمشهود على الغيب .

أحيانا يمرض الإنسان ، والطبيب يصف له الحديد أو الفسفور أو غيرها من العناصر الستة عشر ، لأنها ناقصة في جسمه ، وبذلك يعتدل مزاجه . وهذا دليل آخر .

فإذ جاء الحق وقال : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾ . فإني أقول : إن صدقه سبحانه وتعالى فيما دخل تحت تجربتنا نحن البشر يؤكد صدقه فيما لم يدخل تحت تجربتنا .

منهج الحق في إقناع البشر :

وكذلك الحق سبحانه وتعالى شأنه في عرض القضايا . . حين يعرض قضية مختلفا فيها لا يأتي بهذه القضية المختلف فيها ويتكلم عنها ، وذلك لئلا نختلف ، هذا له رأي ، وذاك له رأي . . بل يأتي فيجعل الأساس قضية متفقا عليها ، لئلا يطول أسلوب الجدل في قمة الإيمان .

فهو سبحانه وتعالى في قضية الانسان والطين ، أو قضية الاستدلال بالمشهود على الغيب ـ وهي قضية يختلف فيها الناس ـ جاء بقضية لا يختلف عليها أحد وهي مدلول الآية ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم . حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ . وجعلها أساسا للاقناع ، ولم يختلف أحد على تطابق الطين والانسان في التكوين ، ومن ثم لا يختلفون في الاستدلال بذلك على خلق الله للانسان .

وفي موضع آخر من القرآن يقول الله تعالى على طريق المنهج الإلهي في عرض القضايا : ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ . فهو لا يناقش : لماذا دخلت المعركة ؟ لماذا ولماذا ؟ هل دخلت المعركة لتحقق ذاتك ؟ هل دخلت لتحقق شخصيتك ؟ لا دخل لله في ذلك ، ولكنهم يدعون أنهم جند الله . . وحينئذ سنناقشهم ، ونقول لهم : لا ، أنتم دخلتم لأمجادكم ، دخلتم للكسب ، سيطول الجدل وسنختلف كثيرا دون جدوى .

لكن ننظر في عواقب المعركة وتطبق القاعدة الإلهية ، فإذا انتهت بأنك مغلوب فأنت لست من جند الله ، وإن انتصرت فأنت من جند الله .

يقول قائل : أي معركة دخلها المؤمنون حتى مع رسول الله ﷺ وانهزموا فيها ، ألم يكونوا من جند الله ؟ نقول : الجندي طاعة . فإذا خالف فساعة خالف حصلت الهزيمة . . المسلمون هزموا في أحد ، أمر الرسول ﷺ بأوامر ، فخولفت هذه الأوامر ، فحصلت الهزيمة . . هذا قانون لا ينخرم ، لأنهم لو انتصروا مع المخالفة فسيقولون : خالفنا فانتصرنا . . إذن ساعة المخالفة خرجوا عن كونهم جند الله . . وساعة الطاعة ثبتوا جنداً لله . . وهذه قضية مشهورة تدل على صدق الغيب الأعظم وحكمته .

إذن كل قضية يمكن أن يختلف الناس فيها يردها الحق سبحانه إلى قضية لا خلاف فيها . . حين قال الحق : إني خلقت الإنسان من طين ، تجد القضية صادقة في المناهج العلمية . وإذا قال : ﴿ **الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ . فالمنطق العقلي يوجب تصديقه سبحانه انطلاقا من صدق القضية المشهورة قضية الإنسان والطين .

قانون خلق الجن :

يأتي في نفس القضية ويقول : إني خلقت جنسا آخر هو « الجن » : ﴿ **والجن خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ . نقول : نعم ، ما دام الجن خلق من النار ، والإنس من الطين ، فما طبيعة تكوينهما ؟ طبيعة تكوين كل منهما هي طبيعة عناصره . عندنا طبيعة عناصر تكوين تعطي : كثافة وظلمة . طبيعية وعناصر تكوين تعطي شفافية . الأولى للإنس والثانية للجن .

إذ ما هو من قانون الشفافية أخف مما هو من قانون الظلمة والكثافة ، لأن الحواجز لا تستقر أمام مادته ولا تحجبها . . إذا جلست بجوار حائط ، ووراء الحائط شيء لا يمكن أن أحس بذلك الشيء لأنه محجوب عني بالجدار . . أما إذا كان خلف الجدار نار فإني أجد أثرها وأحس بها وصلت إلي من خلال الجدار ، وتضطرني إلى أن أنتقل من مكاني .

إذن عنصر الجن في التنقل ، وعنصره في المكان قد خلق بقانون أقوى من قانوني

بعد ذلك نأتي للإنسان ، هل الناس متكافئون في المواهب ، أو فيهم القوي والضعيف ، والشاطر والخامل ، والذكي والغبي ، إلى آخره ؟ وكذلك الجن أيضاً . إذن ما دمنا أخذنا أن قانون الجن أشف من قانون الإنس ، وبعد ذلك يتفاضل الإنس في مميزاتهم ، وكذلك يتفاضل الجن في ذواتهم ، إذن هنا قضية عامة يجمعها قانون السرعة والشفافية . وهم في أنفسهم متفاوتون .

قانون السرعة وقانون الشفافية :

والحق سبحانه عرض القضية في قصة سليمان وبلقيس .. سليمان يريد أن يحضر عرش بلقيس ، قال : ﴿ **أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين** ﴾ . قبل أن يأتوني مسلمين يدل على أنه كان عنده علم بأنهم في طريقهم إليه .. ومعنى ذلك أن من يتعرض للجواب ليحضر عرش بلقيس قبل أن يأتوا ، يحتاج إلى قوتين : قوة إيمانية ، وقوة سرعة أو طاقة سرعة : يذهب ويأتي بالعرش قبل أن يأتوا بالفعل . هذا ليس شعور بشر .. بل قوة وطاقة .. فوق البشر .

إذن سليمان ساعة تكلم كانوا في طريقهم إليه . ومن هنا لم يتكلم بشر عادي ، لأن قانونه لا ينهض لذلك . هل تكلم جني عادي من أصحاب القانون الأوفق والأخف ، والسرعة التي هي أقوى من سرعتي ، والنفاذ الذي لا يملكه الطين ؟ لا ، لم يتكلم جني عادي ، بل نوع ثاقب من الجن خاص (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) . عفريت يعني : جني ثاقب . كما نقول نحن : فلان عفريت . يعني الذي تكلم جني غير عادي . البشر العادي لم يتكلم . الجني العادي لم يتكلم .. عفريت من الجن هو الذي تكلم . وهذا يدل على أنها قوة تفوق خاصة في نفس الجن .

قال العفريت من الجن : (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) . من الذي يحدد الزمن ؟ الذي يحدد الزمن هم الجالسون . إن قالوا : سنجلس ساعة سيحضر العرش قبل ساعة ، إن قالوا : سنجلس ساعتين سيحضر العرش قبل ساعتين ؟

العلم الإلهي الموهوب فوق القوانين :

(قال الذي عنده علم من الكتاب) . ما الذي دفع صاحب العلم من الكتاب

إلى أن يتكلم وهو يرى هذا التفوق عند العفريت ؟ إذن عنده قانون أشف وأرق من قانون العفريت من الجن . . وهو يعلم أن سليمان عليه السلام يريد أن ينهي هذه المسألة بسرعة ، يريد إحضارهم قبل أن يصلوا إليه . . يريد أن يطمئن على وصولهم . . والذي عنده علم من الكتاب إنس عادي . . إذن العنصر هو الذي يتحكم فيمن يصدر منه الفعل إذا كان العنصر هو الفاعل وحده ، لكن إذا كان الفاعل هو الله يستطيع أن يوجد من العنصر الأدنى ما يتسلط على العنصر الأعلى ، لأن المسألة ليست مسألة قانون عنصر حينئذ ، لكن هي إرادة الخالق يعني أن الناموس لا يحكمه أبداً .

قال الذي عنده علم من الكتاب . هو إنس ، لكن عنده علم من الكتاب . ما هو العلم من الكتاب ؟ يعني : شفافية في فهم أسرار الكتاب . والشفافية التي أعطاها له في فهم أسرار الكتاب ليست من قانون الإنس ، ولا من قانون الجن ، ولا من قانون العفريت من الجن . . لأن الشفافية هنا انتقلت إلى المقنن ، لأنه قال : ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ . هذه الكلمات حين ينطقها الذي أوتي علما من الكتاب يكون طرف سليمان قد ارتد إليه . . لذلك لم يحصل كلام . . لأن الله قال : ﴿ **فلما رآه مستقراً عنده** ﴾ . لأنه لو تكلم كان طرف سليمان قد ارتد وقد يكون سليمان قد انبهر من كلام الرجل فحملق فيه ، وفي الحال أحضر عالم الكتاب عرش بلقيس ، ورآه سليمان مستقراً عنده ، كل ذلك قبل أن يرتد طرف سليمان .

إذن ذلك يدلنا على أن الشيء بعنصره له قانون ، والشيء بالذكاء في استعمال العنصر له قانون ، والجن العادي له قانون ، والعفريت من الجن له قانون ، ولكن ذلك القانون لا يحكم الخالق ، بل الخالق يستطيع أن يعطي الجنس الأدنى ما يتفوق به على الجنس الأعلى . وأصل ذلك في آدم الطيني أنه فجر نور العلم من ظلمة الطين .

نتائج هذه القضية :

ولقد عرض الله هذه القضية لنستنبط منها أشياء ، فما هي الأشياء التي

نستنبطها منها ؟؟ نستنبط منها أن كل جنس له قانون ، والقانون عام وخاص ، أو مطلق ومقيد . والقانون المقيد به يخضع الشيء لعناصر تكوينه ، وعلى قدر تثبته في العناصر يكون القانون .

والفرق بين القانون الذي يطلقه البشر والذي يطلقه الخالق : أن البشر حر في أن يطلق القانون أو لا يطلقه . يعني مثلاً حينما أريد أن أصوب الرصاص إلى هدف ، والبندقية سليمة ، والهدف منصوب ، أنا حر في أن أطلق الرصاص أو لا أطلقه . هذا حين أطلق القانون . . ولكن إذا أطلقت الرصاص بالفعل لا أستطيع أن أتحكم في أنه لا يصيب الهدف . . . والحق سبحانه يطلق القانون ، يقدر أن يقول للرصاص : لا تصب الهدف يستطيع أن يبطل قانون السبب ، ليعمل قانون خالق السبب . وآية ذلك قصة إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، فبطل قانونها ، وتحول إحراق النار إلى برد وسلام . كان يمكن أن تمطر السماء وتطفيء النار ، ولكن الله أراد أن يقول لنا : إنه يملك خرق الأسباب والقوانين ، ويمكن من يشاء مما يشاء . سبحانه له الخلق والأمر .

ولذلك حين عرض الله تعالى هذه القضية قال : ليس من المعجز لنا أن نعطي البشر من قانونهم العادي قوة تتحكم في القانون الأعلى . . لكن هذا العطاء خطر على البشر ، لم أطلق هذا العطاء في البشر لأنه خطر عليهم ، لأنك إذا عشت في مجتمع فالذي يحكم تصرفك : أن القانون الذي تستعمله يمكن أن تتميز به على غيرك ، ومن هذا التميز يمكن أن تطغي على الغير . . فلكي تعيش بأدبك في المجتمع لا بد أن يكون القانون الذي يحكمكم جميعاً واحد . . مثلا واحد أعطته قدرته وإمكانياته مسدسا والآخر أعطته عصا . صاحب المسدس يمكن إذا غضب غضبه أن يصنع جناية .

فالله يقول : لا أريد أن أعطيك قانونا تتميز به على أفراد جنسك الذين يعيشون معك لتضمن العيش في سلام مع مجتمعك ، ولو أعطيتك أكثر من هذا لا تضمن ألا تستعمله فيما يضر . . . أنا منعت عنك هذا السبب . ولئلا تقول : إن الله لا يستطيع أن يعطيني القانون الأعلى فسأعطيك القانون الأعلى بالفعل ولكنه سيكون خطراً عليك .

القرآن يقول : ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ .

يعني : سنعطيك القانون ، وتتحكم في الجنس الأعلى من جنسك ، ولكن هذا خطر عليك ، لأنك حينما تعيش في المجتمع متميزا هكذا ، ربما لا تستطيع أن تضبط نفسك ، فتستعمل هذا القانون في الشر . وإذا استعملته في الشر فقد أصبح هذا القانون فتنة لك ، وربما وصل بك إلى الكفر .

ويمكن أن تتعلم هذا القانون (ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) .

إذن فالإنسان يميل إلى استعمال هذا القانون فيما يضر . . والله تعالى يقول : ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ . ولهذا فلم يطلق الله هذا القانون بين البشر ، بل أعطاه بقدر ، وأوقف أثره على إذنه ﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ .

إمكان السيطرة على الجن :

إذن فمن الإنس قوم مكنهم الله من السيطرة على هؤلاء الجن ، وهم لا يتصرفون في الأشياء بقوانين الإنس ، لكن بقوانين الجن . . وما داموا يتصرفون بقوانين الجن فقد أعطاهم من القوة أن يحضروهم . .

والوقائع التي تحدث في هذا الموضوع نوعان : نوع حقيقة واقعة ، ونوع مدعي ادعاء وبداية دعوى الشيء بأن إنسانا يستطيع أن يعمل عملا ، أو يحضر عملا أو يبطله مثلا لا بد أن تكون لها سابقة حقيقة وواقع . ولو لم تكن لها سابقة حقيقة وواقع لما استطاع أحد أن يدعيها . إذن كون واحد يدعي شيئا لا بد أن يكون له واقع حدث ثم ادعى بعد ذلك . . فمن ادعى الطب فهو لم يدع الطب ابتداء ، إنما هناك طب حقيقي فادعاه هذا المدعي . ومن ادعى غيب النجوم كذلك .

الحقيقة والدجل :

إذن الصورة التي تحدث في المجتمع نوعان : نوع له حقيقة ، ونوع دجل . والدجل يجوز على من لا يقظة له ولا انتباه . لكن إذا كان هناك ناس عندهم يقظة وانتباه ، وحرسوا الدجال فإنه لا يستطيع أن يموه عليهم . . لكن إذا عمدنا إلى الجني وسخرناه ليحضر لنا شيئا فأحدث ضجة فهو حقيقة .

هل كل ما نراه حقيقة ؟ كل شيء حين نراه يمكن إرجاعه إلى الصلاح أو الفساد . . والغيب نوعان : نوع غيب عني وعن كل أحد ، أو هو غيب عني فقط ، وهو معلوم للغير . . وما دام غيبا عني ومعلوما للغير فمن الجائز أن أحصل على أخبار وأشياء لا يعرفها أحد عن طريق الجن أو عن طريق غير الجن . . كما نقول : رجال المباحث يأتون بأخبار لا نعرفها وهم من البشر ، وما دام هناك نوع من البشر يمكنه بذكائه ودهائه أن يعطيني أخبارا غائبة عني ، فأغبى جني يمكنه أن يعطيني أخبارا أحسن من أكفأ إنسان .

إن القوانين تحكمها سلسلة : أدنى قانون في الأعلى هو أعلى قانون في الأدنى .

أثر النية في استعمال المواهب :

من يريد أن يأخذ قانونا يزيد به فرصة في الكون ما مقصده في هذا ؟ أو ما القصد من هذا ؟ لماذا يريد أن يتفوق على المجتمع بقانون خاص ؟ لأنه يريد أن يتميز ويتفوق . . لكن الذي تريده لا تأخذه . . بل يكون بادىء الأمر شراً عليك . فيمسخك الله ويشوه شكلك ، وتصبح حياتك كحياة الفقراء ، تصبح حياتك المادية كلها استثناء . لماذا ؟

لأن نيتك تتغير من الخير إلى الشر . . قد يدخل الإنسان على الشيء وفي نيته الخير منه . . ولكنك تقدر نفسك ساعة الأخذ ، ولا تقدرها ساعة الإعطاء . . يعني مثلا يأتيك واحد ويقول : معي عشرة جنيهات خذها أمانة عندك . . فآخذها وفي نيتي ردها عند طلبها ، نيتي ساعة الأخذ كانت حسنة ، وساعة الإعطاء غيب عني لم أقدره . . فكذلك من يقول : أنا أتعلم تسخير الجن لأستعمله في الخير ،

نقول له : أنت لا تستطيع أن تضمن نفسك أن تدوم على نية الخير ، لأن هناك ظروفا تتغير فيها النفس وتميل إلى الشر . . كما تملك السلاح للدفاع عن النفس ، لكن قد تأتي ظروف ، ويكلمك واحد بكلمة تسوءك فتطلق عليه النار . . إذن على المؤمن ألا يقدر نفسه ساعة الأخذ فقط ، بل عليه أن يقدرها ساعة الإعطاء ، وهل سيملك نفسه أو لا يملكها .

الذي يخضع للتسخير هو الشرير :

والجنس الذي سيسخره الإنسان لا يخلو من أحد نوعين : إما جني خير ، وإما جني شرير . . والجني الخير مثل الإنسي الخير ، لا يستطيع أحد أن يسخره . . إذن لا يخضع للتسخير إلا الجني الشرير ، والجنس الشرير يتعب من سخره أولا (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) يعوذون بهم : يلجأون إليهم ليعطوهم الامتياز فزادوهم تعبا ، لأنهم تكبروا وتأبوا على قسمة الحق لهم بقانون الإنس . فالله يقول لهم : وأنا أعطيت القانون لمن هو أحسن منك . . لا يقال : إن الأعمال بالنيات ، لأن نيتك أن تتفوق على البشر بقانون غير قانون البشر .

وهذه المسألة تتصل بقضية إيمانية هي قضية الأمانة ، وحمل الأمانة . فأنت تأبيت وتكبرت على قسمة الله لك بقانون ، والأرض والجبال أبت أن تحمل الأمانة ، ومع ذلك فقد خرجت أنت عن حد أدب القسمة ، ولم تخرج الأرض والجبال عن حد أدب العرض . فقوله تعالى في الأرض والجبال : ﴿ **أبين أن يحملنها** ﴾ ليس معناه : عصين أمر الله ، لأن الله لم يقل : إنه أمر ، ولكنه قال : عرض . والعرض لا يستلزم الحتمية . . بل هناك اختيار . لو كان أمر لما قال الله تعالى عنهما : ﴿ **أتينا طائعين** ﴾ . فحين أبيا حمل الأمانة لم يخرجا عن أدب العرض .

وحملها الإنسان . لماذا حملها ؟ ثقة بأنه سيحسن الاختيار بين البديلات ، ويعمل ما فيه المصلحة والخير . ونقول له : إن مع العقل هوى ، والهوى هو الذي سيفسد عليك الاختيار . . وغرور الإنسان هو الذي جعله يقبلها . وهكذا في

موضوعنا هذا . قدر أنه سيستعمل تسخير الجنس الأعلى في الخير ، ولكن هواه دخل حاجزا بينه وبين عقله ، فظلم نفسه ، حين جهل حاله عند الأداء .

إذن كل ما نراه من الخوارق فهو من عمل الأرواح الشريرة الهائمة في الكون . . وهذه لها طلاسم وأسماء وأسرار يستطيع الإنسان بها أن يسخر غيره . . فيعمل الأعمال التي لا يستطيع أن يعملها الإنسان ، ولا الجن العادي يستطيع أن يعملها . . لكن هل هذا يقدم أو يؤخر في حياة الإنسان ؟ لا . بدليل أننا نجد من ينهجون هذا المنهج كلهم مصابين في أشياء كثيرة ،ومتعبين في أشياء كثيرة ، رغم الأشياء يعملونها .

إذن فما دام هناك خلق مستور عنا ، ولهم قوانين ، والحق يمكن الجنس الأدنى أن يتحكم في الجنس الأعلى ، فإذا حدثت أشياء من هذا القبيل فهي مسألة طبيعية في الكون ، هناك بشر عادي ، وبشر شاطر ، وجني شاطر ، ويفوق هؤلاء كلهم الذي عنده علم من الكتاب .

كرامات الأولياء

الله يعطي من يشاء :

ما معنى العلم من الكتاب ؟ معناه أنه فهم أسرار الله في كلماته . . الله يعلمه إياها . إذن لما قال الله ﴿ **قال الذي عنده علم من الكتاب** ﴾ فالعلم هل هو ذاتي في الناس ؟ لا ، إنه ليس ذاتيا فيهم ، بل هو بالتحصيل ، يشترك معك فيه من حصله مثلك . . أما العلم الآخر فيأخذه الإنسان دون أن يشترك معه فيه غيره . . فهو لا يعلم غيبا ، ولكنه يعلم (بفتح اللام) غيبا .

فإذا كان الحق هو الذي يطالع بعض أحبابه على شيء من غيبه كما في قصة الخضر العبد الصالح الذي رافقه سيدنا موسى عليه السلام . فإنما ذلك ليعلم عباده أنه تعالى يستطيع أن يعلم بعض خلقه منه مباشرة ﴿ **وعلمناه من لدنا علما** ﴾ .

سيدنا موسى رسول ، والعبد الصالح من جنس رعية سيدنا موسى الرسالية . . فهو يأخذ منه التكاليف الشرعية ، لكن الحق سبحانه وتعالى قال حتى

للرسل : أنا أستطيع أن أعطي عبدي مباشرة مني له . . لماذا ؟ لأنه ما دام الحق سبحانه وتعالى يأمر الخلق كلهم فيقول : ﴿ **لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم** ﴾ . أفليس الرسول من المؤمنين بهذا ؟ نعم فهو رسول ، ويجب عليه ألا يسخر من أحد ، لعل الله أعطاه سرا من خلف ظهر الرسول ، لأن الممنوع هو أن يعطي من خلف الرسول هو الحمل التكليفي ، ولذلك فالعبد الصالح كان مؤدبا فقال : (وما فعلته عن أمري) .

لو أن موسى عليه السلام عرف ما عرفه العبد الصالح لبادر إلى عمل الأشياء التي عملها العبد الصالح . ولم يكن يستنكف أن يعمله أبدا . . لو علم أن ملكا يأخذ السفن غصبا والسنينة ملك لمساكين ، فماذا كان يعمل بسفينة المساكين ؟ كان يعيبها حتما . . ولذلك فالمقارنة الأولى كانت مقارنة خاطئة . . فموسى عليه السلام قارن بين سفينة سليمة وسفينة مخروقة . وهذه مقارنة غير واضحة ولا واقعية . . والمقارنة الصحيحة هي بين سفينة مخروقة ولا سفينة إطلاقا . . هذه هي المقارنة الصحيحة . لو أن موسى خير بين سفينة مخروقة ولا سفينة فأيهما يختار ؟ يختار المخروقة طبعا . . ولو أن الله أطلعه على أن ملكا يغتصب السفن لكان خرق السفينة بنفسه حتما . إذن فالمقارنة يجب أن تكون بأصولها ، يجب أن تكون بين سفينة مخروقة ولا سفينة أصلا . لا بد أن أختار أن أخرقها أنا . ما الذي جعل موسى لا يفعل ذلك ؟ لأنه لا علم له بهذه المسألة الخلفية .

ومثال آخر : حين كان يريد أن يبني الجدار . لقد أتيا أهل قرية واستطعما أهلها . . كانا جائعين وطلبا طعاما فلم يعطهم أهل القرية . . هذه قرية لئيمة . . العبد الصالح وجد جدارا مائلا يوشك أن يقع فأقامه من جديد ولم يطلب أجراً . عجب موسى عليه السلام ، كيف تكون هذه القرية اللئيمة أهلا للمعاونة ، كيف نقيم لهم الجدار بلا أجر وهم لم يعطونا طعاما ؟ هذا كلام منطقي تماما . لكن وقولـه : (أبوا أن يضيفوهما) فيها حيثية العمل ، لأنها تدل على أنها قرية لئيمة ، فلو أن الجدار وقع كان أهلها أخذوا كنز اليتيمين وأنكروه ، لأنهم لئام ، ولو كانت قرية كريمة لكان أهلها يؤتمنون على مثل هذا الكنز . . .

والمانع لموسى من العمل هو عين الدافع للعبد الصالح إلى العمل . . لأن

الحجة واحدة . **﴿ أما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾** .

فهي قرية لئيمة ، ولؤمها هو الذي دفع موسى إلى طلب الأجر ، ودفع العبد الصالح إلى إقامة الجدار بلا أجر . . لؤم أهل القرية هو سبب هذا وسبب ذلك .

والحقيقة أن العبد الصالح لم يعن أهل القرية ، بل عمل فيهم نكاية . . لأن لو لم يقم الجدار لانقض ووقع ، وظهر كنز اليتيمين ، واستولى عليه أهل القرية ، وأنكروه من اليتيمين .

إذن كل هذا العرض الذي عرضه القرآن معناه : أن الحق سبحانه يعطي أشياء لبعض خواص خلقه ، لأن الحق حينما يستوفي القدر المطلوب منا جميعا وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فهناك بعض الناس يأخذ منهج الله ويقول : لقد فرض الله علي خمس صلوات وهو يستحق أكثر من ذلك ، فرض علي زكاة هي ربع العشر من مالي ، وهو يستحق مالي كله ، وهكذا يلزم هذا العبد نفسه بالنوافل وعمل البر في كل حال من أحواله . . لا يمكن أن يسوي الله تعالى بين هذا وبين من اقتصر على الفريضة وحدها ، لأن الإنسان إذا دخل في مقام الود مع إنسان آخر فإنه يفيض عليه هذا الإنسان البشر من خصوصياته . يقول له : أنا فقير فيفيض عليه من ماله . . وهكذا في كل شيء ، لأن استطراق مالك سيأتي عندي . فالله سيعطيني أيضا من خصوصياته .

فالذي أصفى لله الود فالله سيعطيه خصوصيات ، هذه الخصوصيات لا بد أن تكون خارقة للقانون العام . . لكن لا يعطيني إعطاء مطلقا ، بمعنى أني أفعل كل شيء ، وأعلم كل شيء ، بل يفيض علي متى شاء ، ويمنع عني متى شاء .

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك إشارة لطيفة في قوله : **﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾** . عنده المفتاح ، أي يفتح هو ثم يعطيك ما أراد ثم يغلق هو ، لا يعطيك المفتاح أبدا ، المفاتيح يحتفظ بها عنده ، وذلك لئلا يدعي واحد أنه يعلم الغيب ، لئلا تعود العطية الإلهية مقننأ في نفس العبد الصالح وذاتيته فيطغى . . وإذا كان كل شيء يلجأ إلى الله فيجب ألا ينسى الخليفة أنه خليفة لئلا يغتر بنفسه .

ساعة يذكر الإنسان أنه خليفة فإن أموره كلها تسير سيرا حسنا ، أما إذا اعتبر نفسه أصيلا ، ولاحظ خضوع الناس له ، فإن الله تعالى يصيبهم بالضعف والحاجة . . ونحن نلاحظ ذلك في أنفسنا . . فإذا كان عندك أولاد ، وكل يوم تعطي لكل منهم مصروفه ، فالولد يمر عليك كل يوم لهذا السبب ، أما إذا أعطيته كل مصروفه في الشهر أول الشهر ، فإن يهمل أن يمر عليك ، لأنه استغنى .

وكذلك أولياء الله ، يعطيهم الله بقدر ما يستديم حاجتهم إليه دائما ، لئلا يفتتنوا . يقول الله تعالى : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾ . هذا ما اختص الله به وحده ، ولا يطلع عليه أحدا إلا بإذنه ، وليس له مقدمات يمكن للذكي أن يستخدمها ليعلمها ، وبقية الغيوب لها مقدمات لو كنت ذكيا عرفتها بها . أما ما اختص الله بعلمه والمذكور في الآية وآية ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر**﴾ فليس لها مقدمات، بل هي إفاضة مباشرة .

وخطأ الناس في الفهم جعلهم يتهجمون على القرآن ، ويقولون كيف اختص الله تعالى بعلم ما في الأرحام والطب الحديث الآن يحدد نوع المولود وهل هو ذكر أو أنثى ، ونقول لهم : وكيف حددتم معنى « ما » بأنه الذكر والأنثى فقط . هو قال : ﴿ **ما في الأرحام** ﴾ فحصرتموه في الذكر والأنثى فقط .

هيا ادعو أهل العلم ليعلموا هل هو طويل أو قصير ، أسمر أو أبيض ، سعيد أو شقي ، ذكي أو غبي ، صالح أو طالح ، ما الذي جعلك تحدد معنى « ما في الأرحام » هكذا ؟

صدقوا قول الله :

يقول الله تعالى في الحديث القدسي :﴿ **ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضته عليه،وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه،فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به** ﴾ . فإذا قال لك هذا الرجل :إي سمعت رجلاً في الإسكندرية يناديني فلا يصح أن يقول : سمعت ، بل يجب أن يقول : أسمعت

(بضم الهمزة وكسر الميم) . أما السمع الذاتي فلا . . هذا مستحيل . . أما إذا كان الله سمعه فالله يتحكم في قانون الصوت « وكنت عينه التي يبصر بها » أي إن الله يتحكم في قانون الضوء فيجعل عبده يرى على البعد « وكنت يده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » . وهكذا . .

هذا رجل مأمون على قانون القدرة ، لا قانون الذات . . والله تعالى يريد منا في مسألة الخوارق أن نؤمن بها وبإمكانيتها ، أي نؤمن بأنها ممكنة ، ويصح أن تحدث ، ما دامت المسألة موكولة إلى القدرة فإيمانك يتسع لها ، وبعد ذلك تأتي مسألة تحقق وقوعها ، تحقق الوقوع هذا لا حجة من أحد على أحد فيه . من رآى فهو حجة على نفسه وإذا أخبر بها فصدقه على قدر توثيقه ، والمقصود من هذه الخوارق : تثبيت إيمان ويقين من يراها لا كل الناس . . هي مصنوعة لإيمان واحد أو اثنين أو أكثر ، لعل الله يقوم بها عقيدة زائغة .

المعجزة أعلا درجات الكرامة :

ورسول الله ﷺ مبلغ عن الله ، ودليل صدقه أمارة ، والأمارة هي شيء عمله ولا يستطيع الناس جميعا أن يفعلوه . . ومعجزته من جنس ما يعلمون ، لئلا يقولوا : لو تعلمناها لعملناها . فهو يقول : أنتم تعلمون ، ومن علمكم أعجزكم . . كل المعجزات السابقة كانت تأتي من نوع حسي ، لكن النوع الحسي وإن أعطي يقينا فإنه ينتهي . . فلق البحر لموسى حسي ، من رآه آمن به ، لكنه وقع مرة واحدة ، وبقي بعد ذلك خبرا بعد عين . ولولا أن القرآن حكاه لما علمناه . هذه معجزة كونية حسية تناسب عقول البشر في طفولتها .

أما الإسلام فلأنه دين خاتم وشامل للبشرية كلها فلا يمكن أن تكون معجزته حسية ثم تنتهي كسابقاتها . فخص الله رسوله ﷺ بمعجزة تماثل قدر رسالته علو زمان وعلو مكان ، بحيث أن أي إنسان يؤمن على مر الزمن بمحمد يستطيع أن يقول : أنا أؤمن بمحمد وهذه معجزته ، وتابع عيسى لا يستطيع أن يقولها ، لأن التاريخ هو الذي حدثنا عن معجزة عيسى .

وقد يقول قائل : ولم لم يخص الله محمدا بمعجزات حسية كما خص بقية

الرسل ؟ نقول : نعم وقد فعل ، ولكنها لم تكن إلا للقلة التي كانت في عصره ، فإن صدقتها فأهلا وسهلا ، وإن لم تصدقها فابحث عن توثيقتها . فالمعجزة الحسية حجة على من رآها ، ومن لم يرها فهي بالنسبة له خبر .

لقد كفى الطعام القليل ناسا كثيرين على رسول الله ﷺ، ومن رأى هذه الواقعة فهي حجة عليه. وسيدنا جابر بن عبد الله لما مر مع رسول الله ﷺ والنخل لم يأت بمحصول كثير، وجابر مهموم لأنه كان مدينا ليهودي، ورجا جابر رسول الله ﷺ أن يستمهل اليهودي بدين جابر ، فاستمهله رسول الله ﷺ، فقال له : لا يا أبا القاسم . فذهب رسول الله إلى جابر فقال : يا جابر ، أين عريشك ؟ فذهب به إليه ، وجاءه بطبق فيه رطب ، فنام رسول الله ﷺ في النخل وقال : « يا جابر ، جذ واقض . »

قال جابر : فذهبت فجذذت فقضيت اليهودي حقه ، وبقى عندي ما لم يبقى عندي في عام قبله . . فضحك رسول الله ﷺ وقال :«أشهد أني رسول الله » .

هذا تثبيت لرسول الله ﷺ ولجابر ، ولكن الناس يخلطون ، يلزموننا بالإيمان بها وهي حجة على من رآها فقط ، أما القرآن فهو حجة على الجميع .

وكذلك نستقبل كرامات من أفاض الله عليهم . . إذا حدثك واحد عن كرامة واحد وأنت استقرأتها بالنسبة للقوانين هل هو صادق أو كاذب فليس مطلوب منك أن تصدقه ، لأنها ليست مصنوعة لك ، المصنوع لك هو الكرامة التي تراها بعينك أنت ، لتعطي لك طاقة من الإيمان . .

إذن فالكرامة على هذا القدر ، وبعض الناس يستقبلها بالاستهزاء ، وبعضهم يستقبلها بالتقريظ ، من الذي يستقبلها بالتقريظ ؟ الذي حدثت له ، الذي رآها بعينه . أما أنت يا من لم تر بعينك فأنت حر في أن تصدق أو تكذب ، أنت خارج عن النظام .

الفهرست

* عظمة الإسلام ٥
* معركة التشكيك في الإسلام ٢٣
* ١٧ قضية في ميزان الإسلام ٥٣
* الرسل بين مكة والمدينة ٨٩
* الكعبة في حماية الله ١٠٧
* الإسراء والمعراج ١٣٩
* قضايا معاصرة ١٨٥
* الإنسان مسير أو مخير ٢٣٣
* تسخير الجن وكرامات الأولياء ٢٦٣

القرآن الكريم
معجزة ومنهج

تأليف

الشيخ محمد متولي شعراوي

٣

دار الندوة الجديدة

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهُ وَالنَّفْسُ البَشَرِيَّة

اللّه والنفس البشرية

ان الانسان يتصل بالعالم الخارجي بواسطة بالفطرة . . نحس بها ولكننا لا نفهمها . . فنحن حين نحب ونكره . . مهما حاولنا تفسير ذلك الاحساس لا نستطيع ان نصل الى حقيقته . . وعندما نولد تبدأ الفطرة عملها . . قبل الحواس . .

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه : ان الانسان في صلته بالعالم الخارجي يتمتع بما نسميه الحاسة . . أو الحواس . . فأنت ككائن بشري حين تتصل بالعالم الذي يحيط بك . . فانك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هي : أن يسمع الانسان ويرى ويشم ويلمس ويتذوق . . هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجي ونميز بواسطتها هذا العالم ، بل ونعطيه صفاته التي نطلقها عليه . . فصفات الألوان مثلا نميزها بحاسة البصر . . ونوع الطعام مثلا نعطيه لفظ الحلو . . ولفظ المر . . ولفظ الجيد . . ولفظ الرديء . . بحاسة الذوق الى آخر هذا الكلام . . اذن فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس . . ولكن ماذا عن عالم ما هو داخل النفس البشرية . . وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الانسان . . وما هو موجود في داخله . . هل يتم هذا الاتصال عن طريق الحواس . . أو عن طريق اشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس البديهيات . . وبعض الناس لفظ الهام خاص . . وبعض الناس ألفاظ أخرى . . ولكن المؤكد أن هذا الاحساس الذي يتم بالنسبة لما في داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التي تتصل بها بالعالم الخارجي . . وانما يتم عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها كما قلت الهام أو أحساس داخلي الى آخر هذا .

ولنشرح الموضوع بشيء من التفصيل . . نبدأ أولاً بالاشياء التي يصل اليها الانسان عن طريق حواسه التي توصله بالعالم الخارجي . . فهو يرى ألوانا مختلفة . . ويسمع أصواتا مختلفة . . ويلمس اشياء مختلفة . . ويتذوق طعاما مختلفا . . ويشم روائح مختلفة . . هذا هو اتصال الانسان بالعالم الخارجي . . اما اتصاله بما في داخله فيأتي مثلا عن طريق شعوره بالجوع . . اننا لا نرى الجوع . . ولا نلمسه . . ولا نشمه . . ولا نتذوقه . . ولكننا نشعر به . . وما ينطبق على الجوع . . ينطبق على الأشياء الأخرى . . مثل الحب والكره مثلا . . الانسان يحب شخصا ما . . يكره شخصا ما . . أو شيئا ما . . دون أن يكون لذلك سبب حسي معروف . .

اذن فهناك أشياء في داخلنا . . تسمح لنا بأن نشعر شعورا معينا . . هذا الشعور نحس به ونعرفه تماما . . ولكننا لا نراه بحواسنا . . ان الانسان مهما قال في شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع ان يصل الى الحاسة التي تسبب الحب . . أو التي تسبب الكراهية . . فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس . . التي يتصل بها الانسان بالعالم الخارجي . . أو التي تحدد علاقة الانسان بالعالم المادي . . ومن هنا فان العلماء حريصون حينما يتحدثون عن الحواس أن يقولوا أن هذه الحواس هي التي توصل الانسان بالعالم الخارجي . . وان الانسان له ملكات وغرائز وشعور والهام . . واشياء أخرى في داخله توصله بداخل النفس البشرية . . وتؤثر في هذه النفس . .

والذي لا يخضع للمنطق ان نحاول أن ننكر أن في داخل الانسان أشياء كثيرة غير الحواس التي توصله بالعالم الخارجي . . وان الانسان يستطيع أن يتصل بالعالم . . بينما ما بداخله يترك بلا اتصال أو احساس معين بل الحقيقة أن الالهام أو الشعور والاحساس بما في داخل النفس البشرية يوجد قبل احساس هذه النفس بما حولها من العالم . . تلك سنة الخلق . . فالطفل الصغير مثلا يحس بالجوع والعطش . . ويعبر عنهما بالبكاء قبل أن يستطيع ان يستخدم حواسه في الاتصال بالعالم الخارجي . . وهو يحس بالحنان والدفء . . والحب والكره . . والقسوة . . والرحمة . . كل هذه الأشياء توجد في داخل نفسه مع دقات الحياة الأولى . . بينما الحواس قد تنتظر أسابيع أوشهورا قبل أن تستطيع أن تؤدي مهمتها بشكل يمكن ان يعبر عنه .

واذا درسنا هذه الحواس الداخلية . . نجد ان اقواها هو احساس الانسان بوجود

الله . هذا الاحساس الذي قد يفتقر الى شيء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته . . والكون . . ووجوده . . وكل شيء من هذا النوع . . ولكن هذا الاحساس يؤكد وجود قوة داخل الانسان تدفعه الى أن يشعر ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى . .

أحاسيس النفس : ولكي اوضح هذه النقطة . . أحب أن أقول ان النفس البشرية التي فيها أحاسيس لا نستطيع ان نحللها بدقة . . ولا أن نصل اليها لنعرف ما هي . . تحس أيضاً هذه النفس احساسا يقينيا بوجود الله سبحانه وتعالى . . فاسم الله مثلا هو شيء لا تدركه الحواس الخمس . . لأنه اكبر من قدرتها . . ولكن تدركه حاسة داخل الانسان . . حاسة غير مرئية . . ومن هنا فان كلمة الله التي هي فوق قدرة الحواس الخمس . . نجد أن الأذن تفهمها عندما تسمعها . . ولا يمكن للأذن ان تفهم شيئا لايوجد أصلا داخل النفس البشرية . . بحيث يكون التصور هنا ليس غريبا تماما . . على هذه النفس . بل هو معروف لها بشكل قد لا نفهمه نحن . . ولا نستطيع ان نحلله . . ولكنه معروف . . فعندما يذكر لنا أحد اسم الله . . فان الذي يقفز الى عقولنا هو وجود قوة خارقة . . هي التي أوجدت هذا العالم . . وان هذه القوة خارج نطاق العقل . . بل وخارج نطاق الحواس . . اذن . . كيف ندرك وجود هذه القوة . . وكيف يكون اسمها مألوفا عندنا . . وهي خارج نطاق الحواس . . وخارج نطاق العقل . . هنا يأتي ما في داخل النفس . . وهو الالهام . . أو الشعور . . ليقول لنا أن هذه القوة رغم انها فوق مستوى العقل والحواس . . فانها موجودة داخل النفس . . والنفس تفهم وتحس بوجودها . .

وفي العصر القديم بدأ الفلاسفة . . خصوصا فلاسفة اليونان يبحثون عما وراء المادة . . عما وراء هذا العالم المادي . . عن الخلق . . وعن القوة التي اوجدت هذا العالم . . الى آخر فلسفة اليونان القديمة . . عن ما وراء المادة . . من الذي قال لهم ان هناك شيئا وراء العالم المادي . . يجب أن يدرس كيف عرفوا ان هناك شيئا خلاف المادة . . مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئا عن المادة . . ونحن هنا لا نناقش فلسفة اليونان . . وسواء نجحت هذه الفلسفة أو غيرها . . أو فشلت . . موضوع لا يهمنا في هذه الحلقة . . وانما الأمر الذي يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا الى ما وراء الطبيعة . . وانه كانت لديهم أشياء داخل أنفسهم . . ليست أشياء حواسية . . أي لا

تخضع للحواس ليفعلوا ذلك . .

بل ان الانسان منذ فجر التاريخ . منذ بداية خلقه . . وهو يبحث عما وراء المادة . . يبحث عنه بطرقه المختلفة . . وهو احيانا يتخذ سبيلا أو آخر لاظهار خضوعه أو عبوديته لهذه القوة التي هي وراء المادة ولكن المهم في هذا كله . . أن هناك شعورا داخليا في النفس البشرية . . يقول لها أن هناك شيئا وراء الطبيعة . . ان هناك قوة ما وراء هذا العالم . . وأن هذه القوة . . هي قوة عظيمة وخارقة . . هناك شعور داخلي في كل نفس بشرية لوجود الله . . تلك القوة التي هي وراء هذا الكون . . هناك شيء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادي الذي يرونه لا يمكن أن تكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية . .

العالم والمــادة : ولكن هذا العالم المادي نفسه الذي نعيش فيه . . لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور . . لا يمكن أن يقول لنا اذا استخدمنا حواسنا فقط أن هناك قوة قادرة قاهرة خلف كل هذا . . اذن لا بد أن هناك قوة اخرى خلاف هذا العالم المادي هي التي وضعت فينا هذا التصور . . وهو أن هناك شيئا خلاف المادة يجب أن يتم البحث عنه . . ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة . . ولو لم يكن هناك شعور في داخلنا . . واحساس قوي بوجود هذه القوة لما بحثنا . . ولما وجد كل هذا البحث عبر تاريخ البشرية .

على ان هناك ملاحظة اخرى احب ان اسجلها . . هي ان الانسان حين يصل الى مرحلة التفكير في وجود الله . . او المرحلة التي يعقل فيها ان هناك قوة خارقة وراء هذا الكون . . لا بد ان تكون قد مرت فترة من عمره . . فالانسان عادة لا يبدأ في التفكير في مثل هذه الأمور . . والتحدث عنها بعمق دون أن يكون قد تجاوز سن العشرين او الثلاثين على الأقل . . ليكون لديه نضج العقل الكافي لمناقشة أمر عميق كهذا . . والسؤال الذي يجب ان يطرح هنا . . هو بأي منطق عبد هؤلاء الناس الله . . قبل الوصول الى هذه السن . . وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التي تحتاج الى عقل ناضج . . والى علم ودراسة وتأمل . . حتى يستطيعوا ان يصلوا الى أن هناك شيئا وراء المادة . . ولكننا نجد العقول البسيطة التي لم تقرأ كتابا واحدا . . تعرف ان الله موجود . . وتعبده بفهم . . ونجد اولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضوع على

الاطلاق . . يعرفون وجود الله . . ويقومون بعبادته . بل ان اكثرهم يحس بانسجام فطري غريب بأن الله سبحانه وتعالى . . ووجود الكون شيئان لا بد منهما . . وان وجودهما حقيقة داخل النفس . .

ان هذا الشيء نفسه . . هذا الذي يوجد داخل النفس البشرية ليؤكد ان هناك شيئا وراء المادة . . وان هناك قوة كبرى وراء هذا الكون . . دون أن تكون قد وصلت الى سن النضج والدراسة والفلسفة التي تؤهلها لمناقشة هذا الموضوع . . هذا في نفسه دليل على وجود الله سبحانه وتعالى . . فلقد عبدوه عن ايمان خلق في قلوبهم . . منذ اللحظة التي يولدون فيها وانطلاقا من هذا الايمان عندما نضجوا . . قادوا عقولهم الى التفكير . . وسواء سارت العقول في الطريق السليم . . او ضلت الطريق . . فالايمان بالله . . والبحث عنه . . ووجود شيء فوق العالم المادي موجود في النفس البشرية . . بالفطرة وليس بالعلم . . ولو وجد بالعلم لكان لا بد أن يبدأ عندما يبلغ الانسان سن النضج في التفكير . . ولو كان موجودا بالعلم لعندما وصل العلم الى مرتبة العجز . . عجز العقل البشري عن الوصول الى صفات الله وقدراته . . لتركت هذه القضية على أساس انها فوق قدرة العقل . . ولكن بالرغم من انها فوق قدرة العقل . . فهي قضية مثارة . . واجهد الناس انفسهم فيها . . كل واحد يحاول ان يصل الى وجهة نظره حول هذا الموضوع .

ومعنى هذا الجدل كله الذي يمضي ولن ينتهي . . ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادي . . معناها أننا نعرف وجود الله بالفطرة . . وأنه يوجد داخل انفسنا ما يؤكد أن الله موجود . . والا لما أنهكت النفس البشرية قواها في هذا الجدل . . ولكان العقل البشري يعيش مطمئناً وسعيداً بالعالم المادي . . الذي خلق فيه . . ولا يحاول أن يصل الى أكثر من ذلك . .

رسالات السماء

إن الذين اتخذوا إلهاً يعبدونه غير الله . . هم الذين وضعوا منهج العبادة حسب اهوائهم واغراضهم . . ولكن رسالات السماء حددت للانسان طريق العبادة

والطاعة . . وفرق بين عقل يخضع الخالق لحكمه واهوائه . . وبين إله تخضع له كل العقول وتعجز أمامه . .

والايمان بالله قضية مثارة . . اجهد الناس انفسهم فيها . . كل واحد يحاول أن يصل الى وجهة نظره حول هذا الموضوع . . ومعنى هذا الجدل كله الذي يمضي ولن ينتهي . . ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادي . . معناها أننا نعرف وجود الله بالفطرة . . وانه يوجد داخل انفسنا ما يؤكد ان الله موجود . . والا لما انهكت النفس البشرية قواها في هذا الجدل . . ولكان العقل البشري يعيش مطمئنا . . وسعيدا بالعلم المادي الذي خلق فيه .

ولكننا اذا نظرنا الى اولئك الذين يعبدون المادة . . نجد ان نفوسهم في داخلها قلق رهيب . . رغم ما يحققونه من نجاح في العالم المادي ،ففي أمريكا والسويد مثلا . . أعلى نسبة في الانتحار في العالم . . مع أن هذا يخالف المنطق والعقل . . فالذي يقوله المنطق . . انه اذا كان العالم ماديا فقط . . وحصل هؤلاء الناس على كل ما تستطيع المادة ان تهبهم اياه . لكانوا اسعد الناس نفسا . . ولكنهم بشهادة الاحصائيات هم من اشقى شعوب العالم نفسيا . واكثرها عرضة للجنون . . لماذا ؟ . . لأنه يوجد في داخل النفس البشرية شيء ما يؤرقهم . . شيء ما لا يحقق لهم الانسجام بين هذه النفس والكون . . شيء ما يحول حياتهم التي فيها كل انواع الترف الى جحيم نفسي . . ذلك الشيء هو عدم الايمان . . . أنه يورثهم اشياء كثيرة . . تحطم النفس تحطيما . . لماذا ؟ . . لأن الانسان هنا منسجم مع الكون بحواسه الخمس . . التي يتصل بها . . بهذا الكون المادي . . ولكنه ليس منسجما مع نفسه في فطرتها التي خلقت عليها في عبادة الله . . والايمان به . . ومن هنا فانه رغم انسجامه مع الدنيا . شقى داخل نفسه . . لأن هناك شيئا داخل هذه النفس . . يؤرقه . . لا يعطيه الحياة الآمنة المطمئنة . . ذلك الشيء هو الايمان . . بينما نجد أن هناك نفسا بسيطة . . لا تعطيها الدنيا كثيرا . . ولكنها تعيش في اطمئنان غريب . . حياتها حلوة . . قلبها سعيد . . عيشتها مطمئنة . . يضيء داخلها نور الايمان بالغد . . ولا يدخل اليها ظلام اليأس والقلق . . تلك النفس رغم انها غير منسجمة مع العالم المادي في انه لم يعطها كل ما تطلب . . انما هي منسجمة مع داخلها بالايمان بالله . . وهذا الانسجام يأخذ منها كل

الشقاء الذي يقود الى الجنون والانتحار . . ويدخل فيها الطمأنينة . . ويمنحها الحياة السعيدة .

اذن فانسجام النفس مع العالم المادي . . قد يورثها شيئا من الحرمان . ولكن عدم انسجام النفس مع داخلها . . يحطمها تماما . . ويقضي عليها . . ولذلك كما قلت فان الايمان بالله هو من أقوى ما نسميه الفطرة . . أو الالهام . . أو الاحساس الداخلي الذي يجعل الانسان منسجما مع داخل نفسه . . مطمئنا في حياته . . وعدم الايمان يحطم الانسان نفسيا . . رغم ما يحيط به من نعيم مادي . . وهنا يكون الشعور الفطري الذي يولد مع النفس البشرية . . بأن الله موجود . . وانه خالق كل شيء . . ومدبر كل شيء . . يكون هذا الاحساس هو أقوى احساس في داخل النفس وخارجها . . فلا يستطيع أن يعوضه الكون المادي . . وكما يمنحه للنفس البشرية . . ولا تستطيع أن تعوضه الاحاسيس الأخرى التي تولد داخل النفس البشرية . . ونسميها الفطرة . . كالحب والكره . . والجوع . . الى آخره . . تلك الأشياء التي مهما تحدثنا عن أسبابها ومصدرها . . لا نستطيع ان نصل الى الحاسة التي تسبب هذه الأشياء . فلا أحد يستطيع أن يصل الى الحاسة التي تسبب الكره . . او التي تسبب الحب . . أو التي تسبب الحنان . . الى آخر هذا . . ومن هنا فان الايمان بالله يولد فينا بالفطرة . . ثم بعد ذلك نحاول ان نخضعه لتفكير العقل . . وهنا يحدث التضارب .

ولكن اذا كان يوجد داخل انفسنا ما يؤكد وجود الله . . فما الذي أوجد هذا القلق في العالم . . وما الذي أوجد المذاهب المتضاربة . . ولماذا يحاول بعض الناس أن يثبت وجود الله . . وبعض الناس أن ينكر وجود الله ما سبب هذا التضارب العجيب الذي نراه . . ما ذامت النفس البشرية يوجد فيها بالفطرة ما يؤكد وجود الله . .

الحقيقة ان الذي صنع هذا هو أن الفلاسفة وكل من حاول أن يخوض في هذا الموضوع . . وضع الخيال مكان المنطق . . ووضع التصور مكان التفكير . . ومن هنا فان العقل البشري في محاولته أن يخوض فيما هو أكبر من قدراته . . لم يستطع أن يقدم ما يريده . . فانطلق الى الخيال . .

وأريد هنا ان اضرب مثلا يوضح ذلك . . اذا اقفلنا باب هذه الحجرة التي نجلس فيها . . ثم طرق أحدهم الباب فكلنا يعرف أن هناك شخصا ما هو الذي طرق الباب . .

هذه قدراتنا . . وهذه نقطة لا خلاف عليها . . فاذا بدأنا نسأل انفسنا . . من الذي طرق الباب . . هل هو رجل أو امرأة . . قصير ام طويل . . ابيض أم أسود . . عربي أم أعجمي . . هنا تبدأ الخلافات . . لماذا ؟ . . لأننا لا نحكم المنطق . . ولكن نحكم الخيال . .

وهذا هو ما حدث بالنسبة للفلاسفة . . لقد ارهقوا انفسهم في تخيل الله . . مع ان هذا التخيل . . وما يستطيع أن يهبه هذا العالم من مال وامان . . الى آخر ذلك . . ولعل أكبر دليل على ما أقول . . انه في اكثر الدول المتقدمة ماديا . . أعلى نسبة من الانتحار والجنون . . خارج عن نطاق العقل البشري . . ومستحيل . . ذلك لأننا لكي نتخيل شيئا ما . . فان هذا الشيء يجب أن يشبه شيئا في قدرات العقل . . فأنت حين تريد أن تشرح شكلا معينا لانسان . . ولا يستطيع أن يفهمك . . تقول له : انه شيء يشبه الكره مثلا . . وحينئذ تكون قد نقلت هذا التصور من خارج قدرة العقل البشري الى داخلها . . فاستطاع الانسان ان يتصور ذلك الشيء . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . اذن كل ما سيقوله الفلاسفة هو من باب التخيل الذي لا يمكن أن يدركه العقل . . ولا يخضع لمنطق . . ومن هنا فاننا لو حكمنا المنطق لما اختلفنا . . ذلك ان الله سبحانه وتعالى اخبرنا بنفسه عما يريدنا ان نعرفه عنه . . وعن عبادته . . ولكننا نريد أن نتجاوز ذلك . . الى أشياء ليست في قدرة العقل البشري . . فنضيع . . ولو اننا تمسكنا بما قاله لنا الله . . لكان في ذلك المنطق السليم . .

اذن فان ما يؤكد وجود الله . . موجود في قلوبنا بالفطرة . . وطريقة عبادة الله وطاعته . . وكل ما يريدنا ان نعرفه عنه موجودفي رسالاته التي أرسلها بواسطة انبيائه المختارين . . فالمنطق يقول اننا نتبع هذه الرسالات . . والخيال يقول : اننا نبحث عما فوق قدرات العقل . . في غيبيات حجبت عنا . . فنضيع ونتوه . . ذلك أن العقل له وظائف . . ليست من بينها عالم الغيب .

على أن رسالات الله سبحانه وتعالى للبشر . . هي في حقيقتها أكبر دليل على وجود الله . . ذلك انه اذا كانت هناك قوة عليا . . قوة قاهرة قادرة . . تحكم هذا الكون . . وهي التي خلقته . . فان العقل لا يستطيع أن يصل الى هذه القوة . . بمعنى انه لا يستطيع أن يقول ماذا يرضي هذه القوة . . وماذا يغضبها . . وكيف يقوم بالعبادة

والشكر لها . . ذلك ان الله فوق قدرة العقل البشري . . ومن هنا كان لا بد أن تأتينا تعاليم العبادة من الله سبحانه وتعالى . . أي أن يقول لنا الله . . كيف نعبده . . فالانسان حين يعبد الله تتم العبادة بالطريقة التي يحددها الله لعبادته . . اما اذا ترك ذلك للعقل البشري . . فان كل انسان سيحدد لنفسه طريقا يعبد به الله حسب قدراته وفهمه . . وتتضارب الطرق . . وتختلف . . بل وتتناقض مع بعضها البعض . . فكيف يحدد المخلوق الطريقة التي يعبد بها خالقه . ان هذا انتقاص لقدرات الله وعظمته . . ومن هنا كان لا بد ان يعرف الانسان طريقة عبادته لله . . عن الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا نزلت الرسالات السماوية يقول الله للانسان : انني انا الله واذا أردت أن تعبدني فافعل كذا تدخل جنتي . . واذا عصيتني وفعلت كذا وكذا فسيصيبك عذابي . . وانا أحدد لك طريق العبادة حتى لا تضل ولا تضيع . . كان لا بد للرسالات السماوية ان تهبط الى الارض . . الى الانسان لتدله على الخير والشر . . والايمان والفكر . . وتبين له الخيط الأبيض من الخيط الاسود . .

ارسال هذه الرسالات في ذاته معجزة . . ذلك ان كل من عبد غير الله سبحانه وتعالى لم يصله رسالة لتبلغه طريق العبادة . . بل هو الذي اخترع هذا الطريق بعقله . فالذين عبدوا الشمس مثلا . . لم تصلهم رسل من الشمس تقول لهم أعبدوني بطريق كذا وكذا . . وافعلوا كذا ولا تفعلوا كذا .

بل هم الذين حددوها حسب اهوائهم . . وكذلك الذين عبدوا النار . . وكل من عبد شيئا آخر غير الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى الذي هو فوق كل القدرات . . وفوق كل العقول . . أرسل الرسالات الى البشر ليحدد لهم هو الطريقة التي يعبدونه بها . ومن هنا كان الفارق بين عقل يخضع الخالق لحكمه وأهوائه . . وبين اله تخضع له كل العقول وتعجز أمامه .

الانسان وقدرات الكون

« كل القوى التي خلقها الله للانسان هي أكبر منه كثيرا ولكنها مسخرة لخدمته . . فالشمس لا تستطيع أن تقول لن اشرق اليوم . . والمطر لا يستطيع ان يتوقف عن مد

الأرض بالماء . . والرياح لا تستطيع أن تختفي . . ذلك ان هذه القدرات الهائلة رغم انها أكبر من البشر . . فانها مسخرة لخدمته » .

وان الله سبحانه وتعالى قد أخبر عباده بما يريد أن يعرفوه عنه . . حيث انه سبحانه وتعالى فوق كل العقول . . وليس كمثله شيء . .

ومن هنا فان ما ورد في الرسالات السماوية عن الله سبحانه وتعالى . . ومن خلال ما أتاحه الله للعقل البشري أن يعرفه عنه . . وضع الله معجزات في القرآن تدل على أنه الخالق . . وتنبىء الانسان بأشياء لم تكن متاحة للعقل البشري وقت نزول القرآن . . ولكنها بدأت بعد ذلك بالتدريج تدخل بعلم الله الى نطاق العقل البشري . . أي أن الله سبحانه وتعالى حين أنزل كتابه أراد أن يكون هناك عطاء فيه لكل جيل . . حتى قيام الساعة . فالقرآن حينما نزل . . أعطى الذين عاصروه . . ثم أعطى الجيل الذي بعده . . ثم الجيل الذي بعدهم . . ثم جيلنا هذا . . ثم بعد ذلك هو سيعطي الاجيال القادمة . . وكل عطاء مختلف . .

ولكن يجب أن نفرق بين شيئين في الاسلام . . الشيء الأول هو : الفرائض واحكام الدين . . والشيء الثاني وهو ما يحتويه القرآن من معجزات وآيات . . وأشياء عن الكون . . وعن الخلق . . وعن كل ما احتواه القرآن من معان جامعة شاملة .

الجزء الأول وهو المناسك . . او طريق العبادات وكيفيتها . . هذا الجزء لا تبديل فيه ولا تغيير . . ولا تفسير . . واعادة تفسير . . وانما يجب أن يؤخذ وينفذ كما أخذ ونفذ . . وفسر . . في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . . اي أن الصلاة مثلا . . لا يجوز لأي فرد مهما بلغ من العلم أن يبدل فيها . . وما يقال عن الصلاة . . يقال عن الصوم . . يقال عن كل فروض العبادة . . تلك الفروض قد أنـزلت وفسرت . . وتم بيانها للناس وقت نزول الرسالة . . وهي تبين لنا كيف نعبد الله كما يريد الله سبحانه وتعالى ان يعبد .

أما الجزء الثاني وهو عطاء القرآن . . فكلما مر الزمن وجدنا للقرآن عطاء جديدا . . في أشياء أو حقائق كونية كانت غائبة عنا . . ثم دخلت الى منطقة العلم البشري بارادة الله . . فاصبحنا نعيها ونفهمها . . وهنا أجد أن القرآن لا يتصادم أبداً مع حقائق الكون . . ولا يمكن أن ينشأ أي نوع من التصادم . . ذلك لأن الله هو القائل . .

والله هو الفاعل . . والله هو الخالق . .

على أن هناك نقطة الغيب . . او منطقة الغيب . . تلك التي اختص الله سبحانه وتعالى بها نفسه . . أو من أرتضى من رسله وعباده . . وتلك النقطة هي خارج العقل البشري . . أو فوق طاقة هذا العقل . . واذا دخلنا فيها . . تاهت العقول . . وانتقلت من الواقع الى الخيال . . وهنا تضل وتبتعد عن الحقيقة .

ولقد اجهد الفلاسفة انفسهم على مر السنوات في الوصول الى وجود الله . . محاولين استخدام العقل بدلا من الرسالات السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فأنهم أرادوا ان يستخدموا العقل فيما لم يخلق له . . ذلك أن العقل له وظيفة . . أو وظائف في الحياة . . ليس من بينها أن يصل الى وجود الله بعيدا . . أوغير مستخدم الرسائل . . أو الرسالات التي أنزلها الله لعباده . . فهذه الرسالات قد وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة وبين فيها ما هو في قدرة العقل البشري . . منذ يوم خلقه . . الى يوم القيامة . . ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا . . بأن يقدموا للعقل البشري ما هو فوق طاقته . . هذا مستحيل . . فأنت حين تريد أن تجعل انسانا يفهم شيئا . . يجب أن تدخله في قدرة العقل البشري أولا . . فاذا وصفت له شيئا غامضا مثلا . . فان العقل لا يمكن أن يفهمه . . ولكنك لكي تدخل هذا الشيء في نطاق الفهم العقلي . . فأنت تحاول أن تقربه من شيء يفهمه . . كأن تقول مثلا . . أنه شيء يشبه الكره . . حينئذ فانك نقلت هذا الشيء من خارج نطاق الفهم العقلي . . الى داخل هذا النطاق . . واستطعت أن تجعل محدثك يفهم عن أي شيء تتحدث . . ولو أن الفلاسفة الزموا أنفسهم بالمنطق والحقيقة . . لما كانت هناك مشكلة . . ولكنهم رفضوا ذلك . . بل أرادوا هم أن يحددوا أشياء لا تدخل في نطاق الحقيقة والمنطق . . باستخدام الخيال الذي لايعتمد الا على الهوى . . ولقد قال لنا الله في رسالته هذا هو الطريق الى عبادتي . . وشرحه لنا . . وبين لنا الثواب والعقاب . . وهذا دليل قوي على وجود الخالق . . ذلك أن الذين يعبدون الشمس والأصنام . . أو أي شيء غير الله . . فان هذه الأشياء لا ترسل لهم رسالات تقول لهم . . أو تبين لهم . . أو تعلمهم طرق العبادة . . ولذلك لم نسمع عن رسول أرسلته الشمس ليهدي الناس . . مع أن الناس عبدوا الشمس . . ولم نسمع عن رسول أرسله صنم ليهدي الناس . . مع أن الناس

عبدت الأصنام . . والأحجار . . والحيوانات . . وكل شيء في هذه الدنيا عبد بطرق ابتدعها الناس أنفسهم حسب أهوائهم . .

واذا حكمنا المنطق وحده . . والعقل وحده . . فان الاثنين معا لا يقولان لنا أن ندخل في أشياء هي فوق القدرة البشرية . . بالرغم من ذلك . . فان الانسان رغم عجزه يحاول أن يخترق هذه الحجب . . بطريق الجهل . وليس العقل . . ومن هنا فاننا لا نجد أي مدرسة فلسفية حاولت أن تخترق الحجب الى ما وراء المادة . . أو الى العالم غير المادي . . قد وصلت الى نفس النتائج التي وصلت اليها مدرسة أخرى . . بل أن كل مدرسة تصل الى نتيجة قد تكون مخالفة . . أو مناقضة للمدرسة الأخرى . . ولم تصل مدرسة من هذه المدارس الى نتيجة تقبلها كل العقول . .

ومن هنا . . فان الرسالات السماوية قد حملت الينا فوق الاثبات بوجود الله الأدلة على عدم وجود أي شريك لله سبحانه وتعالى في هذا الكون . . فهي أوجدت الدليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى . . وأنه لا اله غيره . . وأن الله أحد . . ليس له شريك . . وذلك حتى لا يدخل الى العقل البشري أن هناك وجودا لأكثر من قوة كبرى خلقت هذا العالم وأوجدته . . وأوجدت كل شيء فيه . . وأعطت العلم للانسان ليسود في الأرض . . ومن هنا فهي نفت أن يكون هناك اله للسماوات . . واله للأرض . . واله للريح . . واله للنجوم . . الى آخر ما كان يتصوره العقل البشري في القرون الماضية . . وما زال بعض الناس يتصورونه حتى الآن . . بل انها قالت أنه رغم ان القوة في العالم مختلفة . . أو موزعة . . فهناك الشمس مثلا بقدراتها على الانارة . . وعلى الدفء . . وعلى انماء الزرع . . وعلى احراق من يقترب منها . . كل هذه القدرات التي هي موجودة في الشمس . . بحيث اذا اختفت الى الأبد اصبحت الحياة مستحيلة . . وهناك قدرات أيضاً في الريح والعواصف . . تدمر . . ثم هي تنقل السحاب من مكان الى آخر . . وتبقى الحياة على الأرض بما فيها من مواد لازمة لحياة الانسان كالاوكسجين مثلا . . بحيث اذا اختفت الريح من الأرض . . وانعدمت . . اصبحت الحياة مستحيلة . . وهناك مثلا الأمطار التي تعطي الأرض مصادر المياه . . والله خلق من الماء كل شيء حي . . اذا توقفت الأمطار . . جفت الأنهار . . وانعدمت الحياة على الأرض . . وهناك الأرض نفسها التي يعيش فوقها الانسان . . انها هي

الأخرى قوة أو قدرة من قدرات الله . . اذا انفجرت هذه الأرض . . وتحطمت . . وتناثرت . . فان الحياة تصبح مستحيلة .

كل هذه القوى . . وغيرها هي قوى . . أوقدرات . . تؤثر في حياة الانسان تأثيرا جذريا . . بل ان اختفاءها عن الكون قد يجعل الحياة منعدمة . . ولكن هذه القوى والقدرات . . وغيرها . . قدرة العلم . . في اختراع أسلحة مدمرة مثلا . . تستطيع أن تفتت الكون . . او تلوث الكون . . فتفني الحياة من على الأرض تماما . . كل هذه القدرات أو القوى ليست في ذاتها آلهة . . وليست هي التي تصنع أي شيء . . بل هي مسخرة لخدمة الانسان . . والذي سخرها هو الله سبحانه وتعالى . . فالشمس ليس لها ارادة مثلا تستطيع ان تقول : اليوم سأشرق . . وغدا لن أشرق . . لن أرسل اشعتي الى الأرض اليوم . . بل سأحجبها عنها . . وأرسلها غدا . . الشمس لا تملك هذه القدرة . . لماذا ؟ . . لأن الله سبحانه وتعالى خلقها وسخرها لهدف معين . . ومن هنا فهي تقوم بوظيفتها فقط . . ولا تملك . . رغم أنها قوة قادرة هائلة . . لا تملك هذه الشمس التحكم في هذه القوة . . بل هي مسخرة لاداء وظيفة معينة لن يعطيها الله العقل لتفكر وتختار . . ولكن أعطاها الوظيفة والقوة . . والقدرة لتعمل لما خلقت من أجله . .

وما يقال عن الشمس . . يقال عن الريح . . وعن الأصنام . . وعن كل القوى الموجودة في العالم . . فلا الريح تستطيع أن تترك الأرض مثلا وتذهب بعيدا . . او أن توقف حركتها . ولا الارض تستطيع أن ترفض الدوران حول نفسها . . ولا أي من هذه القوى التي سخرها الله للانسان تملك لنفسها أن تخرج عن الوظيفة التي سخرها الله من أجلها . .

بل ان الله سبحانه وتعالى سخر ما في السماوات والأرض للانسان . . فنجد مثلا حصانا قوياً جامحا . . يستطيع بقوته أن يقتل عدة أشخاص . . يستطيع أن يفتك بهم . . ومع ذلك نجد طفلا صغيرا لم يبلغ العاشرة من عمره . . يمتطي هذا الحصان . . ويقوده الى حيث يريد . . والحصان يمضي به . . ويطيعه . . فيطلب منه أن يرقد باشارة معينة . . فيرقد . . ويطلب منه أن يتوقف فيتوقف . . ويقوده الى حيث يريد . . وأنت تقول أن هذا الطفل فارس ماهر . . هذا وجهة نظر العلم الأرضي . . ولكن الحقيقة التي يجب أن نتذكرها . . ان الله هو الذي سخر هذا الفرس بكل قدراته

العضلية التي تستطيع أن تمزق هذا الطفل أربا . . سخره لخدمة الانسان . . وخدمة هذا الطفل . . ولو أن هذا الحصان غير مسخر . . وله فكر . . ويستطيع أن يتصرف . . لما استطاع طفل أو رجل مهما كانت قوته أن يمتطيه . . وان يجعله يفعل كما يريد . .

هذه حقيقة كونية . . صحيح ان لركوب الحصان مثلا أو الجمل . . أو أي حيوان آخر طرقا معينة . . يجب أن يتعلمها الانسان . . فتلك سنة الحياة . . ولكن كل هذه القوى مسخرة اولا للانسان . . ولو لم تكن مسخرة له . . لما استطاع أن يقترب منها . . رغم كل علوم الأرض . . وما تستطيع أن تهبه .

وما يقال عن الحصان . . يقال عن الابل . . والبقر . .

اذن كل القوى في هذا الكون سخرها الله لخدمة الانسان . . وقال الله سبحانه وتعالى لنا في رسالاته انا الله أقول لكم أنني خلقت في هذا الكون قوى خارقة أكبر منكم وأقوى . . وأشد لا تستطيعون السيطرة عليها . . ولا اخضاعها بعلمكم لتكون في خدمتكم . . فانتم لا تستطيعون ان توقفوا حركة الشمس . . أو حركة الأرض . . او حركة الريح . . وانتم لا تستطيعون ان تسيطروا على غيركم من مخلوقاتي . . ولكني سخرت هذا كله لكم . . وجعلته في خدمتكم ليصنع لكم الحياة على الأرض . . باذني وبأمري . . وجعلت هذه الأشياء مسخرة ليس لها عقول تفكر بها . . لأقول لكم انني أنا الله خالق كل شيء . . وهذا هو خلقي امامكم . . كل هذه القوى تخضع لي أنا . . وأنا جعلتها في خدمتكم . . جعلتها مسخرة لكم .

هذا ما قدمه الله في كتابه ليتدبر فيه الانسان . . في وجود الله . . ومع ذلك فان الانسان يترك هذا الكتاب . . ويذهب الى ما لا يعرفه . . ويحاول أن يتفلسف بعقله . . ويخلق من خياله اشياء عن الكون . . وكأنما لايكفيه ما أعطاه الله له مما يستطيع أن يعمل فيه العقل البشري سنوات وسنوات طويلة . .

ومن هنا فان دخول العقل البشري في منطقة لايعلم عنها شيئا . . وتركه ما أعطاه الله له . . مما يدخل في قدراته . . تبدأ المدارس الفلسفية المختلفة كلها تبحث عن الله . . بعيدا عن الله . .

الأســمــاء والمـعــاني

اذا قلت كلمة بلا معنى . . فان العقل لا يفهمها . . فالانسان لا يستطيع أن يعقل الا ما يعرفه . فاذا قلت كلمة «الله» وجدتها في كل لغة من لغات العالم . . . ووجدت معناها واحدا في العقول . . انه القوة القاهرة التي خلقت كل شيء . . ولكننا لم نر الله . . ومع ذلك فان العقل يعرفه . .

كل ما في الكون مسخر للانسان . . هذه هي الحقيقة التي اعلنها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز . . وهذه هي الحقيقة التي نجدها في الكون . . فهناك اشياء كثيرة أكبر من قدرة الانسان . . ومن قوته ملايين المرات .

وتستطيع أن تدمره تدميرا . . ومع ذلك فهي مسخرة لخدمته . . فالشمس والأرض . . والرياح . . والمطر . . والحيوانات . . والأنعام وكل ما في الأرض . هو ليعطي الانسان الحياة عليها . . وييسرها له . . ولكن أحدا من هؤلاء جميعا لايملك الارادة ليقول أنني لن أخدم الانسان اليوم . . أو أنني سأعصي أمر الله . . بأن أكون مسخرا لخدمة الانسان . . فلا الشمس مثلا تملك الارادة . لأن تقول انني لن أشرق هذا الصباح . . او أنني لن أرسل اشعتي للأرض اليوم . . ولا المطر يملك أن يقول أنه لن ينزل ليسقي الناس الماء . . ولا الهواء يملك ان يقرر أن يبتعد عن الأرض ويحرمها من الاوكسجين اللازم للحياة . ولا الأرض نفسها تستطيع أن تتوقف عن الدوران . . أو تلقى بمن عليها . . ولا الفرس أو الجـاموس . . أو الجمل على قدر قوتها تملك عصيان الخضوع لطفل صغير ضعيف يستطيع أن يقودها الى اي مكان يريده . . تلك القيادة والسيطرة من الطفل على هذه الحيوانات القوية . . لا تأتي بأنه أخضعها بقوته هو . . ذلك أن قوته عاجزة أمامها تماماً . . ولا وجه للمقارنة . . ولكن الخضوع هنا يأتي بارادة الله الذي سخر هذه الأشياء للانسان في الأرض . .

والانسان قد عبد قوى كثيرة في العالم . . على اساس ان هذه القوى آلهة . . وبعض الناس عبدوا الشمس . . وبعض الناس عبدوا النار . . وبعض الناس عبدوا الاصنام والأحجار . . الى غير ذلك . . وقد جاء القرآن ليؤكد أن الله أحد . . لا شريك له . . وأنه ليس هناك اله في السماء واله في الأرض . . واله للريح . . واله للنجوم . .

لأن كل هذه الأشياء مسخرة للانسان . . ولخدمة الانسان . . ومن هنا فانه اذا كانت هذه الأشياء لا تملك الارادة لنفسها . . فانها بالتالي لا تملك السيادة على غيرها . . ومن هنا فانها خاضعة لقوة كبرى . . هي الله سبحانه وتعالى . . وانها كلها آيات من آيات الله سبحانه وتعالى تدل على وجوده . . وعلى عظمته . . وقدرته . . وقوته .

بل ان الذين يكفرون بالله . . وينكرون وجوده . . هم في الحقيقة يثبتون ان الله سبحانه وتعالى موجود . . ذلك ان قولهم بأن الطبيعة هي منشأ الأشياء . . ومحاولاتهم انكار وجود الله سبحانه وتعالى . . تعني أنهم يحاولون انكار شيء موجود . . اذ أن الشيء غير الموجود لايحتاج الى أي جدل . . أو انكار . . ولا يكون موضع سؤال . . فكيف يطرح على العقل انكار شيء غير موجود . . ما دام هذا الوجود أصلا غير حقيقي . . ان الجدل يحدث عادة حول شيء موجود . . فهذا يؤكده . . وذاك ينكره . . ومن هنا بعض الجدل . . والجدل الذي يثيره الكافرون حول هذا الموضوع . . أساسه شعورهم بالفطرة . . بأن الله موجود . . ثم محاولتهم انكار ذلك باستخدام الهوى والأغراض الشخصية . . لأنهم يريدون أن يخضعوا شريعة الله لأهوائهم . . فمثلاً الجدل الذي يثار حول : هل الأرض كروية . . أو الأرض مسطحة . . أساسه أننا نرى أمامنا الأرض مسطحة . . ثم يأتي العلماء بعد ذلك ليقولوا أن الأرض كروية . . وينفي بعض الناس هذه الحقيقة . . اذن فالجدل هنا نتج عن أن الشيء نفسه موجود . . وأن هناك حقيقة تعرفها أذهاننا . . فالأرض موجودة . . وعيوننا تراها مسطحة . . ولكن لو لم تكن الأرض موجودة أصلاً . . لما نشأ الجدل ابدا عن : هل الأرض كروية أم مسطحة . . اي أن الأصل في انكار الشيء هو وجوده أولا . . فوجود الأرض ذاتها . . ثم وجودها أمامنا منبسطة . . بدأ معه انكار كروية الأرض . . وكانت نقطة البداية . . فلو أن امرأة مثلا ليس لها اطفال . . لا تجد انساناً يقول لك أن هذه المرأة عندها أطفال . . وآخر يقول لك لا . . ويثور جدل حول هذا الموضوع . ذلك ان أحداً لا يدخل في جدل . . عن شيء غير موجود . . ولكن هب أن هذه المرأة لها طفل . . وتخفيه عن عيون الناس . . بعض الناس رأوه . . وبعض الناس لم يروه . . هنا يبدأ الجدل هذا يؤكد . . وهذا ينفي . .

اذن الأصل في حدوث جدل حول شيء هو وجوده اولا . . والأصل في محاولة

الكافرين انكار الألوهية . . وانكار وجود الله هو احساس بأن الله موجود . . وأن هذه حقيقة واقعية . . وهم يحاولون نفيها . . لأنها لا تصادف أهواءهم . . والعجيب انهم في محاولتهم لهذا النفي أو الانكار لاينتبهون الى أشياء تكذبهم . . فمثلا اسم الله تجده في كل لغة من لغات العالم . . بل ان الاسم . . اسم الله سبحانه وتعالى في جميع اللغات له معنى واحد . . وهو الله خالق هذا الكون . . وخالق الانسان . . وخالق كل شيء . . فمن الذي أوجد هذا المعنى الموحد لهذه الكلمة في كل الدنيا . . وبجميع اللغات التي ينطق بها أي بشر . . وكيف يمكن أن يحدث ذلك وهناك من ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى . . كيف يمكن لقوة كبرى لها اسم في كل لغة ينطق بها اي لسان . . وهذا الاسم في معناه . . وفي قدراته موحد في جميع انحاء العالم . . ومع ذلك فهناك من ينكر الوجود أصلا . . ويجادل في ذلك . . ومن الذي وضع الاسم على كل لسان بهذه الصورة . . ومن الذي وضع معناه في كل العقول التي تنطق به . .

واذا دققنا في علم اللغة . . وصلتها بالانسان . . فان أهم ما يدرس الآن بالنسبة لاستخدام اللغة . . هو اتصال الكلمات بالعقل . . وهذا الاتصال هو الذي يعطي التأثير الفكري للكلمة في ذهن الانسان . . أي أن المعنى يكون موجودا أصلا في الذهن . . وتأتي الكلمة لتبرز صورة هذا المعنى الى العقل . . فاذا قلنا منزل مثلا . . فان له معنى معينا في عقولنا . . هو مكان يقيم فيه الناس . . مكون من عدة حجرات . . الى آخر ذلك . . ومن هنا فانه اذا ذكرت الكلمة . . قفز المعنى الموجود اصلا في العقل . . لتكون مقبولة . . أما اذا قلت كلمة بلا معنى لم يلحظها العقل . . ولم يعرف وجودها جيدا . . كأن تأتي لرجل عاش في أرض سهلة لم ير جبلا في حياته . . ثم تقول له كلمة جبل . . انه لا يستطيع أن يتصور ما معنى جبل . . ولا يفهم شيئا . . ذلك انه لم يعقل هذا الشيء الذي يتحدث عنه أو تقوله له . . ومن هنا فهو لا يفهمه . . ولا يعرفه . . لأنه لم يدخل الى عقله أولا . . ولكنك اذا قلت كلمة الله . . فان العقول كلها تفهمها . . على أنها تلك القوة القادرة . . القاهرة . . التي خلقت الدنيا كلها . . ولكننا لم نر الله . فكيف نفهم هذه الكلمة . . لو أن الله غير موجود فينا بالفطرة . . وغير موجود في عقولنا ونفوسنا . . لما فهمناها ابدا . . ولما أخذت هذا المعنى العالمي الذي ينسجم مع النفس البشرية . . ان يقيننا بوجود الله هو الذي يجعلنا نفهم هذه الكلمة . . ووجود الله

فينا بالفطرة هو الذي يجعلها تدخل الى عقولنا لأن اي كلمة لايمكن أن تكون مفهومة الا اذا كان معناها ومدلولها موجودين في العقل البشري أولا . . بل أن وجود هذا المعنى يجب أن يسبق الكلمة نفسها فأنت لا تستطيع أن تحدث أحدا بكلمة جبل . . ويفهم ما تقول . . أو بكلمة « قوي » ويفهم ما تقول . . الا اذا كان المعنى موجودا أولا في عقله . . قبل أن تنطق بالكلمة . . فالمعنى يوجد أولا . . ثم بعد ذلك توجد الكلمات الدالة عليه . . واذا راجعنا قواميس اللغة في جميع انحاء العالم . . نجد أن الكلمات الموجودة فيها هي لأشياء موجودة أصلاً . . وأن هذه القواميس تراجع كل عام لاضافة أسماء لأشياء وجدت . ولم تكن موجودة في العام الذي قبله . . وذلك يعني أن الشيء يوجد أولاً ثم بعد ذلك يعطى تسمية . . بل أن هذا في حياتنا اليومية . . ملحوظ في كل شيء . . فهناك أسماء كثيرة في اللغة تضاف الى القواميس كل عام . . وهناك علماء متخصصون يجتمعون في مجمع اللغة .. ليضعوا الاسماء لمعاني أو لأشياء وجدت . . ولم تكن موجودة . . اذن فالأصل أن يوجد الشيء أولا . . ثم يضع الانسان له الاسم . . ووجود اسم الله سبحانه وتعالى في جميع لغات الأرض . . وبمعنى موحد في جميع اذهان البشر . . دليل على ان الله سبحانه وتعالى موجود قبل ان توجد البشرية نفسها . . وقبل ان ينطق لسان بأي لغة . .

وبهذا نكون قد وصلنا الى حقيقتين هامتين . . الحقيقة الأولى أن نفي الشيء لا يمكن أن يكون مطروحاً الا اذا كان الشيء نفسه موجوداً . . والثاني أن معنى اي شيء يجب أن يكون سابقاً لاسمه . .

الحقيقة الثالثة التي وصلنا اليها . . اننا اذا اردنا ان نعرف شيئا عن الله سبحانه وتعالى . . فاننا يجب ان نصل الى العلم الصحيح عن طريق ما اعطاه الله لنا . . مما يريدنا أن نعرفه عنه . . والا نترك ذلك . . وندخل في متاهات الفلسفة التي تحاول استخدام العقل . فيما هو فوق قدرة العقل . . وبذلك تضل ولا تصل الى حقيقة . .

فاذا أردنا أن نزداد قربا من الله . . ومعرفة به . . فيجب ان نتجه الى رسالات السماء التي أرسلها الله سبحانه وتعالى للبشر . . ليخبرهم بها عما يريد سبحانه وتعالى أن يعرفوه عنه . . وعن هذا الكون . . وعن الخلق والكون . . والحياة والبعث . . ذلك ان هذه الرسالات هي الطريق الوحيد لهذا العلم . .

يقول الله سبحانه وتعالى في قرانه . . « انه خلق آدم . . خلق الانسان . . وآدم هذا من خلق الله سبحانه وتعالى . . لم يخلقه طفلا له أب وأم . . وينمو . . كماهو الحال في المخلوقات البشرية التي نمت من سلالة آدم . . ولكنه خلقه رجلا كامل الرجولة . . رجلا لم يكن طفلا في حياته في يوم من الأيام . . ووجد آدم نفسه مخلوقا من الله سبحانه وتعالى . . رجلا كامل النمو . . تسجد له الملائكة » . .

وقال لنا القرآن أن آدم خلق من تراب . . ومن هنا فان آدم في خلقه هذا لم يكن رجلا له ماض معروف . . بل كان رجلا بلا ماض . . دخل الى الوجود بقدرة الله . .

ثم قال الله سبحانه وتعالى . . ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ . . هنا قول الله سبحانه وتعالى هو منشأ العلم البشري . . فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية اخبرنا ان العلم البشري . . أو العلم الذي أعطيته لكم أيها البشر . . يجب أن يبدأ بالطريقة التي وضعها الله سبحانه وتعالى . . وهي تعليم الأسماء . . وانني لكي يبدأ العقل البشري الذي وضعته في آدم الحصول على المعرفة . . يجب أن يتعلم أولا الأسماء . .

ناخذ نحن هذه القصة . . ثم نسأل أنفسنا ان الله سبحانه وتعالى قال : « ان منشأ العلم الأسماء » . . اي أن أي انسان لايستطيع أن يبدأ التعلم الا اذا عرف معاني الأسماء تماما كما علم الله آدم . . مبتدئا بالأسماء . . نجد أننا بعد مرور اربعة عشر قرنا . . ورغم تطور كل رسائل الدنيا . . عاجزون عن أن نغير هذه الحقيقة التي اعلنها الله في القرآن . . فنحن حين يبدأ العقل البشري خطواته الأولى في طريق العلم . . يجب أن يبدأها بتعلم الاسماء مهما اختلفت طرق التعليم وفلسفاته في العالم اجمع . . فنحن نأتي الى الطفل الصغير ونقول له : هذا كوب . . وهذا سلم . . وهذا طبق وهذه سيارة . . وهذا أسد . . وهذا فيل . . وهذه سماء . . وهذه ارض . . ثم بعد أن نعلمه الأسماء يستطيع هو أن ينطلق في العلم كما يشاء . . ولكننا لا نستطيع ... ولن نستطيع أن نعلم الطفل شيئا قبل أن نعلمه الأسماء . . لا نستطيع أن نبدأ بتعليمه اية معلومات . . لا تدخل الى عقله الا اذا تعلم معاني الأسماء . . بل ان الطفل يظل لفترة طويلة في حياته بالفطرة . . يتعلم الأسماء . . فاذا خرج طفل مع امه في نزهة . . فانه يسألها عن اسم هذا . . واسم هذا . . واسم هذا . . واذا جلس في البيت فانه يحاول ان يسأل عن أسماء اي شيء غريب يقع عليه نظره . . وكلمة ما هذا التي يقولها الطفل

لأبيه وامه . . هي اكثر الكلمات ترددا في سني حياته الأولى بالفطرة . . لماذا ؟ . . لان هذا هو منشأ العلم . . مدخل العلم الذي وضعه الله سبحانه وتعالى للعقل البشري . . فاذا كنا بعد أربعة عشر قرنـا . . لم نستطع ان نجعل الانسان يتعلم شيئا الا اذا علمناه الأسماء اولا . . والأسماء هذه هي ما علمها الله لآدم . . انطلاقا للعقل البشري . . ليدخل الى العالم والمعرفة . . فاذا كان المدخل من الله . . فهل يكون العلم البشري من غير الله ؟ . .

معنـــى الوجـــود

وحينما ندخل المسجد . . نجد عباد الله جالسين معا . . عقول كلها مختلفة في السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعي والطباع والعادات وكل شيء . . ولكنها كلها منسجمة في عبادة الله . . تركع معا . . وتسجد معا وتسبح معا . .

لقد اجهد الفلاسفة انفسهم على مر سنوات طويلة في محاولة الوصول الى وجود الله . . باستخدام العقل بدلا من الرسالات السماوية . . ومن هنا فانهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له . . ذلك ان العقل له وظائف ليس من بينها أن يصل الى وجود الله بعيدا . . او غير مستخدم الرسالات التي انزلها الله لعباده . . تلك الرسالات التي وضع فيها الله سبحانه وتعالى الادلة ، ووضع فيها ما هو في قدرة العقل البشري منذ يوم خلقه . . الى يوم القيامة . . ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا . . ويقدموا للعقل البشري ما هو فوق طاقته . . فيخرجون بذلك من نقطة العقل الى الخيال والتخيل .

والرسالات السماوية قد حملت الينا ان الله واحد احد لا شريك له . . ولا اله غيره . ومن هنا فهي نفت ان هناك الها للسماوات . . والها للارض . . والها للريح والها للنجوم . . الى آخر ما يمكن أن يتصوره العقل البشري وما تصوره فعلا خلال القرون الماضية . . بل ان هذه الرسالات قد أخبرتنا عن كل شيء في هذا الكون يدخل أو سيدخل في مقدرة العقل البشري .

فالشمس ـ مثلا ـ لازمة للحياة . . واذا ختفت اصبحت الحياة مستحيلة . . فلا الزرع سينمو . . ولا النهار يكون مضيئاً . ولا الأرض ستمضي في نظامها الحالي . .

والهواء مثلا اذا اختفي من الأرض . . انعدم الأوكسجين اللازم للحياة واصبحت الحياة بالنسبة للانسان والحيوان . . بتكوينه الحالي مستحيلة . . وكذلك الماء والأمطار . . هي التي تعطي الحياة كلها للأرض . . بل ان الأرض نفسها التي عليها الحياة . . اذا تفتت او انفجرت فان الحياة تنتهي .

ومع ان هذه القوى كلها ضخمة هائلة . . تعطي الحياة للانسان على الأرض . . الا ان الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن كل هذه القوة مسخرة لخدمة الانسان رغم انها اقوى منه ملايين المرات . . ورغم انه لا يستطيع ان يصنعها او يخلقها . . فلا الشمس تستطيع ان تقول انني سأشرق اليوم ولن اشرق غدا . . أو انني سابتعد عن الأرض وأغير نظام الكون . . ولا الرياح تستطيع أن تترك الأرض الى مكان آخر . . ولا الأمطار تستطيع أن تتوقف . . ولا الأرض نفسها لها أي اختيار فيما تحمل أو فيما يحدث فوقها . . لماذا ؟ . . لأن الله هو الذي خلق كل هذه القوى وهو الذي سخرها لخدمة الانسان . . ونحن حين نتدبر في خلق هذا وقدرة الله . . نقف امام هذه القوى الكبرى الهائلة التي هي بلا شك خارجة عن ارادة الانسان . . بل واقوى منه بلايين المرات . . ثم نتدبر . . هذه القِوى الهائلة مسخرة لخدمة الانسان . . لا تستطيع أن تعصي يوما واحدا . . ثم نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز أن كل هذه القوى مسخرة لكم . . وهنا نقطة يقف فيها العقل مع الحقيقة . . والحقيقة جاءت من الله . والوقوف هنا والتأمل أصبح في قدرة العقل بما أتاحه الله لهذا العقل من قدرة . . فاذا بحثنا عن اسم الله . . وجدناه في كل لغة من لغات الأرض . . ووجدنا أن معناه واحد في العالم كله رغم اختلاف معاني الألفاظ في اللغات . . ولكن اسم الله في كل لغة وكل لهجة موجود . . ومعناه تلك القوة القادرة القاهرة التي خلقت كل شيء .

اذن لفظ الله معناه واحد في كل العقول . . وفي كل اللغات . . فاذا أضفنا الى ذلك أنه بالنسبة للبشر فان المعنى يوجد اولا . . ثم اللفظ . . ذلك أنني لا أستطيع أن أضع اسما لما هو غير موجود . . بل أن الوجود يتم أولا . . ثم يطلق الاسم . . وذلك لنعلم ان اسم الله الذي وجد مع النفس البشرية . . كان موجودا قبل أن توجد هذه النفس البشرية وهو الذي خلقها وأوجدها . . بل ان تقبل العقل البشري لاسم الله سبحانه وتعالى معناه ان هذا العقل يعرف الله بالفطرة . . وان كان الله فوق قدرة العقول . . ومن

هنا نعود مرة أخرى الى الرسالات السماوية . . الى الآية الكريمة ﴿ **واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . . وأشهدهم على أنفسهم . . ألستُ بربكم . . قالوا بلى شهدنا . . ان تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين . . أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم** ﴾ . . هذه الآية الكريمة وهي التي اخبرنا بها الله . . تدلنا كيف ان الله يوجد فينا بالفطرة رغم انه فوق قدرة العقل . . فقد عرفنا وجود الله يقينا . . وهذه المعرفة موجودة في داخلنا حتى وان لم يدلنا احد عليها . . ومن هنا فاذا ذكر اسم الله فاننا لا نحس ان انسانا ينطق لفظا غريباً لا معنى له . . ولكننا نحس انه ينطق لفظا نعرفه جيدا . . ونحس به في داخلنا . . ونحس بقدرته وقوته . . وبأن الحياة لايمكن ان تنسجم الا بوجوده . . وهناك أميون لايقرأون ولا يكتبون ، وربما لم يقرأوا كلمة واحدة في حياتهم . . فاذا اخبرتهم عن أي شيء في هذه الدنيا . . سألوك : ما معنى هذا الذي تتكلم عنه . . نحن لا نفهمك . . الا كلمة اللهسبحانه وتعالى فانك اذا قرأتها عرفها الجاهل والمتعلم . . والصبي والرجل . . والكهل . . وكل انسان يجلس امامك . . ولن تجد احدا يقف ليسألك : ماذا تعني بكلمة الله . . اننا لا نفهم هذه الكلمة ؟ لماذا . . لأن الله يوجد فينا بالفطرة . . ومن هنا فان الطفل يعبده . . والانسان البسيط الذي لم يقرأ كلمة في حياته يعبده . . والانسان المتعلم يعبده . . والانسان الذي تبحر في العلم ووصل الى اعلى مراتبه يعبـده . . وكل هذه العقول على اختلاف مستوياتها قد تعجز عن فهم مشترك لقضية من القضايا . . ولكنهم جميعا لا يوجد بينهم تصادم في عبادة الله . .

وانت تدخل الى المسجد . . تجد عباد الله جالسين معا . . عقول كلها مختلفة . . في السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعي والطباع والعادات وكل شيء . . ولكنها كلها منسجمة في عبادة الله . . تركع له معا . . وتسجد له معا . . وتقرأ له القرآن معا . . وتسبح له معا . . كل هذه العقول لا يمكن ان تجتمع وتنسجم هكذا الا اذا كان الله موجودا فينا بالفطرة . . والا مصداقا للآية الكريمة ﴿ **واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم . . وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم . . قالوا بلى شهدنا** ﴾ .

على أن بعض الناس يحاول أن ينكر وجود الله . . ومحاولة هذا الانكار في حدها

اثبات . ذلك انك لا تنكر الا ما له وجود . . فما هو غير موجود اصلا لا نجد انك محتاج الى انكاره . . فالأرض مثلا بعض الناس يقول انها مبسوطة ، وبعض الناس يقول انها كروية . . ويحدث جدل . . أو حدث جدل في الماضي حول ذلك . . ولو ان الناس لم يروا الأرض أمامهم مبسوطة . . ولو ان العلم لم يثبت للناس أن الأرض كروية لما حدث هذا الجدل . . فالجدل هنا حدث لان هناك واقعا علميا يخالف واقعا تراه العين . . اذن فقبل النفي او الجدل . . هناك وجود . . ومثل ذلك في كل شيء في الدنيا . . فاذا أردنا أن ننفي أو ننكر نظرية علمية . . فيجب اولا ان تكون هذه النظرية موجودة لننفيها أو نحاول انكارها . . واذا لم تكن النظرية موجودة اصلا . . فكيف ننفيها أو ننكرها ؟ .

اذن محاولة انكار وجود الله قد سبقتها الحقيقة . . وان الله موجود فعلا . . وكل من يحاول الانكار انما يحاول ان ينكر شيئا موجودا اصلا ووجوده ثابت . . والا فما الذي يحاول أي كافر أن ينكره .

محاولة النفي والجدل لا يمكن أن تتم الا بالنسبة لشيء موجود فعلا . . فاذا كان هناك انسان لم يرزق في حياته باطفال . . هل يثور جدل حول وجود اطفال له . . الجدل يثور اذا كان لهذا الانسان طفل يخفيه . . بعض الناس رأوه ، وبعض الناس لم يروه . . وهنا يبدأ الجدل . . ولكن اذا لم يكن هناك شيء اصلا . . ففيم سأجادل . . الجدل هنا ومحاولة انكار وجود الله . . هي أثبات بأن الله موجود . . وان هناك من يحاولون لهوى في نفوسهم ان يجادلوا في هذا الوجود . . أو ينكروه .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه فيقول . . لقد عبد الانسان قوى كثيرة على انها آلهة . . عبدوا الشمس وعبدوا النار . . وعبدوا الأصنام والحجارة . . وعبدوا الانسان كآل فرعون . . كل هذه الأشياء عبدوها وأطلقوا عليها اسماء مختلفة . . ولكن هل اذا قلت أي اسم من هذه الأسماء يقفز الى النفس البشرية معناه ؟ . . أبدا . . فأنت اذا قلت ـ مثلا ـ عن اله الشمس . . لم يفهم أحد شيئا . . واذا ذكرت اسم اللات أو العزى . . فان العقول لا تفهمها . . واذا قلت فرعون تجد كثيرا من الناس لا يدركون شيئا . . اذن فكل هذه الآلهة زيف وإفك . . ولا يوجد الا اله واحد هو الله سبحانه وتعالى . . الله الأحد . . الذي اذا ذكر اسمه . . وجدت كل عقل يفهمه . . وكل نفس تحسه . . وكل ما يشرك به من دون الله هو إفك وزيف . . بلا أصل ولا حقيقة

الا هوى النفس البشرية .

ثم نأتي بعد ذلك الى نقطة هامة جداً . . لقد خلق الله آدم . . خلقه وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا الا ابليس . .

عندما خلق الله آدم . . لم يكن لآدم ماض . . لم يكن له أب يعلمه . . أو أم تلقنه . . فمن الذي علمه . . الله . . وماذا علمه . . كما يقول القرآن ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ .

ما معنى ذلك . . معناه ان منطلق العلم الذي أتاحه الله للعقل البشري . . يجب ان يبدأ بالأسماء ثم بعد ذلك ينطلق الى علوم الدنيا . . اذن الله حدد لنا منطلق علمه الذي أعطاه للبشر . . قال يبدأ علمي لكم بالأسماء . .

تعالوا لنرى اليوم . . بعد كل هذا التقدم . . هل خرج الانسان عن الدخول الى نقطة العلم من المدخل الذي حدده الله . . أبدا .

اذا أردت ان تعلم الانسان بكل صنوفه واجناسه . . فيجب أن تبدأ بالأسماء اولا . . تقول للطفل وهذه شمس . . وهذا نور . . وهذا ظلام . . وهذا فيل ، وهذا أسد . . وهذا كوب . . وهذه سبورة . . أي أنك تعلم الطفل الأسماء أولا . . ثم تتركه بعد ذلك ، فيستطيع أن يستوعب علوم الأرض كلها . . ولكن يجب أن يدخل في نفس المدخل الذي حدده الله للعلم البشري . . عندما علم آدم أول البشر . علمه الأسماء أولا . . بل ان أحدث طرق التعليم في العالم تقوم الآن بتعليم الطفل الأسماء والصور حتى يستطيع أن يستوعب العلم بسرعة . . ويتقدم الى العلوم الأخرى .

اذن لم يخرج الانسان في دخوله الى العلم من نفس الطريقة التي حددها الله . ولن يستطيع الخروج عليها . .

وبذلك نكون قد وصلنا الى أربع حقائق هامة :

الحقيقة الأولى ان الله موجود فينا بالفطرة . . نعرفه ونحس بوجوده جميعا . .

الحقيقة الثانية : ان الوجود يسبق الاسم دائما وان الوجود سابق لمحاولة النفي والانكار .

ثالثاً : أننا اذا أردنا أن نعرف شيئا عن الله سبحانه وتعالى . . فاننا يجب أن نصل

اليه عن طريق العلم الصحيح الذي اعطاه الله لنا في رسالاته ولا ندخل في متاهات الفلسفة . .

رابعا : ان الله قد حدد لنا مدخل العلم البشري للانسان عندما خلق آدم . . واذا أردنا أن نتعلم فيجب ان ندخل نحن جميعا . . مؤمنين وغير مؤمنين . . يجب أن ندخل جميعا من الباب الذي حدده الله لنا وهو تعلم الاسماء . .

الانسـان والأمـانـة

ان السماوات والأرض والجبال . . رفضن ان يكون لهن اختيار في أمورهن . . وفضلن أن يكن مقهورات مسخرات لما يريده الله سبحانه وتعالى . . ولكن الانسان حمل الامانة واخذ حرية الاختيار في افعل . . ولا تفعل . .

الله سبحانه وتعالى حينما يخاطبنا فانه يخاطب العقول جميعا . . ويجعل لكل منها قدرا من الفهم يحس به بقدرة الله وعظمته . . وهذا من اعجاز القرآن الكريم ذلك ان القرآن يخاطب وجدان كل البشر . . وانت حين تخاطب الناس تجد أن معرفة الله سبحانه وتعالى موجودة فيهم بالفطرة . . ومن هنا فانه اذا ذكر اسم الله فاننا لا نحس أن لفظا غريبا يقال لنا . . ولكننا نحس يقينا ان هذه المعرفة موجودة في داخلنا حتى وان لم يدلنا أحد عليها . . ونحس بقدرته وقوته . . وبأن الحياة لايمكن أن تنسجم الا بوجوده . .

وهناك اميون لا يقرأون ولا يكتبون . . وربما لم يقرأوا كلمة واحدة في حياتهم . . فاذا اخبرتهم عن أي شيء في الدنيا قالوا ما معنى هذا الذي تتكلم عنه . . نحن لا نفهمك . . الا كلمة الله سبحانه وتعالى . . فانك اذا قلتها عرفها الجاهل والمتعلم والصبي . . والرجل . . والكهل . . وكل انسان يجلس امامك . .

وحينما ندخل المسجد نجد عباد الله جالسين معا . . عقول كلها مختلفة في السن والثقافة . . والفكر . . والمركز الاجتماعي . . والطباع . . والعادات . . وكل شيء . . اذا حاولت أن تتحدث اليها عن أي موضوع فانها لا يمكن أن تفهمه . . ولا تنسجهم معه . . ولكننا نجدها كلها منسجمة في عبادة الله . . تركع معا . . وتسجد معا . . وتسبح معا . .

وينتقل فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بعد ذلك الى خلق الانسان . . فيقول ان الله سبحانه وتعالى خلق آدم . . وقال للملائكة : اسجدوا له . . وآدم مخلوق بلا ماض . . لم يعلمه احد شيئا . . ولم يرث حضارة ولا علما . . ثم قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وعلم آدم الاسماء كلها** ﴾ . . فالله قد أخبرنافي كتابه العزيز ان مدخل العلم الى النفس البشرية هو الاسماء . . وحتى هذه اللحظة . . ورغم مرور هذه القرون الطويلة لا يزال يدخل العلم البشري لانسان هو الأسماء فالطفل أول ما يتعلم . . يتعلم اسماء الأشياء . . ثم بعد ذلك يستطيع أن يستوعب من العلم ما يشاء ولكن مدخل العلم الذي اتاحه الله للبشر لا يتأتى الا من المدخل الذي حدده الله . . وهو تعليم الأسماء اولا . . فالطفل في أول سني عمره يستوعب الأسماء . . فأنت تقول له هذا كوب . . وهذا منزل . . وهذا شارع . . ثم بعد ان تعلمه الاسماء تتركه . . فيستطيع عقله البشري ان يحصل ما يتاح له من العلم معتمداً على نفسه . .

ثم نأتي بعد ذلك الى نقطة تالية . . وهي انه عندما خلق الله سبحانه وتعالى آدم حمله الأمانة . . قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . فأبين ان يحملنها واشفقن منها . . وحملها الانسان . . انه كان ظلوما جهولا** ﴾ .

ما معنى الأمانة . . معناها الشهادة بالحق . . طواعية فيما لك اختيار فيه . . وبمحض ارادتك . . فاذا أودع انسان لديك مالا . . وأخذ عليك ورقة تثبت انه اودع هذا المال . . فان هذه ليست أمانة . . لماذا ؟ . . لأن هذه الورقة تثبت حقه . . وبالتالي فانك اذا انكرت يستطيع أن يثبت كذبك . .

هذه الورقة التي كتبتها . . اخرجتك من دائرة الاختيار . . فلم تعد تستطيع أن تقول نعم . . أو لا بمحض اختيارك . . لأن هذه الورقة سلبت منك حق الاختيار في الانكار . . واثبتت لصاحب الحق حقه . . ومن هنا فان هذه ليست امانة . . لأن جانب الاختيار فيها غير متوافر . . او غير متاح . . ولكن اذا اعطاك اي انسان مبلغا من المال بينك وبينه ودون شهود . . ودون ورقة مكتوبة . فانه يكون قد اعطاك هذا المال كأمانة . . لماذا ؟ . . لأنه بينك وبينه معتمداً على تمسكك بالحق . . ومن هنا فانك تستطيع أن تقول نعم . . اخذت منه هذا المال . . وتستطيع أن تقول لا . . لم آخذ منه

هذا المال وتنكر ما حدث . .

اذن ما دام الاختيار موجودا في انك تستطيع ان تفعل هذا أو لا تفعله . . اي تستطيع ان تقول انني اخذت المال او لم آخذه . . فهنا تكون الأمانة . . الاختيار موجود . . وانت وامانتك . . تستطيع ان تقول الحق . . او تنكره . .

فاذا قال الله سبحانه وتعالى انا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال . . « **فأبين ان يحملنها** » . . فمعنى ذلك ان هذه الأشياء كلها قد رفضت ان يكون لها اختيار في امورها . . وفضلت أن تكون مقهورة مسخرة لما يريده لها الله سبحانه وتعالى لماذا ؟ . . لأنها جميعا خافت من عواقب هذا الاختيار . . وما يمكن أن يؤدي بها الى معصية . . أو الى مخالفة لأمر الله . . ولكن الانسان بعقله قبل الأمانة . . اي قبل أن يكون له اختيار . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . ولنبسط المسألة قليلاً . . هب ان انسانا جاءك . . ومعه مبلغ كبير من المال . . وقال انا اريد أن أضع هذا المبلغ عندك أمانة . . احد أمرين . . أما أن يكون تصرفك كتلك المخلوقات التي رفضت ان تحمل الأمانة بأن تقول لنفسك . . ان هذا اختيار صعب . . هذا الرجل سيترك لي ماله . . وقد تمتد يدي اليه . . وقد انفقه فيما تغريني الحياة . . ثم بعد ذلك يأتي وقت السداد فلا أجد المال . . فحتى لا أقع في أي اغراء . . واقطع الشك باليقين فانني أرفض هذه الأمانة لأنها تعرضني الى مالا استطيع أن احتمله . . والى اغراء الشيطان . . ومن هنا فأنا لا أريد أي اختيار لنفسي . . ولن آخذ هذا المال كأمانة . .

ولكن قد توسوس النفس والعقل بأنك تستطيع ان تأخذ هذا المال وأنك قادر على أن تودعه عندك . . وربما قادر على أن تستخدمه فيما ينفعك . . ولكنك قادر أيضاً حسب ظنك وعلمك أن ترد هذا المبلغ لصاحبه عندما يأتي وقت الحساب . . وتأخذ المال . . وتنفقه . . ثم يأتي وقت الحساب فلا تجد عندك منه شيئاً . .

اذن الاساس هنا هو الاختيار . . والانسان عندما حمل الأمانة معناها : أن أخذ حرية الاختيار في أن أفعل ولا تفعل . . ومن هنا كانت الرسالات السماوية التي نزلت للانسان . . لأنه قبل حمل الأمانة . . أي اخذ الاختيار في يده ليفعل أو لا يفعل . . اخذه وهو يحسب انه قادر على أن يفعل ما يرضي الله . . وان يتجنب ما يغضبه . . ولكن

اغراء الشيطان . . وبريق الدنيا . . وضعف النفس البشرية . لم يكن في حسابه . . وبذلك كان ظلوماً . . أي ظالماً لنفسه . . في انه اعتقد فيها اكثر من قدراتها . . وهذا هو الغرور الذي اذا دخل النفس خرج منها الايمان . . الغرور الذي جعل قارون يقول : انما اوتيته على علم عندي . . أي ان الانسان يغتر بنفسه وعقله وقدراته . . ناسيا ان هذه القدرات هي من عند الله . . وانه هو الذي اعطاها له . . ويستطيع أن يأخذها منه . . جهول . . أي ان الانسان جاهل بالحقيقة . . التي حوله . . في أن الله سبحانه وتعالى هو القادر . . والقائل . . والمعطي . . والمانع . . والرافع . . والخافض . والمعز . . والمذل .

وهكذا حمل الانسان الأمانة . . ووضع الله سبحانه وتعالى امامه البدائل في ان يفعل ولا يفعل . . وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال للانسان افعل كذا . . فمعنى ذلك أنه في مقدور هذا الانسان الا يفعل . . والا لما قال له الله افعل ومعنى قول الله سبحانه وتعالى للانسان لا تفعل كذا . . ان الانسان قادر على أن يفعل . . والا لما قال له الله سبحانه وتعالى لا تفعل . .

اذن اخذ الانسان الاختيار في افعل ولا تفعل . . فماذا حدث . . صور له جهله أشياء كثيرة . فخلق آلهة ليعبدها من صنع يديه أي انه عبد ما يستطيع أن يصنعه . . ونسي أن الذي يصنعه انسان لا يمكن أن يكون هو خالقه . . أي خالق الانسان ثم عبد الانسان نفسه . . ثم حاول أن ينكر وجود الله . . وانطلق مع هوى نفسه . . جاحداً نعمة الله . . ترك الرسالات التي انزلها الله سبحانه وتعالى له ليبين له طريق الحق . . وطريق الحياة الطيبة الآمنة . . وأخذ يشرح لنفسه وحسب اهوائه . . فاصابه الشقاء في الدنيا . . وحلت به الكوارث . . وعاش عيشة ضنكى . . ولكن لماذا فعل الانسان ذلك . .

الانســان والاختيــار

اذا اراد الله سبحانه وتعالى ان يتحدى البشر . . فانه يتحداهم في أمر اختياري أي أن يستطيعوا القيام به بمحض اختيارهم وبكامل ارادتهم . . ذلك ان التحدي في أمر لا اختيار للانسان فيه لا يكون تحديا . . وفي القرآن تحديات كثيرة . . في أمور

اختيارية . . لم يستطع الانسان ان يواجهها . .

اخذ الانسان حرية الاختيار في أفعل ولا تفعل . . فماذا حدث . . صور له جهله أشياء كثيرة . . فعبد كل شيء في الدنيا . . لا ينفعه ولا يضره . . عبد الاحجار والأصنام . . وعبد النار والشمس . . وعبد الحيوانات المفترسة . . والحيوانات الأليفة . وانطلق في جهل بعيدا عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون . . المدبر له . . انطلق الانسان جاحدا نعمة الله . . ترك الرسالات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى له ليبين له طريق الحياة الطيبة الآمنة . وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه . . فأصابه الشقاء في الدنيا . . وحلت به الكوارث . . ولكن لماذا فعل الانسان ذلك .

اذا أردنا أن نصل الى ما تريده النفس البشرية في هذه الدنيا . . فقد لخصه الله سبحانه وتعالى في شيئين اساسيين . . ووصف بهما وصفا بليغا مدخل الشيطان الى النفس البشرية . . وما يريده كل انسان . . وذلك أن الشيطان حين أراد أن يغري آدم بمعصية الله سبحانه وتعالى قال له هل أدلك على شجرة الخلد . . وملك لا يبلى . . وقال الشيطان لهما : « **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** » .

اذن الانسان يريد شيئين في الدنيا . . الخلود والأموال التي لا تفنى . . ولا تنتهي . . انه يريد أن يبقى في الدنيا خالدا لا يموت . . ويريد أن يكون له ملك يعيش فيه عيشة الترف التي يريدها دون أن تتأثر هذه الأموال بكل ما ينفقه . . ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية . . هذه الآلهة كلها التي اخترعها البشر هي إما جالبة للرزق . . أو دافعة للضرر مبعدة للموت . . وهي في الحقيقة لا تفعل هذا ولا ذاك . . ولكنه الخوف الذي يضعه الشيطان في النفس غير المؤمنة هو الذي يجعلها تعتقد ان هناك شيئا في يد أحد غير الله سبحانه وتعالى . . وهنا نتوقف قليلاً عند هذه النقطة . . الله سبحانه وتعالى حين أخذ من آدم ذريته . . وأشهدهم على نفسه . . نجد في النفس البشرية أثر هذا حتى الآن . فكل نفس بشرية تعرف الله بالفطرة . . ولا تحتاج لأي شرح اذا ذكرت لها كلمة الله سبحانه وتعالى . . ويكفي ان تذهب الى الحج لترى اسم الله ينطق بجميع لغات الدنيا . . بكل لغة من لغات العالم . . والمعنى واحد . . وهؤلاء الناس الذين جاءوا من كل بقاع الأرض قد لا يستطيعون التحدث معا . . او التفاهم معا،

لأنهم لا يفهمون بعضهم البعض . . ولا يتكلمون لغة بعضهم البعض . . ولكن اذا ذكر اسم الله أمامهم توحدت قلوبهم عند كلمة الله . . واذا أقيمت الصلاة توحدت وقفتهم جميعا بين يدي الله . . مع أنهم غرباء تماما . . ولكنهم متعارفون في الله . . بغير المعرفة المألوفة بين البشر . . وربما التقوا أياما في الحج . . ثم بعد ذلك لا يلتقون . . ولكن رغم أنهم غرباء في كل شيء . . تجمعهم كلمة الله سبحانه وتعالى . . بل ان الله سبحانه وتعالى يمعن في التحدي . . ويقول سبحانه وتعالى في سورة مريم : ﴿ **ربُّ السموات والأرض وما بينهما فأعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا** ﴾ . . أي أنه تحدى في القرآن انه هو خالق كل شيء . . وهو الله لن تجد اسمه يطلق على أحد . .

وهذه نقطة يجب أن نقف عندها . . ان عادة الانسان ان يطلق اسماً على كل شيء . . لا يوجد شيء في الدنيا بغير اسم الا اذا كان مجهولا للانسان . . فكل شيء يطلق عليه إسم . . أنت لك إسم . . واذا جاءك ابن تطلق عليه إسما . . والظواهر الطبيعية لها أسماء . . وكل شيء في الدنيا له إسم . . والاختراعات الجديدة والاكتشافات الجديدة يضع الانسان لها الأسماء . . حتى يستطيع الانسان أن يعرفها او يعرفها . . اذن فكل شيء في هذه الدنيا له اسم يميزه عن غيره . . ثم يأتي القرآن ويتحدى . . ويقول . . إن الله سبحانه وتعالى لن تجد له سميا . . أي لن تجد انسانا باسمه . . والتحدي هنا لمن ؟ . . التحدي في القرآن . . وفي الايمان . . هو للمشركين والكفار . . ذلك ان القرآن لا يتحدى المؤمن أبداً . . لأن المؤمن قد أمن وأطاع . . وهو ليس محتاجا للتحدي . . ولكنه محتاج لما يزيده إيمانا . . وقرباً لله سبحانه وتعالى . . أما المحتاج للتحدي فهو ذلك الذي يكفر. فيأتي الله ليقول له ان هناك تحديا . . تحديا لك في كذا وكذا . . فهل تستطيع أن تفعله يا من تعبد نفسك . . أو تعبد الانسان . . أو تعبد الحجر . . او تعبد اي شيء آخر . . اذا كنت تريد أن تثبت حقيقة انك انت وما تعبده . . ومن يعضدونك ويشدون أزرك . . لهم قطرة من القوة . . فانني اتحداكم ان تفعلوا كذا وكذا . . والتحدي دائماً من الله سبحانه وتعالى للانسان . . يكون في أمر اختياري . . اذ ان التحدي لا يمكن أن يكون في أمر اجباري يجبر الانسان عليه . . بمعنى ـ مثلا ـ انني لا استطيع أن أقول لانسان انني اتحداك ـ مثلاً ـ أن تطيل عمرك شهرا أو شهرين . . أو اتحداك الا تصاب بمرض طوال حياتك . .

الى آخر هذه الأمور التي لا اختيار للانسان فيها . . هنا يكون التحدي بالغ الصعوبة ، غير ميسر . . وأحيانا مستحيل ولا يعتبر متحديا .

ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدى . . يأتي بأمر اختياري يمكن لأي انسان ان يصل اليه ويتحدى فيه . . فالله سبحانه وتعالى مثلا علم أزلا أن بعض الناس سيتخذون العلم الذي اتاحه الله لعقول البشر . . وجعله في طاقتها . . سيأخذون هذا العلم ليعبدوه ويتخذوه الها . . ويقولون انتقلنا من عصر الدين الى عصر العلم . . ولذلك وضع الله في القرآن ما يرد عليهم . . قال لهم . . ان العلم الذي تعبدونه من دون الله قد يوصلكم الى أشياء تدهش عقولكم . . وتزعزع ايمانكم . . ولكني أقول لكم أن هذا العلم بهيلمانه عاجز عن أن يخلق ذبابة . . هذا تحد رهيب للعلم الذي وصل الى القمر . . وهو في طريقه الى المريخ لن يستطيع ان يخلق ذبابة واحدة . . ولو اجتمع لها علماء العالم كله . . وفعلا كان هذا هو التحدي . . والتحدي هنا يقول أنا سأعطيكم من علمي ما أريد . . لتصلوا الى القمر . . وتطيروا في الهواء . . وتفعلوا ما يعتبره العقل البشري اشبه بالمعجزات . . ولكن لكي تعلموا أن هذا بأذني وأمري . . فأنني سأمنع عنكم خلق أحقر شيء « الذبابة » . . ستصلون بعلمكم الى ما أريد . . ولكن لو اجتمع علماء العالم كلهم ليخلقوا ذبابة . . ما استطاعوا . . ولن يستطيعوا أن يصلوا بعلمهم الى ما لا أريد . . رغم بساطته . .

ويأتي العلم ليحقق للعالم أشياء كثيرة . . حتى ان الانسان أصبح يملك وسائل نسف الأرض . . ووسائل الكترونية حديثة تفوق في خدماتها كل ما تصورته العقول . . ونزل الانسان فوق القمر . . وهو في طريقه الى كوكب الزهرة . . الى غير ذلك . . ولكن التحدي ظل قائماً . . ذلك أن الانسان لا يستطيع مع كل ما أوتي من العلم ان يخلق ذبابة . . أو حتى جناح ذبابة . .

جاء التحدي في أشياء أخرى كثيرة في القرآن . . مثل المطر . . وبالرغم من كل الاختراعات الحديثة . . فان العلم عاجز عن أن ينشىء سحابة صناعية . . ويجعلها تمطر حيث يريد . . بل أن بعض بلاد الدنيا تعاني من كثرة الماء . . وكثرة الأمطار . . والبعض الآخر يعاني من القحط الشديد . . والعلم لا حيلة له في ذلك . . مع أن الله كشف لنا الطريقة التي يتكون بها السحاب . . ثم الطريقة التي ينزل بها المطر . . وهنا

أمعان في التحدي . . اذ انه يعطينا الأسباب . . ويجعلنا عاجزين عن العمل . . ثم يتحدانا في أمر أختياري كانزال المطر مثلا . . وهو أمر أبسط كثيرا علميا من الوصول الى القمر والمريخ . . ولكن الانسان لا يستطيع أن يقوم به . .

وفي القرآن تحديات كثيرة ليست هي موضوع حديثنا الآن . . اذ ان الحديث عن الله والنفس البشرية . . حين يأتي الله سبحانه وتعالى ويريد أن يتحدى الكفار في شيء اختياري . . هل الله يريد أن يتحدى كافرا بعينه . . أو طبقة من الكفار بعينها كالعلماء أو التجار . . أم انه يريد أن يكون التحدي شاملا للجميع . يستطيع ان يقدر عليه كل كافر . . حتى ذلك الذي لم يكتب حرفا . . لم يعرف من الدنيا شيئا . . يأتي الله سبحانه وتعالى ويجعل التحدي هنا عاما في مقدرة كل فرد . . فيأتي بالآية الكريمة : **﴿ رب السموات والأرض وما بينهما . . فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾** . .

أي أنه يتحدى في الاسم . . والاسم هنا شيء يقدر عليه كل انسان . . بل ويستخدمه كل انسان في الدنيا كلها . فكل فرد يستخدم الأسماء مهما بلغت ثقافته او علمه أو جنسيته . . الى آخره . يأتي الله سبحانه وتعالى ويتحدى . . ويقول انني انا الله . . وهذا اسمى سأختص به نفسي . . ولن تجد سميا . . أي مسمى بهذا الاسم في الدنيا كلها . .

يأتي هذا التحدي وانا اوجه السؤال الى كل من يقرأ هذا الحديث . . هل سمعتم عن انسان اسمه « الله » . . هل سمعتم أن عقلا بشريا جرؤ على أن يطلق هذا الاسم على ابن له . . او زوج له . . أو على أي شخص كان . . حتى الآلهة التي اخترعها الانسان ليعبدها جعل لها أسماء ليس بينها اسم « الله » سبحانه وتعالى . . ولقد جاء هذا التحدي في أمر اختياري . . أي يستطيع أي انسان أن يفعله بارادته . . وفي أمر لا يستلزم أي مؤهلات . . أي يستطيع أي فرد في الدنيا أن يقوم به دون أن يكون له ثقافة أو علم . . أو فكر . . أو أي شيء مميز . أي انه تحد للبشرية كلها . . ومع أن هذا التحدي نزل منذ أربعة عشر قرنا . . ومع أن هناك أناسا يعملون ضد دين الله . . ويحاولون هدمه ، لم يستطع واحد منهم أن يطلق الأسم على فرد أو شيء . . أو حتى على اله يعبده . . وهكذا بقي التحدي . . وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

هذا التحدي لا يقدر عليه انسان . . ولا يمكن أن يقوم به بشر مهما بلغ شأنه . . ذلك التحدي في أمر اختياري لا يستلزم أي صفات او مؤهلات معينة . . وعجز الانسان عن مواجهة هذا التحدي . هو قدرة من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده . .

ورغم هذا التحدي الذي لا يجيب عليه احد . . تجد بعض الناس يحاولون جاهدين انكار وجود الله سبحانه وتعالى . . ويجادلون في ذلك جدالا كثيراً . . ولكن هؤلاء الناس انفسهم حينما تعجز الأسباب عن أن تدفع عنهم ضرا . . وحين يجدون أنفسهم في كرب لا يستطيعون الخروج منه . . او في بلاء لا يستطيعون رده . . تجد السنتهم تصيح بلا شعور « يا رب » . . وتستنجد بالله الذي يحاولون أنكار وجوده . . كيف تستنجد نفس بالله سبحانه وتعالى . . وهي في نفس الوقت تحاول أن تنكر وجود الله . . انها تجزع اليه . تستغيث بالخالق . . بالقدرة . . بالقوة . . بالذي يقول كن فيكون . . كيف يتم ذلك .

الكـــون والانســـان

كل ما في هذا الكون مسخر لخدمة الانسان ولكن ماذا فعله البشر ليتم ذلك . . وكيف يستطيعون ان يسخروا لخدمتهم من هو اقوى منهم ملايين المرات . . ان كل هذه الأشياء تستطيع ان تفني البشر في ساعات قليلة . . وربما في لحظات قليلة . . ولكنها خاضعة ذليلة لخدمتهم . .

ان الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتدبر في الكون . . ولماذا يأمرنا الله بهذا ؟ . . لو أن في هذا الكون دليلا واحدا على عدم وحدانية الله . . وقدرته ووجوده . . ما أمرنا الله ان نتدبر في الكون . . وان نتدبر في مخلوقاته . . وان نتدبر في انفسنا . . لماذا ؟ . . لأن الذي يعرض عليك شيئا فيه ادنى شك . . لا يقول لك افحصه جيدا . . او تدبر فيه . . انك اذا أردت ان تعلم عن أي شيء تراه . . فان صاحب الشيء اذا لم يكن موقنا مما يقوله لك تدبر . . وانظر جيداً . . وافحص جيدا . . وانما يحاول بشتى الطرق ان يجذب انتباهك عن ذلك الشيء الذي تنظر اليه . . حتى لا تتبين فيه أي نقص أو عيوب موجودة . . انما الذي يقول لك تدبر . . وفكر . . وانظر . . موقن من اتقان عمله . .

ولأضرب مثلاً بسيطاً لأقرِّب هذا الى الأذهان . . إذا دخلت لتشتري اي شيء

في هذه الدنيا . . اي شيء . . امامك واحد من اثنين . . اما أن يكون هذا الشيء متقنا اتقانا بديعا . . وحينئذ يقول لك صانعه . . افحصه جيدا . . ويطلب منك ان تفحصه مرات ومرات . . لتتبين دقة الصنع . . وتعرف متانة الشيء وكماله . . ولكن اذا كان الشيء ناقصاً . . او فيه عيوب . . فان صانع الشيء الذي يحاول أن يغشك او يخدعك . . يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك بعيدا عن ذلك الذي في يدك . . حتى لا تتبين عيوبه ونواقصه . .

والله سبحانه وتعالى يطلب منا في قرآنه الكريم . . ان نتدبر الخلق . . ان نتدبر الكون . . ويقول ان هذا الكون فيه آيات بينات . . ويقول ان في خلقكم وخلق السموات والأرض آيات بينات . . وفي انفسكم . . لماذا يقول الله ذلك ؟ . . اذا لم يكن قائل هذا الكلام هو خالق الكون . . وعارفاً لأسراره أفلا يخشى أن تكون هناك عيوب ونواقص . . واشياء لا يعرفها . . قد يأتي التدبر فيها بنتيجة عكسية . .

ولكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق . . وهو القائل . . وهو العالم . . ومن هنا فهو يعرف دقة ما خلق . . واعجاز ما خلق . فيقول لنا تدبروا في هذا الكون . . انظروا فيه . . فستجدون آيات واعجازا لخلقي وقدرتي . . وفي انفسكم . . ويقول سبحانه وتعالى ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق . . وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق** ﴾ . . اي آيات تلك التي يتحدث عنها الله سبحانه وتعالى . . ان لم يكن هو الذي خلقها باتقان واعجاز . . لا يملك البشر أمامه الا أن يسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى في كونه . . وفي خلقه .

اذن هذا التحدي في التدبر في آيات الكون . . والتدبر في الخلق . . والتدبر في أنفسنا . . لا يمكن ان يحدث الا اذا كان القائل هو الخالق . . هو الذي وضع آيات . . ومعجزات في هذا الكون . . فما الذي يريدنا الله ان نتدبره الا آياته في الكون . . واذا لم يكن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون . . فكيف يعرف اسراره كلها . . ويعلم ان فيها آيات ومعجزات . . ان الذي خلق . . هو الذي قال . . هو الذي اعجز . . سبحانه وتعالى . . ومن هنا فهو يطلب منا ان نتدبر . . لنرى من الآيات ما يجعلنا نسجد لعظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته . .

نأتي بعد ذلك الى نقطة اخرى . . الله سبحانه وتعالى اخبرنا في قرآنه الكريم انه

سخر كل ما في هذا الكون لخدمة الانسان . . تعالوا نتدبر قليلاً في هذه الحقيقة الهامة . . كل ما في الكون يخدم الانسان . . الحيوان . . والجماد . . والشمس . . والقمر . . والنبات . . كلها تخدم الانسان . .

والانسان ليس هو الكائن الوحيد الحي في هذا الكون. فالنبات له حياة. . والحيوان له حياة . . والانسان له حياة . . ولكن كلا منها تختلف عن الأخرى .

تعالوا نتدبر في خلق الله . . الله سبحانه وتعالى جعل كل شيء مسخرا لما فوقه . . الجماد مثلا بكل صوره مسخر لخدمة ما فوقه من الخلق . وهو النبات والحيوان والانسان . . على ان التميز . تمييز الخالق . . وليس تمييز المخلوق . . بمعنى ان الله سبحانه وتعالى هو الذي سخر . . ولكن الانسان بقدرته . . وعقله . . وقوته . . عاجز عن ان يسخر . . والدليل على ذلك ان هناك أشياء مسخرة للانسان . . والحيوان . . والنبات . . أقوى منه ملايين المرات . . ولا يستطيع أن يوجدها . . او أن يسيطر عليها . . الشمس والنجوم . . والكواكب . . والأرض . . مسخرة لخدمة النبات . . والحيوان . . والانسان . . الشمس لا تستطيع ان تقول انني سأشرق هذا اليوم على جزء من هذا الزرع لأعطيه الحياة والنمو . . ولن أشرق على جزء آخر ليموت . . فالشمس بقدرتها الهائلة . . وقوتها التي لا يستطيع أن يقترب منها العالم اجمع . . مسخرة لخدمة النبات . . تشرق عليه . . وتعطيه الحياة والنمو . . وتغرب عنه . . ليتم دورته . . وهكذا . . وهي في هذا الاختيار لها . . وكذلك الرياح . . والأمطار . . والأرض . . نفسها . . كلها مسخرة لخدمة النبات والحيوان والانسان . . الأرض اذا وضعت فيها الحب لا تستطيع ان تقول لن أعمل على انماء هذا الحب وتغذيته . . ولكنني سأغذي هذا الحب . . وكذلك المطر لا يستطيع ان يقول سأنزل هنا اليوم . . ولن انزل غدا . . او لن انزل في العام القادم . . كل هذه الأشياء مسخرة ليس لها أي اختيار . . وهي تعطي عطاء متساويا للجميع بلا تمييز . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخرها . . وهو الذي جعلها في خدمة أنواع الحياة التي هي أرقى منها . . كالنبات . . والحيوان . . والانسان . . وليعلن للعالم اجمع ان هذه الأشياء هي مسخرة بقدرته سبحانه وتعالى . . وبعلمه . . وبكلمة كن . . جعلها أقوى من الانسان . . والحيوان . . والنبات . . ملايين المرات . . ومع ذلك هي في خدمتهم جميعا . . لا تستطيع يوما واحدا ان تمتنع

أو ترفض ان تقوم بخدمتهم رغم قدرتها . . وضعف من تخدمهم من البشر . . والنبات والحيوان .

هذه واحدة . فاذا انتقلنا الى النبات . . نجد انه مسخر لخدمة من فوقه في الخلق . . وهما الحيوان والانسان . . والحيوان يستطيع ان يأكل من النبات كما يريد ويحطمه كما يريد . . ولا يستطيع النبات ان يمنعه من ذلك أو يقول له لا . . لن اعطيك طعاما اليوم . . سأمنعه عنك . . أو يبعده عنه . . اذا أراد به ضرا . . وكذلك بالنسبة للانسان . . فان النبات مسخر لخدمته . . عطاء له عندما يريد . . لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا امام ارادة البشر . . حتى في اهلاكه وافساده . . اذن فالنبات مسخر لخدمة ما فوقه . . لا يستطيع له نفعا ولا ضرا . . وإنما يعطيه عطاء بلا حساب . . ويكون في خدمته دائما كلما أراد . . حتى اذا اراد له هلاكا . . فالصبي قد يأتي بفأس أو منشار . . ويصل الى شجرة ضخمة هائلة . . ويظل يقطع فيها عدة أيام حتى تسقط . . ولكن الشجرة رغم ضخامتها وقوتها . . حتى انه اذا سقط غصن منها على هذا الصبي اهلكه . . بل اذا سقط غصن منها على رجل أهلكه . . واذا سقطت الشجرة نفسها على عدة رجال أقوياء اهلكتهم . . رغم أن هذه الشجرة تملك هذه القدرة الهائلة على البشر . . فانها لا تستطيع أن تأمر غصنا منها ليسقط . . فيهلك صبيا أو رجلا بقطعها بفأس او منشار . . ولا تستطيع أن تأمر جذعها أن يسقط على رجال يقومون باقتلاعها من جذورها . . ومن هنا فهي تملك القوة . . ولكنها لا تملك القدرة . . لماذا ؟ . . لأنها مسخرة لخدمة الانسان والحيوان . . رغم قوتها الهائلة . وقدرتها على التدمير . . الا انها تقف عاجزة تماما أمام الانسان . . لماذا ؟ . . لأن التسخير هنا من الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فلا القوة لها قيمة . . ولا القدرة لها قيمة . . وانما الأمر جميعا للقائل . . وهو الله سبحانه وتعالى . . والقائل هنا سخرها للانسان . . فهي مسخرة له . .

اذا انتقلنا بعد ذلك الى الحيوان . . نجد انه ارقى حياة من النبات . . فقد منحه الله الحواس . . ومنحه قدرة على الحركة . . ومن هنا فهو اعلى خلقا من النبات . . ومن الجماد . . وكل خلق تحته مسخر له . . لخدمته . . ولكن الحيوان نفسه مسخر لخدمة الانسان . . وقد يكون الفرس . . أو الجاموسة . . او الثور . . او الجمل . . أو

أي حيوان آخر يملك من القدرة والقوة ما يستطيع أن يحطم به أقوى رجل في العالم ويهلكه . . ومع ذلك . . فان صبيا صغيرا يستطيع أن يقود الجمل . . او الفرس . . أو الثور . . الى حيث يريد . . وهو طائع له . . لا يستطيع ان يعصيه . . اذا تدبرنا في ذلك . . فان العقل يقول ما دام الحيوان هو الأقوى . . فهو الذي يتحكم ويفرض ما يريد . . ولكن الله سبحانه وتعالى الذي أراد ذلك سخر الحيوان القوي فجعله ضعيفا ذليلا امام الانسان الذي يقل عنه قوة وقدرة . .

اذا انتقلنا بعد ذلك الى الانسان . . فهو حياة أرقى من النبات . . والحيوان . . لماذا ؟ . . لأن له فكراً . . له عقلاً . . وله اختيارات . . ومن هنا فهو أرقى ما خلق الله في الدنيا . . رغم قدرة الشمس . . وقوة الريح . . وجبروت الأمطار . . وضخامة النبات . . والقدرة البدنية للحيوان . . فان هذا الانسان أرقى هؤلاء جميعا . . وكل هذه الأشياء مسخرة لخدمته . . بارادة الله . . وليس بارادة الانسان .

فاذا كانت مخلوقات الدنيا هي : الجماد . . والنبات . . والحيوان . . والانسان . . وكل خلق منها يعلو على الآخر . . فيكون مسخرا له . . وهذا لا يتوقف على القوة . . ولا على الحجم . وانما على ارادة الله . . الجماد يخضع للمخلوقات الأرقى منه . . وهي النبات والحيوان والانسان . . والنبات يخضع لمن فوقه . . وهما الحيوان والانسان . . والحيوان . . يخضع لمن فوقه وهو الانسان . . فلمن يخضع الانسان . . يخضع لخالقه . . يخضع لله سبحانه وتعالى ليكون هناك انسجام في الكون . . كل شيء يخضع لما فوقه . . ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ .

ومن هنا كان هدف الانسان ان يخضع لخالقه الذي سخر له كل ما في الكون . . وهذا هو الذي يعطي الحياة معناها الحقيقي . . لأن كل شيء يخضع لما فوقه .

ونحن حين نتدبر في الكون نرى كيف ان الانسان يجب أن يخضع لخالقه . . ليتم الانسجام في الكون . . وعلامة الخضوع هي العبادة . . وهذا هو هدف العقل الأول في أن يعرف ماذا يجب أن يؤدي وان يتدبر في الكون ليعرف أن كل شيء يجب أن يخضع لما فوقه . . وان الانسان يجب أن يخضع لخالقه . . الذي خلق هذا الكون

كله . . وسخره لخدمته .

ولكن العقل البشري ينسى الله . . وينسى كل هذه المعجزات . . ويتحدث عن العلم . . وعصر العلم . . فماذا استطاع العلم أن يحقق للبشر .

الانســان والعــلم

العلم لا يستطيع أن يخلق مقومات الحياة . . فما بالك بالحياة نفسها . . ان الانسان عاجز عن أن يخلق غلافا جويا للقمر مثلا . . أو بحيرة بالماء اللازم للحياة . . والزرع . . أو ان يجعل حبة تنبت على يدك . . بدلا من أن تنبت على الأرض . . والقرآن الكريم يقول لنا ان هناك مضلين . . سيأتون ليجادلوا في خلق الانسان . .

ان العلم يتحدد في شيئين رئيسيين . . علم مادي يخضع للتجربة البحتة . . لا يدخل فيه هوى البشر . . ذلك العلم هو الذي يتناول المادة فقط . . وهو الذي يمكن ان يفحص في المعمل . . وتجري عليه التجارب . . وليس فيه هوى النفس البشرية . . وهذا العلم هو الذي اتاحه الله للعقل البشري . . وطلب منه ان يجتهد فيه . . ووعد الله بأن يكشف آياته في الكون لأولئك الذين يعملون . . ويبحثون . . ويجرون التجارب . . ويجتهدون . . وعلم آخر هو علم تدخل فيه الأهواء . . وذلك ما لم يدخل فيه معمل . . ولا يمكن اجراء تجارب عليه . . وهذا العلم مثل النظريات الفلسفية والسياسية . . وكل شيء لا يخضع لتجربة المعمل . . هذا العلم تختلف فيه الأهواء وتتصارع . . وسيظل الصراع بينها الى يوم القيامة . . لأن هذا العلم لا يستند على أسس مادية موضوعية بحتة . . وانما تدخل فيه الأهواء الشخصية .

النوع الأول من العلم . . صاحبه يظل يعاني حتى يصل الى هدفه . . فاذا وصل الى الهدف استفاد منه الناس كلهم . . فالعالم مثلا الذي يجري تجارب في معمله . على اختراع جديد . . او شيء جديد . . يظل يسهر ليالي طويلة حتى يصل الى نتائج . . فاذا وصل الى نتائج . . استفادت منها البشرية كلها . . واذا أردنا ان نضرب مثلا لذلك . . فهناك مثلا اكتشاف الكهرباء . . واختراع الراديو والتليفزيون . . والتليفون . . الى آخر هذه الأشياء التي اقتضت بحثا من أصحابها . . فاذا وصل البحث الى نتيجة . . استفادت منها البشرية كلها . .

أما النوع الثاني من العلم . . فهو الذي يخضع للهوى . . فان صاحبه هو الذي يستفيد . . وغيره يعاني . . ذلك انه يضع العلم على هواه . . وعلى أساس ما يرضيه هو . . ومن هنا فان صاحب النظرية الفلسفية أو السياسية . . لا يعاني شيئاً بقدر ما يعاني اولئك الذين يخضعون لها . . أو ينفذونها . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بعد هذه المقدمة القصيرة ليقول : ماذا قدم العلم للبشرية . . تعالوا نناقش ذلك من واقع التجربة العلمية . . ان اساس الحياة البشرية من خلق الله سبحانه وتعالى لم يتغير . . ولم يتبدل . . ولا يستطيع العلم أن يجد له بديلا . . وانما العلم يقدم الرفاهية للبشر . . أي انه يجعل الحياة اكثر سهولة . . واكثر نعومة . . ولكنه لايعطينا مقومات الحياة . . بل ان الله سبحانه وتعالى علما منه بظلم الانسان للانسان . . جعل مقومات الحياة في يده . . وما اعطاه منها ليد البشر اعطاه بشكل لا يجعل الانسان قادرا على هلاك الانسان باستخدام أسباب الخلق . .

ولنشرح هذه النقطة قليلا . . مقومات الحياة من كرة أرضية . . وشموس . . ونظام كوني لادخل للانسان فيه . . ولا يستطيع . . ولن يستطيع الانسان بعلمه ان يتدخل ليخلق كرة أرضية جديدة . . أو شمسا جديدة أو نجوما جديدة أو سماوات جديدة . . الى آخر هذا . . هذا خلق الله . . والعلم اذا استطاع أن يكتشف الآيات في هذا الخلق . . يكون قد تقدم تقدما هائلاً . . ولكنه لن يستطيع أن يخلق شيئا . . أو يبدله . . او يغيره . . واذا كنا نتحدث الآن . . ونحن في عصر العلم . . فتلك حقيقة هامة . . لا يستطيع أحد الجدال فيها . .

نأتي بعد ذلك الى مقومات الحياة على الأرض . . الهواء . . والماء . . والطعام . . لوازم ثلاثة لحياة الانسان على الأرض . . الانسان بطبعه لا يستطيع العيش بدون الهواء اكثر من دقيقة او دقائق . . ولذلك أخرج الله الهواء من قدرة البشر على التحكم في البشر . . فالله شاء أن يكون الهواء مباحا للناس . . جميعا . . لا يستطيع واحد أن يمنعه عن مجموعة من الناس فتهلك . . بل أنه أخضع الهواء لعدله . . فكان متساويا بين الناس جميعا . . فقيرهم وغنيهم . . عظيمهم وذلك الذي لا يملك من أسباب الدنيا شيئا . . فهم جميعا يتنفسون بنفس السهولة . . وبنفس الطريقة دون اي

عناء . . يصلهم الهواء الى حيث هم واينما كانوا في حجرات مغلقة . . او في الطريق . . أو في السيارة . . أو في أي مكان في العالم . . فان الهواء يصلهم سهلاً . . ميسرا . . متاحا . . للجميع . . وهذا عدل الله سبحانه وتعالى . . ولا دخل لبشر فيه . .

نأتي بعد ذلك الى الماء . . وهو ما يستطيع الانسان ان يعيش بدونه يوما . . أو عدة أيام . . نجد أن القدرة على اختزان الماء قليلة . . والقدرة على منع الماء عن البشر قليلة . . ومحدودة . . وان كانت لها امكانيات . . وهنا يتدخل ظلم الانسان . . ولكن بقدر محدود جدا . . نظرا لأهمية الماء للحياة البشرية . . نأتي بعد ذلك للطعام . . فنجد ان قدرة الانسان على اختزانه ومنعه . . أكبر . . ولكن احتمال الانسان لعدم تناول الطعام أكثر . . فان الانسان يستطيع أن يتحمل عدة ايام بدون طعام . . ولكنه في نفس الوقت يستطيع ان يحصل على ما يقيم أوده . . أو يبقي الحياة في جسده بسهولة نظرا لأن الكمية التي يحتاج لها الجسم البشري من الطعام ضئيلة نسبيا . . فهي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيمات أي كمية محدودة من الطعام وكلما زاد اقبال الانسان على الطعام فسد جسده واعتلت صحته » .

وهذه هي مقومات الحياة الثلاثة . . شيء لا يستغني عنه الانسان . . ولا يستطيع الحياة بدونه ابدا وهو الهواء . . نافذ فيه عدل الله . . ليحصل كل انسان على حاجته بلا عناء . . وشيء يستطيع الانسان أن يستغني عنه يوما وهو الماء . . متوافر للناس . . وشيء ثالث وهو الطعام . . تحكم البشر فيه أكثر . . ولكن احتمال الانسان للعيش بدونه أكبر . . وهنا ترى عدالة السماء في توزيع مقومات الحياة . . وتدخل الانسان فيها . .

نأتي بعد ذلك الى العلم . . ماذا استطاع العلم أن يقدم للانسان من هذه المقومات . . الهواء المحيط بالارض . . هل يستطيع العلم ان يخترع غلافا جويا . . كذلك الذي يحيط بالارض . . أو أن يوفر الهواء على كوكب القمر مثلاً . . مثل توفير ارادة الله للهواء حول الأرض . . وبنفس العدالة . . الجواب : مستحيل طبعا . . فاذا انتقلنا من الهواء الى الماء . . هل يستطيع العلم أن يمد ماء . . أو يوصل ماء لكوكب من الكواكب ليس فيه ماء ويجعل الحياة ممكنة فيه . . هل يستطيع العلم أن يخلق ماء على

كوكب من الكواكب . . كالماء الموجود على الأرض يشرب منه الوف الملايين من البشر والحيوانات . . والطيور . . وكل شيء حي . . بحيث يكون متوافرا . . ويسقي هؤلاء جميعا . . ويسقي أرضهم . . وينبت لهم الزرع ليأكلوا منه . . الجواب : مستحيل . . فالعلم عاجز عن أن يمد الصحارى في الأرض بالماء اللازم لها . لتزرع . . وهناك مساحات شاسعة من الأرض صحراء جرداء . . لا يستطيع العلم ان يعطيها الماء .

بل اننا نجد الصحراء تمتد بجوار الارض الخضراء . . تلك فيها حياة . . والأخرى ميتة لا حياة فيها ولا ماء . . والعلماء يعترفون ان العلم عاجز عن أن يسقي البشر ماء . رغم ان الله سبحانه وتعالى قد اتاح للعلماء معرفة تكوين عناصر الماء . . وطريقة تكوين السحب . . ولكن كل هذا هو من خلق الله . . والعلم لايستطيع ان يقدم شيئا في ذلك . . ولا يستطيع أن يخلق ظروف الحياة . . على كوكب لا حياة فيه . .

ننتقل الى الطعام . . هل يستطيع العلم ان يجعل حبة تنمو على يدك . . أو على شيء غير الارض . . أو التربة الأرضية . . هل يستطيع العلم ان يزرع زرعا في الهواء فينمو ويزدهر . . لا يستطيع . . بل يجب أن ينمو الزرع في الأرض . . وأن يتغذى من التربة وبالماء . . ومن هنا فان مقومات الحياة الثلاثة لا يستطيع العلم أن يقدم للانسان فيها شيئا . . ولا يستطيع ان يعطيه فيها بديلا . . الانسان محتاج الى الهواء . . والماء . . والأرض . . ليعيش . . والعلم عاجز عن ان يخلق له ماء أو هواء . . أو أرضاً جديدة . .

وكل ما يستطيع ان يقدمه العلم هو الرفاهية . . بمعنى انني عندما أحس بالعطش يجب أن أذهب الى النهر أو الى النبع . . أو الى مكان فيه ماء لأشرب . . العلم يجعل هذا الماء يصل الى مكاني مثلجا . . وبالنسبة للطعام . . المفروض عندما أجوع أن أذهب الى المكان الذي يزرع فيه الطعام أو ينبت فيه لآكل . . العلم يوفر لي هذا الطعام في بيتي . . ويستطيع أن يكتشف طريقة لتحسين الانتاج وتطويره . . بحيث يكون الحجم اكبر . . والطعام اشهى . . ولكنه لا يستطيع أن يخلق طعاما . . والعلم يوفر لي رفاهية في العمل الذي أقوم به . . فيخترع لي آلة بدلا من الفأس التي استخدمه في الزراعة . . ويخترع لي آلة حاسبة أو عقلا الكترونيا يقوم بالحسابات . . وييسر لي الانتقال السريع بالطائرة . . الى غير ذلك من وسائل الانتقال . . ولكنه لايخلق لي شيئا

من مقومات الحياة . . وهذا واضح في قول الله سبحانه وتعالى في سورة الواقعة حينما يتحدث عن مقومات الحياة . . وكيف انها من صنعه سبحانه وتعالى . فيقول : **﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ . . ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ . . ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾** . .

بقيت نقطة هامة جدا وهي نقطة الخلق . . وهذه محتاجة الى حديث قادم حيث أن هناك من يجادل في خلق الله . . وهناك من يحاول أن ينكر الدين . . والله سبحانه وتعالى قد أنبأنا عن هؤلاء في القرآن . . وقال لنا الله ان هناك اناسا مضلين سيأتون . . ويحاولون أن يضلوكم عن دينكم . . ويتحدثوا عن خلق السموات والأرض . . وعن خلق الانسان . . وهم سيحاولون اضلالكم عن الحق . . هؤلاء المضلون الذين انبأ القرآن عنهم قد جاءوا . . وبدأوا في محاولة اضلال الناس . . ولكن مجيئهم كان تثبيتا للدين . . وتصديقا للقرآن . . فلو أن هؤلاء المضلين لم يجيئوا ولم يجادلوا في خلق السماوات والأرض . . لكان عدم مجيئهم ضد قضية الدين . . فالله سبحانه وتعالى قد قال لنا أن هناك مضلين . . وانهم سيأتون . . ويجادلونكم في الخلق . . فكأن هؤلاء المضلين في محاولاتهم التشكيك في الدين . . انما يثبتون ان هذا الدين حق . . ولكن كيف . .

الانســان وخلـق الله

من الذي ميز الانسان عن أي انسان آخر مخلوق مثله . . رغم تشابه الخلق . وجعل الفرد رغم تشابه الخلق مميزا عن الدنيا كلها . . بحيث لا يتكرر شخص رغم تكرر الخلق . . هل تستطيع أن تميز بين عصفورة وعصفورة . . او بين قرد وقرد أو بين أُسد وأسد . . ولماذا التمييز . .

واذا أردنا ان نستشهد بالقرآن الكريم في أمر هؤلاء الذين يضلون عن سبيل لله . . فاننا نجد الآية الكريمة : **﴿ ما اشهدتهم خلق السموات والأرض . . ولا خلق فسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾** . . ومعنى الآية الكريمة ان هناك اناسا يأتون ليضلوكم عن سبيل الله . . ويتحدثوا عن خلق الانسان . . وخلق السموات

والأرض بنظريات من صنع هواهم . . لا تستند الى الحقيقة ولا الى الواقع . . وأنا أقول من الآن أن هؤلاء الناس لم يشهدوا معي . . أو لم اشهدهم لم يشهدوا معي . . ولا خلق الأرض . . ولا خلق الانسان . . وما كنت متخذا من هؤلاء المضلين عونا لي في الخلق حتى يقولوا ما يعلمون .

لو لم يأت هؤلاء المضلون لقلنا ان القرآن قد اخبرنا ان هناك من يأت ليضل عن سبيل الله . . وهؤلاء لم يأتوا . . ولو أن هؤلا ء الناس لم يجادلوا في خلق السموات . . وخلق الأرض . . وخلق الانسان . . لقلنا أن القرآن قد أنبأنا ان هناك أناسا سيجادلون في الخلق . . ويضلون عن سبيل الله . . ولكن هؤلاء الناس جاءوا ليضلوا عن سبيل الله . . وتركوا مسألة خلق السموات والأرض . . وخلق الانسان . . ولم يجادلوا فيها باعتبار انها مسألة غيبية . . ومن هنا كان من الممكن جداً أن يأتي هؤلاء المضلون . . ويجادلوا في الله . . ولكن عندما تأتي نقطة خلق السموات والأرض . . وخلق الانسان . . يقولون لن نجادل في هذا الأمر . . حيث انه أمر غيبي خارج عن نطاق علمنا . . ولم نشهده . . ولا نستطيع أن نجادل فيه . . كان من الممكن أن يحدث هذا فعلا . . ولكن كون هؤلاء المضلين أتوا . . وكونهم جادلوا في خلق السموات والأرض . . وفي خلق الانسان . . وجادلوا دون برهان مادي يستطيعون تقديمه . . فهم لا يستطيعون مثلا وضع الشمس والقمر داخل معمل لاجراء تجارب عليهما . . أو ادخال الروح البشرية تحت الميكرسكوب . . ولكنهم رغم علمهم المحدود . . جاءوا وجادلوا في هذه الأشياء . . ليس عن علم ، ولكن عن هوى . . حينئذ نقول ان هؤلاء المضلين قد قدموا الدليل على صحة القرآن وانه منزل من عند الله في وقدموه وهنا المعجزة . . وهم يحاولون الاضلال عن سبيل الله . . أي أنهم اثبتوا ان الله حق . . وان القرآن حق . . بينما هم يحسبون أنفسهم انهم يضلون . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فيقول اذا أردنا أن نناقش احدا من الذين يضلون عن سبيل الله . . او ينكرون وجوده سبحانه وتعالى . . فانهم لا يقدمون الدليل . . أو الحجة على ما يقولون . . ولا يناقشون جوهر الرسالة نفسها . . يأتي الواحد منهم ليقول ان هذا القرآن ليس منزلا من عند الله مثلا . . وهذه قضية جدلية . . لا يستطيع ان يثبتها . . فالله سبحانه وتعالى لم يخبره بهذا . . وهو لم يأت بعلمه

الانكاري عن أي طريق يقيني . . وانما هو أتى به عن طريق هوى في نفسه . . يريد أن يحققه بالهروب من شريعة الله . . الى شريعة أخرى . . تعطيه فوق ما له من حقوق . . وتسلب الآخرين ما لهم من حقوق . .

ومن هنا فاننا إذا اردنا ان نناقش هذا الموضوع لا يجب ان نبدأ المناقشة بهذه النقطة . . ولكننا يجب ان نقول لكل من يجادل في الله محاولا الانكار . . تعال وناقشنا في المنهج الذي وضعه الله . تعال وناقشنا في المبادىء التي وضعها الله . . ولكننا نجد أنه يهرب من المناقشة . . ويحاول أن يتخلص منها . .

على ان الذين يجادلون في خلق السموات والأرض . . وخلق الانسان . . انما يأتون بأشياء عجيبة . . يحاولون الباسها ثوب الحق . . وهي باطل . . ويحاولون أن يخدعوا الناس بأشياء كثيرة لا تمت الى العلم بصلة . . نجد واحدا يأتي ويقول ان أصل الانسان قرد . . ثم هناك حلقة مفقودة . . ونظرية الارتقاء الى آخر ما يقال في هذا الموضوع . . هذا شيء مبني على الظن . . فالرجل الذي قال هذا الكلام لم يشهد قردا تحول الى انسان . . ولا يستطيع ان يحول قردا الى انسان . . اذن فهي نظرية غير يقينية مبنية على افتراضات شكلية بعيدة عن العلم تماما . .

ولكننا حين نبدأ المناقشة معه في المضمون . . نقول له . . تعال . . هل شهدت قردا يتحول الى انسان . . سيقول لا . . هل تستطيع أن تحول قردا الى انسان . . سيقول لا . . هل شهدت خلق الانسان . . يقول لا . . نقول اذن علام تبني نظريتك . . على أي أساس . . يقول على الملاحظة والتخمين . . نقول له . . اذا كان كذلك . . فلنناقشك بالملاحظة والتخمين كما بنيت نظرياتك .

هل تستطيع أن تفسر لنا كيف ميز الله الانسان . . سيقول انها نظرية الارتقاء . . نقول له نريد أن نتوقف قليلا . . الانسان كمخلوق من خلق الله مثله مثل باقي خلق الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى ميزه بأشياء كثيرة . . أهمها العقل الذي يميز به الانسان بين الحق والباطل . . والذي يكون في كثير من الاحيان هو الطريق الى الضلالة . . اذا وضع العقل البشري كحكم مطلق . . وزاد عليه الغرور الانساني . .

والآن فلنبدأ . . هل تستطيع ان تميز بين عصفور وعصفور آخر من نفس الجنس . . هل تستطيع ان تميز بين حصان وحصان آخر من نفس الجنس واللون . .

وهل تستطيع ان تميز بين جاموسة وجاموسة . . او قرد وقرد . . أو أسد وأسد . . أو أي حيوان وحيوان آخر . . الجواب طبعا لا . . ولكنك تستطيع ان تميز بين انسان وملايين البشر . . رغم اننا كلنا مخلوقون بنفس الشكل . . فكل منا له عينان . . وأذنان . . وانف . . وفم . . ويدان وقدمان . . أي ان الشكل العام واحد . . ولكن كل انسان له صورة معينة . . تميزه عن ملايين البشر . . فانت حين ترى انسانا بين الملايين التي تسكن الكرة الأرضية . . تقول هذا علي . . وهذا اسماعيل . . وهذه فاطمة وهذه زينب . . وهذا أبي . . وهذه أختي . . الى آخر كل هذا . .

من الذي ميز الانسان عن أي انسان آخر مخلوق مثله . . وجعل هذا التمييز تمييزا خاصاً . . رغم تشابه الخلق . . ووضع هذا التمييز في كل انسان ليستطيع أن يميز زوجته وابنه وأباه . . وأصدقاءه. إلى آخر هذه العملية . . بل ويستطيع هو ان يكون مميزاً عن الناس اجمعين . . الذي هو الله سبحانه وتعالى ليستقيم ذلك مع الحياة التي رسمها له . . فهو مميز في الدنيا ليمكن حسابه في الآخرة . . ويكون شهيداً على نفسه . . وهو مميز في الدنيا ليكتب عمله له أو عليه ، وهو مميز في الدنيا لانه سيحاسب في الآخرة . . فلو ان الانسان كان غير مميز . . والخلق متشابه . . لكانت حياة الانسان على الكرة الأرضية مستحيلة التنظيم . . لماذا . . لأن الانسان لم يخلق للدنيا وحدها . . وانما خلق للدنيا وللآخرة . . خلق وسيحاسب ويكون شهيدا على نفسه . . وانا حين لا أستطيع أن أميز أبي وأمي واولادي . . وزوجتي . . والناس حولي . . كيف يمكن أن أحاسب . . وكيف يمكن أن يأتي هؤلاء الناس الذين أسأت اليهم . . وأكلت حقوقهم في الآخرة . .

ليكونوا شهداء ويأخذوا حقوقهم من حسناتي . . وكيف يمكن أن اكون شهيدا على نفسي . . وانا لا أميزهم . . وكيف يمكن أن أحاسب على اتصالي بامرأة اخرى . . وانا لا أميز زوجتي . . اذن التمييز هنا ضروري واساسي . . وقد وضعه الله باعجاز شديد . . رغم تشابه بلايين الخلق . . فان لكل انسان صورة مميزة لا تتكرر . . والدليل على ذلك صور وتماثيل الملوك . . الأقدمين التي تركوها في الأرض . . الفراعنة مثلا ماتوا منذ قرون . . فهل تستطيع أن تأتي بانسان . . وتقول هذا رمسيس . . أو هذا هو نابليون . . الجواب مستحيل . . الانسان قائم بذاته . . لا يتكرر رغم تكرر

الخلق . . ومن هنا فان الحساب يكون عدلا . . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم انه حين يتشفع المؤمنون للعاصين في الآخرة . . لاخراجهم من النار . . يقول الله سبحانه وتعالى . . ﴿ **اذهبوا واخرجوا من النار من كان في قلبه حبة خردل من الايمان** ﴾ . . فيذهبون الى النار . . فيعرفونهم بصورهم . . ان حياة الانسان كحيوان بلا تمييز ممكنة اذا كان الهدف هو الدنيا وحدها . ذلك ان هناك ألوفا من المخلوقات تعيش بلا تمييز .

ولكن ماذا عن الأخيرة ...

اذن تمييز الانسان ضروري للحساب في الآخرة . . ولو انه لم يكن هناك حساب وثواب وعقاب . . لما ميز الانسان عن غيره من سائر المخلوقات . . ولكان الخلق قد تشابه كما هو في عالم الحيوان مثلا . . هذا التمييز الدقيق جدا . . المعجز . . لا يمكن أن يأتي بالتطور . . لأنه غاية في الدقة . . وغاية في الاعجاز . . خلق متشابه في كل شيء . ومع ذلك كل انسان فيه مميز عن الآخر . . تمييزا دقيقاً . . بحيث لايتطابق انسان في هذه الدنيا كلها مع انسان آخر . . بل لا يتطابق في الخلق من أوله الى يوم القيامة انسان مع انسان آخر ، اترى الاعجاز الذي يجب أن يسجد له كل ما في السموات والأرض أن الانسان لا يستطيع . . ولا يقدر مهما بلغت عبقريته . . ومهما استعان بقوى الأرض جميعا أن يصنع أشياء متكررة متميزة لا يشبه أحدها الآخر . . مستحيل . . وفكر قليلا في كل شيء يصنعه الانسان . . بل تصنعه اكبر عقول البشر . . لا يمكن تمييز شيء متشابه بحيث يكون لكل فرد منه شخصية معينة . . ليكون مميزا تمييزا دقيقا عن البلايين غيره . . اي ارتقاء هذا الذي يتجاوز كل قدرات الدنيا . . اي ارتقاء يمكن ان يضع هذا الاعجاز المطلق في طفرة واحدة . . ولامقدمات أي ارتقاء ذلك الذي يقفز بالانسان ليجعله سيد الأرض كلها . . ويجعل كل شيء مسخرا لخدمته .

ولكن بعض الناس يحاول ان يفرض أشياء خاطئة . . ثم يدعي كذبا أنها الحقيقة . . وفي خلق الانسان . . معجزات لا يمكن أن تكون طفرة . . ولا ارتقاء . . ولا أي شيء . . مثلا العقل البشري . . ذلك الذي ميز به الله سبحانه وتعالى . . آدم وذريته . . والعقل البشري اذا أردت أن تخلق عقلا الكترونيا في قوته . . فانك محتاج الى اضعاف مساحة الكرة الأرضية . . لتقيم هذا العقل . . لأن العقل البشري الصغير

الذي تراه امامك في هذه المساحة المحدودة . . مكون من ألف مليون خلية عصبية . . وأريدك أن تضع معي خيالك قليلاً . . الف مليون خلية في هذه المساحة الصغيرة . . هذه الألف مليون خلية تعمل وتترجم وتهاجم وتدافع . . وهناك ثلاثة آلاف شعيرة تتذوق الطعام وتقول للانسان هذا حلو . . وهذا مر . . واذا اقترب جسدك من شيء حار . . صرخت ٣٠ الف خلية في مخك . . احترس هذه نار . . الى آخر الاعجاز في الخلق . .

كل هذا الاعجاز لايمكن ان يتم بالارتقاء ابدا . . فالطفرة رهيبة بين الانسان وغيره من المخلوقات لا يمكن الا أن ينطبق عليها قول الله سبحانه وتعالى . . ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ . .

على أن بعض الناس يجادل ويقول كيف يكون هناك من هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان . . وأنا اقول انظر الى نفسك تعرف الجواب . .

ليس كمثلــه شيء

الأشياء يجب ان تنسب الى الفاعل لتستطيع أن تدرك معناها . . فاذا قلت ان طفلا ضربني بكل قوته . . وقلت أن أقوى رجل في العالم ضربني بكل قوته فالفعل واحد . . ولكن الفرق بين الفاعلين كبير . . واذا كان هذا في قوانين البشر . . فما بالك بقدرة الله . .

يأتي هؤلاء المضلون محاولين استغفال عقول البشر . . واثارة قضايا لا تتفق او تتصادم مع ظاهر العقل البشري . . والله سبحانه وتعالى قد جعل لكل قضية تتصادم مع ظاهر العقل البشري حلا يقربها الى ذلك العقل . . حتى يستطيع الانسان ان يواجه هؤلاء المضلين بالحجة البالغة التي هي من عطاء الله للنفس البشرية . . فالله سبحانه وتعالى كان لطيفا في علمه . . لطيفا بعباده . . فأعطاهم أمثلة تقرب الى عقولهم ما يعجزون عن فهمه . . مثلا يقول أحد الذين يضلون عن سبيل الله . . ويحاولون ايجاد تصادم وهمي بين كلام الله . . والعقل البشري . . كيف يكون هناك من هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان . . وأنا أقول أن الله سبحانه وتعالى بسط هذه المسألة . . وجعلها في انفسنا لتقرب منا الصورة وتجعلها موجودة أمام العقل البشري بشكل قريب .

والسؤال الذي اطرحه هنا هو عن الانسان .. عن نفسك .. انت تتساءل عما هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان .. وانا أسألك عن روحك .. اين هي هذه الروح التي تجعل كل جسدك يعمل وينطق ويرى ويعيش .. هل هي في قلبك الذي ينبض بلا توقف ما دامت الروح فيك .. أم هي في عينيك تجعلهما يبصران فتريان الأشياء .. أم هي في أذنيك تجعلهما تسمعان . أم هي في صدرك تجعله يتنفس . أم هي في معدتك تجعلها تقوم بوظيفتها لتغذية جسمك .. أم هي في اليدين تجعلهما تتحركان وتفعلان ما تريد .. وتبطشان بمن تريد .. أم هي في قدميك تمشي بهما وتجري كلما شئت .. أم هي في امعائك تجعلها توصل الطعام للدم .. أم هي في عقلك تجعله يفكر ويحسب .. ويدبر لك شئون حياتك .. ام هي في دمك تجعله ينبض ويجري في عروقك ليعطيك الحياة .. اين مكانها بالضبط .. هل تستطيع أن تحدده .

قد يرد بعض الناس ليقولوا أنها في عقلك .. فهو الذي تتصرف به ويعطي الاشارات لكل شيء ليتحرك .. ولكن هذا مردود عليه بأن في الجسم مئات من الأشياء غير الارادية التي تعمل دون ارادة الانسان .. فالقلب ينبض بلا ارادة .. والدم يمشي في العروق بلا ارادة .. والتنفس يتم بلا ارادة .. والمعدة تعمل بلا ارادة .. الى آخر ما تستطيع أن تعدده في الجسم البشري .. اذن فهناك الروح وهي مخلوق لله سبحانه وتعالى .. وقد وضعها الله في جسدك .. ورغم ذلك .. رغم ضيق المكان .. وتحديده فانك لا تستطيع ان تقول .. اين هي الروح على وجه الدقة .. ولا تستطيع ان تحدد مكانها لتقول هنا في هذه النقطة توجد روحي .. فاذا أردنا أن نحدد الوزن نقول ان الجسد لا يفقد شيئاً عند الموت .. الوزن واحد تماماً .. ومع ذلك فان الروح تكون قد خرجت من الجسم .. ومن هنا فانك لا تستطيع ان تحدد للروح مكاناً ولا وزنا .. وهي مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .. فاذا أردت ان تحدد لها الزمان تحديدا علميا مطلقا يعتمد على ابحاث المعمل دون هوى من النفس .. فانك لا تستطيع .. فأنت لا تعرف ان كانت روحك موجودة قبل ولادتك ام لا .. ولا تعرف اين تذهب بعد الموت .. ولا تعرف عمرها حتى يوم القيام ولا بعد يوم القيامة .. ولو ان الله لم يخبرنا بأمرها قبل ميلاد الانسان وبعد وفاة الانسان لعجزنا عن أن نعرف ذلك تماما .. بل انك لا تعرف كم تلبث الروح في جسدك رغم كل ما يحاول العلم أن يحدده .. فالانسان قد

يموت فجأة من مرض أو صدمة أو حادث لا يمكن أن يتنبأ به أحد . . ولا تدري نفس متى وقت الموت . . ولا يمكن ان تدري مهما بلغ التقدم من العلم . . ولا يمكن أن تدري بأي ارض تموت . . اذن الزمان هنا غير موجود . . والمكان غير موجود . . والوزن أو الشيء المادي غير موجود . . هذا في خلق من خلق الله . . فما بالك بالله سبحانه وتعالى . .

على اننا بعد ذلك اذا انتقلنا الى نقطة ثانية . . وهي الموت والحياة . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد اعطانا من الموت شيئا يقربنا من الخلق . . فان الموت نقض للحياة . . ونقض الشيء يأتي على عكس بنائه . . فأنت حين تبني عمارة تبدأ بالدور الأول أو الاساس . . وحين تهدمها تبدأ بالدور الأخير . . وأنت حين تذهب الى الاسكندرية مثلا وتنزل في محطة سيدي جابر . . فانك حين تريد العودة الى القاهرة تبدأ من محطة سيدي جابر . . اذن الموت نقض للحياة أول ما يخرج من الجسد هو الروح . . وبذلك تكون آخر شيء قد دخل فيه . . ثم يتصلب الجسم الى حما مسموم . . ثم يتحلل الى طين لازب . . ثم الى تراب . . وهذه الأطوار هي العكس المقابل لأطوار الخلق . . كما ذكرها القرآن الكريم .

على ان الله سبحانه وتعالى حينما يريد أن يعطينا . . يعطينا قضية عامة . . فاذا رأيت فيها شيئا يقف فيه عقلك . . لأنه يخالف ما تعتاد وتألف فضعها تحت عنوان سبحان الله . . وليس كمثله شيء .

ونفسر هذه العبارة قليلاً . . اذا قلت ان فلانا قد ضرب فلانا بكل قوته . هل تعني نفس الشيء . . الجواب أبداً . . لايكون للشيء معنى الا اذا نسب لفاعله . . ووضعت فيه قدرات هذا الفاعل . . بمعنى انني اذا قلت أن طفلا صغيرا عمره أشهر ضربني بكل قوته . . وقلت أن بطل العالم في الملاكمة ضربني بكل قوته . . فهناك فرق كبير بين المعنيين . . الأول ضربه لا يؤثر في . . ولا أحس به . . والثاني ضربه قد يقتلني . . مع أن الاثنين قد استخدما كل قوتهما التي وهبها الله لهما في عملية الضرب . . ولكن الفعل هنا يتناسب مع القوة . . فالطفل الصغير لا أكاد أحس بضربه . . وبطل العالم يستطيع ان يحطم ضلوعي بسهولة . . هذا في قدرة البشر المحدودة . . هذا في قوة المخلوقات . . فما بالك بالله سبحانه وتعالى . . الخالق .

واذا أخذنا هذا المثل . . ووضعنا الله سبحانه وتعالى تحت عبارة سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . استطعنا ان نقرب كثيرا من المعاني التي قد يستغلها البعض لاضلال البشر . . لله سبحانه وتعالى قوة . . ولي قوة . . ولكن هل قوتي مثل قوة الله سبحانه وتعالى . . لله سبحانه وتعالى علم . . ولي علم . . ولكن هل علمي مثل علم الله سبحانه وتعالى . . والله حي . . وانت موصوف بالحياة . . فلا تقول ان حياتك مثل حياة الله سبحانه وتعالى . . وجود الله سبحانه وتعالى ليس كوجودك . . وعلمه ليس كعلمك . . وقدرته ليست كقدرتك . . ومن هنا يخرج وجه المقارنة . . حيث انه لا مقارنة . . فالله بقدراته وقواته يأتي تحت وصف سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . ومن هنا فأنني لا يجب أن أنسب الى نفسي بالمدلول البشري ما يقوله الله سبحانه وتعالى عن ذاته . . فعندما أتصور قوة الله لا أقارنها بقوتي . . ولكني أقول سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . وعندما أتصور انتقام الله لا أقارنه بانتقامي . . وانما أضعه تحت عبارة سبحان الله . . وليس كمثله شيء . .

ومن هنا نجد أننا اذا تذكرنا « سبحان الله . . وليس كمثله شيء » . . يمكن أن نصل الى مدلول أشياء كثيرة . . فأنت مثلا لا تستطيع ان تتصور الا ما تراه . . وعندما يخبرك الله سبحانه وتعالى عن أشياء لا تراها تضعها تحت عنوان سبحان الله وليس كمثله شيء . . لأنه شتان بين رؤيتك ورؤية الله سبحانه وتعالى . . مثلا سبحان الله الذي أسرى بعبده . . من الذي أسرى . . الله سبحانه وتعالى . . أسرى بنبيه الى المسجد الأقصى . . لا تأتي لي في هذه الحالة بقوانين الزمان . . وقوانين المكان التي تنطبق عليك أنت . . والتي تستطيع أن تراها وتتصورها . . ثم تحاول أن تطبقها على فعل من أفعال الله . . لماذا ؟ . . لأن الله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فان هذه القوانين التي تحكمك لا تحكمه . . والزمان والمكان اللذان تخضع لهما لا وجود لكليهما عند الله سبحانه وتعالى . . لأنه ليس كمثله شيء . . الذي أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم هنا هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك حين قال بعض الصحابة أيستطيع محمد أن يذهب الى بيت المقدس . . ويصعد الى السماء . . ويعود في ليلة واحدة . . نقول ان محمدا عليه الصلاة والسلام لم يدع ذلك . . وانما أسرى به . . والذي أسرى به هو الله سبحانه وتعالى . . والله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فان قوانين الزمان والمكان . . وقوانين

الدنيا كلها . . والقوة والقدرة الى آخر كل ما يتصوره البشر لاينطبق على الأسراء . . لأن الله هو الفاعل . . والله ليس كمثله شيء . . واذا كان كل شيء يأتي بالتشابه . . فان الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . ولذلك عندما نقول سبحان الله وليس كمثله شيء . . فأننا نعلو به سبحانه علواً كبيراً عن كل شيء يأتي بالتشابه . . اذن كل ما نطق به الله سبحانه وتعالى خذه على أنه له . . أما عن كيفيته فلا أحد يستطيع أن يصل اليه . . لماذا ؟ . . لأنه ليس كمثله شيء . .

والغيب والملائكة

« عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التي يؤيد بها انبياءه أو . . عن عالم الجن او الملائكة الذي لا نراه . . يجب أن نعرف انها حقائق . . لماذا ؟ لان ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . وما هو فوق قدرة البصر موجود . . » .

الذي أسرى هو الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فان قوانين الزمان والمكان . . وقوانين الدنيا كلها . . والقوة والقدرة لا تنطبق على الأسراء . . لأن الله هو الفاعل . . واذا كان كل شيء يأتي بالتشابه فان الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى ليس كمثله . . بل هو يعلو علوا كبيرا عن كل شيء يأتي بالتشابه .

ومن هنا عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التي يؤ يد بها انبيائه . . أو عن عالم الملائكة والجن الذي لا نراه . . فنحن نعرف ان هذه حقائق لأن الله سبحانه وتعالى قادر وقدرته لا تقارن بالدنيا كلها . . وعلمه لا يصل الى ذرة من ذراته . . علم البشر جميعا . . فهو يخلق ما نرى . . يخلق ما لا نرى . . ويخلق ما لا نراه الآن . . وقد نراه في المستقبل .

ولكن الله سبحانه وتعالى كما قلت لطيف بعباده . . ومن هنا فانه يضع في الكون آيات تقرب الى العقل البشري . . ذلك الذي يعجز عنه هذا العقل وتجعله قريبا من تصوره . . وهو بذلك يريد أن يدخل الاطمئنان الى قلوبنا . . وأن يعطينا الايمان واليقين بحيث يستطيع ان يجابه المضلين . . وان نرد عليهم . . والانسان المؤمن دائما في قلبه سكينة . . وفي قلبه امل . . ذلك انه يؤمن بقدرة الله التي هي بلا حدود . . ويؤمن بان

الله الذي كتب على نفسه نصر المؤمنين . . وكتب على نفسه انجاء المؤمنين . . وكتب على نفسه ان يدافع عن الذين آمنوا . . تلك القدرة الهائلة . . قادرة على حمايته . . وعلى دفع الضر عنه . . ولو كانت اسباب الدنيا كلها ضده . .

ولكن كما يجادل بعض الناس في الروح يأتي واحد منهم ويقول ما هذا الكلام عن عالم الجن والملائكة . . أنا لا أصدق الا ما أراه . . ويجادل ويجادل الى آخر هذا الكلام . . فاذا قلت له هل شهدت الخلق . . هل شهدت خلق الجن والملائكة . . يرد عليك وأنت أيضاً لم تشهده . . وهنا ترد عليه بأن الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا في هذا الكون الدليل على أن ما فوق قدرة العقل . . وما فوق قدرة البصر . . وما فوق قدرة السمع . . موجود في هذا العالم . . منذ خلق الأرض ومن عليها . . وكل هذا يخرج من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى الى علم غير القادر وهو الانسان . . ليدل على ان ما هو فوق القدرة البشرية . . موجود ولكننا لا نعقله . . ولا نسمعه . . ولا نراه . . ولنناقش هذه المسائل الثلاث .

ما هو فوق قدرة العقل موجود منذ الأزل . . وان كان قد أصبح في قدرة العقل خلال السنوات الأخيرة مثلا . . ان يطير الانسان في الهواء بطائرة كانت فوق قدرة العقل في الماضي . . بحيث انك اذا قلت منذ مائة سنة مثلا . . انك ركبت طائرة وطرت بها في الهواء لاتهمك الناس بالجنون أو بالكفر . . ولقتلوك . . ولو قلت انك تحدثت في آخر الدنيا فسمعك ملايين البشر في وقت واحد . . لو قلت هذا مذ مائة سنة فقط لما صدقك احد . . ذلك ان هذا كان فوق قدرة العقل البشري . . ولكنك الآن تذهب الى اي مطار فتركب الطائرة وتطير في الهواء . . وتتحدث في الاذاعة فتسمعك الدنيا من اقصاها الى أقصاها . . كيف حدث ذلك . . هل اخترع الانسان غلافا جويا جديدا للارض يمكنه من الطيران . . هل دار حول الدنيا ليضع موجات الأثير . . لا . . لا هذا . . ولا ذاك طبعا . . انما الغلاف الجوي كما هو منذ خلق الأرض ومن عليها . . وموجات الأثير كما خلقها الله سبحانه وتعالى منذ بداية الكون . . ولكن الذي حدث ان الله ادخل الانتفاع بهذه الأشياء مما هو فوق قدرة العقل البشري الى علم البشر . . اي أن هذه الأشياء خرجت من علم القادر الى علم غير القادر بكلمة كن . . فاستطاع الانسان ان يطير في الفضاء . . وان يتحدث فتسمعه الدنيا كلها الى آخر ما حققه وسيحققه العلم

بقدرة الله . . وهذا دليل قاطع على أن ما فوق قدرة العقل البشري موجود . . وان العقل البشري ليس هو الحد الأعلى للعلم والمعرفة في هذه الأرض . . وانه كلما تقدم الزمن أعطى الله سبحانه وتعالى علما كان فوق قدرة البشر اعطاه للقدرات البشرية حتى يستطيع الانسان ان يصل اليه . . وحتى يؤمن الانسان ان ما فوق قدرة العقل موجود . . وحقيقة واقعة . . وان يكن يجهلها . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ويقول هذا بالنسبة للعقل . . اما بالنسبة لما هو فوق قدرة الأذن فذلك شيء نعرفه كل يوم . . اذا جلست انت في حجرة مغلقة ليس فيها أي صوت وسألتك أنا هل يوجد صوت في هذه الحجرة . . تقول لي أنا لا أسمع شيئا . . وكوني لا أسمع شيئا . . فانه لايوجد صوت في هذه الحجرة . . فاذا « أدرت الراديو » سمعت مئات الأصوات من جميع انحاء الدنيا . . من اين جاءت هذه الأصوات . . هذه الأصوات تسبح في جو الحجرة . . ولكنك لا تستطيع ان تسمعها بالاذن المجردة لانها فوق قدرة الأذن . . فاذا أتيت بآلة استطاعت ان تجعل هذه الأصوات في قدرة الاذن . . كان في امكانك أن تسمعها وتميزها . . اذن فهذه الأصوات موجودة . . ولكنك لا تستطيع ان تسمعها الا اذا أتيت بآلة تجعل اذنك قادرة على أن تستمع اليها . . وربما في المستقبل تكون هناك اختراعات أخرى بما هو في علم الله . . ولم يصل الى العلم البشري بعد . . تستطيع أن تجعلك تسمع أصواتا لا تسمعها الآن . . ولا ندري عنها شيئا . . بل انني أريد أن أزيد على هذه التجربة لمحة صغيرة . . اذا أتيت بالراديو الترانزستور ووضعت سماعة الأذن الصغيرة في اذنك . . وجلسنا نحن الأثنان معا بجواربعضنا البعض . . وسألتني هل أسمع شيئا سأقول لا . . هل يوجد صوت هنا سأقول لا . . بينما أنت جالس الى جواري والسماعة في أذنك تسمع الدنيا كلها . . كما تشاء وأنا بجانبك لا أسمع شيئا . . ما معنى هذا . . معناه ان الجهاز الذي تستخدمه قد جعل الأصوات التي تسبح في الحجرة . . التقطها وجعلها في مقدرة أذنك . . بينما أنا جالس الى جوارك . . وفي نفس المكان . . ولكن هذه الأصوات فوق قدرة سمعي . . هل معنى ذلك أن الأصوات التي تسمعها أنت بسماعة الراديو غير موجودة . . لأنني لا اسمعها . . مستحيل . . ولكن معناه ان هذه الأصوات التي تسمعها انت وحدك . . والتي هي فوق قدرة اذني موجودة . . ولكني غير قادر على

سماعها . . لأنني لا استخدم الراديو الذي تستخدمه انت ليجعلك قادرا على السمع . . نكون بذلك قد وصلنا الى أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . ثم نأتي الى ما هو فوق قدرة البصر . .

أنت تقول أنا لا أرى العوالم الأخرى التي يتحدث عنها الله . . ومن هنا فهي غير موجودة . . وأنا آتي لك بنقطة ماء من الترعة . . واقول لك هل ترى في هذا الماء شيئا . . ستقول لا . . وعندما أضع الماء تحت الميكـرسكوب . . تظهر فيه مئات الجراثيم الدقيقة الحية التي تتحرك بشكل عجيب . . أقول لك انظر في الميكـرسكوب . . سترى هذه الجراثيم . . بل ان الانسان المريض حينما تأخذ نقطة من دمه فانك لا ترى فيها شيئا . . فاذا وضعتها تحت الميكرسكوب . .أو وضعت عليها سائلاً معيناً تكتشف جراثيم واشياء عجيبة . . أين كانت هذه الأشياء . . كانت فوق قدرة بصرك . . فعندما أستعنت بآلة مكبرة . . جعلتها في قدرة البصر ليصبح من الممكن رؤ يتها . . ولكن هل عدم رؤ يتك لهذه الجراثيم معناه انها غير موجودة . . أو أن هذه الجراثيم لم تكن موجودة قبل اختراع الميكرسكوب . . كانت موجودة قطعا . . ولكنها كانت فوق قدرة البصر . . وجاء اختراع الميكرسكوب ليدخلها من فوق قدرة البصر الى القدرة البشرية . . ولكنها كانت موجودة رغم أنك لا تراها . .

واذا جلست في حجرة بها تليفزيون . . هذه الحجرة ليس فيها صورة . . فاذا فتحت التليفزيون اصبحت الحجرة فيها صورة . . بل ورأيت وأنت جالس امامك أنسانا يمشي فوق القمر . . هل في قدرة البصر أن يرى انسانا يمشي فوق القمر . . الجواب نعم . . اذا استخدمت امكانيات الله في الكون . . ولقد استخدم العلم امكانيات الله في الكون في نقل الصورة من مكان الى آخر . . فالعلم لم يخترع طبقات الجو التي تنقل الصورة . . ولا يستطيع ان يخترعها . . بل اكتشفها بكلمة كن . . والله هو القادر الذي كان في علمه كل هذا . . وإخرجه الى علم غير القادر . . وهو الانسان . . لماذا ليعلم الانسان علم اليقين . . ان ما هو فوق قدرة عقله موجود . . وان ما هو فوق قدرة سمعه موجوده . . وان ما هو فوق قدرة بصره موجود . . حتى اذا حدثه الله سبحانه وتعالى عن قضية غيبية هي فوق قدرة العقل . . أو السمع . . أو البصر . . عرف يقينا انها موجودة . . وأن ما يقوله الله سبحانه وتعالى حق . .

اذن ما هو فوق قدرة الانسان موجود فعلا . . وموجود بفرق شاسع جدا . . هو الفرق بين قدرة المخلوق والخالق . . والله سبحانه وتعالى أراد الا تكون هذه القضية الايمانية . . وهي قضية الغيب . . الا تكون مادة للمضلين ليضلوا بها الناس . . ويبعدوهم عن طريق الله . . فجعل العقل البشري نفسه ينتقل بقدرة الله مما هو مستحيل عقليا ومما هو ممكن . ليثبت أن ما فوق قدرة العقل موجود . . وجعل العقل يستطيع بقدرة الله أن ينتقل مما هو فوق قدراتها العادية . . وجعل الغير يستطيع أن يرى ما لم يكن يحلم بانها ستراه . . وكان الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطي كل هذا العلم للعقل البشري في اللحظة الأولى التي خلقه فيها . . ولكنه لم يرد ذلك حتى يكون العطاء للانسان عطاء فيه اثبات لقدرة الله . . وفيه اثبات لوجود الغيب . . وفيه اثبات لما هو فوق القدرات البشرية . . وان يكون العطاء متحدداً لكل جيل . . وعطاء الله لا ينتهي ولا ينضب أبداً . .

ولكن هناك بعض القضايا التي يثيرها المضلون . . مثل قضية تغيير القبلة مثلا . . يقولون أن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ . . ويقول ﴿ فاينما تولوا فثم وجه الله ﴾ . . ومن هنا فانني حين اتجه الى أي مكان فهناك الله سبحانه وتعالى . . ثم ان الاتجاه الى المسجد الأقصى أو الاتجاه الى المسجد الحرام ليس فيهما زيادة تكليف . . أو زيادة في الطاعة . . الله سبحانه وتعالى قد يفرض شيئا لزيادة طاعته . . أو زيادة في الايمان به . . ولكن الاتجاه الى المشرق مثل الاتجاه الى المغرب لا يكلف المؤمن شيئا أن يتجه الى هنا أو هناك . . فلماذا تغيرت القبلة .

ولا خطر على قلب بشر

ان الله يدافع عن الذين آمنوا . . ويدافع عنهم بقدراته هو . . وليس بقدراتهم هم . . ومن هنا فان الانسان المؤمن قلبه مطمئن مهما حدث . . نفسه لا تضيع مهما أظلمت الدنيا أمامه . . لأن الله يؤيده بنصره يؤيده بقدرة الله . . وليس بقدرات البشر . .

ولقد اكتشفنا في الغلاف الجوي خصائص مكنت الانسان من الطيران في الفضاء . . ومن الوصول الى القمر . . ولا يستطيع عقل أن يدعي ان ذلك من صنع

البشر . .لأن الذي خلق الغلاف الجوي هو الله سبحانه وتعالى . . والذي خلق المادة التي تصنع منها الطائرات أو الصواريخ هو الله سبحانه وتعالى . . والذي أوجد النظرية التي يطير بها الانسان أو يخرج بها من الغلاف الجوي للارض هو الله سبحانه وتعالى . . ولا يستطيع الانسان ان يصنع شيئا من ذلك . . بل هو اكتشفه . . ومعنى اكتشاف الانسان له . . ان هذه الخاصيات كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها . . المعادن التي تصنع منها الطائرات . . كانت موجودة في الأرض منذ الخلق . . ولكنها كانت فوق قدرة العقل البشري . . فلم يستطع أن يستخدمها . . ثم ادخلها الله في قدرة العقل البشري ليؤكد لنا . . ويقرب لنا . . ان ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وان كنا لا ندري بوجوده . . وأنه من الممكن أن يدخل في نطاق العقل . . فيصبح أمرا ممكنا للبشر . وهذا حتى لا نجادل عندما يحدثنا الله عن أنباء في الغيب هي فوق قدرة عقولنا . . ولا يأتي انسان مضل ويقول : أنا لا أصدق ما هو فوق قدرة عقلي . . لأنه غير موجود . . ويدعي أنه رجل علمي في تفكيره . . متقدم في أفكاره . . نقول له ان العلم الذي تستشهد به . . والتقدم الذي تتمسح فيه . . كلاهما يكذبك . . لأن العلم هو مثبت مؤكد . . ان ما هو فوق قدرة العقل موجود بما يكتشفه من قدرات في الكون وضعها الله منذ الأزل . . ولم تدخل في نطاق العقل البشري الا منذ عشرات السنين . . وان التقدم يكذبك . . لأن التقدم كل يوم يسجل لنا كشفا كان فوق قدرة العقل . . ولكنه موجود . .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . في أن الأذن تستطيع أن تسمع ما يدور في أقصى الدنيا . . بل ما يدور فوق القمر من حديث . . اذا استخدمت لها الآلات . . أو الوسائل التي ترفع قدراتها الى ذلك . . فجهاز الراديو الصغير يستطيع أن يجعلك تسمع كل ما يدور في العالم . . والعين تستطيع أن ترى بصرا ممدودا الى ما لا نهاية . . وقد استطاعت باستخدام نظريات وقوانين الله في الكون أن ترى ما يحدث فوق سطح القمر . . وأنت جالس في حجرة في منزلك . .

فاذا كانت الأذن تستطيع أن تسمع ما يدور في الدنيا كلها . . وقد تلاشت المسافة بالنسبة له تماما . . واذا كانت العين تستطيع أن ترى ما يحدث فوق القمر وأنت جالس في منزلك . . أو مكان عملك . . اذا كان هذا كله ممكنا بقدرات البشر . .

وبالعلم الذي اعطاه الله لبني آدم وكرمه به . . ورفعه على كل مخلوقاته . . اذا كان هذا العلم اليسير القليل الذي اعطاه الله لبني آدم . . استطاع أن يجعله يسمع ما في الدنيا كلها . . ويرى ما يحدث فوق القمر . . فكيف يكون الحال في الآخرة عندما تكون القدرة لله . . وليست للبشر . . وعندما يكون العلم لله وليس للبشر . . وعندما يعطينا الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء القدرات . . بدلا من ان تعطيها لنا يد بشرية محدودة القدرة والقوة . . ماذا سترى العين . . وماذا ستسمع الأذن . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلا أن هذه نقطة لابد أن نتأمل فيها . . قدرات البشر أرتنا ما فوق سطح القمر . . ونحن جالسون في بيوتنا . . والذي رأى هو العين . . لأن كل هذه الآلات والاختراعات البشرية لا تستطيع ان تجعل رجلا أعمى يرى . . فالذي رأى هو العين التي خلقها الله . . وليست الآلة التي اخترعها الانسان . . الآلة أو الجهاز التليفزيون كان وسيلة فقط . . ولكن العين التي خلقها الله غير التي رأت وشاهدت . . ولو أن الله ذهب بنور هذه العين ما استطاعت أن ترى شيئا رغم كل اضافات البشر التي منحها الله لهم بالعلم .

أقول اذا كانت العين استطاعت أن ترى بقدرات البشر المحدودة ما يحدث على القمر . . وربما ترى غدا ما يحدث على كوكب الزهرة . . اذا كان ذلك قد تم في الدنيا . . واذا كان الفعل في الآخرة هو من الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . افلا تستطيع أن تتصور معنى أن الجنة فيها ما لا عين رأت . . عيوننا رأت في الدنيا أشياء كثيرة . . واستطاعت أن ترى بقدرة البشر أشياء تحدث على بعد مئات الألوف من الأميال . . وربما ترى أشياء تحدث على بعد ملايين الأميال . . هذا بقدرة البشر . . فاذا جاءت الآخرة كان ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فترى العين ما لا عين رأت . . والفرق بين الرؤية هنا . . والرؤية في الآخرة . . أنها في الدنيا بقدرة البشر وفي الآخرة بقدرة الله . . وشتان بين القدرتين . . لا مقارنة . . وبالتالي فلا مقارنة بين ما يراه الانسان في الدنيا . . وما سيراه في الآخرة . . الفرق رهيب هائل . . هو الفرق بين قدرة الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . وبين قدرة البشر . . واكرر . . لا مقارنة .

وما ينطبق على العين . . ينطبق على الأذن . . حينما يأتي الحديث الشريف ان

الانسان سيسمع في الجنة ما لا اذن سمعت . . اقول أن ذلك صحيح مائة في المائة . . وأنه سيكون هناك فرق رهيب وهائل بين ما تسمعه الأذن في الدنيا . وما ستستطيع أن تسمعه في الآخرة . . الأذن في الدنيا بقدرة الله سبحانه وتعالى قد استطاعت أن تسمع انسانا يتكلم في آخر العالم . . بل انسانا يتكلم فوق القمر باستخدام آلة صغيرة هي الراديو . . وباكتشاف قوانين الله في الكون وهي الأثير الذي يحمل الصوت للدنيا كلها . . وكما قلت عن العين اقول عن الأذن . . الأذن أيضاً هي التي تسمع كل الآلات المخترعة وسيلة . . ولكنها وسيلة لا تسمع الصم . . انما الذي يسمع هو الأذن التي خلقها الله سبحانه وتعالى . فعندما نقول ان الآخرة سيكون فيها ما لا اذن سمعت . . تسجد لجلال هذه العبارة . ذلك ان الفارق سيكون رهيبا وهائلا . . وهو الفرق بين قدرة الله خالق كل شيء . وبين قدرة البشر المخلوق . . وما دام هناك لا مقارنة بين قدرة الخالق والمخلوق . . فلا مقارنة بين ما تسمعه الأذن في الدنيا . . وما ستسمعه في الآخرة . .

فاذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عن الغيب . . واذا حدثنا عن عوالم الملائكة والجن . . واذا رجعنا الى الحديث الشريف انه في الجنة سيكون هناك ما لا عين رأت . . ولا اذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . . تعلم أن هذا يقين لماذا لأننا حين نأخذ ما في أيدينا . . ثم نقارن نجد أن الفرق سيكون هائلاً . . واذا كان العلم قد تقدم ليكتشف قوانين الله في الأرض واستطاع ان يقدم للعين قوة الرؤ ية على بعد ملايين الأميال . . وان يقدم للاذن قدرة السمع على بعد ملايين الأميال . . والعلم سيتقدم في الأجيال القادمة ليقدم لنا اكثر من ذلك . . واكثر . . وبعد مائة أو مائتي عام . . وبما استطاعت العين أن ترى ما لا تراه الآن . . كما استطعنا نحن مثلا أن نرى الميكروبات التي لم يكن يراها أجدادنا . . وأن نرى الانسان فوق القمر الذي لم يراه الجيل الذي قبلنا . . وستكون الأذن قد تقدمت لتسمع ما لا تسمعه الان . . تماما كما تقدمنا نحن لنسمع ملايين الأصوات التي لم نكن نسمعهامن قبل . ولكن المهم هو ان الفرق سيبقى كما هو . . وهو الفرق بين قدرة البشر . . وقدرة الله سبحانه وتعالى . . وهذا الفرق هائل ولا وجه فيه للمقارنة . . ومن هنا فان عظمة ما قيل من ان الانسان سيرى في الآخرة ما لم تره عين . . وما لم تسمعه اذن . . وما لم يخطر على قلب بشر . . يزداد عمقا واعجازا

كلما تقدم العلم . . لأن الفرق باق بين قدرة الله وقدرة البشر . . وذلك تصديقا للآية الكريمة : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق . . وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق** ﴾ . . ولذلك فكلما تقدم العلم . . ازددنا خشوعا وخضوعا لله سبحانه وتعالى الذي يرينا آياته في الآفاق . . وفي أنفسنا .

ثم يقول لنا ما أعطيته لكم من العلم هو ذرة . . ولكن في الآخرة سأمتعكم على قدر قدراتي أنا . . سأجعلكم تسمعون لا بقدرة أعطيتها لبشر . . ولكن بقدرتي وسأجعلكم ترون بقدرتي . . وسأمتعكم بقدراتي ولنا أن نتصور الفرق الهائل الذي سيتم على أساسه متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا . . وكلما ازدادت الرفاهية . . وازداد ما تقدمه المدنية من حياة مريحة ليس فيها تعب ولا نصب . . فان ذلك يزيد من قدراتنا على التصور فيما سيمتعنا الله به في الآخرة . . ان كنا من أهل الجنة . . جعلنا الله وأياكم من أهلها .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فيقول . . ومن هنا فان الانسان المؤمن حين يقدم صدقة . . فهو ليس بانسان يضيع ماله . . وهو ليس بانسان غبي . . لأن هذا المال الذي أخرجه في سبيل الله . . كان يستطيع أن يتمتع به وهو في الدنيا متاعا محدوداً . . وبنفس قيمة المال . . ولكنه لذكائه اختار ان يتمتع به متاعا بلا حدود على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . واختار ان يتمتع بعشرة امثال قيمته . . أو بأكثر . . لأن الحسنة بعشر أمثالها . . ومن هنا فانه عندما يخرج هذا المال يكون قد حقق به فائدة لا يمكن أن يحققها له هذا المال في الدنيا . . بل يكون قد عقد صفقة رابحة لايمكن أن يعقدها في الدنيا ولو كان مكسبه من هذا المال أضعافا مضاعفة . . ذلك أنّ كل شيء يتم في الدنيا على حسب قدرات البشر . . وكل شيء في الآخرة بقدرة الله . . والله ليس كمثله شيء .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ان هذه الصورة ربما تقرب لنا بعض ما ينتظر الانسان المؤمن والمسلم . . ذلك فضلا عن ان الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا وهو يدافع عنهم بقدراته . . وليس بقدرات البشر . . ومن هنا فان دفاع الله عن الانسان المؤمن . . لا يمكن أن تقف امامه قوة في الدنيا . . ولا يخشى أي قوة مهما بلغت . . لأن الذي يدافع هو الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا ايضا فان الانسان

المؤمن قلبه مطمئن مهما حدث له . . ومهما ضاعت الأسباب من يده . . لماذا . . لأنه يحس ان الله معه . . والله معه بقدراته فوق الأسباب والمسببات . . وليس كمثله شيء . . ولا يمكن لانسان مؤمن مسلم ان تضيع نفسه حسرات امام عقبات الدنيا مهما حدثت . . وأمام أمور الدنيا مهما اظلمت . . وذلك ان الذي يؤيده بنصره . . والذي هو وليه . . والذي يفتح له الأبواب المغلقة . . ويضيء له الطريق المظلم هو الله سبحانه وتعالى . . وفي كل أمر من الأمور هو يرد الأمر الى الله الذي ليس كمثله شيء . . فالله سبحانه وتعالى يفتح له من الأبواب ما لم يخطر على قلبه أو عقله . . ويسبب له من الأسباب ما لم يكن يعتقد انه سيتم . .

على أن هذا كان أستطراداً لا بد منه قبل أن نبدأ في الحديث عن لماذا تغيرت القبلة . . مع أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ **ولله المشرق والمغرب** ﴾ . . ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ . .

لماذا تغيـــرت القبـلـة

ووصفهم الله سبحانه وتعالى بالسفهاء قبل ان يتكلموا . . وانبأنا عنهم قبل أن يجادلوا . . وكان من الممكن أن يمتنعوا عن الكلام . . ويتوقفوا عن الجدل ولكن الله أتى على يد خصوم الدين . . بما يثبت صحة هذا الدين . .

بعض الناس يقول أن ما تم بقدرة العلم هو شيء الذي يأخذ بالعقول ويحقق أحلام الانسان . . ولقد شرحت كيف أن مقومات الحياة الأساسية كالماء والهواء . . والزرع . . كلها من صنع الله سبحانه وتعالى . . ومن نعمه على عبيده . . ولكننا اذا نظرنا الى مقومات الحياة المرتقية . . او العلمية المتقدمة . . نجد أنها كلها مما خلق الله للانسان في الأرض . . وسخرها له . . فأنت تأتي الى ميكرسكوبْ معقد . . مثلا يريك مواقع النجوم على بعد ملايين الأميال . . وتسأل صانعه من آين صنعت هذا . . فيقول لك أنني استورد العدسات من المانيا مثلا . . والخشب الذي صنعت منه القاعدة من السويد . . والصلب مثلا من أمريكا فتذهب الى المانيا للرجل الذي صنع العدسة فيقول لك أنا آتي بالرمل النقي الذي يصنع هذه العدسة من المكان الفلاني . . أو من بلدة كذا . . وتسأل الذي يأتي بالخشب . . فيقول انا آتي به من غابات السويد . . فتسأل من

يزرع غابات السويد فيقول لك أنها تنبت . . فاذا ذهبت الى أمريكا لتسأل عن الصلب قالوا لك أنه يأتي من باطن الأرض من بلدة كذا . . والمرآة المضخمة التي تستخدم في الميكرسكوب من مادة كذا . . الى آخره . .

اذن، كل هذه الأدلة العلمية المعقدة التي يدعيها الانسان لنفسه عادت الى الله سبحانه وتعالى . . فالرمال المستخدمة خلقها الله . . والخشب المستخدم انبت غاباته الله . . والحديد المستخدم أوجد مناجمه الله . . وهكذا في كل شيء في العالم . . في العقول الالكترونية في مراكب الفضاء التي تذهب الى القمر . . كلها اذا اعدتها الى مادتها الأولية . . فأنت تعيدها الى خلق الله في الأرض . . يوم خلق الله الأرض . . اذن كل هذه المواد التي تستخدم في احدث تطورات العلم هي من خلق الله سبحانه وتعالى في كونه يوم خلق الكون . . وكل الظواهر الكونية من نقل الصوت والصورة . . والأشعة تحت الحمراء هي أيضاً مخلوقة منذ خلق الله الكون . . بل أن الله سبحانه وتعالى أعطاها لبعض مخلوقاته من الحيوانات قبل أن يعطيها للانسان كالثعابين مثلا التي يستخدم بعضها انواعا من الأشعة ليتحسس طريقها وتهاجم عدوها . . لم يعرفها الانسان الا في العصور الحديثة .

فالعلم مكتشف لآيات الله في الأرض . . مستخدم نفس المواد الأولية التي خلقها الله سبحانه وتعالى منذ خلق الكون ما الذي زاد . . هو قدرة الانسان على اكتشاف خواص هذه المواد . . هذه القدرة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى له مصداقاً للآية الكريمة . . ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق** ﴾ . .

على أنني أريد أن انبه الى كلمة هامة وردت في الآية الكريمة . . وهي « في الآفاق » . . لم يقل الله سبحانه وتعالى في الأرض . . وهذه الكلمة لها معان بدأت تتكشف الآن بشكل أولي وستتكشف في المستقبل حيث سيكشف الله للانسان آيات في الآفاق لا نعرفها نحن . . وهذا من عطاء القرآن المتجدد . . والمهم هنا انني أريد أن الفت النظر الى استخدام لفظ الآفاق . . وعدم استخدام لفظ الأرض . . حيث أن الله سبحانه وتعالى غاية في الدقة في اختيار الألفاظ التي تطابق المعنى تماما .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ويقول : ونأتي الآن الى مسألة تغيير القبلة . . وهي مسألة مثار جدل بين بعض الناس . . واستخدام من المضلين

يحاولون بها أن يقولوا أو يدعوا أن هناك نوعا من التناقض ! . . فالله سبحانه وتعالى يقول أن لله المشرق والمغرب . . ويقول فأينما تولوا فثم وجه الله . . ومع ذلك يأتي فيأمرنا بأن نتجه الى بيت الله الحرام في صلاتنا . . واذا كان الله سبحانه وتعالى موجودا في كل مكان وزمان . . واذا كان التوجه الى المشرق . . والتوجه الى المغرب لايكلف المؤمن شيئاً . . فهو يتجه الى الشرق . . أو الى الغرب . . أو الى الشمال . . او الى الجنوب . . هذا لايضيف عليه أعباء جديدة أو يحمله جهداً اضافياً . . بل هو نفس الجهد . . فلماذا تغيرت القبلة ؟ . .

وأنا أقول أن في هذه الآية اعجازا . . ولنذكر الآية الكريمة : ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ﴾ . . وأنا أريد هنا أنبه الى شيء هام هو استخدام لفظ السين في القرآن . . ولفظ السين لا يستخدم الا لشيء مستقبلي . . أي سيحدث في المستقبل . لايمكن أن أقول سيفعل فلان كذا . . ويكون هذا الشخص قد قام بالفعل الذي أعنيه . . بل لابد أنه لم يقم به . . وانما ينوي القيام به أو حدد الوقت للقيام به . . المهم أنه لن يتم . . ولكنه قادم . .

يأتي الله سبحانه وتعالى ويقول في كتابه العزيز لنبيه الكريم ﴿ **سيقول السفهاء** ﴾ . . ومعنى سيقولون انهم لم يقولوا بعد . . ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقولون . . وهؤلاء الذين سيقولون ليسوا بالمؤمنين . . فالمؤمن يتبع تعاليم الله وقوانينه . . ولكن الذين سيقولون هم اعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه وصرف الناس عنه . . واذاعة الأباطيل حوله . . يأتي هنا الله سبحانه وتعالى ويعلن ﴿ **سيقول السفهاء** ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهاء . . ولو أن الذين أثاروا تغيير القبلة من اعداء الاسلام . كان عندهم ذرة من التفكير . . ونزلت هذه الآية الكريمة لابتعدوا تماما عن السؤال . . ولما سألوا لماذا تغيرت القبلة . . وكانوا حينئذ يملكون سلاحا أقوى لهدم هذا الدين . . حيث انهم كانوا سيقولون أن محمدا عليه السلام قد قال في كلام يقول انه كان موحى به من الله . . ومنزلا اليه من السماء . . ان السفهاء أعداء هذا الدين سيسألون لماذا تغيرت القبلة . . ونحن نقول ان تغيير القبلة شيء ايماني لا يهمنا وأنه اذا اتجه المسلمون الى المشرق . . او الى المغرب . . فليس هذا دلالة على صحة دينهم أو بطلانه . . ولذلك فاننا لم نسأل عن هذا الأمر بالذات . .

لأنه لا يمس جوهر الدين . . ولكن محمدا قال أننا سنسأل . . ووصفنا بالسفهاء . . وهكذا لم يسأل احد عن تغيير القبلة . . ولم يحاول أحد أن ينال من الدين الاسلامي في أمر تغيير القبلة حتى نعرف جميعاً أن ما يقوله محمد ليس موحى اليه من السماء . . ولكنه كلام منه .

ولكن الله سبحانه وتعالى اراد أن يضع اعجازا في هذه النقطة . والاعجاز هنا أن الله تحدى الكفار في أمر اختياري يمكن أن يفعلوه . . ويمكن ألا يفعلوه . . وزاد على ذلك بوصفهم بلفظ منفر وهو السفهاء . . فلو انهم ابتعدوا عن هذه النقطة ولم يسألوا ما ولىًّ المسلمين عن قبلتهم التي كانوا عليها لكانوا بذلك قد هاجموا الدين في نقطة ايمانية كبرى . . وهي ان الله هو القائل . . ولذلك يجب أن يكون ما يقوله صدقا . . والقرآن كلام متعبد بتلاوته . . لا تبديل فيه . . ولا تغيير الى يوم القيامة . أي أن محمدا لا يمكن ولا يستطيع لا هو ولا احد في الدنيا كلها أن يغيره . . أو يبدل حرفا منه . . ومن هنا فلو ان السفهاء لم يسألوا عن سبب تغيير القبلة . . وتجنبوا هذا تماما . . لكانوا بذلك قد طعنوا القرآن . . وطعنوا الدين كله . . ولكن الله قائل القرآن . . يأتي على يد خصوم القرآن . . وخصوم محمد بما يثبت الرسالة . . ويؤكد صدقها . . فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولا هم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ﴾ . . ويقول ذلك قبل ان ينطقوا بحرف واحد . . ويأتي فعلا هؤلاء السفهاء ويسألون ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . . فيشهدون بذلك على صدق القرآن . . ليس في أمر يأتي به قائل القرآن . . ولافي أمر يأتي به من أنزل عليه القرآن وهو محمد عليه السلام . . ولكن في أمر يأتي على يد خصوم القرآن الذين يريدون أن يهدموه . . وأن يشككوا الناس فيه .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . تأتي بعد ذلك الى مسألة تغيير القبلة . . وهي قضية تتعلق بتسليم الانسان لله سبحانه وتعالى في أمور العبادة .

اذا أردنا أن نعبد الله سبحانه وتعالى . . فأننا يجب أن نعبده كما يريد هو أن يعبد . . لا كما نريد نحن أن نعبده . . بمعنى ان الله سبحانه وتعالى اذا قال لنا ان الصلوات خمس . . فاننا لا يجب أن نأتي ونقول لا سنجعلها ثلاثا . . او أربعا . . أو اثنين . . لماذا لاننا لسنا ندا لله سبحانه وتعالى ولأننا نريد أن نعبد الله بالطريقة التي

حددها . . لأنه أعلم منا بطريق العبادة .

على أن ذلك يقتضي وقفة قصيرة لنبسط المسألة للأذهان . . هب أنك مرضت . . فماذا تفعل . . انك تذهب الى طبيب تثق فيه . . تسأل عن الأطباء . . ثم تختار الطبيب الذي أجمع الناس على أنه طبيب معروف مشهور . . وتذهب اليه فيقول لك انت مصاب بداء كذا . . وعلاجك هو هذا حتى تشفى . . يجب أن تأخذ هذه الأقراص . . وهذه الحبوب . . وتتبع هذا النظام في الطعام الى آخره .

انت في هذه الحالة واحد من ثلاثة . . أما انك تؤمن بهذا الطبيب وبعلمه . . فتتبع ما يقوله وتسير على نظام العلاج الذي يضعه لك . . واذا جاءك احد وسألك مثلا لماذا تأخذ هذا الدواء أو تتناول هذا الطعام تقول هذه أوامر الطبيب . . فلا يناقشك ولا يجادلك . . هذه واحدة . .

الثانية انك تنكر علم هذا الطبيب تماما . . فتأخذ ما كتبه لك وتمزقه وتفعل ما تريد . . أو تفعل عكس ما يقول . . أو تفعل ما تهوى نفسك . .

أما الطريقة الثالثة فهي انك تكون أنت نفسك قد درست الطب . . أو أنت أو أحد أقاربك في علم هذا الطبيب من الناحية الطبية أو أعلم منه . . ومن هنا فأنك أو ذلك الذي معك ويفهم في الطب تناقش الطبيب ولكن يجب أن يكون العلم هنا متساويا وكما يقال في الطب يقال في جميع فروع العلوم الأخرى . .

ولكننا ونحن البشر نطبق هذا على الانسان . . ولا نريد أن نطبقه على عبادة الله سبحانه وتعالى . . تعاليم هذا الدين وتكاليفه في أفعل ولا تفعل هي من الله سبحانه وتعالى . . وأنا أحد ثلاثة . . انسان مؤمن بالله وقدراته . . وعلمه . . أتبع ما يقول لانني أعرف أنه أعلم مني ولهذا نجد الخطاب في القرآن دائما يا أيها الذين آمنوا . أي أن الله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين فيما يتعلق بالطاعات . ولايقول يا أيها الكفار لا تفعلوا كذا وافعلوا كذا . . الخطاب هنا للمؤمن . . والمؤمن هو الذي يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه اكبر وأقوى من قدراته . . ومن هنا فانه يتبع ما قاله الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى . . وفرق ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر . .

أما الثاني فانسان كافر والعياذ بالله ملحد غير مؤمن . . هذا يفعل ما يشاء فليس

بعد الكفر ذنب تماما كما يمزق المريض أوامر الطبيب . . ويتبع هواه . . لا نقاش معه لانه غير مؤمن . . فليفعل ما يريد . . وسيلقى جزاءه . .

نأتي بعد ذلك الى النوع الثالث . . وهو أن يكون هناك نقاش حول قضايا الايمان في افعل ولاتفعل . . والنقاش يجب أن يدور بين علم متساو . . وعقل متساو وقدرة متساوية . . فمن منا علمه كعلم الله . . سبحانه وتعالى . . وقدرته كقدرة الله سبحانه وتعالى حتى يستطيع أن يجادل الله . .

قضية الايمـــان . .

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بهذه القضية في مجال الايمان ولم يأت بها في الأخبار عن حقائق الكون مثلا . . أو عن معجزات الخلق . . وقال اذا أردت أن تعبدني . . فاتجه الى الكعبة . ان هذا لن يكلفك شيئا . . ولن يضيف عليك مشقة ولكن هل آمنت بي ربا وخالقا . . أم ما زال الشك في قلبك . .

ان الله سبحانه وتعالى قد وضع في هذا معجزة وتشريعا . . أما المعجزة . . فهي قوله تعالى﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم﴾ واستخدام لفظ « السين » هنا معناه أنه وقت نزول الآية لم يقولوا وان القول سيتم بعد نزول الآية . . والمعجزة هنا أنه وصف الكفار الذين سيسألون عن سبب تغيير القبلة بالسفهاء . . قبل أن ينطقوا بسؤالهم . .

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى تحداهم في أمر اختياري يقع منهم . . وكان من الممكن لهؤلاء الكفار الا يسألوا عن سبب تغيير القبلة . . وأن يقولوا أن هذه مسألة تتعلق بالعبادة لا دخل لنا بها . . وحينئذ كانوا يكذبون القرآن . . ويقول الناس . . اين هم السفهاء الذين أخبر الله عنهم سبحانه وتعالى . . بأنهم سيسألون عن تغيير القبلة . . ان احداً لم يسأل عن ذلك . . والقرآن كلام متعبد بتلاوته لا تغيير فيه ولا تبديل . . وحينئذ كانوا سيلقون ظلالا من الشك على القرآن الكريم . . لأنهم لم يسألوا . . ولكن لأن الله هو القائل . . والله هو الفاعل جاء هؤلاء الناس وسألوا . . رغم ان الله سبحانه وتعالى وصفهم قبل أن يسألوا بالسفهاء . . وهكذا كان خصوم الدين هم الذين جاء على يدهم ما يثبت صحة هذا الدين وهذه هي المعجزة .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلاً : أما التشريع . . فهو يتعلق بعبادة الله سبحانه وتعالى . . وتسليم الانسان له . . ونحن اذا أردنا أن نعبد الله . . فاننا يجب أن نبعده كما يريد هو أن يعبد . . لأن الله أعلم بطريق عبادته . .

ولنبسط المسألة الى الأذهان . . هب انك مرضت وذهبت الى الطبيب . . وقال لك أفعل كذا وكذا لتشفى . . فأنت أما أن تفعل واثقا أن علم الطبيب أكبر من علمك . . واما لا تفعل مؤمنا بأن هذا الطبيب لا يعرف شيئا . . واما أنك تناقشه . . وفي هذه الحالة يجب أن يكون علمك مساويا لعلم الطبيب ان لم يكن أكثر منه .

فاذا كان ذلك يتم مع البشر . . فكيف مع الله سبحانه وتعالى . . ومع تعاليم هذا الدين بافعل ولا تفعل . . وكل ما أمر به وما شرعه الله سبحانه وتعالى . . انك احد ثلاثة . . انسان مؤمن بالله وقدراته وعلمه . . اتبع ما يقول لأنني أعرف أنه أعلم مني بما فيه شفاء النفس في الدنيا . . وحسن الجزاء لها في الآخرة . . ومن هنا اتبع تعاليم القرآن . . ولذلك يخاطب الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز المؤمنين دائما فيقول : « يا أيها الذين آمنوا » ذلك أن المؤمن يدرك يقينا أن قدرات الله وعلمه أكبر واقوى من قدراته . . ومن هنا فانه يتبع ما قاله الله . . كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليحصل على الشفاء . . وفرق كبير ولا مقارنة بين علم الله . . وعلم البشر .

اما الثاني فانسان كافر ملحد . . وهذا يفعل ما يشاء . . فليس بعد الكفر ذنب . . تماما كما يمزق المريض اوامر الطبيب ويتبع هواه .

نأتي بعد ذلك الى النوع الثالث وهو أن يكون هناك نقاش حول قضايا الايمان . . في أفعل ولا تفعل . . والنقاش يجب أن يدور بين علم متساو . . وعقل متساو . . وقدرة متساوية . . ومن هنا علمه كعلم الله سبحانه وتعالى . . وقدرته كقدرة الله سبحانه وتعالى حتى يستطيع أن يجادل الله . .

ومن هنا فان الله سبحانه وتعالى يأتي بقضية ايمانية كبرى . . « لله المشرق والمغرب » . . الله موجود في كل مكان . . « واينما تولوا فثم وجه الله » . . وتغير القبلة لايكلف المؤمن شيئا . . اي أن اتجاهه في صلاته الى الشرق أو الغرب . . او اليمين . . أو اليسار . . لا يضيف عليه تكليفا ولا يحمله اي مشقة . . ولكن هنا قضية ايمانية كبرى . . الاتجاه الى الشرق لا مشقة فيه . . والاتجاه الى الغرب لا مشقة

فيـه . . اذن مستـوى التـوجـه هنـا بـالنسبـة لـلمؤمـن . . فقـول الله اتـجـه الى الشـرق . . مثـل قـولـه تعـالى اتجـه الـى الغـرب . . هـذه لا تـحمـل مشقة . . وهذه لا تحمل مشقة . . والمسألة هنا هي ان نعرف يقينا اننا نتبع اوامر الله سبحانه وتعالى فيما قاله . . في افعل لا تفعل . . فهناك اشياء غيبية عنا أنبأنا بها الله في القرآن الكريم . . ولو لم ينبئنا بها لما عرفناها . . ولا ما وصل اليها الانسان ابدا . . هناك الجنـة والنـار . . والثـواب والعقـاب والحسـاب والآخـرة . . وهنـاك مـا وعـدنـا الله بـه . . وهنـاك أشيـاء في الـدنيـا تحـدث . . وعقلنـا قـاصـر عن أن يعرف الحكمة منها . . وهذه الأشياء يجب أن نعرفها يقينا لأنها أتت عن الله سبحانه وتعالى . . هناك الصلاة . . والزكاة . . واحكام الدين . . والصوم . . الى آخر ما قرره وشرعه الله سبحانه وتعالى من أحكام لعبادته وطاعته . . وهذه لها حكمة كبرى قد لا أدركها أنا . . لأن عقلي لا يمكن أن يكون مساويا لعقل الله سبحانه وتعالى . . ولا تستطيع قدرتي ولا علمي أن يصلا الى قدرة الله سبحانه وتعالى . . ولا علمه . . وحكمته . . ومن هنا فلا مقارنة . . لأن الله ليس كمثله شيء . . والخطر كل الخطر أن يدخل الى قلب المؤمن ما يوسوس له . . فأنه يجب أن يناقش هذه العبادات بمنطقه هو وبعقله هو . . وقد أثبتنا من خلال الحديث السابق . . ان ما فوق قدرة العقل موجود . . وان ما فوق قدرة الانسان موجود . . وان لم نكن نعرف عنه شيئا . . وان الله بقدراته يكشف لكل جيل من البشر ما كان الجيل الذي سبقه عاجزا عن اكتشافه ليثبت أن ما فوق قدرة العقل . . وفوق قدرة البصر . . وفوق قدرة السمع موجود . . ولعل ما نعيش فيه اليوم من علم يثبت ذلك . . فالعلم لم يصنعه الانسان . . ولكنه اكتشف الطيران مثلا . . اكتشفه الانسان ولكنه لم يصنع الغلاف الجوي الذي يمكنه من الطيران . . ولكن الذي صنع هذا الغلاف هو الله سبحانه وتعالى . . ودلنا على استخدامه . . ولـكن الغلاف الجوي كان موجوداً . . وقدرة طيران الانسان حول الأرض كانت موجودة منذ بدء الخليقة . . وكذلك الميكروبات مثلا كانت موجودة . . ولكنها كانت فوق قدرة البصر . . الى أن تم اكتشاف الميكروسكوب . . وكذلك أن تسمع ما يدور في الدنيا بواسطة استخدام الأثير أو خواص طبقات الجو العليا . . كل ذلك كان موجودا لم يخلقه الانسان . . ولكن الله سبحانه وتعالى ادخله في علم البشر . . ليثبت أن ما فوق القدرة

البشرية موجود . .

هنا قضية ايمانية كبرى . . بسطها الله وقربها الينا بما وضعه في هذه الأرض من علم اتاح للعقل البشري اكتشافه . . ولكن برغم ذلك كله كما قلت يأتي من يوسوس للانسان ليقول له لماذا تصوم مثلاً ؟ . . وماذا يفعل الله سبحانه وتعالى بامتناعه عن الطعام والشراب . . وهو غني عن العالمين . . بماذا سيزيد ملك الله سبحانه وتعالى اذا انت امتنعت عن الطعام والشراب . . وصمت شهر رمضان . . وما الذي سينقص اذا افطرت . . أو لماذا تقوم بالصلاة خمس مرات في اليوم . . ولماذا لا تصلي مرتين فقط . . مرة عند استيقاظك من النوم . . وأخرى عند ذهابك الى النوم . . الى آخر هذا الكلام الذي يدخل النفوس محاولا ان يضعف الايمان فيها . . وهنا نقول انك لا تستطيع أن تناقش هذا . . ولا تعرف الحكمة في التكليف به . . لماذا ؟ لانك في عقلك وتفكيرك لست مساويا لقدرات الله سبحانه وتعالى . . وما دمت قد آمنت . . ووثقت بان الله هو الخالق . . وهو الفاعل . . وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون . . وهو القوة الكبرى الذي ليس كمثله شيء . . يعلم ما لا تعلم . . اذا وثقت في هذا . . ودخل الايمان الى قلبك . . ففي هذه الحالة وجبت عليك طاعة الله سبحانه وتعالى فيما يأمرك ان تفعل أو لا تفعل . . لأن الله سبحانه وتعالى هو اعلم منك بهذا كله . . وهو يطلب منك الطاعة والتسليم . . وأنت لم تصل الى الايمان الا اذا استسلمت وسلمت وجهك لله . . فيما يقول في افعل ولاتفعل . . تماما كما أنك لن تشفى الا اذا نفذت تعليمات الطبيب لعلاج مرضك . . والدين رحمة وشفاء للمؤمنين . . وهو يوصلهم الى النفس المطمئنة في الدنيا التي لا يفزعها شيء ولا يحطمها عاصفة . . النفس المجزية في الآخرة . . الموعودة بجنة الله . . ومن هنا كان تغيير القبلة امتحانا للايمان . . شيء ليس فيه مشقة ولا زيادة في التكليف . . ولكنه قضية ايمانية كبرى . . ما دام الله قد قال . . فلا بد ان افعل .

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بهذه القضية في مجال الايمان والعبادة . . ولم يأت بها في أي مجال من المجالات الأخرى . . اي ان الله سبحانه وتعالى اراد أن تكون امتحانا للايمان في النفس . . وليس مثلا دليلا على اعجاز القرآن . . أو اخبارا بشيء سيأتي . . أو اظهارا لحقائق الكون . . أو تحدثا عن نعم الله على عباده . . أو رواية عن

الأنبياء السابقين . . أو وصفا للنار والجنة . . والجزاء والعقاب . . أو أي شيء مما احتواه القرآن الكريم . . ولكنه جاء بها كقضية ايمانية في افعل ولا تفعل . . فقال انت تريد ان تعبدني . . واذا أردت أن تعبدني فأنا أقول لك . . أفعل كذا وكذا . . وأنا أقول لك اتجه الى الكعبة . . وهذا الاتجاه لن يكلفك شيئاً . . ولن يضيف عليك عبئا . . ولكنه اختبار لطاعتك لي . . وايمانك بي . . وهل استقر هذا الايمان في قلبك أم لا . . وهل آمنت بي ربا وخالقا . . أم لا يزال هناك شك في قلبك . . فاذا كنت قد آمنت بي ربا وخالقا . . ايمانا عن يقين . . فأنني أقول لك . . انني وانا الموجود في كل مكان . . أريدك أن تتجه في صلاتك الى الكعبة . . الى بيتي الحرام . . وهذا لن يكلفك شيئا . . ولكنه سيظهر مدى الايمان في قلبك . . ومدى طاعتك لي . .

وهكذا كانت قضية تغيير القبلة . . قضية امتحان للايمان لنعرف من الذي يلتزم بأمر الله . . ومن لا يلتزم بهذا الأمر . . ويذكر الله سبحانه وتعالى هذه الحكمة في قوله . . ﴿ **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ . .

اذن فالمشكلة لا مشقة فيها . . ولكنها امتحان للايمان . . وتثبيت له في القلب ليظهر أمام المؤمنين جميعا من يتبع الرسول . . ومن ينقلب على عقبيه . . من يطع الله حقيقة . . ومن يطع الله وفي قلبه شك . . وفي نفسه اهتزاز .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلا : وهذا يدلك على أن كل احداث الكون . . انما هي مرسومة وموضوعة كاختبارات للايمان في النفس . . وليكون الانسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . والنفس البشرية في كل دقيقة من حياتها هي في اختبار للايمان بالله . . منذ اللحظة التي تستيقظ فيها . . حتى اللحظة التي تنام . . الاختبارات موجودة . . والقلم يكتب . . ثم ينام الانسان فيرفع القلم . . فاذا استيقظ يعود القلم مرة أخرى . . ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من تغيير القبلة قضية ايمانية كبرى كأساس في الدين . . ووضعها في التكليف ولم يجعل فيها زيادة في المشقة لتكون اختبارا خالصا للطاعة . . ولمن يتبع الله ويتبع رسوله . .

* * *

طريق الله . . والعلـم

هناك النفس المطمئنة . . والنفس اللوامة . . والنفس الأمارة بالسوء . . وهذه النفوس كلها تواجه الحياة بطريقة مختلفة . . وتنظر الى الايمان بشكل يجعل كلا منها يصل الى نتائج غير التي تصل اليها الأخرى . . والنفس البشرية من يوم الخلق الى يوم القيامة . . في صراع بين الايمان . . وما يوسوس لها الشيطان . .

والنفس البشرية في حياتها معرضة لأشياء كثيرة . . العقل يقول شيئا . . والعواطف تقول اشياء . . وهوى النفس يحاول أن يجعلها تفلت من كل رقابة هي وضعت لصالح النفس البشرية . .

تلك كانت مقدمة قبل ان أستكمل حديث فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن الله والنفس البشرية . . ولقد توقفنا في الأسبوع الماضي عند تغيير القبلة . . وقال فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أن هناك في الدين قضايا عقل . . وقضايا ايمان . . اما قضايا العقل فالله قد تركها لمنطق العقل وتدبيره .

والمطلوب من العقل ان يفكر ومطلوب منه أن يعمل . . ومطلوب منه أن يكتشف آيات الله في الكون . . والمطلوب من العقل أن يفكر . . الدنيا . . ومطلوب منه أن يرسم طريق حياته الذي يتمناه . . هذه في قضايا العقل . . وهو في الزراعة مثلا يطور زراعته وارضه . . وفي الصناعة يبحث عن الخامات الجديدة . . ويكتشف الآلات الحديثة الى آخر ما يمكن أن تكون فيه قضايا العقل فيما خلقه الله له . . فاذا جئنا الى قضايا الايمان . . فتلك مسألة أخرى تماما . . هنا في قضايا الايمان . . اما أن تؤمن بالله أو لا تؤمن . . ليس هناك حل وسط في ان تؤمن بالله في أشياء . . ولا تؤمن به في أشياء أخرى . . والله سبحانه وتعالى اذا وضعت شريكا له في شيء . . تركه ولم يتقبله . . لانه غني عن العالمين . . فما اشركت فيه شيئا غير الله . . فليكن لمن أشركت . . الله غني ولا يتقبل الشرك . .

اذن فقضية الايمان ان تؤمن بالله أو لا تؤمن . . الإيمان بالله معناه انك قد آمنت . . وصدقت بأن هناك قوى كبرى منزهة عن كل شيء . . قد آمنت بأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في علمه . . وخلقه . . وفضله . . ورحمته . . وقوته . . وانتقامه . .

وعذابه . . وانه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في كل ما تعرف وما لا تعرف . . ومن هنا فاننا لا يجب ان نقيس علمنا بعلم الله . . ولا قدرتنا بقدرة الله . . ولا فهمنا بفهم الله . . فاذا قال الله . . سبحانه وتعالى أفعل . . فأنا لست مؤهلا . . لأن أقول لماذا ؟ . . وأن اناقش . . ذلك ان المناقشة يجب أن تكون بين علم متساو . . وعقل متساو . . فلا نستطيع أن نقيم مناظرة علمية بين أعلم أهل الأرض . وبين انسان لم يعرف العلم . . عاش طول حياته في مكان مهجور لا يعرف شيئا عن الدنيا . . ثم يأتي هذا الانسان الذي لا يعرف شيئا ليقف ويناقش . . اعلم انسان في الارض . . يناقشه في العلم . . لو اننا اقمنا هذه المناقشة لكنا سخرية العالم اجمع . . لانه لا وجه للمقارنة . . ولا تهمنا الناس بالجنون . . والسفه . . والتفاهة . . وقلة العقل . . مع أننا هنا نستخدم الفارق في العلم البشري فقط . . فما بالك بالفارق بين علم الانسان . . وعلم الله سبحانه وتعالى . .

ولكن العجيب . . والعجيب جدا اننا حينما نستخدم الفرق بين العلم البشري . . وعلم الله سبحانه وتعالى . . نجد بعض الناس يجادل ويدعي انه مؤهل لمناقشة الله في علمه . . ولمناقشة الله في طريق الحياة التي رسمها للبشر . . ولا يخجل مثل هذا الانسان ان يقف ويجاهر بذلك . . ولا يخجل البشر الذين حوله . . وهم يقولون هذا الكلام الذي يدعو الى السخرية . . ولا مقارنة بين علم الله . . وعلم البشر . .

اذن الايمان بالله سبحانه وتعالى . . هو تسليم لقدرات الله التي ليس فوقها قدرة . . تسليم لعلم الله الذي ليس فوقه علم . . وتسليم لله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . هذا هو مدخل الايمان إلى النفس البشرية . . وهذا المدخل قد لا يأتي الا بعد تفكر وتدبر في الكون وآياته . . ولكنه عندما تستكين النفس ويطمئن القلب . . ويقول الله افعل كذا فنفعل . . لماذا ؟ لأن الذي يقول هو أعلم مني . . ولأنه يحبني . . لأن الله يحب عباده . . ويغفر لهم خطاياهم ويسامحهم ويتوب عليهم . . الله يحبني . . ويريد هدايتي . . ومن هنا فهو يفتح لي الطريق . . ويبين لي آياته في الكون . . ويرينا المعجزات في الأرض مما خلق . . بل انه يرى كل جيل منا ما كان خافيا على الجيل الذي سبقه . ومن هنا فانه حين يقول أفعل فهو يقولها . لانها طريق

السعادة لي . . والراحة لنفسي وقلبي . . لأنها طريق الحياة الطيبة . . الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالحياة الطيبة في الدنيا . . والحياة الطيبة هي نفس راضية مطمئنة . . تخلصت من القلق . . ومن الخوف . . ومن الفزع . . ومن كل ما يحطم النفس البشرية ويحيلها الى جحيم . . فاذا قال لي الله سبحانه وتعالى . . افعل . . فهو يريد السعادة لي بهذا الفعل في الدنيا والآخرة . . لأن فعلي لن يزيد في ملك الله شيئا وعدم فعلي لن ينقص ملك الله في شيء . . فالله حين يقول افعل يقدم لي الحياة الطيبة فيما أفعل . . وحين يقول لا تفعل يقيني الحياة الشريرة بما لا أفعل . . ومن هنا . . ومن منطلق هذا الايمان . . وجبت الطاعة . . وليس النقاش . . ففيم يقول الله سبحانه وتعالى فيه أفعل او لا تفعل . . اذا كنت مؤمنا فانني اعرف ان هذا لخيري وسعادتي . . فانطلق نحوه . . وأفعله . . وأنا اشعر بغبطة وفرح . . انني قد استطعت ان اختار الحياة الطيبة . . ليس على حسب قدراتي انا . . وفكري أنا . . ولكن حسب قدرات الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . واذا كنت غير مؤمن . . بدأت اناقش وافلسف حسب قدراتي ولن أصل الى شيء . . فانا في الايمان افعل ولا أفعل . . اختار بين حياة رسمت حسب قدرات الله سبحانه وتعالى . وحياة يصورها لي عقلي . . والفرق بين الاختيارين هو الايمان . . الايمان بأن الذي وضع أسس الحياة الأولى هو اقدر مني . . وأعلم مني . . وهو خالقي . . وهو يريد لي الخير . . ويريد أن يخلصني من الشقاء . . ومن الكبد الذي يعانيه الانسان في الحياة . . ومن هنا كان ايماني هو أساس الطاعة . . وليست قدرات عقلي . . أما في أمور الحياة العادية التي تركها الله لاختياراتي . . ولم يقل افعل ولاتفعل . . فهنا يأتي دور العقل في المفاضلة والاختيار . .

ومن هنا نجد الانسان المؤمن قويا قادرا . . لا تهزه شدائد الدنيا كلها . . لماذا ؟ . . لأنه يحس أنه مهما انعدمت أسباب العقل وتوقفت . . فان الله الذي رسم له طريق هذه الحياة التي يتبعها . . قد وعده انه سيحييه حياة طيبة . . وهو لا يمكن أن يتخلى عنه أبداً . . بل أنه سيفتح له من الأبواب . ويوجد له من الأسباب ما يجعل له مخرجا من الضيق الذي يعانيه مصداقا لقوله تعالى : **﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾** .

وهكذا كان تغيير القبلة عملا من أعمال امتحان الايمان في النفس . . ذلك أن الانسان المؤمن فيما يتعلق بالعبادة يتبع تعاليم الله الذي هو اعلم وأقدر على رسم هذا الطريق . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم** ﴾ . وقد تحدثت في الحلقة الماضية عن المعجزة في هذه الآية . . وقلت ان استخدام « السين » هنا معناه ان الله تحدى قوما يحاربون دينه . . وصفهم بالسفهاء . . قبل أن يقولوا ما سينطقون به . . وهذا ما تبينه كلمة السين الموجودة في لفظ سيقول . . أي أنهم لم يقولوا . . وطبعا لا بد أن يتبع الفعل القول هنا . . بمعنى انه لا بد أن تتغير القبلة . . ثم يقولون بعد ذلك . . أو يتحدثون عن تغيير القبلة . . والله سبحانه وتعالى وصفهم بالسفهاء . . وكان من الممكن لكي يكذبوا هذا الدين أن يمتنعوا عن الكلام في تغيير القبلة على أساس انها أمر يخص العبادة . . ولكن كون أنهم جاءوا وجادلوا . . فكان الله قد استخدم الذين يحاربون الدين في اثبات صحة هذا الدين .

على أن هناك وقفة في استخدام لفظ السفهاء . . لماذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بالسفهاء . . ولم يستخدم لفظاً آخر . . لأن السفيه هو الانسان الناقص العقل . . غير كامل التفكير الذي يأتي بأشياء لا تتمشى مع الفكر السليم . . ولقد جاء هؤلاء الملحدون والمحاربون للدين ليجادلوا في قضية هي فوق قدرة عقولهم . . وفي أمر شرعه الله لعَبادته فوضعوا انفسهم في مكان ذلك الذي يستطيع أن يشرع لعبادة الله . . بقدرة وحكمة وعلم . . اكثر وأقدر من الله سبحانه وتعالى . . وهذه سفاهة تفكيرهم . . في أنهم وضعوا عقولهم العاجزة في مقارنة مع قدرة الله سبحانه وتعالى . . في أمر يختص بالعبادة والطاعة . .

على ان الله سبحانه وتعالى يعطينا ما يقرب الينا . . ذلك الذي هو فوق قدراتنا . . لنعرف أو نلمس الحكمة فيه . . وهو يفعل ذلك رحمة بعقولنا ونفوسنا . . فاذا قال الله سبحانه وتعالى . . لا تأخذ مال غيرك . . فليس هذا منعا لي من الحصول على مال غيري فقط . . ولكنه حماية لي من أن يحصل أي فرد في المجتمع على مالي الخاص . . أي أن الله يحميني عندما يضع حرمة المال الخاص . . يحميني من الملايين التي تعبث في الأرض . . والتي يمكن أن تعتدي على مالي وتأخذه . . فهذا التحريم انما هو رحمة بي . . وحماية لي من ملايين البشر الذين لا أستطيع ولن استطيع

ان اقاومهم . . ويأتي الله سبحانه وتعالى بقدرته وقوته ليجعل هذا قانوناً عالمياً يمشي في العالم كله رحمة للناس . .

وعندما ينهاني الله عن أن أشهد الزور . . أو أن اكذب . . او ان اسرق الناس في الميزان . . أو غير ذلك . . فهو في الواقع يوفر الحماية لي من كل هذا . . فأنا فرد في مجتمع لو أُبيحت فيه هذه الحرمات لكنت أول ضحية فيه . . ولعم الشقاء المجتمع كله . . فالفرق بين حكم الغابة الذي لا يكون الانسان فيه آمنا مطمئنا على نفسه . . وبين الحكم الذي يعطي الأمان للبشر . . هو فرائض الله في أفعل ولا تفعل . . وهذه الفرائض كلها لا يمكن أن تحقق اهدافها الا اذا دخل الايمان القلب . .

على ان هناك سؤ الا اخيرا يطرح نفسه هنا . . وهو الكوارث التي تصيب الانسان في الحياة . . في حياته . . وفي نفسه . . وفي بيته . . في حياته حيث الخوف والقلق . . وعدم الاطمئنان الى الغد . . وفي نفسه حيث الحيرة والصراع الشديد . . بين ما يحققه من لذة عاجلة أو مصلحة عاجلة . . او هدف عاجل يريده . . وبين ما تقتضيه تعاليم الله سبحانه وتعالى بالنسبة لهذه الأشياء . . أما في بيئته فهو ما يحدث في الأرض من فيضانات وزلازل . وأشياء مدمرة قد تنشر البؤس والدمار في مجموعة من البشر . . وهذه الأشياء الثلاثة هي ما تبقى حول موضوع « الله والنفس البشرية » . وكلها لها اجابات وايضاحات تجعل العقل يقترب اكثر . . وأكثر من الله سبحانه وتعالى . .

اذا بدأنا بالنفس البشرية فهذه قصة طويلة بدأت منذ أول الخليقة وتنتهي يوم القيامة . . ذلك أن الانسان يظلم نفسه في كثير من الأحيان ظانا أنه يقدم لها الخير . . ويفعل سوءا فلا يحصل على شيء الا الذنب . . وهو في كلتا الحالتين يحاول أن يبرز ما يفعل بأنه خير . . كيف ذلك . .

* * *

اسـرار النفس البشريـة

« الانسان يريد أن يخلد في الحياة فلايموت ويريد مالا لا ينتهي ولا يذهب . . وهذا هو مدخل الشيطان للنفس والله قد جعل الأجل بيده والرزق بيده ليقينا الانحراف ويبعدنا عن الآغراء الكاذب ولكننا رغم ذلك نبحث عن الخلود . . وعن المال الذي لا

يزول ولا ينتهي » . .

ان مدخل الشيطان الى النفس البشرية . . حدده الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأنه ﴿**جنة الخلد وملك لا يبلي**﴾ . . هذا هو المدخل الذي استطاع الشيطان ان يخرج به آدم وحواء من الجنة . . وان يجعلهما يعصيان الله سبحانه وتعالى . . فالانسان يريد الخلود . . انه لا يريد الحياة ان تنتهي . . يود أن يعمر ألف سنة . . ومائة ألف سنة . . والبحث عن الخلود يلازم النفس البشرية منذ أن بدأت حياتها على الأرض . . منذ أن خلقها الله حتى الآن . . الانسان يبحث عن الخلد . . وعما يبعد الموت عنه . . رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أكد في كتابه العزيز انه لا مفر من الموت . . فان الانسان يحاول أن يهرب بشتى الطرق . . والابحاث عن اطالة الحياة . . وعن تجميد جسم الانسان حتى يعالج من أمراض تسبب الموت . . قد يكتشف لها دواء في المستقبل . . الابحاث عن هذا ما زالت جارية . .

ولكن من ذلك الذي يكره نهاية الحياة . . انه الانسان غير المؤمن لماذا؟ . . لأن الموت خلق كالحياة تماما . . فالله سبحانه وتعالى قال ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ . . اذن فالموت خلق كالحياة . . ولكننا نحب الحياة . . ونتمسك بها . . والموت للانسان المؤمن انتقال من حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدراته هو الى حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدرات الله سبحانه وتعالى . . والانسان في بحثه عن الخلود . . هو مستعد أن يفعل كل شيء . . وأي شيء .

والمدخل الثاني بعد الخلود . . هو ملك لايبلي . . اي مال لاينتهي . . فالانسان يريد حياة لا تنتهي ومالا لا ينتهي . . فالله سبحانه وتعالى قد جعل الاثنين بيده . . ليقي الانسان من دخول الشيطان الى نفسه . . فجعل لكل اجل كتابا . . وجعل الرزق بيد الله سبحانه وتعالى بغير حساب . . ومن الذي يستطيع أن يحاسب الله جل جلاله وهو العزيز القدير . .

اذا الله سبحانه وتعالى اراد أن يقي الانسان في الانحراف في الحياة . . ومن الابتعاد عن الحياة السعيدة الى حياة الشقاء . . فرسم له الطريق . . ووضع له منهج الحياة التي هو خالقها . . وهو الأعلم بها . . وقال في كتابه العزيز ﴿ **لنحيينه حياة**

طيبة ﴾ ، وقال : ﴿ **نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . . ولكم فيها ما تشتهي انفسكم . . ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم** ﴾ . .

وبعد أن رسم الله سبحانه وتعالى أسس الحياة وسبلها . . ووضع منهجا لها . . قال لنا أن الشيطان سيحاول أن يغريكم بالمال . . وبالخلود . . وأنا أقول لكم سلفا حتى لا يكون لكم حجة . . ان لكل منكم أجلا . . فاذا جاء أجلكم لا تستقدمون ساعة ولا تستأخرون وأقول لكم أن الشيطان سيعدكم بمال لايفنى ولا يذهب ولا ينتهي . . وأنا أقول لكم أن « **رزقكم في السماء وما توعدون** » . . وانني أرزق من اشاء بغير حساب . . حتى لا تكون لكم حجة في اتباع الشيطان . .

وبالرغم من هذا . . فان الشيطان يجد المدخل بسهولة الى النفس البشرية . . وكلما تقدم الزمن . . وتقدم العلم . . وتقدمت الرفاهية التي يستطيع أن يضعها في حياة الانسان . . انفتح في النفس البشرية مدخل أوسع للشيطان . . ذلك أن المال يستطيع أن يحقق ما لم يكن من الممكن تحقيقه في الماضي . . الانسان يستطيع الآن أن يمتلك سيارة وطائرة . . وتكييف هواء . . وأن يقدم له المال حياة سهلة . . ويجعله سيدا مطاعا . . ومن هنا كلما اتسعت دائرة الرفاهية التي يستطيع المال أن يحققها في حياة الانسان . . زاد فهم الانسان للمال . ولقد شاء الله سبحانه وتعالى ان يجعل للاستمتاع البشري حدودا ليفهم الناس ان كثرة المال لا قيمة لها في حياة البشر . فجعل المرض في كثرة الطعام . . وجعل الداء في الطعام الفاخر الدسم . . وجعل العجز في عدم الحركة التي توفره الرفاهية . . وجعل قدرات الجسم تتلاشى في الاسراف في الاستمتاع البشري أيا كان نوعه . . ووضع سر الصحة في الأشياء التي لا تكلف الانسان مالا كثيراً . . فقليل الطعام غير الدسم . . وغير الفاخر . . اساس اعتدال الصحة . . والمشي على القدمين الذي يستطيعه الغني والفقير على حد سواء . . ودون أي مشقة أو تكلفة . . هو الطريق الوحيد الآن لعلاج معظم الأمراض بما فيه امراض القلب . . والطبيب ينصح أولئك الذين لا يتحركون الا خطوات قليلة لأن المال يرفع عنهم المشقة . . بالمصعد والسيارات الفاخرة . . والخدم . . والحشم الذين يوصلون اليهم كل شيء وهم جالسون في أماكنهم لا يتحركون . . ينصح هؤلاء بأن يسيروا ساعة أو ساعتين كل يوم . لأن هذا هو أساس الصحة . . والهواء الطلق الذي يوجد في الأماكن

الخلوية البعيدة . . هو الهواء النقي غير الملوث . . لم تفسده يد الانسان . . وهكذا كانت الصحة في قلة الطعام غير الدسم . . وفي المشي خصوصا في الأماكن ذات الهواء الطلق . . وفي عدم الاسراف في أي شيء . . وهذا متاح للبشر جميعا . . غنيهم . . وفقيرهم . . بل ان حكمة الله سبحانه وتعالى في أنه ما من نبي الا ورعى الغنم . . ترينا في احد جوانبها قواعد الصحة التي يدفع بعض الناس الآن عشرات الألوف من الجنيهات ليصلوا اليها . . وراعي الغنم لا بد ان يسير على قدميه فترة طويلة في هواء نقي غير ملوث . . وهو لا يستطيع أن يحيط نفسه بأولئك الذين يعدون له الطعام الفاخر الدسم . . ومن هنا فهو يبقى صحيحا سليما معافى . . حتى يأتي أجله . .

وبالرغم من هذا يبقى الطمع البشري بلا حدود . . بل ان الذي يملك مالا لا يستطيع أن ينفقه فيما بقي من عمره . . لا يكتفي بذلك . . وانما يريد أكثر وأكثر . . والنفس اذا هوت المال بدأت المفسدة . . فأنا أسرق لاحصل على المال . . وأشهد الزور لأنال بعض المال . . وأقول غير الحق . . وأعمل بغير ما يرضي الله . . واخدع . . واغش . . وآكل حقوق الناس . . كل ذلك لأحقق لنفسي ما وعدني الشيطان به كذبا . . وهو ملك لا يبلى . . أي مال لا ينتهي ولا يفنى مهما مر الزمن . . مع انني لو كنت مؤمنا عن يقين لعلمت انني لن أصل بعلمي الا الى الرزق الذي قسمه الله لي . . ولآمنت أن الله يرزق من يشاء . . وانني لو اتجهت اليه لاعطائي الرزق . . ومنحه لي . . والرزق الحرام لو صبرت عليه قليلا وعملت لأوصلني الله الى المال الحلال . . لأنه مقسوم لي . .

ومن هنا فأنني أظلم نفسي حين ارتكب السوء . . وانطلق متبعا هوى النفس . . ذلك انني في الحقيقة لا أصل الى شيء الا الذنب . . ولا أكسب شيئا الا الخطيئة . . على أن هناك من يرتكب من السيئات مقابل الحصول على متعا عاجلة . . ومن يظلم نفسه . . والمعنى هنا ليس واحد . . الكلمة ليست مرادفة . . بل ان الفرق كبير بين المعنيين . .

عندما يظلم الانسان نفسه

*** الانسان الذي يرتكب المعصية . . يفعل ذلك لأنه ضعيف ، يريد الحصول**

على منفعة عاجلة . . أما ذلك الذي يظلم نفسه فانه يرتكب المعصية . . لمجرد المعصية . . فالانسان الذي يمنع الخير عن الناس حسدا ، والذي يهدم أسرة أو يفرق بين الأب وابنه وبين الزوج وزوجه ظلم نفسه بارتكاب الأثم بلا هدف الا الأذى *.

ان النفس البشرية لا ترضيها الحياة المادية وحدها . . ولا يسعدها المال فقط . . بل هي مزيج من الروح والمادة . . ومن هنا فان اكثر الأمم تقدما في الحياة المادية . . أعلاها في نسبة الانتحار . . بينما كان يجب ان يكون العكس صحيحا . . اذا كان التمتع البشري هو قمة السعادة للنفس . . فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع للتمتع البشري حدودا . . حتى يقيد الطمع البشري . . فالطعام لذة . . ولكن كثرة الطعام تصيب الجسم بالأمراض والعلل . . والشراب لذة . . ولكن الافراط فيه يؤدي الى أمراض قاتلة . . وكذلك كل ما تهواه الفس اذا مشت على الحدود التي أباحها الله . . حصلت عليه جميلا مبهجا . . وابتعدت عن اضراره ومفاسده . . واذا اطلقت لهواها كل ما تريده فستتمتع اياما . . ثم تقاسي بقية العمر . . ويملأها الندم .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ان هناك من يرتكب السوء . . ومن يظلم نفسه . . وبعض الناس يظن أن استخدام اللفظين في القرآن الكريم . . ظلم النفس . . وارتكاب السوء ملتزمان في المعنى . . فان من يرتكب سوءا ومعاصي . . انما يقود نفسه الى الهلاك في الدنيا وفي الآخرة . . ولكن الذي يرتكب السوء يفعل شيئا . . والذي يظلم نفسه يفعل شيئا آخر . .

الذي يرتكب السوء . . يرتكب المعاصي لفائدة عاجلة . . تزين له نفسه انه سيحصل بها على شيء . . فالذي يسرق مالا مثلا . . يريد فائدة عاجلة بأن يتمتع بانفاقه . . الذي يأخذ حقوق غيره . . انما يحصل على فائدة عاجلة يأخذ مالا جهد له فيه . ولا حق له فيه . . والذي يقوم بمعصية . . انما يحصل على لذة عاجلة تنتهي بسرعة . . ويبقى الذنب . .

ولكن الذي يظلم نفسه . . انسان آخر تماماً . . انه لا يفعل ذلك للحصول على فائدة عاجلة . . ولكنه يرتكب المعصية دون أن يستفيد . . فالانسان الذي يشهد زورا مثلا ليضر انسانا آخر . . قد ظلم نفسه . . ارتكب اثما . . ولم يتمتع بشيء . . والانسان الذي يمنع الخير عن الناس . . لمجرد منع الخير حسدا او حقدا . . انسان

ظلم نفسه . . ذلك أنه لم يعطيها شيئا . . وانما اعطاها الذنب . . والانسان الذي يحاول ان يفرق بين المرء وزوجه . . وبين الابن وأبيه . . وأن يهدم أسرة . . أو يهدم عملا ناجحاً . . دون أن يستفيد هو شيئا . . انسان ظلم نفسه . . لأنه اعطاها المعصية . . ولم يعطها شيئا . . وهذه هي النفس الامارة بالسوء . . أي انها تجد لذة حياتها في السوء الذي يصيب الآخرين . . تجد لذة لحياتها في أن تهدم بيتا سعيدا . . أو تمنع رزقا عن انسان . . او تضيع حقا على صاحبه . . او تقدم شهادة زورا تضع بها انسانا في ضرر بالغ . . وهي تفعل ذلك ليس بدافع الفائدة الشخصية . . ولا الضعف البشري . . ولا الحصول على شيء من متاع الدنيا . . ولا كل ما يقتتل عليه البشر من تفاهات الحياة المادية . . كل هذا لا تحصل عليه . . ولكنها تحصل على السيئات وحدها . . وهذه النفس تورد صاحبها التهلكة دون أن تعطيه شيئا . . وصاحبها يكون في داخل نفسه . . قلقا . . حائراً . . لا ينام الليل . . كالنار يأكل بعضها بعضا . . قد يكون في قمة الغنى . . وقد يكون ليس محتاجا لشيء اعطاه الله من خيرات الدنيا ما يعجز عن انفاقه بقية عمره ، ولكنه مع ذلك يظلم نفسه في أنه يفسد في الأرض . . وينشر السوء . . ويندفع الى ما فيه ظلم البشر . . دون أي هدف الا السوء نفسه . . وهذه النفس لا توجد في انسان في قلبه ايمان . . ذلك أن الايمان يدخل في القلب الرحمة . . ويدخل فيه الخوف من الله . . ويدخل فيه خشية يوم القيامة . . ويدخل فيه أن الله يسمع ويرى . . اذا كانت هناك ذرة من الايمان في النفس . . فان هذه المعاني توجد فيها . . اما النفس الامارة بالسوء فليس فيها رحمة . . ولا في القلب خشية . . وليس هناك خوف من يوم الحساب . . ولا هناك احساس بأن الله يسمع ويرى ومن هنا فان هذه النفس البشرية لا يكون فيها ذرة من ايمان . . وهي لا تحس بجمال هذا الكون . . ولا تتمتع بالحياة رغم ما قد يحيط بها من مظاهر النعيم الدنيوي . . ذلك أنها تعيش في شقاء داخل النفس . . وضعة عدم الايمان . . وفي شقاء خارج النفس من أن كل من يحيط بها يجب أن يكون شقيا . . وأن يناله الأذى . . ومن هنا فاننا عندما نقول أن هذا الانسان قد ارتكب اثما . . ونقول أن هذا الانسان قد ظلم نفسه . . لا نعني نفس الشيء . . الله سبحانه وتعالى قد وضح لنا معنى ظلم النفس . . ومعنى ارتكاب الأثم . . وبين لنا الفرق بين الاثنين . . والاعجاز في القرآن أن كل لفظ له معنى دقيق

يعبر عنه . . ولا يخرج التعبير عن هذا المعنى .

وهناك النفس اللوامة . . تلك التي تلوم صاحبها على الاثم . . وتدفعه الى الخير . . وتجعله يحاسب نفسه . . وهذه النفس هي التي يختلط فيها عمل الخير . . والأثم . . هذه النفس في كثير من الأحيان تصل الى الهدى . . أو الى النفس المطمئنة التي وعد الله بها المؤمنين . . وهي تحث صاحبها دائما على فعل الخير . . ولكن صاحبها انسان ضعيف . . يأخذه الهوى مرة . . فيرتكب أثما . . ويندم عليه . فيتجه الى عمل صالح . . ثم يغلبه هواه . . وهكذا يظل في صراع حتى ينتصر احدهما على الآخر . .

فأتى بعد ذلك الى النفس المطمئنة . . تلك التي اعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة . . والنفس المطمئنة هي نفس اطمأنت الى قول الله وعدله . . اطمأنت الى قدرته وقوته . . اطمأنت الى علمه ووجوده . .

النفس المطمئنة الى قول الله وعدله . . تعرف يقينا أن ما وعدها الله به سيتحقق . . وهي تعلم يقينا أن قول الله هو الحقيقة الخالدة . . ومن هنا فهي تعلم أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وان الله وعد في كتابه العزيز هذه النفس بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة . . وقال فيها : ﴿ **نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم** ﴾ وهي في اطمئنانها هذا لا تخشى شيئا . . ذلك انها تعرف انها اختارت الطريق الصحيح . . فاذا منع الله عنها شيئا تهواه . . أو شيئا تريده . . فلانه يريد أن يعطيها خيرا منها . . وان الله سبحانه وتعالى في منعه هذا الشيء . . رغم ما يحيط به من بريق الدنيا . . هو أعلم منا جميعا بالخير والشر . . ومن هنا فان كان قد منع خيرا نعرفه . . فانه يريد أن يعطينا خيرا أكثر منه لا نعرفه . . واذا منع عنا شيئا نريده . . فلانه يريد أن يعطينا شيئا أحسن منه . . لا تصل اليه ارادتنا وعلمنا في هذه اللحظة . فقضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير دائما . . خير في المنع . . وخير في العطاء . . خير التيسير . . خيرفي التيسير وخير في عدم تيسير الأمور . . خير في كل ما يأتي به . . لأن الخيرة فيما اختاره الله . . ولأن النفس لا تستطيع ان تخترق حجب الغد لتعلم الخير والشر . . وتستطيع أن تصل الى الحكمة من كل شيء . . يحدث . . والانسان في تعقله في كثير من الأحيان يرى الشر خيرا . .

ويحسب السوء منفعة . . ولكن الأحداث عندما تتضح . . والزمن عندما يمر يرينا الله الحكمة فيما منع . . والحكمة فيما أعطى . . والنفس المطمئنة لقضاء الله تعلم أن الله ولي الذين آمنوا . . وان الله يحب عباده المؤمنين ويدافع عنهم . . وأن الله في قضائه مع النفس المؤمنة . . انما يريد ان يمنع عنها شرا لا تراه . . أو يعطيها خيرا اكثر من الذي تمنته . . وفي الحالتين فان قضاء الله هو الخير . .

وهذه النفس تطمئن الى عدل الله . . فهي تعلم انه لا يوجد ظالم يستطيع أن يفلت من عقاب الله ولا يوجد قوي متجبر هو فوق قدرة الله وقوته . . ومن هنا فهي تلجأ للأقوى الذي تعرفه . . وليس للضعيف الذي يبدو أمامها قويا . . ولا لمن اعطاه الله فظلم الناس بما اعطاه الله له . . انها تتجه الى المنعم الحقيقي . . وليس الى حامل النعمة . . وتلجأ الى العادل الحقيقي . . وليس الى الانسان الذي يتبع هواه . . والعدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى لا يصل اليها البشر ولايستطيعون مهما دققوا وبحثوا ان يصلوا الى العدل الحقيقي . . ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى هي التي تستطيع . . ومن هنا فمهما كان الظلم قاسيا فهي تثق أن عدل الله اكبر . . وان عدل الله موجود . .

والنفس المطمئنة تثق في قدرة الله وقوته . . ومن هنا فانها لا يهمها ما يعطي البشر . . وما يمنعون من ظاهر الحياة الدنيا . . ذلك انها تعرف جيدا أن الله قادر على أن يعطيها اذا سألت . . وأن الله قريب يسمعها . . وأن الله قوي يستطيع أن ينتقم لها . . وهي في هذا كله تحس بالاطمئنان يملأها مهما كان الظلام حولها لا تؤرقها الدنيا أبداً . . ولا تهزها الأحداث مهما جرت . . بل ينزل الاطمئنان اليها . . ايمانا ويقينا بأن الغد يحمل مما في قدرة الله ما سيزيح وينهي كل ظلم وقع . . وكل اجحاف تم . . وهي في هذا مطمئنة الى أن الحق يهزم الباطل . . والخير يهزم الشر . . والظلم ليس له أقدام . . وسرعان ما يزول . .

قــدر الله

« لقد جعل الله الكون في خدمتك . . ولكنه جعله كذلك لتضيف انت الى الحياة شيئا . . واذا كانت المسألة ان تترك كل شيء لله ولا تعمل . . فلست أدري لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم في أبسط الأشياء وهي الطعام والشراب . . فاذا عطشوا قاموا

ليشربوا . . واذا جاءوا قاموا ليأكـلوا . . فلماذا لا يترك هذا القدر الله ؟» . .

واذا كانت النفس البشرية لغزا . . فان هناك على الأقل ثلاثة أنواع من النفس البشرية يمكن تحديد اطارها بشكل مبدئي . . النوع الأول هو النفس الامارة بالسوء . . وصاحب هذه النفس يقودها الى الهلاك . . أو الى العذاب دون أن تستفيد شيئا . . هذه النفس تتمثل في اولئك الذين يفعلون الاثم لمجرد الاثم . . ودون الحصول حتى على متاع الدنيا الوقتي . . والأمثلة أمامنا كثيرة . . ذلك الذي يرسل شكوى كيدية في زميل له . . وهو يعرف انها غير صحيحة . . وذلك الذي يشهد زورا أو يقول كذبا ليمنع خيرا عن انسان . . وذلك الذي ينقل الأقوال الكاذبة ليوقع بين البشر . . وذلك الذي يعد تقريرا مليئا بالأكاذيب ليقدمه ضد انسان غيره . . وذلك الذي يحاول أن يشوه اي عمل يقوم به اي انسان لمجرد أن يهدمه . . صاحب هذه النفس الذي يقوم بهذا لا يستفيد شيئا . . فهو لا يمنع الخير ليأخذه . . ولا يوقف ترقية زميل له لأنه سيرقى . . ولا يرسل شكوى كيديه لينصر حقا . . أو ليحقق فضيلة . . وانما هو في ذلك كله يحاول أن يكون مناعا للخير . دون أن يستفيد شيئا . .

والنفس الثانية هي النفس اللوامة . . التي تلوم صاحبها على الاثم . . وتدفعه الى الخير . . وتجعله يحاسب نفسه . . هذه النفس يختلط فيها الخير والاثم . . وتتغلب فيها الطاعة مرة . . والمعصية مرة . . وهي في صراع دائم بين ما يجب أن تفعله . . وما يجب الا تفعله . . وهذا الصراع يظل موجوداً حتى ينتصر احد جانبي النفس على الجانب الآخر . .

ولقد توقفنا في الحديث مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن « الله والنفس البشرية » . . عند النفس المطمئنة . . تلك التي اعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة . . اطمأنت الى قوله وعدله . . وقوته وقدرته . . وعلمه ووجوده . . اطمأنت الى أن الله حق . . وان الآخرة حق . . وان الدنيا حق . . فعملت بكل منها . . واطمأنت الى أن الله ينصرها لأنها اختارت الطريق الصحيح . . واطمأنت الى قضاء الله . . ما أعطاها خير . . وما منعه عنها . . فلانه يريد أن يعطيها ما هو أحسن منه . . قضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير في المنع . . وخير في العطاء . . وهي تؤمن أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وانه يحب عباده المؤمنين . . وانه رحيم في قضائه مع

النفس المؤمنة . . وهي تؤمن انه لا يوجد ظالم أقوى من عدل الله . . ولا جبار يعلو على قدرة الله . . ولا مفسد في الأرض يفلت من عقاب الله . . ومن هنا فهي تعلم حين ترى الظلم أن العدل قادم . . وحين تحس بالجبروت . . انها بداية النهاية . . حين ترى المفسدين في الأرض ان قضاء الله قريب . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ان النفس المطمئنة تثق في قدرة الله وقوته . . ومن هنا فهي تحس بالاطمئنان يملأها مهما كان الظلام حولها . . وهي تؤمن أن الغد يحمل ما سيزيح ظلما وقع . . وينهي اجحافا تم . . وهي في هذا مطمئنة أن الحق يهزم الباطل . . والخير يهزم الشر . . وانه ما من معركة بين حق وظلم استمرت طويلا . . فالظلم ليس له أقدام يقف عليها .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ولكننا في كثير من الأحيان ننظر الى الأشياء بمنظار آخر . . فنحن نرى في بعض ما يحدث اجحافاً . . ونحن نريد ان نصل الى ما نحققه دون أن نعمل . . ودون أن نمتحن . . مع أن الجمال في الحياة هو أن تأخذ ناتج عملك . . فلو أن الطالب الذي لايذاكر والطالب الذي لاينظر في كتاب طوال العام نجح . . لانعدم الجمال في الحياة . . وانعدمت معه قيمة العمل . . ولو أن الانسان الذي يعمل في زراعة حقله . . ويتعب ويشقى طوال العام . . يصل الى نفس المحصول الذي يصل اليه من لم يذهب الى أرضه مرة واحدة لانعدم الجمال في الدنيا . . ولانعدم العمل . .

وفي هذا الكون . . هناك أشياء تفعل لك . . وهناك أشياء تفعل بك . . فالشيء الذي يفعل لك في الكون يستوي فيه الناس جميعا . . كافر ومسلم . . يستوي فيه الناس كل الناس . . هذه الأشياء هي : كالشمس مثلا . . الشمس تشرق كل صباح ولا تخص بنورها كافرا أو مسلما . . أو شاكرا لله . . أو جاحدا بنعمه . . كلهم سواء . . عطاء الشمس للجميع . . سواء . . وهي لا تفوق بين شخص وشخص . . والهواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية دون أي تمييز . والماء مثلا يشرب منه كل كائن حي بصرف النظر عن دينه وعقيدته وايمانه بالله او كفره . هذه الأشياء تفعل لك كثيرا . الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة الى آخر ذلك . والهواء يعطينا أسباب الاستمرار في الحياة . . والماء يعطينا الحياة نفسها . . ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ . . فهذه

الأشياء تفعل لك . . وتفعل لك بلاتمييز . . اي انها لا تميز في عطائها بين عاص . . وعابد . . ومؤمن . . وكافر . .

نأتي بعد ذلك الى الأشياء التي تفعل بك . . وارتقاء الانسان في الكون . . يتم فيما ينفعل بك لا فيما يفعل لك . . ان ما ينفعل بك أن فعلت فيه ينفعل . . اذا حرثت الأرض حرثا جيدا ثم وضعت فيها البذرة ثم واظبت على رعايتها تعطيك ثمرا جيدا . . وان بحثت عن المعادن الصالحة لحياة الانسان في باطن الأرض . . تعطيك معادنها . . ولو لم تفعل فانها لن تنفعل معك . . فالذين يعملون ويجدون في الأشياء تنفعل معهم . .

والذين لا يقومون بأي جهد مع الأشياء التي تنفعل للانسان في الأرض لا يتقدمون . . ويظلون متأخرين وهنا يحدث الخلاف بين ارتقاء عدد من الناس . . وتخلف عدد منهم . . يحدث هذا الخلاف في التعامل مع الأشياء الموجودة في الكون التي تنفعل بك . . ولا دخل للدين في هذه المسألة . . فالأشياء التي تنفعل لك . . كالشمس والهواء والماء . . وما في الأرض . . لا تفرق في عطائها بين مؤمن وكافر وملحد . . والأشياء التي تنفعل بك . . والتي يجب أن نقدم لها عملا لتحصل على النتيجة . . هذه الأشياء أيضاً لا تفرق بين مسلم وكافر ومؤمن وملحد . . فالكافر الذي يحسن حرث أرضه ويرويها . . يحصل على أجود أنواع البذرة . . والذي يتعهد الزرع . . يجني محصولا وفيرا . . والمؤمن الذي يهمل الأرض ولا يزرعها ولا ينفعل معها لا تعطيه الثمرة لأنه لا يطبق قوانين الكون . . ولا يعمل لينفعل مع الأشياء التي تنفعل به في الدنيا . . والملحد أو الكافر الذي يستخدم احدث الأساليب العلمية . . ويجد ويسعى ليكشف عن المعادن في باطن الأرض . . تظهر له هذه المعادن . . لأنها تنفعل به . . والمؤمن الذي يترك المعدن في باطن الأرض . . ولا يبحث عنه . . لا ينفعل به . . ولا يخرج له . .

تلك حقيقة كونية يجب ان نعيها جيداً . .

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها . . ليجذب الانسان الى العمل . . فما هي الزينة في حقيقتها . . هي ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية . . فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل . . وزينة الأرض هي أن تصبح أكثر جاذبية

للانسان ليعمل . . فالانسان حين يرى حديقة جميلة . . أو عمارة فخمة . . يتمنى أن يبني أو يعمل مثلها . . فتكون هذه الزينة حافزا له للعمل . . فكأن الله قد جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبني اليها . . ثم بعد ذلك هل تكون هذه الزينة هي الغاية . . أم لا تكون . . وهنا الابتلاء . . ويقول الله سبحانه و تعالى : **﴿ هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾** . . معنى استعمركم . . أي طلب منكم عمارتها . . وذلك لا يتأتى الا بأمرين . . أن تبقى الصالح على صلاحه . . لا تفسده . . وان تصلح الفاسد وتزيد اصلاحه . . واقل ما تأمر به هذه الآية . . هو انك لا تأتي للصالح وتفسده . . معنى استعمر الأرض . . أي ابقى الصالح على صلاحه . . او زاد في اصلاحه . .

والله يخاطب الشيء بالقوة والشيء بالفعل . . زينة الله على الأرض من اثرين . . آثار خلق الله والطبيعة التي وهبها لنا . . وآثار ما فعله الانسان بما علمه الله له . . ليضيف الى ذلك . . وعندما نقرأ في سورة الكهف **﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . . انا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فاتبع سببا ﴾** . . . ومعنى ذلك اننا أعطيناه أسباب المنعة والقوة والحكم في الأرض . . ولكنه لم يقتصر على ما أوتي . . لم يقتصر على ما فعل له . . اتبع هو سببا . . فيما ينفعل له . . ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليقول لنا : ان الانسان مهما يعط لا يجب أن يكتفي بما أعطى له . . ولا يفعل شيئا . . بل يجب أن يأخذ هذا العطاء . . ويعمل من أجل أن يضيف اليه . . وينفعل به مع العناصر التي خلقها الله لتنفعل بعمل الانسان في الأرض . . وذلك مصداقا للحديث الشريف : لا خير فيمن لا يضيف . . والاضافة هنا بمعناها العام . . أي أنه أنت ان استفدت من الكون وجعل الله الكون في خدمتك . . فلا بد أن تعطي عطاء للكون تضيف اليه شيئا . . والا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة . . ولا متطورة . . وتوقف تطور البشرية ونموها . اذ ان الحياة تتطور من أن يضيف الانسان من ذاته ما تفاعل به مع بيئته . . ومع الكون ليصنع شيئا جديدا . . أي أن الله سبحانه وتعالى ينهانا أن نقف أمام قطعة من الأرض . . ولا نفعل شيئا ننتظر المطر ثم يظهر النبات أي نبات . . فتأكل منه . . او ترعى منه الماشية . . ثم بعد ذلك لا شيء . . لا بد أن يعرف الانسان ويدرس كيف يحرث هذه الأرض . . وما هي النباتات الصالحة لها ليحصل على أجود النتائج . . لابد أن يتعلم كيف يجعل هذه العناصر التي

خلقها الله في الأرض لتنفعل به . . وتعطيه أحسن النتائج وهذا معنى الآية الكريمة . . فاتبع سببا . . اي أنه لم يقف ولم يقتصر على العطاء الذي أعطى له من الله . .

والذي يجب أن نعرفه . . ان منازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . . فقد يكون رجلا ذا جاه ومال في الدنيا . . أخذ من نعم الأرض الكثير . . ومع ذلك مصيره النار . . وقد يكون رجلا ليس له حظ في الدنيا رزقه يكاد يكفي قوته . . هو من أهل الجنة . . تلك حياة . . وتلك حياة . . بل أن المترفين في نعيم الدنيا هم عادة اكثر بعدا عن الله من غيرهم . . ولذلك ضرب الله عدة امثال في القرآن . . ولكن هذا لايجب أنّ يلهينا عن الحقيقة . . وهي أن من يتبع القوانين التي وضعها الله في الأرض . . بالنسبة للحياة الدنيا يأخذ نصيبه منها . . ومن يتبع قوانين الله بالنسبة للحياة الآخرة يأخذ نصيبه منها . .

وما أوضحت . فان الله قد أمرنا أن نضيف من الأسباب التي أعطاها لنا في سبيل الرزق . . عملا لنحصل على أحسن النتائج . . وهذا العمل هو نوع من العبادة لأننا نطيع قوانين الله في الأرض . . وهو أعطانا أسباب الرفعة في الدنيا . . وفي الآخرة . . وعلينا أن نأخذ بهذه الأسباب . . ونعمل من أجل الدنيا ومن أجل الآخرة . . مصادقا لقوله تعالى : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ . . فاذا كان هناك تخلف في الدول الاسلامية . . فالاسلام نفسه بريء من هذا التخلف . . لأنه وضع أمامنا كل أسباب الرقي والتقدم . . وطلب منا العمل في الحياة الدنيا . . حتى يتحقق لنا ثمرة هذا العمل . . فاذا كنا قد تركنا اسباب التقدم التي هي موجودة في الاسلام فليس هذا عيب الاسلام . . وانما العيب في عدم تطبيق تعاليم الاسلام .

وأنني أعجب من بعض الناس الذي يفسرون التوكل على الله بأنه دعوة الى عدم العمل والجهاد . . بينما هو في الحقيقة دعوة للجهاد والعمل . . والتأكد من أن النتيجة طيبة . . لأن الله يبارك هذا العمل ويبارك هذا الجهاد . . الصادر من قلب المؤمن . . ولكن بعض الناس يريدون أن يضعوا في الدين ما ليس فيه . . واذا كانت المسألة هي أن نترك كل شيء لله . . ولا نعمل . . فلست ادري . . لماذا يتخلى هؤلاء الناس من مبدئهم في أبسط الأشياء . . وهو الطعام والشراب . . فاذا عطش فهو يقوم ليشرب . . واذا جاء الطعام . . فهو يأكل ويبذل جهدا في تناول الطعام ومضغه . . فلماذا لا يترك كل هذا لقدر الله . . اذا كان المطلوب هو عدم العمل ولماذا يأتي الى هذه النقطة

بالذات . . ويضيف عملا الى ما أعطاه الله . .

وما تحت الثرى

*** وكان يجب أن تتنبه الى قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وما تحت الثرى ﴾ . . وان تعرف أن الرزق في الأرض لا يوجد فقط فوق السطح . . ولكنه يوجد ايضا تحت سطح الأرض . . وتلك معجزة قرآنية بدأت تتكشف الآن . . والعالم ينفق البلايين ليبحث عن الثروات الموجودة « تحت الثرى » ***

نأتي اليوم الى ختام حديث فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن « الله والنفس البشرية » . . ذلك الحديث الذي تناول فيه علاقة النفس البشرية بخالقها . . ولماذا حمل الانسان الأمانة . . وأثبت فيه أن من يجادلون في الله سبحانه وتعالى . . انما يثبتون وجوده وأن الله جعل من المضلين إثباتا للايمان . . وان الله حق . . وأن القرآن حق . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بأن الله سبحانه وتعالى خلق لكل شيء في الدنيا قانونا يعمل به . . فالماء له قانون . . والنار لها قانون . . والأرض لها قانون . . والنجوم لها قانون . . وهذه القوانين تعمل بقدرة الله . . وباذن الله . . الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه . . مدبر للأمر فيه . . على أنه سبحانه وتعالى فوق الأسباب والمسببات . . والقوانين . . وبذلك فانه في معجزاته لرسله قد خرق لهم القوانين . . فالماء قانونه الاستطراق . . ومع ذلك عندما ضرب موسى الأرض بعصاه . . انشق البحر وتعطل قانون الاستطراق . . والنار خاصيتها الاحراق . . ومع ذلك عندما القى ابراهيم في النار تعطلت خاصية الأحراق . . وكانت النار بردا وسلاما على ابراهيم . . وقانون الحياة . . ان الانسان اذا فارقها لا يعود اليها . . ولكن الله سبحانه وتعالى خرق هذا القانون لعيسى عليه السلام فجعله يحيي الموتى باذن الله . . الى آخر ما جاء في معجزات الرسل . .

على أن الله سبحانه وتعالى وضع معجزات تحدى بها البشر . . ومعجزات لم يتحد بها أحداً . . فمثلا خلق عيسى عليه السلام معجزة . . لم يتحد بها الله البشر . . ولم يطالبهم بالاتيان بمثلها . . ولكن كان المقصود بها هو اطلاق القدرة . . كذلك

معجزة شق موسى البحر بعصاه لم يتحد بها الله احداً ولكنها كانت لاطلاق القدرة . .

على أن معجزات الله سبحانه وتعالى تختلف عما يستطيع أن يقدمه البشر . . أو العلم البشري من طاقات أو معجزات . . والعلم البشري لا يستطيع أن يخلق من الضعيف قوياً . . ولا من العاجز قادراً . . ولكن الانسان يستطيع أن يقوم بالعمل . . عن الشخص نفسه . . بمعنى انني اذا رأيت شيخا ضعيفا وأمامه حمل ثقيل . . فكل ما أستطيع أن أفعله . . هو أن احمل عنه هذا الحمل . . أو آتي له بآلة أو ونش يحمله . . ولكنني لا استطيع ولا يستطيع بشر أن يبدل هذا الشخص الضعيف الطاعن في السن . . بشخص قوي يستطيع هو أن يحمل هذا الحمل . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يخلق من الضعف قوة . . وان يجعل الطير تهزم جيشاً ضخماً من الأفيال في عام الفيل . . وان يعطي قدرة السحر لموسى فيغلب السحرة . . ثم يعطيه قدرة شق البحر . . فيضرب الأرض بعصاه فينشق البحر . . وهو يعطي لعيسى القدرة على شفاء المرضى واحياء الموتى بمجرد الاشارة . . ويعطي لابراهيم أن يقطع الطير . . ثم يدعوها فتسعى اليه . . وقد عادت اليها الحياة . . كل ذلك يتم باذن الله ومن معجزاته . . ولكنه لايمكن أن يتم بعلم بشر . . ومن هنا فانك اذا رأيت شخصا ضعيفا لا حول له ولا قوة يهزم شخصا من أقوى رجال العالم نفوذا وقوة . . فأعلم أن هذه معجزة من عند الله . . وأنها أمر من أمر الله . . ذلك أنه هو وحده القادر على أن يخلق من الضعف قوة . .

وهكذا وضع الله سبحانه وتعالى قوانين في الأرض لكل شيء . . وجعل الأسباب والمسببات في يده . . ولكن كل شيء يمضي بالقانون الذي وضعه الله له . . فاذا أراد الله سبحانه وتعالى بحكمة هو يعلمها ان يعطل هذا القانون . . أو يأتي بعكسه . . فانه يقول كن فيكون . .

ولقد نبهنا الله سبحانه وتعالى في قرآنه الى أشياء لم يكشفها الى العقل البشري الا خلال الفترة الأخيرة . . فقال الله : ﴿ **له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى** ﴾ . . وكان لا بد للعقل البشري أن يتنبه لكلمة ﴿ **ما تحت الثرى** ﴾ . . الى ان هناك كنوزا وثروات قد وضعها الله سبحانه وتعالى تحت سطح الأرض . . ولكن الانسان في وقت نزول القرآن لم يتنبه الى الآية ﴿ **وما تحت الثرى** ﴾ . . ولم يفطن الى

ان الله قد وضع من الثروات ومن الأشياء في باطن الأرض . . بقدرما وضعه فوق سطحها . . وربما اكثر . . ثم تقدم العلم . . وحدثت الزلازل والبراكين . . وخرج ما تحت الثرى الى ما فوقها ليكشف للانسان بقدرة الله عن الكنوز التي وضعها الله تحت الثرى . . فعرفنا المناجم . . والمعادن المدفونة في باطن الأرض . . وعرفنا البترول . . وبدأ الانسان يبحث في معنى الآية الكريمة ﴿ **وما تحت الثرى** ﴾ . . وفي كل يوم يكتشف جديدا لم يصل اليه علم . . وهكذا كانت الآية التي ذكرها القرآن تمس حقيقة كونية كبرى . . هي أن الرزق في الأرض . . والخير الذي وضعه الله فيها . . لا يوجد فقط فوق السطح . ولكنه يوجد تحت سطح الأرض أيضاً . . وتلك معجزة قرآنية بدأت تتكشف للعالم . . والآن تقوم الدول الصناعية الكبرى بانفاق الملايين من الأموال . . والبحث عن الثروات الموجودة تحت الثرى . .

على أن الله سبحانه وتعالى حين وضع القوانين في الأرض . . جعلنا نعرف بعضها . . وأخفى بعضها عنا . . وجعل بعضها نعرفه بآثاره دون أن نصل الى حقيقته . . فالجاذبية الأرضية مثلا هي حقيقة علمية نعرف جميعا آثارها . . ولكننا لانستطيع أن نصل اليها . . رغم انها موجودة ومؤثرة في حياتنا اليومية . . فأنت حين تذهب الى المعمل ليشرح لك الأستاذ الجاذبية الأرضية . . ويأتي بقطب ممغنط . . ويضعه أمامك . . وقطب آخر غير ممغنط لا تستطيع ان تقول ايهما فيه الجاذبية . . وأيهما ليست فيه إلا اذا قمت بالتجربة . . واذا نقلت الجاذبية من قطعة حديد الى قطعة أخرى . . فأنت لا ترى ماذا يحدث في جزئيات القطعة التي لم تكن ممغنطة . . ثم أصبحت كذلك . . انك لا ترى الجزئيات وهي تتأثر بالمغناطيسية . . ولكنك حين تقرب قطعة الحديدبعد ذلك من معدن معين . . تجدها تجذبه . . ومن هنا فانك تعرف الشيء بآثاره دون أن تستطيع أن تدرك ما هو . . وما ينطبق على الجاذبية . . ينطبق على الكهرباء . . فأنت لا ترى التيار الكهربائي وهو يمضي في أحد الاسلاك . . ولكنك اذا وضعت مصباحا في آخر السلك وأوصلته به . . حصلت على الكهرباء . . ولكن منظر السلك الناقل للكهرباء لا يستطيع أن يدلك . . أو أن ينبئك اذا كان فيه تيار كهربائي أم لا . .

ولقد جاءت هذه الحكمة لتقرب للعقل البشري ما هو غيب عنه . . ولكي يستطيع

ان يعرف بآثاره . . وذلك حتى يطمئن هذا العقل الى أنه من الممكن أن يعرف الشيء برؤيته . . ومن الممكن أن يعرفه بآثاره وأفعاله دون أن يراه . . والعجيب أن عددا كبيرا من الناس يؤمن بالجاذبية . . ويأخذها على أنها حقيقة علمية . . ولا يجادل فيها . . ثم يجادل فيما قاله الله سبحانه وتعالى . . لأنه يعرفه بآثاره . . دون أن يراه . . وهذه هي حماقة العقل البشري . . أو ما نطلق عليه (هوى النفس) . . فالجاذبية الأرضية مثلا . . أو الكهرباء . . شيء لا يمنع الانسان مما يريد أن يأخذه ظلما من انسان آخر . . أو مما يريدان يستمتع به حراما . . أو مما يريد أن يحصل عليه من حقوق الآخرين . . أو يتميز به على الناس بغير عمل ولا جهد . . ومن هنا فان هذه الحقائق الأرضية لا تتصادم مع أهواء النفس البشرية . . ولا مع شهواتنا . . ولذلك فان الانسان يعترف بها عن رضى واقتناع . . لأنها لا تسلبه شيئا يريد تحقيقه . . والطمع البشري بلا حدود . . فاذا أتينا الى أوامر الله سبحانه وتعالى . . نجد اننا بدلا من أن نأخذ بآثارها في انها تخلق المواطن الصالح . . والانسان الذي يسود الأرض . . وتعطينا الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة . . نجد أننا بدلا من أن نأخذ بهذه الآثار والنتائج . . ونرى اتباع ما قاله الله صلاحا للنفس والمجتمع . . وبعدا عن القلق والخوف . . والحياة التي يملأها الرعب داخل النفس . . وعبادة الفرد . . نحن لا نناقش كل هذا . . بل نتركه محاولين أن تكون لنا عقول مساوية لقدرة الله سبحانه وتعالى . . بحيث نستطيع ان نناقش هذه الأشياء مناقشة بدون علم . . وفرق هائل بين علم الله وعلم البشر . . ونمضي في طريقنا . . أو يمضي بعض الناس في طريقهم الى أبعد من ذلك . . فهم يضعون عقولهم فوق قدرة الله سبحانه وتعالى . . محاولين كما يدعون سفها وزيفا أن يعدلوا ويبدلوا ما شرع الله . . وكأنهم يملكون من القدرة والعلم ما هو فوق قدرة خالق السموات والأرض . .

على ان الانسان الذي يجادل في قدرة الله . . ويخترع النظريات . . فهذه شيوعية . . وهذه اشتراكية . . وهذه رأسمالية . . ومذاهب أخرى كثيرة يشرعونها محاولين أن يقيموا بها عن جهل وسفاهة . . مجتمعا يدعون أنه أفضل من ذلك . . المجتمع الذي وضع الله قواعده . . وفي هذه الحالة يجب أن نفهم أن هناك نوعين من النظريات . . وأن نفرق بينهما . . النوع الأول هو نوع يتعب صاحبه . . وتستفيد منه

البشرية كلها . . هذا النوع هو الاختراعات العلمية المعتمدة على الابحاث المعملية . . فالانسان الذي يقضي سنوات طويلة من حياته داخل معمل من المعامل . . ليخترع راديو . . او تليفزيون . . أو تليفون . . انما يعاني هو حتى يصل الى اختراعه . . فاذا تم الاختراع استفادت منه البشرية كلها . .

اما النوع الآخر من النظريات البشرية . . فهو النظريات التي تتبع هوى النفس . . ففي هذه الحالة فان صاحب النظرية هو الذي يتمتع ويقوي نفوذه . . ويزداد جاها ومالا وسلطانا . . بينما يعاني . . منها المجتمع . . فأي فلسفة معينة . . لنظرية سياسية أو غيرها . . انما يستفيد منها صاحبها لأنها تنبع من هوى النفس . . أما الذين يتبعونه فهم الذين يعانون ويكابدون . . وحولنا في الدنيا كلها . . وفي كل بلد من بلاد العالم أصحاب نظريات سياسية تخالف ما شرع الله . . هم يتمتعون . . والشعب يعاني من الأرهاب والبطش والظلم والتعذيب . .

والانسان في هذا الذي يشرعه . . انما ينسى خلقه . . واعجاز الله سبحانه وتعالى في الخلق . . فلو أن الانسان عرف أن قدره وحياته . . وهل هو شقي أم سعيد . . وكل ما سيصيبه في الحياة الدنيا الى يوم الساعة . . مكتوب على نطفة صغيرة لا يمكن أن ترى بالعين المجردة . . لعرف وعلم مدى قدراته بالنسبة لقدرة الله سبحانه وتعالى الذي وضع كل هذا العلم في شيء لا يصل حجمه الى جزء صغير من المليمتر . . ولعرف أن سجل حياته كلها موجود في هذا الحيز الضيق بقدرة الله سبحانه وتعالى . . ونحن حين يخترع انسان جهازا صغيرا دقيقايمكنأن يؤدي عمليات معقدة مع صغر حجمه تهلل لهذا الاختراع . . ولكننا في الحقيقة يجب أيضا أن نسجد لقدرة الله الذي استطاع أن يضع كل حياة البشر في حيز لا يذكر . . وأن نعرف أننا مع تقدم العلم هناك فرق رهيب . . بين القدرة البشرية . . وبين قدرة الله سبحانه وتعالى التي يحاول الانسان أن يجادل فيها . .

واذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه الرحمة فلانه خبير بعباده . . لطيف بهم . . فكفر انسان بربه جريمة يستحق عليها عذاب الدنيا والآخرة . . ولكن الله في رحمته بخلقه يفتح باب التوبة مرات ومرات . . ويغفر ويسامح . . ويعطي الانسان الفرصة بعد الفرصة حتى ساعة الموت . . عله يدرك الاعجاز في هذه الدنيا . . ويدرك

عجز العقل البشري أمام قدرة الله . .

على أن النفس البشرية في حياتها كلها متعلقة بالله سبحانه وتعالى . . حتى تلك النفس التي ظلمها صاحبها فهي تتوق الى الله وتسعى اليه . . وفي لحظات عندما تجد نفسها عاجزة امام قدرته . . ترفع يديها الى السماء وتصيح يا رب . . ويكون عدلاً ألا تفتح أبواب السماء ولكن رحمة الله تفتح أبواب السماء وتتنزل على العاصين لتريهم طريق التوبة . . « والله نسأل أن يهدينا جميعا الى صراطه المستقيم » . .

بسم الله الرحمن الرحيم

المرأة المسلمة والطريق إلى الله

مقدمة

نحمد الله تعالى كما يجب ان يحمد ، ونصلي ونسلم على نبيه محمد . وبعد . .

ترتبط مكانة « المرأة » في الاسلام بوظيفة الجنس البشري ، ودوره على هذه الأرض . . (ومن لا يفهم غاية الوجود الانساني كما جاء به القرآن ، سيضل عن السبيل في هذه القضية الخطيرة وغيرها من القضايا التي تعترض العقل البشري وهو يبحث الوجود الملغز عن الحقيقة ، والنجاء . .) .

فالرجل والمرأة شريكان في التكليف ، مهيئان للعبادة بمعناها الواسع الذي ينتظم طول الحياة وعرضها ، ثم هما مجزيان كل بما قدمت يداه . . لكن :

- هل موقع الرجل من خلافة الأرض هو نفس موقع المرأة ؟
- وهل مجاله ودوره ، هو مجالها ودورها ؟ .

الجواب الاسلامي ، والانساني البديهي : كلا . !! ولسائل أن يستفسر : كيف ؟

وهو إن شاء الله واجد ـ مع اخلاص النية ـ في الصفحات القليلة التي بين يدينا من كلام فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي الكثير مما يسكن مسكبه ، ويهديه الى القول الفصل في « وضع » المرأة ، ودورها ، ومجالها . .

وقد أضفنا إلى هذه الرسالة ملخصا لرسالة « زي المرأة المسلمة » . .

والله نسأل أن ينفع به الاسلام والمسلمين . . انه نعم المولى ونعم النصير . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

الأستاذ أحمد فراج :

قضية المرأة من وجهة نظر الاسلام . ولعل المدخل الطبيعي يكون لها هو في قضية الزوجية التي نراها كظاهرة عامة في كل الكائنات في الكون . واذا كانت هذه الظاهرة تعطي نوعين فهل هذا الانقسام يعطي ميزة لنوع على آخر :

فضيلة الشيخ الشعراوي :

في الواقع أن الانسان حين ينظر الى موضوع من الموضوعات قد تختلف فيها العقول يجب أن يبحث في موضوع مشابه له اتفقت فيه العقول ولذلك يرد الحكم في الأول المختلف فيه على نظام الحكم في الثاني أولا : كلمة امرأة تعني أن لها مقابل وهو الرجل . . امرأة تعني أنثى ، ورجل يعني ذكر . لو نظرنا اليهما لوجدنا أن هناك جنساً يجمعهما وهو الانسان . وحين اقول جنساً يجمعهما وهو الانسان أقصد أن الجنس هو ما يمكن أن ينشأ منه نوعان أي ينشأ منه أفراد متساوون ، فأنا أقول انسان جنس لأنه ينشأ منه نوعان وهما ذكر وأنثى ، ولا اختلاف في تكوينهما الحقيقي . . اذا نظرنا الى جنس ينقسم الى نوعين . فيجب ان نقول : انه لم ينقسم الى نوعين الا لأداء مهمتين ، والا لو كانت المهمة واحدة لظل الجنس واحداً ، وانقسامه الى نوعين دل على ان كل نوع له خصوصياته في ذاته ، والجنس يجمع لهما معية خصوصية في ذاته : مثلا الزمن جنس يشمل الليل والنهار ، هذا نور وذلك ظلام والليل والنهار كظاهرتين قد يظن البعض أنهما متعارضتين أو متناقضتين ، نقول له : لا ، النور لم يأت ليعارض الظلام ولا الظلام يعارض النور . ولذلك لا يصح أن نقارن بين نور وظلام لأن لكل واحد منهما مهمة يؤديها لا يستطيع الآخر أن يؤديها . فالزمن ينقسم الى ليل ونهار . نقول له : ان الزمن بجنسيته له معنى وهو انه ظرف لحدوث الأشياء فيه ، هذا هو المعنى المشترك ، وبعد ذلك أنه انقسم الى نوعين ، هذان النوعان : النهار والليل ، اذاً النهار له مهمة ، والليل له مهمة اخرى . .

الحق سبحانه وتعالى حينما يعرض هذه القضية يعرضها عرضاً واضحاً معللا فقال : ﴿ **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا** ﴾ . .

اذاً جاءت علة وجود الليل وهو السكنى والهدوء والراحة والاستقرار ، والنهار للكدح والعمل . اذاً لا نستطيع أن نقول ان الزمن كنهار دائم ينفع او الزمن كليل دائم ينفع ؟ وهذه أيضاً يعرضها القرآن **﴿ قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ ﴾** . .

اذاً الحق سبحانه وتعالى من رحمته أنه جعل الزمن وهو كجنس ظرف لحدوث الأشياء فيه الى نوعين كل نوع يؤدي مهمة ، فلو أردنا أن نشبه الليل بالنهار أو النهار بالليل نكون قد خرجنا بالنوعين عن المهمة الأصلية الموجودة لهما .

* * *

علة وجود الزوجين

والرجل والمرأة بهذا الشكل . ومن المرأة والرجل نوعين لجنس هو الانسان فكأن هناك أشياء تتطلب من كل نوع كانسان ، وبعد ذلك هنالك أشياء تتطلب من الرجل كرجل ومن المرأة كأمرأة ، بحيث نستطيع أن نقول انهما كنوعين من الجنس لهما مهمات ، مهمات مشتركة كجنس ، ومهمات مختلفة كنوعين . والحق سبحانه وتعالى حينما عرض قضية الليل وقضية النهار ـ وهي قضية كونية ـ لا يختلف فيها أحد ولا يمكن لأحد أن يعارض فيها لأننا جميعاً نجعل الليل للسكن والراحة ، والنهار للكدح . والحق سبحانه وتعالى يأتي في هذه القضية ليقدمها إيناساً بالقضية التي يمكن أن يختلف فيها وهي قضية الرجل والمرأة فقال : **﴿ والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، ان سعيكم لشتى ﴾** نوعان للزمن ونوعان آخران يمكن ان يختلف فيهما . فكأن لليل مهمة ، وللنهار مهمة . وكأن تبعاً لذلك ، للرجل مهمة وللمرأة مهمة **﴿ ان سعيكم لشتى ﴾** ويأتي في القضية العامة . **﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾** .

اذاً لا يتمنى الرجل أن يكون امرأة ، ولا المرأة ان تكون رجلا ، ولذلك

الحديث الشريف يشرحها فيقول : (لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، ولعن الله المتشبهات من النساء بالرجال) . لأنها خرجت عن النوعية المقصودة .

وكذلك كل أزواج الحياة .

ومن هنا يقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾** ، **﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾** أي خلق من جنسها زوجها ، **﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾** .

اذاً فعلة وجود الزوجية في الانسان وفي النبات وفي الحيوان التكاثر ، والتكاثر في هذه الأشياء لأجل ان يحفظ النوع .

والحق بين لنا أن لكل نوع من الجنس مهمة يؤديها . هذه المهمة التي يؤديها يجب ان يقف عندها واذا ما وقف عندها أمكن لكل نوع أن يؤدي مهمته بدون تعارض ، بل بتساوي وتعاطف . والذي يفسد الأمر أن نوعاً يريد أن يغير على حقوق نوع آخر أو على واجبات نوع آخر ، ومن هنا يحدث الفساد في نظام الكون . .

* * *

الأستاذ أحمد فراج :

واضح من كلام فضيلتك ان هناك خصائص مشتركة بين الرجل والمرأة . وهناك نواحي تختلف فيها وظيفة الرجل ووظيفة المرأة . فهل لنا أن نتناول أولا هذا القدر المشترك بين الرجل والمرأة ؟

فضيلة الشيخ الشعراوي :

القدر المشترك هو ما يطلب من الجنس كانسان بالنسبة الى دين من الأديان . الاعتقاد : المرأة مطلوب منها أن تعتقد العقيدة التي تقتنع بها ، والرجل كذلك . . ولا يمكن لرجل ان يفرض عقيدته على امرأة . والقرآن أوضح هذه المسألة في أقوى صورها .

حرية الاعتقاد

مثلا : الرسل الذين جاءوا ليحملوا الناس على منهج الله ، أولى بهم أن يحملوا زوجاتهم على منهج الله ، ومع ذلك عرض القرآن هذا العرض اذ « **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين** » . .

اذاً الرسول مفروض فيه أن يهدي الناس ، ومع ذلك لم يستطع ان يحمل امرأته على اتباع منهج الله .

اذا فللمرأة ان تعتقد ما ترى كانسان له حرية الاعتقاد .

وبعد ذلك ضرب مثلا للقضية المقابلة « **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون** » فرعون الذي ادعى الألوهية لم يستطع أن يدخل هذه العقيدة في نفس زوجته التي قالت : « **رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** » . اذاً فالخاصية الأولى التي تهم الدين خاصية حرية الاعتقاد ، انها لها أن تعتقد ما تشاء **لأن هذا الاعتقاد سيلزمها بمنهج** ، فان لم ترتبط بالعقيدة باختيارها اذاً فاقبالها على المنهج غير مأمون ، ان أقبلت اكراها تقبل على المنهج ما رآها القانون أو ما رآها المكره . لكن اذا خلت بنفسها يمكن أن تتحلل من هذا المنهج .

فالمشترك الأساسي اذاً هو حرية ذلك المعتقد ، حرية تعقل الأشياء ، حرية الحكم على الأشياء . . ونجد أن القرآن الكريم يعرض لنا هذه الأمثال :

حرية الفكر

مثلا : بلقيس ، مع أن الاسلام لا يرى ان المرأة تملك[1] ومع ذلك عرض لنا القصة ليعطي صورة من أن المرأة لها ان تعقل ، ولها أن تشير وان تستشير ، وصورة من عقلها ورجاحانها .

---

(١) أي تكون حاكمة على الأمة .

وبعد ذلك يجيء البنون والحفدة . .

﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ . .

اذاً فالمهمة الأساسية للمرأة هي أن يسكن اليها الرجل . ولو قدرت المرأة هذه المهمة ، لوجدتها تستوعب كل وقتها ، تعمل له . . وتعد له ما يرتاح به ، فيأتي ليجد بيته ساكناً مستقراً ، كل أموره مرتبة ، وبعد ذلك تكون وعاء للتكاثر .

* * *

مهمتها مع أرقى الكائنات

وعمل الرجل هو التعامل مع اجناس الحياة : فهو يمكن أن يكون زارعاً يتعامل مع الأرض وما الى ذلك ، مع أشياء . . وهذه الأشياء كلها لخدمة الانسان . والانسان أرفع هذه الأجناس كلها .

ومهمة المرأة هي التعامل مع ذلك الجنس الراقي وهو الانسان كزوج ، وكجنين ، كجنين في بطنها وكوليد تحمله وتعطي له المثل وتربيه . اذاً فالرجل يتعامل مع الأشياء التي دون الانسان والمرأة تعاملها الأساسي مع الانسان . وحين ننظر الى طفولات الحيوانات نجدها كلها قليلة وأطول طفولة هي للانسان . الطفولة هذه ميدان عمل المرأة فما دامت الطفولة زادت ، لأنها تزيد بقدر المهمة .

والحيوانات الأخرى مهمتها دون مهمة الانسان . وطفولة الانسان تتناسب مع مهمته ، لأن مهمته عالية . . فهو أرفع الأجناس على الأرض ليستطيع أن يمد بكل المباديء والقيم والأشياء التي تعينه على هذه المهمة .

من الذي يتعامل مع الطفل ؟ .

الرجل يخرج الى عمله ، والطفل مع أمه الى أن يذهب الى المدرسة ، في سن السادسة مثلا ، والى سن السادسة يكون العقل فارغا . والمثل تبدأ تملؤه .

من الذي يملؤه ؟!

فاذا كانت الأم مشغولة بأي عمل من الأعمال . . ويعني ذلك انها ستتركه الى

راع ، الى خادمة مثلا . والخادمة قد تكون أمينة ولكن لا يمكن أن يكون لها قلب الأم .

وقرأت في كتاب « أطفال بلا أسر » . وجدوا ان نمو الطفل متخلف لأنه يتعامل مع مربية .

أما اذا كان الطفل في مجتمع من ابيه ومع أمه واخوته المتفاوتين في الأعمار ، ومع جدته وجده . الطفل الصغير يلتقط من كل جيل ، وهذا سر القرآن في أنه قال ﴿ **بنين وحفدة** ﴾ .

والطفل في هذا السن يتقبل من كل قطاعات الانسان : القطاع الكبير والمتوسط والصغير .

فالمرأة مهمتها تعاونها مع أرفع الأجناس على الأرض فمهمة المرأة سكن للزوج وبعد ذلك حضانة للأطفال . وهذا يعطيها أشرف مهمة في هذا الوجود . ويجب ان تأخذها المرأة بشيء من الفخر وبشيء من الاعتزاز .

* * *

الأستاذ أحمد فراج :

وماذا لو رغبت المرأة في أن تخفف عن الرجل بعض هذا الشقاء ؟ ألا يكون ذلك محمدة لها ؟ أي تقوم بواجبها كسكن وتؤدي رسالة المودة . والرحمة . . والى جانب ذلك تخفف بعض هذا الشقاء عن الرجل ؟

فضيلة الشيخ الشعراوي :

هي في الواقع لم تخفف عن شقائه ، . فهو ما زال في تعبه ، والحقيقة أنه ما زال شقيا وازدادت هي شقاء !! فهو لم يأخذ نصف عمل في الخارج ، فما زال يعمل عمله . واذا تعللت بمشاركة الزوج في عمله لتزيد الدخل لمستوى حياة أكبر فليس المفروض في الانسان الذي له قيم سماوية **أن يفرض مستوى الحياة أولا** ، وبعد ذلك يحمل الدخول عليه . لا ، المفروض أنه على قدر دخله يحدد مستوى الحياة ، **والذي يتعب الناس هو أنهم يحددوا أولا مستوى الحياة** ، ثم اذا لم يكف

الدخل يبدأوا في عمل الأشياء الأخرى ، فقد ينحرفوا أو يرتشوا ، فالمستوى لا يحدد الا على أساس الدخل .

* * *

الأستاذ أحمد فراج :

في أغلب البلاد العربية والاسلامية لا يستطيع الرجل ان يحدد المستوى طبقاً للدخل . . لأن الدخل أصلا ليس متناسبا مع الطاقة ، فيمكن ان يشتغل فرد أشغالا شاقة ولا يدخل اليه العائد الذي يتناسب مع جهده .

فضيلة الشيخ الشعراوي :

هـذا فساد في نظام الحكم .

* * *

الأستاذ أحمد فراج :

أنا أنظر للقضية من زاوية أخرى : أثرها على دفع المرأة للعلم ، فهل نفهم من كلام فضيلتك ان الاسلام يمنع المرأة من العمل ؟

فضيلة الشيخ الشعراوي :

الاسلام لا يمنع . **لكن الاسلام واقعي** ، بحيث الذي خلق الانسان ، يعرف أن هناك ظروفاً قد تضطر المرأة للعمل . . ولكن الاسلام يعرضها في حدود الضرورة في اطارها ، وهذا الاطار بينه لنا في قصة سيدنا موسى عندما ورد ماء مدين ووجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد امرأتان تذودان . تذودان بمعنى تمنعان ما ترعيان من الماء . فلأي شيء خرجتا . . ؟ اذاً ما دامتا تمنعان ما ترعيان عن الماء . قال لهم سيدنا موسى : « **ما خطبكما** » ؟ « **قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء**[1] » معناه : أن الفتاتين وقفتا بعيداً لا تسقيان حتى ينتهي الرجال من سقي

---

(١) أي حتى ينصرف الرعاة عن البئر .

ماشيتهم ، وبعد ذلك يخلو البئر . .

اذاً فالفتاتان أخذتا الضرورة بالقدر . . اذاً ليس معنى أن الضرورة أخرجتهما أن يتناسيا نوعهما فهما يدركان أنهما نوع لا يصح ان يحتك بالنوع الآخر ثم عللتا سبب الخروج « **لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير** » ، فكأن « **أبونا شيخ كبير** » تبرير لهذا العمل .

اذاً فالآيات تحدد ان ضرورة قد تلجيء المرأة للعمل ولكن حين تخرج لا تنسى نوعيتها ولا تزدحم في ازدحام الرجال .

***

مهمة المجتمع نحو المرأة

وبعد ذلك ، جاءت لقطة أخرى . وهي مهمة الرجل حين جرى ذلك أو مهمة المجتمع ممثل في رجل « **فسقا لهما** » سقا لهما : أي أعانهما على أداء مهمتهما حتى يسرعا بالرجوع الى البيت . . تلك مهمة المجتمع ممثلة في فرد منه . فالمرأة التي اضطرتها ظروفها للخروج لعمل من الأعمال . . شهامة الرجل تقتضيه أن يؤديها عنها هذه المهمة لتنتهي ولا تجعلها تضطر ان تزدحم مع الناس في الحياة . .

اذاً « **فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال ربي اني لما أنزلت الي من خير فقير** » هذه لقطة من قصة تدلنا على أن القرآن عرض هذا العرض ليدلنا على ان المرأة قد تضطرها ظروفها الى أن تخرج ولكن ظروفها التي اضطرتها الى أن تخرج يجب الا **تخرجها عن نوعيتها** ، بحيث تحتسب نفسيها رجلا بل تأخذه بقدرها ما أمكن الى أن ينتهي الرجال وتؤدي مهمتها . وبعد ذلك جاءت بالعلة « **وأبونا شيخ كبير** » . وبعد ذلك جاءت بالمجتمع ، المجتمع سواء كان مجتمع قريب أو مجتمع بعيد ، مجتمع الأسرة الذي يعتبر أن المرأة من لحمه ودمه ، اذا خرجت لتعمل فيغار على هذا . أما اذا لم تجد فلا مانع لأن تذهب على ان تأخذ الضرورة بقدرها وان لا تزيد فيها .

ومسألة خروجها . . صحيح هي منعت من الزحام ، وخروجها ومرورها يلزمها

الشارع[1] بشيء آخر ، **وهو أن تكون على هيئة غير مثيرة** ، وهذه هي الحدود على حديتها . والتشريعات دائما حين تنظر اليها . لا تتعرض لعملية الادراك ولا تتعرض لعملية الوجدان . . انما تتعرض لعملية واحدة وهي عملية النزوع . وعلماء النفس قسموا مثلا مظاهر الشعور الى ثلاث أقسام ، قالوا ان الانسان يرى وردة جميلة في البستان . . رؤيته لهذا ادراك ، فاذا أعجبه ذلك وأحبه ، فهذا وجدان . وجد في في نفسه أثر لذلك الادراك فيذهب ليقطف تلك الوردة وهي عملية النزوع . وهنا يتدخل القانون .

أقسام الشعور

اذاً الشعور ينقسم الى ثلاثة اقسام : الأدراك ، الوجدان ثم النزوع .

والتشريع انما يتعرض لحالات النزوع . . ولا يتعرض لحالات الادراك والوجدان الا في مسألة واحدة : فيما يتعلق برؤية الرجل للمرأة لأنه ليس من الممكن أن أفضل عملية الوجدان عن النزوع . .

انسان رأى امرأة جميلة . . وهو رأى . . اذاً أدرك واستقر في نفسه اعجاب هذا الاعجاب هو موتور داخلي عمل في نفسه عملية نزوعية لا يمكن ان نفصل العملية الوجدانية عن النزوعية كما نفصلها في حلة الوردة . فالاسلام يمنع عملية الادراك من الأساس . فلو أبحت لك الادراك وحرمت عليك النزوع ستعيش في قلق وفي تعب .

فلأن الله هو المشرع الرحيم العارف للنفوس يمنع الادراك لأنه لو نظر الرجل للمرأة وأعجبته ماذا يكون الموقف : الموقف يعلمه الله . ونعلمه جميعاً من واقع الحياة . ولذلك يقول شوقي :

نظرة ، فابتسامة ، فسلام فكلام فموعد فلقاء

الاسلام يؤمن حياة المرأة

والتشريع منع الادراك حتى لا يحدث وجدان . لأنك لا تستطيع الفصل بين

---

(١) أي المشرع [وهو الله سبحانه] .

الوجدان والنزوع . فقال : ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ . وقيل : غض من طرفك .

وأنت أيضا يا امرأة أريد أن أؤمن حياتك بهذا التشريع . فالاسلام يؤمن حياة المرأة . لماذا ؟

لأن الانسان المتزوج امرأة ووصلت الى الأربعين أو الخمسين وامرأته تعرضت لعمليات الخدمة والولادة والرضاع . وأثر الزمن في شكلها ونضارتها ، ثم اذا خرج الرجل الى الشارع . . فيرى فتاة في مقتبل عمرها على أحسن ما تكون من الزينة وأحسن ما تكون من الشباب . ماذا يكون موقفه بالنسبة لها حين يراها ؟ . ستلهب غرائزه بعد ما كانت غرائز طبيعية مع أهله . ولكن هذا المنظر ألهب غرائزه . وعندما يعود الى أمرأته يبدأ في المقارنة وهذه المسألة تؤدي الى فساد أغلب البيوت اذاً فالمرأة في الحالة الأولى وهي البنت الجميلة . ستصل الى هذه السن بعد خمسة عشر أو عشرين سنة ، فنقول لها : لا تتبرجي حتى لا تلهبي غرائز أناس تفسدين عليهم بيوتهم . حتى عندما تصلي الى هذا السن لا تأتي فتاة - لم تخلق بعد - لتفسد عليك بيتك ورجلك ، فالاسلام يقول لها : أأمن حياتك الثانية ، لأن بعد خمسة عشر سنة ستصيرين امرأة عادية يمكن أن تفسد عليك زوجك أو ابنك فتاة في مثل سنك ومظهرك الآن .

فالاسلام لكي يرحمها ويؤمن حياتها يمنعها ان تفسد على الناس حياتهم . حتى لا يأتي أحد ويفعل ذلك بها . . والاسلام حين جاء ليحدد الادراك المسألة الوحيدة التي حدد فيها الادراك هي مسألة النظر الى المرأة لأن العملية الوجدانية التي ينشأ عنها النزوع لا يمكن فصلها .

وبعد ذلك تفسد البيوت . ويأخذ فساد البيوت ألواناً شتى والسبب الأصيل موجود . ويجتمعون ليعالجوه في غير داء . ولذلك الاسلام يريد أن يكرم المرأة ويجعلها في مكانها فحين يحذر الاسلام على المرأة أن لا تتبذل ولا تتبرج ولا تبدي زينتها الا لزوجها . . الى آخر ما جاء في الآية الكريمة . فهو يريدها ان تكون زوجاً تمثل السكن وأما تمثل الحضانة لأشرف جنس في الوجود ، الا وهو الانسان .

وصايا أم اياس العشر

نصيحة ام اياس لابنتها : « أي بنية ، أعلمي لو ان امرأة استغنت عن الزوج لغني أهلها لكنت أغنى الناس ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال . ويا ابنتي احفظي عني عشر خصال تكن لك ذخراً » :

أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالرضى والقناعة وحسن السمع والطاعة .

وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع انفه وموقع عينه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشمن منك الا اطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالهدوء عند منامه والتفقد لوقت طعامه فان مرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتفاظ بماله والارعاء على حشمه وعياله .

وأما التاسعة والعاشرة: فاياك ان تعصي له أمراً أو تفشي له سراً فانك ان عصيت أمره أو غرت صدره ، وان أفشيت سره لم تأمني غدره ، وأعظك بعد ذلك من الفرح ان كان ترحاً ، أو من الترح ان كان فرحا .

زي المرأة المسلمة

يجب ان نقرر بادىء ذي بدء ان احكام الحجاب ما أثمرت ثمرتها ، وفعلت فعلها في المجتمع الاسلامي الأول الا لأنها كانت تحرك ناساً آمنوا بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً وكفرو بكل أرباب الأرض حتى اشربوا في قلوبهم روح الاسلام ومقاصده وغاياته ، وحتى غدت تصوراتهم ومعاييرهم ومقاييسهم اسلامية محضة ، فما يؤثره الله ورسوله ، وما يفضلانه ، وما يقرأنه في دنياهم هو الحق المبين الذي لا ريب فيه ، وسيأخذه المسلمون بكل قوة وسيتمثلونه في حياتهم مهما كانت تصورات الناس مغايرة ، ومهما كانوا عتو عاداتهم ، وظلم تقاليدهم ، وطغيان ما شاع وذاع بين ظهرانيهم . . فالمسلم يتلقى أمر ربه ورسوله ويتحرك به تواً، ويمضي في سبيله جاد حاسماً لا يهمه ما عليه هذه الكتل البشرية التائهة الضالة ، الذاهلة عن حقيقتها وعن مصيرها الأسود .

وهذا الايمان الأصيل الذي خالط بشاشة قلوب الرعيل الأول من المؤمنين هو

الذي دفع نساء الأنصار ان يقيمن ـ فور سماع قول ربهم ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو** . . ﴾ ـ الى مروطهن فيشققنها ويعتجرن بها حتى جئن في صلاة الغداة وكأن على رؤوسهن الغربان . . وهكذا أثنت عليهن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . فلم تتعلل واحدة بخوف ذهاب الأناقة ولم تعلل أخرى بقسوة القيظ صيفاً في تلك الجزيرة المجدبة . . ولم تقع منهن كلمات العصرية . وكانت أمهاتنا . . وكان الناس . ولم تتشدق واحدة قائلة : اقنعوني بضرورة هذا الأمر .

وما لاذت احداهن بالتحررية والانطلاقية وغيرهما ، مما أملته الشياطين على أبناء هذا الزمن المنكوبين .

يكفيهن أن هذا الأمر « **وليضربن** » منزل من عتد ربهن وجاء من فوق سبع سموات ليحرك ذلك المجتمع المبارك في اتجاه يرضاه الله ويمقت ما عداه مقتا كبيراً .

واذا أردنا الآن ان نعيد التجربة بالنجاح نفسه فلا بد من تهيئة اسباب هذا النجاح ، لا بد أن يكون جهاز الاستقبال معافاً من العطب حتى ينفعل بأشارات الارسال بطريقة مرضية .

اذاً لا بد أن يكون الموجه اليهم هذه الأحكام والتعليمات بالقوة الايمانية والخلقية ذاتها التي كان عليها فضليات الاسلام الأوليات ، وبقدر التفاوت في هذه القوة يأتي التباين في النتائج فمنهن من سوف يذعن اذعانا كاملا لأمر ربها ، وستكون حيث يريدها وهؤلاء سيخلدون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ومنهن من سوف تؤمن ببعض وتكفر ببعض ، وما جزاء من يفعل ذلك منهن الا الخزى ، ومنهن من سوف تكفر به كله وتتولى على اعقابها ، وهؤلاء سيذقن عذاب الهون بكفرهن ان شاء الله .

وبعد ذلك فلنمض قدما ، ولنستعرض معا صورة الحجاب الاسلامية من واقع كتاب ربنا وسنة نبينا الصحيحة ، وبالنظر في تأثير هذه الأحكام في المجتمع الأول المبارك وكيف تحرك بها بعد فهمها .

١ ـ القدر الذي يجب ان يستره الثوب .

(١) يقول الله تعالى :

﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن . . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ . . « فالخمار » هو غطاء الرأس « والجيب » هو النحر مع مقدم الصدر . والمطلوب أن يضرب غطاء الرأس على النحر والصدر . . كيف ! ؟

انكن اكثر دراية منا في هذا الشأن .

وهذه الآية الكريمة تعطي حدود الصورة من أعلى ولكن أين حدودها من أسفل ؟ والجواب في الآية ذاتها ﴿ **ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن** ﴾ فزينة الأرجل هي الخلاخيل ولما كن يخفينها بأثواب سابغة كما تدل الآية الكريمة فانهن كن يضربن بأرجلهن حتى تعلن هذه الزينة عن نفسها من وراء حجاب . اذاً فلا بد بموجب هذه الآية الكريمة ستر الساقين حتى مكان الزينة منها . أي العقبين .

(ب) يقول رسول الله ﷺ : عندما دخلت عليه أسماء بنت أبي بكر بثياب رقاق قال : (يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وهذا) ، وأشار الى وجهه وكفيه .

وتحكي السيدة عائشة (كن نساء المؤمنات يشهدن مع النبي ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن الى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفن من الغلس) .

وهذه الحكاية للسيدة عائشة ، والأخرى التي أثنت فيها على نساء الأنصار لحسن امتثالهن لأمر ربهن ، ليدلان على كيفية ترجمة هذه التوجيهات من الله ورسوله الى سلوك وواقع في صفوف المؤمنين .

ويقول الرسول ﷺ في حديث : (من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيامة) فترد أم سلمة : فكيف يصنع النساء بذيولهن ؟ فيقول (يرخين شبرا) . فتجيب : اذاً تنكشف أقدامهن . فيقول نبي الله ﷺ : (فيرخينه ذراعا لا يزدن عليه)

فمعنى الكلام ان الواحدة من المؤمنات كانت تجر ثوبها وراءها على الأرض فحذر الرسول من أن تفعل احداهن هذا للاختيال والدلال ، ويرى ﷺ ان ترخي الواحدة ثوبها شبرا من نصف الساق أو الكعب ـ حسب المفسرين ـ ولكن تخشى أم سلمة من ظهور القدم والرسول يأبى أيضاً أن يظهر القدم ، فيزيد القدر الذي يرخى الى ذراع ولا زيادة ، لأن في ذلك ما يكفي لتغطية قدم الواحدة مهما بلغت من الطول ، ويترك مجالا للاختيار من الشبر الى الذراع حسب ما يقتضيه طول الواحدة . ، فهو لا يحب ان يجر الثوب اختيالا ولا يحب كذلك ان يرى القدم ، وعلى المسلمة ان تتخير السبيل الذي ينأى بها عن الوقوع في أحد هذين المحظورين .

ولكن هل ظهرت آثار هذه التعليمات في المجتمع كذلك أم وضعت النساء اصابعهن في آذانهن وانقلبن على أعقابهن ؟ !

نعرف الاجابة من هذه القصة :

تأتي أم ولد لابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الى أم سلمة وتسألها : اني امرأة أطيل ذيلي وأمشي في المكان القذر ؟ فترد ام سلمة : قال رسول الله ﷺ (يطهره ما بعده) فأم سلمة سمعت الاجابة آنفا من الرسول ، اذن فلا بد أنه سئل عن حل لهذه المسألة من نساء أطلقن ذيولهن وصادفهن القذر في الشوارع وهذه الأخرى تلتمس حلا عند أم سلمة ، اذاً فلا مفر من التسليم بأنها كانت ظاهرة ماضية في هذا المجتمع الطاهر من هذا العرض السريع يبدو جلياً ان المسلمة لا يحل لها أن تظهر سوى الوجه والكفين من أعلى ، ولا تظهر حتى القدمين من أسفل .

٢ ـ ولكن هل ستر هذا القدر المشار اليه بأي ثوب يكفي ، أم أن هناك شروطاً أخرى يجب ان تتوفر في الثوب قبل أن يسمى ثوباً اسلامياً ؟

هناك شروط اخرى منها :

١ ـ ألا يكون الثوب نفسه زينة، وهذا الشرط يستقي من مفهوم عموم قوله **﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾** . وقوله **﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾** وقوله ﷺ (ثلاثة لا تسأل عنهم : رجل فارق الجماعة وعصى امامه ومات عاصيا ، وأمة أو عبد أبق فمات ، وأمرأة غاب عنها زوجها قد كفاها مؤونة الدنيا فتبرجت بعده . فلا تسأل عنهم) .

٢ ـ أن يكون صفيقا لا رقيقا :

لقول الرسول ﷺ (سيكون في آخر أمتي نساء كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العنوهن فانهن ملعونات) وفي حديث غيره زاد (لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وان ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا).

ولقصة حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر لما رأتها السيدة عائشة بخمار رقيق فشقته وقالت أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟ ثم دعت بخمار فكستها.

٣ ـ ألا يكون مجسدا لهيئة الجسم :

لقول أسامة بن زيد : كساني رسول الله ﷺ قبطية كثيفة مما أهداها له دحية الكلبي فكسوتها أمرأتي فقال مالك لم تلبس القبطية فقال : كسوتها امرأتي، فقال : مرها فلتجعل تحتها غلالة فاني أخاف أن تصف حجم عظامها. فالرسول يخشى على نساء أمته أن يلبسن ثيابا تصف الحجم، وهذا يختلف عن الشرط السابق الذي يخشى فيه ظهور اللون لرقة الثوب.

٤ ـ ألا يكون معطرا مبخراً.

لقوله « **أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي زانية** ».

٥ ـ يجب الا يشبه لباس الرجل :

لقوله : (ليس منا من تشبه بالرجال من النساء، ولا من تشبه بالنساء من الرجال).

٦ ـ ألا يشبه زي الكافرات : لأن المسلمين مطالبون في كثير من آيات القرآن ألا يتبعوا أهواء الكفار بعد ما جاءهم من البينات من ربهم. وكان ﷺ يتحرى مخالفتهم في كل شيء حتى في الهيئات البسيطة مثل فرق الشعر أو اسداله.

وقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص (رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال : ان هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها.

٧ ـ ألا يكون ثوب شهرة :

لقول النبي ﷺ : (من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ثم ألهب فيه ناراً).

والآن فاني لا أعرف من تزعم الايمان بالله واليوم الآخر بعد كل هذا وتصر على ما هي فيه مستكبرة وكـأنها لم تسمع شيئاً ﴿ **ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم** ﴾ .

الطريق الى الله

احمدك ربي واستعينك وأسألك أن توفقني في كل ما آتى من الأمر وفي كل ما ادع ، فكما جعلت يارب صمتي زمناً طويلاً فكراً ، فاجعل نطقي لك ذكراً . فانك سبحانك تعبد بالصمت قبل ان تعبد بالمنطق ، وأصلي وأسلم على سيدنا ورسولنا محمد رحمة الله للعالمين الذي وصفه ربه فقال ﴿ **يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين** ﴾ ، (التوبة : ٦١) .

وبعد فيعلم الله ما تحملته في سبيل وفائي بهذا اللقاء ، ولولا أني أقدر عمل أبنائي الشباب تقديراً إيمانياً لما استطعت أن أجيبهم الى هذا الموضوع والحق ان استجابتي لأبنائي الشباب استجابة فرضها عليَّ ايماني بربي لأن الإيمان في ذلك العصر يتعرض لمشاكل :

- أما مشكلة الإيمان بالله . .
- وأما مشكلة البلاغ عن الله . .
- وأما مشكلة التوثيق بالله . .
- وأما مشكلة الفهم عن الله . .
- وأما مشكلة الإسلام لمنهج الله . .

وكل مشكلة من هذه المشاكل لها بيئتها ولها محيطها ولها مروجوها ولها المدافعون عنها ولكن للأسف كل السلبيات هي القوية . وكل الإيجابيات هي الضعيفة . لأننا في عصر فتن بعقله ، وهو سطحياً معذور في ان يفتن بهذا العقل . وفتنته بعقله ولدتها انتصاراته في ميادين الكشف وفي ميادين الإختراع وفي ميادين ايجاد راحات متعددة للناس في اعمالهم الحياتية ، ولكن لو أن الحياة وحدها هي الغاية لهان الأمر في هذه الفتنة ، ولكن الأمر لا يتعلق بهذه الحياة فقط فوراءنا حياة اخرى لا يشك العقل في ضرورة وجودها فضلاً عـن ان يكون ذلك تلقياً من إيمان بالله

عند المؤمنين بها ، فالذين يسرفون على أنفسهم ويهلكون المجتمعات بانحرافاتهم ويسومون المجتمعات سوء العذاب . هؤلاء لو ان الحياة هذه هي كل شيء ماذا كان المدخر لمثل هؤلاء ليحاسبوا على ما قدموا من انحرافات ومظالم ومتاعب فلو ان هذه الحياة النهائية ولا حياة بعدها . اذاً فقد كسب المنحرفون الذين اطلقوا لشهواتهم العنان في أعراض الناس ودمائهم وأموالهم ، هؤلاء قد أخذوا حظهم وأخذوا متعتهم في الحياة وهي هذه الحياة .

اذاً فما أشقى الذين التزموا بمبادىء الحق ومناهج الخير ومبادىء الجد . كل هؤلاء ما اشقاهم لأنهم امتعوا غيرهم وظلوا هم محرومين في حياة هي الحياة ولا حياة بعدها . فمنطق العقل اذاً مجرد عن الدين يوجب ان نؤمن بأن وراء هذه الحياة حياة . يجازى فيها الإنسان بإحسانه ويعاقب فيها الإنسان على سيئاته . ولو لم يكن ذلك كذلك لهان أمر القيم وهان أمر المبادىء الحقة وهانت أوامر الخير .

والقيم يا أبنائي ويا إخواني هي القيم حتى عند المنحرف ، فالصادق محترم حتى عند الكاذب . والمستقيم محترم حتى عند المعوج .

القيم هي القيم :

وقد ضربت مثلاً لأبنائي . . انتم ثلاثة . . اثنان اتفقا على الإنحراف . وواحد اعتزلهما وظل في قيمه ، وفي مبادئه ، وفي اخلاقه .

فإذا صح أن واحداً من الإثنين المنحرفين له أخت ، وأراد صديقه المنحرف أن يخطبها لنفسه ، وأراد الجاد الذي اعتزل منهما ان يخطبها لنفسه فأسألكم بالله لمن يقبل خطبتها . للصديق المنحرف أم للذي جانبهما وظل في حقه ، وخيره ، وجماله .

لا أشك في أنه سيؤثر الثاني . . لماذا ؟ لأن المسألة مسألة قيم تمسه فحينما مسته لجأ للقيم فهو لا يأمن المنحرف على أخته لماذا ؟ لأنه يعرف نظرته للقيم وللخير .

والقيم هي القيم كما عرضها القرآن الكريم تتمثل في لقطة بسيطة من سورة يوسف . . هذا اللقطة تبين لنا أن القيم هي القيم حتى عند المنحرف .

يوسف عليه السلام دخل السجن ، ودخل معه السجن فتيان . . فقال احدهما ﴿ **إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه . . نبئنا بتأويله . . إنا نراك من المحسنين** ﴾ ، (يوسف : ٣٦) .

إذا كان هذان الفتيان يريان يوسف من المحسنين . . فبأي ميزان من موازين الإحسان قيما يوسف وهما سجينان . وسجينان على مخالفة . . وهما اقتنعا بأن طلبهما عند يوسف . . ولماذا ؟ لأنهما رأياه من المحسنين إذاً فهما قد نظرا الى سلوكه . والى سمته والى كل تصرفاته فراقتهما هذه التصرفات ، وأعجبهما ذلك السلوك لو لم يكن عندهما مقياس للإحسان لما استطاعا ان يقيما فعل يوسف حتى يقولا فيه : إنه من المحسنين . . إذاً فهما رغم انحرافهما يعلمان الإحسان ويعلمان القيم التي تقيم الإحسان . . وحينما اضطرتهما ظروفهما الخاصة الى أن يلجئا إلى الإحسان لجئا الى الإحسان لأنهما لا يغشان نفسهما في أمور تتعلق بهما . فذهبا صاغرين إلى يوسف . . وقالا : نبئنا بتأويله ، وحيثية الطلب ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

إذاً فالقيم هي القيم حتى عند المنحرف .

ولكن الذي يسهل للمنحرف الخروج عن القيم هي الشهوات العاجلة والنفعيات الطارئة دون نظر الى خير يراه صاحب الشهوة خيراً يعقبه شراً وقديماً قيل : لا خير في خير بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة .

منهج الداعية الى الله

فماذا كان موقف يوسف عليه السلام كداعية الى الله . إن يوسف عليه السلام يعرضه القرآن داعية ، ويعرض هذه النقطة من قصته ليعلمنا كيف ندعوا الى الله .

كيف دعا يوسف الى الله . استغل يوسف حاجة الفتيان فلم يقل لهما طلبهما أول الأمر ، ولم يقص عليهما تأويل رؤ ياهما . . لأنه أراد أن يستبقي شعورهما . . وإحساسهما . . وعواطفهما وفكرهما معه حتى يفرغ هو من مهمته الأساسية . . وكان من الممكن بعد أن أطرى بقولهما ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ ان يأخذه الزهو بتلك الشهادة منهما وأن يقول لهما ما يريدان ، ولكن يوسف لا يريد هذا عند هذين . . انه

يعمل لحساب قوة أخرى يريد منها الجزاء . يعمل لحساب الحق . . يعمل لحساب الله . فاستغل حاجتهما له . واستغل انصاتهما واستغل شعورهما وإحساسهما ليقول ما يمليه عليه موقفه كإنسان نبي او كإنسان منحدر من أصلاب نبي ، فماذا قال لهما ؟ انظروا الى براعة الداعية الى الله قال : وماذا رأيتم من إحساني ، أرأيتم سلوكاً مهذباً أرأيتم منطقاً حسناً ، أرأيتم سمتاً متواضعاً ، كل ذلك هين في سبيل ما عندي من كنوز الإحسان ، فأنا عندي من كنوز الإحسان فوق ذلك ، فماذا قال لما قالا ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ قال : ﴿ **لا يأتيكما طعاماً ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ ، (يوسف : ٣٧) . كما ان إحسانه إحسان من نوع آخر ، إحسان من نوع الإنسان الذي كشف الله له حجاب الستر في الأشياء ، وأعلمه بغيب من غيبه ، فهو يقول لهما انبئكم بالأكل الذي تأكلانه غداً . . فكأن إحساني ليس ـ بشهادتكما ولكن إحساني بشهادة الحق الذي جعلني موضعاً أميناً يأتمنني فيه على أسرار غيبه فيقول لهما : انبئكما بالأكل الذي تأكلانه غداً . . فكان إحساني ليس بشهادتكما ولكن إحساني بشهادة الحق الذي جعلني موضعاً أمينا يأتمني فيه على أسرار غيبه فيقولها لي . . وهو بذلك يريد أن يضخم الإحسان بمقياس أعلى من مقياسهما : ﴿ **لا يأتيكما طعاماً ترزقانه إلا أنبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ ، وبعد ذلك لم يدع غروراً . . ولا فقهاً . . ولم يدع أن ذلك خصوصية له بل قال : ذلكم مما علمني ربي . وعلمني ربي لماذا ؟ لأني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، إلى آخر ما قال . ﴿ **واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسماعيل** ﴾ الى أن قال ما قال .

إذاً فالمنهج الذي جعلني من المحسنين كما قلت ، ويجعلني أهلاً لائتمان الله لي على أسرار غيبه كما أخبرتكم ، ليس لذاتية في ، ولكن لمنهج تلقينه من الله فعملت به ، ومن الممكن ان تكونا مثلي في ان تتركا ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وان تقبلا على ملة الأنبياء والرسل الذين بلغوا عن الله ، وبعد ذلك يدخل في صميم القضية الإيمانية .

﴿ **أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحدُ القهّار** ﴾ .

أربابكم المتفرقون المتعددون كان من الممكن ان يعينا كما على ما تطلبان ، فلماذا تركتم أرباباً متفرقة ولجأتم الى عبدٍ بسيط لرب واحد ؟

إن القيم هي القيم حى عند المنحرف . .

﴿ أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحدُ القهّار﴾ ، وبعد ذلك قال : حينما فرغ من إلقاء شحنته الإيمانية : ﴿ **يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه . قضي الأمر الذي فيه تستفتيان** ﴾ ، (يوسف ، ٤١) .

إذاً فقد ادخر الجواب الذي يهمهما الى أن أفرغ شحنته الإيمانية ، وأفرغ شحنة الدعوة الى الله ، واستغل حاجتهما استغلالاً حسناً ، وبعد ذلك عزى كل شيء اتي به الى إيمانه بربه ، والى إيمانه بمنهج ربه ، كذلك يجب أن يكون شأن الدعاة أسوة حسنة أولاً تلفت الناس الى ما هم فيه من قيم الخير . . فإن التفت الناس الى ما فيهم من قيم الخير سألوهم لماذا انتم كذلك ؟ فيقولوا : لأننا مسلمين ، ولذلك يقول الحق في ذلك ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾ ، (فصلت : ٣٣) .

إذاً فكل عمل خير يعمله الإنسان يجب ان يعزوه الى دينه يجب ألا تعمل العمل وتقول إنه من عبقريتي وابتكاري واختراعي . ما دام إسلامك يتسع الى أن يكون فيه مثل ذلك . لماذا أتستحي لماذا لا تقول : ذلك هو مبدأ ديني وهو مبدأ إسلامي . لماذا اذاً جاء مبدأ من مبادىء الخير من أي دولة صادف ان اتفق البشر مع منهج السماء . . لماذا تقول انها . . لأنها . . لماذا لا تقول لأنها اسلام . لماذا لا يلقن أبناؤنا : أن دعوات الخير انما تقدم اليهم من أديانهم . . فاذا كان ذلك هو شأن الداعية فيجب ان يكون أيضاً شأن المنفعل بالداعية لأن الفاعل شيء والمنفعل به شيء آخر . . الفاعل شيء ، والقابل شيء آخر .

كل حدث من الأحداث ينشأ من عنصرين . عنصر فاعل ، وعنصر قابل . وقد يكون الفاعل واحداً ، ولكن القابل مختلف فيأتي الأمر على الضد وعلى العكس مع ان العقل واحد .

القرآن الكريم كلام الله ، ولكن الله يقول فيه ﴿ **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى** ﴾ ، (فصلت : ٤٤) ، إذاً فالقرآن واحد ولكن

القابل شيء آخر .

القابل الذي يستقبل القرآن على أنه منهج الله هو الذي يشفيه ، أما القارىء الذي يقرأ القرآن على أنه كلام محمد ﷺ ويؤمن بأنه من عند محمد ﷺ . أو يقول هو ليس من عند الله ، أو يقول أساطير الأولين اكتتبها . أيمن الله عليه بشيء من الفتح ليفقه عن الله فيه ؟ لا ، إن الله يضـن بمثل هذا القلب أن يفتح اليه باباً من أبواب الخير لكلامه .

وأيضاً الفاعل شيء والقابل شيء آخر حتى في تجاربنا . انت تأتي الى الشمعة المضيئة فتنفخ فيها لتطفئها . . وتأتي في النار فتنفخ فيها لتؤججها فما هذا التناقض ؟

نفخة تطفىء . ونفخة تؤجج . ونفخة واحدة ولكن القابل مختلف . . إذاً فعلى الفاعل أن يهيء القابل للفعل فاذا ما هيء القابل للفعل . يمكن ان يكون الفعل مثمراً في ذاته .

فإذا أردنا ان يكون القابل قابلاً للفعل فإنا نأمره بأقل مبادىء الحق ، إنك حين تستقبل قضية خارجة لا تستقبلها وقلبك مقتنع بقضية اخرى مناقضة لأنه ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾ . . (الأحزاب : ٤) .

وما دام القلب وقد شغل بحيز قضية معتقد بها فلا يمكن لقضية أخرى أن تدخل .

فلكي يكون القابل قابلاً يجب ان نقول له العدالة تقتضي انك حين تقارن بين أمرين لتعرف الخير منهما يجب ان تخرج الأمرين من قلبك أولاً ثم ناقشهما مناقشة موضوعية وبعد ذلك صاحب الحق له الحق في ان يستقر في الوجدان . .

أما ان تناقش قضية وأنت في ذات الوقت مقتنع بقضية اخرى مناقضة فهذا ليس بالعدل . . ولا تكون هناك فرص متكافئة للموضوعين .

ابحثهما معاً خارج قلبك وأنت لا محالة مهتد الى الحق . وقد يكون الإهتداء بالنسبة الى نفسك والى ذاتك . وقد يكون الإهتداء نتيجة لمشاورتك لمن تثق بعقله . . ولكن المسألة طرحاً جماهيرياً ، فإن طرح المسألة طرحاً جماهيرياً يكسبها غوغائية . . لماذا ؟ لأن صاحب الباطل مستتر ولكن إذا أردت أن تناقش قضية ، إما أن تناقشها ذاتياً إن كنت أهلاً بنقاش القضايا ، وإما أن تختار واحداً لتناقش القضية

معه . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى للقوم الذين كذبوا محمداً ﷺ :

﴿ قل إنما أعظكم بواحد . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ (سبأ : ٤٦) . مثنى وفرادى لماذا ؟

لأنه إذا تناقش إثنان فان الحق في النهاية مع أحدهما والمنهزم سيدرك الحق في مسألة النقاش دون تعريض به او تشهير اذا ما نوقشت المسألة جماهيرياً .

وإن الذي يجعل اللجاجة في الخصومة بين أمرين قوياً وعنيفاً أن إثنين يتناقشان في موضوع امام جماعة فيدخل في النقاش عنصر ليس من حقيقة النقاش . وهو اعتزاز كل انسان منهما بأن يكون هو المنتصر ، وخوفه ان يكون هو المنهزم امام الجمهور ، فحين لا يوجد جمهور يكون الإنسان قد أمن على نفسه خزي الإنهزام أمام الغير وانهزم أمام حق بثمن عرفه وهو الحق ، ولذلك كل نقاش بين اثنين دائماً ما ينتهي الى وفاق . اما اذا زادت جمهرة النقاش عن اثنين فانك لا تظفر للحق بطائل . لأن كل واحد ستأخذه العزة بالاثم منهما ويحاول جاهداً ان يأتي لرأيه بأدلة حقاً أو باطلاً حتى ينتصر على خصمه . إذاً فنفسه اعز عليه من الحق ، وقليل من الناس هم الذين الحق اعز عليهم من انفسهم . . فاذا أردنا ان نناقش قضية الإيمان فهل نناقشها ثنائية ، ام كيف نناقشها ؟ .

انها مناقشة ولي الأمر في البيت عندما يقترب الإبن من سن الرشد والتفكير . حينئذ يجب عليه ان يعرض قضية الإيمان عرضاً جديداً ليكون ايمانه عن اقتناع وليس عن تكليف ، فاذا ما استقبل الشاب قضية ايمانه استقبال اقتناع لا يمكن ابداً للأهواء ولا للانحرافات ان تصل اليه لانه ستكون عنده مناعة ، اما ان يعتبر الاب ان مسألة الايمان مسألة طبيعية لا يجب ان تدخل الى النقاش ، فانا نقول له ان مسألة كمسألة اختيار الكلية المناسبة لابنك تحتاج منكما الى نقاش واستشارة ويشترك فيه اكثر من طرف ، وقد تشترك فيه الأم . فما اهون هذه المسائل بالنسبة لقضية مصيرية . . كقضية الإيمان . .

ويجب على اولياء الأمور ان ينتبهوا الى ان هذا يخفف عنهم العبء ، عبء اللجاج والجدل بعد ان يكونوا قد نشأوا ابناءهم ، فرأوا مظاهر الإسلام وسمعوا اسم الله كثيراً ، وسمعوا اباهم يقرأ القرآن . سمعوه يبدأ كل شيء بسم الله . . ويختمه

بالحمد لله ، وإذا رأى خيراً في ماله وولده قال ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فان الأبناء سيتربون على خميرة ايمانية في الوقت الذي لا يوجد عندهم عقل العناد . ولا عقل المكابرة . وبذلك تكون مهمة النقاش لأن خميرتهم إيمانية ، وسلوك البيت ايماني . . فاذا ما عرضت قضية الإيمان فما أيسر ان يقتنع الأبناء وحين يقتنع الأبناء ذاتياً بقضية الأيمان يقبلون عليها على انها من عملهم الذاتي لا من تراث ورثوه من آبائهم . وآفة اسلامنا اليوم انه موروث عن الآباء ، فاذا اردنا ان نعرض القضية نعرضها ونقول : ان الإيمان بالله ضرورة ، ضرورة عقلية ، وضرورة اجتماعية ، وضرورة سياسية ، وضرورة لغوية .

الإيمان ضرورة لغوية

قد تعجبون من أن الإيمان ضرورة لغوية لأن ذلك قد يكون تعبيراً جديداً في عرف الاستدلال على الإيمان بالله . أما انه ضرورة عقلية او نفسية او اجتماعية او سياسية فقد عرض عليكم . اما ان يكون ضرورة لغوية فذلك هو العجيب . . وانا اريد ان اركز في هذا اليوم فقط على هذه المسألة بالذات . فما هي اللغة ؟

اللغة هي الفاظ يعبر بها كل قوم عن اغراضهم . فالعربي يتكلم بالفاظ عربية . . والانكليزي بالانكليزية والفرنسي بالفرنسية . . فلو ان ولداً عربياً نشأ في بيئة انكليزية ، لتكلم الانكليزية .

اللغة بنت المحاكاة :

اذا فاللغة بنت المحاكاة وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فاذا لم تسمع الأذن شيئاً فليس للسان ما يقوله ولذلك تجد ان الأبكم لا بد أن يكون قد سبق بكمه صمم ولذا يقول تعالى ﴿ صم بكم ﴾ اذاً فاللغة بنت المحاكاة ، ومادمت انا اسمع اللفظ من المتكلم فان كنت اعرف ما وضع له من المعاني فقد عرفته ، واحياناً نتكلم بلفظ عربي ولكن من الجائز ان السامع لم يقف على مدلول ذلك اللفظ العربي . يفهم شيئاً وأظنكم تعرفون قصة في اللغة اسمها (قصة زقفيلم) فما « قصة زقفيلم »[1] ؟

---

(١) قصة زقفيلم [قصة أدبية طريفة] .

ابو علقمة رجل متقعر في اللغة ولا يتكلم إلا بالغريب والحوشي منها ولسانه ألف هذه المسألة ، وكان عنده خادم ، والخادم حصيلته من اللغة الضرورة . لكن ابا علقمة غلبه طبعه يفاجىء الخادم بألفاظ متقعرة موغلة في الغرابة ، فاستيقظ أبو علقمة مرة فقال : يا غلام ـ الى هنا يا غلام فهمت ـ أصعقت العتاريف . فلم يفهم الغلام شيئاً . فقال له الخادم ماذا تقول ؟ قال : اصعقت العتاريف . لكن الغلام كان غلاماً ذكياً طالما عناه ابو علقمة . فأراد ان يؤدب ابا علقمة ، فقال : زقفيلم ! فقال أبو علقمة : وما زقفيلم ! ؟ ـ لأول مرة يستفهم ابو علقمة عن لفظ لغوي . ! ـ فقال له الخادم وأنت : وما اصعقت العتاريف قال ابو علقمة : قصدت يا غلام اصاحت الديكة : فرد الخادم : وأنا قصدت لم تصح !

إذاً فاللفظ اللغوي حتى في أذن العربي ان لم يكن الذي يسمعه يعرف معناه قبل سماعه فانه لا يفهم شيئاً ، وما دامت اللغة كذلك فهل توجد المعاني اولاً ثم توضع لها الألفاظ . ام توجد الألفاظ اولاً ثم توجد لها المعاني ؟ . نلجأ الى العقل ، توجد المعاني اولاً ثم توجد لها الألفاظ . اذاً فالمعنى يوجد أولاً ثم يوجد له اللفظ ، فالأمور القديمة المحضة لا توضع لها الفاظ ابداً . لفظ « تليفزيون » قبل ان يظهر لم يكن له اسم عندنا . لما وجد المدلول اضطرنا ان نوجد له اسم . وجلس مجمع اللغة يتكلم ويبحث له عن اسم . اذاً فالمعنى يوجد أولاً ثم يوضع له اللفظ ثانياً . ولذلك لما يأتي القرآن في قضية تعليم آدم الأسماء نجد ان الحق سبحانه عرض المسميات وهي معاني الأسماء على الملائكة وقال (أنبئوني بأسماء هؤلاء) إذاً لا بد ان « هؤلاء » تلك هي التي تعبر عن المعاني ، توجد أولاً وبعد ذلك توضع لها الأسماء . إذاً الله حينما علم آدم الأسماء قال له هذا شيء اسمه كذا . إذاً فالمعاني توجد أولاً ، ثم توجد لها الألفاظ ، سواء أكانت اللغة توفيقية او كانت اللغة تواضعية ، ولكن قد يأتي شخص ويقول : هناك عدميات لها استماء في اللغة او مثل كلمة الغول . فأنت تقول له الغول معناه ان الذي وضعه قال انا وضعت ذلك اللفظ لمخلوق خرافي ، فكونه مخلوق خرافي مخيف ، هذا هو معناه والذي وضعه نبه على انه لا وجود له . اذاً فاللفظ حين يوضع لغير موجود ويرد به التبشيع ينبه على ان لا مدلول له ولا معنى الا ما تخيله واضع اللفظ وأراد به معنى مخيفاً فاذا انتهينا من هذه القضية

وهي ان لكل لفظ معنى من المعاني يوجد أولاً ثم يوضع له اللفظ الذي يؤديه ، نقول لهم قولوا لنا بالله . **من أين جاء لفظ الله في لغة البشر ؟**

لفظ الله هذا كيف دخل لغة البشر ؟ ان كان الله امراً عدمياً لا وجود له والعدميات لا يوجد لها ألفاظ تدل عليها ، والأعجب من هذا انك تجد نظير ذلك اللفظ في كل اللغات . فلا مفر ان يكون الأصل الأصيل في الإنسان الأول قد علم الله . وقد عرف الله من أبيه آدم ثم تنوقل ذلك . وبعد ذلك طرأ جحد الله على الناس . لماذا ؟

لأن الناس الفوا المحس ولم يألفوا الغيب ، والله غيب ولذلك نجد في الفلسفة اللغوية الأخرى ان كلمة الكفر نفسها دليل على الإيمان . كيف ذلك ؟ لأن كفر في اللغة معناها ستر . فكأن الكفر طرأ على شيء موجود ليستره ، كلمة الكفر في ذاتها تدل على الإيمان ! وكأن الإيمان هو الأصيل . الأصل المشهدي في آدم ثم نقله الى بنيه ، الأصل المشهدي في الفطرة الإنسانية . اذاً فكلمة الله . وكلمة كفر تدلان على الإيمان بالله معاً .

لفظ الكفر مؤمن :

واعلموا ان لفظ الكفر مؤمن . الكفر نفسه مؤمن لأنه في لفظه انه ستر شيئاً : وما دامت كلمة الكفر انه لا اله تبقى سترت اله . . يبقى إذاً اللفظ التوحيدي يدل على الإيمان واللفظ المقابل أيضاً يدل على الإيمان .

والحق سبحانه وتعالى حين يعرض لنا هذه القضية يعرضها في آية ﴿ **وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى** ﴾ . . (الأعراف : ١٧٢) .

كان الناس قديماً يتعجبون كيف يخاطب الله النبات او الجماد أو الحيوان ؟ وفهموا انه لا يخاطب من الله الا هم ، والسبب كما قلنا سابقاً ان العقل قد فتن بنفسه . فما لم يدخل حيزه الفكري لا يؤمن به . . نقول له يا عقل على رسلك . . انت وسيلة من وسائل الادراك ، يقول : نعم : والعين وسيلة من وسائل الادراك ، يقول : نعم . فلماذا كان للعين مجال لترى ؟

قوانين : لترى ، ولماذا لا يكون لك مجال لتفهم ، لماذا حددت مجال رؤ يا العين ومدى ما ترى . . وأردت ان تطلق انك ترى كل شيء فكل ما تراه لا وجود له ، نقول له : انت فتنت بنفسك اذاً يا عقل ، انك تعقل كل شيء إلا انك للأسف تعقل نفسك ، وكان من الواجب ان يعقل العقل نفسه أولاً ليعرف انه وسيلة من وسائل الإدراك ، وما دام وسيلة من وسائل الإدراك وتوجد نظائر له . . إذاً ما دامت وسائل الإدراك محددة المدى سكون عقلك أيضاً محدد المدى . . ولو انك فهمت ذلك لكنت قد فهمت غاية الفهم لأن الذي يفهم ان ذلك الشيء لا يفهم يكون قد فهم فاذا عرضت على ابنك وهو في الإعدادي نظرية هندسية لا تحل الا في كلية الهندسة ، فجاء الولد واخذ المعطيات والنظرية وقال لك يا أبي : هذه لا استطيع حلها . . فماذا تحكم على عقله ؟

احكم انه فهم ان هذه الاشياء لا تدخل في نطاق ما اخذه من قواعد ومعلومات ، لكن اذا جاء ولد آخر وقال ان احلها ، وامسك ورقة وقلماً واخذ في حلها . . واستغرق طول النهار يقول بما ان كذا يساوي كذا ، فلا ينتهي الى شيء . فايهما في رأيك قد فهم الذي كان واقعياً مع قدراته ، فقال اني لا افهم ام الذي اصر واستكبر الذي قال : لا استطيع ان احل قد فهم نفسه ، ولذلك يقول اهل المعرفة « العجز عن الإدراك إدراك » .

إذاً فساعة ما تعجز ان تدرك ، تقول له نعم ، ربنا خلقه لكي لا تعلمه ، اذا فمهمة العقل ان يحدد مجاله الأساسي ، ويكفيه ان الفلاسفة الذين فتنوا بعقولهم قديماً في اليونان . . قسموا الفلسفة الى قسمين .

١ ـ فلسفة مادية .

٢ ـ وفلسفة ما وراء المادة .

وهي فلسفة لها مروجوها ومدعوها ومن العجيب أن فلاسفة ما وراء المادة أتعبوا أنفسهم وعقولهم في البحث فمن قال لكم يا فلاسفة أن وراء المادة شيء يجب أن يبحث عنه ، لا بد أن فيُ نفوسكم من قال لا يمكن أن تقوم هذه المادة بذاتها بل يجب أن يكون هناك شيء وراءها وقد يشعر العقل السطحي بالغرور ، والحق أن ما يدعوه الى الغرور يجب أن يدعوه إلى الانكسار فهو لم يفتن إلا لأنه ابتكر واكتشف

واخترع . . . وبعض السطحيين يقولون : إن ذلك دليل على قدرة العقل ، ولكني بدوري أرد على ذلك فأقول إن ابتكار العقل لشيء أو اختراعه لشيء ليس شهادة له على تفوقه وإنما على عجزه لأنه لو لم يعجز بالأمس لما اكتشف اليوم ، وما دام قد عجز بالأمس فإنه عاجز اليوم أيضاً ، ولو أن العقل بطبيعته قادر على أن يستوعب طبائع الأشياء كلها لكان العقل بمجرد وجوده في الرأس قد انتهى الى كل قضايا الوجود ، الوجود فهماً ، ولكن الوجود لا يعطيه إلا بقدر ما تسمح به ظروفه ، وما يشاء به الله من أجل ، لإبراز حقائق الكون . . فلا يظن ظان أن العقل حر في أن يبتكر ما يشاء ولكن فوق ذلك أجل الله للأشياء أن تظهر وللمستور أن يبدو فكل شيء له أجل مسمى عند الحق فإن صادف أجل الشيء بحث العقل عنه اهتدى العقل بمقدمات في الجحود إلى أجل الشيء وإن شاء الله لسر من أسرار الكون أن يظهر ولكن العقل لم يسلك له سبيل المقدمات فإن الله يظهر هذا الأمر كما سمعنا في كثير من الابتكارات أو الاختراعات صدفة فيكون بصدد البحث عن شيء فنحصل على شيء آخر هذا الأمر الذي حصل عليه لم يكن بصدد البحث عنه شاء الله للسر أن ينكشف ولكن مقدمات العقل لم تكن ذاهبة إليه فأراد الله أن وجد المستور فكان ذلك صدفة . . ولذلك يجب أن نعلم أن هناك فرقاً قوياً بين غيب وضع الله له في الكون مقدمات وبين غيب آخر لم يضع الله له في الكون مقدمات .

أما الأول : فالمقدمات تنتهي كما قلت الى البديهيات فكل نظرية مهما كانت معقدة نستدل عليها بنظرية قبلها ثم نستدل على النظرية التي قبلها بنظرية قبلها إلى أن نذهب الى النظرية الأولى فإذا شئنا الاستدلال على النظرية الأولى لم نجد نظرية وإنما وجدنا أمراً بديهياً موجوداً في الكون . . إذاً فأعقد النظريات خاتمتها الأولية هي الأمر البديهي ، لكن العقل يقف عند الأمر البديهي يستنبط منه فإذا ما استنبط شيئاً سار بدهياً بعد ذلك ثم يجعله بدهياً لشيء آخر بعده ، والذي يتعب خطى العقل حين يريد أن يعقد مقارنة بين النظرية المائة الأخيرة والنظرية الأولى يجد الخطوة واسعة ، ولكنه حين يأخذ من المائة التسعة والتسعين وهكذا إلى أن يصل الى النظرية الأولى وجد الفارق بسيطاً يتحمله العقل العادي ، فإذا ما كان ما نشاهده اليوم من آثار العقول التي مضت خميرة لعقولنا نحن الآن فيجب أن نعرف أن الله أعد كونه إعداداً بحيث إذا

انطلق النشاط الذهني أمكن أن يكتشف شيئاً من أسرار الوجود ، فإذا شاء الله لسر أن ينكشف ولم يكن العقل قد ذهب إليه ، رق الله على البشر وهداهم إليه صدفة . . وإذا نظرنا إلى كثير من الأشياء التي أفادت العلم الحديث والنشاط الذهني المادي نجد أن أغلبها جاء بالصدفة ، لذلك حين يعرض الحق هذين اللونين لون غيب له مقدمات يطلب من العقل أن يبحث في الأمر البدهي وفي الظاهرة التي يراها ويتأملها ، وبعد ذلك يجرب ، وبعد ذلك يخرج نظرية ، وبعد ذلك يخرج حقيقة علمية .

ولذلك تجد الحق سبحانه ـ في آية الكرسي يقول : ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ ولا يحيطون . . وقد أسند الإحاطة للبشر فكأن البشر لهم مدخل في الإحاطة ، أي أنهم يعملون عقولهم في ظواهر الأشياء ليبتكروا منها أشياء أخرى يكون الله قد أذن لها أن تنكشف .

أما الغيب الذي لم يجعل الله له في الكون مقدمات فذلك غيب مفاض من الحق على بعض الحق . . . ولذلك قصره على نفسه فقال : ﴿ **عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى** ﴾ ، إذاً فالذهن البشري حين يعمل طاقته في ملاحظة ظواهر الكون يستطيع أن يستنبط الظواهر الكثيرة استنباطه للأشياء الكثيرة التي كانت غيباً على العقول قبل الآن ، وهذا يجعله يعلم أن ما غاب عن حسه وإدراكه يجب ألا يحكم بأنه معدوم ، بل يجب أن يقول إن وسيلة إدراكه لم تصل إليه ، ويجب أن يأخذ من ذلك بمقدمات بعين المادة التي يتكلم فيها ، فمثلاً الميكروب قبل أن يكتشف عدم إدراكنا له لا يعني أنه غير موجود لا . هو موجود ولكن وسائل إدراكنا للميكروب لم تكن موجودة ، وحينما شاء الله أن ينجز بنشاطنا الذهني وسائل تطلعنا على هذا الغيب وهو الميكروب . . عرفناه وفقد صفته الغيبية . .

إذاً فعدم إدراك العقل للأشياء لا يعني أنها غير موجودة . . ولكن وسائل إدراكنا لم تصل بعد إلى إدراك هذه الأشياء ، وحين يقدر العقل هذه المهمة ويقارن بين العقل الذي سبقه من أجيال متقدمة ، يجد أن حصيلة العقل وخاماته الآن أكثر من حصيلة العقل وخاماته في العصور المتقدمة ، وهو كل يوم يكتشف جديداً وكل يوم يكتشف من سر الله ما كان غيباً عنه . . فإذا كان الأمر كذلك . . والخطى سائرة

بسرعة إلى اكتشاف أشياء هي موجودة ولكننا لا ندركها ، وإذا كان الأمر كذلك فقولوا لي بالله . . ماذا أعد الله في الكون للعقل في القرن الثلاثين ؟ لا بد أنه أعد أشياء لتكون موضوع للعقل في القرن الثلاثين ، وإلا فلو كانت الأشياء في الكون اكتشفها العقل مرة واحدة ، إذاً ستكون الحياة مكررة . . فتعطينا صورة تافهة للوجود . . ولأننا في هذه الحالة استطعنا بعقولنا أن نستقصي أسرار الله فيه مقدماً ، ولكن أسرار الله لا تنتهي حتى يأذن الله للأرض أن تزول ومعها وليدها المغرور . . .

ولذلك يقول الحق : **﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾** ، (يونس : ٣٤) .

إذاً فلا بد أن نقدر أن أسرار الله في الكون كثيرة وغيب الله لا ينتهي ، ومهما تعددت القرون فسيكتشف أهلها كل يوم سراً خافياً وذلك سر الحرف في القرآن (س) : **﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾** نحن نقرؤ ها الآن : سنريهم وقرأها رسول الله ﷺ . . في القرن الأول : سنريهم . . وسيقرؤ ها الناس بعدنا : سنريهم . . الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . إذاً فاستقبال واستقبال بالسين يدل على أن أسرار الكون لا تنتهي أبداً والسين هذه تدل على أن الوجود لن يقف أبداً عند مرحلة واحدة وإنما وجود متطور رغم اكتشاف أسرار الله في كون الله ولذلك ستقرأ « سنريهم » حتى تقوم الساعة ويظل الأمر دائماً أمر استقبال لأسرار كون الله . . بواسطة العقول التي خلقها الله . . إذاً فيجب على العقل ألا يحكم على شيء لا يدركه بأنه غير موجود وحسبنا في هذا أن الفلاسفة الذين دوخونا بآرائهم ودوخونا بأفكارهم فيما وراء المادة ـ الميتافيزيقا ـ فأتعبونا دون أن يصلوا إلى حقيقة ما . . مع أن القيم في الفلسفة وهي الفلسفة المادية أعطانا عطاء واسعاً وافراً في الوقت الذي اختلف فيه فلاسفة فيما وراء الطبيعة ، فلم تتفق كما قلنا مدرسة مع مدرسة ، ولا تلاميذ مدرسة مع تلاميذ مدرسة واحدة واختلفوا مع أنفسهم فيما ذهبوا إليه فيما وراء الطبيعة ، ولأن العقل يستقبل من الماديات ليستنبط منها ، وأما ما غاب عنه لا يمكن أن يصل إلى شيء فيه .

التعقل والتصور

وأنا سابقاً قلت إنه يجب على العقل أن يفرق بين شيئين اثنين ، وعدم الفرق بينهما هو الذي يوجد متاهة للعقل المعاصر .

الشيء الأول هو تعقل الشيء ، والشيء الثاني هو تصور الشيء .

فلو وقفنا عند تعقل الشيء لاتفقنا ولكننا اختلفنا لأننا حاولنا أن نجاوز منطقة التعقل إلى منطقة التصور ومنطقة التصور هي المتاهة . . وهي المضلة التي نضل فيها جميعاً . . لماذا ؟

لأنك لا تتصور شيئاً إلا على وفق ما ترى من خامات التصورات في الوجود ، ولكنك قد تتعقل شيئاً . . فمثلاً إذا حدثونا أن الصوت له نصف مليون ذبذبة في الثانية . . هذا أمر يعقل ولكن لا يستطيع العقل أن يتصوره ، لأن دقة الموازين هي التي تتعب الناس فمثلاً أنا يولد لـي الوليد ، وأظل دائماً أنظر إليه كل لحظة وكل يوم ، فهو لا ينمو في نظري أبداً لأنه لا توجد عندي المقاييس الدقيقة التي تستطيع أن تدرك نموه كل ثانية ، الولد لا يأتي كل أربع وعشرين ساعة ثم ينمو اليوم دفعة واحدة وإنما ينمو مع الزمن ، فنموه موزع على الزمن ، فإذا أنت قسمت الزمن إلى ثوانٍ فيكون له نموه كل ثانية . فإذا استطعت أن توجد مقياساً زمنياً أقل من الثانية فأيضاً يكون له نمو ضئيل يناسب هذا المقياس ، فإن كنت ناظراً إليه دائماً فإنك لا تدرك أبداً كيف ينمو ، ولكن إذا غبت عنه شهراً أو شهرين أو ثلاثة أدركت حصيلة نمو الشهرين فيمكن أن تدخل حينئذ تحت مقاييس إدراكك .

ولتفهم الفرق بين تعقل شيء وتصوره ، وهي المسألة التي أتعبت الفلاسفة في الإيمان بالله فلم يكتفوا بتعقيل وجود الإله ولكن أرادوا أن يتصوروا ذلك الإله فأتعبهم ذلك ، ولو أن الفلاسفة قديماً حينما اتجهوا إلى ما وراء المادة ليبحثوا عنه ، ما الذي قال لهم : إن وراء المادة شيء ، فإذا ما علمت أن وراء المادة شيئاً ، الفطرة قالت : إن وراء المادة شيء والعقل صحيح ، قال : لا بد وأن وراء المادة شيء، هذا قدر كفيل بأن يكون وراء المادة شيء ، غالباً ما علمت بأن وراء المادة شيء . ثم جاء الحق فسمح بإرسال رسول ليقول لك ألا أخبرك بما وراء

المـادة ؟ كـان يجب أن تـرهف أذنـك لـذلـك الـرسـول أنت ظـاهـرة من ظـواهـر الكـون ، تقـدر على أشيـاء ، وتعجـز عن أخـرى ، وتعـرف أشيـاء وتجهـل أشيـاء أخـرى ، وتختار أشيـاء وتجبر على أشيـاء كـان يجب أن تحـل لغـزك أنت أولاً . . لمـاذا تقـدر على أشيـاء ولا تقـدر على أشيـاء ، وتقهـر على أشيـاء كـان يجب أن ترهف أذنك لمن يحل ذلك اللغز فيك ، وبعد ذلك في قدرتك على أشياء وعدم قدرتك على أخرى ، تجد أنك تتفاوت مع الناس في القدرة . وبعد ذلك القادر فوقه أقدر منه والقادر فوقه أقدر منه ، وهكذا إلى أن يأتي الجبار ليس فوقه جبار ، وبعد ذلك تجد أن ذلك الجبار الذي يكره الناس على أشياء تجده مجبوراً على أشياء كان يجب أن تفطن على أن هناك قوة غير مرئية فوق ذلك الجبار ما دام يقدر على أشياء ثم بعد ذلك يقدر على أشياء . إذاً يجب أن نتنبه على أن هناك قوة أخرى فوقه . . لا ترى هي التي تقهره على هذه الأشياء إذا كنا هنا في هذا المكان وأغلقنا الأبواب والنوافذ ثم دق الجرس . . هنا تعقل ، تعقل أن طارقاً بالباب وكلنا نتفق في هذا التعقل فإذا اتفقنا . . ندخل في منطقة التصور وذلك يدخلنا في متاهات . . واحد يقول هو رجل ، وواحد يقول امرأة ، وواحد يقول طفل صغير وهكذا .

نختلف اختلافاً في أي منطقة ، في منطقة التعقل أم في منطقة التصور ؟ منطقة التصور هي منطقة الاختلاف ، فلو أننا اكتفينا بالتعقل وتركنا الطارق بالباب ليدلنا على من هو لالتقينا . .

فالتعقل قوة وراء الكون فيجب أن نرهف أذننا حتى تعلن القوة عن نفسها وإلا فقولوا لي بالله قوة كالطبيعة ، قوة كالشمس . قوة كالآلهة التي ادعى المـدعون أنها التي خلقت الكون ، كيف سمحت هذه القوى الخالقة للكون أن يدعيها الله مدلول الله في نظر المؤمنين ، ويأخذها الله ويقول أنا الخالق وأنا الرازق وأنا المعين ثم لا تتكلم هذه القوة بكلمة ولا تبعث رسولاً وتبقى مستكينة وتترك المدعي الذي هو الله يأخذ ذلك الكون منها ؟ فإذا جاء شخص وقال : الله هو الذي خلق ، وآخر يقول الطبيعة هي التي خلقت ولم تجيء لنا برسول ولا برهان على أنها هي التي خلقت . . أروني ما ذلك الإله العاجز الذي أخذ منه غير الخالق خلقه ومع ذلك ظل ساكناً خانعاً لا يقول ذلك كذب أنا الذي خلقت ، إذاً فعدم وجود معارض لمدعي الرسل في أن

الله هو الذي خلق وعدم وجود منهج هذه المدعيات يبطل أن تكون معبودة ويبطل أن تكون هي التي وراء ذلك الكون ، فالحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان أمده بفطرة ، هذه الفطرة تمكنه أن يدرك أن وراءه شيء آخر ، فالطفل الصغير حينما يعتريه أمر من الأمور لمن يفزع إلى مظهر القوة في حسه ، إلى أمه وأبيه ، فإذا كان الإنسان في ضيق وفي كرب وكل أسباب النجاة مغلقة أمامه أترى أنه ييأس أبداً . . لماذا لا ييأس لأنه يتجه بفطرته إلى قوة أعلى منه لا يراها ولكنها تراه فهو بذلك ينصرف إلى الرصيد المدفون في نفسه الذي يوحي بأن هناك قوة أخرى ستنجيه .

ولذلك حين لما يعرض ربنا هذه القضية يعرضها صريحاً . وبعد ذلك يحكي لنا عن المركب التي سارت في البحر وهاجت عليها الأمواج ، دعوا الله مخلصين له الدين لأنه لا يمكن أن يخدع نفسه في وقت مثل ذلك ولا يمكن أن يبيعها رخيصة أيضاً . عنده أمل في أن أحد سينجيه وبعد أن ينجيه يعود إلى كفره مرة أخرى . . إذاً لو أن عقل الفلاسفة اكتفى بتعقل قوة وراء ذلك الكون وبعد ذلك ترك القوة أن تعلن عن نفسها بواسطة رسول مؤيد بمعجزة من المعجزات لإراحة نفسها وإراحتنا ، وحين ننظر إلى الإنسان نجد أن الإنسان جنس من الأجناس ، وأنا دائماً أرتب الأجناس بالاستقراء : **جنس يسمى الجماد** وجنس آخر يمتاز عنه بمظاهر **النمو فسميناه نباتاً** وجنس آخر يمتاز بمظاهر **الحس والحركة سميناه حيواناً ، وجنس هو الإنسان امتاز بخاصية الفكر سميناه الإنسان** . . تلك هي الأجناس باستقراء الوجود . . وبعد ذلك نجد أن كل جنس من الوجود أعلى من جنس آخر يأخذ خاصية تميزه عنه . . النبات لم يصبح نباتاً إلا بخاصية النمو ولكن خاصية النمو أفقدته خاصية الجمادية لا تظل فيه جمادية .

وبعد ذلك الحيوان ، هل خاصية الحس أفقدته خاصية النمو وخاصية الجمادية لا تظل فيه خاصية النمو والجمادية ، والإنسان فيه خاصية الحيوانية والنباتية والجمادية . وأنا إذا قفزت قفزة سأصبح مثل قطعة الحجر وقانون الجاذبية يحكمني وأيضاً أنمو بدون اختيار مثل ظاهرة النبات ، وأحس وأجهزتي تتحرك وتعمل وأنا نائم بدون شعور مني .

وبما أن الإنسان يتميز بمنطقة الفكر . منطقة التكليف فنقول له : إن الجماد في

خدمة النبات والحيوان والإنسان والنبات في خدمة الحيوان والإنسان ، والحيوان في خدمة الإنسان وأنت أيها الإنسان في خدمة من ؟ ما عملك ؟ فكل جنس من هذه الأجناس له مهمة يؤديها فما مهمتك أنت أيها الإنسان ؟

إذاً لازم تبحث بالعقل وإذا لم تجد لك مهمة وجنس أعلى منك ترتبط به كما ارتبط الحيوان بك وكما ارتبط النبات بالحيوان فإن لم تبحث عن مهمة لنفسك وجنس أعلى منك ترتبط به فأنت أتفه من النبات وأتفه من الحيوان .

إذاً فيجب على العقل أن يبحث عن هذه المهمة فينظر فلا يجد جنساً أعلى منه ليؤدي له هذه المهمة . . إذاً لا بد أن يشغله ذلك حتى إذا ما أرسل الله له رسولاً ليقول له : ألا أدلك على القوة التي يجب أن ترتبط بها ؟

والتي عقلك يبحث فيها . . فكان ذلك هو الرسول قد جاء إلي بشيء أنا طلبته بعقلي . . وبحثت عنه بعقلي . . ويأتي الرسول فيقول : إن هذه القوة هي الله ومطلوبها منك كذا وكذا ومصيرك إليه ، وجزاؤك يبقى كذا إذا عملت شراً أو طيباً ، فيكون الرسول قد أدى لي مهمة . لأنه أنقذ فكري وعقلي في البحث عن مهمة كان ضرورياً أن يبحث عنها ، وأيضاً إذا نظرت الى استقراء الأشياء وجدت أن الإنسان يصنع بنفسه صناعات . . وصناعاته التي يصنعها صناعات لا تؤدي ضرورة في الحياة وإنما تؤدي ترفاً في الحياة . . فإن لم يصنع الكوب من البلّور لاستطعت أن أشرب في الفخار أو في الصفيح أو من الحنفية مباشرة . إذاً كوب من البلور لا يمثل ضرورة في الحياة . إنما هو يمثل ترفاً في الحياة ، فالله يقول إذا أردت أن تترف نفسك فأعمل عقلك وذهنك في أسرار كونه وفي عناصر الوجود .

ضرورات الحياة . . وتكافؤ الفرص :

أما أنا فقد أمددتك بمقومات الحياة الأساسية . . أمددتك بطعام . . وأمددتك بشراب وأمددتك بهواء . . وإذا ما نظرت إلى سر توزيعي لهذه الأشياء عرفت أني رب . . ولا يقدر على عمل كهذا إلا رب . مقومات حياتك طعام وشراب وهواء . فإذا صنع إنسان آلة . . مثل السيارة وقودها الأساسي البنزين فإذا ما انتهى البنزين من السيارة تقف السيارة . لكن انظر إلى صناعة ربك في طعامك . إن جسمك يأخذ

الضروري ويختزن الباقي حتى إذا لم تجد طعاماً كان في ذاتك مقومات حياتك لفترة طويلة . قد تطول إلى شهر وتستمر تتغذى من ذهنك ولحمك ومن شحمك ، ومن العجيب أن الذهن يتكيف بالمواد الغذائية الطبيعية . احضروا لي آلة صنعها البشر وبعد ذلك يفرغ وقودها منها ، ثم بعد ذلك تظل في حيويتها ، لها ما يعينها على الحركة والحياة .

وبعد ذلك قال لك : والماء ، أعطيتك الماء بالنسبة للطعام ضرورة طبعاً ، لكن صبرك على الماء أكثر أم صبرك على الطعام ؟ صبرك على الطعام أطول من صبرك على الماء ، فإنك لا تصبر على الماء إلا من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار المائية الموجودة فيك .

ولذلك أمكن للطعام أن يمتلك وأن يحتكر ، ووسيلة امتلاكه صعبة شيئاً ما عن الماء . لكن الماء ـ لأن الضرورة له أكثر ولا يمكن الاستغناء عنه ـ جعله الله مشاعاً أو شبه مشاع .

وإذا ما نظرت إلى الهواء فهذا هو العنصر الذي لا يمكن الاستغناء عنه أبداً . فإذا ملك إنسان طعامك وغضب عليك ومنع عنك الطعام فيقعد غضبان شهراً فإن قلبه قد يرق بعدها ، يمكن أنت بحيلتك أن تفر ، يمكن لأحد أن يعطف عليك فيحضر لك طعاماً . والماء أقل ، ولكن إذا غضب عليك أحد وهو مالك الهواء ماذا يكون موقفك قبل أن تنفعل ذرات نفسه بالرضا عليك تكون قد مت ، ولذلك قال لك أما الهواء فلا آمن فيه يداً على يد أبداً فهو مشاع بين الناس جميعاً ويستوي في الاستنشاق به الغني والفقير ، الغني يمكن أن يشرب الماء مكرراً ولا يعرف من أين ، لكن الهواء كل واحد يستطيع أن يأخذه .

الله !؟ إذن هي ضرورات الحياة ، حتى أنه عمل فيها تكافؤ الفرص في صورة مرتبة :

١ ـ الهواء .

٢ ـ الماء .

٣ ـ الطعام .

إذا نظرت أنت إلى هذه المسألة وجدت الإنسان لما يأتي ليصنع صنعة مثل

الكوب لا يأتي فيها بحاجة ضرورية للحياة ، يأتي بحاجة فيها ترف في الحياة أو كمالية في الحياة ، ويقول لك تريد أن تكون مترفاً وأن يكون عندك كماليات شغل عقلك وذهنك . على قدر نشاط ذهنك تأخذ كماليات وأسرار من الكون . فنأتي ونعمل كوب . طبعاً الكوب لم يأتِ كما تراه ولكن العلماء بحثوا في عناصر الأرض ورأوا أي عنصر له بريق وله شكل جميل . وبعدها كيف تنصهر .

ودرجة النار الكافية لانصهاره تقدر بكم درجة ليصبح عجينة لينة لتستطيع تشكيله . وبعد ذلك هناك مواد وكيفية تنقيته . ويعمل معامل وعقول وإمكانيات لكي يصنع كوباً ، لكن هل استطاع العقل البشري أن يصنع كوباً جميلاً ثم يأتي بكوب غير جميل ويضعهما بجوار بعضهما ليلة ويقول لهما : طلعوا لنا أكواب ؟

هل عملوا أكواب صغيرة وجعلوها تنمو وتبقى كبيرة ، إذن أنت تصنع صنعة على قدرك وربنا يصنع صنعة على قدره وهو سر الحياة والنمو هذا هو الذي يدهش الدنيا ويتعبها . ونقول له : تعالى ، إذا كان الكوب الذي يمثل ترفاً في الحياة وراءه هذه الأجهزة من العلم ومن الإمكانيات ومن العقول . . . إلخ .

فابحث وراء هذه الأشياء حتى تنتهي إلى سببها الأول ، فإذا وجدت مسبباً بلا سبب فقف هنا واسأل الرجل الذي يصنع الأكواب كيف يعملها ؟ يقول لك : نأتي بالرمل من المكان الفلاني ونأتي مادة كذا من المكان الفلاني ومادة كذا من المكان الفلاني ونصهره في المكان الفلاني ثم نصنعه كوباً .

نذهب إلى المكان الذي فيه الرمل ونسأل . . يا رمل أنت من أين ، لا أحد يجاوب ، انتهى السبب . .

يبقى إذن وامتنعت يد الإنسان فقد بدأت يد الله ما دام التافه كان وراءه صنعة وعلم وحكمة وقدرة وإمكانيات لما تمسك أي حاجة مثل المكتب الذي أجلس عليه وتقول له من أين عملت هذا ، يقول لك أنا أحضر الخشب من التاجر الفلاني ويا تاجر يا فلاني أحضرت الخشب من أين ؟ يقول لك استوردته من السويد . يا سويد أنت جئته من أين ؟ تقول لك جئنا به من الغابات ، نذهب إلى الغابات ونقول لها يا غابات أنت جئته من أين ؟ لا نجد لها جواب . حين لا نجد جواباً يجب أن ننتبه إلى أن هنا يد الخالق الخفية وإلا فأتفه الأشياء في صناعتنا لا توجد هكذا .

فإذا كان ربنا يتركنا نصنع أشياء فذلك ليدلنا على الكلمة التي كانوا يعلمونا إياها من زمان . أن الصنعة لا بد أن تدل على الصانع . لكن هناك حاجة ثانية مهمة . الصنعة التي هي الكوب هل تدرك من صنعها ؟ إذن فالصنعة لا تدرك أبداً من صنعها ، قس على نفسك أنت صنعة الله إذاً أنت لا تستطيع أن تدرك الله .

ومن عظمته أنك لا تدركه .

لو أدركته لما كان يصلح أن يكون إلهاً ، لماذا ؟

لأن إدراك العقل لشيء أو إدراك العين لشيء ، فإذا أعطينا الولد مسألة هندسية مثل ما قلت وحلها قلنا دخلت في مقدور عقله يعني أصبح عقله قادراً عليها ، فأنت إذا أدركت الحق الخالق انقلب القادر مقدوراً والمقدور قادراً .

ولا ينقلب المقدور قادراً ولا القادر مقدوراً أبداً .

إذاً فمن عظمة ربك أنك لا تدركه وإذا كان الله سبحانه وتعالى حينما يصف نفسه بقوله ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ لم يعطنا مثلاً إلا بالنور وبعدها يجيء النور من الضوء وبعدها يقول لنا العلم الحديث : إن الضوء في ذاته لا يرى وإنما تُرى به الأشياء ، فإذا كان شيئاً من خلق الله لا يُرى لذاته إنما تُرى به الأشياء فنقول للذي خلق هذا كيف لا يدرك ؟ لا يدرك ولا يمكن أبداً ، لأن من خلقه ما لا يرى وما لا يدرك ، فكيف تتسامى أنت لتدركه هو ، فإذن عدم إدراكه دليل على أنه حقاً هو الإله حقاً .

فحين تعجز عن الإدراك فإن ذلك يزيدك عشقاً بغير المدرك هذا ، ولكن الضوء الذي يقولون عليه أنه موجود لما طلعوا في الجو واستطاعوا أن يقتربوا من الشمس مصدر الضوء كان المفروض أنه يوجد ضوء أكثر ولكنهم لم يجدوا نوراً هناك أبداً إنما وجدوا ظلاماً ، لماذا ؟ لأن الضوء لا يرى إلا إذا كان فيه أشياء مادية مثل ذرات مائية ، شيئاً من غبار . . الخ .

إذاً فالضوء لا يُرى بذاته وإنما يُرى في أشياء .

إذاً لما يقال لك ، إن الله لا يُرى في كونه وفي أشيائه لا تستعجب لأن هذا هو ما انتهيت إليه بعلمك ، وما انتهيت إليه بعلمك هو ماذا ؟ .

هو أن الضوء لا يرى ولكن إذا وجدت ذرات غبار يُرى . إذن لما نقول لك إن

الله لا يُرى وإنما يُرى في صنعته يبقى هذا الكلام سليم ، وكلام علمي ، وكلام منطقي . يأتون ويقولون لك : هذا الكون صدر من مادة فانية فكيف وجد ؟ لا بد أن تكون هناك مادة لأنك لا تتعامل إلا بالمادة ولا تعمل شيئاً من لا مادة ، أنت تعيش المسائل بقدراتك وبعلمك إنما أنت لا بد أن تقيسها بقوانينه وقدراته هو سبحانه لكن هو نور ومن نوره خلق الأشياء . والآن قالوا إن الضوء ممكن أن نطلع مادة ، والمادة نقدر أن نفرقها وتبقى ضوءاً ، يبقى إذن الاشكالات التي كانت موجودة قديماً أمام العقل ، العلم والنشاط الذهني ابتدأ يفسرها ، فالناس يعكسون المسألة كلما تقدمت الأدلة نحو الوجود الأعلى هم يأخذونها ضد الوجود الأعلى ! كيف هذا ؟

كان يجب أن تكون هذه الأدلة أدلة على الوجود الأعلى وتيسر لك هذه المسائل . فلماذا تأخذها أنت بالعكس ؟ لأنك سرت بمسألة مجنحة لم تسر بالارتقاء بكل ملكات نفسك ، ارتقيت في ملكة واحدة وانحططت في ملكات أخرى فيحدث عندك تجنيح ، أنت قلت البطن فقط ولا شيء غيرها ، إشبع البطن وكأن الإنسان ليس له ملكة إلا البطن فنقول له يا أخي إذا كان ليس له ملكة إلا بطنه ، فالرجل الذي يحدد إقامته بعيش في فيلا عظيمة يأكل ما يأكل وفي خدمته ناس .

وبالله أيكون مسرور نفسياً أم تعب ؟ لم هو تعب ؟ لأن هناك ملكات أخرى عنده جائعة . وبالاحصائية في السويد التي فيها أرقى مستوى معيشي ، قالت الاحصائية أن الشباب عندهم أكثر نسبة في الانتحار والجنون والشذوذ ، إذاً لم ينتحر طالما عنده وسائل الترفيه ؟ .

آه : لأنه شبع في ملكة واحدة من ملكات نفسه ، وجائع في ملكات أخرى ، لما جاع في ملكات أخرى بقي عنده قلق واضطراب ، وبعدها يسأل علم النفس ؟ لأنه توجد ملكات أخرى غير نامية النمو المتسق مع بعضه ، لكن المؤمن ينمو بكل ملكات نفسه لو أحضرت إنسان ونزعت منه القطعة التي أعلى المخ تصبح حركاته مثل حركة الحيوان تماماً .

إذن فالإنسانية كلها هنا كإنسان في القطعة العليا من المخ .

وبعد ذلك نسأله بدورنا . الحيوان يجوع أم لا ؟ الجواب أنه يجوع إذن أسألك بالله لماذا يجوع يعيش في ألم الفقر وخوف المجاعة فيفكر في هذه الحكاية لا ، إنه

لا يفكر فيها .

حسن هل يلد أم لا ؟ . . وهل يموت ابنه أو لا يموت ؟ . . إنه يموت ويذبح أمامه . هل يذوق ألم ثكل وفجيعة فراق ؟ لا يذوقه هل هو يأكل الحاجات التي يسر منها لكن ملكاته التي عنده . هل رأينا مثلاً حيواناً نم[1] على حيوان آخر أو امتلأ حقداً أو وشى بحيوان آخر أو نظر لأنثى وحاول معها شيء . ساعة يراها حامل انتهى كل شيء ومن العجيب أننا نظلم الحيوان ونقول على أنفسنا لما ننفلت في شهواتنا نقول الشهوة البهيمية ! ياليتنا جعلناها بهيمية معمولة لحفظ النوع فقط فإذا اقترب ناحية الأنثى ووجدها حاملاً لا يقربها أبداً . بهيمية ليس عندها شذوذ جنسي لا تنظر إلى اللذة في النوع المشارك . بل نقول عليها شهوة بهيمية وأعيننا مفتحة يجب أن نقول عنها شهوة إنسانية لأن الحيوان عملها لحفظ النوع فقط ، ونحن ظلمنا الحيوان .

الحيوان يدرك بما وهبه الله من غرائز ما ينفعه وما يضره ويرى غيره يموت ، هو ساعة ذلك لا يفكر في الموت أو مصيره إليه . ليس عنده هذه الأفكار . . الحيوان لا يفترس حيواناً آخر إلا إذا كان يريد أن يأكل . إذن القوي يأكل الضعيف لكن لم نر حيواناً قتل آخر ولم يأكله ، مثل إنسان يضرب واحداً بالرصاص فيميته . إذن الحيوان الذي هو أدنى مني ليس عنده هذه المسائل .

أنا لو لم يكن لي منهج وركن آوي إليه في مثل هذه الأشياء والهموم . وعندما يموت ابني أو عزيز علي ماذا أصنع ؟ فالحيوان يموت ابنه ولا يذوق ألم ثكل . لكن أنا أذوق ألم الثكل والحزن . إذن أنا أشقى من الحيوان .

لو لم يكن عندي رصيد آخر يقول لي هذه مصيبة لها أجرها وجزاؤ ها كذا وأن ربنا أراد بها كذا .

يبقى أكبر مصيبة حين تدخلها في ميزان نفسي فتهون علي لأن الثمن يبقى كبيراً . لو لم تكن هذه عندي كنت أنا أشقى أجناس الوجود ولست سيداً لهذا الوجود .

من ذلك نجد المنهج ضرورة نفسية . والإنسان منا مهما كان غنياً أو مترفاً

---

(١) نم : من النميمية الايقاع بين الناس .

يشغله همان الهم الأول : أن يفارق هو ذاك النعيم . الهم الثاني . أن يفارقه ذلك النعيم . إذن فلا بد للإنسان مهما ارتقى من أن يشغل باله بشيء ، غاية الشيء الذي يشغله الهم في أن يزول عنه هذا النعيم أو أن يتزحزح هو ويترك النعيم ، أو أنه يعتريه شيء من الانقباضات التي تعترض النفس البشرية بدون معرفة أسبابها .

هم يستولي عليه هذا الهم الذي يستولي على الإنسان لما الإنسان يشعر بأنه له رب وأن المسألة ما دامت أسبابها في نظره قد انتهت بموجب مسبب هو ربي .

فلما تعلم أن هذه الأشياء لها مسبب هو ربي وهو لا يسأل عما يفعل فتجد أنك تعيش على رصيد من الأمل ، رصيد من حنان غيبي ، من عطف غيبي ، إذن فالمحروم من الإيمان حين تعز عليه الأسباب فعزاؤه في ماذا ؟ لا يوجد له عزاء نفسي أبداً . وإنما المؤمن يوجد له العزاء النفسي .

الإيمان ضرورة نفسية :

ماذا يعمل الإيمان في النفس ؟ يغير طبيعة وكيماوية النفس البشرية . مثلاً التاريخ يحدثنا الخنساء[1] مات أخوها صخر فلما مات صخر ملأت الدنيا عليه بكاء وعويلاً حتى فقدت بصرها وهو أخاها . وبعد ذلك أسلمت وجاء لها خبر أبناءها الأربعة في معركة القادسية واستشهدوا في وقت واحد .

كان هذا أخاها وهؤلاء أولادها وكان أخوها واحداً . . وهؤلاء أربعة . فماذا قالت ؟ . .

قالت الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم وأسأله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته . ما هذا العزاء الذي دخل عليها إنه عز بالإيمان أعظم المصائب يهون أمرها . مثلاً العواطف نفسها الإيمان يغيرها . يحدثنا التاريخ أن سيدنا أبا بكر كان مع رسول الله ﷺ في معـركة بدر وابنه كان ما يزال مع الكفار يقول ابن أبا بكر رضي الله عنه يا أبي لقد رأيتك في المعركة فلويت وجهي عنك ـ يريد أن يمتن على أبيه ـ فيقول أبو بكر أما والله لو رأيتك لقتلتك . إن ابن أبي بكر منطقي مع عواطفه وأبو بكر ذاته منطقي مع

(١) كانت شاعرة في الجاهلية ، اسلمت وحسن اسلامها .

عواطفه لأنه لما يقابل ابن أبي بكر الكافر أباه في المعركة يقارن بين أبيه وبين ماذا ؟ لو عنده عقيدة حقاً ومتمسك بها على أنها حق كان يهون أبوه أمام العقيدة إنما وجد أباه أمام العقيدة إنما وجد أباه ولم يجد العقيدة فمن يفضل؟ يفضل أباه طبعاً لكن أبا بكر قال لو رأيتك لقتلتك. .لأن أمام أبي بكر عقيدة حق أعز عليه من ابنه فيكون هذا منطقي مع نفسه والثاني منطقي مع نفسه ، فانظروا كيف فعل الإيمان في النفس . النفس البشرية . إذن فالعزاء للإنسان في كل أحداث الحياة أن يكون له إيمان ، ولذلك : الناس الصالحون يقولون : (لا كرب وأنت رب) ما دام فيه رب لا يوجد كرب ، وبعد ذلك يجيء فيعزينا في الأشياء التي تأتي على خلاف ارادتك وتنالك من المصائب . أفهم أنا ماذا أقول فيها . . أنا أقول . ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** ﴾ كمقياس فرضه الله كان مفروض أن يقول كتب الله علينا لأن (على) تفيد الغرم إنما اللام تفيد الانتفاع والملكية ، يعني كان قياس أنها مصائب شيء يعطيه لنا .

إذن هذا الفرق بين ملحظ الإيمان وملحظ الكفر ساعة ما تأتي المصيبة لأي إنسان تكون المصيبة عليه . إنما ساعة لما تأتي المصيبة لمؤمن يقول مصيبة لي إذن حين تقارن أي بلاء بأجْر يهون البلاء ، وإنما الذي يضخم البلاء في أذهان الناس أنهم ينظرون إلى البلاء ويغفلون أجره ، وكل تكليف من التكليفات إن كان طاعة أمر الله بها . وإن كان معصية نهى الله عنها لا تجترىء عليها النفس البشرية إلا حين تغفل الجزاء عليها أما إذا وضعت أمام الطاعة الجزاء عليها وأمام المعصية الجزاء عليها ، فإني أتحدى إذا وضعت الاثنين وضعاً إيمانياً أمام بعضهما .

وليس الوضع الإيماني أن تؤمن . . لا . . بل تشهده كأنه مشهد . . كأنه واقع ولذلك حينما سأل الرسول ﷺ الصحابي[١] كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بالله مؤمناً حقاً . قال له حقاً : هذه كلمة واسعة جداً هل تعرف معناها ؟ قال : لكل حق حقيقة فما هي حقيقة إيمانك قال : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها[٢] ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة ينعمون وإلى أهل النار يعذبون .

---

(١) الصحابي هو سيدنا معاذ .

(٢) مدرها : ترابها .

يعني لم يعد خبراً بل صار مشهداً أنا قلت لبعض الشبان سوف تأتي بشاب عنده شذوذ جنسي ونأتي له ببنت جميلة من السويد ونقول له هذه هي البنت وهذا هو المفتاح وهذه هي الحجرة لكن انظر إلى هذه الحجرة الأخرى أولاً بها حديد مصهور على درجة حرارة كذا .

إقض الليلة هنا . . ثم نأخذك صباحاً على هذه الحجرة المستعرة . ماذا يكون موقفه ؟ لن يرضى . . لماذا ؟ لأنه استحضر العقوبة أمام المعصية . إذاً الذي يجرىء الناس على المعاصي ماذا ؟

إنه يستحضر المعصية فقط بشهوتها وغافل عن عقابها . ضربت مثلاً مرة هب أن رئيساً مسافر وقيل : على السادة الوزراء والنواب الحضور في المطار في الساعة الرابعة صباحاً لتوديع الرئيس . بالله لكي يذهبون في الرابعة صباحاً متى يصحون في منازلهم ؟ في الساعة الثانية حتى يجهز الواحد منهم نفسه من استعداد وملابس . . الخ ، وبعد ذلك يضبط المنبه وهذا يوقظه ويوصي زملاءه من يستيقظ قبل الثاني يضرب له الهاتف . وعمل جميع ترتيباته كلها حتى يكون هناك في الساعة الرابعة بالضبط . وضد كل امكانياته ما تخلف أحد ، فإذا قال الفجر الله أكبر يقول : أنا كسلان شوية لماذا جندت ارادتك في الأول وذهبت ، وارادتك هنا أين ذهبت ؟ الأصل أنك استبطأت الجزاء ، إنما هناك الجزاء عاجل سيغضب عليك ويكون كذا وكذا إذا فآفة الإيمان أن الناس يؤمنون بالله وبمنهجه ولكنهم يستبطئون الجزاء مثل التلميذ حينما يأتي ويقول أصل الامتحان لا يزال بعيداً وقته لما يأتي في الامتحان تجده ذاهب غادي . . حيران طول الليل وطول النهار ، يمكن يستذكر ولكن أعصابه منهارة ويشكو من انهيار أعصابه وأنه لا يستطيع المذاكرة . تقول له يا أخي : إن الذهن لا يفهم بالتكرار ولكنه الطبوغرافيا يلتقط مرة واحدة أنت عندما تسمع شخصاً يقول قصيدة فبعد ما ينتهي من القصيدة تحفظ لك بيتاً أو اثنين . لو كان ذهنك درجة ذكائه انه لا يحفظ الا من ثلاث مرات لما حفظ بيتاً واحداً انما دليل على انك حفظت بيتاً او اثنين . أن ذهنك قابل على أن يلتقط على طول ، المهم أن ذهنك ساعة الالتقاط يكون فارغاً من غيره تلتقط قضية لا يكون بؤرة شعورك غيرها فتهمها من مرة واحدة لماذا تكررها ألف مرة ؟ لأنك تقول القضية المتكررة وفي بؤرة شعورك حاجة ثانية ،

ولذلك يجيء التلميذ في أيام الامتحان تقول له . أنت ذاكرت الباب الفلاني ؟ يقول : لا ، تقول له : إن هذا الجزء سيأتي منه سؤال أكيد فيخطف كتاباً من زميله وهو سائر في ساحة الكلية ويظل يقرأ وهو صاعد على السلم والمتبقي عشر دقائق على بدء الامتحان وينتهي منه بسرعة وبعد ذلك يدخل فيجد السؤال في الامتحان فيضع الاجابة كما هي لماذا ؟ لأنه في هذا الوقت سوف لا يفكر فيما سيأكل في الغداء أو أن فلاناً كلمه أو أغضبه .

المسألة فرصتها ضيقة جداً وليس عنده غير وقت قصير ولكنه ينظر إلى السطور ويضع الإجابة كما هي إذ أن بؤرة شعوره خالية إلا من هذه المسألة .

إذاً أنت حين تستحضر شيئاً ويغيب عنك الجزاء عنه فتقع في الواقعة إذا قلنا أن هناك جبلاً عالياً وفي آخره شجرة تفاح والجبل مصعده وعر جداً لا بد أن تأتي وتلاقي صرعى .

إذاً رؤية الجزاء على الشيء واستحضاره يهون مشقة التكليف ويهون من شهوة المعصية الذي يريد أن يقول أن الطاعة لذيذة يستحضر الجزاء الذي يريد أن يعرف أن الشهوة دانية نازلة يستحضر الجزاء عليها .

ولذلك حينما يقول رسول الله : « **ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن** » فحين يشرب الخمر أو يزني تكون عنده لحظة غفلة . إذن فايماننا بالله يجب ألا يكون به شك وإيماننا بالتوثيق عن الله يجب ألا يكون فيه شك . لماذا ؟ لأن لنا فكراً أسمى من فكر اليونان وأسمى من فكر الرومان لأن إلهنا لم نصوره كما في اليونان يسرق ويزني ويشرب الخمر . إلهنا مستحق لصفات الألوهية الكاملة .

يبقى لنا فكر مثل اليونان تماماً . ولنا أيضاً ثقافات مثل الرومان القديم . لنا توثيق مثل كل الأمم ولكن في حسناتها وليس لنا معايب هذه الأمم .

يقولون أن الأديان الأخرى معذورة في توثيقها هل أنت في شك في توثيق كتابك ؟

إقرأ شهادة خصوم الإسلام نفسه . إقرأ شهادة المستشرقين .

إذ أن إيماننا بالله ليس فيه اختلاف في طبيعته قال فيه بنفسه ومنهج موثق من الله

بشهادة خصوم الإسلام أنفسهم واستشهدت أكثر من مرة بكثير من النصوص حين قالوا إنه ليس في العالم كله كتاب واحد غير القرآن ظل اثني عشر قرناً قاله صاحبه ولم يمس بتحريف بعد . . وفي الأرجح أنه ليس في العالم كله كتاب واحد كالقرآن ظل اثني عشر قرناً كاملة ينص هذا مبلغ صفاته ودقته وأن جامعيه لم يغفلوا أي شيء في جمعه ودقته والذي نستطيع أن نؤكده أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقاً فحسب بل كان كما تدل عليه الوقائع كاملاً ، وأن كل آية في القرآن مضبوطة كما تلاها محمد عليه الصلاة والسلام هذه شهادة الكل . . شهادة المستشرقين ، فإذاً نصنا موثق من السماء إلهنا واحد فما المشكلة بيننا وما الجفوة بيننا وبين الدين إلا أن تكون جفوة مفتعلة . . جفوة مصنوعة من خصوم الإسلام أولاً ولكن عز عليهم أن يجابهوا الإسلام كخصوم له لأنك إذا ما لقيت خصماً فإنك تكون متحفزاً لأنه عدو دينك ، فماذا صنعوا ؟ أحبوا أن يدخلوا إلى الإسلام بالمسلمين أنفسهم وهذا هو الخطر كل الخطر . حين واجهونا عسكرياً هزمناهم . حين واجهونا مبشرين هنا أخذنا كل خيراتهم في ملاجئهم ومستشفياتهم وما ظفروا منا بواحد يأخذونه في دينهم ، فإذاً ماذا صنعوا بعد ذلك ؟

يدخلون بالمسلمين أنفسهم . يدخلون علينا بفتن الاستشراق وفتن الاستغراب أخطر من فتن الاستشراق . وفتن الاستغراب هم الجماعة التي مكنت لهم ظروفهم أن يذهبوا ويأخذوا من علم هؤلاء فجاؤوا إلينا لكي يفهمونا أنهم أصبحوا أمة ثانية وشيئاً آخر ، ورددوا ما قاله لهم هؤلاء وحاولوا محاولات شتى ليأخذوا منا شيئاً ولكن الخميرة موجودة والمناعة موجودة . فماذا هم صانعون ؟ لا بد أن يدخلوا علينا بترف الحياة . لا بد أن يدخلوا علينا بزخارفها حتى إذا ما ألفينا مفاتنها ومظاهرها نحن أنفسنا الذين ننهار وهذا هو الواقع إلا أنني أستبشر خيراً إن شاء الله وما يدل عليه فالداعي إليه فتية وفتيات في جامعة والجامعة من المعلوم أنها تعرف أفكار العالم كله فحين يوجد فتية يقومون بهذا العمل في جامعة في هذا الجو البيئي لمصر والعالمي للدنيا كلها نستبشر للإسلام بالخير ، وقد قرأنا القرآن في قول الحق ﴿ **إنهم فتية آمنوا بربهم** ﴾ ، (الكهف : ١٣) ،والمفسرون كانوا يجهدون أنفسهم في قصة أهل الكهف ليعرفوا أسماءهم وليعرفوا اسم كلب أهل الكهف وأجهدوا أنفسهم ليعرفوا زمانهم وليعرفوا

مكانهم ، وقالوا أقوالاً كثيرة . ولو أراد القرآن أن يقول لنا أسماءهم لقالها ، ولو أراد القرآن أن يحدد مكانهم لحدده . ولو أراد القرآن أن يحدد زمانهم لقال ذلك . ولكن الإبهام في ذلك بلاغة من مقاصد القرآن وقد يكون الإبهام أسمى درجات البيان ، لأنه لو قالها بأسمائهم فالأسماء مشخصات ربما قال قائل هذه الظاهرة لهؤلاء الأسماء بخصوصهم . لو قال مكانهم لقال ربما كان مكانهم يسمح بذلك ، ولكن الحق أبهم الأسماء والزمان وأبهم اسم المكان ليدل على أن الوصف هو المطلوب فالفتية حين تؤمن بربها بأي اسم وفي أي زمان وفي أي مكان ﴿ **فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته** ﴾ إذاً فالحق سبحانه وتعالى حينما يعرض علينا هذه القصة قال فتية لأنهم أقدر على العمل قد يكون الشيوخ أقدر على المعرفة ولذلك الشاعر العربي القديم يقول : أواه لو عرف الشباب ، وآه لو قدر المشيب الاثنين معاً ، فنريد من شبابنا أن يأخذ من معرفة شيوخه أداة حتى تكتمل له المعرفة وتوجد عنده القدرة . حينئذ سيكون علمهم عملاً مبروراً إن شاء الله ومباركاً إن شاء الله . وإن هذه الظاهرة التي نراها في قاعة الجامعة الأم فنرى فتياتنا بمثل هذا الزي المحتشم لدليل على أن نفوسهن أكبر من انحراف المجتمع وأكبر من إغراءات المجتمع وأكبر من سخريات المجتمع بهن ، سيقول الناس عنهن الشيخة فاطمة والشيخة فلانة ويهزأ المجتمع منهن « هزء المجتمع الفاسد شرف » . أنا لا يفزعني سوى هزء المجتمع الفاضل ، أما هزء المجتمع الرذيل فهزء مشرف ، والله عرض علينا هذه القصة عرضاً قرآنياً ، ماذا قال الله في مثل ذلك ؟ قال : ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟** ﴾ وأنا أريد : من فتياتنا القائمين على أمر هذه الجماعة أن يسيروا بخطى مؤمنة وخطى ثابتة لأن الله معهم ، والله لا يريد منا إلا أن نتوجه بقلوبنا إليه ، وبعد ذلك منه المعونة . فالله جعل بمجرد إيمانك به المفتاح في يدك قال : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي فكأنه جعل المفتاح معك . ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً . فإذا أردت أن يتقرب الله منك ذراعاً فتقرب أنت

إليه شبراً ، وإن أنت أردت أن يتقرب الله إليك باعاً فتقرب أنت إليه ذراعاً إذاً المفتاح في يدك بمجرد إيمانك بالله واقبالك بإخلاص على منهج الله حينئذ ستجد المعونة وستجد الرضا وستجد الإشراق ، وأنا أقول له لو عشت فترة من الزمن في إيمان ولم تجد لك نوراً ولم تجد لك إشراقاً فاتهم هذا المنهج وبعد ذلك دع ذلك المنهج ، ولكني واثق بأنك إذا أقبلت على منهج الله وعشت عيشة إسلامية فترة من الزمن فستدرك حلاوة تأسف على ما فاتك من عمرك دونها ، وسيشجعك ذلك على أن توغل في منهج الله الذي يعطيك هذه الحلاوة .

أسأل الله لنا جميعاً التوفيق في كل ما نأتي ، وفي كل ما ندع ، وأن يكفينا شر نفوسنا وأن يعين حكامنا على ظروفهم حتى يعلنوها كلمة مدوية : الله . الله . .

انتهى بحمد الله . وجزى الله عنا شيخنا الجليل كل خير . .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أهوال القيامة

الكافرون بالبعث ولماذا كفروا ؟

اختلف الكافرون في إنكار البعث ، فمنهم من ينكره إنكاراً جازماً ، وهؤلاء صورهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ **أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم المبعوثون أو آباؤكم الأولون** ﴾ . ومنهم من يشك ولا يجزم بالانكار ، وهم المرتابون (إنا لفي شك) . ومنهم من يعلق الإيمان بالبعث على معرفة موعده **(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)** .

والأدلة على قياس الناس للحساب يوم البعث قائمة ، ولكن خطأ الكافرين بالبعث إنما جاء من ناحية منهج التفكير ، وذلك أنهم أرادوا أن يناقشوا الجزئيات العقدية ومناقشة الجزئيات العقدية لا يمكن أن تأتي من عاقل أبداً ، إلا أن يناقش القمة العقدية أولاً .

فنحن المؤمنين بالبعث لم نؤمن باليوم الآخر أولاً ، وبعد ذلك كان إيماننا به سبباً في إيماننا بالله ، وإنما آمنا أولاً ، وحين آمنا بالله ، وقال الله لنا : إن هناك يوماً آخر ، صدقنا ما قال الله . إذن فالمناقشة يجب ألا تكون في اليوم الآخر وقوفاً واستبعاداً واستغراباً وتعجباً ، وكان يجب أن تكون المناقشة في القمة العقدية في الإيمان . تؤمنون بالله أو لا تؤمنون به ، فان آمنتم فالتزموا ، وإن لم تؤمنوا فما الذي يضير إن لم تؤمنوا بما يقوله الله .

إذن فالقمة الإيمانية أولاً هي : أن نؤمن بالله ، فاننا لم نؤمن بالملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر خيره وشره واليوم الآخر إلا أن الله تعالى قال ذلك ، لأنها أمور غيبية ، والأمور الغيبية التي لا تقع تحت الحس لا يمكن أن

نصدقها إلا إذا قال بها من نثق بصدقه ، فإذا توقفت عقولنا في الكيفية نقول : لا ، معرفة الكيفية لا تعني صدق وقوع الحدث أو عدم صدق وقوعه . وقوع الحدث شيء ، وكيفية وقوعه شيء آخر .

ومثال ذلك ما قاله سيدنا إبراهيم لربه : **(أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)** . جاء العلماء فقالوا : كيف يوجد هذا التناقض الظاهري في القرآن ؟ إن الله قال لإبراهيم حين قال لـه : (أرني كيف تحيي الموتى) قال له : (أو لم تؤمن) . فأجاب إبراهيم قائلاً : (بلى) . ومعنى (بلى) آمنت . ومعنى آمنت : اطمأن قلبي إلى عقيدتي بحيث لا تطفو مرة أخرى الى الذهن لتناقش من جديد،فإن طفت العقيدة الى الذهن لتناقش من جديد لا يكون ذلك إيماناً ، ولا تكون عقيدة ، بل تبقى فكرة لا تزال موضع بحث .

فإذا كان إبراهيم قد آمن واطمأن قلبه فلماذا يقول . (ولكن ليطمئن قلبي) . كأن اطمئنان القلب كان مفقوداً فهو يطلبه ، وما دام اطمئنان القلب غير موجود فكيف يقول . بلى . يعني آمنت . ما كان يصح لإبراهيم أن يقول . بلى ، يعني آمنت ، لأن الاطمئنان ما زال غير موجود .

نقول . لا . هذا التناقض الظاهري الذي ظننتموه في الآية إنما جاء لكم من إهمال لفظ في الآية . . وإهمال لفظ أو حرف يغير مجرى الفهم في الآية . إبراهيم لم يسأل ربه ليقول له . أتحيي الموتى ؟ وإنما قال له . (كيف تحيي الموتى) فالسؤال عن الكيفية لا عن أصل وقوع الحدث . فهو مؤمن بأن الله يحيي الموتى ، هذه قضية مسلمة عند إبراهيم ، ولكن المسؤول عنه . أنه يريد أن يعرف الكيفية . فقوله : بلى يعني أنا آمنت بأنك تحيي الموتى ، وهذا هو المطلوب التكليفي من العبد المكلف . أن يؤمن بأن الله يحيي الموتى . أما معرفة الكيفية فهذا أمر لا يضر في العقيدة ، سواء عرفتها أو لم تعرفها ، لأن انتفاعك بالأشياء لا يعني ضرورة فهم كيفياتها .

فالبدوي أو الفلاح ينتفع بالكهرباء في بيته ، لكنه لا يعرف كيف تأتي الكهرباء . إذن فهو ينتفع بالشيء ، ولا يعرف كيفيته ، ومعرفة كيفيته لا تغير انتفاعه وعدم انتفاعه هو ينتفع به كالفاهم لكيفية توليد الكهرباء تماماً .

كذلك الله قادر على أن يحيي الموتى ، وأما كونك تريد معرفة الكيفية فهذه صنعة الإله ، ولذلك فقد لفت الله تعالى إبراهيم لفتة عقدية وكأنه قال له . إن من عظمتي أن أنقل إلى الغير بعض قدرتي ليفعل ، كما يحمل القوى عن العاجز حملاً لا يستطيع العاجز حمله ، ولهذا كان جواب الحق لإبراهيم . (**خذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً**) . . لم يقل . أنا أدعوها لك لتأتيك ، بل جعله هو يدعوها فتأتيه . . إذن أجاب الله بالكيفية على أوسع نطاق من الكرم التعليمي .

ولهذا فالدين يبحث أولاً من قمته الإيمانية ، هو نقاش موضوع الإيمان بالله بمنتهى الحرية العقلية ، وبعد ذلك إذا اقنعت بالإيمان بالله وأنت في كامل حريتك العقلية فلا بد أن تثق بأخبار الله فان وثقت بالخبر من الله وجب الالتزام به . أما أن تناقش أمراً جزئياً وتترك القمة فهذا خطأ في منهج الفكر الديني .

انظر إلى قوله تعالى . (**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك**) أنت صادق عندهم (**ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**) . فقد قالوا في القرآن . سحر ، وشعر ، وكهانة ، كل ذلك قالوه . وبعد ذلك تورطوا فقالوا . (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) . فكأن القرآن أصبح قرآناً عندهم ، لكن الذي أتعبهم ألا يجيء على لسان هذا النبي بالذات . وتورطوا تورطاً آخر يدل على خطأ المنهج في نقاش المسائل الدينية فقالوا . (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) . إذن فقد أقروا بأن ما جاء به رسول الله هو الهدى . . أي إنه رسول الله جاءهم بالهدى . لكنهم خافوا إن هم اتبعوا الهدى أن يتخطفوا من أرضهم . فرد الله عليهم بقوله . (**أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء**) . . إذا كنتم وأنتم كافرون به مكنا لكم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء ، فهل إذا آمنتم به يتخلى عنكم ؟

فلو أنهم بحثوا في القمة ، واطمأنوا إليها ، لما اضطربوا ، ولما شكوا ، ولما أنكروا . . ولما قالوا عن يوم البعث . إنا لفي شك . ولما قالوا . متى هذا الوعد ؟ ولما قالوا . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم لمبعوثون) ؟ ولما تساءلوا

فيما بينهم أو فيما بينهم وبين رسول الله عن النبأ العظيم « (الذي هم فيه مختلفون) .

كان من المنطقي ألا يبحثوا في يوم البعث إنكاراً ، وإنما كان يجب أن يبحثوا في القمة ، وبعد ذلك إذا اطمأنوا إلى القمة يوثقون الخبر . أقال الله ذلك أو لم يقل ؟ وعلى هذه الوتيرة تجد أفكار الكافرين المنكرين تبدأ من الجزئيات . وهو منهج خاطىء .

أسماء القيامة بين اللغة والاصطلاح

سمى الله تعالى يوم القيامة بأسماء كثيرة منها . يوم الدين ، ويوم البعث ، ويوم الفصل ، والقارعة ، والحاقة ، والغاشية ، والصاخة ، والنبأ العظيم ، وغير ذلك من الأسماء .

وطريقة القرآن في الحديث عن القيامة وأسمائها تعني أن الإنسان لا يمكن أن يدرك معانيها الحقيقية أبداً . . فهو سبحانه يقول . ﴿ **الحاقة، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة** ﴾ . ويقول . ﴿ **القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك القارعة** ﴾ . ويقول . ﴿**لأي يوم أجلت. ليوم الفصل. وما أدارك ما يوم الفصل**﴾ويقول. ﴿**يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين** ﴾. . وعلى هذا المنوال يتحدث القرآن عن القيامة بأسلوب الاستفهام الدال على إبهام المعنى على القارىء أو السامع وعلى تهويله وتعظيم شأنه كما سبق في الآيات . ﴿ **ما الحاقة . . ما يوم الدين ما القارعة** ﴾ . وكذلك قوله . ﴿ **وما أدراك** ﴾ . ومعنى هذا . أن معاني القيامة مبهمة على السامع والقارىء تحتاج الى سؤ ال لا يدري الإجابة عنه الا الله وحده .

وكيف يكون هذا الإبهام والجهل بالمعنى من الإنسان والقرآن عربي نزل بلغة العرب ، والعرب يعلمون دلالة ألفاظ لغتهم على معانيها ؟ ما دامت أسماء القيامة من ألفاظ اللغة فقد كان من المفروض أن تفهم معناها ، لأن هذا أساس التخاطب بأي لغة ، فكيف يأتي الإبهام على لفظ تواضع الناس على أنه موجود في لغتهم ، ويتفاهمون به ؟ كأن الحق تعالى يريد أن يدلنا على معنى ، هذا المعنى هو أن

هناك فرقاً بين معنى الألفاظ في اللغة ، وبين المعنى الاصطلاحي المراد من ذلك اللفظ . لماذا ؟

لأن اللغة ألفاظ يعبر بها الناس عن أغراضهم ، فلها معانيها القوية ، بحيث اذا أطلقت فهم المعنى ، لكن قد يأخذ الناس لفظاً من الألفاظ من دلالته اللغوية ليعبروا به عن دلالة اصطلاحية ، فبعد أن كان يعبر عن معناه اللغوي أصبح يعبر عن معناه الاصطلاحي الجديد . مثلاً عندنا علم النحو ، قبل أن يوجد علم النحو كان معنى كلمة النحو هو . القصد . . تقول . سرت نحو كذا . أي . قصدت كذا . ولكن العلماء عندنا وضعوا القواعد أخذوا هذه الكلمة من اللغة ، استعاروها ووضعوها لمعنى جديد ، بحيث اذا أطلقت هذه الكلمة عند أهل علم النحو انصرفت الى علم قواعد لغة . . اذن فكأن المعنى الاصطلاحي يأخذ المعنى اللغوي ويضعه لمعنى جديد . ومثلاً كلمة (الحج) لها معنى في اللغة هو القصد الى شيء عظيم . ولكن الشرع الإسلامي أخذ كلمة الحج من مدلول اللغة ، وخصها بعمل خاص ، بحيث اذا أطلقت في الشرع لا تدل على المعنى اللغوي الأول ، وانما تدل على معنى اصطلاحي جديد هو القصد الى بيت الله في شهر معلوم . اذن فقد تحدد العظيم وأصبح هو الكعبة وحدها .

وأسماء القيامة الدالة على معانيها الحقيقية كالحاقة والقارعة هي الأخرى نقلت من معناها اللغوي الى معنى غيبي . . لأن القيامة غيب ، والغيب لا يمكن أن يضع له الخلق ألفاظاً من عندهم ، لأن وضع اللفظ للمعنى انما يأتي بعد اتضاح المعنى في الذهن ، وما دامت القيامة غيباً فلا يمكن أن تتضح في الذهن ، اذن ليس عندنا ألفاظ تؤدي هذه المعاني الغيبية ، لكن الحق يريد أن يخاطبنا ، فبأي شيء يخاطبنا ما دامت المسائل الغيبية لم تطرأ على بالنا لنضع لها في لغتنا ألفاظاً تعبر عنها . فإذا أراد الحق سبحانه أن يعبر عن هذه المعاني الغيبية وعبر عنها بألفاظ تؤدي معناها الحقيقي فلا يمكن أن تفهم شيئاً ، لأن الألفاظ التي تؤدى معنى الغيب على الحقيقة غير موجودة في لغتنا ، لأن هذه المعاني غير موجودة في أذهاننا .

اذ لا بد أن يخاطبنا الحق باللغة التي نعرفها ، ولكن ينقل هذه الألفاظ من

معانيها اللغوية الى معان تناسب معنى الغيب غير الموجود في أذهاننا ، ليقربها الى أفهامنا ، لا لتعرف حقيقتها . وهذا شأن كل معنى غيبي في القرآن أو السنة . . اذن فقد نقلت ألفاظ القيامة كالحاقة والغاشية والقارعة من معانيها العقدية الى معنى آخر هو يوم الهول والفزع الأكبر الذي لا يستطيع العقل تصوره ولا ادراكه ولا الإحاطة بما يحدث فيه .

كنا تعرضنا للزمان والمكان بالنسبة للانسان . وقلنا : ان الحياة تفاعل بين الانسان والزمان والمكان . وقلنا . ان الزمن يحجب الإنسان عن الماضي ، ويحجب الإنسان عن المستقبل ، والمكان هو الذي يحجب الإنسان عن الحاضر . . يعني الآن في مكة تحدث أحداث . الذي جعلنا لا نعرفها وهي تحدث الآن هو حاجز المكان . . والذي جعلني أجهل ما حدث في هذا المكان الذي نجلس فيه مثلاً من سنة أو سنتين أو عشر سنوات هو حاجز الزمان . والذي يجعلني أجهل ما يحدث في هذا المكان بعينه بعد سنة أو سنتين أو أكثر هو حاجز الزمان أيضاً .

إذن فحاجز الزمان يحجز عني الماضي والمستقبل ، وحاجز المكان يحجز عني الحاضر . هذه الحواجز بالنسبة لعلم الإنسان المحدود الذي تقوم الحواجز بينه وبين ما يريد أن يعلمه ، لكن بالنسبة للحق سبحانه وتعالى فالزمان والمكان من خلقه ، وعلمه وصفته قديمة أزلية ، فعلمه موجود في الزمان وقبل أن يوجد الزمان وقبل أن يوجد المكان ، فعلمه ذاتي ، وما دام علمه ذاتياً والزمان والمكان من خلقه فلا يمكن أبداً أن يتأثر الذات السابق للزمان والمكان باللاحق وهو الزمان والمكان .

فحين يقول الحق : (وما أدراك ما الحاقة . . وما أدراك ما يوم الدين . . وما أدراك ما الحاقة) فمعنى هذا : أن حاجز الزمان يحول بينك أيها الإنسان وبين إدراك معناها ، لأن القيامة وأهوالها أمور مستقبلة ، وليس عند الإنسان أشياء تجعله يفهم ما سيحدث في المستقبل ، لكن الله تعالى الذي استوى عنده الزمان فلا حاضر ولا ماضي ولا مستقبل ، هو الذي يستطيع أن يخبرك خبر القيامة فقط .

إذن فقوله تعالى : ما أدراك . معناه : لا أحد يدريك من أمر هذه المعاني شيئاً ، ولا يدريك إلا من لا يحجبه الزمان ولا المكان . . ومن هنا فقد وصف الله

تعالى ما سيحدث يوم القيامة بما يقربه من أذهاننا ، لا بالحقيقة ، لأن الحقيقة لا تستطيع أن تدركها كما قلنا .

أهوال البعث

يوم القيامة هو يوم الدين ، والله سبحانه هو ملك يوم الدين . ولهذا قال الله تعالى عن يوم القيامة (يوم يقوم الناس لرب العالمين) .

أي إن الملك له سبحانه وتعالى وحده ، والتصرف له وحده ، لأن الحق سبحانه وتعالى في هذه الدنيا غيب وراءه أسبابه الظاهرة ، ولكن الآخرة لا أسباب فيها ، إذن فهو وحده المباشر للعمل دون أسباب . . ونحن نتناول الأشياء بأسبابها ، ولكن الأسباب ستظل يوم يقوم الناس لرب العالمين (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) أي بعد أن كان هناك مشاهد سببية يختفي وراءها القيوم سبحانه وتعالى أصبح يوم القيامة لا يوجد إلا هو وحده دون أسباب .

ولا شيء يحجب القلب عن عظمة القيام لرب العالمين إلا غفلة الإنسان عن شريعة الله حتى ترين الذنوب على قلبه فتحجبه عن صفاء الإدراك . فالقلب بفطرته الصافية النقية السليمة يمكن أن يهتدي إلى منهج الحق وحده ، والذي يحجب القلب عن فطرته وبشره هو . أثر البيئة ، وأثر الغفلة ، ويأتي الإنسان أمام شهوة من الشهوات فيغفل عن بعض المنهج ، وبعد ذلك يأتي مرة أخرى ، فيتبلد القلب وينحجب عن إدراكِ المراد من الوقوف والقيام لرب العالمين وعلى سبيل التهديد ـ دون انفعال ـ يقول الله تعالى منبهاً هؤلاء الغافلين . (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) فالذين يقولون . (متى هذا الوعد) يريدون أن ينفعل الله تعالى لاستعجالهم فيعجل لهم اليوم عن وقته الذي حدده . والله تعالى لا ينفعل لذلك لأن الانفعال تغير ، والحق لا يتغير . وفي الوقت المحدد سيكون يوم الفصل بين الحق والباطل وأول هول يحدث هو النفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم ليوم الفصل ، كما قال تعالى . (يوم ينفخ في الصور فتأتونَ أفواجاً) . . ومع قيام الناس على هذه الصورة .

ويصحب هذا المشهد انقلاب هائل في السماء والأرض على السواء . قال

تعالى . ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ . لأن الأرض والسماء الموجودتين هما سماء وأرض معاش ، وهناك أرض وسماء معاد ، والفرق بين أرض وسماء المعاش وأرض وسماء المعاد أن أرض المعاش فيها ادخار لأسباب ، وعالم العلل ، وعالم المعلولات ، ولكن في الآخرة لا أسباب ولا علل ولا معلولات ، إنما بمجرد أن يخطر الشيء ببالك تعيش بقدرة السبب في (كن) إذن دنيا العناصر والمطر النازل من السماء ، والحرارة التي تبخر الماء إلى آخر ما في الدنيا من الأسباب لا لزوم لها في الآخرة ، لأنه يوم فيه (تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) ، فلا بد أن يحصل للسماء والأرض في ذلك اليوم انقلاب رهيب يتناسب مع عظمها واتساعها ، فالسماء تمور . . . وتنفطر . . وتنشق ، ويحدث فيها كل ما يؤدي إلى زوالها ودمارها ، لقائي السماء الجديدة والأرض الجديدة .

وقد عبر القرآن عن كل ما يحدث في السماء والأرض من ظواهر الدمار والفناء فقال في شأن السماء : (وفتحت السماء فكانت أبواباً) . ومعنى أن السماء محبوكة الان وليس فيها فتحات . قال تعالى : ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ . (ثم ارجع البصر كرتين هل ترى من فطور) أي شقوق وفتوح . .

وفي آية أخرى يقول الله تعالى : ﴿ **اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت** ﴾ . وفي سورة الطور يقول تعالى : ﴿ **يوم تمور السماء موراً** ﴾ . ثم يقول تعالى : ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل وهو الزيت الذي يغلى . فالشمس تتكون وتتغير عن هيئتها ، والنجوم تنكدر ويخبو ضوؤها ثم تموج السماء . ثم تنشق السماء . وتموج وتنصهر** ﴾ .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ **إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت**) . . وفي أخرى يقول تعالى : ﴿ **يوم تشقق السماء بالغمام** ﴾ . فالسماء تنشق ، وتنفطر وتمور ، هذا ما يجب أن تؤمن به ، أما كيف تنشق وكيف تنفطر وكيف تمور ، فهذا ليس مهماً أن تعرفه ، الذي يجب أن تعرفه أن السماء ستخرج عما ألفناه فيها ، وتنتهي الى أمر لم نعهده ، وتخرج عن رتابتها ، ويخرج الكون كله عن رتابته .

والسماء وكل مظاهر الكون مجبور في هذا اليوم على ما سيحدث والله تعالى يقول في ذلك عن السماء : ﴿ **وأذنت لربها حقت** ﴾ . أذنت يعني استحقت ، والأذن هي آلة الاستماع ، والاستماع نوعان . تستمع وأنت حر في أن تطيع ، وتستمع وليس لك خيار في ألا تطيع ، فالمستمع قسمان . قسم له خيار خيار يقول . (سمعنا وعصينا) وقسم ليس له خيار يقول (أتينا طائعين) ، والكلام هنا عن السماء ، فأذنت يعني استحقت. قال الشاعر :

صم اذا سمعوا خيراً ذكرت به   وان ذكرت بسر عندهم أذنوا

يعني استمعوا . والسماع هنا ممن لا يستطيع أن يعصي ، فالمعنى أن السماء انقادت ، وبمجرد ما سمعت فليس لها خيار ، وحق لها ذلك ، لماذا ؟ لأنها استحقت ممن لا تملك معه خيار ، ومن القادر على إنفاذ ما يراد منها ، وعلى هذا فمعنى (أذنت) انقادت على الفور ، لأنها استحقت من ربها ، وما دام الاستماع من السماء ، والسماء لا خيار لها في أي أمر ، بل هي مسخرة مجبورة مقهوة على تنفيذ ما يراد منها ، فمجرد السماع كاف،فالمعنى أن السماء تنقاد لمراد الله ، وحق لها ذلك ، لأنها ليس لها خيار مع خالقها ، بل هي مخلوقة على هيئة الانصياع والامتثال .

وثاني المظاهر ما يحدث في الأرض . . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الانشقاق : ﴿ **وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت** ﴾ . . والعرب عندهم عبارة كانوا يقولونها هي : مددت الأديم . ساعة يكشطون الجلد عن الذبيحة يتركونه لكي ينتفعوا به ، فيدبغونه ليكون مصلى أو فراشاً مثلاً ، ولما كانوا يدبغونه على الطريقة البدائية كانوا يتركونه في الشمس فيتقلص وتحصل فيه (كرمشة) يعني نتوء . وأنت حينما تجيء بشيء مبسوط واسع وتكرمشه تقلل حيزه وحجمه على الأرض . فاذا فردت الكرمشة يمتد ثانياً ، لأن الكرمشة كانت قد أحدثت ارتفاعاً وانخفاضاً ، فلما يمتد يتسع وينبسط . كأن الحق تعالى يقول : إن الأرض يوم القيامة ستمتد ، والنتوءات والقمم العالية ستنبسط ، وقد شرح القرآن الكريم هذا المعنى في آية أخرى فقال تعالى : ﴿ **فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً** ﴾ .

وتبقى حينئذ مدت واتسعت لكي تسع المحشر كله ، لأنها ستسع الناس

وقوفاً ، وليسوا وقوفاً لضيق المكان ، بل المقصود أننا نكون واقفين لا نستريح ولا نجلس إلى أن يجيء دورنا .

وتلقي الأرض كل ما في باطنها من الموتى كما قال تعالى : ﴿ **إذا القبور بعثرت** ﴾ . كما تلقي كل ما في باطنها من الكنوز والدفائن والأرزاق التي كانت أسباباً للحياة بعد انقضاء عالم الأسباب ، وقد شمل الله تعالى كل ذلك بالبيان في قوله : ﴿ **وألقت ما فيها وتخلت** ﴾ .

وثالث الأهوال ما يحدث في الجبال . . وفي مسألة الجبال هذه أخذت حظاً واسعاً في القرآن ، فقد وردت فيها تسع وعشرون آية ، منها إحدى عشرة آية تتعلق بأحوال الجبال يوم القيامة .

وأجمع الآيات في وصف ما يحدث للجبال يوم القيامة قوله تعالى :﴿ **وسيرت الجبال فكانت سراباً فالجبال وهي أثبت شيء يراه الإنسان على الأرض ، يراها راسخة يشبه بها كل ثابت وراسخ فيقول : راسخ كالطود . والسراب الشيء الذي تتوهمه شيئاً وليس بشيء . يعني أصبحت هباء ، ولم يعد لها وجود .**

وإذا تتبعنا عملية تسيير الجبال في القرآن الكريم وجدنا الحق تعالى يقول في سورة التكوير : ﴿ **وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت** ﴾ . وفي سورة الكهف يقول :﴿ **ويوم تسير الجبال وترى الأرض بازة وحشرناهم** ﴾ . وفي سورة الطور: ﴿ **يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا** ﴾ . وفي سورة النبأ : ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سرابا** ﴾ : فكلمة تسيير الجبال جاءت في أربع سور ، إلا أنه في السور الثلاث لم تتعرض إلى ماذا تصير إليه الجبال بعد التسيير ، لكن في سورة النبأ ذكر نهاية التسيير بقوله : ﴿ **فكانت سرابا** ﴾ . فكأن نتيجة التسيير أنها تصير سراباً . . إذن هناك عمليتان : تتحرك الجبال من أماكنها ، ثم تصير سرابا .

وهل تسيير الجبال هو عين نسفها الذي جاء في بعض الآيات لقوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً . فيذرها قاعاً صفصفاً** ﴾ .

أيضاً الجبال تعرض لها القرآن من حيث النسف . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً** ﴾ كثيباً يعني : رملاً

مهيلاً : منها لا بعد ما كان متماسكاً . الرمل غير المتماسك يبقى في مكانه أم لا . نعم يبقى إذن هي ليست سراباً في هذه الآية ، لأن السراب معناه : شيء غير موجود . لكن قوله تعالى : ﴿ **كثيباً مهيلاً** ﴾ يدل على التفكك والتفتت ، فالرمال لا تعطي العملية الأخيرة . هذا ما في سورة المزمل .

وفي سورة المرسلات : (وإذا الجبال نسفت) . إذن فقد تعرضت الجبال للنسف . وفي سورة الواقعة : إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثاً . يعني تفتت الجبال . .

إذن هناك نسف ، وهناك تسيير ، والتسيير جاء في سورة النبأ مقترناً بالنتيجة . وهي أنها بعد التسيير تصير سراباً . لكن النسف معناه أنها تفتتت. هذه هي عملية النسف . . فالمعنى إذن أن النسف هو التسيير ، أو أن النسف لبعض الجبال والتسيير لبعضها الآخر ، وذلك لاختلاف طبيعة الجبال ، واختلاف طبائع الجبال يجعل الحالة التي تؤول اليها لتصير إلى عدم تأخذ صورتين : صورة تسيير . وهذا قد ذكرناه ، وصورة نسف .

وحديث القرآن عن النسف الحادث للجبال كما في قوله تعالى :﴿ **يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن** ﴾ . . ومرة أخرى يقول : ﴿ **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ . . والعهن هو الصوف الملون . . والمنفوش يعني . المندوف .

لكن هل الجبال لما تبقى كثيباً مهيلاً . فهل تماسك الرمل مثل تماسك الرمل مثل تماسك الصوف . فالجبال إذن ستتعرض لعمليتين اثنتين : تسير فتصير سراباً ، وبعد ذلك نسف . وبعد ذلك عملية النسف ستجعلها كثيباً مهيلاً . ولا بد لها من عمليات تزوية أخرى ، لأنها لو ظلت كثيباً مهيلاً لما تحقق مدها وبسطها . . إذن تصير كالعهن المنفوش ، ثم تصير سراباً .

والكل إلى زوال ، لأنه لم يعدلها مهمة ، لأننا في الآخرة كما قلنا لن نعيش بالأسباب ، ولا بالعلل ، ولا بالمعلولات، ولا بالمقدمات والنتائج ، ليس لنا مجهود أبداً ، سنعيش بآثار قوله تعالى (كن) من الحق سبحانه وتعالى مباشرة دون أي سبب من الأسباب .

والخلاصة أن القيامة يوم يلف الإنسان من جميع نواحيه بالدواهي العظام . وقد عبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله : ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ . استفهام دال على أنها أمر عظيم جداً يجب ينتبه له الإنسان ، لأن مادة الغاشية تدل على الداهية العظمى . التي تغمر الإنسان من جميع نواحيه كما قال تعالى : ﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ .

الناس . . . والحساب

صور القرآن الكريم فزع الناس يوم القيامة في آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى :

﴿ **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى** ﴾ .

وقوله : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه** ﴾ .

وقوله : ﴿ **مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء** ﴾ .

ولكن التصوير الذي يدع الخيال يذهب بالإنسان كل مذهب هو قوله : ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** ﴾ .

الناس مفردها إنسان . الناس الذين هم أعظم جنس في الوجود يمثلهم الله في ذلك اليوم بأتفه شيء في الوجود وهو الشيء الذي يتطاير حول الضوء ، عندما تضيء مصباحاً في خلاء نجد أشياء دقيقة تتهافت على المصباح ، ويمكن أن تلتصق وتموت . هذا هو الفراش . الفراش المبثوث . يعني المنتشر ، تجد فيه اضطراباً وحركة على غير هدى ، فذلك هو ما يحدث للإنسان المتوازن الذي هو سيد هذه الأجناس ، يصبح كأتفه شيء في الوجود .

الناس الذين هم أرقى الأجناس ، الذين يتصرفون في الجماد والنبات والحيوان ، ولهم قدرات علمية وسيطرة وغرور بامكانياتهم يصبحون كالفراش المنتشر ، فراش يعني شيء تافع وفيه اضطراب على غير هدى ، لا شيء يضبط حركته ، وما دام فيه اضطراب ، وهو يصير على غير هدى ، فلا بد أن يكون هناك هول ، وهذا الهول هو الذي أفقده كل شيء .

وأيضاً يدلنا هذا التعبير على الاختلاط ، ليس كل قوم لهم مكان خاص يقفون فيه ، ولا لكل أمة حاجز يحجزها عن غيرها من الأمم ، ولا للرجال مكان غير مكان النساء ، أبداً ، (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) . المسألة اختلطت (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) كل واحد ذهل عن مكانه ، كل واحد ذهل عن عظمته ، كل واحد ذهل عن مقوماته (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) . لأن هناك طامة كبرى . .

وتشبيه الناس بالفراش في القرآن مثله تشبيه الرسول ﷺ الناس بالفراش في قوله : « إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ، فجاء الذباب والفراش يتهافت على النار » . فطبيعة الفراش عندما يرى ضوءاً يأتي عليه « وأنا آخذ بحجزكم » يعني الذي يتهافت على النار أشده بعيداً عنها ، « ولكنكم تفلتون مني » . يعني أنا أريد أن أنجيكم من النار ، ولكنكم ، تتحايلون علي لكي ترتموا في النار . . أنا منهجي يبعدكم عن النار ، إنما أنتم تتحايلون لكي تذهبوا إلى النار ، يعجبكم البريق ، ولا تدرون العاقبة ، والمحتالون على التكليف يفهمون أنهم يذهبون إلى شيء معجب ، وفي الحقيقة هم يذهبون إلى شيء معطب .

وبعد ذلك تأتي مرحلة الحساب . وكلنا سيعرض للحساب ، هذا هو منطق العدل ، منطق العدل أننا جميعاً سنحاسب ، لأنه لا يوجد أحداً أبداً صفحته خالية . لكن الحساب سيكون على نوعين : حساب لعرض زلات الإنسان ، يقول لك الله تعالى : ﴿ **هذه وهذه وهذه ، لكني غفرتها** ﴾ . ولذلك قال الرسول ﷺ للسيدة عائشة : « ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب هلك » . فالخوف ليس من الحساب ، وإنما الخوف من مناقشة الحساب . أما العرض فلإظهار نعمة الامتنان بأنك عملت وعملت والله ترك لك ذلك .

ويقول الله تعالى في ذلك : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسروراً** ﴾ . هذا هو السرور ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره** ﴾ . وهناك آية تقول : (بشماله) . وهو سيأخذ من وراء ظهره بشماله ، خجلاً حتى من الذي يناوله الكتاب (فسوف يدعو ثبوراً) . والثبور الهلاك . يعني يقول : يا هلاك تعالى إلي ،

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا

أي إن الشقي يرى أن الموت خير له من هذا الموقف ، خير له من الهول الذي يراه .

وهناك وزن الأعمال (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) . (فأما من ثقلت موازينه . . . وأما من خفت موازينه) .

والميزان آلة لضبط الحقوق ، ومعنى آلة لضبط الحقوق أي في الماديات . . ويلاحظ أن العلماء قالوا : أهو ميزان له كفتان كميزان الدنيا له لسان وكفتان ولسان ؟ أجمع العلماء على أنه ميزان يناسب مقامه وبهذا الشكل وله كفتان . . الخ .

وهل الأعمال أمور مادية بحيث توزن . لا ، أبداً . ولكن لا مانع من أن يجعل الله تعالى للأمور المعنوية شيئاً له ثقل ، لأن الحق سبحانه وتعالى أعطى في التمثيل المخيف للموت الذي هو المعنوي قال : ثم يأتي بالموت في صورة كبش فيذبح . إذن المعاني قد تتمثل في أشياء لها وزن ، والمعاني التي نعملها كلها تتجسم بأشياء لها وزن .

وبعد ذلك فهذا الميزان يقتضي كفتين ، ويقتضي أن الشيء الموزون يوضع في كفة والصنج في كفة أخرى ، معنى ذلك أنه يبقى عندي حساب مرتين : خير يوزن إلى شيء ثابت ، وشر يوزن إلى شيء ثابت ، وبعد ذلك تقارن بين الأثنين . أنا أزن إلى شيء ثابت ، لماذا إذن إلى شيء ثابت ؟ لأنني عندما أحضر الكيلو آخذ مقابلة سلعة . لكن عندي هناك الذي تزيد حسناته على سيئاته وبالعكس .

إذن فالقياس بالنسبة للموازين هناك نسبة حسنات إلى سيئات، فمدار الوزن على مدى النسبتين لبعض ، فأنظر ما هو الأثقل ، وأوفر على نفسي الميزان الثاني ، إذن أنا أعمل عملية واحدة ، لماذا : لأن الموزون المقابل أنا لا أريده حديداً ، وأنت لا تريده حديداً ، فما دمنا سنرى النسبة لهما فنحن نضع الحسنة في مكان والسيئة في مكان ولا نطيل على أنفسنا إجراءات الموازين .

إذن ما دامت نسبتهما ثقل الحسنات أو ثقل السيئات فهما بالنسبة لبعضهما ، فلا يعنيني أن أعرف تقييم وزن الحسنات في ذاته ولا تقييم وزن السيئات في ذاته ،

وإنما أعرف تقييم وزن الحسنات بالنسبة للسيئات .

والحق هنا حينما تعرض للكلمة الميزان ولعملية الوزن قال : (ثقلت موازينه : خفت موازينه) . والعملية الميزانية عقلياً لا بد لها من ثلاث مراحل ، لأن هذه الكفة ستثقل والكفة الثانية تخف وهذه تثقل . . أو يصيران متساويين . . فجاء بخفت وثقلت ولم يأت بالقسمة الفعلية في تساوت . . لم يقل : حينما تتساوى ماذا يحدث .

هناك في سورة الأعراف قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلًا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ . لماذا ؟ لأن هناك قضية ، هي أن الرحمة سبقت الغضب ، مسألة التساوي ستؤول إلى مسألة الرجحان ، مسألة تساوي الحسنات والسيئات . . إذن مسألة تساوي الكفتين داخلة في ﴿ **أما من ثقلت موازينه** ﴾ . . عندما ثقلت وخفت بقيت (تتساوى) . التساوي عندنا يعني قضية أن الرحمة سبقت الغضب . . وما معنى أن الرحمة سبقت الغضب .

إن الرحمة إذن استوجبت رحمة واستوجبت غضباً ، إذن الرحمة لها المقام الأول ، وعند التساوي تزيد الرحمة ، (لم يدخلوها وهم يطمعون) . . إذن تصير إلى ماذا .

كان عندنا هنا ﴿ **فأما من ثقلت في الواقع ، وأما من ثقلت بالإلحاق**﴾ . إذن قول الحق : (**وأما من خفت**) يعطينا صورتين . هما صورتان في الواقع ، ولكن في عملية الإلحاق ستصير هناك ثلاثة صور ، لأن التساوي في الكفتين سيؤول إلى أن الرحمة تسبق الغضب ، إذن الرحمة تأتي في الميزان المتساوي فتجعله ثقيلاً . . إذن قوله تعالى : ﴿ **فأما من ثقلت موازينه** ﴾ . أي ثقلت واقعاً وحقيقة أو إلحاقاً بواسطة عنصر الرحمة حين تتدخل في عملية التساوي .

وسواء كان الميزان حقيقياً مادياً والأعمال مادية فلماذا لا يبقى الميزان عملية معنوية أيضاً . سئل الإمام علي رضي الله عنه : أي مقدار من الزمن يتسع لحساب الله لكل الناس ، أيحاسبهم مرة واحدة . قال : نعم ، كما يرزقهم مرة واحدة ، وليس رزق واحد بشاغله عن رزق الآخر ، لأن الطاقة إنما تنشغل إذا كانت

محدودة . ولكن الطاقات غير المحدودة تعمل هذا وهذا وهذا . سبحان من لا يشغله شأن عن شأن .

وإذا كان هناك ميزان مادي فهذا صحيح . لكن سيحصل فيه عملية وهي نقل الأعمال المعنوية إلى مادية . ولماذا لا نعمل الميزان وننقله إلى معنويات . يصح هذا ما دام فيه عملية نقل لأعمال معنوية . وأنت تقول : ما دام هناك ميزان مادي فهناك تصور الأعمال لأشياء لها ثقل . وما دام سيحصل التحويل في شيء فلماذا لم يحصل التحويل في شيء واحد وهو الميزان بأن يكون أمراً معنوياً .

والمراد : إقامة العدل بالقسطاس ، وسنضطر إلى أن ننقل الأعمال من معنويات إلى ماديات ، والأعمال كثيرة ، فمن الأولى أن نفهم أن الميزان أمر معنوي ، والمراد به إقامة العدالة المطلقة . . إذن ننظر ما هو الأدق . . إن الميزان إذا كان أمراً معنوياً لا يؤمن فيه الهوى . أما إذا كان أمراً مادياً فالناس يقولون : وش الميزان حديد. يعني لا يستحي . . إنما عندما يكون الحكم في المعنويات لا تستطيع أن تدقق في معرفة العدل المطلق . . فكأن العدل المطلق نقل شيء هو الجماد الذي لا يجامل ولا عنده عواطف ولا أي شيء وإعطائه الأمر بالدقة .

ولذلك فنحن في موازيننا عندما نريد عمل شيء دقيق كأن نزن شيئاً له قيمة فاننا نزنه بميزان حساس . لماذا ؟ لأن هذا الميزان الحساس يكون الاختلاف فيه في أقل شيء له قيمة ، إنما عندما أزن برتقالاً أو ملحاً أو باذنجاناً فيزيد جراماً أو جرامين فلا يهم . إنما الواحد من عشرة من الجرام في الأشياء الثمينة له قيمة .

عندما يجلس القاضي نضع فوق رأسه صورة ميزان . هل هو يزن أشياء لها ثقل ، لا ، بل أشياء معنوية . . ولكن الميزان يذكره بأنه يدخل في المعنويات كما يدخل هذا الجماد بلا هوى منه ، ويعني الحق ، ويعني ألا تكون عاطفته مائلة فهذا الميزان الحديد لا يجامل هذا ولا ذاك، فكأنا نقول له : كن في عواطفك مثل الحديد ، وإياك أن يكون لك هوى ، وهذه مسألة دقيقة بالنسبة للتكوين البشري . ليس سهلاً على الإنسان أن يكون كذلك . ولذلك كان كثير من الناس يقدرون هذه المسألة فيمتنعوا عن القضاء لا لأنه لا يريد أن يقضي بين الناس ، بل لأنه لا يقدر أن يكون بدون هوى ولا عواطف ، لأن العواطف لها تأثير .

مثلاً نجد واحد ذهب إلى الخليفة وقال له : يا أمير المؤمنين أعزلني عن القضاء. فقال له: لماذا ؟ وهل نجد أعدل منك ؟ فيقول: يا أمير المؤمنين، شاع عني عند الناس أني أحب الرطب ، فبينما أنا في البيت إذ طرق طارق ، فخرج خادمي وعاد إلى بطبق من الرطب ، وكان في بواكيره ، فانظر إنساناً يحب الرطب وقد جاءه الرطب في بواكيره ، فانظر ما شكله فلما رأى الرطب قال لخادمه : من الذي أحضره ؟ قال : رجل . قال : صفه لي . فوصفه ، فقال : رده إليه ، فرده ، لماذا رده ؟ لأنه عرف أن رجلاً بهذه الصفة له قضية عنده. فلما أصبح وجلس للقضاء إذا بالرجل وخصمه ، فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا في نظري رغم أني رددت الطبق ، فما بالك لو كنت أخذته .

فلما الميزان يخرج فالمسألة ليس فيها عواطف أبداً إذن فالعدالة مضمونة . ميزان من حديد وكفتان من حديد ولسان من حديد وذراع من حديد ليس له عواطف ولا أي شيء .

إذن ثقل الموازين وخفتها يوم القيامة سواء فهمناها بأنها ميزان الحق والعدل أو فهمناها بأنها ميزان مادي . . إن فهمنا أنه ميزان مادي فقد فهمنا المراد وهو أنه لا يجامل . وإن فهمنا أنه العدل والحق فلماذا جاء بكلمة ميزان ؟ جاء بها ليذكرنا بأن الميزان حكم محكوم بأنه لا هوى له مطلقاً ، لأن الهوى إنما ينشأ من العواطف من الميول ، والحديد والجماد لا عواطف له وميول ، فكل واحد يأخذ حقه لا محالة .

طريق الأمان . . وطريق الخسران

إذا عرف طريق الخسران عرف طريق الأمان . وقد أجمل الله تعالى طريق الخسران في قوله تعالى : ﴿ **ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر** ﴾ .

ما الذي ألهانا عن تلك الموازين ، وعن تلك النهاية ، فانشغل الإنسان عن الأعمال التي تثقل موازينه ، وتلهى بالأشياء التي تجعل موازينه خفيفة . وتلك هي الغفلة . وذلك هو النوم . وذلك هو الغباء . . وهذا تحذير من الله تعالى عن تضييع مطلوبات الله تعالى من الإنسان في الوجود .

والقرآن يستغل بعض الأحداث لإبراز هذا المعنى ، فيجعلها مناسبة لعرض

هذه الصورة . . لا يلقي القرآن الكلام إلقاء نظرياً ، بل ينتظر القرآن إلى أن يأتي حدث من الأحداث يجعل للصورة موقعاً في مطلوب الحدث .

يحدثنا المؤرخون والمفسرون أنه فعلاً حدث ذلك . حدث أن تكاثر قوم من بني عبد مناف مع قوم من بني سهل. ولا يقال فلان تكاثر مع فلان إلا إذا كان فلان تكاثر أيضاً عليه فأنا أكاثرك وأنت تكاثرني . فكل واحد منها فاعل ومفعول . وتكاثر القوم أي كاثر بعضهم بعضاً .

والحق يقول : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ . . أي الصادر منكم جميعاً . كل واحد يكاثر الآخر ، وكاثره تأخذ معنيين . . المعنى الأول : أن تكاثره بما وقع عندك من النعيم وأن يكاثرك بما وقع عنده من النعيم . . يقول : مالي أكثر من مالك ، آبائي أكثر من آبائك ، ولدي أكثر من ولدك . . أو التكاثر بمعنى أن تصرفوا جهودكم في أن تكونوا أكثر من الناس أشياء فتستقبلوا أعمالاً تريدون بها أن تكاثروا الغير . فعلى المعنى الأول المتكاثر فيه يكون موجوداً ، وعلى المعنى الثاني يكون التكاثر مطلوباً . . فالذين يتفاخرون بما عندهم هو المعنى الأول ، والذين يطلبون أن يكونوا أكثر من غيرهم هو المعنى الثاني . هما مرادان من القرآن .

والإلهاء : أن يوجد شيء يسيطر على فكر الإنسان فيجعل غير المطلوب منه أهم من المطلوب ، فيوجه طاقته إليه ، واللهو يقترب من اللعب ، لأن اللعب أن تشتغل بشيء تافه ليس فيه غناء ، وتترك شيئاً آخر .

وبما أن الإنسان حينما يستقبل الحياة لا يكون مكلفاً أول الأمر ، فأول ما يبدأ أمره يبدأه باللعب ثم ينشأ اللهو بعد التكليف، ولذلك يقول القرآن (ألهاكم) لأن اللهو يكون في منطقة التكليف ، لأن فيه مطلبو منك شغلت نفسك عنه .

والحق سبحانه يقول إن التكاثر قد ألهاكم ، وظللتم صامدين في هذه الغفلة مخمورين محزوين عما طلب منكم (حتى زرتم المقابر) . . ما معنى زرتم المقابر ؟ ربما كانت له صورة واقعة ، بحيث أنهم تفاخروا بالأحياء حتى انتهى التفاخر بالأحياء إلى أنهم ذهبوا ليتفاخروا أيضاً بمن في القبور . أي كان تكاثرهم أداهم إلى أن يزور القبور وليمضوا إلى تكاثرهم بالدنيا تكاثراً كان موجوداً ثم مات . . أي أن الإلهاء بلغ بكم أن شغلتم به كل الوقت فوجئتم بالموت يعني

ظللتم طول حياتكم في تكاثر حتى شغلتم بالموت .

والعربي يستقبل القرآن بايحاءاته وخلفياته المعبرة ، فحينما سمع هذه الآية قال : نعي الناس إلى أنفسهم ورب الكعبة . والله لقد قامت القيامة ، فالموت ليس نهاية الأحياء ، إنما هو مرحلة يأتي بعدها أمر آخر ، وسيعيشون ثانية ، وفترتكم في هذه القبور قصيرة مثل فترة الزيارة ، لأن الزائر غير مقيم .

واللهو هنا عن المصير ، والذي يوجب اللهو عن المطلوب هو عدم استحضار الجزاء واضحاً في النفس ، والنفس تراه ، فلا يمكن أن يلهو إنسان عن مطلوب منه ، ولا يمكن أن يعصي إنسان أبداً .

والرسول ﷺ يبين سبب الغفلة بقوله : « لا أرى يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » . هو يقين ، ولكنه يقين فيه قليل من الشك ، ولو لم يصحبه الشك لكان الإنسان دائماً يستحضر الموت ، ولو استحضروا الموت لما غفلوا ابداً .

بسم الله الرحمن الرحيم

عَذَابُ النَّارِ

جــزاء وفــاق

يقول الله تعالى فيعذاب الكافرين في الآخرة : (جزاء وفاقا) . . . أي موافقا لما عملوه في الدنيا من موبقات . . وكلمة (وفاقا) تمنع العاطفة الحمقاء التي تحدث لبعض الناس حينما يسمعون عن عذاب يصيب بعض الناس ، فتتحرك هذه الرحمة الحمقاء لتقول : هذا عقاب قاس . . فالحق سبحانه وتعالى يعرض الأسباب الموجبة لذلك العقاب ويقول : لا تظنوا أننا أسرفنا في عذابهم ، بل إن ذلك الجزاء موافق لما فعلوه ولما قدموا (إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا) . .

فالجزاء الذي يناله المجرمون إنما استحقوه لأمرين : الأول أنهم كانوا لايرجون حسابا كيف لايرجون حسابا ؟ لأنهم لايؤمنون بالمحاسب ، أو يؤمنون بالمحاسب ولكنهم يتعجبون كيف نعود ثانية بعد أن كنا عظاما ورفاتا : (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) إما لأنهم لا يؤمنون بالمحاسب وهو الحق ، وإما أنهم يؤمنون به ولكن يستبعدون أن يعيدنا ثانية . وكلمة (لا يرجون حسابا) هذه مبدأ ، وإذا استقرت كل فساد في الدنيا وجدته ناشئا من هذا المبدأ .

متى يفسد المجتمع ؟ حين لا يرجو أعضاء المجتمع أو لا يتوقعون حسابا على تصرفاتهم . فحين يكون المجتمع فيه هذه الصفة ، وهي أنه لا يتوقع حسابا على تصرفاته ينطلق كل من فيه في حركة حياته كما يحب وكما يشتهي وكما يهوى . إذن فالضامن لصلاح المجتمع بعينه هو الضامن لصلاح الآخرة . . إذا كان هؤلاء حصل لهم هذا لأنهم (كانوا لايرجون حسابا) إذ فعدم توقع الحساب من الإنسان يجعله ينفلت في حركة حياته غير متقيد بنظام قيمي ولا بنظام عقدي ، لأنه لا يتوقع حسابا .

كذلك في الدنيا متى يكون الفساد فيها ؟ حين لا يتوقع المجتمع حسابا . أما إذا توقع المجتمع حسابا فحين يتذكر كل إنسان أنه سيحاسب على تصرفاته فان المجتمع سينتظم ، ومتى لم يتوقع المجتمع حسابا إما لأنه وليه وحاكمه غافل لا يأخذ باله من التصرفات ، ولا يوقع جزاء على الجرائم ، فان المجتمع يفسد أو لأن المجتمع لا يحاسب صاحب الجريمة ، أو لأن نفس الانسان لا تحاسبه على ما اقترف . . يبقى المحاسب سيكون في المجتمع ثلاثة أشياء : إما الحاكم الذي نصبه الله ليقيم حدوده فيه ، وإما المجتمع ، وإما النفس .

وهذه الثلاثة لم يهملها القرآن ، ولكن القرآن يحتاط للجريمة قبل وقوعها ، بحيث لا تقع على عين الحاكم ، ولا عين المجتمع . . فان لم يكن للانسان وازع من نفسه يقول له : إن عميت عن قضاء الأرض فلن أعمى عن قضاء السماء . . إذن فالعاصم النهائي الذي يستوعب كل هذا هو أن يعتقد الانسان أنه محكوم أمام عين خبير لا تخفى عليه خافية . . ولا يستطيع أحد أن يستتر عنه . وأن كل إنسان مردود إليه ليحاسبه .

فهبني أفلت من جزاء المجتمع ومن جزاء الحاكم ، وضميري قد تبلد ، ماذا يكون الموقف ؟ الموقف أنه لا يكون عاصم من الشر ولا من الفساد إلا وازع الدين والايمان بالله رقيبا وحسيبا ، الذي لا تخفى عليه خافية ، وإني لا محالة واقف أمامه . هذا يجعل الانسان لا يفكر مجرد تفكير في الشر . . لكن الحاكم أو الضمير أو المجتمع ممكن أن ينفلت منها الانسان .

إذا نظرنا إلى قوله تعالى : (لا يرجون حسابا) وجدنا الذين لايرجون حسابا في الآخرة يفسدون الفساد الأصيل ، من القمة كفرا بالله إلى أصغر الصغائر . . أما في الدنيا فأيضاً الفساد لا يتأتى إلا إذا كنا لانرجو حسابا . هب أن مجتمعا من المجتمعات وجد فيه حاكم إلا أن الحاكم غير عادل ، ومعنى غير عادل أنه يخص طائفة بأنه لاينفذ عليها القوانين وطائفة ينفذ عليها القوانين . بالله إذا رأيت طائفة تنفذ عليها القوانين وطائفة لا تنفذ عليها القوانين ماذا يكون موقف المجتمع ؟ المجتمع سيختان . ما معنى يختان ؟ يقول : أنا أستتر بالجريمة ما أمكن ، إذن لما الرسول ﷺ قال : « إنما هلك من كان قبلكم بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه : وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه

الحد » . فقد كان بصيرا بما يصنع التفسخ في المجتمع . . كذلك إذا كان الحاكم غافلا ، ليس له عين متيقظة فان المفسد يقول : ومن الذي سيريني للحاكم وأنا أفسد .

الحق سبحانه يقول : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ أترك هذه لأنها وازع ديني . . والمؤمنون يعني الجو المحيط بكم . . فان فسد هذا الجزء من الانسان يقول له : خذ المعين الذي في نفسك ، والذي هو ضميرك . . يقول الحق : (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من النادمين) . . يعني بعدما أرضى نفسه بقتل أخيه تنبه فيه شيء فندم ، ويقول القرآن كذلك : ﴿ **اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ . ويقول : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة** ﴾ . واحد يشفي نفسه بأن ينم على إنسان أو يشي به وشاية . . هو أرضى نفسه لكراهيته لذلك الانسان ، ولكن حين تقع على ذلك الانسان عقوبة بسبب تلك الوشاية ماذا يحدث له ؟ نفسه تؤنبه . هذه هي مدرسة الضمير .

لكن الضمان الذي فوق مدرسة الحاكم ومدرسة المجتمع ومدرسة الضمير هو الضمان الديني . . الذي يعتقد فيه الانسان أنه يرجو حسابا من إله خبير يعرف كل شيء . إذن قوله تعالى : ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابا** ﴾ علة لكفرهم ، وعلة لفسادهم ، وعلة لاستهزائهم ووقوفهم من محمد ﷺ موقف الصد وموقف العدوان وموقف الاضطهاد . كل هذا ناشيء من ماذا ؟ من أنهم (كانوا لا يرجون حسابا) .

والسبب الثاني الذي من أجله استحقوا العقوبة ولا يستحقون الرحمة الحمقاء التي يتشدق بها دعاة الإنسانية الكاذبة هو قوله تعالى : ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذابا** ﴾ . . وكلمة (كذابا) هذه جاءت في موضعها تشدد على الكذب . لم يقل : وكذبوا بآياتنا تكذيبا . أو كذبا . فلماذا قال : (كذابا) نحن نجد أن كلمة (كذابا) مصدر زمان مثل التكذيب . ويقولون بأن هذه لغة أهل اليمن . ولكن إذا قلت : كذب فلان فلانا . . أو تكذيب فلان لفلان لا يجعلك تلقى اللائمة على من كذب ، لأن من الجائز أن يكون صادقا في التكذيب واحد ذكر خبرا أمامك ، فأنت كذبته في هذا الخبر، أليس من الجائز أن يكون تكذيبك له صحيح ؟ لكن هنا قال : ﴿ **كذبوا بآياتنا كذابا** ﴾ يعني : هم غير صادقين في تكذيبهم بآياتنا . هم كاذبون .

أنا أريد شيئين : أنه أخبر أنهم كذبوا بآيات الله ، ثم حكم على تكذيبهم بأنهم

كاذبون فيه ، يبقى فيه حاجة في اللغة اسمها (احتباك) وهو أن يكون عندك جملتين ، كل جملة لها ركنين ، فتحذف من الجملة الأولى ركناً ، وتحذف من الثانية ركنا ، لكن الركن المحذوف في الثانية له دليل في الأولى ، والمحذوف في الأولى له دليل في الثانية ، مثل قوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم آية في فئتين التقتيا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة** ﴾ كان المقابل (فئة تقاتل في سبيل الشيطان ، هذا هو المقابل للفئة التي تقاتل في سبيل الله ، كان نص الآية : فئة تقاتل في سبيل الله وفئة تقاتل في سبيل الشيطان . . لكن القرآن مبني على الأسلوب العالي من البلاغة فحذف كلمة مؤمنةمن الأولى ، واستدل عليها بمقابلها في الثانية فقال : ﴿ **فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة** ﴾ تبقى كان في الأولى (مؤمنة) . أخذناها من أين ؟ من مقابلها في الآية (كافرة) . . ما دام بالعكس تبقى الثانية (تقاتل في سبيل الشيطان) . .

ونحن نعلم أن الكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع ، لأنه لما يتكلم الإنسان بأي نسبة من النسب الكلامية التي لم ينطق بها إلا بعد أن دارت في ذهنه وكانت نسبة ذهنية . وقبل التفكير فيها نسميها خبراً . وإن كان واقعها يأتي بعد الكلام نسميها إنشاء .

وقد نافقوا وأوهموا المسلمين أنهم مصدقون لله في رسالة محمد ﷺ . ولكن الحكيم الخبير كشف عن كذبهم بقوله تعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ قال : إنهم كاذبون مع أنهم قالوا : نشهد إنك لرسول الله . سماهم كاذبين مع أنهم قالوا : إنك رسول الله . فتكذيب الله لهم لا في أنه رسول الله . بل في قولهم (نشهد) لأنها ليست شهادة بل هي كلام من لسانهم لم يصادف إيماناً من قلوبهم حتى يكون شهادة . لأن الشهادة أن يقول اللسان قولاً مطابقاً لما في الضمير ، وهم غير مؤمنين بذلك . بل قالوها بألسنتهم .

وهناك سبب آخر استدعى عقاب هؤلاء الكافرين بأقسى العقوبات دون استدعاء رحمة لهم من أحد ذلك أنهم كانوا يسخرون من المؤمنين في الدنيا . يقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون** ﴾ . . قابل أجرموا بآمنوا ، لكي نعرف أن الجريمة العظمى والخيانة العظمى هي خيانة الكفر . . وهنا الأسلوب فيه لفتتان : أولاً كلمة (كانوا) تدل على أن إخبار الحق بهذه الصورة إخبار عن شيء مضى

وانتهى زمنه . ومعنى هذا أن هذا الأمر الذي وقع بكم أيها المؤمنون من استهزاء هؤلاء وضحكهم سيصير مدلولا عليه بكانوا . يعني أن هذه الحالة لن تستمر معكم ، وأن الكفار سيعودون إلى رشدهم الايماني ، ويعودون مؤمنين . هذا في الدنيا .

لكن لما قال لم يقل : ضحكوا . إنما قال : (من الذين آمنوا يضحكون) . يريد بذلك استحضار الصورة . . ومعنى استحضار الصورة : أن الفعل المهيج أو المقزز ساعة ما تحكي عنه أنه مضى فصورة وقوعه الايلامية تنتهي . لكن إذا أردت أن تصور بشاعتها فانك تستحضرها حالة وقوعها . فلو قال ضحكوا يمكن أن تكون الصورة انتهت . إنما قال يضحكون فأراد بذلك شيئين : أن يدل على أن هذه حالة لا تدوم ، وأنه يريد استحضارها لأنه خبر .

ونظير هذا من أفعال الكافرين التي استحقوا عليها العقوبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله إن كنتم صادقين** ﴾ . قال هذا مع أن القوم الذين جاء القرآن لخطابهم لم يباشروا قتل الأنبياء . لم يقل : فلم قتلتم . بل قال : فلم تقتلون ليستحضر الصورة البشعة التي كانت أيام كانوا يقتلون الأنبياء .

إذن فالأسلوب القرآني هنا حين يقول (كانوا . . يضحكون يعطينا شيئين ، ونحن نعرف أن الضحك انفعال من المفارقات . هذا الانفعال لايصنع لأنك لو سألت الناس ما هي ماهية الضحك ؟ فلن يستطيع أن يعبر عنها ما هي الأعضاء التي تجعل الإنسان يضحك ؟ لا يقدر أحد أن يعرفها . إذن نحن لا نعرف ما هو الضحك ولا ماهية تكوينه ولا ماهي الأعضاء التي تنفعل له ولا ماهي الحالة النفسية التي تجعلك تضحك .

ولذلك الحق سبحانه يقول : هذا من خصوصياتي (وأنه هو أضحك وأبكى) . وهذا دليل على أن العقل البشري لا يمكن أن يتسامى ويعرف كنه الضحك ، إنما يعرف متى يضحك ولا يقدر أن يتحكم في الضحك . . فهذه العملية الصادرة من الكافرين ليست اختيارية منهم . إنما هي ناتجة للانفعال النفسي الموجود عندهم . فكأن السخرية من المؤمنين أصبحت ملكة وطبيعة وجبلة بحيث لا نقول فيها : إنهم يتضاحكون بل هم يضحكون .

أطلق القرآن الضحك . ولكن تمام الإجرام الكفرى هو قوله : ﴿ **وإذا مروا بهم**

يتغامزون ﴾ فجاء عند مرور المؤمنين أتى بالتغامز . وهو عملية غمز العين ، لماذا ؟ لتشعر من معك ومن هم من صنفك أنك تهزأ . ولا تحب أن يعرف من تهمزه ذلك .

فالصورة أنهم كانوا إذا جلسوا مجالسهم الخاصة ولو لم يمر بهم المؤمنون يتخذون من المؤمنين مادة سمر ، وساعة ما يمرون بهم يغمزون ويقولون : هؤلاء الذين كنا نتسامر في سيرتهم . فجاء بصورة مشهدية وصورة غيبية ، الصورة الغيبية هي : كانوا يضحكون في مواجهتهم أو في غير مواجهتهم . كأنهم أصبحوا مادة للضحك وبعد ذلك إذا مروا بهم يتغامزون .

ومن تمام الصورة الكفرية أنهم (إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) . . فالضحك غريزة فيهم . . لأن الإنسان قد يريح نفسه قليلاً بأن يعمل شيئاً مخالفاً للآداب مع أي إنسان . وبعد ذلك يندم ويقول : ليتني لم أعملها . ولكن لوم النفس على ما فرط منها لا يوجد من الكفار . . بل إذا ذهبوا إلى أهلهم يقولون لأهلهم : لقد قابلنا المؤمنين اليوم وشبعنا منهم ضحكا وسخرية ويستديمون العملية . . أما الذي عنده بقية من كرم النفس فإنه يعود إليه بعض مافيه من كرم النفس ويقول : ليتني لم أعملها ولكنهم يعودون إلى أهلهم ناعمين مبسوطين لأنهم عملوا في المسلمين هذه العملية .

ومن تمام إجرام المجرمين أنهم كانوا يقولون عن المؤمنين إنهم ضالون : (وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) . . . من هو الضال ؟ مفهوم الأمر عندهم أنه ليس هناك شيء إلا هذه الدنيا . فالذي ينجح فيها ويفلح هو صاحب الفلاح والذين يشترون الغيب ولو كان يجيء فهم الضالون . . إذن هؤلاء المؤمنون هم الضالون بحكم مقاييسهم في الهداية والضلال لا في حقيقة الهداية والضلال .

وهم لذلك منكرون أن هذه دعوة فاهمون أنها كذب وافتراء . ولذلك فيوم القيامة يضحك المؤمنون من الكافرين (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) .

والقرآن لا يريد من المؤمن أن يستقبل الإيمان على أنه سيجازيه في هذه الدنيا . يريد أن يسقط الدنيا من حسابه ولذلك نجد في بيعة العقبة أن الأنصار قالوا : فماذا لنا لو فعلنا ذلك ؟ فقال لهم : لكم الجنة . لم يقل لهم : إنكم ستنصرون ويكون لكم كذا وكذا . لأنه في وقت التربية تربية الجنود على أساس المبدأ . ولا يريد أن يدخل الدنيا في حسابهم وإن أدخلها في حسابهم بعد في قوله تعالى : ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة**

تأخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدي الناس عنكم . . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ .

صحيح أنه تعالى لمح لهم بهذا ولكن ليس على أن هذا هو الجزاء لكي لا يدخل المؤمن الدنيا في منهجه ولا في حسابه أبداً .

وقد جاء التلميح بالجزاء الدنيوي في المدينة لأن العقيدة قد قويت ودخلوا في الدين على أن هذا الدين رافض للدنيا من حسابهم . ثم قال لهم أريد أن تنتصروا عليهم لا لأن هذا النصر جزاء لكم ولكن لأن هناك دينا أريد أن يطبق في الأرض وأنتم الموكلون بقيادة الناس تحت لوائه ، فان حصل نصر فلا تعتقدوا أن النصر جزاءكم على إيمانكم لأن ما يحدث لكم من الغلبة والفتح والنصر ليس ثمناً لأننا ربيناكم على أن هذه الدنيا مطروحة من حسابكم . . وإنما نصرناكم لتحملوا دين الله إلى كل الأرض ، ولتكونوا خير أمة أخرجت للناس .

فحين يتربى المؤمن على أن الدنيا ساقطة من حسابه يدخل المعركة الإيمانية وليس في باله إلا هذه الغاية . وما دام ليس في باله إلا هذه الغاية فلا يذل أبداً . . الناس استذلوا بشيئين اكراهة الموت وحب الدنيا . كل أنواع الذل أننا نكره الموت ونحب الدنيا ولذلك قيل : ما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت ساعة نكره الموت وتحب الدنيا يركبك خصمك ويستذلك .

جزاء المحبين للدنيا

نزلت سورة في القرآن تعطينا القيمة التي يعتد بها في ظاهر الحياة ، وهي قيمة المال . وتعطينا صورة صاحب المال وأنه إذا حاز المال اختلت موازينه في تقييم الناس ، وأصبح من لا مال له في نظره خسيسا ، ومن له مال في نظره عظيما . هذه النظرة يريد الحق سبحانه أن يلفتنا إليها لفتة تقوم من رأينا فيها . . فيقول سبحانه **﴿ ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده ﴾** .

والويل لفظ له مدلول لغوي ، وليس المدلول اللغوي مرادا ، وإنما المراد المدلول الاصطلاحي الذي يريده الله تعالى . . ولذلك قال بعضهم : الويل واد في جهنم في أقسى الوديان .

وإذا هدد الله صاحب المال المنحرف بالويل فهو تهديد واقعي وليس مجرد تخويف ، لأن الذي يطمع الإنسان في ألا يعبأ بالتهديد هو : أن الذي هدد لايضمن أنه سيظل باقيا إلى أن يحقق ما هدد به . أو أنه لايملك أن تظل له القوة على تنفيذ تهديده . أو أن الشخص الذي وقع عليه التهديد يمكن أن يكون أقوى ممن هدده مستقبلا . لكن إذا كان الذي هدد هو الله الباقي القادر على إنفاذ ما هدد به ، ولن يفلت العبد من يده ، فمعنى ذلك أن هذا وعيد من صنف آخر ، وعيد ممن لا يتسرب إلى نفسك أمل في أن تفلت منه . .

والهمزة : الذي يهمز الناس أي يعيبهم . . إما أن يعيب خلقتهم وإما أن يعيّب وضعهم الاجتماعي وإما أن يعيب تصرفاتهم ، واللمزة : الذي يأتي بالشيء الذي فيه لمز واللمز تارة يكون باللسان وتارة يكون باشارة العين ، وتارة يكون بتقليد الحركة . هو العياب الغماز الذي يسيء إلى الناس إما بعينه وإما بلسانه وإما بتقليد حركاتهم واحد يمشي مشية فيأتي هذا ويقلده ، أويخرج له لسانه ، أو يغمز له بحاجبه فهذا يسمى همزة لمزة .

ولكن ما الذي يجعله ينزل إلى هذا المستوى ويعيب الناس في أشخاصهم ؟ لأنه يفهم أنه صنف آخر من الناس وما الذي جعله يفهم أنه صنف آخر من الناس ؟ المال الذي عنده . إذن صدق الله في قوله : **﴿ ويل لكل همزة لمزه الذي جمع مالا وعدده ﴾** .

عدده يعني أحصاه وكل ساعة يطمئن نفسه عليه مثلما يفعل البخلاء يغلق على نفسه الباب ويأخذ في عد المال . . وبعض الناس يظن أن ماله يعطيه الخلود طويلا فيبعد عن واقع الحياة والخلود هنا يعني أنه يريد أن يحول المال من عرض زائل إلى صفة دائمة ، وهذا ميز موجود في الدنيا أبداً . . وهو لن يكون سخيا كريما لأن الذي يجعل الانسان سخيا كريما هو خوفه أن يحتاج في الدنيا فيجد من يعينه . . أما هذا فقد ظن أن ماله دائم ولهذا بقي معه الشح والبخل . .

وعقوبة هذا الصنف من الناس يوم القيامة تناسب البداية ويقول الله تعالى فيها (**كلا لينبذن في الحطمة ﴾** . . وكلمة النبذ معناها الاحتقار والمهانة . لأن هذا الشخص كان يهمز الناس ويلمزهم ويحتقرهم ويستخف بهم ، فكانت عقوبته من جنس ما

قدم . . وهو النبذ والطرد . . وليته كان طرداً من حضرة الله أو من نعيمه فقط ، بل إنه نبذ في منطقة من جهنم إسمها « الحطمة » ومعناها الشيء الذي يحطم بشدة وقوة . وهو مناسب لجمع المال . فما جمع يتحطم . وهذا هو مدلولها اللغوي (الحطمة) الشيء الذي يحطم بشدة . ولكن لها مدلول آخر اصطلاحي هو ما جاء به القرآن : ﴿ **نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة** ﴾ . . هي نار ، ولكنها ليست مثل نار الناس في الدنيا ، بل هي نار الله .

ونار الله تأخذ وصفاً مناسباً لجبروت الله تماما كما دعا رسول الله ﷺ على ابن أبي جهل وقال : « أكله كلب من كلاب الله » فأكله سبع . فكلب الله في الدنيا هو السبع . ونار الله في الآخرة ليس لأحد من خلق الله أن يحجزها . لأنها نار الله ، وليس في مقدور أحد أن يطفئها ولا أن يتصور شدتها .

هي نار (تطلع على الأفئدة) . يعني تظل تعمل فيه إلى أن تصل إلى قلبه . . فما كان موجوداً في القلب من حب المال واحتقار الناس يحترق بنار الله . وهي نار لا يمكن أن يفلت منها المعذب بها . . لأنها (مؤصدة) . . لا يفرون منها (في عمد ممددة) يعني هي عبارة عن أعمدة طويلة من النار . . غابة من أعمدة النار المركزة تحيط بصاحبها فلا يفلت أبداً .

وقد تعرض القرآن الكريم لخطأ الناس في فهم نعمة المال حتى لا يقعوا في هذه العقوبة القاسية . فقال تعالى : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه ربه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن** ﴾ وقد رد الله على الاثنين . فلا الذي أنعم الله عليه بنعمة المال دليل على الإكرام ولا الذي منع عنه المال دليل على الإهانة كلا النظرين خطأ . بل إن الحكم الصحيح يكون تبعا للمصرف . حين يكون واحد منكم عنده مال فالتصرف الجيد فيه هو : إكرام اليتيم ، والحض على طعام المسكين ﴿**كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين** ﴾ . . ثم بين سبب ذلك فقال :﴿ **وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما** ﴾ . . والتراث هو الميراث ، يأخذه الأقوياء أو الذكور ، ويمنعون الباقي . إذن فقد أصبح مصدر المال حراما ، فكيف يظن من أوتي مالا أنه إكرام ، لا ، إنما هو ابتلاء ، وكذلك من حرم المال فليس هذا الحرمان إهانة .

ومن تصرف في المال على غير ما أراد الله من إكرام اليتيم وطعام المسكين فانه سيعاقب بنفس المال الذي أحبه وهام به ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾. ﴿ **يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾. فيمكن أن يكون الحرمان رحمة وليس إهانة .

كثير من الأغنياء لم يوفقوا لا في استنباط أموالهم ولا في استغلال اموالهم ولا في مصرفها ، وحين نتأكد من ذلك نقول : إن المال ليس إكراماً لكم أيها الأغنياء ومنع المال عنكم ليس إهانة لكم أيها الفقراء . .وكلا الأمرين ابتلاء واختبار. فمن شكر نعمة الله باطعام المسكين وإكرام اليتيم فقد نجح في الامتحان، ومن صبر وشكر على الحرمان لأنه أعفى من الابتلاء بالمال فقد نجح في الامتحان .

وأيضاً يجب أن يحترم الإنسان قدر الله وعطاءه في خلقه وحين يعتدل المقياس في الحياة ، ذلك المقياس الذي أتعب الدنيا كلها حين يقارن إنسان بانسان فلا ينظر إليه إلا من زاوية المال ، هذا المقياس الخاطىء لا بد تعديله . لا تنظروا إلى الناس من حيث المال ، بل هناك نواحي الأخلاق ، ولكن الناس ليس عندهم إلا زاوية المال ومقياس المال ، وهذا هو محط الامتحان والابتلاء والعذاب .

الحائدون عن طريق الله

الإذلال والندم والتوبيخ وكل ما من شأنه أن يكشف عن ضلال الحائدين عن منهج الله هو نصيبهم من يوم القيامة . وقد صور الله تعالى هذا الإذلال في قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية . تسقى من عين آنية** ﴾ الآيات .

فهذه الوجوه المتكبرة التي أبت أن تخشع لله تعالى خشوعاً اختيارياً في الدنيا هي خاشعة يوم القيامة خشوعاً اضطرارياً . والخيبة تظهر هنا عليهم . . ها هي الوجوه عاملة ناصبة ، لم تأخذ شيئاً من نصبها وعملها في الدنيا ، بل عمل ونصب لنفسه ولجاهه ، ولأولاده ، ولمركزه ، كل هذا تعب في الحياة . . وبعد ذلك يجد عمله في الآخرة هباء لا نفع فيه أبداً . . ويا ليته لم يجد نفعاً فقط ، بأنه فقط لا يدخل الجنة ، بل يدخل النار أيضاً ، إذن هذا هو حمق الحركة في الحياة . ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً** ﴾ لماذا ؟

لأنهم عملوا في الدنيا ، ولم يكن في بالهم الله . . عملوا العمل في الدنيا بمنطق المادة ، هم والمادة فقط ، لم يكن الله في بالهم . وكل إنسان يعمل عملاً إنما يطلب أجره ممن عمل له ، فما دمت قد عملت في حياتك وأجهدت نفسك وتعبت وشقيت ، وليس في بالك اتجاه إلى الله بعملك ، فكيف تأتي يوم القيامة لتأخذ منه أجراً ؟ أنت فعلت ليقال فعل ، وقد قيل وانتهت المسألة . ولذلك قال تعالى : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون على شيء مما كسبوا** ﴾ . . ويصور أعمالهم أيضاً بقوله : ﴿ **كسراب بقيعه يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده** ﴾ .

انظر المفاجأة بكلمة ﴿ **ووجد الله عنده** ﴾ . ساعة ما يفاجأ بوجود الله عند عمله الذي هو كسراب بقيعه لم يكن الله في باله حين عمل العمل ، هنا الله وحده هو الذي يعطي الأجر ، فحين يفاجأ بالله الذي لم يكن في باله ولا في حسابه ساعة يعمل ، فكيف يطلب منه أجراً . بل يقول له : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ .

إذن هذه الوجوه لم تخشع اختياراً ، بل خشعت اضطراراً بل إنها عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية .

يريد الله أن يبين لنا حمق الحركة في الحياة . . حمق العمل . . حمق النصب والتعب . . وأنهم لم يفكروا كيف يعملون العمل المؤدي إلى غاية تعوض عليهم تعب العمل . . وأن الجزاء هو ﴿**تصلى ناراً حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع** ﴾ .

وصليان النار الحامية أول ما يوحي بحرارة الجوف . وهنا قد يظن الظمآن أن الماء يبرده .

ولكن الذي يشربه هذا المعذب ماء عين آنية . يعني شديدة الحرارة . كما قال تعالى : ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب** ﴾ .

أما طعامهم فهو ﴿ **الضريع** ﴾ . والضريع في لغة العرب التي نزل بها القرآن شجرة يقال لها (**الشبرق**) وبعضهم قال : إنه نبات فيه شوك . فإذا نضج وتم نضجه أصبح ساماً ، وهونبات ترعاه الإبل . فهذا النبات هو طعامهم . ومرة أخرى يقول : ﴿ **ليس لهم طعام إلا من غسلين**) . . ومرة أخرى يقول : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام**

الأثيم . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ .

إذن فمقامات العذاب مختلفة . واحد طعامه ضريع . وواحد طعامه غسلين . والغسلين هو الصديد . وواحد طعامه الزقوم . إذن هي مراتب في التعذيب ، ومراتب في الإيلام . وهذه المراتب الإيلامية يسبقها خشوع الوجوه وذلها .

الله يحكي حالتهم في الدنيا ، ويبين أن حركتهم كانت إلى بوار وهلاك ، وأن وجوههم ستكون خاشعة في الآخرة ، وستكون ناصبة ، سيسحبون في النار على وجوههم ، ويسيرون في وهاد جهنم وأوديتها ، فهي مشقات ومتاعب وأهوال فوق العذاب .

والله حينما يصور ألماً أو عذاباً بصورة التصوير الذي تأتي به اللغة للمخاطبين ، وليس معنى هذا أن هذا هو الحقيقة ، لماذا ؟ لأن ألفاظ اللغة إنما تأخذ معانيها من إدراكات المدرك ، والصور التي أمامه .

فمثلاً إذا قلنا لإنسان يعيش في البادية : قم فقد أعدلك الإفطار . كلمة الإفطار هذه لها مدلول في تلك البيئة ، وهذا المدلول يعطي لها صورة لا تختلف ، سيجيء له بقليل من اللبن وبعض التمر ، هذا هو مدلول الإفطار في هذه البيئة . . لكن إذا ذهبنا إلى الحضر ، فمدلول الإفطار يختلف عن البادية ، يأخذ معنى أوسع . فإذا قلنا للأمير قـم للأفطار أو للملك قم للافطار فالإفطار يختلف تماماً في كل بيئة من هذه البيئات .

والحق سبحانه حينما يعرض لنا عذاباً في الآخرة أو نعيماً في الآخرة لا يعرض لنا حقيقة العذاب ولا النعيم . ولكن يعرض لنا حقيقة العذاب في تصورنا وإمكانيات أداتنا اللغوي ، فإذا كانت لله ألفاظاً توضع لمعانٍ فيبقى معنى ذلك أن يوجد المعنى أولاً ثم يوضع له اللفظ ، وإذا كانت الآخرة غيباً بما فيها فالمعنى غير موجود .

إذن ليس تصوير هذا العذاب هو الحقيقة عند الله . بل هو في نظرنا نحن . هي أن هذه الصورة هي ما يجد فيها السامع أنها منتهى العذاب .

وفي مقام آخر يصور الحق عاقبة المكذبين والحائدين عن الصراط بقوله تعالى :

﴿ إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً لابثين فيها أحقاباً . لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا . إلا حميماً وغساقا . جزاءاً وفاقا ﴾ .

كلمة مآبا تدل على أن الأوبة أمر مقطوع به ، فكأنهم في رحلة ويعودون. أما

الأحقاب فقد وقف فيها العلماء . وقفوا في مقدار الحقبة من الزمن . قالوا ثمانين سنة . ومعنى أحقاباً : أزمنة متلاحقة متتابعة . من حقيبة الراكب التي يضعها خلفه فهي تابعة لرحلة . إذن لا بد أن نقول : إنهم يلبثون في جهنم زمناً محدوداً ، لأن (أحقاباً) لا تقال إلا لأزمنة متلاحقة . ولذلك يقول بعض الناس ما داموا لابثين فيها أحقاباً فنعطي الجمع أكثره . نقول له : لا .

أحقاب هذه معناها : عذاب مقيم . مثلما قال خالد بن الوليد فالمعنى أنها عقوبة متلاحقة مستديمة . يجيء زبانية جهنم بعد كل فترة من الفترات يخرجونهم من النار وينقلونهم ناحية الجنة فيكون عندهم أمل بالإفراج عنهم ، بعد ذلك يعودون ؟ وهذا أشد في النكاية ، كما يجيء إنسان أنت منعته من الماء ، ثم تؤمله وتجيء له بكوب من الماء وتعرضه عليه ليشرب ، فيمد يده ويقربها إلى فمه ، فتسقطها من يده على الأرض .

فكلمة أحقاب معناها أنهم يأخذونهم فترة فيأنسون أن الله سيغفر لهم ويعفو عنهم ، وبعد ذلك يعيدهم إلى جهنم . قال الشاعر العربي .

كما أبرقت قوى عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

وقال :

فأصبحتم الليل الغداة كقابض على الماء خانته فروج على الأصابع

وقوله تعالى ﴿ **إلا حميماً وغساقا** ﴾ هذا الاستثناء تعطي الأمل . . ولكن ما بعدها خيبة الأمل ولذلك قال الصحابة : هذه أشق آية في القرآن . فساعة ما يسمع (إلا) يظن أن الفرج قد جاء وبعد ذلك يقول له (حميماً وغساقا) . والحميم هو الماء المغلي المتناهي في الحرارة ، وهل هذا ما يسمى شراباً ؟ والغساق الصديد ، صديد أهل النار الذي ينزل من أجسامهم . وهل هذا شراب ؟

وهناك من خفت موازين أعماله الصالحة وثقلت موازين أعماله السيئة . وهذا يقول الله تعالى فيه ﴿ **وأما من خفت موازينه فأمه هاويه . . وما أدراك ما هية . نار حاميه** ﴾ .

أمه هي النار . لأن الله يقول وما أدراك ما هيه نار حاميه. وعظمة الأسلوب القرآني هنا أنه يصدر الأسلوب بالشيء المطمع ، ثم ينهيه بالتيئيس المفجع . وذلك النقل

عملية نفسية مرادة من الحق.. وفي القرآن كثير من هذا اللون. كقوله تعالى: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾.. فساعة تسمع فبشرهم فالمعنى ينصرف إلى المغفرة والعفو لأن البشارة تكون بالخير وحينئذ تستشرف نفوسهم على أن هناك منقذاً ومغيثاً، وأن هناك منجياً يفهم من (فبشرهم). فإذا استشرفت النفس إلى ذلك جاء الجواب ميئساً ومفجعاً فيقول ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ حين تنبسط النفس من قوله (يغاثوا) يعاجل اليأس بقوله ﴿ بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فأمه هاويه ﴾ فكلمة (أمه) أشعرت النفس بجهة العطف والحنان ثم جاء بعدها فقال. ﴿ فأمه هاويه ﴾.

ومعنى الآية أن النار تتهافت على المعذب بها كما تتهافت الأم على ابنها لتحضنه وتضمه، فكذلك شأن النار أم المعذبين بها، لأن الانسان المعذب لم يرع نعمة الله في تلك الأم أولاً بما أودع فيها من العطف والرقة والاستجابة إلى كل دوافعه.

وهذا النوع هو الذي يأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره وهذا يقول الله تعالى فيه ﴿ فسوف يدعو ثبورا. ويصلى سعيراً إنه كان في أهله مسروراً ﴾ والثبور. الهلاك ومعنى (يدعو ثبورا) يقول. يا هلاك تعالى إلي. طبعاً الشعراء لما صوروا هذا المعنى قالوا.

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

يعني لما واحد لا يرى شافياً مما هو فيه إلا الموت فمعنى هذا أن الذي هو فيه شر من الموت. والمعذب بالنار يقول. واثبوراه، واهلاكاه. يعني. هذا أو أنك يا موت فاحضر. من ماذا؟ من الهول الذي يراه.

وقد صور القرآن المواقف الحقيقية التي سببت له هذا الهوان والهول. وهو ظنه أنه لن يرجع إلى الله، وأنهم لن يتحولوا عن الحالة التي كانوا عليها من الضلال والطغيان والافساد في الأرض، ولمز المؤمنين وهمزهم والضحك منهم. والسرور بين أهليهم بذلك، وآمنوا بأن نعيم الدنيا مقيم لا يتحول.

والقرآن في عرضه للعذاب يوم القيامة يتجه إلى الاستفهام المتكرر كما في قوله تعالى: ﴿ كلا سيعلمون. ثم كلا سيعلمون ﴾. ويقول: ﴿ كلا سوف تعلمون. ثم

كلا سوف تعلمون ﴾ . والمفسرون هنا يقولون : إذا تكررت فهي للتوكيد . ونقول : التوكيد عادة يأتي بغير عطف فيكون هكذا(كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) . أنا لا أقول زيد ونفسه . بل أقول : زيد نفسه . لكن (ثم) هنا تدل على أن هناك شيئين اثنين .

ومراتب العلم ثلاثة . المرتبة الأولى علم اليقين . المرتبة الثانية : عين اليقين . المرتبة الثالثة : حق اليقين . ثلاث مراحل علم يقين ، عين يقين ، حق يقين . . فاذا قال لك إنسان . أنا ذهبت إلى نيويورك ورأيت بها عمارات تنطح السحاب ، وصدقته فهذا علم يقيني . فإذا جاءك مثلاً وركب معك الطائرة ومر على نيويورك فقال لك هذه نيويورك فقد أصبحت عين يقين . فاذا نزلت فيها وأقمت فيها أصبحت حق يقين فهذا ليس تكرار ، بل هو مراحل العلم التي يمر بها الانسان المعذب حتى ينزل في العذاب بالفعل .

والإنسان يحس بمصيره وهو في سكرات الموت . قال تعالى : **﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾** . يعني الذي كنت لا تراه في الدنيا أصبحت تراه في هذه الساعة .

يتضح له مثال عالم الملكوت الأشياء التي كان يكذب بها أو يشك فيها . ولذلك نجد كثيراً من المحتضرين يتكلمون بأشياء ونحن نقول . إنهم يحرفون . لا ، بل إنهم يتكلمون بما يشهدون يشهدن أشياء كانوا لا يرونها في الدنيا ، فاذا جاءت لهم هذه الحالة فقد علم أن ما حدث به من يوم القيامة ومن نعيمها وعذابها صحيح لا شك فيه .

هذا أول علم . وبعد ذلك حين يبعثون على حقيقتهم يعلمون علماً آخر تصديقاً لقوله تعالى : **﴿ كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ﴾** . أو نقول . إن المكذب يعارض مصدقاً واحداً ، فأصبح هناك فريقان . مؤمن ، ومصدق . كافر ومكذب ، ومؤمن مصدق . وسيعلمون موقعهم من يوم الفصل ويعلمون موقع الفريق المقابل في يوم الفصل .

وحين تحدث المقارنة بين الموقفين . موقف المؤمنين وموقف المكذبين تكون الحسرة . يعني الذي يعذب في يوم الفصل كان يكفيه من آلامه أن يعذب . أما أن يرى الفريق الآخر ينعم فذلك تعذيب نفسي آخر . والذي كان مؤمناً يرى نفسه منعماً والآخر معذباً فيكون هذا نعيماً آخر .

إذن فالتنعيم والتعذيب يأخذ لونين ، اللون الأول أن يصيبه الألم ويرى الفريق الآخر المقابل له في نعيم . والثاني يرى العذاب ويرى غيره في النعيم . وفي هذا تتأكد الحسرة .

أعاذنا الله وإياكم من عذابه ، ووفقنا إلى ما فيه رضاه وثوابه ، إنه سميع قريب مجيب .

الفهرست

* الله والنفس البشرية ٥
* المرأة المسلمة والطريق إلى الله ٩٩
* أهوال القيامة ١٤٧
* عذاب النار ١٦٩